

THE BOOK WAS DRENCHED

TIGHT BINDING BOOK

**PAGES MISSING
WITHIN THE
BOOK ONLY**

QUP-73i-28-4-8i-10,000.

OSMANIA UNIVERSITY LIBRARY

Call No. *A99542*
C-1

Accession No. *A. 134*

Author

Title

This book should be returned on or before the date last marked below

2

جَمْعُ خَطِّ الْعَرَبِ

فِي عِصْوَ الْعَرَبِيَّةِ الزَّاهِرَةِ

الْجُزْءُ الثَّانِي

العصر الأموي

تأليف

أحمد زكي صفوت

أستاذ اللغة العربية بدار العلوم

الطبعة الأولى

١٣٥٢ هـ / ١٩٣٣ م / رقم ٤٩٤

كل الحقوق محفوظة

إشرافه : محمد أمين عمران

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي هدانا لهذا
الذي كنا لنهتدي لولا أن
هدانا الله العزيز الحكيم

تقدير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أبدأ بحمدك اللهم على ما أوليتني من جزيل تفضلتك ، ومزيد تطولك ، وأصلى
 وأسلم على رسولك الأمين ، سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم .
 وبعد : فهاهو ذا « الجزء الثانى - من جمهرة خطب العرب » أصدره حاوياً
 ما وصل إلينا من خطب العصر الأموى ووصاياه ، وما دار بمجالس الخلفاء
 والأمراء والرؤساء من حوار ومجاوبة ، وهو كما ستراه أحفل أجزاء الكتاب
 الثلاثة ، وأغزرها مادة ، لتوافر دواعى الخطابة فى هذا العصر ، وتفاق سوتها .
 وقد نهجت فيه نهجى فى سالفه ، من التوفيق بين الروايات ، وتحرير
 الألفاظ وضبطها وشرحها ، والتعليق عليها بما يبيط اللثام عن خفايا مراميها ،
 وغوامض منازيها ، فجاء بحمده تعالى وافياً مرضياً ، والله نسأل أن يكلاًنا
 برعايته ، وأن يمنّ علينا بالتوفيق للعمل الصالح ، إنه خير مرتبجى ، فنعم المولى
 ونعم النصير

أحمد زكى صفوت

رجب سنة ١٣٥٢
 نوفمبر سنة ١٩٣٣ حرر بالقاهرة فى

فهرس مآخذ الخطب في هذا الجزء

- الأمالى : لأبى على القالى : الجزء الأول - الثانى - ذيل الأمالى
 الأغانى : لأبى الفرج الأصبهانى : « الثانى - السابع - الثالث عشر -
 : الخامس عشر - السابع عشر - الثامن
 : عشر - العشرون - الحادى والعشرون
 صبح الأعشى : لأبى العباس القلقشندى : الجزء الأول - التاسع
 نهاية الأرب : لشهاب الدين التويرى : « الخامس - السابع
 عيون الأخبار : لابن قتيبة الدينورى : المجلد الثانى
 الكامل : لأبى العباس المبرد : الجزء الأول - الثانى
 العقد الفريد : لابن عبد ربه : « الأول - الثانى - الثالث
 زهر الآداب : لأبى إسحق الحضرى : « الأول - الثانى - الثالث
 البيان والتبيين : للجاحظ : « الأول - الثانى - الثالث
 نهج البلاغة : للشريف الرضى : « الأول
 شرح نهج البلاغة : لابن أبى الحديد : المجلد الأول - الثانى - الثالث - الرابع
 أمالى السيد المرتضى : الجزء الأول
 جهرة الأمثال ، لأبى هلال العسكري : « الأول
 مجمع الأمثال : لأبى الفضل الميدانى : « الأول - الثانى
 تاريخ الأمم والملوك : لابن جرير الطبرى : « السادس - السابع - الثامن - التاسع
 تاريخ الكامل : لابن الأثير : « الثالث - الرابع
 مروج الذهب : للمسعودى : الجزء الثانى

الإمامة والسياسة : لابن قتيبة : الجزء الأول - الثاني

معجم البلدان : لياقوت الحموي : » الثالث

أُسْدُ الْغَابَةِ فِي مَعْرِفَةِ الصَّحَابَةِ : لابن الأثير : » الثالث

النجوم الزاهرة ، في ملوك مصر والقاهرة : » الأول

لابن تفرى بردى :

وفيات الأعيان : لابن خلكان : » الأول - الثاني

معاهد التنصيص : لعبد الرحيم العباسي : » الأول -

نفع الطيب ، للمقرئ : » الأول

بلوغ الأرب : للسيد محمود شكرى الألوسى : » الثالث

مواسم الأدب : للسيد جعفر بن السيد : » الثاني

محمد البيهقي العلوى

سيرة عمر بن عبد العزيز : لأبى الفرج بن الجوزى .

» » » » : لابن عبد الحكم

شرح العيون : شرح رسالة ابن زيدون : لابن نباتة المصرى

أنباء نجباء الأنباء : لابن ظفر المنكى

الحسن البصرى : لابن الجوزى

الفخرى : لابن طباطبا

بلاغات النساء : لابن أبى طاهر طيفور

دستور معالم الحكم : للقضاعى

إعجاز القرآن : لأبى بكر الباقلانى

المنية والأمل : لأحمد بن يحيى المرتضى

مفتاح الأفكار : للشيخ أحمد مفتاح

جدول الخطأ والصواب

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
١٠	٨	بَرَّ	بَرَّ
٤٧	٢٠	البراءة من عليّ له	البراءة من عليّ واللمن له
٩٣	٥	لا يفِلُّ	لا يفِلُّ
١١٥	٤	القارة	القارة
١٢٢	٢	آخى	أخى
١٢٤	١١	مثلكم	مثلكم
١٤١	١١	شهرت	شهرت
١٤٢	١٥	يرثى	يرثى
١٥٥	٢٠	رفق	رفق
١٦٢	١	وصلى نبيه	وصلى على نبيه
٢٠٨	١٠	ياحياء	ياحياء
٢١٩	٩	وولى	وولى
٢٥٤	٢٠	جماعة	جماعة
٢٦٤	١١	زياداً	زياد
٢٦٤	١٤	مَعَرَّتَنَا	مَعَرَّتَنَا
٢٦٩	١٣	يها	يها
٢٦٩	٢٤	يين يين	يين
٢٧٠	٣	خاتم	خاتم

الصواب	الخطأ	سطر	صفحة
باللرجال	باللرجال	١١	٢٧١
محمد أخيه	محمد وأخيه	١٧	٢٨٥
فُضُول	فُضُول	١٥	٣٠٣
تُجَمَّرُوا	تُجَمَّرُوا	١٢	٣١١
القرية	القرية	١	٣٢٩
يد	يدك	٥	٣٥٥
الحروب	الحروب	٧	٣٦٠
عرّضتاني	عرّضتاني	٧	٣٦٥
يالرجال	يالرجال	٥	٣٦٧
توبة	توبة	١٧	٣٩٢
حجرها	حجرها	١	٣٩٧
أمية	أمية	٤	٤١٢
أمية	أمية	٩	٤١٥
غلاماً	غلاماً	٨	٤١٦
أمية	أمية	١٦	٤١٦
جهة	جهة	١٥	٤٢٤
لا يرون	لا يرون	١٣	٤٤٥
الروية	الروية	١٤	٤٤٨

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٤٦٢	٣	فِي ظُلْمِهَا	فِي ظُلْمِهَا
٤٦٧	٧	حَسَنَاتِهِمْ	حَسَنَاتِهِمْ
٤٧٧	٨	بِشكَايَتِهِ	بِشكَايَتِهِ
٤٨٨	٩	شَاعَتْ	شَاعَتْ



الباب الثالث

الخطبة الوصائية

في

العصر الأموي

خطب بنى هاشم وشيعتهم وما يتصل بها

١ خطبة الحسن بن عليّ بعد وفاة أبيه ^(١)

خطب الحسن بن عليّ رضي الله عنهما بعد وفاة أبيه فتعاه فقال :

« لقد قتلتم الائمة رجلا في ليلة فيها نزل القرآن ، وفيها رفع عيسى بن مريم عليه السلام ، وفيها قتل يوشع بن نون ، فتي موسى عليهما السلام ، والله ما سبقه احدٌ كان قبله ، ولا يذركه أحد يكون بعده ، والله إن كان رسول الله صلى الله

[١] في الكنازل لابن الأثير (٣ : ١٩٧) أن الحسن بن عليّ توفي سنة ٤٩ هـ وفي ابن أبي الحديد (٤ : ٤٠) أنه توفي سنة ٥٠ وفي الإمامة والسياسة (١ : ١٢٧) أنه توفي سنة ٥١ .

عليه وسلم ليعتقه في السَّريَّة^(١) ، وجبريلُ عن يمينه ، وميكائيلُ عن يساره ، والله ! ما ترك صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم من عطائه ، أراد أن يتناع بها خادماً لأهله ، ثم خفقت المبرة فبكى ، وبكى الناس معه ، ثم قال :

« أيها الناس : من عرفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن محمد رسول الله صلى الله عليه وآله ، أنا ابن البشير ، أنا ابن النذير ، أنا ابن الداعي إلى الله بإذنه والسراج المنير ، أنا من أهل البيت ، الذين أذهب الله عنهم الرجس^(٢) وطهرهم تطهيراً ، والذين افترض الله مودتهم في كتابه إذ يقول : « وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا » ، فاقترافُ الحسنة مودتنا أهل البيت . »

فلما انتهى إلى هذا الموضع من الخطبة ، قام عبيد الله بن العباس بين يديه ، فدعا الناس إلى بيعته ، فاستجابوا وقالوا ما أحبه إلينا وأحقه بالخلافة ! فبايعوه ثم نزل من المنبر .

(تلويح الطبري ٦ : ٩١ ، وشرح ابن أبي الحديد ٤ ص ١١ ، والمقد الفريد ٢ : ٦)

تعبثته الجيوش لقتال معاوية

سار معاوية بجيوشه قاصداً إلى العراق ، وبلغ الحسن خبره ، ومسيره نحوه ، فأمر بالتهيؤ للمسير ، ونادى المنادى : الصلاة جامعة ، فأقبل الناس يشوبون ويجمعون ، فخرج الحسن ، وصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

٢ — خطبة الحسن بن علي في الحث على الجهاد

أما بعد : فإن الله كتب الجهاد على خلقه ، وسماه كُرمها^(٣) ، ثم قال لأهل

[١] السرية من خمسة أناس إلى ثمانمائة أو أربعمائة . [٢] الرجس : الفخر واللائم ، وكل ما استغفر من الصل ، والعمل المؤدى إلى العقاب .

[٣] يشير إلى قوله تعالى « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ »

المجاهد من المؤمنين : « أَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » فليستم أيها الناس ثائمين ما تحبون إلا بالصبر على ما تكرهون ، بلغنى أن معاوية بلغه أنا كنا أزمعنا على المسير إليه ، فتحرك لذلك ، أخرجوا رحمكم الله إلى معسكركم بالثخيلة ، حتى ننظر وتظنروا ، ونرى وترّوا » - وإنه في كلامه ليتخوف خذلان الناس له - فسكتوا ، فما تكلم منهم أحد ، ولا أجابه بحرف ، فلما رأى ذلك عدى بن حاتم ، قام فقال :

٣ - مقال عدى بن حاتم

« أنا ابن حاتم ، سبحان الله ! ما أقبح هذا المقام ! لا تُجيبون إمامكم ، وابن بنت نبيكم ! أين خطباء مُضَرَّ الذين أَلَسْتَهُمْ كَالْمَخَارِيقِ فِي الدَّعَةِ ^(١) . فإذا جَدَّ الْجِدُّ فَرَوَا غَوْنَ كَالثَّعَالِبِ ، أما تخافون مقت الله ! ولا عِيَهَا وعارها ^(٢) ! » . ثم استقبل الحسن بوجهه فقال : « أصاب الله بك المرأشد ، وجَنَّبَكَ المكاره ، ووقَّكَ لما تحمد وروده وصدوره ، قد سَمِعْنَا مَقَالَاتِكَ ، وَاثْبَيْنَا إِلَى أَمْرِكَ ، وسمعنا لك ، وأطعناك فيما قلت وما رأيت ، وهذا وجهي إلى معسكرى : فمن أحب أن يُوافيتني فليواف » ثم مضى لوجهه ، إلى الثخيلة .

وقام ثلاثة آخرون من أصحاب الحسن ، فأتبوا الناس ولا موم وحرصوهم . وكلوا الحسن بمثل كلام عدى بن حاتم ، فقال لهم : صدقتم رحمكم الله ، ما زلت أعرفكم بصدق النية والوفاء والقبول والمودة الصحيحة ، فجزاكم الله خيراً ، ثم نزل ، وخرج الناس فمعسكروا ونشيطوا للخروج ، وصار الحسن في عسكر عظيم ، وعدة حسنة .

(شرح ابن أبي الحديد ٤ : ص ١٤)

[١] جمع مخراق بالكسر : السيف (وهو أيضاً للتدليل ينافى ليضرب به) وفي الدعاء : أى و وقت الدعاء : أى المحض والسلام . [٢] أى عار فلتكم هذه : وهم تخلصهم عن إية الحسن إلى مادعاهم إليه ، وفي الأصل : « وعاريتها » وأراه محرّفاً إذ العارة من العارية ولا معنى لها هنا .

٤ — خطبة الحسن وقد جنح إلى مصالحة معاوية

ثم نزل الحسن ساباط^(١) ، فلما أصبح نادى في الناس : الصلاة جامعة ، فاجتمعوا ، فصعد المنبر ، فخطبهم فقال :

« الحمد لله كلما حمده حامد ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، كلما شهد له شاهد ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، أرسله بالحق ، وأتته على الوحي ، صلى الله عليه وآله ، أما بعد ، فوالله إنى لأرجو أن أكون قد أصبحت بحمد الله ومنه ، وأنا أنصح خلقه لخالقه ، وما أصبحت محتلاً على مسلم ضغينةً ، ولا مريداً له بسوء ولا غائلة^(٢) ، ألا وإن ما تكرهون في الجماعة خير لكم مما تحبون في الفرقة . ألا وإني ناظر لكم خيراً من نظركم لأنفسكم ، فلا تخافوا أمرى ، ولا تردوا على رأيى ، غفر الله لى ولكم ، وأرشدنى وإياكم لما فيه محبته ورضاه إن شاء الله » ثم نزل . فنظر الناس بعضهم إلى بعض ، وقالوا ما ترونه يريد بما قال ؟ قالوا نظنه يريد أن يصلح معاوية ويكل الأمر إليه ، كفر والله الرجل ، ثم شدوا على فسطاطه فانتهبوه ، حتى أخذوا مصلاه من تحته ، وشد عليه بعضهم ، فترع مخرجه^(٣) عن عاتقه ، فبقى جالساً متقلداً سيفاً بغير رداء ، فدعا بفرسه فركبه ، وأحرق به طوائف من خاعته وشيعته ، ومنعوا منه من أراد ، ولأموه وضيقوه لما تكلم .

فلما مرّ في مُظْلَمٍ^(٤) ساباط ، قام إليه رجل من بنى أسد يقال له جراح بن سنان ، ويده مِعْوَلٌ^(٥) ، فأخذ بلبجام فرسه وقال : الله أكبر يا حسن ! أشرك أبوك ،

[١] ساباط كسرى بالذائى . [٢] اللاتة : الدر والفساد والباهية . [٣] رداء : من خز مريم ذو أعلام . [٤] مظلم مضاف إلى ساباط الذى قرب للذائى : موضع هناك . [٥] المِعْوَل : الفأس العظيمة التى ينقر بها الصخر ،

ثم أشركت أنت ! وطعنه بالمعول ، فوقعت في فخذة فشقتُهُ ، حتى بلغت أُرَيْيَتَهُ^(١) ،
وسقط الحسن إلى الأرض بعد أن ضرب الذي طعنه بسيف كان بيده واعتنقه
نفرا جميعاً إلى الأرض . (شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ص ١٤)

٥ — خطبته يبرر مصالحته لمعاوية

لما رأى الحسن رضى الله عنه تفرق الأمر عنه ، بعث إلى معاوية يطلب
الصلح ، فبعث معاوية إليه رسولين ، قدما عليه بالمدائن ، فأعطياه ما أراد ،
وصالحاه على أن يأخذ من بيت مال الكوفة خمسة آلاف ألف - في أشياء
اشتروها - ثم قام الحسن في أهل العراق فقال :

« يا أهل العراق ، إنه مَخْنَى بنفسى عنكم ثلاثٌ : قَتَلَكُمُ أبى ، وطَعَنَكُم
إيائى ، واتها بكم متاعى » . (تاريخ الطبرى ٦ : ٩٢ ، ومروج الذهب ٢ : ٥٣)

٦ — خطبته في الصلح بينه وبين معاوية

وقدم معاوية الكوفة لإنفاذ الصلح بينه وبين الحسن (سنة ٤١ هـ) ،
وكان عمرو بن العاص حين اجتمعوا بالكوفة ، قد كلم معاوية ، وأمره أن يأمر
الحسن أن يقوم ويخطب الناس ، فكره ذلك معاوية ، وقال ما تريد إلى أن
أخطب الناس ؟ فقال عمرو : لكنى أريد أن يبدو عِيَهُ للناس^(٢) ، فلم يزل عمرو
بمعاوية حتى أطاعه ، فخرج معاوية فخطب الناس ، ثم نادى الحسن ، فقال :
يا حسن فكلم الناس ، فتشهد في يديه أمر لم يرو فيه ، ثم قال :

[١] الأريسة : أصل الفخذ . [٢] روى أبو الفرج الإسماعيل أنه كان في لسان الحسن تعل
أُتِ (شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ص ١١) .

« أما بعد أيها الناس : فإن الله قد هدى أولكم بأواننا ، وَحَقَّقَ دماءكم بآخِرنا ، وكانت لي في رقابكم بيعةٌ ، تحاربون من حاربتُ ، وتسالمون من سالمْتُ ، وقد سالمْتُ معاويةَ وبايعته فبايعوه ، وإن لهذا الأمر مدة ، والدنيا دُول ، وإن الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم « وَإِنْ أَدْرَى لَعَلَّهُ فِتْنَةُ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ » وأشار إلى معاوية ، فلما قالها قُل معاوية اجلس ، فلم يزل ضَرِمًا ^(١) على عمرو ، وقال هذا من رأيك » ولحق الحسن بالمدينة .

(تاريخ الطبري ٦ : ٩٣ ، ومروج الذهب ٢ : ٥٢ ، والامامة والبيعة ١ : ١٢٠ ، وأنباء نجباء الأبناء ص ٥٦)

٧ - خطبة له بعد الصلح

روى المدائني قال : سأل معاوية الحسن بن علي رضي الله عنه بعد الصلح أن يخطب الناس ، فامتنع ، فناشده أن يفعل ، فوضع له كرسي فجلس عليه ، ثم قال : « الحمد لله الذي توحد في ملكه ، وتفرَّد في ربوبيته ، يُؤْتِي الملك من يشاء ، وينزعُه ممن يشاء : والحمد لله أكرم بنا مؤمنكم ، وأخرج من الشرك أولكم ، وَحَقَّقَ دماءَ آخركم ، فبلاؤنا عندكم قديماً وحديثاً أحسن البلاء ^(٢) ، إن شكرتم أو كفرتم . أيها الناس : إن رَبَّ عَلَيَّ كَأَن أَعْلَم بعلِي حين قبضه إليه ، ولقد اختصه بفضل لم تعتمدوا مثله ، ولم تجدوا مثل سابقته ، فهيئات هيهات ، طالما قلبتم له الأمور حتى أعلاه الله عليكم ، وهو صاحبكم وعدوكم في بدر وأخواتها ، جَرَّعَكُمْ رَنَقًا ^(٣) ، وَسَقَاكُمْ عَلَقًا ^(٤) ، وأذلَّ رقابكم ، وأشرفكم بِرَيْقِكُمْ ، فلستم بعلومين

[١] ضرم عليه كفرح اختم غضبا فهو ضرم . [٢] البلاء يكون منحة ويكون محنة ، وهو هنا بالمعنى الأول . [٣] ماء رقيق وكثف وجبل كدر . [٤] العلق : الدم ودوية في الماء تسمى الدم .

على بنفضه ، وإيم الله لا ترى أمة محمد خفصاً ما كانت سادتهم وقادتهم بنى أمية ،
ولقد وجه الله إليكم فتنة أن تصدروا عنها حتى تهلكوا ، لطاعتكم طواغيتكم ^(١) ،
وانضوائكم ^(٢) إلى شياطينكم ، فعند الله أختسب ما مضى ، وما ينتظر من سوء
دعكم ، وحيف ^(٣) حكمكم ، ثم قال :

« يا أهل الكوفة لقد فارقم بالأمس سهم من رأى الله ، صائب على أعداء
الله ، نكال على بخار قریش ، لم يزل أخذاً بجناجرها ، جائعاً على أنفاسها ، ليس
بالمومة في أمر الله ، ولا بالسروقة لمال الله ، ولا بالفرقة ^(٤) في حرب أعداء
الله : أعطى الكتاب خواتمه وعزائمه ، دعاه فأجابته ، وقاده فاتبعه ، لا تأخذه في
الله لومة لائم ، فصلوات الله عليه ورحمته » ثم نزل .

فقال معاوية : أخطأ عجل أو كاد ، وأصاب متبب أو كاد ، ماذا أردت

من خطبة الحسن ؟ (شرح ابن أبي الحديد ٤ : ص ١٠)

٨ — خطبة لمعاوية في أهل الكوفة

وروى المدائني قال : خرج على معاوية قوم من الخوارج بعد دخوله
الكوفة وصلى الحسن رضى الله عنه ، فأرسل معاوية إلى الحسن يسأله أن
يخرج ، فيقاتل الخوارج ، فقال الحسن : سبحان الله ! تركت قتالك - وهو
لى حلال - لصالح الأمة وألفتهم ، أقتلني أقاتل معك ؟ فخطب معاوية أهل
الكوفة فقال :

[١] الطواغيت جمع طاغوت : وهو الشيطان وكل رأس ضلال . [٢] انضائكم .

الحيف : الظلم : [٤] الفروق والفرقة : شديد النزاع .

« يا أهل الكوفة ، أتراني ، قاتلتكم على الصلاة والزكاة والحج ، وقد علمت أنكم تصلون وتزكون وتحجّون ، ولكنني قاتلتكم لا تأتمر عليكم وعلى رقابكم ، وقد آتاني الله ذلك وأنتم كارهون ، ألا إن كل مال أودم أصيب في هذه الفتنة فطلول ، وكل شرط شرّطته فتحت قديمي هاتين ، ولا يُصلح الناس إلا ثلاث : إخراج العطاء عند محله ، وإقبال ^(١) الجنود لوقتها ، وغزو العدو في داره ، فإنه إن لم تغزؤم غزؤكم » ثم نزل . (شرح ابن أبي الحديد م ٤ ص ٦)

٩ — ردّ الحسن بن عليّ على معاوية حين نال منه ومن أبيه
وخطب معاوية بالكوفة حين دخلها ، والحسن والحسين رضي الله عنهما
جالسان تحت المنبر ، فذكر عليّاً عليه السلام : فقال منه ثم نال من الحسن ،
فقام الحسين ليرد عليه ، فأخذ الحسن يده فأجلسه ، ثم قام فقال :
« أيها النذير عليّاً : أنا الحسن ، وأبي عليّ ، وأنت معاوية ، وأبوك صخر ،
وأُمّي فاطمة ، وأُمك هند ، وجدّي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجدك عُتْبَةُ
ابن ربيعة ، وجدتي خديجة ، وجدتك قُتَيْلَةُ ، قلن الله أخلتنا ذكراً ، والأُمنا
حَسَباً ، وشرنا قديماً وحديثاً ، وأقدمنا كفراً ونفاقاً »
فقال طوائف من أهل المسجد آمين . (شرح ابن أبي الحديد م ٤ ص ١٦)

١٠ — خطبة سليمان بن صرد في استنكار الصلح
وذكروا أنه لما تمت البيعة لمعاوية بالعراق ، وانصرف راجعاً إلى الشام ،
أتى سليمان بن صُرد . وكان غائباً عن الكوفة ، وكان سيد أهل العراق ورأسهم -

فدخل على الحسن فقال : السلام عليك يا مُؤدِّلَ المؤمنين ، فقال وعليك السلام ، اجلس لله أبوك ، اجلس سليمان ، ثم قال :

« أما بعد : فَإِنْ تَعَجَّبْنَا لَا يَنْقُضِي مِنْ بَيْعَتِكَ مَعَاوِيَةَ ، وَمَعَكَ مِائَةُ أَلْفٍ مُقَاتِلٍ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ ، وَكُلُّهُمْ يَأْخُذُ الْعَطَاءَ ، مَعَ مِثْلِهِمْ مِنْ أَبْنَائِهِمْ وَمَوَالِيهِمْ ، سِوَى شِيعَتِكَ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ وَأَهْلِ الْحِجَازِ ، ثُمَّ لَمْ تَأْخُذْ نَفْسَكَ بِقِيَّةٍ فِي الْعَهْدِ ، وَلَا حِطًّا مِنَ الْقَضِيَّةِ ، فَلَوْ كُنْتَ إِذْ فَعَلْتَ مَا فَعَلْتَ ، وَأَعْطَاكَ مَا أَعْطَاكَ يَدُكَ وَبَيْعَتُهُ مِنَ الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ ، كُنْتَ كَتَبْتَ عَلَيْكَ بِذَلِكَ كِتَابًا ، وَأَشْهَدْتَ عَلَيْهِ شَهَادَةً مِنْ أَهْلِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ : أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ لَكَ مِنْ بَعْدِهِ ، كَانَ الْأَمْرُ عَلَيْنَا أَيْسَرَ ، وَلَكِنَّهُ أَعْطَاكَ هَذَا ، فَضَيَّعْتَ بِهِ مِنْ قَوْلِهِ ، ثُمَّ قَالَ : وَزَعَمَ عَلَى رِءُوسِ النَّاسِ مَا قَدْ صُمِّمَتْ : إِنِّي كُنْتُ شَرَطْتُ لِقَوْمٍ شُرُوطًا . وَوَعَدْتُهُمْ عِدَاتٍ ، وَمِنْ بَيْعَتِهِمْ أَمَانِي ، إِرَادَةَ إِطْفَاءِ نَارِ الْحَرْبِ ، وَمُدَارَاةَ لِهَذِهِ الْفِتْنَةِ ، إِذْ جَمَعَ اللَّهُ لَنَا كَلِمَتَنَا وَالْفِتْنَةَ ، فَإِنْ كُلُّ مَا هُنَاكَ تَحْتَ قَدَمَيْ هَاتَيْنِ . وَوَاللَّهِ مَا عَنَى بِذَلِكَ إِلَّا تَقْضَى مَا يَدُوكَ وَبَيْعَتُهُ ، فَأَعَدَّ الْحَرْبَ جَذْعَةً ^(١) ، وَأَذِنَ لِي أَشْخَصَ إِلَى الْكُوفَةِ ، فَأَخْرَجَ عَامِلَهُ مِنْهَا ، وَأَنْظَرَهَا فِيهَا خَلْعَهُ ، وَأَنْبَذَ إِلَيْهِ ^(٢) عَلَى سَوَاءٍ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ » .

ثم سكت ، فتكلم كلٌّ من حضر مجلسه بمثل مقالته ، وكلهم يقول : ابعت سليمان ابن سرد وابعتنا معه ، ثم الحقنا إذا علمت أننا قد أشخصنا عامله ، وأظهرنا خلعَه .
(الإمامة والسياسة ١ : ١٢٠)

[١] هي في الأصل خدعة ، وصوابها جذعة : أى فتية . [٢] معناه إذا هادنت قوما ، فملت منهم انقضض للعهد ، فلا توقع بهم سابقا إلى النقض ، حتى قبلهم أنك قضض العهد ، فتكونوا في علم النقض مستوين ، ثم أوقع بهم .

١١ - خطبة الحسن يرد على مستنكرى الصلح

فتكلم الحسن فحمد الله ثم قال :

« أما بعد فإنكم شيعتنا وأهل مودتنا ، ومن نعرفه بالنصيحة والاستقامة لنا ، وقد فهمت ما ذكرتم ، ولو كنت بالحزم في أمر الدنيا ، وللدنيا أعمل وأنصب ، ما كان معاوية بأبأس مني وأشدّ شكيمة ، ولكان رأيي غير ما رأيتم ، لكنني أشهد الله وإياكم أنني لم أريد بما رأيتم إلا حقن دماءكم ، وإصلاح ذات بينكم ، فاتقوا الله ، وارضوا بقضاء الله ، وسلموا لأمر الله ، والزموا بيوتكم ، وكفوا أيديكم ، حتى يستريح برّ ، أو يستراح من فاجر ، مع أن أبى كان يحذني أن معاوية سيلى الأمر ، فوالله لو سرنّا إليه بالجمال والشجر ما شككت أنه سيظهر ^(١) ، إن الله لا معقب لحكمه ، ولا رادّ لقضائه ، وأما قولك يا مذلّ المؤمنين ، فوالله لأنّ تدلّوا وتعافوا أحبّ إلى من أن تعزّوا وتقتلوا ، فإن ردّ الله علينا حقنا في عافية ، قبلنا وسألنا الله العون على أمره ، وإن صرفه عنا رضينا وسألنا الله أن يبارك في صرفه عنا ، فليكن كل رجل منكم حلّسا ^(٢) من أحلاس بيته ، مادام معاوية حيا ، فإن يهلك ، ونحن وأنتم أحياء ، سألنا الله العزيمة على رشدنا ، والمعونة على أمرنا ، وأن لا يكلنا إلى أنفسنا : فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون »

(الإمامة والسياسة ١ : ١٢٠)

١٢ - خطبة له في عهد خلافته

ومن خطبه رضى الله عنه في أيامه في بعض مقاماته أنه قال :

[١] يظن . [٢] المجلس بساط البيت ، وفلان جلس من أحلاس البيت : لذى لا يبرح البيت ، وفي الحديث : « في الفتنة كن حلّسا من أحلاس بيتك حتى تأتيك يد خاطئة ، أو منية فاضية » أى لا تهرح

« نحن حزب الله المفلحون ، وَعِترُهُ »^(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم الأقربون ،
 أهل بيته الطاهرون الطيبون ، وأحد الثقلين^(٢) اللذين خلقهما رسول الله صلى
 الله عليه وسلم ، والثاني كتاب الله ، فيه تفصيل كل شيء : لا يأتيه الباطل من
 بين يديه ولا من خلفه ، والمعول عليه في كل شيء ، لا يُخْطِئْنَا تَأْوِيلُهُ ، بل نتيقن
 حقائقه ، فأطيعونا ، فأطاعتنا مفروضة ، إذ كانت بطاعة الله والرسول وأولى
 الأمر مقرونة^(٣) : « فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ » « وَلَوْ
 رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ أَعْلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ » ،
 وأحذركم الإصغاء لهتاف الشيطان ، إنه لكم عدو مبين ، فتكونون كأولياءه الذين
 نال لهم : « لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ ، وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ » ، قلتما تراءت
 الْفِتْيَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ ، وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ »
 فَتَلْقَوْنَ لِلرَّمَاحِ أَزْوَاجًا^(٤) ، وللسيوف جَزَارًا^(٥) ، وَلِلْعَمْدِ^(٦) حَظًّا ، وللسهام غَرَضًا ، ثم :
 لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا .
 (مروج الذهب ٢ : ٥٣)

[١] العِترَةُ : رهضة الرجل وعِترته الأذنون . [٢] الثقل : كل شيء يقبض معونه ، وفي الحديث
 « إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ كِتَابَ اللَّهِ وَعِترَتِي » .

[٣] يشير إلى قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي
 الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ
 بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا » .

[٤] الأزد : جمع إزار وهو اللدغة وكل ما وارك وسترك : أي فتكونون أجربة للرمح نقيب في أبدانكم
 وكثرة ، أو هو الأزد بفتح فتكون وهو الظاهر : أي تركبكم الزماح وتقلوكم ، والمراد قطعون وقصرون بها
 والأول أوجه . [٥] أي قطعاً .

[٦] عمد بفتحين ، وعمد بضمين : جمع عمود ، ومع من الآلات التي كانت تستعمل في القتال .

١٣ - خطبة أخرى له

ومن خطبه رضى الله عنه :

« اعلّموا أن الحلم زين ، والوقار مودة ، والصلة نعمة ، والإكثار صلف ^(١) »
والعجلة مَفَقَه ، والسَّفَه ضعف ، والقلق وَرْطَة ، ومجالسة أهل الدناءة شين
ومخالطة أهل الفسوق رِيبة ^(٢) . (صبح الأعشى : ١ : ٢١٥)

مخاصمة ومهاجاة

بين الحسن بن عليّ ، وبين عمرو بن العاص ، والوليد بن عقبة ،
وعتبة بن أبي سفيان ، والمغيرة بن شعبة بحضرة معاوية

قال ابن أبي الحديد : روى الزُّبَيْر بن بكار في كتاب المفاخرات قال :
« اجتمع عند معاوية عمرو بن العاص ، والوليد بن عُقْبَة بن أبي مُعَيْط ،
وعُتْبَة بن أبي سفيان ، والمغيرة بن شعبة ، وقد كَانَ بِلَهُم عن الحسن بن عليّ عليا
السلام قوارص ^(٣) ، وبلغه عنهم مثل ذلك ، فقالوا يا أمير المؤمنين ، إن الحسن
قد أحيا أباه وذِكْرَه ، وقال فَصَدَّق ، وأمر فأطيع ، وخَفَقَت ^(٤) له النعال ،
وإن ذلك كَرَامَةُ إلى ما هو أعظم منه ، ولا يزال يَبْلُغنا عنه ما يسوؤنا . قال
معاوية فما تريدون ؟ قالوا ابث إليه فليحضر لِنَسْبِهِ ونسب أباه ونعيِّره ونوبِّخه
ونخبره أن أباه قتل عثمان وتقرّره بذلك ، ولا يستطيع أن يغيّر علينا شيئاً من

[١] الصلف : التكلم بما يكرهه صاحبه والتمسح بما ليس عندك أو مجاوزة قدر الظرف والاداء فوق
ذلك تكبرا . [٢] القوارص من الكلام التي تنفصك وتؤلك . [٣] الحق صوت النمل .

ذلك . قال معاوية إني لا أرى ذلك ولا أقبله ، قالوا عزمنا عليك يا أمير المؤمنين
لَنَقْمَلَنَّ ، فقال ويحكم لاتفعلوا ، فوالله ما رأيته قط جالسا عندى إلا خفت مقامه
وعبيته لى ، قالوا ابست إليه على كل حال . قال إن بشت إليه لأنصفته منكم ، فقال
عمرو بن العاص : أتخشى أن يأتى باطله على حقنا ، أو يُرَبِّي قوله على قولنا ؟ قال
معاوية : أما إني إن بشت إليه لآمرنه أن يتكلم بلسانه كله . قالوا مره بذلك ،
قال : أما إذا عصيتمونى وبستم إليه وأيتيم إلا ذلك ، فلا تَعْرَضُوا ^(١) له فى القول ،
واعلموا أنهم أهل يدت لا يعيهم العائب ، ولا يلصق بهم العار ، ولكن اقدفوه بحجره ،
تقولون له إن أباك قتل عثمان ، وكره خلافة الخلفاء من قبله ، فبشت إليه معاوية ،
فجاءه رسوله ، فقال إن أمير المؤمنين يدعوك . قال : من عنده ؟ فسأله ، فقال
الحسن عليه السلام ما لهم ؟ خرَّ عليهم السقف من فوقهم ، وأتاهم العذاب من حيث
لا يشعرون ، ثم قال : يا جارية ابغينى ثيابى ، اللهم إنى أعوذ بك من شرورهم ،
أدرا ^(٢) بك فى نحورهم ، وأستمعين بك عليهم ، فاكفينهم كيف شئت ، وأنى
أنت ، بحول منك وقوة ، يا أرحم الراحمين ، ثم قام ، فلما دخل على معاوية أعظمه
كرمه ، وأجلسه إلى جانبه ، وقدارتاد ^(٣) القوم ، وخطرُوا ^(٤) خطرَان الفحول ،
بينا فى أنفسهم وغُلُوا ، ثم قال : يا أبا محمد ، إن هؤلاء بشتوا إليك وعصونى ، فقال
الحسن عليه السلام : سبحان الله ! الدار دارك ، والإذن فيها إليك ، والله
إن كنت أجبتهم إلى ما أرادوا وما فى أنفسهم ، إنى لأستحيى لك من الفُحش ،

[١] تمرض : ضغف فى أمره . [٢] أدفع . [٣] الارتياذ : القهَاب والمجيء .
[٤] خطر الرجل فى شئته : رفع يديه ووضعها وامتدَّ وتباعد وخطر بسيفه ورمحه : رضع مرَّة
بوضعه أخرى خطرا (بالفتحريك) وخطر القمل بذنبه : ضرب به بيناً وشمالاً .

وإن كانوا غلبوك على رأيك إني لأستحي لك من الضعف ، فأَيُّهُمَا تُقِرُّ وَأَيُّهُمَا تُنْكِرُ ؟ أما إني لو علمت بمكانهم جئت معي بمثلهم من بني عبد المطلب ، ومالي أن أكون مستوحشاً منك أو منهم ؟ إن ولي الله وهو يتولى الصالحين ، فقال معاوية : يا هذا إني كرهت أن أدعوك ، ولكن هؤلاء حملوني على ذلك مع كراهتي له ، وإن لك منهم النصف ^(١) ومعنى ، وإنما دعوناك لنقرر أن عثمان قُتِلَ مظلوماً ، وأن أباك قتله ، فاستمع منهم ثم أجبهم ، ولا تمنعك وحدتك واجتماعهم أن تتكلم بكل لسانك ، فتكلم عمرو بن العاص :

١٤ — مقال عمرو بن العاص

حمد الله وصلى على رسوله ﷺ ثم ذكر علياً عليه السلام ، فلم يترك شيئاً يعيبه به إلا قاله ، وقال إنه شتم أبا بكر ، وكره خلافة ، وامتنع من بيعته ، ثم بايعه مكرهاً ، وشرك في دم عمر ، وقتل عثمان ظلماً ، وادّعى من الخلافة ما ليس له ، ثم ذكر الفتنة يثيره بها ، وأضاف إليه مساوى ، وقال : إنكم يا بني عبد المطلب لم يكن الله ليعطيكم الملك ، على قتلكم الخلفاء ، واستحلالكم ما حرم الله من الدماء ، وحرصكم على الملك ، وإتيانكم ما لا يحل ، ثم إنك يا حسن تحدث نفسك أن الخلافة صائرة إليك ، وليس عندك عقل ذلك ولا لبه ، كيف ترى الله سبحانه سلبك عقلك ، وتركك أحق قریش ، يُسخر منك ، ويهزأ بك ، وذلك لسوء عمل أباك ، وإنما دعوناك لنسبك وأباك ، فأما أبوك فقد تفرد الله به ، وكفانا أمره ، وأما أنت فإنك في أيدينا ، نختار فيك الخصال ، ولو قتلناك ما كان علينا إثم من الله ، ولا عيب من الناس ، فهل تستطيع أن ترد علينا وتكذبنا ؟

فَإِنْ كُنْتَ تَرَى أَنَا كَذَبْنَا فِي شَيْءٍ ، فَارْدِدْهُ عَلَيْنَا فِيمَا قُلْنَا ، وَإِلَّا فاعْلَمْ أَنَّكَ وَأَبَاكَ ظَالِمَانِ .

١٥ — مقال الوليد بن عقبة بن أبي معيط

ثم تكلم الوليد بن عقبة بن أبي مُعَيْط فقال :

« يَا بَنِي هَاشِمٍ : إِنَّكُمْ كُتِمَ أَخْوَالُ عَثْمَانَ ، فَنَعِمَ الْوَلَدُ كَانَ لَكُمْ ، فَعَرَفَ حَقُّكُمْ ، وَكُتِمَ أَصْهَارُهُ ، فَنَعِمَ الصَّهْرُ كَانَ لَكُمْ يُكْرَمُكُمْ ، فَكُتِمَ أَوَّلُ مَنْ حَسَدَهُ ، فَقَتَلَهُ أَبُوكَ ظُلْمًا ، لَا عَذْرَ لَهُ وَلَا حُجَّةَ ، فَكَيْفَ تَرَوْنَ اللَّهَ طَلِبَ بَدْمِهِ ، وَأَتَزَلُّكُمْ مِنْزَلَتَكُمْ ، وَاللَّهِ إِنْ بَنَى أُمِيَّةٌ خَيْرَ لَبَنِي هَاشِمٍ مِنْ بَنَى هَاشِمٍ لَبَنَى أُمِيَّةٍ ، وَإِنْ مَعَاوِيَةُ خَيْرُكَ مِنْ نَفْسِكَ .

١٦ — مقال عتبة بن أبي سفيان

ثم تكلم عتبة بن أبي سفيان فقال :

« يَا حَسَنَ : كَانَ أَبُوكَ شَرَّ قَرِيْشٍ لِقَرِيْشٍ ، لِسَفْكِهِ لِسْمَائِهَا ، وَقَطْعِهِ لِأَرْحَامِهَا ، طَوِيلَ السِّيفِ وَاللِّسَانِ ، يَقْتُلُ الْحَيَّ وَيُعَيِّبُ الْمَيِّتَ ، وَإِنَّكَ مِمَّنْ قَتَلَ عَثْمَانَ وَنَحْنُ قَاتِلُوكَ بِهِ ، وَأَمَّا رَجَاؤُكَ الْخِلَافَةَ فَلَسْتُ فِي زَيْنِهَا ^(١) قَادِحًا ، وَلَا فِي مِيزَانِهَا رَاجِحًا ، وَإِنَّكُمْ يَا بَنِي هَاشِمٍ قَتَلْتُمْ عَثْمَانَ ، وَإِنْ فِي الْحَقِّ أَنْ تَقْتُلَكَ وَأَخَاكَ بِهِ . فَأَمَّا أَبُوكَ فَقَدْ كَفَانَا اللَّهُ أَمْرَهُ ، وَأَقَادَ ^(٢) مِنْهُ ، وَأَمَّا أَنْتَ فَوَاللَّهِ مَا عَلَيْنَا لَوْ قَتَلْنَاكَ بِعَثْمَانَ إِيْمًا وَلَا عُدْوَانًا .

١٧ — مقال المغيرة بن شعبة

ثم تكلم المغيرة بن شعبة ، فَشْتَمَ عَلِيًّا وَقَالَ : وَاللَّهِ مَا أَعْيَيْهِ فِي قَضِيَّةٍ يَخُونُ ، وَلَا فِي حَكْمٍ يَمِيلُ ، وَلَكِنَّهُ قَتَلَ عَثْمَانَ ، ثُمَّ سَكَنُوا .

١٨ - رد الحسن بن علي عليهم

فتكلم الحسن بن علي عليه السلام ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على رسوله صلى الله عليه وآله ، ثم قال :

« أما بعد يامعاوية ، فما هؤلاء شتموني ، ولكنك شتمتني ، فُحْشاً أَلْفَتْهُ ، وسوء رأى عُرِفَتْ به ، وَخُلُقاً سَيِّئاً ثَبَّتَ عليه ، وبغيا علينا ، عداوة منك لمحمد وأهله ، ولكن اسمع يامعاوية واسمعوا ، فَلَا تَقُولَنَّ فِيكَ وفيهم ما هو دون ما فيكم ، أَنْشُدْكُمْ الله أيها الرهط ، أتعلمون أن الذي شتمتموه منذ اليوم صلى القبلتين ^(١) كلتيهما ، وأنت يامعاوية بهما كافر ، تراها ضلالة وتعبد اللَّاتَ وَالْعُزَّى ^(٢) غَوَايَةَ ، وَأَنْشُدْكُمْ الله هل تعلمون أنه بايع البيعتين كلتيهما يَتَمَّةَ الْفَتْحِ ^(٣) ويعة الرِّضْوَانِ ^(٤) ، وأنت يامعاوية بإحداهما كافر ، وبالأخرى ناكث ، وَأَنْشُدْكُمْ الله هل تعلمون أنه أول الناس إيماناً ، وأنت يامعاوية وأباك من المؤلفة قلوبهم ، تُسْرِوْنَ الْكُفْرَ وتُظْهِرُونَ الْإِسْلَامَ ، وَتُسْتَمَالُونَ بِالْأَمْوَالِ ، وَأَنْشُدْكُمْ الله أَلَسْتُمْ

[١] كان صلى الله عليه وسلم يستقبل الكعبة وهو بمكة ، فلما هاجر إلى المدينة أمر أن يستقبل بيت المقدس تألفاً لليهود ، فصلى إليه ستة أو سبعة عشر شهراً ثم حول . [٢] اللات : صنم تقيف بالطائف ، والعزى : أكبر صنم لقريش ، وكان يبطن نخلة .

[٣] روى الطبري في تاريخه - بعد أن أورد خير فتحه صلى الله عليه وسلم مكة سنة ثمان هجرة ، وخطبته حين وقف على باب الكعبة - قال : « ثم اجتمع الناس بمكة لبيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام فجلس لهم - فيما يلقي - على الصفا ، وهر بن الخطاب تحت رسول الله أسفل من مجله يأخذ على الناس ، فبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا ، وكفك كانت بيعة ابن بايع رسول الله من الناس على الإسلام ، فلما فرغ رسول الله من بيعة الرجال بايع النساء ، واجتمع إليه نساء من نساء قريش فيمن هنن بنت حنينة « أم معاوية » . . . إلى آخر القصة - تاريخ الطبري ٣ : ١٢١ - وكلا معاوية من أسلم بعد الفتح . [٤] بيعة الرضوان كانت سنة ست هجرة في غزوة المدينة حين دعا الرسول صلى الله عليه وسلم للمسلمين لبيعة على اقتتال فبايعوه على الموت تحت شجرة هناك سميت بعد بشجرة الرضوان .

تعملون أنه كان صاحب راية رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر ، وأن راية
المشركين كانت مع معاوية ومع أبيه ؟ ثم لقيكم يوم أحد ويوم الأحزاب ومعة
راية رسول الله صلى الله عليه وآله ، ومعك ومع أبيك راية الشرك ، وفي كل
ذلك يفتح الله له ، وَيُفْلِحُ ^(١) حجه ، وينصر دعوته ، ويصدق حديثه ، ورسول
الله صلى الله عليه وآله في تلك المواطن كلها عنه راض ، وعليك وعلى أبيك
ساخط ، وأنشدك الله يا معاوية أتذكر يوماً جاء أبوك على جبل أحر ، وأنت
تسوقه ، وأخوك عتبة هذا يقوده ، فرآكم رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال :
« اللهم المن الزاكب والقائد والسائق » . أتتسى يا معاوية الشعر الذي كتبتنه
إلى أبيك - لما تم أن يسلم - تنهاه عن ذلك :

يَا صَخْرُ لَا تُسَلِّمَنَّ يَوْمًا فَتَفْضَحَنَا بَعْدَ الدِّينِ يَبْدُرُ أَصْبَحُوا مِرْقًا ^(٢)
خَالِي وَعَمِّي وَعَمَّ الْأُمِّ نَالَهُمْ وَحَظَّلَ الْخَيْرُ قَدْ أَهْدَى لَنَا الْأَرْقَا ^(٣)
لَا تَرَكَنَّ إِلَى أَمْرِ تُكَلِّفُنَا وَالرَّاقِصَاتِ بِهِ فِي مَكَّةَ الْخَرْقَا ^(٤)
فَالْمَوْتُ أَهْوَنُ مِنْ قَوْلِ الْعِدَّةِ لَقَدْ حَدَّ ابْنُ حَرْبٍ عَنِ الْعَزَى إِذَا فِرْقَا ^(٥)
إِلَّهِ لَمَّا أَخْفَيْتُ مِنْ أَمْرِكَ ، أَكْبَرُ مِمَّا أَبَدَيْتُ ، وأنشدكم الله أيها الرُّهْطُ ،
أعملون أن علياً حرَّم الشهوات على نفسه بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله
وآله ، فأنزل فيه : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ » .
وأن رسول الله صلى الله عليه وآله بعث أكابر أصحابه إلى بني قُرَيْظَةَ ، فزولوا

[١] ينصر . [٢] للزق : جمع حزة بالكسر ، وهي القطعة من الثوب وغيره .
[٣] أي لفدة الحزن والأسى . [٤] الخرق بحركة الهمزة الجعل والعمل والتصرف في
الأمور ، والمضى . [٥] فرق : فزع .

من حصنهم فهزموا ، فبعث علياً بالراية ، فاستنزلهم على حكم الله ، وحكم رسوله ، وفعل في خيرٍ مثلكم ، ثم قال : يا معاوية أظنك لا تعلم أني أعلم ما دعا به عليك رسول الله صلى الله عليه وآله ، لما أراد أن يكتب كتاباً إلى بني جذيمة ^(١) ، فبعث إليك وتهمك ^(٢) إلى أن تموت ، وأنتم أيها الرهط ، نشدكم الله ألا تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وآله لعن أبا سفيان في سبعة مواطن ، لا تستطيعون ردّها ؟ أولها يوم لقي رسول الله صلى الله عليه وآله خارجاً من مكة إلى الطائف يدعو ثقيفاً إلى الدين ، فوقع به ، وسبه ، وسقّمه ، وشتمه ، وكذّبّه ، وتوعده ، ولم أن يبطش به ، فلعنه الله ورسوله وصرف عنه ، والثانية يوم المير ^(٣) إذ عرض لها رسول الله صلى الله عليه وآله وهي جاثية من الشام ، فطردها أبو سفيان وساحل ^(٤) بها ، فلم يظفر المسلمون بها ، ولعنه رسول الله صلى الله عليه وآله ودعا عليه ، فكانت

[١] في الأصل « خزعة » ، وهو تحريف ، وم بنو جذيمة بن عامر بن عبد مناة بن كنانة ، وقد بعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خالد بن الوليد حين انتزع مكة داعياً ، ولم يمشه مقاتلاً ، فلما رآه النور أخذوا السلاح ، فقال خالد : ضعوا السلاح ، فإن الناس قد أسلموا ، فلما وضعوه أمر بهم خالد عند ذلك فكفوا ، ثم عرضهم على السيف فقتل من قتل منهم — وكان بنو جذيمة قد أصابوا في الجاهلية عوف بن عبد عوف أبا عبد الرحمن بن عوف ، والفاكه بن المغيرة عم خالد ، وكانا أقبلتا تاجرين من اليمن حتى إذا نزلا بهم قتلوهما وأخذوا أموالهما — فلما انتهى الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رفع يده إلى السماء ثم قال : اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد ، ثم دعا علي بن أبي طالب ، فقال يا علي اخرج إلى هؤلاء النور فانظر في أمرهم ، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك ، فخرج علي حتى جاءهم ومعه مال قد بعثه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم به فودى لهم العماء ، وما أصيب من الأموال ، حتى إنه ليدى ميلة الكلب ، (والميلة بالكسر : الإيالة يبلغ فيه الكلب) حتى إذا لم يبق شيء من دم أو مال إلا وداه بقيت منه بقية من المال . قال لهم : هل بقي لكم دم أو مال لم يود إليكم ؟ قالوا لا ، قال فإني أعطيتكم هذه البقية من هذا المال احتياطاً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مما لا يعلم ولا تعلمون فقتل ، ثم رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأخبره الخبر ، فقال أصيبت وأخذت ، ثم استقبل القبة فأتى شامراً يديه ، وهو يقول : اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد ، ثلاث مرات .

[٢] التي في كتب اللغة : « نهمه : زجره ، وحذفه بالمحى وغيره » ومراده هنا أنه دعا عليه بالتميم وعدم الشج ، وقد تقدم الكلام عليه . [٣] المير الإبل تحمل الميرة . [٤] آنى بها ساحل البحر .

وقعة بدر لأجلها ، والثالثة يوم أحد ، حيث وقف تحت الجبل ورسول الله صلى الله عليه وآله في أعلاه ، وهو ينادى **أَعْلُ هُبْلُ** ^(١) مراراً فلعنهُ رسول الله صلى الله عليه وآله عشر مرات ، ولعنهُ المسلمون ، والرابعة يوم جاء بالأحزاب وغطفان واليهود ، فلعنهُ رسول الله صلى الله عليه وآله عليه وآله وابتهل ، والخامسة يوم جاء أبو سفيان في قريش ، فصدوا رسول الله صلى الله عليه وآله عن المسجد والمذبح معكوكاً أن **يَبْلُغَ حِلَّهُ** ^(٢) ، ذلك يوم الحديبية ، فلعن رسول الله صلى الله عليه وآله أبو سفيان ، ولعن القادة والأتباع ، وقال لمعونون كلهم وليس فيهم من يؤمن ، فقيل يا رسول الله أفأيزجى الإسلام لأحد منهم فكيف باللعنة ؟ فقال لا تنصيب للجنة أحداً من الأتباع ، وأما القادة فلا يُفْلَحُ منهم أحد ^(٣) ، والسادسة يوم الجمل الآخر ، والسابعة يوم وقفوا لرسول الله صلى الله عليه وآله في العقبة ليستنفروا ناقته ، وكانوا اثني عشر رجلاً ، منهم أبو سفيان ، فهذا لك يامعاوية .

وأما أنت يابن العاص ، فإن أمرك مشترك ، وضعتك أمك مجهولاً ، من **عَهَر** ^(٤) وسِفاح ، فتحاكم فيك أربعة من قريش ، فقلب عليك جزأرها ، الأهمهم

[١] أى اهل واتصر يا هبل وهو صنم كان في الكعبة . [٢] ولهدى مطوف على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولهدى ما يهدى إلى مكة ، ومعكوكاً أى عبوساً وهو حال . أن يبلغ حله أى مكانه الذى ينحرف فيه عادة وهو الحرم . [٣] لا يتطرح مع هذا أن أبو سفيان أنزع يده وأسلم ، إذا التفت فيه لا ، وليس لثني بلن . [٤] فجور : ذكروا أن النابتة أم عمرو بن العاص كانت أمة لرجل من عزة بالتحريك) فبعت : فاشترها عبد الله بن جهمان النسي بكمه ، فكانت بنية ، ثم أعطاها ، فوقع عليها أبو لهب بن عبد المطلب ، وأمية بن خلف الجهمي ، وهناب بن النيرة الخزومي ، وأبو سفيان بن حرب ، العاص بن وائل السهمي في طهر واحد ، فوالت همرا ، فادعاه كلهم ، لحكت أمة فيه ، فقالت هو من عاص بن وائل ، وذلك لأن العاص كان يتنق عليها كثيراً ، قالوا : وكان أشبه بأبي سفيان ، وفي ذلك قول أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب في عمرو بن العاص :

أبوك أبو سفيان لا شك قد بدت لنا فيك منه بينات النماثل

يقال إنه جل لرجل ألف درهم على أن يسأله همرا وهو على النبر : من أمة ، فسأله قال : أى سلمى .

حسباً ، وأخبرهم منصيباً ، ثم قام أبوك فقال : أنا شافى محمد الأبر (١) فأنزل الله فيه ما أنزل ، وقاتلت رسول الله صلى الله عليه وآله في جميع المشاهد ، وهجوته وأذيته بمكة ، وكِدته كيدك كله ، وكنت من أشد الناس له تكذيباً وعداوة ، ثم خرجت تريد النجاشي مع أصحاب السفينة ، لتأتى بمحفر وأصحابه إلى أهل مكة (٢) ، فلما أخطأك مارجوت ، ورجعك الله خائباً ، وأكذبك واشياً ، جعلت حسدك على صاحبك عمارة بن الوليد ، فوشيت به إلى النجاشي ، حسداً لما ارتكب من حيلته (٣) ، ففضحك الله وفضح صاحبك ، فأنت عدو بني هاشم في الجاهلية

بفت حرمة تلقب بالناينة من بني عزة أصابتها رماح العرب فبيعت بمكاط ، فاشتراما العاكه بن المشيرة ، ثم اشتراها منه عبد الله بن جدعان ، ثم صارت إلى العاصم بن وائل فولدت فأنجبت ، فإن كان جبل لك شيء فخذ . (ورأى فيما روى من نسب عمرو بن العاص أن الإسلام يجب ما قبله) .

[١] الثاني للبني ويسهل ، وذلك أن العاصم بن وائل سمى النبي صلى الله عليه وسلم أبتر عند موت ابنه القاسم ، فنزل فيه « إِنْ شَأْنُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ » أي للمقطع عن كل خير ، الذي لا يجوز بالذکر الحسن بعد موته ، وأما أنت يا محمد فيبقى حسن ذكرك ، وآثار فضلك إلى يوم القيامة فهو الأبر لا أنت .

[٢] يشير إلى معيرة الحبشة الثانية ، وقد هاجر إليها من المسلمين نحو ثلاثة وثمانين رجلاً وتعد عشرة امرأة ، وكان من الرجال جعفر بن أبي طالب ، ولما رأته فريش ذلك أرسلت في أثرهم عمرو بن العاص ، وعمار بن الوليد ، بهدايا إلى النجاشي وبطارقته ، ليسلم للبعثين ، فرجما خائبين ، وأبى النجاشي أن يخفر ذنبه .

[٣] وذلك أن حمرا وعماراً وركبا البحر إلى الحبشة كما قطعنا — وكان عماراً رجلاً وسبياً تهواه النساء ، وكان مع عمرو بن العاص امرأته — فلما صاروا في البحر ليلاً أصابا من غمر ممهسا ، فالتفتى عماراً فقال لامرأة عمرو فلبني ، فقال لها عمرو فلبني ابن عمك ، فلبته ، فهو بها عماراً وجبل يرادوها عن نفسها ، فامتنعت منه ، ثم إن عمراً جلس على منجاف السفينة يقول « منجاف السفينة هو سكلها الذي تدل به » فدفنه عماراً البحر ، فلما وقع عمرو سجع حتى أخذ بمنجاف السفينة ، وضغن عمرو عليه في نفسه وعلم أنه كان أراد قدومها حتى نزلوا الحبشة ، فلما اطأها بها لم يلبث عماراً أن دب لامرأة النجاشي فأدخلته ، فاختلط إليها وجبل إذا رجع من مدخله ذلك يغبر حمرا بما كان من أمره ، فيقول عمرو : لا أسدك أنك قدوت على هذا ، إن شأن هذه المرأة أروع من ذلك ، فلما أكثر عليه عماراً بما كان يخبره ، ورأى عمرو من حاله وميئته وميئته عندها حتى يأتي إليه مع السر ماعرف به ذلك ، قال له إن كنت صادقاً قل لها فلتدعك بدع النجاشي الذي لا يدعن به غيره ، فأبى أمره وأبى بشي منه حتى أسدك ، قال أفضل فأنها ذلك قدمنته منه وأعطته شيئاً في ضرورة ، فقال عمرو أشهد أنك قد صدقت لقد أصبت شيئاً ما أصاب أحد من العرب مثله قط ، امرأة لك ! ما سمعنا بتل هذا ، ثم سكنت عنه حتى اطأنا ودخل على النجاشي فأعطه شأن عماراً وقدّم إليه البعث ، فلما أثبت أمره دعا بشاراً ، ودعا لسوة آخر فخروده من ثيابه ثم أمرهم يتخفن في أحبله ثم خلى سبيله فخرج عماراً .

والإسلام ، ثم إنك تعلم ، وكل هؤلاء الرُّهْطِ يملون ، أنك هجوت رسول الله صلى الله عليه وآله بسبعين بيتاً من الشعر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : اللهم إني لأقول الشعر ولا ينبني لي ، اللهم العنه بكل حرفٍ ألفَ لعنة . فعليك إذن من الله ما لا يُخْصَى من اللعن ، وأما ما ذكرت من أمر عثمان فَأَنْتَ سَعَرْتَ^(١) عليه الدنيا ناراً ، ثُمَّ لَحِقْتَ فِلسَطينَ ، فلما أَنَاكَ قَتَلَهُ قلت : « أَنَا أَبُو عبد الله إِذَا نَكَأْتُ قَرْحَةً أَدْمَيْتُهَا » ثُمَّ جَبَسْتَ نَفْسَكَ إِلَى معاوية ، وبعث دينك بدنياء ، فلسنا نلومك على بنقض ، ولا نماتبك على ود ، وبالله ما نصرت عثمان حياً ، ولا غَضِبْتَ له مقتولا ، ويحك يابن العاص ! أَلَسْتَ الْقَاتِلَ فِي بَنِي هَاشِمٍ لما خَرَجْتَ من مكة إِلَى النجاشي :

تقول ابنتي : أين هذا الرحيل ؟ وما السَيْرُ مني بِمُسْتَنْكَرٍ
فقلت : ذَرْنِي فَإِنِّي أَمْرُؤُ أُرِيدُ النجاشيَّ فِي جَعْفَرٍ
لَا كَوِيَّةَ عِنْدَهُ كِيَّةَ أَقِيمُ بِهَا نَحْوَةَ الْأَضْمَرِ^(٢)
وَشَأْنِي أَحْمَدَ مِنْ بَيْنِهِمْ وَأَقُولُهُمْ فِيهِ بِالْمُنْكَرِ
وَأَجْرِي إِلَى عُتْبَةَ جَاهِدًا وَلَوْ كَانَ كَالَّذِيبِ الْأَحْمَرِ^(٣)

[١] سمر البار : كنع أوقعا . وكان عمرو أول خلافة عثمان ولياً على مصر - منذ خلافة عمر بن الخطاب - ثم إن عثمان ولي عبد الله بن سعد بن أبي سرح - وهو أخو عثمان من الرضاع - خراج مصر ولي عمرو بن العاص على الجند فلم يثقوا ، فجمع لعبد الله الخراج والجند وعزل عمرأ ، فلما قدم عمرو مدينة جبل بطن على عثمان ويؤاب عليه ، وخرج عمرو يمدد حتى انتهى إلى أرض له بفلسطين ، فكان يول : أنا أبو عبد الله إِذَا حَكَمْتُ قَرْحَةً نَكَأْتُهَا ، والله إِن كُنْتُ لَأَتِي الرامي فَأُحَرِّضُهُ عَلَيْهِ (نَكَأْتُ قَرْحَةً : قفرتها قبل أَن تَبْرَأَ قَدَيْتُ) . [٢] الضمر : محرمة الليل في الله ، صر : كفرح فهو صر ، وصخره تصميراً : أماله من الكبر . [٣] كان من بين المهاجرين من السليين إلى الحبشة نبة بن غزوان ، وهو من بني نوفل بن عبد مناف ، وعتبة بن مسعود (وهو أخو عبد الله بن مسعود) من هذيل من حلفائهم ، وأظنه يعني نبة بن غزوان ، وقوله : ولو كان كالذئب الأحمر : أي في صوبة وصول إليه .

ولا أنتنى عن بنى هاشم وما أسطعت في الغيب والمحضر
فإن قبل العتب منى له وإلا لويت له مشفري^(١)

فهذا جوابك ، هل سمعته ؟

وأما أنت يا وليد ، فوالله ما أؤمك على بنض عليّ ، وقد جلدك ثمانين في
الحجر^(٢) ، وقتل أباك بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله صبراً^(٣) ، وأنت
الذي سماه الله الفاسق ، وصمى علياً المؤمن ، حيث تفاخرتما ، فقلت له اسكت
يا عليّ ، فأنا أشجع منك جناناً ، وأطول منك لساناً ، فقال لك عليّ اسكت
يا وليد ، فأنا مؤمن وأنت فاسق ، فأنزل الله تعالى في موافقة قوله : « أَفَن كَانَ

[١] الشفر الكبير : كالشفة للإنسان ، وقد يستعمل في الناس . [٢] وذلك أن عثمان
رضي الله عنه بعد أن عزل سعد بن أبي وقاص من إمارة الكوفة ، ولى عليها الوليد بن دحية - وهو
أخوه لأمه - ووروا أنه شرب الخمر بالكوفة وسكر حتى دخل عليه ، وأخذ خاتمه من أمسه وهو لا يعلم
وأنه تكلم في الصلاة والتفت إلى من يقتدون به فيها وهو سكران وقال لهم : أأزيدكم ؟ قالوا لا قد قضينا
صلواتنا ، وشهد اليهود عليه بذلك عند عثمان في وجهه فأدخله بيتاً وأراد أن يعمده فجعل إذا بست إليه
رجلا من قريش ليفربه فاشده الوليد ألا يقطع رحمه ، فلما رأى عليّ ذلك أخذ السوط ودخل عليه فجده به
[٣] القتل صبراً : أن يحبس الرجل ويرى حتى يموت ، وكان عقبة بن أبي معيط شديد الإيذاء لرسول
الله صلى الله عليه وسلم عظيم الاستزاء به . صنع مرة ولية ودعا إليها كبراء قريش وفيهم رسول الله صلى
الله عليه وسلم ، فقال عليه الصلاة والسلام : والله لا آكل من طعامك حتى تؤمن بالله ، ففتشه ، فبدا
ذلك أبي بن خلف الجلي ، وكان صديقاً له ، فقال ما شئ يلعني منك ؟ قال لا شئ . دخل منزله
شريف ، فأبى أن يأكل طعامي حتى أشهد له ، فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يطعم ففسدت له ، و
أبى : وجهي من وجهك - ثم إن لقيت محمداً فلم تطلقا عنه ، وتبزق في وجهه ، وتطلم عينه ، فلما رأى
رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل به ذلك ، فأنزل الله فيه « وَيَوْمَ يَعْصِي الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ
يَا لَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا » وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يعلى في حجر الك
فأقبل عقبة فوض ثوبه في عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم تخفه خفاً شديداً فأقبل أبو بكر فأنذ
بمنكبه ودفعه عن الرسول ، وقال : « أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ
بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ » فلما كانت غزوة بدر كان عقبة من أسراما وقد قتله عليه الصلاة والسلام
وهو راجع .

مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ » ثم أنزل فيك على موافقة قوله أيضاً :
« إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا ^(١) » ويحك يا وليد ! مهما نسيت فلا تنس قول
الشاعر فيك وفيه :

أنزل الله (والكتاب عزيز) في عليّ وفي الوليد قُرْآنًا ^(٢)

فَتَبَيَّنُوا الوليد إذ ذاك فَسَقًا وعليّ مُبْسُورًا ^(٣) إيمانًا

ليس من كَانَ مؤْمِنًا (عَمَرَكُ اللَّهُ) كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا خَوَانًا

سوف يُدْعَى الوليد بمدقيل وعليّ إلى الحساب عِيَانًا

فعلِيّ يُجْزَى بِذَلِكَ جَنَانًا ووليدُ يُجْزَى بِذَلِكَ هَوَانًا

رب جَدِّ لعقبة بن أبان لابس في بلادنا ثُبَانًا ^(٤)

وما أنت وقرش ، إنما أنت عِلْجٌ من أهل صَفُورِيَّة ^(٥) ، وأقسم بالله لَأَنْتَ
أكبر في الميلاد وأسن ممن تدعى إليه .

وأما أنت يا عتبة : فوالله ما أنت بِحَصِيف ^(٦) فَاجْبِيكَ ، ولا حَافِلٍ

فَأُحَاوِرَكَ وَأُعَاتِبَكَ ، وما عندك خيرٌ يرْجَى ، ولا شَرٌّ يُتَّقَى ، وما عقلك وعقل

[١] وذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام كان قد بعث الوليد بن دحية إلى بني المصطلق لأخذ

الصدقات — وكان بينه وبينهم ثرة في الجاهلية — فلما سمعوا به استقبلوه خشيهم فقاتله فرجع ، وقال

رسول الله صلى الله عليه وسلم إنهم قد ارتدوا ومنعوا الزكاة، فأتاه منكرين ماقله عنهم ، فزك

الآية « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ

فَتُصْحَبُوا عَلَى مَا قُلْتُمْ نَادِمِينَ » . [٢] مهمل عن « قرآنًا » . [٣] فتبنا مهمل

عن « فتبنا » . [٤] أبان : هو والد أبيه عتبة ، فهو الوليد بن دحية بن أبي سيط أبان بن أبي عمرو

ذكوان بن أمية بن عبد شمس ، والابن سراويل صغير مقدار شبر يسير المودة الغلظة تقط يكون لللاحين .

[٥] صفورية بلد بالأردن (بضم الهزرة والفتح) وتسمى النون) ، والعلج : الرجل من كفار العرب ، وذلك

أن جدّه ذكوان كان يلقب بالصفوري ، ذكر جماعة من التباين أن ذكوان هذا كان مولى لأمية بن عبد

شمس فتبناه وكناه أبا عمرو ، فبنوه موال وليسوا من بني أمية أصله (شرح ابن أبي الحديد : ص ١٥٤)

[٦] حفيف : ككرم استحكم فله فهو حفيف .

أَمَتِكَ إِلَّا سِوَاهُ ، وما يضر علياً لو سببته على رؤوس الأشهاد ؟ وأما وعيدك إياي بالقتل ، فهلا قتلت اللحياني إذ وجدته على فراشك ؟ أما تستحي من قول نصر ابن حجاج فيك :

يَا لَرَجَالٍ وَحَادِثِ الْأَزْمَانِ وَلِسَبِّهِ تُخْزِي أَبَا سُفْيَانَ ^(١)

نُبِّدْتُ عُتْبَةَ خَانَهُ فِي عَرْسِهِ جِنْسُ لَتِيمِ الْأَصْلِ مِنْ لِحْيَانِ ^(٢)

وبعد هذا ما أربأ بنفسي عن ذكره لفحشه ، فكيف يخاف أحدٌ سيفك ولم تقتل فاضحك ، وكيف ألومك على بنض علي ، وقد قتل خالك الوليد مبارزة يوم بدر ، وشرك حمزة في قتل جدك عتبة ، وأوحدك من أخيك حنظلة في مقام واحد .

وأما أنت يا مغيرة : فلم تكن بخلق أن تقع في هذا وشبهه ، وإنما مثلك مثل البعوضة إذ قالت للنحلة : « استمسكي فإني طائرة عنك » . فقالت النحلة وهل علمت بك واقعة علي ، فأعلم بك طائرة عنى ؟ والله ما نشعر بعداوتك إيانا ، ولا اغتمنا إذ علينا بها ، ولا يشق علينا كلامك ، وإن حد الله في الزنا لثابت عليك ، ولقد درأ عمر عنك حقاً ، الله سائله عنه ، ولقد سألت رسول الله صلى الله عليه وآله هل ينظر الرجل إلى المرأة يريد أن يتزوجها ؟ فقال : لا بأس بذلك يا مغيرة ما لم يتو الزنا ، لعلهم بأنك زان ، وأما غركم علينا بالامارة ، فإن الله تعالى يقول : « وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا ^(٣) مَنْ فِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَا كُفَّهَا تَدْمِيرًا » .

[١] البية : الباب . [٢] عرس الرجل : امرأته ، وبنو لحيان : حمى من هذيل ، وهو لحيان ابن هذيل بن مدركة . [٣] أى كثرنا ، أمره : كثره ، وأمره : كثره ، (وفي قراءة : أكرهنا) أو المني أكرهنا ثم بالطاعة فسقوا وصعوا ، وقد يكون من الإمارة أى جلتهم أمراء .

ثم قام الحسن فنفض ثوبه فانصرف ، فتعلق عمرو بن العاص بثوبه وقال
يا أمير المؤمنين قد شهدت قوله في وقْدَه أُمِّي بالزنا ، وأنا مطالب له بحمد القذف .
فقال معاوية : خَلَّ عنه ، لا جزاك الله خيراً ! فتركه ، فقال معاوية : قد أنبأتكم
أنه ممن لا تُطاق عارِضته ، ونهيتكم أن تُسبُّوه فعصيتُموني ، والله ما قام حتى أظلم
على البيت ، قوموا عني ، فلقد فضحك الله وأخزاكم بترككم الحزم ، وعدوكم
عن رأي الناصح المشفق ، والله المستعان . (شرح ابن أبي الحديد ٢ ص ١٠١)

١٩ - رثاء محمد بن الحنفية لأخيه الحسن

لمامات الحسن بن علي رضي الله عنهما ، أدخله قبره الحسين ومحمد بن
الحنفية ^(١) ، وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم ، ثم وقف محمد على قبره ،
وقد اغرورت عيناه ، وقال :

« رحمك الله أبا محمد ، فلئن عزَّت حياتك ، لقد هدَّت وفاتك ، ولنعم
الروحُ روحٌ تضمُّه بدنك ، ولنعم الجسدُ جسدٌ تضمُّه كفُّك ، ولنعم
الكفنُ كفنٌ تضمُّه لحْدك ، وكيف لا تكون كذلك ، وأنت سليل الهدى ،
خامس أصحاب الكساء ^(٢) ، وخَلَفُ أهل التقوى ، وجدُّك النبي المصطفى ،

[١] هو محمد بن علي بن أبي طالب ، والحنفية أمه ، وهي امرأة من بني حنيفة بن لُجَم وتسمى خولة بنت
جعفر ، وتوفى سنة ٨١ ، وقيل سنة ٨٢ ، وقيل سنة ٧٢ ، وقيل سنة ٧٣ . [٢] الكساء : هو
كساء آل محمد صلى الله عليه وسلم القى بضافون إليه ، فيقال : « آل الكساء » وهم النبي عليه الصلاة
والسلام ، وعلي ، وفاطمة ، والحسن ، والحسين رضي الله عنهم ، قال ديك الجن :

والحنَّة الرُّؤساء الكساء مآ خیر البریة من عجم ومن عرب

قال أبو حنبل الخادى :

أنازلت كساء التقي كسانه جي لأهل الكساء

ومن قصة هذا الكساء ما روت الرواة من أن وفدا من مصرى نجران قدما على النبي صلى الله عليه وسلم
فكان ماجرى بينهما أن قالوا : يا محمد لم نلب عيسى ونسبه عبدا ؟ فقال : أجل عبد الله ورسوله

وَأَبُوكَ عَلَى الرِّتَضَى ، وَأُمُّكَ فَاطِمَةُ الزَّهْرَاءُ ، وَعَمُّكَ جَعْفَرٌ ^(١) الطَّيَّارُ فِي جَنَّةِ

ودوحه وكلته ألقاما إلى مريم ، قالوا : فَأَرَأَيْتَ هَذَا ، يَحْيَى لَوْنِي وَيَبْرَى الْأَكْهَ وَالْأَبْرَسَ وَيَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ ، وَيَأْتِينَا عَلَى أَنَّهُ ابْنُ اللَّهِ وَنَحْنُ نَبِيُّكَ عَلَى أَمْرٍ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَاذَا اللَّهُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَلَدُ أَوْ مَرِيكَ ، فَا زَالُوا يَمَاجُونَهُ وَيَلَاوُونَهُ ، حَتَّى أَتَزَلَ اللَّهُ : « قَدْ حَاجَّكَ فِيهِ (أَيُّ فِي عَيْسَى) مِنْ بَدَدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ قُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ »

فَقَالَ لَهُمْ : إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي إِنْ لَمْ تَحْبِلُوا الْحُجَّةَ أَنْ أَبْأَهْلَكُمْ - وَلِلْمَالَةِ اللَّاعِنَةُ - فَقَالُوا يَا أَبَا الْقَاسِمِ : بَلْ نَرْجِعُ فَنَنْتَظِرُ فِي أَمْرِنَا ثُمَّ نَأْتِيكَ ، فَلَمَّا رَجَعُوا قَالُوا لِلْعَاقِبِ وَكَانَ ذَا رَأْيِهِمْ « وَهُوَ أَحَدُ رُؤُسَائِهِمْ ، قَالَ يَأْقُوتُ فِي مَسْجِدِهِ : وَوَفَدَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفَدَ نَجْرَانُ وَفِيهِمُ السَّيِّدُ وَاسْمُهُ وَهَبٌ ، وَالْعَاقِبُ وَاسْمُهُ عَبْدُ السَّبِيحِ ، وَالْأَسْفَفُ وَهُوَ أَبُو حُلْوَةَ ، وَأَرَادَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَبَاهِلَهُمْ فَامْتَنَعُوا ... الخ » يَأْبُدُ السَّبِيحُ مَا رَى ؟ قَالَ « وَاللَّهِ لَقَدْ عَرَضَ يَامُعْشَرَ النَّصَارَى أَنْ يَمُرَّ بِكُمْ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ ، وَلَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْكِتَابِ الْحَقِّ فِي أَمْرِ صَاحِبِكُمْ « أَيُّ عَيْسَى » وَاللَّهِ مَا بَاهَلَ قَوْمٌ نَبِيًّا قَطُّ ، فَنَاشَ كَبِيرُهُمْ وَلَانَتْ صَغِيرُهُمْ ، وَلَقَدْ فَطَمَ لَكِنَّ الْإِسْتِصَالَ ، فَإِنْ أَيْتَمَ إِلَّا الْإِصْرُ عَلَى دِينِكُمْ ، وَالْإِقَامَةُ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ، فَوَادِعُوا الرَّجُلَ وَاضْرُفُوا إِلَى بِلَادِكُمْ » وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ وَطِيْلُهُ مَرْطُومٌ مِنْ شَعْرِ أَسْوَدَ « وَالرَّطُومُ ذَلِكَ كَرَكَاءٍ مِنْ صُوفٍ أَوْخَزَ » وَقَدْ احْتَضَنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَخَذَ يَدَ الْحَسَنِ ، وَفَاطِمَةَ تَحْتَى خَلْفَهُ ، وَعَلَى رُضَى اللَّهِ عَنْهُ خَلْفُهَا ، وَهُوَ يَقُولُ « إِذَا دَعَوْتُ فَأَمْنُوا » فَقَالَ اسْقِفْ نَجْرَانُ : « يَامُعْشَرَ النَّصَارَى إِنِّي لَأَرَى وَجُوهًا لَوْ سَأَلُوا اللَّهَ أَنْ يُزِيلَ جِيلًا مِنْ مَكَانِهِ لَأَزَالَهُ لَهَا ، فَلَا تَبَاهِلُوا قَتْلَكُمْ ، وَلَا يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ نَصْرَانِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » ثُمَّ قَالُوا يَا أَبَا الْقَاسِمِ : « رَأَيْنَا أَنَّ لَانِبَاحَكَ وَأَنْ تَتْرَكَ عَلَى دِينِكَ » قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « فَإِذَا أَيْتَمَ الْمَالَةُ فَاسْلُومُوا ، يَكُنْ لَكُمْ مَالُ الْمُسْلِمِينَ وَعَلَيْكُمْ مَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ » فَأَبَوْا ، قَالَ : فَإِنِّي أَنَا جَزَكُمُ الْقَتْلَ ، فَقَالُوا مَا لَنَا بِحَرْبِ الْعَرَبِ طَاقَةٌ ، وَلَكِنْ نَصَالُكَ عَلَى أَنْ لَا تَنْزَوْنَا وَلَا تَرْدُنَا عَنْ دِينِنَا ، عَلَى أَنْ تُؤَدِيَ إِلَيْكَ فِي كُلِّ عَامٍ أَلْفَ حِلَّةٍ ، أَلْفًا فِي صَفَرٍ ، وَأَلْفًا فِي رَجَبٍ ، وَتِلَاثِينَ دِرْهَمًا مِنْ حَدِيدٍ ، فَصَالِحُهُمْ عَلَى ذَلِكَ ، وَقَالَ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، إِنْ هَلَّاكَ قَدْ تَدَلَّى عَلَى أَهْلِ نَجْرَانَ وَلَوْ لَاعَنُوا مَسْخُورَةً وَخَنَازِيرَ ، وَلَا ضَرْطَ عَلَيْهِمُ الْوَادِي نَارًا ، وَلَا تَأَسَّصَ اللَّهُ نَجْرَانُ وَأَهْلَهُ ، حَقَّ الْخَطِّ عَلَى رُؤُوسِ الشَّجَرِ ، وَلَمَّا حَالَ الْحَوْلُ عَلَى النَّصَارَى كُلِّهِمْ حَتَّى يَهْلِكُوا » وَرَوَى أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَخْرَجَ فِي الرَّمْطِ الْأَسْوَدِ جَاءَ الْحَسَنُ فَأَدْخَلَهُ ، ثُمَّ جَاءَ الْحُسَيْنُ فَأَدْخَلَهُ ، ثُمَّ فَاطِمَةُ ، ثُمَّ عَلَى رُضَى اللَّهِ عَنْهُمْ ، ثُمَّ قَالَ : « إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا » فَمِنْ ذَلِكَ الْوَقْتُ سَمِيَ الْجَنَّةُ أَصْحَابُ الْكِبَاءِ (أَنْظَرَ كَتَبَ ثَمَارُ الْقُلُوبِ فِي الْمُنَافِقِ وَالنُّسُوبِ لِشَامِلِي ص ٤٨٣ وَتَقَرَّرَ الْفَقْرُ الرَّازِي مَقَاتِلِ النَّبِيِّ ٢ : ٦٩٩)

[١] هو جعفر بن أبي طالب ، وقد استشهد في غزوة مؤتة سنة ثمان للهجرة ، وكان يقول حين أُمِرَ الرِّايَةَ مِنْ زَيْدِ بْنِ حُلْوَةَ أَلْفِي اسْتَشْهِدْ قَبْلِي فِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ :

يَا حَبِيبَا الْجَنَّةِ وَاقْتَرَبَا طِيَّةً وَبَارِدًا شَرَابًا

وَلَقَبَ بِالطَّيَّارِ لِمَا رَوَى عَنْ عِكْرَمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « دَخَلْتُ الْجَنَّةَ

المأوى ، وغَذَّتْكَ أَكْفَ الحق ، وَرُئِيتَ فِي حِجْرِ الإسلام ، ورضعت ندى
الإيمان ، فَطَبَّتَ حَيَا وَمَيِّتًا ، فَلَمَّا كَانَتِ الْأَنْفُسُ غَيْرَ طَبِيعٍ لِفِرَاقِكَ ، إِنَّمَا غَيْرُ
شَاكِكَةٍ أَنْ قَدْ خَيْرَ لَكَ ^(١) ، وَإِنَّكَ وَأَخَاكَ لَسَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، فَطَبِّعْ
أَبَا مُحَمَّدٍ مَنَا السَّلَامَ .

(زمر الآداب ١ : ٦٩ ، ومروج الذهب ٢ : ٥١ ، والمقد الفريد ٢ : ٧)

مقتل الحسين بن علي

رضى الله عنه

تأنيبه عن بيعة يزيد وخروجه إلى مكة

لِمَا وَلِيَ الْخِلَافَةَ يَزِيدُ بْنُ مَعَاوِيَةَ (فِي هَلَالِ رَجَبِ سَنَةِ ٦٠ هـ) كَتَبَ إِلَى أَمِيرِ
الْمَدِينَةِ الْوَلِيدِ بْنِ عُثْبَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ أَنْ يَأْخُذَ الْحُسَيْنَ ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ الزَّيْبِرِ ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ
عَمْرِ بِالْبَيْعَةِ أَخْذًا شَدِيدًا لَيْسَتْ فِيهِ رُخْصَةٌ ^(٢) ، فَبَعَثَ الْوَلِيدُ إِلَى الْحُسَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
وَفَضَّلَ لَهُ مَعَاوِيَةَ وَدَعَاهُ إِلَى الْبَيْعَةِ ، فَقَالَ الْحُسَيْنُ : « إِنْ مِثْلِي لَا يُعْطَى بَيْعَتُهُ سِرًّا ،
وَلَا أَرَاكَ تَجْتَزِي بِهَا مَنِي سِرًّا ، دُونَ أَنْ تُظْهِرَهَا عَلَى رُءُوسِ النَّاسِ عَلَانِيَةً ، فَإِذَا خَرَجْتَ
إِلَى النَّاسِ فَدَعَوْتَهُمْ إِلَى الْبَيْعَةِ دَعَوْتَنَا مَعَ النَّاسِ ، فَكَانَ أَمْرًا وَاحِدًا » فَقَالَ لَهُ الْوَلِيدُ - وَكَانَ
يُحِبُّ الْعَاقِبَةَ - « فَانْصَرَفَ عَلَى اسْمِ اللَّهِ حَتَّى تَأْتِيَنَا مَعَ جَمَاعَةِ النَّاسِ » .

فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْقَدَمِ بَعَثَ الرِّجَالَ إِلَى الْحُسَيْنِ عِنْدَ الْمَاءِ ، فَقَالَ : « أَصْبَحُوا ثُمَّ تَرَوْنَ
وَنَرَى » فَكَفُّوا عَنْ تِلْكَ اللَّيْلَةِ وَلَمْ يُلْحِظُوا عَلَيْهِ ، فَخَرَجَ الْحُسَيْنُ مِنْ تَحْتِ لَبْلَتِهِ (لِيُؤْمِنَ)
بِقِيَامِ رَجَبِ سَنَةِ ٦٠ هـ) وَمَعَهُ بَنُوهُ وَإِخْوَتُهُ وَبَنُو أَخِيهِ وَجُلُّ أَهْلِ بَيْتِهِ إِلَّا مُحَمَّدُ بْنُ
الْحَنْفِيَّةِ ، فَانْهَى عَنْهُ : فَانْهَى عَنْهُ :

البارحة ، فَرَأَيْتَ جَمْفَرًا يُطِيرُ مَعَ الْمَلَائِكَةِ وَجَنَاحَهُ مَضْرُوبًا بِالْقَمَرِ » - رَاجِعِ الرُّوْضَ الْأَنْفَ شَرْحَ السِّيرَةِ
الْثَّبُوتِ لِابْنِ مِثْلَمَ ٢ : ٢٠٨ - [١] خَارَ اللَّهُ عَنْكَ فِي الْأَمْرِ : جَمَلٌ لَكَ فِيهِ الْخَيْرُ .
[٢] الرُّخْصَةُ : التَّخْفِيفُ .

٢٠ - نصيحة محمد بن الحنفية للحسين رضى الله عنهما

« يا أخى : أنت أحب الناس إلى ، وأعزهم على ، ولست أدخر النصيحة لأحد من الخلق أحق بها منك ، تنح بقبمتك ^(١) عن يزيد بن معاوية ، وعن الأمصار ما استطعت ، ثم ابست رؤسك إلى الناس ، فادعهم إلى نفسك ، فإن بايعوا لك حمدت الله على ذلك ، وإن أجمع الناس على غيرك لم ينقص الله بذلك دينك ولا عقلك ، ولا يذهب به مروءتك ولا فضلك ، إني أخاف أن تدخل مصرا من هذه الأمصار ، وتأتى جماعة من الناس ، فيختلفوا بينهم ، فتنهم طائفة منك ، وأخرى عليك ، فيقتلوا ، فتكون لأول الأئمة ، فإذا خير هذه الأمة كلها نفساً وأباً وأماً أضيمها دماً ، وأذلها أهلاً » .

قال له الحسين : « فإني ذاهب يا أخى » . قال : « فأنزل مكة ، فإن اطمانت بك الدار فسبيل ذلك ، وإن نبت ^(٢) بك لحقت بالرمال ، وشعف ^(٣) الجبال ، وخرجت من بلد إلى بلد ، حتى تنظر إلى أم يصير أمر الناس ، وتعرف عند ذلك الرأى ، فإنك أصوب ما يكون رأياً ، وأحرز مه عملاً ، حتى تستقبل الأمور استقبالا ، ولا تكون الأمور عليك أبداً أشكلاً منها حين تستدبرها استدياراً » . قال : « يا أخى قد نصحت فأشفت ، فأرجو أن يكون رأيك سديداً مؤوقفاً ، وسار إلى مكة ، فأتاه أهل الكوفة ورسلمهم ، إنا قد حبسنا أنفسنا عليك : ولسنا نحضر الجمعة مع الوالى فاقدم علينا ^(٤) - وكان النعمان بن بشير الأنصارى على الكوفة -

[١] تبة جمع تابع . [٢] ضاقت . [٣] الشف جمع شفة محركة ، وهى رأس الجبل .

[٤] اجتمعت الشيعة بالكوفة في منزل سليمان بن صرد ، فذكروا هلاك معاوية فحمدوا الله عليه ، فقال سليمان : « إن معاوية قد هلك » ، وإن حيناً قد قبض على انقوم بيعته ، وقد خرج إلى مكة ، وأنه

بعثه مسلم بن عقيل إلى الكوفة

فبعث الحسين إلى ابن عمه مسلم بن عقيل ، فقال له :
« سر إلى الكوفة فانظر ما كتبوا به إلَيَّ ، فَإِنْ كَانَ حَقًّا خَرَجْنَا إِلَيْهِمْ ،
فَإِنْ جَرَجَ مُسْلِمٌ إِلَى الْكُوفَةِ ، وَتَزَلَّ دَارُ الْمُخْتَارِ بْنِ أَبِي عُبَيْدٍ ، وَأَقْبَلَتِ الشَّيْعَةُ تَحْتَلِفُ
إِلَيْهِ ، فَقَرَأْ عَلَيْهِمْ كِتَابَ الْحُسَيْنِ فَأَخَذُوا يَكُونُ .

٢١ — خطبة عابس بن أبي شبيب الشاكري

فقام عابس بن أبي شبيب الشاكري ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

شيعته وشيعة أبيه ، فَإِنْ كُنْتُمْ تَطْلُبُونَ أَنْكُمْ تَصْرُوهُ وَمُجَاهِدُو عَدُوِّهِ فَأَكْتُبُوا إِلَيْهِ ، وَإِنْ خِفْتُمْ الْوَهْلَ
(بِالْتَمَرِيكِ : الضَّفِّ وَالْفَرْعِ وَالْقَتْلِ) فَلَا تُفْرُوا الرَّجُلَ مِنْ قَسَمِهِ « قَالُوا « لَا ، بَلْ نَقَاتِلُ عَدُوَّهُ وَنَقْتُلُ
أَنْفُسَنَا دُونَهُ » قَالَ : فَأَكْتُبُوا إِلَيْهِ ، فَكُتِبُوا إِلَيْهِ : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ مِنْ
سُلَيْمَانَ بْنِ صَرْدٍ ، وَالسَّبِيبُ بْنُ نَجِيَّةٍ ، وَرَفَاعَةُ بْنُ شَدَادٍ ، وَحَبِيبُ بْنُ مَظَاهِرٍ وَشَيْعَتُهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ
مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ ، سَلَامٌ عَلَيْكَ ، فَإِنَّا نَحْمَدُ إِلَيْكَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، أَمَّا بَعْدُ : فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي قَسَمَ عَدُوَّكَ
الْجَبَّارَ الْعَنِيدَ الَّذِي أَنْزَلَ (وَتَبَّ) عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ ، فَأَبْرَزَهَا أَمْرَهَا ، وَغَضِبَهَا فِيهَا ، وَتَأَسَّرَ عَلَيْهَا بَنُو رِضَا
مِنْهَا ، ثُمَّ قَتَلَ خِيَارَهَا ، وَاسْتَقْبَلَ شَرَّهَا ، وَجَعَلَ مَالَ اللَّهِ دَوْلَةً بَيْنَ جَابِرَتِهَا وَأَغْنِيَّتِهَا ، فَبَعْدًا لَهُ كَمَا بَدَتْ
شُجُودُ ، إِنَّهُ لَيْسَ عَلَيْنَا إِمَامٌ ، فَأَقْبَلْ لِمَلِّ اللَّهِ أَنْ يَجْعَلَنَا بِكَ عَلَى الْحَقِّ ، وَلِلنَّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ فِي قَصْرِ الْإِمَارَةِ ،
غُسْنَا نَجْعُجْ مَعَهُ فِي جَمْعَةٍ ، وَلَا نَخْرُجْ مَعَهُ إِلَى عَيْدٍ ، وَلَوْ قَدْ بَلَّغْنَا أَمْرَكَ قَدْ أَقْبَلْتَ إِلَيْنَا أَخْرَجْتَهُ ، حَقٌّ فَلَحَقَهُ
نَامُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَالسَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ » وَكُتِبُوا إِلَيْهِ أَيْضًا : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، الْحُسَيْنُ بْنُ
، مِنْ شَيْعَتِهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ ، أَمَّا بَعْدُ : فَخَيْلًا (أَيْ أَقْبَلْ) فَإِنَّ النَّاسَ يَنْظُرُونَكَ ، وَلَا رَأْيَ
مِ فِي قَبْرِكَ ، فَالْجَبَلُ الْعَجَبُ وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ » وَكُتِبُوا : « أَمَّا بَعْدُ : قَدْ أَخْضَرَ الْجَنَابُ ، وَأَبْنَتْ
أُحَارَ ، وَطَمَتِ الْجَلَامُ ، (الْجَلَامُ : بِالْكَسْرِ جَمْعٌ بِالْفَتْحِ وَهُوَ مَعْظَمُ الْمَاءِ ، وَطَمَى لِلْمَاءِ : دَلَا ، وَطَمَ :
ر) فَإِذَا شَقَّتْ فَانْدَمَ عَلَى جَنْدِكَ مَجْدٌ ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ » فَكُتِبَ إِلَيْهِمْ : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ،
، حُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ إِلَى اللَّائِلِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ ، أَمَّا بَعْدُ : فَإِنْ هَانَتْ وَسَمِيدًا (وَهْمَا هَانُ بْنُ هَانٍ
سَمِيدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ) قَدْ عَلَيَّ بِكُتُبِكُمْ ، وَكَانَ آخِرُ مَنْ قَدِمَ عَلَيَّ مِنْ رُسُلِكُمْ ، وَقَدْ نَهَمْتُ كُلَّ الَّذِي
مَصَمْتُ وَذَكَرْتُهُ ، وَفَقَالَ جُلُوسُكُمْ إِنَّهُ لَيْسَ عَلَيْنَا إِمَامٌ ، فَأَقْبَلْ لِمَلِّ اللَّهِ أَنْ يَجْعَلَنَا بِكَ عَلَى الْهَدْيِ وَالْحَقِّ ،
دَ بَعَثَ إِلَيْكُمْ أَخِي وَابْنَ عَمِّي وَتَحَقَّقَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي ، وَأَمَرْتُهُ أَنْ يَكْتُبَ إِلَيَّ بِمَالِكُمْ وَأَمْرَكُمْ وَرَأْيَكُمْ ،
نَ كُتِبَ إِلَيَّ أَنَّهُ قَدْ أَجْمَعَ رَأْيَ مُلُوكِكُمْ وَذَوِي الْفَضْلِ وَالْجَبَابَةِ مَتَكُمُ عَلَى مِثْلِ مَا قَدِمْتُ عَلَيَّ بِهِ رُسُلُكُمْ
لَرَأَيْتُ فِي كُتُبِكُمْ ، أَتَمُّكُمْ عَلَيْكُمْ وَشَبِيحًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، فَلَمَّسْتُ مَا لِلْإِمَامِ إِلَّا الْعَاطِلَ بِالْكِتَابِ وَالْأَخْذَ بِالْقِسْطِ
لِمَنْ بَالِغُ الْحَقِّ ، وَالْحَاسِ قَسَمُهُ عَلَى ذَاتِ اللَّهِ وَالسَّلَامِ .

« أما بعد ، فإنى لا أخبرك عن الناس ، ولا أعلم ما فى أنفسهم ، وما أغرك منهم ، والله أحدثك عما أنا موطنٌ نفسى عليه ، والله لأجيدنكم إذا دعوتهم ، ولأقاتلن معكم عدوكم ، ولأضربن بسيفى دونكم ، حتى ألقى الله ، لا أريد بذلك إلا ما عند الله »

فقام حبيب بن مظاهر الفقعسى فقال :

« رحمك الله قد قضيت ما فى نفسك بواجب من قولك » ثم قال : « وأنا والله الذى لا إله إلا هو على مثل ما هذا عليه » وقال غيرهما مثل قولهما .
فبلغ ذلك النعمان بن بشير ، فخرج فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

٢٢ — خطبة النعمان بن بشير

« أما بعد ، فاتقوا الله عباد الله ، ولا تسارعوا إلى الفتنة والفرقة ، فإن فيهما يهلك الرجال ، وتُسْفَك الدماء ، وتُنْصَب الأموال - وكان حليما ناسكا يحب العافية - قال : إني لم أقاتل من لم يقاتلنى ، ولا أئيبُ على من لا يئيبُ على ، ولا أشاعكم ، ولا أتحرشُ بكم ، ولا آخذ بالقرينة^(١) ولا الظنَّة ولا التهمة ، ولكنكم إن أبديتهم صفحتكم^(٢) لى ، ونكثتكم يعنكم ، وخالفتكم إمامكم ، فوالله الذى لا إله غيره لأضربنكم بسيفى ما ثبتت قائمته فى يدى ، ولو لم يكن لى منكم ناصر ، أما إنى أرجو أن يكون من يعرف الحق منكم أكثر ممن يزيده الباطل »

فقام إليه عبد الله بن مسلم بن سعيد الحضرمى حليف بنى أمية ، فقال لهم

[١] الفرقة : التهمة ، وقرنه بالنهى : التهمة . [٢] أى جاعلهم عونى بالعداوة .

« إنه لا يُصْلِح ما ترى إلا العُشْم »^(١) ، إن هذا الذي أنت عليه فيما بينك وبين عدوك رأى المُتَضَعِّفِينَ ، فقال : « أن أكون من المُتَضَعِّفِينَ في طاعة الله أَحَبُّ إِلَيَّ من أن أكون من الْأَعَزِّين في معصية الله » ثم نزل .

وكتب عبد الله بن مسلم وغيره إلى يزيد أن يبعث إلى الكوفة رجلاً قوياً غير النعمان ، فبعث إلى عُبيد الله بن زياد - وكان على البصرة - وضم إليه الكوفة ، فصار إليها ، فلما نزل القصر نودي الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس فخرج إليهم .

٢٣ - خطبة عيد الله بن زياد

حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، فإن أمير المؤمنين (أصلحه الله) وَلَآئِي مِصْرَكُمْ وَتَرْكَكُمْ^(٢) وأمرني بإنصاف مظلومكم ، وإعطاء محرومكم ، وبالإحسان إلى سامعكم ومطيعكم ، وبالشدّة على مُريبكم وعاصيكم ، وأنا مُتَّبِعٌ فيكم أمره ، وَمُنفِذٌ فيكم عهده ، فأنا لمحسَنكم ومطيعكم كالوالد الأبَرّ ، وَسَوَاطِي وسيفي على من ترك أمرى ، وخالف عهدي ، فليُبَيِّنْ امرؤ على نفسه ، الصدق يُنَبِّئُ عنك لا الوعيد » .

نزل فأخذ العُرَافَةَ^(٣) والناس أخذاً شديداً ، وبلغ ذلك مسلم بن عقيل ، فخرج دار المختار، حتى انتهى إلى دارهاني بن عُرْوَةَ المُرَادِيّ لائداً به ، ونمى خبره إلى زياد ، فبعث إلى هاني فجاءه ، فأمره أن يأتيه بمسلم ، فقال لا والله لا أجيئك بدءاً ، أنا أجيئك بضيق تقتله ! وطال بينهما اللجاج في ذلك ، فضربه ابن زياد ضيَب ، فلم يزل يضرب أُنْفَه وجبينه وخده ، حتى كسر أنفه ، وَسَيَّلَ الدماء

[١] النعم : الظلم ، والرد الشدة . [٢] التتر : وضع الخفاة من فروج البلدان .

[٣] جمع عريف ، وهو رئيس القوم مسمى لأنه عرف بذلك أو التَّيْب وهو دون الرئيس .

على ثيابه ، وشر لحم خديه وجبينه على لحيته ، حتى كسر القضيب ، ثم أمر بحبسه .

٢٤ - خطبة أخرى له

ولما ضرب عبيد الله هائثاً وحبسه ، خَتِيَ أَنْ يَتَّبِ النَّاسُ بِهِ ، فَخَرَجَ فَصَدَدَ المنبر ومعه أشراف الناس وَشُرْطُهُ وَحَشَمَهُ ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« أما بعد ، أيها الناس : فاعتصموا بطاعة الله وطاعة أئمتكم ، وَلَا تَخْتَلِفُوا وَلَا تَفَرَّقُوا ، فَتَهْلِكُوا وَتَذَلُّوا وَتُقْتَلُوا ، وَتُجَفَّوْا وَتُحْرَمُوا ، إِنْ أَخَاكَ مِنْ صَدَقِكَ ، وقد أعذر من أئدر »

وبلغ مسلم بن عقيل خبر ضرب هائث وحبسه ، فأمر أن ينادى في أصحابه وَكَانَ قَدْ بَايَعَهُ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ أَلْفًا ، وَأَقْبَلَ نَحْوَ الْقَصْرِ ، فَتَحَرَّزَ فِيهِ ابْنُ زِيَادٍ ، وَغَلَقَ الْأَبْوَابَ ، وَبَعَثَ إِلَى الْأَشْرَافِ فَجَمَعَهُمْ إِلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ : « أَشْرِفُوا عَلَى النَّاسِ ، فَتَنُوا أَهْلَ الطَّاعَةِ الزِّيَادَةَ وَالْكَرَامَةَ ، وَخَوْفُوا أَهْلَ الْمَصِيَةِ الْحَرَمَانَ وَالْمَقُوبَةَ ، وَأَعْلَمُوهُمْ قُصُولَ ^(١) الْجُنُودِ مِنَ الشَّامِ إِلَيْهِمْ » .

٢٥ - خطبة كثير بن شهاب

فكلم كثير بن شهاب أول الناس فقال :

« أَيُّهَا النَّاسُ : الْحَقُّوْا بِأَهَالِكُمْ ، وَلَا تَعَجَلُوا الشَّرَّ ، وَلَا تُعْرِضُوا أَنْفُسَكُمْ لِلْقَتْلِ فَإِنَّ هَذِهِ جُنُودُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ يَزِيدُ قَدْ أَقْبَلَتْ ، وَقَدْ أَعْطَى اللَّهُ الْأَمِيرُ عَهْدًا تَمَّتْ ^(٢) عَلَى حَرْبِهِ ، وَلَمْ تَنْصَرَفُوا مِنْ عَشِيَّتِكُمْ أَنْ يَحْرِمَ ذُرِّيَّتَكُمْ الْعَطَا وَيَفَرِّقَ مُقَاتِلَتَكُمْ فِي مَفَازِ أَهْلِ الشَّامِ عَلَى غَيْرِ طَمَعٍ ، وَأَنْ يَأْخُذَ الْبِرَّ

[١] فصل من البلد فصولاً خرج منه . [٢] يقال : تمت على الأمر ، أى استمرت عليه .

بالسقيم ، والشاهد بالغائب ، حتى لا يبقَ له فيكم بقيةٌ من أهل المعصية إلا أذاها
وبالَ ما جرَّت ^(١) أيديها .

وتكلم الأشراف بنحو من كلام هذا ، فلما سمع الناس مقالهم أخذوا
يتفرقون وينصرفون عن ابن عقيل ، حتى أمسى وما معه إلا ثلاثون نفساً ، فخرج
متوجهاً نحو أبواب كِنْدَةَ ، فبلغ الأبواب ومعه منهم عشرة ، ثم خرج من الباب
وإذا ليس معه إنسان ، فضى على وجهه في أزقة الكوفة ، حتى انتهى إلى باب
عجوز فسألها أن تؤويه ، فأوته في دارها .

٣٦ — خطبة عبيد الله بن زياد

ولما انقضت جموع ابن عقيل ، خرج عبيد الله بن زياد إلى المسجد ،
وأمر فنودي : « أَلَا بَرَّتِ الذِّمَّةَ مِنْ رَجُلٍ صَلَّى الْعَمَّةَ ^(٢) إِلَّا فِي الْمَسْجِدِ » ،
فلم يكن إلا ساعة حتى امتلأ من الناس ، فصلى بهم ، ثم قام فحمد الله وأثنى
عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فَإِنَّ ابْنَ عَقِيلٍ السَّفِيهِ الْجَاهِلُ ، قَدْ أَتَى مَا قَدْ رَأَيْتُمْ مِنَ الْخِلَافِ
الشَّقَاقِ ، فَبَرَّتِ ذِمَّةَ اللَّهِ مِنْ رَجُلٍ وَجَدْنَاهُ فِي دَارِهِ ، وَمَنْ جَاءَ بِهِ فَلَهُ دِيْنُهُ ،
يَا اللَّهُ عِبَادَ اللَّهِ ، وَالزَّمُوا طَاعَتَكُمْ وَبِعْتَكُمْ ، وَلَا تَجْعَلُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ سَبِيلًا .

يَا حُصَيْنَ بْنَ مُخَبَّرٍ ^(٣) ، ثَكِلَتْكَ ^(٤) أُمُكُ إِنَّ صَاحَ ^(٥) بَابِ سِكَّةٍ مِنْ
بِكَ الْكُوفَةِ ، أَوْخَرَجَ هَذَا الرَّجُلَ وَلَمْ تَأْتِنِي بِهِ ، وَقَدْ سَلَطْتُكَ عَلَى دُورِ أَهْلِ

[١] جرّ جريرة : اجتمع جريرة . [٢] العمة : وقت صلاة العشاء .

[٣] وكان على شرط ابن زياد . [٤] ثكلة : قدم .

[٥] صاحبه يصوحه فاصحاح : أي شقته قاتق ، والمراد : فتح باب سكة وحرب .

الكوفة ، فابست مُرَاصِدَةً على أفواه السكك ، وَأَصْبَحَ غَدًا وَاسْتَبْرَأَ^(١) الثَّوَرُ وَجُسْنَ خِلَالَهَا ، حَتَّى تَأْتِيَنِي بِهَذَا الرَّجُلِ . « ثم نزل .

وأصبح ابن تلك العجوز التي آوت مسلماً ، فدل على مكانه ، فبعث ابن زياد محمد بن الأشعث في ستين أو سبعين رجلاً قَاتَى بِهِ ، وَأَمَرَ بِهِ ، فَأَصْعَدَ إِلَى أَعْلَى الْقَصْرِ ، وَضَرَبَ عُنُقَهُ ، فَهَوَى رَأْسَهُ إِلَى الْأَرْضِ ، وَاتَّبَعَ جَسَدُهُ رَأْسَهُ ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَانِي بْنِ عُرْوَةَ ، فَأَخْرَجَ إِلَى السُّوقِ ، فَضَرَبَتْ عُنُقَهُ .

وَكَانَ مُسْلِمٌ حَيْثُ تَحَوَّلَ إِلَى دَارِ هَانِيٍّ ، كَتَبَ إِلَى الْحُسَيْنِ : « إِنِّي قَدْ بَايَعْتُ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ أَلْفًا ، فَجَلَّ الْإِقْبَالُ حِينَ يَأْتِيكَ كِتَابِي ، فَإِنْ النَّاسُ كُلُّهُمْ مَعَكَ ، لَيْسَ لَهُمْ فِي آلِ مُعَاوِيَةَ رَأْيٌ وَلَا هَوًى » .

فسار الحسين من مكة (في ٨ من ذى الحجة سنة ٦٠ هـ) متوجهاً إلى الكوفة ، وهو لا يعلم بحال مسلم .

خروج الحسين الى الكوفة

٢٧ — نصيحة ابن عباس له

ولما أجمع الحسين بن عليّ رضي الله عنه المسيرَ إلى الكوفة ، أتاه عبد الله بن عباس ، فقالَ : « يَا بَنَى عَمِّ إِنَّكَ قَدْ أَرْجَفَ النَّاسَ أَنَّكَ سَأْتُرُ إِلَى الْمَرَاوِ قَيِّتٍ لِي مَا أَنْتَ صَانِعٌ ؟ » قالَ : « إِنِّي قَدْ أَجْمَعْتُ الْمَسِيرَ فِي أَحَدِ يَوْمَيَّ هَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى » ، فقالَ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ : « فَإِنِّي أَعِيذُكَ بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ ، أَخْبِرْنِي — رَحِمَ اللَّهُ — أَسِيرُ إِلَى قَوْمٍ قَدْ قَتَلُوا أَمِيرَهُمْ ، وَضَبَطُوا بِلَادَهُمْ ، وَتَقَوَّا عَدُوَّهُمْ ؟ فَإِنْ قَدْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَسِرْ إِلَيْهِمْ ، وَإِنْ كَانُوا إِنَّمَا دَعَوْكَ إِلَيْهِمْ ، وَأَمِيرُهُمْ عَلَيْهِمْ قَاهِرٌ لَمْ

وَعَمَّالُهُ تَجَنَّبِي بِلَادَهُمْ ، فَإِنَّهُمْ إِنَّمَا دَعَوْكَ إِلَى الْحَرْبِ وَالْقِتَالِ ، وَلَا آمَنُ عَلَيْكَ أَنْ يَنْرُوكَ وَيَكْذِبُوكَ وَيُخَافُوكَ وَيَخْذُلُوكَ ، وَأَنْ يُسْتَنْفَرُوا إِلَيْكَ ، فَيَكُونُوا أَشَدَّ النَّاسِ عَلَيْكَ » فَقَالَ لَهُ حُسَيْنٌ : « وَإِنِّي أَسْتَخِيرُ اللَّهَ وَأَنْظُرُ مَا يَكُونُ » .

فخرج ابن عباس من عنده ، وأتاه ابن الزبير ، فحدثه ساعة ، ثم قال : « مَا أَدْرَى مَا تَرْكُنَا هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ وَكَفْنَا عَنْهُمْ ، وَنَحْنُ أَبْنَاءُ الْمُهَاجِرِينَ ، وَوَلَاءَةُ هَذَا الْأَمْرِ دُونَهُمْ ، خَبَّرَنِي مَا تَرِيدُ أَنْ تَصْنَعَ ؟ » فَقَالَ الْحُسَيْنُ : « وَاللَّهِ لَقَدْ حَدَّثْتُ نَفْسِي بِإِيَّانِ الْكُوفَةِ ، وَلَقَدْ كَتَبْتُ إِلَى شِيعَتِي بِهَا وَأَشْرَفْتُ أَهْلَهَا ، وَأَسْتَخِيرُ اللَّهَ » فَقَالَ لَهُ ابْنُ الزَّبِيرِ : « أَمَا لَوْ كَانَ لِي بِهَا مِثْلُ شِيعَتِكَ مَا عَدَلْتُ بِهَا » ، ثُمَّ إِنَّهُ خَشِيَ أَنْ يَتَّهِمَهُ فَقَالَ : « أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَقَمْتَ بِالْحِجَازِ ، ثُمَّ أَرَدْتَ هَذَا الْأَمْرَ هَاهُنَا مَا خُوفَ عَلَيْكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ » ، ثُمَّ قَامَ فَخَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ ، فَقَالَ الْحُسَيْنُ : « هَا ، إِنَّ هَذَا لَيْسَ شَيْءٌ يُؤْنَسُ مِنَ الدُّنْيَا أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ أُخْرَجَ مِنَ الْحِجَازِ إِلَى الْعِرَاقِ ، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ مِنَ الْأَمْرِ مَعِيَ شَيْءٌ ، وَأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَعْدِلُوهُ ^(١) بِي ، فَوَدَّ أَنْ يَخْرُجَ مِنْهَا لَتَخْلُوَ لَهُ » .

فلما كَانَ مِنَ الْعَشِيِّ أَوْ مِنَ الْعَدَا ، أَتَى الْحُسَيْنَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ ، فَقَالَ : « يَا بَنَ عَمِّ ، إِنِّي أَتَصَبَّرُ وَلَا أَصْبِرُ ، إِنِّي أَتَخَوِّفُ عَلَيْكَ فِي هَذِهِ الْوَجْهَةِ الْمَهْلَاكَ لَا سِتْصَالَ ، إِنَّ أَهْلَ الْعِرَاقِ قَوْمٌ غُدُرٌ ^(٢) ، فَلَا تَقْرَبْهُمْ ، أَقِمْ بِهَذَا الْبَلَدِ ، لَكَ سَيِّدُ أَهْلِ الْحِجَازِ ، فَإِنْ كَانَ أَهْلُ الْعِرَاقِ يَرِيدُونَكَ كَمَا زَعَمُوا ، فَامْكُتِبْ لَهُمْ فَلْيَتَفَقَّحُوا عَدُوَّهُمْ ، ثُمَّ اقْدَمْ عَلَيْهِمْ ، فَإِنْ أُبَيَّتَ إِلَّا أَنْ تَخْرُجَ ، فَمَبْرُؤٌ إِلَى الْيَمَنِ ، بِهَا حَصُونًا وَشِعَابًا ^(٣) ، وَهِيَ أَرْضُ عَرِيضَةِ طَوِيلَةٍ ، وَلَا يُبَالِيكَ بِهَا شِيعَةٌ » ،

[١] أَي لَمْ يَسُووهُ - [٢] جَمْعُ قَدُورٍ كَصُبُورٍ -

[٣] التَّنْبِطُ بِالْكَسْرِ : الطَّرِيقُ فِي الْجَبَلِ ، وَمَا اخْرَجَ بَيْنَ جَبَلَيْنِ .

وأنت عن الناس في عزلة ، فكتب إلى الناس وترسل وتبث دُعَاكَ ، فإنني أرجو أن يأتيك عند ذلك ، الذي تحب في عاقبة .

فقال له الحسين : « يابن عم ، إني والله لأعلم أنك ناصح مُشفق ، ولكني قد أزمعت وأجمعت ^(١) على المسير » فقال له ابن عباس : « فإن كنت سائراً : فلا تَسِرْ بنسائك وصبيتك ، فوالله إني لخائف أن تقتل كما قُتِلَ عثمان ، ونساؤه وولده ينظرون إليه » ، ثم قال ابن عباس : « لقد أقررت عين ابن الزبير بتخليتك إياه والحجاز ، والخروج منها ، وهو اليوم لا ينظر إليه أحد معك ^(٢) ، والله الذي لا إله إلا هو ، لو أعلم أنك ، إذا أخذتُ بشرك وناصيتك حتى يجتمع على عليك الناس أطعني ، لَفَعَلْتُ ذلك » ثم خرج ابن عباس من عنده ، فرأى بعد الله بن الزبير ، فقال : قرأت عينك يابن الزبير ! ثم قال :

يَا لَكَ مِنْ قُبْرَةٍ يَمُوتُ خَلَاكَ الْجَوْفِيُّضِي وَاصْفِرِّي
وَتَقْرِي مَا شِئْتَ أَنْ تُنْقَرِي ^(٣)

هذا حسين يخرج إلى العراق ، وعليك بالحجاز .

[١] يقال : أجمعت الفير ، وأجمعت عليه ، وأزمعت السفر ، وعليه ، عزمت عليه وثبت عليه هي

[٢] أي مع وجودك .

[٣] القبرة واحد القبر : ضرب من الطير ، ويقال القنبراء : يضم القاف والباء ، والجمع قنابر . صاحب انقاموس : ولا تقل قبرة (كقنفذة) أي هي لنية ، وقال صاحب اللسان والصحاح : « وأقول : القبرة وقد جاء ذلك في الرجز » وروى شاهداً عليه أنشد أبو عبيدة ، وللمر : الغزل الكثير والكلاء ، وهو مثل وأول من قاله طرفة بن العبد ، وذلك أنه كان مع ممة في سفر وهو ممي ، على ماء ، فذهب طرفة بنخبة له ، فذهب قنابر وفي عامة يومه فلم يصد شيئاً ، ثم حمل نفه وروى ممة ، وتحملوا من ذلك المكان ، فرأى القنابر يلقطن ما تلهن من الحب ، فقال ذلك ، يضرب في يمكن منها صاحبها .

٢٨ — نصيحة أبي بكر بن عبد الرحمن المخزومي له

ودخل أبو بكر عمر بن الرحمن بن الحارث بن هشام ^(١) على الحسين رضي الله عنه ، فقال :

« يا بن عمّ ، إن الرّجيم يُظاَرَنِي ^(٢) عليك ، ولا أدري كيف أنا في النصيحة لك ، فقال يا أبا بكر : ما أنت بمَن يُسْتَفْشَس ، فقال أبو بكر :

« كَانَ أبوك أَشَدَّ بَأْسًا ، والناس له أَرْجَى ، ومنهُ أَسْمَعُ ، وعليه أجمع ، فسار إلى معاوية ، والناس يجتمعون عليه — إلا أهل الشام — وهو أعزُّ منه ، فخذلوه وتناقلوا عنه حرصًا على الدنيا وَضِنًا بها ، فخرّعه الفيلض وخالفوه ، حتى صار إلى ما صار إليه من كرامة الله ورضوانه ، ثم صنعوا بأخيك بعد أيك ما صنعوا ، وقد شهدت ذلك كله ورأيتُهُ ، ثم أنت تريد أن تسير إلى الذين عَدَّوا على أيك وأخيك ، تقاتل بهم أهل الشام وأهل العراق ، ومن هو أعدُّ منك وأقوى ، الناس منه أخوف ، وله أَرْجَى ، فلو بلغهم مسيرك إليهم لاستطفوا الناس موال ، وهم عبيد الدنيا ، فيقاتلك من قد وعدك أن ينصرك ، ويَخْذُلُكَ من — أَلَا ؛ إليه ممن ينصره ، فاذكر الله في نفسك » .

أَبَا بَكْرٍ ، عَمَّ ، فَقَدْ أَجْهَدَكَ رَأْيَكَ ، وَمَهْمَا يَقْضِ

١ ، عمر بن مخزوم الفرسي ،
ذا ، وأطارت وظاَرَنِي

٢٩ - خطبة للحسين رضى الله عنه

ولما بلغ عبيد الله بن زياد أمير الكوفة إقبال الحسين بعث الحصين ابن تمير التميمي ، فأمره أن ينزل القادسية ، وأن يضع المسالِحَ ^(١) ، وقدم الحرث ابن يزيد التميمي بين يديه ، في ألف فارس من القادسية ، فيستقبل حسينا ، وكان الحسين قد سبقه إلى ذى حُصم ، وتزل به ، فسار إليه الحرث حتى وقف هو وخيله مُقابله في حر الظهيرة ، وحضرت صلاة الظهر ، فخرج الحسين ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أيها الناس : إنها معذرة إلى الله عز وجل وإليكم : إني لم آتكم حتى أمتنى كتبكم ، وقدمت على رُسُلكم أن أقدم علينا ، فإنه ليس لنا إمام ، لعل الله يجمعنا بك على الهدى ، فإن كنتم على ذلك فقد جئكم ، فإن تُعطوني ما أطمئنُ إليه من عهدكم ومواثيقكم أقدم مني بكم ، وإن لم تفعلوا وكنتم لمقدمي كارهين ، انصرفت عنكم إلى المكان الذي أقبلت منه إليكم » فسكتوا عنه ، ثم أقيمت الصلاة ، فقال الحسين للحر : أتريد أن تصلى بأصحابك ؟ قال : لا بل تصلى أنت ونصلى بصلاتك ، فصلى بهم الحسين .

٣٠ - خطبة أخرى له

فلما كان وقت العصر ، أمر ^١

مناديه ، فنادى بالصلاة

وأثنى عليه ، ثم قال

« أما بعد : أيها الناس فإنكم إن تتقوا وتعرفوا الحق لأهله ، يكن أرضى الله ، ونحن أهل البيت أولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدّعين ما ليس لهم ، والساثرين فيكم بالجور والعدوان ، وإن أتمم كرهتمونا وجهلتم حقاً ، وكان رأيكم غير ما أئنتى كتبكم ، وقدمت به على رسلكم انصرفت عنكم » .

فقال له الحر : إنا والله ما ندرى ما هذه الكتب التي تذكر ؟ فأخرج له الحسين خُرُجَيْنِ مملوئين مِصْحَفًا ، فنشرها بين أيديهم ، ثم سار الحسين في أصحابه والحر يساره .

٣١ - خطبة أخرى له

وقام الحسين رضى الله عنه بذى حُصْم ، فحمد الله وأئنى عليه ثم قال :
« إنه قد نزل من الأمر ما قد ترَوْن ، وإن الدنيا قد تغيّرت وتنكرت ، وأذبر معروفها ، واستمرّت^(١) جدّاً ، فلم يبق منها إلا ضُبابَةٌ كضُبابَةِ الْإِنَاء ، وخسيسُ عيشٍ كالرعى الوَيْل ، ألا ترون أن الحق لا يُعْمَلُ به ، وأنّ الباطل لا يُنْهَى عنه ، ليرغب المؤمن في لقاء الله مُحِقًا ، فإنى لا أرى الموت إلا شهادة ، ولا الحياة مع الظالمين إلا برّما^(٢) » .

٣٢ - خطبة زهير بن القين البجلي

قام زُهير بن القين البجلي ، فقال لأصحابه : تَكَلِّمُون أَمْ أَتَكَلَّم ؟ قالوا : لا ، تكلم ، فحمد الله وأئنى عليه ، ثم قال :

[١] في كتب الفقه : « مرّة القى » مرّة بضم الليم وقتها مرارة وأمرّة ولم أر فيها بناء « استمرّت » : ما لم منه على أنّ الهزيمة والسين والتاء للصيغة أى صارت مرّة ، ونظيره استجبر الطين ، واستحسن ر (مار حساناً) واستعرب القوم ، وفي الأمثال : « إن البنات بأرضنا يستعرب » « كان هزراً خسيس » « قد استنوق الجبل » . [٢] للبرم : السّامة والضرب برم به كفرح .

« قد سمعنا (هداك الله) يابن رسول الله مقاتلك ، والله لو كانت الدنيا لنا باقية ، وكنا فيها مُخَلَّدِينَ ، إلا أن فراقها في نصرك ومواساتك ، لآثرنا الخروج منك على الإقامة فيها » فدعاه الحسين ، ثم قال له خيراً .

٣٢ — خطبة للحسين أيضاً

وخطب الحسين أصحابه وأصحاب الحرّ بالبيضة ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :
« أيها الناس ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من رأى سلطاناً جائراً مُسْتَحِلًّا لِحَرَمِ اللَّهِ ، ناكثاً لعهده الله ، مخالفاً لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان ، فلم يُعَيَّرْ عليه بفعل ولا قول ، كَانَ حقاً على الله أن يُدْخِلَهُ مَدْخَلَهُ » . ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان ، وتركوا طاعة الرحمن ، وأظهروا الفساد ، وعطلوا الحدود ، واستأثروا بالنيء ، وأحلوا حرام الله ، وحرّموا حلاله ، وأنا أحقّ من غير ، وقد أثنى كتبكم ، وقَدِمْتُ علىّ رسولكم ببيتكم ، أنكم لا تُسَلِمُونِي ^(١) ولا تُتَخَذُونِي ، فَإِنْ تَمَتَّمْتُمْ على بَيْعَتِكُمْ تُصَيِّبُوا رُشْدَكُمْ ، وأنا الحسين بن عليّ ، وابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نفسي مع أنفسكم ، وأهلي مع أهليكم ، فلکم في أسوة ، وإن لم تفعلوا وتقضتم عهدكم ، وخلعتم بيعتي من أعناقكم ، فلعمري ما هي لكم بُكْرٌ ^(٢) ، لقد فلتتموها بأبي وأخي وابن عمي مسلم ، والمغرور من اغترَبَ من حفظكم أخطأتم ، ونصبتكم ضيعتم ، ومن نكث فإنما يتكث على نفسه ، وسيفو الله عنكم ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

٣٤ - خطبته ليلة قتله

وسير إليه ابن زياد عمر بن سعد بن أبي وقاص في أربعة آلاف ، فمدل الحسين إلى كربلاء ، وكانت بينهما مقابلات غير محدودة ^(١) ، فنهض عمر إليه عشية الخميس (٩ من المحرم سنة ٦١ هـ) فجمع الحسين أصحابه عند قرب المساء فقال :

« أثنى على الله تبارك وتعالى أحسن الثناء ، وأحمدُه على السراء والضراء ، اللهم إني أحمدك على أن أكرمنا بالنبوة ، وعلمتنا القرآن ، وفقهتنا في الدين ، وجعلت لنا أسماعاً وأبصاراً وأفئدة ، ولم تحملنا من المشركين ، أما بعد : فإني لا أعلم أصحاباً أولى ولا خيراً من أصحابي ، ولا أهل بيتٍ أبرّ ولا أَوْصَلَ من أهل بيتي ، فجزاكم الله عني جميعاً خيراً ، ألا وإني أظن يومنا من هؤلاء الأعداء غداً ، ألا وإني قد رأيت لكم ، فانطلقوا جميعاً في حلّ ، لبس عليكم مني ذمام ، هذا الليل قد غشيكم فامتنحوا جملاً ، ثم ليأخذ كل رجل منكم يد رجل من أهل بيتي ، ثم تفرقوا في سوادكم ومدائنكم ، حتى يفرج الله ، فإن القوم إنما المونني ، ولو قد أصابوني لهوا عن طلب غيري » .

[١] التي عمر بن سعد والحسين مراراً ثلاثاً أو أربعاً ، وكتب عمر بعد ما إلى عبيد الله بن زياد : أما بعد : فإن الله قد أطفأ النائرة ، وجمع الكلمة ، وأصلح أمر هذه الأمة ، هذا حين قد أعطاني أن أجمع إلى المكان الذي منه آتي ، أو أن نسيره إلى أي مقر من ثغور المسلمين شئت ، فيكون رجلاً من الحسين له ملهم وعليه ما عليهم ، أو أن يأتي يزيد أمير المؤمنين فيضع يده في يده فيري فيما بينه وبينه رأيي ، هذا لكم رضا ولأمة صلاح » فلما قرأ عبيد الله الكتاب قال : هذا كتاب رجل ناصح لأمره ، فني على قومه نعم قد قبلت ، ولكن شمر بن ذي الجوشن ثناء عن القبول ، فكتب إلى عمر بن سعد تأييداً يقول فيه : « أما بعد ، فإني لم أبتك إلى حسين لتكف عنه ، ولا لتطاوله ، ولا لتحميه السلامة قاء ، ولا لتعده له عندي شافئاً » ، فظفر فإن نزل حسين وأصحابه على الحكم واستقلوا فابت بهم إلى لهما ، وإن أبوا فأنزح إليهم حتى تقتلهم وتقتل بهم ، فإنهم قتل مستحقون ، فإن قتل حسين فأوط بل صدره وظهره فإنه طاق مشاق طالع ظالم » .

فقال له أهل بيته : « لِمَ نَفْعَلُ ؟ لَتَتَّبِعَ بِمَدِّكَ ؟ لَا أَرَانَا اللَّهَ ذَلِكَ أَبَدًا »
فقال الحسين : « يَا بَنِي عَقِيلِ حَسْبَكُمْ مِنَ الْقَتْلِ بِمَسْلَمٍ ، اذْهَبُوا قَدْ أَذِنْتُ لَكُمْ »
قالوا : « فَا يَقُولُ النَّاسُ ؟ يَقُولُونَ إِنَّا تَرَكْنَا شَيْخَنَا وَسَيِّدَنَا وَبَنِي عُمُومَتِنَا خَيْرَ
الْأَعْمَامِ ، وَلَمْ تَرْمِ مَعَهُمْ بِسَهْمٍ ، وَلَمْ نَطْعُنْ مَعَهُمْ بِرُمْحٍ ، وَلَمْ نَضْرِبْ مَعَهُمْ
بِسَيْفٍ ، وَلَا نَدْرِي مَا صَنَعُوا ، لَا وَاللَّهِ لَا نَفْعَلُ ، وَلَكِنْ تَقْدِيرُكَ أَنْفُسَنَا وَأَمْوَالَنَا
وَأَهْلُونَا ، وَتَقَاتِلَ مَعَكَ حَتَّى نَرِدَّ مَوْرِدَكَ ، فَتَجْبَحَ اللَّهُ الْعَبَشَ بِسَدِّكَ » .

٣٦ - رد أصحابه

وقام إليه مسلم بن عَوْسَجَةَ الْأَسَدِيُّ فقال :
« أَتَمْنَى تَخْلِيَّ عَنْكَ وَلَمَّا تُعْذِرْ إِلَى اللَّهِ فِي أَدَاءِ حَقِّكَ ؟ أَمَا وَاللَّهِ حَتَّى أَكْسِرَ
فِي صَدُورِهِمْ رَمْحِي ، وَأَضْرِبَهُمْ بِسَيْفِي مَا تَبَيَّنَ قَائِمُهُ فِي يَدَيَّ ، وَلَا أَفَارِقُكَ ، وَلَوْ لَمْ
يَكُنْ مَعِيَ سِلَاحٌ أَقَاتِلُهُمْ بِهِ ، لَقَذَفْتُهُمْ بِالْحِجَارَةِ دُونَكَ حَتَّى أَمُوتَ مَعَكَ » .
وقال سعد بن عبد الله الْحَنَفِيُّ : « وَاللَّهِ لَا تُخَلِّيكَ حَتَّى يَعْلَمَ اللَّهُ أَنَا :
حَفِظْنَا غَيْبَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيكَ ، وَاللَّهِ لَوْ عَلِمْتُ أَنِّي أُقْتَلُ ، لَمْ
أَحْيَا ، ثُمَّ أُخْرِقُ حَيًّا ، ثُمَّ أُذَرَّ ، يُفْعَلُ ذَلِكَ بِي سَبْعِينَ مَرَّةً ، مَا فَارَقْتُكَ حَتَّى أَلْقَا
حِمَامِي دُونَكَ ، فَكَيْفَ لَا أَفْعَلُ ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا هِيَ قَتْلَةٌ وَاحِدَةٌ ، ثُمَّ هِيَ الْكِرَامَةُ
الَّتِي لَا انْقِضَاءَ لَهَا أَبَدًا » .

وقال زهير بن القَيْنِ : « وَاللَّهِ لَوْ دِدْتُ أَنِّي قُتِلْتُ ، ثُمَّ نُشِرْتُ ^(١) ، ثُمَّ قُتِلْتُ

حتى أقتل كذا ألف قتلة ، وأن الله يدفع بذلك القتلَ عن نفسك ، وعن أنفس هؤلاء الفتية من أهل بيتك .

وتكلم جماعة أصحابه بكلام يُشبه بعضه بعضاً في وجه واحد ، فقالوا : « والله لا تفارقك ولكن أنفسنا لك الفداء ، نقيك بنحورنا وجباهنا وأيدينا ، فإذا نحن قُتلنا كنّا وفينا ، وقضينا ما علينا . »

٢٧ — خطبته غداة يوم قتله

« وخطب الحسين غداة اليوم الذي استشهد فيه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« يا عبادَ الله ، اتقوا الله ، وكونوا من الدنيا على حذر ، فإن الدنيا لو بقيت على أحد ، أو بقي عليها أحد ، لكانت الأنبياء أحقّ بالبقاء ، وأولى بالرضاء ، وأرضى بالقضاء ، غير أن الله تعالى خلق الدنيا للقاء ، فجددوها بالي ، ونعيمها مُضمحلّ ، وسرورها مكفهر ، والمنزل تلمعة ^(١) ، والدار قلعة ^(٢) ، فتزودوا فإن خير الزاد التقوى ، واتقوا الله لعلكم تفلحون . »

٣٨ — دعاؤه وقد صبحته الخيل

ولما صبحته الخيل رفع يديه فقال :

« اللهم أنت ثقتي في كل كرب ، ورجائي في كل شدة ، وأنت لي في كل أمرٍ نزل بي ثقةٌ وعدة ، كم من همٍ يَضُمُّف فيه الفؤاد ، وتَقِلّ فيه الحيلة ،

[١] التلمة : مجرى الماء من أعلى الوادي إلى بطون الأرض ، والتزول بالتلمة مخوف ، لأن من نزها فهو على خطر ان جاء السيل جرفه . [٢] الدنيا دار قلعة أى اقلاع ، وهو على قلعة أى رحلة ، وميزلنا منزل قلعة أى ليس بمستوطن ، أو لا تملكه أو لا تدرى متى تحول عنه .

وَيَتَّخِذُ فِيهِ الصَّدِيقُ ، وَيَشْمَتُ فِيهِ الْعَدُوُّ ، أَزَلُّهُ بِكَ ، وَشَكْوَتُهُ إِلَيْكَ ، رَغْبَةٌ
مَنْ إِلَيْكَ عَنْ سِوَاكَ ، فَرَّجَتْهُ وَكَشَفَتْهُ ، فَأَنْتَ وَلِيُّ كُلِّ نِعْمَةٍ ، وَصَاحِبُ
كُلِّ حَسَنَةٍ ، وَمَتَّعِي كُلِّ رَغْبَةٍ .

٣٩ — خطبته وقد دنا منه القوم

ولما دنا منه القوم دعا براحته فركبها ، ثم نادى بأعلى صوته :

« أَيُّهَا النَّاسُ : اسْمَعُوا قَوْلِي ، وَلَا تُعْجِلُونِي حَتَّى أَعْظِمَكُمْ ، بِمَا لَحِقَ لَكُمْ
عَلَيَّ ، وَحَتَّى أَعْتَذِرَ إِلَيْكُمْ مِنْ مَقْدَمِي عَلَيْكُمْ ، فَإِنْ قَبِلْتُمْ عَذْرِي ، وَصَدَّقْتُمْ قَوْلِي ،
وَأَعْطَيْتُمُونِي النَّصْفَ ، كَتَمْتُ بِذَلِكَ أَسْعَدَ ، وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ عَلَيَّ سَبِيلٌ ، وَإِنْ لَمْ تَقْبَلُوا
مَنْ عِذْرِي ، وَلَمْ تَعْطُوا النَّصْفَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ . فَأَجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ، ثُمَّ
لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ، ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ ، إِنْ وَلِيَ اللَّهُ
الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ » .

فلما سمع أخواته كلامه هذا صحن وبكين وبكى بناته ، فارتفعت أصواتهن ،
فأرسل إليهن أخاه العباس بن عليّ وعليّاً ابنيه ، وقال لهما : أَسْكِنَاهُنَّ ، فَلَعَمْرِي
لَيَكْثُرَنَّ بكاؤهن .

٤٠ — خطبة أخرى

فلما سكتن حمد الله وأثنى عليه ، وذكر الله بما هو أهله ، وصلى على محمد
صلى الله عليه وعلى ملائكته وأنبيائه ، ثم قال :

« أَمَا بَعْدُ : فَانْصِبُونِي فَانْظُرُوا مَنْ أَنَا ؟ ثُمَّ ارْجِعُوا إِلَى أَنْفُسِكُمْ وَعَاتِبُوا هَا ،
فَانْظُرُوا هَلْ يَجِلُّ لَكُمْ قَتْلِي ، وَاتِّهَاكُ حُرْمَتِي ؟ أَلَسْتُ ابْنُ بِنْتِ نَبِيِّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَابْنُ وَصِيَّهِ وَابْنُ عَمِّهِ ! وَأُولَ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ ، وَالْمُصَدِّقِ لِرَسُولِهِ بِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ؟ أَوَلَيْسَ حِزْمَةُ سَيِّدِ الشَّهَدَاءِ عَمَّ أَبِي ؟ أَوَلَيْسَ جُمْفَرُ الشَّهِيدِ الطَّيَّارِ ذُو الْجَنَاحَيْنِ عَمِّي ؟ أَوَلَمْ يَبْلُغْكُمْ قَوْلُ مُسْتَفِيزٍ فِيكُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِي وَلِأَخِي : هَذَانِ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ؟ فَإِنْ صَدَقْتُمُونِي بِمَا أَقُولُ - وَهُوَ الْحَقُّ - وَاللَّهُ مَا تَمَمَّ لَتِ كَذِبًا مَذْعَلَتِ أَنْ اللَّهَ يَمَقُّتْ عَلَيْهِ أَهْلَهُ ، وَيَضْرِبُهُ مِنْ اخْتَلَقَهُ ، وَإِنْ كَذَبْتُمُونِي فَإِنَّ فِيكُمْ مَنْ إِنْ سَأَلْتُمُوهُ عَنْ ذَلِكَ أَخْبَرَكُمْ : سَلُوا جَابِرَ ابْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيَّ ، أَوْ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ ، أَوْ سَهْلَ بْنَ سَعْدٍ السَّاعِدِيَّ ، أَوْ زَيْدَ بْنَ أَرْقَمَ ، أَوْ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ ، يُخْبِرُوكُمْ أَنَّهُمْ سَمِعُوا هَذِهِ الْمَقَالَةَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ لِي وَلِأَخِي ، أَفَأَفِي هَذَا حَاجِرٌ لَكُمْ عَنْ سَفَكِ دَمِي ؟ »

ثُمَّ قَالَ : « فَإِنْ كُتِمَ فِي شَكٍّ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ ، أَفْتَشْكُونَ أَمْرًا ^(١) مَا أَنِّي

ابْنُ بِنْتِ نَبِيِّكُمْ ؟ فَوَاللَّهِ مَا يَنْ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ابْنُ بِنْتِ نَبِيِّ غَيْرِي مِنْكُمْ ، وَلَا مِنْ غَيْرِكُمْ ، أَنَا ابْنُ بِنْتِ نَبِيِّكُمْ خَاصَّةً ، أَخْبِرُونِي أَتَطْلُبُونَنِي بِقَتِيلٍ مِنْكُمْ قَتَلْتَهُ ! أَوْ مَالٍ لَكُمْ اسْتَهْلَكْتَهُ ؟ أَوْ بِقِصَاصٍ مِنْ جِرَاحَةٍ ؟ »

فَأَخَذُوا لَا يَكْلُمُونَهُ ، فَنَادَى يَاشَبْتُ بْنُ رَبِيعَةَ ، وَيَا حُجَّارَ بْنَ أَبِيجَرَ ، وَيَا قَيْسَ ابْنَ الْأَشْعَثِ ، وَيَا زَيْدَ بْنَ الْحَارِثِ ، أَلَمْ تَكْتُبُوا إِلَيَّ أَنْ قَدْ أَيْبَعْتَ التَّمَارَ ، وَأَخْصَرَ الْجَنَابُ ، وَطَمَّتِ الْجِمَامُ ، وَإِنَّمَا تَقْدَمُ عَلَى جَنْدَلِكِ مَجْنَدٌ ، فَأَقْبِلْ ؟ قَالُوا لَمْ نَفْعَلْ ، فَقَالَ : سُبْحَانَ اللَّهِ ! بَلَى ، وَاللَّهِ لَقَدْ فَعَلْتُمْ ، ثُمَّ قَالَ : « أَيُّهَا النَّاسُ : إِذْ كَرِهْتُمُونِي فَدَعُونِي أَنْصَرِفَ عَنْكُمْ إِلَى مَا مَنَى مِنَ الْأَرْضِ » . فَقَالَ لَهُ قَيْسُ بْنُ الْأَشْعَثِ :

[١] أَمْرًا منصوب على ترجع الخائن ، أي أفتشكون في أثر ، وما زائدة ، وإن ابن بنت نبيكم بدل من أَمْرًا .

أَوَلَا تَنْزِلُ عَلَى حَكَمِ بَنِي عَمَلِكُ ؟ فَإِنَّهُمْ لَنْ يُرُوكَ إِلَّا مَا تَحِبُّ ، وَلَنْ يَصِلَ إِلَيْكَ مِنْهُمْ مَكْرُوهُ ، فَقَالَ لَهُ الْحُسَيْنُ : « أَنْتَ أَخُو أَخِيكَ ، أَتُرِيدُ أَنْ يَطْلُبَكَ بَنُو هَاشِمٍ بِأَكْثَرِ مَنْ دَمَ مُسْلِمٌ بِنَ عَقِيلٍ ؟ لَا وَاللَّهِ لَا أُعْطِيهِمْ يَدِي إِعْطَاءَ الذَّلِيلِ ، وَلَا أَقِرُّ إِقْرَارَ الْعَبِيدِ ، عِبَادَ اللَّهِ ، إِنِّي عَزَّيْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ، أَعُوذُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ » ، فَأَقْبَلُوا يَرْحِفُونَ نَحْوَهُ .

٤١ - خطبة زهير بن القين

فلما زحفوا قِبَلَهُ خَرَجَ إِلَيْهِمْ زُهَيْرُ بْنُ الْقَيْنِ عَلَى فَرَسٍ لَهُ ذَنُوبٌ ^(١) شَاكٍ ^(٢) فِي السِّلَاحِ فَقَالَ :

« يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ ، نَذَارٍ لَكُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ نَذَارٍ ، إِنَّ حَقًّا عَلَى الْمُسْلِمِ نَصِيحَةُ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ ، وَنَحْنُ حَتَّى الْآنَ إِخْوَةٌ ، وَعَلَى دِينٍ وَاحِدٍ ، وَمِلَّةٍ وَاحِدَةٍ ، مَا لَمْ يَقَعْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ السَّيْفُ ، وَأَنْتُمْ لِلنَّصِيحَةِ مِنْ أَهْلِ ، فَإِذَا وَقَعَ السَّيْفُ انْقَطَعَتِ الْعِصْمَةُ ^(٣) ، وَكُنَّا أُمَّةً وَأَنْتُمْ أُمَّةٌ ، إِنْ اللَّهُ قَدْ ابْتَلَانَا وَإِيَّاكُمْ بِذَرِيَةِ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لِنَنْظُرَ مَا نَحْنُ وَأَنْتُمْ عَامِلُونَ ، إِنَّا نَدْعُوكُمْ إِلَى نَصْرِهِمْ ، وَخِذْلَانِ الطَّائِفَةِ عُيَيْدِ اللَّهِ بْنِ زِيَادٍ ، فَإِنَّكُمْ لَا تَذَرُوكُمْ مِنْهُمَا إِلَّا بِسُوءٍ ، تُعَمِّرُ سُلْطَانَهُمَا كُلَّهُ ، لَيْسَ لِمُلَانٍ ^(٤)

[١] الذَنُوبُ : الفرس الوافر الذنب . [٢] يقال رجل شاك السلاح وشاك في السلاح (بفتشيد الكاف فيها) وهو الابس السلاح التام ، من شك في السلاح أى دخل ، شك فيه (كَرَدَ) شكاً أى لبسه تماماً فلم يدع منه شيئاً ، ويقال : رجل شاك السلاح ، وشاكى السلاح ، وشاك في السلاح (كَرَأَى) وهو ذو الشوك والمخد في سلاحه ، والشاك : من شك الرجل يثا شوكاً (كَنَامَ نَوَاءً) أى ظهرت شوكته وحدته - والشوك : حدة السلاح - والشاكى مغلوب من شاك ، ويقال أيضاً رجل شاك ، السلاح (بضم الكاف) فإن أردت معنى فاعل قلت شك (كَرَأَى) وإن أردت معنى فعل (كَفَرَحَ) قلت شك (بضم الكاف) وهو مثل حرف هار (كَرَأَى) وهار (كَنَارَ) كما يقال رجل إمام ونال (بالغم) من المال والنوال وإنما هو مائل ونائل . [٣] العِصْمَةُ : القسادة ، أى تهرت وحدتنا ، وأقرط ضد جاعتنا . [٤] لَيْسَ لِمُلَانٍ : محل عينه : فقأها بمجديدة محمّة .

أعينكم ، ويقطعان أيديكم وأرجلكم ، وَيُمَثِّلَانِ بكم ، ويرفضانكم على جنوع النخل ،
ويقتلان أمانتكم وقرأكم ، أمثال حُجْر بن عَدِي^(١) وأصحابه ، وهاني بن عروة
وأشباهه .

فسبوه ، وأثنوا على عيد الله بن زياد ، ودعوا له ، وقالوا : والله لا نبرح حتى
نقتل صاحبك ومن معه ، أو نبعث به وبأصحابه إلى الأمير عبيد الله سلماً .

فقال لهم : « عباد الله ، إن ولد فاطمة رضوان الله عليها أحق بالود والنصر
من ابن مُنَمَّة ، فإن لم تنصروهم ، فأعذككم بالله أن تقتلهم ، نفلوا بين هذا الرجل
وبين ابن عمه يزيد بن معاوية ، فلمعري إن يزيدَ كيرضى من طاعتكم بدون
قتل الحسين . »

فرماه شمر بن ذى الجوشن بسهم وقال : « اسكت أسكت الله نأمتك^(٢) ،
أبرمتنا بكثرة كلامك » فقال له زهير : « يا ابن البوال على غقيبه ، ما إياك
أخاطب ، إنما أنت بهيمة ، والله ما أظنك تُحكِّمُ من كتاب الله آيتين ، فأبشِر
بالخزي يوم القيامة والعذاب الأليم » فقال له شمر : « إن الله قاتلك وصاحبك

[١] هو حجر بن عدى بن جيلة للكندى من كبراء الشيعة بالكوفة ، وذلك أن زياد بن أبيه لما
جئت له الكوفة والبصرة بلنه أن حجراً يجتمع إليه الشيعة ويظهرون لمن معاوية والبراءة منه ، فكتب إلى
معاوية في أمره ، فكتب إليه معاوية أن شدة في الحديد ثم أحمله إلى ، فشدته في الحديد وحمل إلى معاوية ،
وأشهد عليه شهوداً أنه خلق الطاعة ، وشارك الجماعة ، ولعن الخليفة ، ودعا إلى الحرب والفتنة ، وجعل إليه
الجزع يدعو إلى نكث البيعة وخلع معاوية ، وزعم أن هذا الأمر لا يصلح إلا في آل أبي طالب ، وحمل
معه كبار أصحابه ، فكلوا أربعة عشر رجلاً ، فلما قدموا على معاوية شفع في بعضهم غثي سيلهم ، وقال
رسول معاوية للباقيين : إنا قد أمرنا أن نعرض عليكم البراءة من علي له ، فإن ضلتم تركناكم ، وإن أيتم
قتلناكم ، فأبرءوا من هذا الرجل نخل سيلكم ، فأبوا وقالوا بل تولاه وتبرأ من تبرأ منه ، فقتلوا وقتل
حجر وستة معه ، وكان ذلك سنة ٥١ هـ . [٢] النامة : الصوت

عن ساعة « قال : « أقبالوت تخوفني ؟ فوالله ألموت معه أحب إلي من الخلد معكم » .

ثم أقبل على الناس رافعاً صوته فقال : « عباد الله ، لا يفرّنكم من دينكم هذا الجلف الجاني وأشباهه ، فوالله لا تنال شفاعته محمد صلى الله عليه وسلم قوماً هراقوا دماء ذريته وأهل بيته ، وقتلوا من نصرهم ؛ وذبح عن حريمهم » .
فناداه رجل فقال له : « إن أبا عبد الله يقول : « أقبل ، فلمعري لأن كان مؤمن آل فرعون نصح لقومه ، وأبلغ في الدعاء ، لقد نصحت لهؤلاء . وأبلغت لو نفع النصح والإبلاغ » .

٤٢ — خطبة الحرّ بن يزيد

ولما زحف عمر بن سعد قال له الحرّ بن يزيد : « أصلحك الله : مقاتل أنت هذا الرجل ؟ » قال : « إياي والله قتالا أيسره أن تسقط الروس ، وتطيح الأيدي » قال : « أفألكم في واحدة من الخصال التي عرض عليكم رضا ؟ » قال عمر : « أما والله لو كان الأمر إليّ لفعلت ، ولكن أميرك قد أبى ذلك » .
ثم ضرب الحرّ فرسه ، ولحق بالحسين عليه السلام وانحاز إليه ، واستقدم أمام أصحابه ثم قال :

« أيها القوم : ألا تقبلون من حسين خصلة من هذه الخصال التي عرض عليكم ، فيعافيتكم الله من حربه وقاتاله ؟ قالوا : هذا الأمير عمر بن سعد فكلمه فكلمه بمثل ما كلمه به من قبل ، وبمثل ما كلم به أصحابه » فقال عمر : « قد حرصت لو وجدت إلى ذلك سبيلاً لفعلت » .

قال : « يأهل الكوفة : لَأَمَّكُمْ الْهَبَلُ وَالْعَبْرُ »^(١) إذ دعوتهم ، حتى إذا
أناكم أسلمتموه^(٢) ، وزعمتم أنكم قاتلوا أنفسكم دونه ، ثم عدوتم عليه لتقتلوه ،
أمسكتم بنفسي ، وأخذتم بكظمي^(٣) ، وأحطتم به من كل جانب ، فنعمتموه
التوجه في بلاد الله المريضة ، حتى يأمن ويأمن أهل بيته ، وأصبح في أيديكم
كالأسير لا يملك لنفسه نفعا ، ولا يدفع ضررا ، وحلأتموه^(٤) ونساءه وأصبيته^(٥)
وأصحابه عن ماء الفرات الجاري ، الذي يشربه اليهودي والمجوسي والنصراني ،
وتمرغ فيه خنازير السواد وكلابه ، وهام قد صرعهم العطش ، بثما خلفتم محمدا
في ذريته ، لا أسقاكم الله يوم الظما إن لم تتوبوا ، وتزيعوا عما أتم عليه ، من
يومكم هذا ، في ساعتكم هذه .

ثم نسب القتال بين الفريقين ، واستمات أصحاب الحسين في القتال ، حتى
فئوا ، وقتل الحسين رضوان الله عليه ، قتله سنان بن أنس (وكان قتله بالطف^(٦))
يوم عاشوراء سنة (٦١ هـ) وأمر ابن سعد أصحابه أن يوطئوا خيلهم الحسين ،
فوطئوه بخيلهم ، ثم حمل النساء ورأسه إلى يزيد بن معاوية بدمشق .

(تاريخ الطبري ٦ : ١٨٨ الى ٢٧٠ ، وروج الذهب ٢ : ٨٦ ، وزهر الآداب ١ : ٧١)

- [١] الهبل : الشك ، هبلته أمه كفرح ذكته وقذته ، والبر والعبر (كسب وقفل) سحنة في العين
تبكيها ، عبرت العين كفرح جرى دمها ، يقال لآه الهبل ، ولأمة العبر ، والعبر : دعاء عليه .
[٢] خذلتموه . [٣] الكظم : غرغ النفس . [٤] حلاء : حلاء عن الماء تعبثا وتحت طرده ومنعه .
[٥] مصفر صبية على غير قياس . [٦] الطف : أوض من ضاحية الكوفة في طريق البرية ، وقال
عبد الله بن الأحمر من قصيدة :

فأضحي «حسين» الرماح دويقة وفودر سلوبا لدى الطف ثاويا
فيا ليتني إذ ذاك كنت شهيدة فضلوت عنه الشاخين الأعاديا
سقى الله قبرا ضمن المجد والحق بفريسة اللطف للتمام التواديا

طلب التوايين بدم الحسين رضى الله عنه

وفي سنة خمس وستين تحرك الشيعة بالكوفة واتعدوا الاجتماع بالنخيلة للمسير إلى أهل الشام للطلب بدم الحسين بن علي رضى الله عنهما ، وذلك أنهم بعد مقتله تلاقوا بالتلاؤم والتندؤم ، ورأوا أنهم قد أخطئوا خطأ كبيراً بدعائهم إياه إلى النصرة وتركهم إجابته ، ومقتله إلى جانبهم لم ينصروه ، ورأوا أنه لا يُقتل عارم والإثمُ عنهم في مقتله إلا بقتل من قتله أو القتل فيه وتابوا عما فرط منهم في ذلك ، « فسمُّوا التوايين » وفزعوا بالكوفة إلى خمسة نفر من رموس الشيعة : إلى سليمان بن صُرَد الخزاعى - وكانت له حجة مع النبي صلى الله عليه وسلم - وإلى السَّيِّب بن نَجْبَةَ القَزَارِى ، وإلى عبد الله بن سعد بن نُقَيْل الأزدى ، وإلى عبد الله بن والٍ التميمى ، وإلى رفاعة بن شداد البجلي ، ثم إن هؤلاء النفر اجتمعوا في منزل سليمان بن صرد ، ومعهم أناس من الشيعة وخيارهم ووجوههم ، فبدأ السيب بن نَجْبَةَ بالكلام فتكلم :

٤٣ - خطبة المسيب بن نجبة القزاري

حَمْدُ اللَّهِ وَأَثْنِي عَلَيْهِ وَصَلَّى عَلَى نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ قَالَ :
« أما بعد ، فإننا قد ابتُلينا بطول العمر ، والتعرض لأنواع الفتن ، فترغبُ
إلى ربنا أَلَّا يَجْعَلَنَا مِمَّنْ يَقُولُ لَهُ غَدَا : « أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ
تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ التَّذِيرُ » فَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ : « العمر الذي أعذر الله فيه
إلى ابن آدم ستون سنة » وليس فينا رجل إلا وقد بلغه ، وقد كنا مُفْرَمِينَ
بتركِ أَهْلِنَا ، وتقرِيطِ شِعْمَتِنَا ، حتى يلا الله أختيارنا ، فَوَجَدْنَا كَآذِبِينَ فِي
مَوَاطِنٍ مِنْ مَوَاطِنِ ابْنَةِ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وقد بلغتنا قبل ذلك كُتُبُهُ ،

وَقَدِمَتَ عَلَيْنَا رُسُلُهُ ، وَأَعْذَرُوا إِلَيْنَا بِأَسْأَلِنَا نَصْرَهُ ، عَوْدًا وَبَدَأًا ، وَعِلَانِيَةً وَسِرًّا ، فَبَحَلْنَا عَنْهُ بِأَنْفُسِنَا ، حَتَّى قُتِلَ إِلَى جَانِبِنَا ، لَا نَحْنُ نَصْرُنَاهُ بِأَيْدِينَا ، وَلَا جَادَلْنَا عَنْهُ بِاللِّسَانِ ، وَلَا قَوَّيْنَاهُ بِأَمْوَالِنَا ، وَلَا طَلَبْنَا لَهُ النُّصْرَةَ إِلَى عَشَائِرِنَا ، فَاغْزَرْنَا إِلَى رَبِّنَا ، وَعِنْدَ لِقَاءِ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ وَقَدْ قُتِلَ فِينَا وَلَدُهُ وَحَبِيبُهُ وَذَرِيَّتُهُ وَنَسْلُهُ ، لَا وَاللَّهِ لَا عُذْرَ دُونَ أَنْ تَقْتُلُوا قَاتِلَهُ وَالْمُؤَالِينَ عَلَيْهِ ، أَوْ تُقْتَلُوا فِي طَلَبِ ذَلِكَ ، فَسَيُ رَبَّنَا أَنْ يَرْضَى عَنَّا عِنْدَ ذَلِكَ ، وَمَا أَنَا بَعْدَ لِقَائِهِ لِعَقُوبَتِهِ بِأَمِينٍ ، أَيُّهَا الْقَوْمُ وَلَوْ عَلَيكُمْ رَجُلَا مِنْكُمْ ، فَإِنَّهُ لَا يَدَّ لَكُمْ مِنْ أَمِيرٍ تَفْرَعُونَ إِلَيْهِ ، وَرَأْيَ تَحْقُوقٍ بِهَا ، أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ .

فَبَدَرَ^(١) الْقَوْمَ رِفَاعَةَ بْنَ شَدَادٍ بَعْدَ الْمَسِيبِ الْكَلَامَ .

٤٤ — خطبة رفاعَةَ بنِ شَدَادٍ

لحمْد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :
« أما بعد : فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ هَدَاكَ لِأَصُوبِ الْقَوْلِ ، وَدَعَاكَ إِلَى أَرْشَادِ الْأُمُورِ ، بَدَأَتْ بِحَمْدِ اللَّهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ ، وَالصَّلَاةِ عَلَى نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَدَعَاكَ إِلَى جِهَادِ الْفَاسِقِينَ ، وَإِلَى التَّوْبَةِ مِنَ الذَّنْبِ الْعَظِيمِ ، فَسَمِعُوكَ مِنْكَ ، مُسْتَجَابٌ لَكَ ، مُقْبُولٌ قَوْلُكَ ، قَالَتْ وَلَوْ أَمَرَكُم رَجُلَا مِنْكُمْ تَفْرَعُونَ إِلَيْهِ ، وَتَحْقُوقَ بَرَايَتِهِ ، وَذَلِكَ رَأْيٌ ، قَدْ رَأَيْنَا مِثْلَ الَّذِي رَأَيْتَ ، فَإِنْ تَكُنْ أَنْتَ ذَلِكَ الرَّجُلُ تَكُنْ عِنْدَنَا مَرْضِيًّا ، وَفِينَا مُنْصَحًا ، وَفِي جَاعَتِنَا مُحِبًّا ، وَإِنْ رَأَيْتَ (وَرَأَى أَصْحَابُنَا ذَلِكَ) وَلَيْنَا هَذَا الْأَمْرُ شَيْخَ الشَّيْعَةِ صَاحِبَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَذَا السَّابِقَةِ وَالْقَدَمِ سُلَيْمَانَ بْنَ صُرَدٍ ، الْحَمُودَ فِي بَأْسِهِ وَدِينِهِ ، وَالْمَوْثُوقَ بِجَزْمِهِ ،

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ،

ثم تكلم عبد الله بن وائل ، وعبد الله بن سعد ، حميداً ربهما وأثنيًا عليه ،
وتكلما بنحو من كلام رفاعه بن شداد ، فذكر المسيب بن نَجْبَةَ بفضلته ، وذكر
سليمان بن سرد بسابقته ورضاها بتوليته ، فقال المسيب بن نَجْبَةَ : « أصبتم
وَوُفَّقْتُمْ ، وأنا أرى مثل الذي رأيتم ، فولوا أمركم سليمان بن سرد » .

٤٥ — خطبة سليمان بن سرد

قال حميد بن مسلم : والله إني لشاهد بهذا اليوم يوم ولّوا سليمان بن سرد^(١)
وإنا يومئذ لأكثر من مائة رجل من فرسان الشيعة ووجوههم في داره ، قال
فتكلم سليمان فشدد ، وما زال يردّد ذلك القول في كل جمعة حتى حفظته ،
بدأ فقال :

« أثني على الله خيراً ، وأحمد آلاءه وبلائه ، وأشهد أن لا إله إلا الله ،
وأن محمداً رسول الله ، أما بعد : فإنني والله لخائف ألا يكون آخرنا إلى هذا
الدهر (الذي نَكِدَتْ فِيهِ المِيشَةُ ، وعَظُمَتْ فِيهِ الرِّزْيَةُ ، وشَمِلَ فِيهِ الجَوْرُ
أولى الفضل من هذه الشيعة) لما هو خيرٌ ، إنّا كنا نَمُدُّ أَعْنَاقَنَا إلى قدوم آل
نبينا ، وَنُغْنِمُهُمُ النِّصْرَ ، وَنُحْتَمُّ عَلَى الْقَدُومِ ، فلما قَدِمُوا وَنَبِئْنَا وَعَجَزْنَا وَأَذْهَبْنَا
وَتَرَبَّصْنَا ، وانتظرنا ما يكون حتى قُتِلَ فِينَا وَلَدُنَا ، وَلَدُ نَبِينَا وَسَلَاطَتُهُ وَعُصَاوَرَتُهُ
وَبَضْعَةُ^(٢) من لَحْمِهِ وَدَمِهِ ، إذ جعل يستصرخُ وَيَسْأَلُ النِّصْفَ^(٣) فلا يُعْطَاهُ ،
اتخذهُ الفاسقون غَرَضًا لِلتَّبَلِّ ، وَدَرِيَّةً^(٤) للرماح ، حتى أَقْصَدُوهُ^(٥) ، وَعَدَّوْا

[١] وقد سمى أمير النوايين . [٢] البضعة بالفتح وقد تكررت القطعة من اللحم .

[٣] الإصناف . [٤] مهول عن دريعة ، والدريعة : الحلقة يحلم الطعن والرمي عليها .

[٥] أقصد السهم : أصاب قتل مكانه ، وأقصد فلاناً : طعن ظم يخطئه .

عليه فسلبوه ، ألا انهمضوا فقد سخطَ ربكم ، ولا ترجعوا إلى الحلال^(١) والأبناء حتى يرضى الله ، والله ما أظنّه راضياً دون أن تُناجزوا من قتله أو تَبَرُّوا^(٢) ، ألا لاتبأوا الموت ، فوالله ما هابه امرؤ قط إلا ذلك ، كونوا كالأولى من بنى إسرائيل إذ قال لهم نبيهم « إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ » فافعل القوم ؟ جَنَوْا على الرُّكْبِ والله ، ومدُّوا الأعناق ، ورضوا بالقضاء حتى حين علموا أنه لا ينجيهم من عظيم الذنب إلا الصبرُ على القتل ، فكيف بكم لو قد دُعِيتُم إلى مثل ما دُعِيَ القوم إليه ؟ اشحذُوا السيوف ، وركبُوا الأَسنة « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ^(٣) » حتى تُدْعَوْا وتُسْتَنْقَرُوا .

٤٦ - خطبة خالد بن سعد بن نفيل

فقام خالد بن سعد بن نفيل فقال : « أما أنا فوالله لو أعلم أن قتلى نفسي يُخرجني من ذنبي ، ويَرْضَى عني ربي لقتلتها ، ولكن هذا أمرٌ به قومٌ كانوا قبلنا ونُهينا عنه ، فَأَشْهَدُ اللهَ وَمَنْ حَضَرَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ كُلَّ مَا أَصْبَحْتَ أَمْلِكُ سِوَى سِلَاحِي الَّذِي أَقَاتِلُ بِهِ عَدُوِّي صَدَقْتُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَقْوِيَهُمْ بِهِ عَلَى قِتَالِ الْقَاسِطِينَ^(٤) » .

وقام أبو المعتز حَنْشُ بْنُ رِيعة الكِنَانِي ، فقال : « وأنا أَشْهَدُكُمْ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ » فقال سليمان بن صرد : « حَسْبُكُمْ ، مَنْ أَرَادَ مِنْ هَذَا شَيْئًا فَلْيَأْتِ بِمَالِهِ »

[١] جمع حيلة وهي الزوجة . [٢] بار يبور بوراً : هلك .

[٣] اسم الخيل التي تربط في سبيل الله فعال بمعنى مفعول ، أو مصدر بمعنى كالمرحلة ، أو جمع رباط

نفيل بمعنى مفعول . [٤] الجائر ، قسط بكس قسوطاً بخ وعل من الحق .

عبد الله بن وال التيمي تيم بكر بن وائل ، فإذا اجتمع عنده كل ما تريدون إخراجه من أموالكم ، جهّزنا به ذوى الخلّة^(١) والمسكنة من أشياكم .

٤٧ — خطبة سعد بن حذيفة بن اليمان

وكتب سليمان بن صرد إلى سعد بن حذيفة بن اليمان بالمدائن كتاباً يستنهض فيه هم إخوانه هنالك ، ويدعوم أن يتحدثوا ويستمدتوا ، وضرب لهم غرة ربيع الآخر سنة ٦٥ أجلاً يلقونه فيه ، والنخيلة موطناً يوافونه إليه ، فبعث سعد إلى من كان بالمدائن من الشيعة ، فقرأ عليهم كتاب سليمان بن صرد ، ثم إنه حمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أما بعد فإنكم قد كنتم مجتمعين مزمعين على نصر الحسين ، وقتال عدوه فلم يفجأكم أول من قتله ، والله ميثيقكم على حسن النية ، وما أجمعتم عليه من النصر أحسن المثوبة ، وقد بعث إليكم إخوانكم يستجدونكم ويستمدونكم ، ويدعونكم إلى الحق وإلى ما ترجون لكم به عند الله أفضل الأجر والحظ ، فإذا ترون ؟ وماذا تقولون ؟ »

فقال القوم بأجمعهم : « نجيبهم وقاتل معهم ، ورأينا في ذلك مثل رأيهم . »

٤٨ — خطبة عبد الله بن الحنظل الطائي

فقام عبد الله بن الحنظل الطائي فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أما بعد فإننا قد أجبنا إخواننا إلى ما دعونا إليه ، وقد رأينا مثل الذي قد رأوا ، فسرّحني إليهم في الخيل . »

فقال له : « رويدا لا تعجل ، استعدوا للعدو ، وأعدوا له الحرب ، ثم نسير

[١] الخلّة : الحاجة والفقر ، وفي اللؤلؤ : « الخلّة تدعو إلى السعة » ففتح الدين أى إلى الاستئلال والسرقة .

وتسيرون » وكتب سعد إلى ابن صرد بإجابة دعوته ، وأنهم في انتظار أمره .

٤٩ - خطبة عيد الله بن عبد الله المرى

وحدث رجل من مَزِينَةَ قَالَ : « ما رأيت من هذه الأمة أحداً كَانَ أَبْلَغَ من عُبيد الله بن عبد الله المرى في منطِق ولا عِظَة ، وَكَانَ من دُعاة أهل المصر زمان سليمان بن صرد ، وَكَانَ إِذَا اجْتَمَعَتْ إِلَيْهِ جَمَاعَةٌ من الناس فوعظهم ، بدأ بحمد الله والتناء عليه والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم يقول :

« أما بعد : فَإِنَّ الله اصطفى محمداً صلى الله عليه وسلم على خلقه بنبوته ، وخصه بالفضل كله ، وأعزكم باتباعه ، وأكرمكم بالإيمان به ، فحقن به دماءكم المسفوكه ، وآمن به سبلكم المخوفة : « وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا ^(١) حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ ، فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » فهل خلق ربكم في الأولين والآخرين أعظم حقاً على هذه الأمة من نبيها ؟ وهل ذرية أحد من النبيين والمرسلين أو غيرهم أعظم حقاً على هذه الأمة من ذرية رسولها ؟ لا والله ، ما كَانَ ولا يكون ، لله أنتم ! أَلَمْ تَرَوْا وَيْلَكُمْ مَا أَجْتَرِمَ ^(٢) إِلَى ابن بنت نبيكم ؟ أما رأيتم إلى انتهاك القوم حرمة ، واستضافهم وَحْدَتَهُ ، وترميلهم ^(٣) إياه بالسم ، وتجزأ رِجْمُوهُ على الأرض ؟ لم يراقبوا فيه ربهم ولا قرابته من الرسول صلى الله عليه وسلم ! اتخذوه للنبل غرضاً ، وغادروه للضباع جَزَراً ^(٤) ، فَلله عِيَنًا مَنْ رَأَى مثله ! ولله حسين بن علي ! ماذا غادروا به ؟ ذا صِدْقٍ وصبر ، وذا أمانة ونجدة وحزم ، ابن أول المسلمين إسلاماً ، وابن بنت رسول رب

* [١] التنا : حرف كل شيء . [٢] ارتكب وانترف . [٣] دله : لطمه بلام .

[٤] قتلاً .

العالمين ، قَلَّتْ مُمَاتُهُ ، وَكَثُرَتْ عُذَاتُهُ ^(١) حوله ، قَتَلَهُ عَدُوهُ وَخَذَلَهُ وَلِيُّهُ ، فَوَيْلٌ لِلْقَاتِلِ ، وَمَلَامَةٌ لِلخَاذِلِ ، إِنْ أَقْبَلَ لَمْ يَجْعَلْ لِقَاتِلِهِ حِجَةً ، وَلَا لِمَا خَذَلَهُ مَعْدِرَةً ، إِلَّا أَنْ يُنَاصِحَ اللَّهُ فِي التَّوْبَةِ ، فَيُجَاهِدَ الْقَاتِلِينَ ، وَيُنَابِذَ الْقَاسِطِينَ ، فَسَيُؤْتِيَهُ اللَّهُ عِنْدَ ذَلِكَ أَنْ يَقْبَلَ التَّوْبَةَ ، وَيُقِيلَ الْعَثْرَةَ ، إِنْ أَدْعَوْكُمْ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ وَالطَّلَبِ بِدَمَاءِ أَهْلِ بَيْتِهِ ، وَإِلَى جِهَادِ الْمُجَلِّينَ وَالْمَارِقِينَ ، فَإِنْ قُتِلْنَا فَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرُ الْأَبْرَارِ ، وَإِنْ ظَهَرْنَا رَدَدْنَا هَذَا الْأَمْرَ إِلَى أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّنَا »

قال : « وَكَانَ يَمِيدُ هَذَا الْكَلَامَ عَلَيْنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ حَتَّى حِفْظُهُ طَائِفَتَنَا » .

* *

وَكَانَ الشَّيْعَةُ بِالْكُوفَةِ مِنْذُ قَتْلِ الْحُسَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (سَنَةَ ٦١ هـ) يَجِدُّونَ فِي جَمْعِ آلَةِ الْحَرْبِ وَالِاسْتِعْدَادِ لِلْقِتَالِ وَدَعَاءِ النَّاسِ فِي السَّرِّ مِنَ الشَّيْعَةِ وَغَيْرِهَا إِلَى الطَّلَبِ بِدَمِهِ حَتَّى كَثُرَتْ بَيْنَهُمْ ، وَكَانَ النَّاسُ إِلَى اتِّبَاعِهِمْ بَعْدَ هَلَاكِ يَزِيدَ بْنِ مَعَاوِيَةَ (فِي ١٤ رَجَبِ الْأَوَّلِ سَنَةَ ٦٤ هـ) أَسْرَعَ مِنْهُمْ قَبْلَ ذَلِكَ . وَقَدِمَ الْمُخْتَارُ بْنُ أَبِي عُبَيْدٍ الثَّقَفِيُّ الْكُوفَةَ فِي النِّصْفِ مِنْ رَمَضَانَ سَنَةَ ٦٤ هـ ، وَقَدْ اجْتَمَعَتْ رِءُوسُ الشَّيْعَةِ وَوُجُوهُهَا مَعَ سُلَيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ ، فَلَيْسَ يَعْدِلُونَهُ بِهِ ، فَكَانَ الْمُخْتَارُ إِذَا دَعَاهُمْ إِلَى قَسَمِهِ وَإِلَى الطَّلَبِ بِدَمِ الْحُسَيْنِ ، قَالَتْ لَهُ الشَّيْعَةُ : « هَذَا سُلَيْمَانُ بْنُ صُرَدٍ شَيْخُ الشَّيْعَةِ قَدْ اتَّقَادُوا لَهُ وَاجْتَمَعُوا عَلَيْهِ » فَأَخَذَ يَقُولُ لِلشَّيْعَةِ : « إِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ مِنْ قِبَلِ الْمُهَدِّيِّ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ (ابْنِ الْحَنْفِيَّةِ) مُؤْتَعِنًا مَأْمُونًا ، مُسْتَجَبًا ^(٢) وَوَزِيرًا » فَزَالَ بِهِمْ حَتَّى انْشَعَبَتْ إِلَيْهِ طَائِفَةٌ تُعْظِمُهُ وَتَجْبِيهِ وَتَنْتَظِرُ أَمْرَهُ ، وَعَظَّمُ الشَّيْعَةُ مَعَ سُلَيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ .

وقدم عبد الله بن يزيد الأنصارى من قبل عبد الله بن الزبير أميراً على الكوفة على حربها وثقلها ، وقدم معه إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد الله التيمي أميراً على خراجها ، (وذلك بعد مقدّم المختار بثمانية أيام) ، وكان سليمان ابن سرد وأصحابه يريدون أن يتبؤوا بالكوفة ، ونعى إلى عبد الله بن يزيد اعتزام الشيعة الخروج ، فخرج حتى صعد المنبر ثم قام في الناس .

٥ . — خطبة عبد الله بن يزيد الأنصارى

فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، فقد بلغنى أن طائفة من أهل هذا المصر أرادوا أن يخرجوا علينا ، فسألت عن الذى دعاهم إلى ذلك ما هو ؟ ف قيل لى زعموا أنهم يطلبون بدم الحسين بن عليّ ، فرحم الله هؤلاء القوم ، قد والله ذلّت على أما كنهم ، وأمرت بأخذهم ، وقيل ابدأهم قبل أن يبدؤوك ، فأبيت ذلك ، فقلت إن قاتلوني قاتلتهم ، وإن تركوني لم أطلبهم ، وعلام يقاتلوننى ؟ فوالله ما أنا قتلتي حسيناً ولا أنا ممن قاتله ، ولقد أصبّت بمقتله رحمة الله عليه ، فإن هؤلاء القوم آمنون ، فليخرجوا ولينتشروا ظاهرين ، ليسيروا إلى من قاتل الحسين ، فقد أقبل إليهم ، وأنا لهم على قاتله ظهير ^(١) ، هذا ابن زياد قاتل الحسين وقاتل خياركم وأمانتكم ، قد توجه إليكم عهد الماهد به ^(٢) على مسيرة ليلة من جسر منبج ^(٣) ، فقتاله والاستعداد له

[١] نعين . [٢] وذلك أن عبيد الله بن زياد لما هاجت الفتنة بالبصرة . بعد وفاة معاوية الثاني (سنة ٦٤ هـ) لحق بالنعمان ، وكان مروان بن الحكم قد أراد أن يبايع ابن الزبير لما رأى من إطباق الناس على مبايعته وإبائهم له ، وبلغ ابن زياد ذلك ، فقال له : استعجيت لك مما تريد ، أنت كبير قريش وسيد ما تمنعه ! وشدّ من عزيمته حتى نهض في طلب الخلافة وتمت له ذبوج بها ، فلما استوثقت له الثأم بالطاعة بحث جيئاً إلى العراق عليه ابن زياد ، وجعل له حين وجهه إلى العراق ماقلب عليه ، وأمره أن ينهب الكوفة إذا هو ظفر بأهلها ثلاثاً . [٣] بين حلب والفرات .

أولى وأرشد من أن تجملوا بأسمكم ينكم ، فيقتل بعضكم بعضاً ، وَيَسْفِكَ بعضكم دماء بعض ، فيلقاكم ذلك العدو غداً وقد رَقَقْتُمْ ^(١) ، وتلك والله أمنيّةُ عدوكم ، وإنه قد أقبل إليكم أعدى خلق الله لكم ، مَنْ وَلِيَ عليكم هو وأبوه سبع سنين لَا يَقْلِعَان عن قتل أهل العفاف والدين ، هو الذي قتلكم ، وَمِنْ قَبْلِهِ أَتَيْتُمْ ، والذي قتل من تَثَارُون بدمه قد جاءكم ، فاستقبلوه بحكم وشوكتكم ، واجملوها به ولا تجملوها بأنفسكم ، إني لم آلكم نصحاً ^(٢) ، جمع الله لنا كلمتنا ، وأصلح لنا أمتنا .

٥١ - خطبة إبراهيم بن محمد بن طلحة ^(٣)

فقال إبراهيم بن محمد بن طلحة :

« أيها الناس : لا يفرّئكم من السيف والنّشْم ^(٤) مقالةُ هذا المداهن المواع ، والله لئن خرج علينا خارجٌ انقتلته ، ولئن استيقنا أن قوماً يريدون الخروج علينا ، لَنَأْخُذَنَّ الوالد بولده ، والمولود بوالده ، ولَنَأْخُذَنَّ الحميم بالحميم ، والعمير ^(٥) بما في عرافته ، حتى يَدِينُوا للحق ، وَيَذِلُّوا للطاعة » .

٥٢ - رد المسيب بن نجبة

فوثب إليه المسيب بن نجبة فقطع عليه منطقه ، ثم قال :

« يا ابن الناكثين ^(٦) : أنت تهددنا بسيفك وغشمك ؟ أنت والله أذلّ من ذلك ، إنا لا نلومك على بنفضنا وقد قتلنا أباك ^(٧) وجدك ، والله إني لأرجو

[١] ضنتم . [٢] أي لم أقصر في نصحتكم . [٣] مات سنة عشر ومائة عن أربع وسبعين سنة ، وكان يسمى أسد قريش . [٤] الظلم ، والمراد هنا القوة والأخذ بالشدّة .

[٥] حميك : قريبك الذي تبتّم لأمره . [٦] العريف : رئيس القوم ، سمى لأنه عرف بذلك ، أو القريب ، وهو دون الرئيس ، عرف ككرم وضرب عرافة صار عريفاً . [٧] يشير إلى ما كان من جدّه طلحة بن عبيد الله إذ بايع الإمام علياً ثم تكثرت بينه ، وقد اعتذر عن ذلك بأنه بايع واليسف على حقّه . [٨] قتل محمد بن طلحة يوم الجمل مع أبيه وصوّبه على ، قال هشام بن عمار : بآية وطاعة .

أَنْ لَا يُخْرِجَكَ اللَّهُ مِنْ بَيْنِ ظَهْرَانِي أَهْلَ الْمَصْرِ حَتَّى يَثْلُثُوا بِكَ جَدَّكَ وَأَبَاكَ ،
وَأَمَّا أَنْتَ أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، فَقَدْ قُلْتَ قَوْلًا سَدِيدًا ، إِنِّي وَاللَّهِ لَأُظَنُّ مِنْ يَرِيدُ هَذَا
الْأَمْرَ ^(١) مُسْتَنْصَحًا لَكَ ، وَقَابِلًا قَوْلَكَ »

فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ طَلْحَةَ : « إِنِّي وَاللَّهِ لَيَقْتَتَانِ وَقَدْ أَذْهَنَ ثُمَّ أَعْلَنَ » .

٥٣ - رَدَّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَالٍ التَّيْمِيَّ

فَقَامَ إِلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَالٍ التَّيْمِيَّ ، فَقَالَ :

« مَا اعْتَرَضَكَ يَا أَخَا بَنِي تَيْمٍ بِنَ مَرَّةٍ فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ أَمِيرِنَا ؟ فَوَاللَّهِ مَا أَنْتَ
عَلَيْنَا بِأَمِيرٍ ، وَلَا لَكَ عَلَيْنَا سُلْطَانٌ ! إِنَّمَا أَنْتَ أَمِيرُ الْجَزِيَّةِ ، فَأَقْبِلْ عَلَى خِرَاجِكَ ،
فَلَعَمْرُ اللَّهِ لَنْ كُنْتَ مُفْسِدًا ، مَا أَفْسَدَ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِلَّا وَالِدُكَ وَجَدُّكَ
النَّاكِثَانِ ، فَكَانَتْ بَهُمَا الْيَدَانِ ^(٢) ، وَكَانَتْ عَلَيْهِمَا دَائِرَةُ السُّوءِ » .

ثُمَّ أَقْبَلَ الْمُسَيْبُ بْنُ نَجْبَةَ . وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَالٍ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَزِيدَ فَقَالَ :
« أَمَا رَأَيْكَ أَيُّهَا الْأَمِيرُ فَوَاللَّهِ إِنَّا لَنَرْجُو أَنْ تَكُونَ بِهِ عِنْدَ الْعَامَةِ مَحْمُودًا ،
وَأَنْ تَكُونَ عِنْدَ النَّاسِ عَنِيتٌ وَاعْتَرِيتُ مَقْبُولًا » .

ثُمَّ تَرَلَّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يَزِيدَ وَدَخَلَ .

فَلَمَّا اسْتَهْلَ هَلَالُ رَيْعِ الْآخِرِ سَنَةِ ٦٥ شَخَّصَ سُلَيْمَانُ بْنُ صَرْدٍ فِي
وُجُوهِ أَصْحَابِهِ ، وَقَدْ كَانَ وَاعَدَ أَصْحَابَهُ عَامَةً لِلْخُرُوجِ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ لِلْمَعْسَكِ
بِالنَّخِيلَةِ ، وَأَقَامَ بِهَا ثَلَاثًا يَبْعَثُ تَقَاتِهِ مِنْ أَصْحَابِهِ إِلَى مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ يَذْكُرُ اللَّهُ
وَمَا أُعْطَوْهُ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، فَقَامَ إِلَيْهِ الْمُسَيْبُ بْنُ نَجْبَةَ ، فَقَالَ : « رَحِمَكَ اللَّهُ إِنَّهُ

[١] أَيْ الطَّلَبُ بِمَنْ أَحْسَنَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . [٢] يَقُولُ الْعَرَبُ : كَانَتْ بِهِ الْيَدَانِ ، أَيْ فَعَلَ اللَّهُ
بِهِ مَا يَقُولُهُ لِي ، وَمَرْقُومٌ مِنَ الْخَوَارِجِ يَقُومُ مِنْ أَصْحَابِ عَلِيٍّ وَهُمْ يَدْعُونَ عَلَيْهِمْ ، فَقَالُوا : بِكُمُ الْيَدَانِ أَيْ
حَاقَ بِكُمْ مَا دَعَوْنَ بِهِ وَتَهَيَّطُوا أَيْدِيَكُمْ .

لا ينفك الكاره ، ولا يقاتل معك إلا من أخرجته النية ، فلا تنتظرن أحداً ،
واكُش^(١) في أمرك ، قال : « فَإِنَّكَ وَاللَّهِ لَنِعِمَّا رَأَيْتَ » فقام سليمان بن صرد
في الناس متوكئاً على قوس له عربية فقال :

٥٤ — خطبة سليمان بن صرد

« أَيُّهَا النَّاسُ : مَنْ كَانَ إِنَّمَا أَخْرَجَتْهُ إِرَادَةُ وَجْهِ اللَّهِ وَثَوَابُ الْآخِرَةِ ، فَذَلِكَ
مَنَا وَنَحْنُ مِنْهُ ، فَرَحَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ حَيًّا وَمَيِّتًا ، وَمَنْ كَانَ إِنَّمَا يَرِيدُ الدُّنْيَا وَحَرَمَهَا^(٢)
فَوَاللَّهِ مَا نَأْتِي فَيْئًا نَسْتَفِيئُهُ ، وَلَا غَنِيمَةً نَغْنَمُهَا ، مَا خَلَا رِضْوَانُ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ،
وَمَا مَعْنَا مِنْ ذَهَبٍ ، وَلَا فُضَّةٍ ، وَلَا خَرَّ ، وَلَا حَرِيرٍ ، وَمَا هُوَ إِلَّا سِوْفُنَا فِي
عَوَاتِقِنَا ، وَرِمَاحُنَا فِي أَكْفُنَا ، وَزَادَ قَدْرَ الْبُلْغَةِ^(٣) إِلَى لِقَاءِ عَدُونَا ، فَمَنْ كَانَ غَيْرَ
هَذَا يَنْوِي فَلَا يَصْحَبُنَا » .

٥٥ — خطبة صخير بن حذيفة بن هلال

فقام صُخَيْرُ بْنُ حُذَيْفَةَ بْنِ هَلَالِ بْنِ مَالِكِ الْمُرِّيِّ فَقَالَ :
« آتَاكَ اللَّهُ رَشْدَكَ ، وَلَقَاكَ حُجَّتُكَ ، وَاللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ مَا لَنَا خَيْرٌ فِي
صَحْبِهِ ، مِمَّنِ الدُّنْيَا حِمَّتُهُ وَنَبَتْهُ ، أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّمَا أَخْرَجْتُمَا التَّوْبَةَ^(١) مِنْ ذُنُوبِنَا ،
وَالطَّلَبُ بِلَمِ ابْنِ ابْنَةِ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لَيْسَ مَعْنَا دِيَارٌ وَلَا دَرَمٌ ، إِنَّمَا
نَقْدَمُ عَلَى حَدِّ السِّوْفِ وَأَطْرَافِ الرِّمَاحِ »
فَتَنَادَى النَّاسُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ : « إِنَّا لَا نَطْلُبُ الدُّنْيَا وَلَيْسَ لَهَا خَرَجُنَا »

[١] أَسْرَعَ ، كَشَّ كَكْرَمَ كَلْشَةَ فَهُوَ كَشَّ (كَشَمَ) وَكَبَشَ ، أَيْ سَرَعَ .

[٢] أَيْ كَسَبَهَا وَمَطَاعَهَا . [٣] مَا يَبْلُغُ .

٥٦ - ما أشار به عبد الله بن سعد

وكان الرأي بادئ الأمر أن يسيروا إلى عبيد الله بن زياد ، فقال له عبد الله بن سعد ، وعنده رءوس أصحابه جلوسٌ حوله :

« إني قد رأيت رأياً ، إن يكن صواباً فالله وفقّ ، وإن يكن ليس بصواب فمن قبلي ، فإني ما آلوكم ونفسي نضجاً ، خطأ كان أم صواباً ، إنما خرجنا نطلب بدم الحسين ، وقتلته الحسين كلهم بالكوفة ، منهم عمر بن سعد بن أبي وقاص ، ورءوس الأرباع^(١) وأشرف القبائل ، فأتى نذهب هاهنا ونذع الأقتال والأوتار^(٢) ؟ »

فقال سليمان بن صرد : فإذ ترون ؟ فقالوا : « والله لقد جاء برأى ، وإن ما ذكر لكاذكر ، والله ما نلقى من قتلة الحسين ، إن نحن مضينا نحو الشام غير ابن زياد ، وما طأبتنا إلا هاهنا بالمصر » .

٥٧ - رأى ابن صرد

فقال سليمان بن صرد : « لكن أنا ما أرى ذلك لكم ، إن الذي قتل صاحبكم ، وعبي الجنود إليه ، وقال لا أمان له عندي دون أن يستسلم فأمضي فيه حكماً ، هذا الفاسق ابن الفاسق ، ابن مَرْجانة ، عبيد الله بن زياد ، فسيروا إلى عدوكم على اسم الله ، فإن يُظهركم الله عليه ، رجونا أن يكون من بعده أهونَ

[١] كانت الكوفة مقسمة أربعة أقسام لكل ربع رئيس : ربع تميم وهمدان ، وربع ربيعة وكندة ، وربع مذحج وأسد ، وربع أهل اللدنية ، (وتقسيم المدينة أرباعاً لا يزال إلى اليوم في بعض بلاد القطر المصري ، وقد كانت مدينة القاهرة قبل اليوم مقسمة ثمانية أقسام كل قسم ثمن ، وحرقت في المائة قتالوا « ثمن » ، وأطلق عليه بالتركية قره قول (كراكون) ويعمن أن يستعمل له كلمة غفر « ككتب » .

[٢] الأقتال جمع قتل بالكسر وهو العدو والقاتل ، والأوتار جمع وتر : الجناية والقتل ، أي ونذع أعداءنا وذري ثاراتنا .

شوكة منه ، ورجونا أن يدين لكم مَنْ وراءكم من أهل مصركم في عافية ،
فتنظرون إلى كل من شَرِك في دم الحسين فتقاتلونه ولا تَنْشِمُوا^(١) ، وإن
تُسْتَشْهِدُوا فَإِنَّمَا قَاتَلْتُمُ الْمُحِلِّينَ ، وما عَدَدَ اللَّهُ خَيْرَ لِلْأَبْرَارِ وَالصَّادِّقِينَ ، إني لأحب
أن تجعلوا حدكم وشوكتكم بأول المُحِلِّينَ القاسطين ، والله لو قاتلتم غداً أهل
مصركم ، ما عَدِمَ رجل أن يرى رجلاً قد قتل أخاه وأباه وحميمه ، أو رجلاً لم يكن
يريد قتله ، فاستخيروا الله وسيروا^(٢) فنهياً الناس للشخص .

وبلغ عبد الله بن يزيد ، وإبراهيم بن محمد بن طلحة خروج ابن سرد
وأصحابه فرأيا أن يأتيهم ، فخرجوا إليهم في جماعة من أصحابهما ، فلما انتهيا إلى
ابن سرد دخلا عليه .

٥٨ - خطبة عبد الله بن يزيد

حمد الله عبد الله بن يزيد ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« إن المسلم أخو المسلم ، لا يَخُونُهُ ولا يَفْشُهُ ، وأنتم إخواننا وأهل بلدنا ،
وأحبُّ أهل مصر خلقه الله إلينا ، فلا تَفْجَعُونَا بِأَنفُسِكُمْ ، ولا تستبدوا علينا
برأيكم ، ولا تَنْقُضُوا عِدَدَنَا بِخُرُوجِكُمْ من جماعتنا ، أقيموا معنا حتى تيسر وتهيأ ،
فإِذَا عَلِمْنَا أَنَّ عِدَدَنَا قد شارف بلدنا ، خرجنا إليهم بجماعتنا فقاتلناهم » .
وتكلم إبراهيم بن محمد بنحو من هذا الكلام .

٥٩ - خطبة سليمان بن سرد

حمد الله سليمان بن سرد وأثنى عليه ، ثم قال لهما :
« إني قد علمت أنكما قد حَضَمْتُمَا^(٣) في النصيحة ، واجتهدتما في اللشورة ،

[١] غشه : كعرب ظله . [٢] عضة الود والمعنه : أخذه .

فنحن بالله وله ، وقد خرجنا لأمر ، ونحن نسأل الله العزيمة على الرشد ، والتسديد لأصوبه ، ولا ترانا إلا شاخصين ، إن شاء الله ذلك .

فقال عبد الله بن يزيد : « فأقيموا حتى نَعْبِي معكم جيشاً كثيفاً فتلَقُوا عدوكم بِكَثْفٍ ^(١) ، وَجَمْعٌ وَحَدٌّ » فقال له سليمان : « تنصرفون ونرى فيما بيننا ، وسيأتىكم إن شاء الله رأى » .

وانصرف عبد الله بن يزيد ، وإبراهيم بن محمد إلى الكوفة ، وأجمع القوم على الشخوص ، واستقبال ابن زياد .

٦٠ - خطبة أخرى له

ثم إن سليمان بن صرد قام في الناس خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أما بعد أيها الناس ، فإن الله قد علم ما تنوون ، وما خرجتم تطلبون ، وإن للدنيا تجاراً ، وللآخرة تجاراً ، فأما تاجر الآخرة فساجع إليها منتصب ^(٢) بِتَطْلَافِهَا ، لا يشتري بها ثمناً ، لا يُرَى إِلَّا قَائِماً وقاعداً ، وراكماً وساجداً ، لا يطلب ذهباً ولا فضة ، ولا ديناً ولا لذة ، وأما تاجر الدنيا ، فَكُيِّبَ عليها ، راتع فيها ، لا يبتنى بها بدلاً ، فليكم (يرحمكم الله) في وجهكم هذا بطول الصلاة في جوف الليل ، وبذكر الله كثيراً على كل حال ، وتَقَرَّبُوا إلى الله جل ذكره بكل خير قَدَرْتُمْ عليه ، حتى تَلْقُوا هذا العدو ، والمُحِلَّ القاسِطَ فتجاهدوه ، فإنكم لن تتوسلوا إلى ربكم بشيء هو أعظمُ عنده ثواباً من الجهاد والصلاة ، فإن الجهاد سَنَامُ العمل ، جعلنا الله وإياكم من العباد الصالحين المجاهدين الصابرين

[١] الكثيف : الجماعة . [٢] أى قد نصب نفسه طالباً لها ، نصب القى . رفعه فأنصب وأنصب .

على اللأواء^(١) وإنا مُدْجُونَ^(٢) الليلة من منزلنا هذا إن شاء الله فأذِلُّوا .
فأدِلج عشية الجمعة لحس مضين من ربيع الآخر سنة ٦٥ للهجرة ، وما زال
يسير حتى انتهى إلى عَيْنِ الوردة^(٣) فنزل في غريبها .

٦١ - خطبة أخرى

وأقبل أهل الشام في عساكرهم ، حتى كانوا منها على مسيرة يوم و ليلة ، قال
عبد الله بن غزِيَّة ، فقام فينا سليمان فحمد الله فأطال ، وأثنى عليه فأطنب ، ثم
ذكر السماء والأرض ، والجبال والبحار وما فيهن من الآيات ، وذكر آلاء الله
ونعمه ، وذكر الدنيا فزهد فيها ، وذكر الآخرة فرغب فيها ، فذكر من هذا ما لم
أُحصِهِ ، ولم أقدر على حفظه ، ثم قال :

« أما بعد فقد أتاكم الله بعدوكم الذي دَأَبْتُمْ في المسير إليه آتاء^(٤) الليل
والنهار ، تريدون فيما تظهرون التوبة النصوح ، وإلقاء الله مُعْذِرِينَ ، فقد جاءوكم
بل جثموم أتم في دارم وحيزم ، فإذا لقيتموم فاصدقوهم ، واصبروا إن الله
مع الصابرين ، ولا يولينهم امرؤ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا^(٥) لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا^(٦) إِلَى
إِلَى فِتْنَةٍ ، لَا تَقْتُلُوا مُدْبِرًا ، وَلَا تُجْهِزُوا عَلَى جَرِيحٍ ، وَلَا تَقْتُلُوا أَسِيرًا مِنْ أَهْلِ
دَعْوَتِكُمْ^(٧) إِلَّا أَنْ يَقَاتِلَكُمْ بَعْدَ أَنْ تَأْمُرُوهُ ، أَوْ يَكُونَ مِنْ قِتْلَةِ إِخْوَانِنَا بِالطَّفِّ
رَحْمَةً اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، فَإِنْ هَذِهِ كَانَتْ سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في أهل
هذه الدعوة . »

[١] التدة . [٢] أدلج : سار من أول الليل ، فإن سار من آخره فأدِلج بالتشديد .
[٣] عين رأس العين : بلد في وسط الجزيرة . [٤] آتاء الليل : ساقاته واحدهما إلى : (كإلى)
أولاً (كحل) أولاً وكفلك . [٥] أي منطلقاً يريد الكر بعد الفر وتقرر المدو ، فأنه من
مكايد الحرب . [٦] أي متحاذراً إلى جماعة على القرب ليستجد بهم . [٧] منكم .

ودارت رحى الحرب بينهم وبين جيوش عبيد الله بن زياد واستشهد في المعركة سليمان بن صرد، بعد أن قتل من القوم مقتلة عظيمة ، وقتل أيضاً من رؤوس أصحابه : المسيب بن نجبة ، وعبد الله بن سعد بن قنيل، وعبد الله بن وائل، فلما رأى من بقي من التوأمين أن لا طاقة لهم بمن يازأهم من أهل الشام انحازوا عنهم وارتحلوا ، وعليهم رقاعة بن شداد البجلي .
(وكان ذلك في ربيع الآخر سنة ٦٥ هـ) (١) .

٦٢ - خطبة عبد الملك بن مروان

وأثنى عبد الملك بن مروان بيشارة الفتح ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإن الله قد أهلك من رؤوس أهل العراق مُلقِحَ (٢) فتنة ، ورأس ضلالة ، سليمان بن صرد ، ألا وإن السيوف تركت رأس المسيب بن نجبة خذاري (٣) ، ألا وقد قتل من رؤوسهم رأسين عظيمين ضالين مضلين : عبد الله بن سعد أخا الأزدي ، وعبد الله بن وائل أخا بكر بن وائل ، فلم يبق بعد هؤلاء أحدٌ عنده دفاع ولا امتناع » .

(تاريخ الطبري ٧ : ٤٧ - ٨٣ ، ومروج الذهب ٢ : ١١٠)

[١] وقال السعدي في مروج الذهب : « وقيل إن وقعة الورد كانت في سنة ٦٦ هـ » .
[٢] أصله : من ألحق النعقة ، وألحق الفعل الناقة ، والريح الشجر . [٣] تركت السيوف رأسه خذاري : أي قطعاً كل قطعة كالخنزوف ، والخنزوف : كصفوف شيء يدور العري بحيث يقطع في يديه فيسمع له دوى (النعقة) .

طلب المختار بن أبي عبيد الثقفي

بدم الحسين رضى الله عنه

٦٣ - خطبته حين قدم الكوفة

وقدم المختار بن أبي عبيد الثقفي ^(١) الكوفة في النصف من رمضان سنة ٦٤ هـ ، فأتاه بعض الشيعة ليلاً ، فسألهم عن أمر الناس ، وعن حال الشيعة ، فقالوا له : إن الشيعة قد اجتمعت لسليمان بن صرد الخزاعي ، وإنه لن يلبث إلا يسيراً حتى يخرج .

فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :
« أما بعد : فإن المهدي بن الوصي ، محمد بن علي ، بعثني إليكم أميناً ووزيراً ،
وَمُتَّخَباً وأميراً ، وأمرني بقتال الملحدين ، والطلب بدماء أهل بيته ، والدفع
عن الضعفاء » .

[١] هو المختار بن أبي عبيد بن مسعود الثقفي ، وقد قدمنا في الجزء الأول أن أول ما عمل به عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين ولي الخلافة أن ندب الناس مع النبي بن حارثة الشيباني لقتال أهل فارس ، وجعل بينهم ثلاثة أيام ، فلا يقرب أحد إلى فارس ، فلما كان اليوم الرابع عاد فندب الناس ، فكان أول من ندب أبو عبيد بن مسعود والد المختار ، ولم يكن المختار في نفسه لآل علي بالخمس ، وكانت الشيعة تنقم عليه ما كان منه في أمر الحسن بن علي رضى الله عنه يوم ملن في ظلم سابط وحمل إلى اللعان - وكان عم المختار ، وهو سعد بن مسعود عاملاً على المدائن - فقال له المختار : هل لك في النبي والشرف ؟ قال : وما ذاك ؟ قال : توفي الحسن وتسلمت به إلى معاوية ، فقال له سعد : عليك لعنة الله ، أنب على ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأوتقه ! بش الرجل أنت ، ولما قدم مسلم بن عقيل الكوفة من قبل الحسين رضى الله عنه نزل دار المختار فبايعه المختار فين بابه من أهل الكوفة ، ونامحه ودعا إليه ، ثم ظهر ابن زياد بمسلم وقتله ، وأمر بالمختار فسخن ، وبعث المختار إلى عبد الله بن عمر بالمدينة ، يسأله أن يتفقد له عند يزيد بن معاوية - وكانت صفة أخت المختار تحت عبد الله بن عمر - فكتب ابن عمر إلى يزيد يسأله أن يحل سبيته ، فتفقد فيه ، وخط ابن زياد سبيته وأخرجه من الكوفة ، فقدم الحجاز وبيع ابن الزبير ، وقاتل معه حين حاصر مكة جيش يزيد - وكان تحت إمرة الحسين بن تميم السكوني - وأقام مع ابن الزبير بعد مهلك يزيد حتى قدم الكوفة في منتصف رمضان سنة ٦٤ هـ .

وأقبل يبعث إلى الشيعة ، فيقول لهم : « إني قد جئكم من قِبَلِ وَلِيِّ الْأَمْرِ ، وَمَعْدِنِ الْفَضْلِ ، وَوَصِيِّ الْوَصِيِّ ، وَالْإِمَامِ الْمَهْدِيِّ ، بِأَمْرٍ فِيهِ الشِّفَاءُ ، وَكُشْفُ الْعِطَاقِ ، وَقَتْلُ الْأَعْدَاءِ ، وَتَمَامُ النِّعَمَاءِ ، إِنْ سَلِمَانَ بْنِ صُرْدٍ يَرْحَمُنَا اللَّهُ وَإِيَّاهُ ، إِنَّمَا هُوَ عَشْمَةٌ ^(١) مِنَ الْعَشَمِ ، وَحِفْشٌ ^(٢) بَالٍ ، لَيْسَ بِذِي تَجَرِبَةٍ لِلْأُمُورِ ، وَلَا لَهُ عِلْمٌ بِالْحُرُوبِ ، إِنَّمَا يَرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ فَيَقْتُلَ نَفْسَهُ وَيَقْتُلَكُمْ ، إِنْ إِنَّمَا أَعْمَلُ عَلَى مِثَالٍ قَدْ مُثِّلَ لِي ، وَأَمْرٍ قَدْ مُيِّنَ لِي ، فِيهِ عِزٌّ وَلَيْكُمُ ، وَقَتْلُ عَدُوِّكُمْ ، وَشِفَاءُ صُدُورِكُمْ ، فَاسْمَعُوا مَنِي قَوْلِي ، وَأَطِيعُوا أَمْرِي ، ثُمَّ أَتَشِيرُوا وَتَبَاشِرُوا ، فَإِنِّي لَكُمْ بِكُلِّ مَا تَأْمَلُونَ خَيْرٌ زَعِيمٌ » .

فما زال بهذا القول ونحوه ، حتى استمال طائفة من الشيعة ، وَغَظَمُهُمْ يَوْمَئِذٍ مَعَ سَلِمَانَ بْنِ صُرْدٍ ، فَلَمَّا خَرَجَ ابْنُ صُرْدٍ نَحْوَ الْجَزِيرَةِ ، خَافَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يَزِيدَ الْأَنْصَارِيَّ - أَمِيرَ الْكُوفَةِ مِنْ قَبْلِ ابْنِ الزَّيْرِ - أَنْ يَنْبَغِيَ الْمُخْتَارُ عَلَيْهِ ، فَزَجَّهُ فِي السِّجْنِ . (تاريخ الطبري ٧ : ٦٤)

٦٤ - ما كان يردده على زائريه في سجنه

وكان يردّد على زائريه في سجنه هذا القول :

« أَمَّا وَرَبُّ الْبَحَارِ ، وَالنَّخِيلِ وَالْأَشْجَارِ ، وَالْمِهَامَةِ ^(٣) وَالْقِفَارِ ، وَالْمَلَائِكَةِ الْأَبْرَارِ ، وَالْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ، لَا تَقْتُلَنَّ كُلَّ جَبَّارٍ ، بِكُلِّ لَذَنِ خَطَّارٍ ^(٤) ،

[١] الشمة: الشيخ الثاني فذكر والأبني أو المتغارب الخطو المتحن الظهر، وكان عمر ابن صرد حين قتل ٩٣ سنة . [٢] حِفْش: الشيء البالي ، والجوالق العظيم البالي ، وما كان من أسقاط الآنية كالقوارير وغيرها ، وأحشاش البيت: نزال متاعه .

[٣] المِهَامَةُ: جمع مِهْمَةٍ كجَمْرٍ ، وهو البلد القفر ، والمغازة البعيدة . [٤] الرمح اللدن: اللين ، وذلك صفة جودة فيه لأن اللدن لا يعصف ، وقد لذن ككرم لينة ولهوة ، والرمح: الخطار أي الهز خطر كضرب خطرانا .

وَمُهَنْدٍ بَنَارٌ^(١) ، في جموع من الأنصار ، ليسوا بِعِيْلٍ أَنْعَمَارٍ^(٢) ، ولا بِعُزْلٍ^(٣) أَشْرَارٍ ، حتى إذا أَقْتُمُ عُمُودَ الدِّينِ ، وَرَأَبْتُ شَعْبَ^(٤) صَدْعِ الْمُسْلِمِينَ ، وَشَقَيْتُ غُلِيلَ صُدُورِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَدْرَكْتَ بَنَارَ النَّبِيِّينَ ، لَمْ يَكْبُرْ عَلَى زَوَانِ الدُّنْيَا ، وَلَمْ أُخْضِلْ بِالْمَوْتِ إِذَا أَتَى .

ثم خلى عبد الله بن يزيد سبيله ، بشفاعته عبد الله بن عمر فيه ، واختلفت إليه الشيعة بعد خروجه من السجن ، واجتمعت عليه ، واتفق رأيها على الرضا به ، ولم يزل أصحابه يكثرُونَ ، وأمره يقوى ويشد ، حتى عزل ابن الزبير عبد الله بن يزيد عن الكوفة ، وولى عليها عبد الله بن مطيع العدوى .

(تاريخ الطبري ٧ : ٦٥)

٦٥ — خطبة عبد الله بن مطيع العدوى حين قدم الكوفة

وقَدِمَ عبد الله بن مطيع العدوى الكوفة (لخمس بقين من رمضان سنة ٦٥) فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال :

« أما بعد : فإن أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير بعثنى عَلَى مِصْرِكُمْ وَتُعُورِكُمْ ، وَأَمَرَنِي بِجَبَايَةِ فَيْئِكُمْ ، وَأَنْ لَا أَتَّحِلَّ فَضْلَ^(٥) فَيْئِكُمْ عَنْكُمْ إِلَّا بِرِضَا مِنْكُمْ ، وَوَصِيَّةِ عُمَرَ ابْنِ الْخَطَّابِ الَّتِي أَوْصَى بِهَا عِنْدَ وَفَاتِهِ^(٦) ، وَبِسِيرَةِ عَثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ الَّتِي سَارِبَهَا فِي الْمُسْلِمِينَ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْتَقِيمُوا وَلَا تَخْتَلَفُوا ، وَخُذُوا عَلَى أَيْدِي سَفَهَائِكُمْ ،

[١] المهند : السيف اللطبوع من حديد الهند ، والبنار : القطاع .

[٢] ميل : جمع أميل ، وهو الجبان ، ومن يميل على السرج في جانب ، ومن لا ترس معه أو لا سيف أو لارمح ، والأعمار : جمع غمر (مثلث ويحرك) من لم يجرب الأمور . [٣] العزل : جمع أعزل ، وهو من لا سلاح معه . [٤] الشعب : الصدع أى الثقب ، ومن معانيه الإفساد ، وهو المراد هنا ، ورأب الصدع : أصله . [٥] الفضل : الزيادة . [٦] انظر وصيته الخليفة من بعده . ج ١ : ص ٩٥

وَالْأَفْعَالُوا فَلَوْمُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَلُمُونِي ، فَوَاقَهُ لِأَوْقَعَنَّ بِالسَّقِيمِ الْعَاصِي ، وَلَأَقِيمَنَّ
دَرَأًا ① الْأَضْرَعِ ② الْمُرْتَابِ .

٦٦ — رد السائب بن مالك الأشعري عليه

فقام إليه السائب بن مالك الأشعري — وهو من رؤس أصحاب
المختار — فقال :

« أما أمرُ ابن الزبير إياك ألاَّ تحملَ فضلَ فيثنا عنا إلا برضانا ، فإننا أشهدك
أنا لا نرضى أن تحملَ فضلَ فيثنا عنا ، وأن لا يُقسَمَ إلّا فينا ، وأن لا يُسَارَ فينا
إلا بسيرة عليّ بن أبي طالب ، التي سار بها في بلادنا هذه ، حتى هلكَ رحمةُ الله
عليه ، ولا حاجة لنا في سيرة عثمان في فيثنا ولا في أنفسنا ، فإنها إنما كانت
أثرةً وهوىً ، ولا في سيرة عمر بن الخطاب في فيثنا ، وإن كانت أهونَ السيرتين
علينا ضرراً ، وقد كان لا يَأْلُو الناسَ خيراً » .

فقال يزيد بن أنس الأسدي : صدق السائب بن مالك وبرّ ، وأينا
مثلُ رأيه ، وقولُنا مثلُ قوله ، فقال ابن مطيع : نسير فيكم بكل سيرة أحببتموها
وهوَّيتموها ، ثم نزل . فقال يزيد بن أنس : ذهبتَ بفضلها يا سائب ،
لا يَعْدَمُكَ المسلمون ! (تاريخ الطبري ٧ : ٩٥)

٦٧ — خطبة عبد الرحمن بن شريح

وبعث المختار إلى أصحابه ، فأخذ يجمعهم في الدور حوله ، وأراد أن يثب

[١] الرأ : الميل والوج في الفناء ونحوها . [٢] الصعر معركة : ميل في المنق والغلاب في الوجه
إلى أحد الشقين ، صر كفتح فهو أصغر ، وربما كان الانسان أصغر خفة ، وصغر خذه بالشديد : أماله
عن الناس إعراضاً وتكبّراً .

بالكوفة في الحرم ، فجاء رجل منهم يقال له عبد الرحمن بن شريح ، فلقى جماعة من إخوانه ، واجتمعوا في منزل أحدهم ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« أما بعد ، فإن المختار يريد أن يخرج بنا ، وقد بايعناه ، ولا ندرى أُرسله إلينا ابن الحنفية أم لا ؟ فانهضوا بنا إلى ابن الحنفية فلنخبره بما قَدِم علينا به ، وبما دعانا إليه ، فإن رخصَ لنا في اتباعه اتبعناه ، وإن نهانا عنه اجتنبناه ، فوالله ما ينبغي أن يكون شيء من أمر الدنيا آثرَ عندنا من سلامة ديننا »

فقالوا له : أرشدك الله ، فقد أصبتَ ووقفتَ ، اخرج بنا إذا شئت ، فأجمع رأيهم على أن يخرجوا إليه ، فلما قدموا عليه بدأ عبد الرحمن بن شريح ، فتكلم :
(تاريخ الطبري ٧ : ٩٦)

٦٨ - خطبة أخرى له

فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« أما بعد : فإنكم أهل بيت خَصَّكم الله بالفضيلة ، وشرَّفكم بالنبوة ، وعَظَّم حَقَّكم على هذه الأمة ، فلا يجهلُ حَقَّكم إلا مغبونُ الرأي ، محسوسُ النصيب ، قد أصبتم بحسين رحمة الله عليه ، عَظُمَت مصيبة ! ما قد خَصَّكم بها ، فقد عَمَّ بها المسلمون ، وقد قَدِم علينا المختار بن أبي عبيد ، يزعم لنا أنه قد جاءنا من تلقائكم ، وقد دعانا إلى كتاب الله وستة نبيه صلى الله عليه وسلم ، والطلب بدماء أهل البيت ، والدفع عن الضعفاء ، فبايعناه على ذلك ، ثم إنا رأينا أن نأتيك فنذكر لك ما دعانا إليه ، وَتَدَبَّنا له ، فإن أَمَرْتنا باتباعه اتبعناه ، وإن نهيتنا عنه اجتنبناه . »

ثم تكلموا واحداً واحداً بنحو مما تكلم به صاحبهم وهو يسمع حتى إذا فرغوا
(تاريخ الطبري ٧ : ٩٦)

٦٩ - خطبة محمد بن الحنفية

حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :
 « أما بعد : فأما ما ذكرتم مما خصصنا الله به من فضل ، فإن الله يؤتية
 من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم ، فقلل الحمد ، وأما ما ذكرتم من مصيبتنا
 بحسين ، فإن ذلك كان في الذكر الحكيم ^(١) ، وهي ملحة ^(٢) كتبت عليه ،
 وكرامة أهداها الله له ، رفع بما كان منها درجات قومٍ عنده ، ووضع بها
 آخرين ، وكان أمر الله مفعولاً ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً ، وأما ما ذكرتم من
 دعاء من دعاكم إلى الطلب بدمائنا ، فوالله لو ددت أن الله اتصر لنا من عدونا
 بمن شاء من خلقه ، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم »

فخرجوا من عنده ، وهم يقولون : قد أذن لنا ، قد قال : « لوددت أن الله
 اتصر لنا من عدونا بمن شاء من خلقه » ولو كره لقال : « لا تفعلوا » .

(تاريخ الطبري ٧ : ٩٧)

٧٠ - خطبة المختار

وبلغ المختار غرjúهم فشق ذلك عليه ، وخشى أن يأتوه بأمر يُخَذِّل الشيعة
 عنه ، فكان يقول :

« إن تُفَيِّرَ منكم ارتابوا ، وتحيرُوا وخابوا ، فإن هم أصابوا ، أقبلوا وأنابوا ، وإن هم
 كبَوْا وهابوا ، واعترضوا وانجابوا ^(٣) ، فقد تَبَرَّوا ^(٤) وحَابُوا ^(٥) » وأقبل القوم

[١] يريد أنه سبق به قضاء الله تعالى . [٢] الملحة : الرقة العظيمة الفتل .

[٣] انجابات السحابة : انفكت ، والمعنى : وإن هم انسلخوا منا وانشقوا علينا . [٤] تبر ، كضد

تبوراً : هلك . [٥] حاب : أتم ، والحب بالفتح والغم : الائم ، وفي الأصل خابوا ، وأرى أن

تكون بالحاء لتقديم كلمة تابوا في أول قوله .

فدخلوا على المختار ، فقال لهم : ما وراءكم ؟ قد فُتنتم وارتبتم ، فقالوا له : قد أمرنا بنصرتك ، فقال : الله أكبر ! أنا أبو إسحق ! اجمعوا إلى الشيعة ، فجمع له منهم من كان منه قريباً فقال :

« يا معشر الشيعة : إن فرأ منكم أحبوا أن يملوا مصداق ما جئت به ، فرحلوا إلى إمام الهدى ، والنجيب المرتضى ، ابن خير من طشى ^(١) ومشى ، حاشا النبي المجتبي ^(٢) ، فسألوه عما قدمتُ به عليكم ، فنبأهم أني وزيره وظهره ، ورسوله وخليله ، وأمركم باتباعي وطاعتي فيما دعوتكم إليه ، من قتال المُحلين ، والطلب بدماء أهل بيت نبيكم المصطفين » . (تاريخ الطبري ٧ : ٩٧)

٧١ — خطبة عبد الرحمن بن شريح

فقام عبد الرحمن بن شريح فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : يا معشر الشيعة فإننا قد كنا أحياناً أن نستثبت لأنفسنا خاصة ، ولجميع إخواننا عامة ، فقدمنا على المهدي بن علي ، فسألناه عن حربنا هذه ، وعما دحنانا إليه المختار منها ، فأمرنا بمظاهرتة وموازرتة ، وإجابته إلى مادعانا إليه ، فأقبلنا طيبة أنفسنا منشرحة صدورنا ، قد أذهب الله منها الشك والنيل والريب ، واستقامت لنا بصيرتنا في قتالنا عدونا ، فليبلغ ذلك شاهدكم غائبكم ، واستعدوا وتأهبوا » ثم جلس .

[١] هكذا في الأصل ، ولم أجد كلمة « طشى » في كتب اللغة ، وفي لسان العرب « تطشى المريض برى » وليست مناسبة هنا ، وأرى أن العبارة « ابن خير من منى وطشى » بتأخير طشى ، وأنه اتباع لفعل قبله لتقويته وتوكيده ، وهو كثير في كلام العرب ، كقولهم : حسن بين ، وغريت هريت ، وعطشان فلشان ، وشحج بحج ، وكثير بثير ، وحيك الله وبيك — وإن قيل إن الإتيان لا يكاد يكون بـواو — اقرأ باب الإتيان في الزهر السيوطي (١ : ٢٤٤) وفي الأمل (٢ : ٢١١) .

[٢] المختار .

وقاموا رجلاً رجلاً فتكلموا بنحو من كلامه فاستجمعت له الشيعة
وحديث^(١) عليه .
(تاريخ الطبري ٧ : ٩٧)

٧٢ — خطبة المختار في دار إبراهيم بن الأشتر

ومضى المختار في بضعة عشر رجلاً من وجوه أصحابه إلى دار إبراهيم
ابن الأشتر^(٢) يدعوهم أن يناصره ، فاستأذن عليه فأذن له ، وألقى لأصحابه وسأله
فجلسوا عليها ، وجلس المختار معه على فراشه ، فقال المختار :
« الحمد لله ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وصلى الله على محمد والسلام عليه ،
أما بعد : فإن هذا كتاب إليك من المهدي محمد بن أمير المؤمنين الوصي ، وهو
خير أهل الأرض اليوم ، وابن خير أهل الأرض كلها قبل اليوم ، بعد أنبياء الله
ورسله ، وهو يسألك أن تنصرنا وتوازرنا ، فإن فعلت اغتبطت ، وإن لم تفعل
فهذا الكتاب حجة عليك ، وسيغني الله المهدي محمدًا وأوليائه عنك^(٣) »
فبايعه إبراهيم .

[١] عطف . [٢] وكان أصحاب المختار قد دعوه أن ينضم إلى زمرتهم فقال : إني قد أجبتمكم إلى
مادعوتكمني إليه على أن تولوني الأمر ، فقالوا هذا المختار قد جاءنا من قبل المهدي ، وهو نرسول والأمور
باتتال وقد أمرنا بطاعته ، فكنت منهم ابن الأشتر ، وانصرفوا إلى المختار فأخبروه بما رآه عليهم .
[٣] ثم دفع إليه الكتاب ففرض خاتمه وترأه ، فإذا هو : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد المهدي إلى إبراهيم
ابن مالك الأشتر ، سلام عليك ، إني أريد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد : إني قد بعثت إليك
بوزيري ، وأميني ، ونجيبتي إرضيتك نفسي ، وقد أمرته بقتال عدوي ، والطلب بدماء أهل بيتي ،
فانهض معي بنفك وعشيرتك ومن أطاعتك ، فإنك إن نصرتني وأجبت دعوتي ، وساعدت وزيري كانت لك
عندي بذلك فضيلة ، وإنك بذلك أعتة الخيل ، وكل جيش غاز ، وكل مصر وسنبر وثغر ظهرت عليه فيما
بين الكوفة وأقصى بلاد أهل الشام ، على الوفاء بذلك على عهد الله ، فإن فعلت ذلك نلت به عند الله أفضل
الكرامة ، وإن أبيت ملكك حلاكا لا تنقذ أبداً ، والسلام عليك » فلما قضى إبراهيم قراءة الكتاب ،
قال : قد كتب إلى ابن الحنفية وقد كتبته إليه قبل اليوم ، فما كان يكتب إلى إلا باسمه واسم أبيه ، قال
له المختار : إن ذلك زمان وهذا زمان ، قال إبراهيم : فمن يعلم أن هذا كتاب ابن الحنفية إلى ؟ فشهد من
معه بأنه كتاب ابن الحنفية إليه ، قال إبراهيم : أبسط يدك أياك فبسط المختار يده فبايعه إبراهيم .

— وجعل المختار وأصحابه يدبرون أمورهم حتى اجتمع رأيهم على أن يخرجوا ليلة الخميس لأربع عشرة من ربيع الأول سنة ٦٦ ، فتأروا بالكوفة ، ونشِبَ القتال بينهم وبين جند ابن مطيع . (تاريخ الطبري ٧ : ٩٨)

٧٣ — خطبة يزيد بن أنس الأسدي

ولما حملت خيل ابن مطيع على أصحاب المختار ، خطبهم يزيد بن أنس الأسدي محرّضاً ، فقال :

« يا معشر الشيعة : قد كنتم تُقتلون وتُقطع أيديكم وأرجلكم ، وتُسَمَل أعينكم ، وتُرفعون على جذوع النخل ، في حُبِّ أهل بيت نبيكم ، وأنتم مقيمون في بيوتكم وطاعة عدوكم ، فما ظنكم بهؤلاء القوم إن ظهروا عليكم اليوم ؟ إذن والله لا يدعون منكم عيناً تطرف ^(١) ، وليقتلنكم صبراً ^(٢) ، ولتروُن منهم في أولادكم وأزواجكم وأموالكم ما الموت خيرُ منه ، والله لا ينجيكم منه إلا الصدق والصبر والظمن الصائب في أعينهم ، والضرب الدّراك على هامهم ، فتيسرُوا للشّدّة ، وتهيئوا للحملة ، فإذا حركت رايتي مرتين فاحملوا » .

(تاريخ الطبري ٧ : ١٠٤)

٧٤ — خطبة عبد الله بن مطيع

وحمل أصحاب المختار على جند ابن مطيع فكشفوم وهزموم ، فخرج ابن مطيع فقام في الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : إن من أعجب العجب عجزكم عن عُصْبَةِ منكم ، قليل عدّها ، خبيث دينها ، ضالّة مضلّة ، أخرجوا إليهم ، فامنعوا منهم حريمكم ، وقاتلوم عن

[١] طرف البصر (كضرب) تحرك ، وطرف بصره (كضرب أيضاً) أطبق أحد جفنيه على الآخر .

[٢] قتل صبراً : هو أن يجلس ويرى حتى يموت .

مصركم ، وامنعوا منهم فيكم ، وَإِلَّا لِيُشَارَكَنَّكُمْ فِي فَيْتِكُمْ مِّنْ لَّا حَقَّ لَهُ فِيهِ ، وَاللَّهِ لَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ فِيهِمْ خَمْسَمِائَةَ رَجُلٍ مِنْ مَحْرُوكِمْ عَلَيْهِمْ أَمِيرٌ مِنْهُمْ ، وَإِنَّمَا ذَهَابُ عَزِّكُمْ وَسُلْطَانِكُمْ ، وَتَنَزُّرُ دِينِكُمْ حِينَ يَكْتُرُونَ . ثم نزل .

(تاريخ الطبري ٧ : ١٠٦)

٧٥ - تحريض ابن الأشر أصحابه

واستنفر ابن مطيع الناس لقتال المختار وصدّه ، وأقبل إبراهيم بن الأشر في أصحابه فقال لهم :

« قَرَّبُوا خِيُولَكُمْ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ ، ثُمَّ امْشُوا إِلَيْهِمْ مُصْلِتِينَ ^(١) السُّيُوفَ ، وَلَا يَهْوُلَنَّكُمْ أَنْ يُقَالَ : جَاءَكُمْ شَبَثُ بْنُ رَبِيعٍ ، وَآلُ عُنَيْبَةَ بْنِ النَّهَّاسِ ، وَآلُ الْأَشْعَثِ ، وَآلُ يَزِيدَ بْنِ الْحَارِثِ ، وَآلُ فُلَانٍ - فَسَمَى يِيُوتَاتٍ مِنْ يِيُوتَاتِ أَهْلِ الْكُوفَةِ - ثُمَّ قَالَ : إِنْ هَؤُلَاءِ لَوْ قَدْ وَجَدُوا بِهِمْ حَرَّ السُّيُوفِ قَدْ انْصَفَقُوا ^(٢) عَنْ ابْنِ مَطِيْعٍ انْصِفَاقَ الْمَعْرَى عَنِ الذَّنْبِ » ثُمَّ قَالَ لِأَصْحَابِهِ شَدُّوا عَلَيْهِمْ ، فِدَا لَكُمْ عَمِي وَخَالِي .

فمالبهم أَنْ هَزَمَهُمْ ، فَرَكَبَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَمَضَى بِأَصْحَابِهِ فِي آثَارِهِمْ حَتَّى دَخَلُوا السُّوقَ وَالْمَسْجِدَ ، وَحَصَرُوا ابْنَ مَطِيْعٍ ثَلَاثًا . (تاريخ الطبري ٧ : ١٠٧)

٧٦ - خطبة ابن مطيع وهو محصور

فلما اشتد الحصار على ابن مطيع وأصحابه ، أشار عليه شَبَثُ بْنُ رَبِيعٍ أَنْ يُخْرِجَ مِنَ الْقَصْرِ لَا يَشْرِبُهُ أَحَدٌ ، حَتَّى يَنْزِلَ مَنْزِلًا بِالْكُوفَةِ عِنْدَ مَنْ يَسْتَنْصَحُهُ ، وَيُنَبِّئُ بِهِ ، وَلَا يُعْلَمُ بِمَكَانِهِ إِلَى أَنْ يُخْرِجَ فَيُلْحَقَ بِصَاحِبِهِ (ابن الزبير) .

وفي مساء اليوم الثالث دعا ابن مطيع أصحابه فذكر الله بما هو أهله ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم وقال :

« أما بعد : فقد علمت الذين صَنَعُوا هذا منكم مَنْ هُمْ ، وقد علمت إنما هم أراذلكم وسُفَهَاؤُكُمْ وطغَمَكم وأخسَاؤُكُمْ ، ماعدا الرجلَ أو الرجلين ، وأنَّ أشرافكم ، وأهل الفضل منكم لم يزلوا سامعين مطيعين مناصحين ، وأنا مُبْلِغ ذلك صاحبي ، ومُغْلِبُه طاعتكم وجهادكم عدوّه ، حتى كَانَ الله الغالبَ على أمره ، وقد كَانَ من رأيكم وما أشرتم به على ما قد علمتم ، وقد رأيت أن أخرج الساعة » فقال له شَبَث : « جزاك الله من أمير خيراً ، فقد والله عَفَقَتْ عن أموالنا ، وأكرمت أشرفنا ، ونَصَحَتْ لصاحبك ، وقضيت الذي عليك ، والله ما كنا لنفارقَكَ أبداً ، إلا ونحن منك في إذن » فقال : جزاكم الله خيراً ، ثم خرج ، وخلي القصر ، وفتح أصحابه الباب ، فقالوا : يا ابن الأشر ، آمنون نحن ؟ قال : أنتم آمنون ، فخرجوا فبايسوا المختار .

(تاريخ الطبرى ٧ : ١٠٨)

٧٧ — خطبة المختار بعد هرب ابن مطيع

وجاء المختار حتى دخل القصر فبات به ، وأصبح أشرف الناس في المسجد وعلى باب القصر ، وخرج المختار ، فصعد المنبر ، حمد الله وأثنى عليه ، فقال : « الحمد لله الذى وعد وليّه النصر ، وعدوّه الخسر ، وجعله فيه إلى آخر الدهر ، وعداً مفعولاً ، وقضاء مَقْضِيّاً ، وقد خاب من اقترى ، أيها الناس : إنه رُفِعَتْ لنا رايةٌ ، ومُدَّتْ لنا غايةٌ ، فقيل لنا فى الـراية أن ارفعوها ولا تَضَعُوهَا ، وفى الغاية أن أَجْرُوا إليها ولا تَعُدُّوهَا ، فسمعتا دعوة الداعى ، ومقالة الواعى ، فكم

من ناعٍ وناعيةٍ ، لَقَتْلِي فِي الْوَاعِيَةِ ^(١) ، وَبُعْدًا لِمَنْ طَفَى ، وَأَدْبَرُ وَعَصَى ،
وَكَذَّبَ وَتَوَلَّى ، أَلَا فَادْخُلُوا أَيُّهَا النَّاسُ فَبَايَعُوا بَيْعَةَ هَدْيٍ ، فَلَا وَالَّذِي جَعَلَ
السَّمَاءَ سَقْفًا مَكْفُوفًا ^(٢) ، وَالْأَرْضَ خَبَاجًا ^(٣) سُبُلًا ، مَا بَايَعْتُمْ بَعْدَ بَيْعَةِ عَلِيٍّ
ابْنَ أَبِي طَالِبٍ وَآلِ عَلِيٍّ أَهْدَى مِنْهَا .

ثم نزل فدخل ، ودخل عليه أشراف الناس ، فبسط يده وابتدره الناس
فبايعوه ، وجعل يقول : قبايعوني على كتاب الله وسنة نبيه ، والطلب بدماء
أهل البيت ، وجهاد المحلّين ، والدفع عن الضعفاء ، وقتال من قاتلنا ، وسلم من
سالمنا ، والوفاء ببيعةتنا ، لَا تُقِيلُكُمْ وَلَا نَسْتَقِيلُكُمْ « فَإِذَا قَالَ الرَّجُلُ نَعَمْ : بايعه .

ثم وثب المختار بمن كان بالكوفة من قتلة الحسين رضى الله عنه والمشايين
على قتله ، فقتل من قَدَر عليه منهم ، وهرب من الكوفة بعضهم فلم يقدر عليه ،
وكان ممن قتلهم عمر بن سعد بن أبي وقاص وابنه ، وبعث برأسيهما إلى محمد
ابن الحنفية . (تاريخ الطبري ٧ : ١٠٨)

٧٨ — خطبة المختار وقد استنصره ابن الحنفية

ولما كتب محمد بن الحنفية رضى الله عنه إلى المختار يعلمه بما ناله هو ومن
معه من ابن الزبير من سجنهم وتوعدهم بالقتل والتحريق بالنار إن لم يبايعوا له ^(٤)

[١] الواعية : الصراخ على الميت ونسبه (ولا قل له) والمعنى : كم من ناع وناعية لأناس قتلوا بسبب
نصيهم وصراخهم على من قتل من الحسين وأصحابه ، فهو يستثيرهم لطلب الثأر من أعدائهم الذين لم يكفهم
ما اقترفوه من قتل الحسين وشيعته ، بل ضموا إلى جرمهم أن قتلوا من نفي هؤلاء الشهداء وبكم .
[٢] الكفة بالكسر ويضم : حيلة الصائد ، وكل مستدير . [٣] الخباج : جمع فج ، وهو
الطريق الواضح الواسع .

[٤] وذلك أن محمد بن الحنفية كان قد أبى أن يبايع ابن الزبير إذ كره البيعة لمن لم تجتمع عليه الأمة —
وكان ابن الزبير يفتنه ويحده على أيده وقوته — فخبه مع أربعة عشر رجلا من بني هاشم في سجن عارم
وقال : لتباينن أو لأحرقنكم ، وأعطى الله عهداً لمن لم يبايعوا أن ينفذ فيهم ما توعدهم به ، وضرب لهم في

نادى المختار في الناس ، وقرأ عليهم الكتاب وقال :

« هذا كتاب تهديكم ، وصرح ^(١) أهل بيت نبيكم ، وقد تُرِكُوا
تَحْظُوراً ^(٢) عليهم كما يُحْظَرُ على الغنم ، ينتظرون القتل والتحريق بالنار ، في آناء
الليل وتارات ^(٣) النهار ، ولست أبا إسحاق إن لم أنصرهم نصراً مؤزراً ^(٤) ، وإن لم
أسرّب إليهم الخيل في إثر الخيل ، كالسَّيْلِ يتلوه السيل ، حتى يَحْكُلَ بَابُ
الكَاهِلَةِ ^(٥) الويلُ » . (تاريخ الطبري ٧ : ١٤٦)

ذلك أجل ، فكتب ابن الحنفية إلى المختار مستعزاً ، فوجه إليه جماعة من أصحابه ، وكانوا يسبون الليل
ويكمنون النهار ، حتى انتهوا إلى مكة ، وقد أعد ابن الزبير الحطب ليرقتهم ، وكان قد بقي من الأجل
يومان . فكسروا سجن عارم واستخرجوا منه ابن الحنفية ومن معه ، وقتلوا له : خل بيتنا وبين عدو الله
ابن الزبير ، فقال لهم : إني لأستعمل القتال في حرم الله ، وخرج هو وأصحابه إلى شعب على .
[١] الصريح : الخالصة من كل شيء . [٢] حظر الشيء . عليه (كقتل) منه وحجر ، ويقال لما
حظر به على الفم وغيرها لينتها ويحفظها حظيرة . [٣] جمع قارة وهي من الحين .
[٤] نصر : مؤزر أي بالغ شديد من التأزير وهو التوقية .

[٥] ابن الكاهلية ، هو عبد الله بن الزبير ، والكاهلية أم أبي جده ، فهو عبد الله بن الزبير بن العوام
ابن خويلد بن أسد بن عبد المزي بن قصى بن كلاب ، والكاهلية أم خويلد بن أسد ، واسمها زهرة بنت
عمرو بن خنفر بن ربيعة بن هلال من بني كاهل بن أسد بن خزاعة ، وروى أن عبد الله بن فضالة بن شريك
الوالي الأسدي — من بني أسد بن خزاعة — أتى ابن الزبير فقال له : « نهدت ففقت ، ونهدت وراحت
(قب الحنف كفر رقى) قال : أحضرها فأحضرها ، قال : أقبل بها أدبر بها فقبل ، قال : ارفعها
ببيت ، واخصها ببلب ، وأعجب بها يرد خنفا ، وسر البردين قصح » (والبيت كمثل كل جلد مدبوغ
والحلب كفضل الشر أو ماغلظ منه أو شر القنب أو شر الخنزير الذي يخرز به ، والبردان يفتح الباء
وسكون الراء ، والأبردان : الذداة والشيء) قال ابن فضالة : إني أتيك مستحلاً ، ولم أتك مستوصفاً
فلن الله ناقة جلتني إليك (مستحلاً أي طالباً أن تحملني على ناقة أخرى طينيتها) قال ابن الزبير : « إن
وراكبها » (وإن منا حرف جواب بمعنى نعم كأنه إقرار بما قال ، ومثله قول ابن قيس الرقيات :
ويقلن شيب قد علا لك وقد كبرت قتل إن)
فاصرف عنه ابن فضالة ، وقال فيه شراً منه قوله :

أقول لفلن شدوا ركابي أجاوز بطن مكة في سواد

فألى حين أنقطع دات عرق إلى ابن الكاهلية من ماد

قال ابن الزبير لما بلغه هذا الشعر : « علم أنها شر أمهات فيمنع بها وهي خير مما » — انظر الألفاظ
« ٨ : ١ » وشرح ابن أبي الحديد « م : ٤ : س ٤٩٥ » ونجم الأشبال للبيداني (١ : ٧٥) وفيه

٧٩ — خطبته وقد شيع ابن الأشتر لقتال عبيد الله بن زياد^(١)

وخرج يشيع^(٢) إبراهيم بن الأشتر حين شخص لقتال عبيد الله بن زياد^(٣)

قتال للناس :

« فلما بلغ الشعر ابن الزبير قال : لو علم لي أما الأم من ممة لسبق بها » وبهذه المناسبة يقول : إن ابن الزبير كان شديد البخل وكان ذلك من أعظم أسباب إخفاقه واحتضاض الناس من حوله ، روي أنه كان يطعم جنده تمرًا ويأمرهم بالحرب ، فإذا فروا من وقع السيوف لأمهم وقال لهم : أكتم تمرى ، وعصيت أمرى ، فقال بعضهم :

ألم تر عبد الله والله غالب على أمره يغي الخلفاء بالتمر وكسر بعض جنده خمسة أرماع في صدور أصحاب الحجاج ، وكلما كسر رعاء أعطاه رعاء ، فشق عليه ذلك ، وقال : خمسة أرماع ! لا يحتمل بيت مال المسلمين هذا ، وجاءه أعرابي سائل فرد ، فقال له : لقد أحرقت الرضاء قديمي فقال : بل عليها يردا ، (ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٨٧) وقدم عليه من بن أوس بمكة ، فأنزله دار الضيفان — وكان ينزلها القرياء وأبناء السبيل والضيغان — فأقام يومه لم يطعم شيئاً حتى إذا كان الليل جاءهم ابن الزبير ببس هرم دزبل ، فقال : كانوا من هذا وهم نيف وسبعون رجلاً ، فغضب من وخرج من عنده ، فأبى ابن عباس قهره وحله وكساه ثم أبى عبد الله بن جعفر فأعطاه حتى أرضاه ، وأقام عنده ثلاثاً حتى رحل ، فقال من في ذلك :

ربما أبو بكر (وقد طال يومنا) ببس من الشاء الحجازي أغفر

وقال : اطسوا منه « ونحن ثلاثة وسبعون إنساناً » فيالوم غبر ا

فقلنا له : لا تحربا ، فأملنا جلال ابن عباس العلاء وابن جعفر

وكن آمناً ولوقى جبلك إنه له أعز ينزو عليها ، وأبشر

« الأغاني ج ١٠ : ص ١٥٧ »

وقال عبد الملك بن مروان : « ما أعلم مكان أحد أقوى على هذا الأمر مني ، وإن ابن الزبير لطويل الصلاة كثير الصيام ، ولكن ليخذه لأصلح أن يكون سائساً » « تاريخ الطبری ج ٨ : ص ٥٨ »

[١] فقلنا لك أن مروان بن الحكم لما تمت له الليلة بنت إلى العراق جيشاً عليه عبيد الله بن زياد ، وعلقت ما كان من أمره وأمر التواوين من الشيعة بين الورد من أرض الجزيرة ثم التقى به ابن الأشتر على شاطئ نهر خازر من أرض اللوصل . [٢] وقد خرج يشيعة ماشياً ، فقال له إبراهيم : اركب يا أبا إسحاق ، فقال : إني أحب أن تقبر قدمي في نصره آل محمد صلى الله عليه وسلم فشيعة فرسحين .

[٣] وكان قد دفع إلى قوم من خاصته حملاً أيضاً ضحاًماً ، وقال : إن رأيتم الأمر لنا فدعوها ، وإن رأيتم الأمر علينا فأرسلوها ، فلما التقوا كانت على أصحاب إبراهيم الدائرة في أول النهار ، فأرسل أصحاب المختار الطير ، فصاح الناس : اللاتكة ! فتراجعوا وقتل الناس حتى اختلط الدمام ، وأسرع القتل في أصحاب ابن زياد ثم انكشفوا ، ووضع السيف فيهم حتى أفتوا ، وقال ابن الأشتر : لقد ضربت رجلاً على شاطئ هذا النهر ، فرجع إلى سبي فوجدت منه رائحة السك ، ورأيت لإقداماً وجرأة نصرته ، فذهبت يده قبل المشرق ورجلاه قبل المغرب ، فانظروا فالتصوه فإذا هو عبيد الله بن زياد ، وكان مقتله سنة ٦٧ هـ .

« إن استقمتم فب نصر الله ، وإن حصنتم حيصة ^(١) فإنى أجد فى محكم الكتاب ، وفى اليقين والصواب ، أن الله مؤيدكم بلائكم غضاب ، تأتى فى صور الحما دوين ^(٢) السحاب » .
(الكامل للبزد ٢ : ١٦٩)

٨٠ — خطبته وقد سار إليه مصعب بن الزبير

ولما بلغ المختار مسير مصعب بن الزبير إليه من البصرة ^(٣) ، قام فى أصحابه فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« يأهل الكوفة ، يأهل الدين ، وأعوان الحق ، وأنصار الضعيف ، وشيعة الرسول ، وآل الرسول ، إن قرأكم الذين بعوا عليكم أتوا أشباههم من الفاسقين فاستغفروهم عليكم ، ليمص ^(٤) الحق ، ويتنمش الباطل ، ويقتل أولياء الله ، والله لو تهلكون ما عبد الله فى الأرض إلا بالقرنى ^(٥) على الله ، واللحن لأهل بيت نبيه ، أتدبوا ^(٦) مع أحر بن قمييط : فإنكم لو قد لقيتموهم لقد قتلتموهم إن شاء الله قتل عاد ^(٧) وإزم » .

وتراحف الجندان ، وانهزم أصحاب المختار ، وقتل (فى رمضان سنة ٦٧) ^(٨)
(تاريخ الطبرى ٧ : ١٤٨)

[١] حاص يجبر حيصاً : عدل وهرب . [٢] مصغر دون : أى قريباً منه .

[٣] وكان أخوه عبد الله بن الزبير بنته عليها (سنة ٦٧ هـ) بسد مزل لاتباع عنها (وانقاع كشابع هو المحدث بن عبد الله بن أبي ربيعة الخزوي أخو عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة الشاعر) فظم على مصعب شيت بن ربي ، وجاءه أشراف الناس من أهل الكوفة ، وأخبروه بما اجتمعوا له وبما أصيبوا به ، ووثوب عبيد مواليتهم ، وشكوا إليه وسألوه النصر لهم ، والسير إلى المختار معهم .

[٤] مصح كنع : ذهب وانقطع ، والتوب أخلق ، والنبات ولّ لون زده ، والظل قصر .

[٥] فرى الكذب كرى : اختطفه كفتراه . [٦] استدب إليه : أسرع .

[٧] أى أبدعهم كما باد هؤلاء .

[٨] قال أبو العباس المبرد فى الكامل (٢ : ١٦٧) وكان المختار لا يوقف له على مذهب كان خارجياً ، ثم صار رافضياً فى ظاهره ، وكان يدعى أنه يلهم غرباً من السجاعة لأموه تكون ، ثم يحتال فيوقعها ،

٨١ — خطبة محمد بن الحنفية

يرد على عبد الله بن الزبير وقد تنقص الإمام

« خطب ابن الزبير فقال من الإمام على كرم الله وجهه ، فبلغ ذلك ابنه

فيقول للناس : هذا من عند الله عز وجل ، فن ذلك قوله ذات يوم : « لَنَنْزِلَنَّ مِنَ السَّمَاءِ نَارَ دَهْمًا ، فَلَنتَحَرَقَنَّ دَارَ أَسمَاءِ » فذكر ذلك لأسماء بن خزيمة ، فقال : أوقد سجع أبو إسحق ؟ هو والله عرق دارى ، فتركه والدار وهرب من الكوفة ، وقال فى بنى سجع : « أَمَا وَاللَّهِ سَرَعَ الْأَدْيَانِ ، وَجَنَّبَ الْأَوْتَانِ ، وَكَرِهَ الْعَصِيَانِ ، لِأَقْتَنَانِ أَزْدُعْمَانِ ، وَجَلَّ قَيْسِ عَيْلَانِ ، وَنِعْمَ أَوْلِيَاءُ الشَّيْطَانِ ، حَاشَا النَّجِيبَ ظَنِّيَّانِ » فكان ظبيان النجيب يقول : لم أزل فى عمر المختار أتخطب أنا .

وقال ابن عبد ربه فى المقد الفريد (٢ : ٢٦٥) : « ثم إن المختار لما قتل ابن مرجانة ، وعمر ابن سعد جمل يقتنع قتلة الحسين بن على ، ومن خذله قتلهم أجمعين ، فلما أنشأ دانت له الرماح ، ولم يكن صادق التية ، ولا صبح الذهب ، وإنما أراد أن يستأصل الناس ، فلما أدرك بيته أظهر فئاس قبح نيته ، فادعى أن جبريل ينزل عليه ، ويأتيه بالوحى من الله ، وكتب إلى أهل البصرة « بلغنى أنكم تكذبونى وتكذبون رسلى ، وقد كذبت الأنبياء من قبلى ، ولست بخير من كثير منهم » فلما انتشر ذلك عنه كتب أهل الكوفة إلى ابن الزبير (يعنى مصعباً) وهو بالبصرة يخرج إليه ، وبرز إليه المختار فأسله إبراهيم بن الأشتر ووجوه أهل الكوفة ، فقتله مصعب وقتل أصحابه .

وقال الشهرستانى فى الملل والنحل (١ : ١٥٣) : « ومن مذهب المختار أنه يجوز البدء على الله تعالى ، والبدء له معان ، البدء فى العلم وهو أن يظهر له خلاف ما علم ، والبدء فى الإرادة وهو أن يظهر له صواب على خلاف ما أراد وحكم ، والبدء فى الأمر وهو أن يأمر بشىء ثم يأمر بسده بخلاف ذلك ، وإنما صار المختار إلى اختيار القول بالبدء ، لأنه كان يدعى فلم ما يحدث من الأحوال ، إما يوحى يوحى إليه ، وإما برسالة من قبل الإمام (ابن الحنفية) ، فكان إذا وعد أصحابه بكون شىء وحدث حادثة ، فإن وافق كونه قوله جله دليلاً على صدق دعواه ، وإن لم يوافق قال قد بدا لكم ، وقد تراءى ابن الحنفية منه حين وصل إليه أنه قد ليس على الناس بأنه من دعائه ورجله ، وتراءى من الضلالت التى اجدها من التأويلات الفاسدة ، والمخاريق للموثة ، فن عاوزه أنه كان عنده كرسى قديم قد غشاها بالديباغ وزينه بأنواع الزينة وقال : هنا من دنثر أمير المؤمنين على عليه السلام ، وهو حنذا بمنزلة النابوت لبنى إسرائيل ، فكان إذا حارب خصومه يضمه فى برح الصف ، ويقول : قاتلوا ولكم الظفر والصرّة ، وهذا الكرسى على فيكم عمل النابوت فى بنى إسرائيل ، وفيه الكيتة والبقيّة ، ولللائكة من فوقكم يزولون مدداً لكم (أخذنا من

محمد بن الحنفية رضى الله عنه ، فأقبل حتى وُضِعَ لَهُ كُرْسِيٌّ قَدَامَهُ ، ففلاه وقال :
 « يا معشر قريش ، شأنت الوجوه ^(١) ، أَيْتَقَصَّ عَلَى وَأَتَمَّ حُضُورًا ؟ إِنْ عَلِيًّا كَانَ
 مِنْهُمْ صَادِقًا ، أَحَدَ مَرَامِي اللَّهِ عَلَى أَعْدَائِهِ ، يَقْتُلُهُمْ لِكُفْرِهِمْ ، وَيَهْوُوهُمْ ^(٢)
 مَا كَلِمَهُمْ ، فَتَقَلَّ عَلَيْهِمْ ، فَرَمَوْهُ بِصِرْفَةٍ ^(٣) الْأَبَاطِيلِ ، وَإِنَّا مَعْشَرُهُ عَلَى نَهْجٍ ^(٤)
 مِنْ أَمْرِهِ بِنَوَاحِشِنَا ^(٥) مِنَ الْأَنْصَارِ ، فَإِنْ تَكُنْ لَنَا الْأَيَّامُ دَوْلَةً نَشْرُ عِظَامَهُمْ ،
 وَنَحْسِرُ ^(٦) عَنْ أَجْسَادِهِمْ ، وَالْأَبْدَانُ يَوْمُئِذٍ بِأَلِيَّةٍ : وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ
 يَنْقَلِبُونَ .

فنادى ابن الزبير إلى خطبته وقال : « عذرت بنى القواطم يتكلمون ، فما
 بالبنى الحنفية ؟ » فقال محمد : « يابن أم رومان ^(٧) ، ومالي لأتكم ؟ أليست
 فاطمة بنت محمد حليّة ^(٨) أبى وأم إخوتي ؟ أليست فاطمة ^(٩) بنت أسد

قوله تعالى : « وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ
 مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ لِلْعَالَمِينَ » ، إِنَّ فِي ذَلِكَ
 لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . وقال إنه اشتراه بدرهمين من نجار - افطر قصته في تورية
 الطبرى (٧ : ١٤٠)

[١] شاء وجهه : فجع . [٢] هو ع ما أكل : قياه ياه . [٣] مؤث صرف ، والصرف :
 الخالص من كل شيء . وهو من إضافة الصفة إلى الموصوف ، والأباطيل : جمع أبطولة بضم الهزرة أو
 إبطالة بكسرهما أو هو جمع باطل على غير قياس . [٤] النهج : الطريق الواضح .

[٥] الحسبة : الاحتساب (طلب الأجر) في الأعمال العالقات ، وعند الكرومات دو البدار إلى
 طلب الأجر وتحصيله بالتسليم والسبر ، أو باستعمال أنواع البر والقيام بها على الوجه المرسوم فيها طلباً
 لتوابع الرجاء . [٦] حرسه كنصر وضرب : كشفه . [٧] أم رومان بنت طاهر بن زوج
 أبى بكر رضى الله عنه وأم البيعة طائفة . [٨] زوجة .

[٩] هي فاطمة بنت أسد بن هشام بن عبد مناف أم الإمام على كرم الله وجهه ، وقد أسلمت بعد
 عمر من المسلمين فكانت الحادى عشر ، وهي أول امرأة بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم من النساء .

ابن هاشم جدِّي؟ أوليست فاطمة ^(١) بنت عمرو بن عائذ جدة أبي؟ أما والله لولا خديجة بنت خُوَيْلِد ^(٢) ما تركت في بني أسد عظماً إلا هشمته، وإن نالتني فيه المصائب صبرت». (مروج الذهب ٢: ١٠٢)

٨٢ — عبد الله بن عباس ومعاوية

ودخل عبد الله بن عباس على معاوية وعنده وجوه قریش ، فلما سلم وجلس ، قال له معاوية : « إني أريد أن أسألك عن مسائل » قال : « سل عما بدا لك » . قال : « ما تقول في أبي بكر ؟ » قال : « رحم الله أبا بكر ، كان والله للقرآن تالياً ، وعن المنكر ناهياً ، وبذنبه طارفاً ، ومن الله خائفاً ، وعن الشبهات زاجراً ، وبالمعروف آمراً ، وبالليل قائماً ، وبالنهار صائماً ، فاق أصحابه ورعاً وكفافاً ^(٣) » ، وسادم زهداً وعفافاً ، ففَضِبَ الله على من أبفضه وطعن عليه » . قال معاوية : « إيها ^(٤) يابن عباس ، فما تقول في عمر بن الخطاب ؟ » قال : « رحم الله أبا حفص عمر ، كان والله حليف الإسلام ، ومأوى الأيتام ، ومنتهى الإحسان ، ومحل الإيمان ، وكَهَفَ ^(٥) الضعفاء ، ومَعْقِلُ الحنفاء ^(٦) » ، قام بحق الله عز وجل صابراً مُحْتَسِباً ^(٧) ، حتى أوضح الدين ، وفتح البلاد ، وأَمَّنَ العباد ، فأعجب الله على من يَنْقُصُ اللمنة إلى يوم الدين » . قال : « فما تقول في عثمان ؟ » قال : « رحم الله أبا عمرو كان والله أكرم الجعدة ^(٨) ، وأفضل البررة ، هَجَّاداً ^(٩) »

[١] هي قاطلة بنت عمرو بن طائفة بن عمران بن خزيمة أم أبي طالب ، وهي أم عبد الله والد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . [٢] هي زوج النبي صلى الله عليه وسلم وعمة الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد . [٣] أي رضا بالكف ، والكفاف من الرزق ما كفى عن الناس وأغنى . [٤] أمر بالكثرة أي حبسك . [٥] الكهف : اللجأ ، وكنا المخلف . [٦] جمع خنيف ، وهو الصبيح الميل إلى الإسلام الثابت عليه . [٧] لاحتسب بكفا أجراً عند الله : اعتد به . [٨] الكرام ، يقال فكريم : جسد يفتح فسكون ، فأما إذا قيل فلان جسد اليمين أو جسد الأمان فهو الخيل ، وربما لم يذكروا منه اليد . [٩] الهباد والمهجود : يفتح الماء ، والمتهجد : للميل بالليل .

بالأسحار ، كثير السموع عند ذكر النار ، نهاضاً عند كل مكرمة ، سباقاً إلى كل منحة ، حياً أياً وفيّاً ، صاحب جيش العسرة ^(١) ، وختن ^(٢) رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأعقب الله على من يبعثه لعنة اللاعنين ، إلى يوم الدين قال : « فإتقول في عليّ ؟ » قال : « رضى الله عن أبي الحسن ، كأن الله علم الهدى ، وكهف الثقي ، ومحمل الحجا ^(٣) ، وبحر الندى ، وطود النعي ^(٤) ، وكهف العلا ، للورى داعياً إلى المحبة ^(٥) ، متمسكاً بالمرؤة الوثقى ، خير من آمن واتقى ، وأفضل من قمص وارندى ، وأبر من اتعل وسعى ^(٦) ، وأفصح من تنفس وقرا ، وأكثر من شهيد النجوى - سوى الأنبياء والنبي المصطفى - صاحب القبطين ، فهل يوازيه أحد ؟ وأبو السبطين ^(٧) فهل يقارنه بشر ؟ وزوج خير النسوان ^(٨) ، فهل يفوقه قاطن بلد ؟ للأسود قتال ، وفي الحروب ختال ^(٩) ، لم ترعيني مثله ولن ترى ، فعلى من انتقصه لعنة الله والعباد ، إلى يوم التناد ^(١٠) . قال : « إياها يابن عباس ، لقد أكثر في ابن عمك . قال : « فإتقول في أيك العباس ؟ » قال : « رحم الله العباس أبا الفضل ، كأن صنو ^(١١) نبي الله صلى الله عليه وسلم ، وقرّة عين صفي الله ، سيد الأعمام ، له أخلاق آباءه الأجواد ، وأحلام أجداده الأعجاد ، تباعدت

[١] تقدم شرحه في خطبة ذي الكلاع الجبلى . راجع الجزء الأول ص ١٦٤

[٢] أى صهره وقد تزوج السيدة رقية والسيدة أم كلثوم ابنتى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

[٣] الحمل في الأصل : شقان على البير يحمل فيما البدلان ، والحجا : العقل والنقطة .

[٤] الطود : الجبل ، والنهى العقل . [٥] الطريق الواضح . [٦] في الأصل « واسما »

وهو تحريف . [٧] الحسن والحسين رضى الله عنهما وهما سبطا رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

(والسبط ولد الولد) . [٨] السيدة فاطمة رضى الله عنها . [٩] خداع من الختل وهو الخداع

والمراد أنه ذو بصير بالحروب . [١٠] يوم القيامة .

[١١] الأصل فيه أنه إذا خرج نخلتان أو ثلاث من أصل واحد ، فكل واحدة منهن صنو والاثنان

صنوان والجمع صنوان برفع النون .

الأسباب في فضيلته ، صاحب البيت والسقاية والمشاعر ^(١) والتلاوة ، ولم لا يكون كذلك ، وقد ساسه أكرم من دب ^(٢) ؟ فقال معاوية : « يا بن عباس ، أنا أعلم أنك كَلَمَانِي ^(٣) أهل بيتك » قال : « ولم لا أكون كذلك ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم فقهه في الدين ، وعلمه التأويل » .

ثم قال ابن عباس بعد هذا الكلام : « يا معاوية ، إن الله جل ثناؤه ، وتقدست أسماؤه ، خصَّ محمدًا صلى الله عليه وسلم بصحابة آثروه على الأنفس والأموال ، وبذلوا النفوس دونه في كل حال ، ووصفهم الله في كتابه فقال : **رُحَمَاءُ يَنْهَمُ تَرَاهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَتَتَوْنَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ، سَيِّمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ** » ، قاموا بعمالم الدين ، وناصحوا الاجتهاد للمسلمين ، حتى تهذبت طرقة ، وقويت أسبابه ، وظهرت آلاء ^(٤) الله ، واستقر دينه ، ووضحت أعلامه ، وأذل الله بهم الشرك ، وأزال رُوحه ، ومحا دعائمه ، وصارت كلمة الله هي العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ، فصلوات الله ورحمته وبركاته على تلك النفوس الزاكية ، والأرواح الطاهرة العالية ، فقد كانوا في الحياة لله أولياء ، وكانوا بعد الموت أحياء أحياء ، رحلوا إلى الآخرة قبل أن يصلوا إليها ، وخرجوا من الدنيا وهم بعد فيها » ، فقطع عليه معاوية الكلام ، وقال : إياها ابن عباس ، حديثًا في غير هذا .

(مروج الذهب ٢ : ٨٤)

[١] شعار الحج بالكسر : مناسكه وعلاماته ، والشعيرة والشارة بالفتح ، والمشر : موضعها ، والمشر الحرام بالزبدلفة . [٢] في الأصل : « من دب » أى مشى واللحن عليه صحيح ، ولكنى أرجح أنه « من أدب » لقوله « وقد ساسه » . [٣] رجل كَلَمَانِي بسكون اللام وقتها وكَلَمَانِي بكسرتين مشددة اللام ، وبكسرتين مشددة الميم ، وتكلام وتكلام بكسرة تكون وتشد لهما : جيد الكلام فصيحه . [٤] الآلاء : النعم جمع إلى (فتح أوله وكسره) وألو (فتح أوله) وألى (فتح ثانيه وفتح أوله أو كسره) .

عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا

اجتمعت قريش الشام والحجاز عند معاوية ، وفيهم عبد الله بن عباس ، وكان جريئاً على معاوية حَقَّاراً له ^(١) ، فبلغه عنه بعض ما غمّه ، فقال معاوية :

٨٣ - مقال معاوية

رحم الله أبا سفيان والعباس ، كانا صَفِيَّيْنِ ^(٢) دون الناس ، خَفِظْتُ الميث في الحى ، والحى في الميث ، استعملك على يابن عباس على البصرة ، واستعمل عبيد الله أخاك على اليمن ، واستعمل أخاك ^(٣) على المدينة ، فلما كَانَ من الأمر ما كان ، هَنَأْتُكُمْ ^(٤) ما في أيديكم ، ولم أَكْشِفْكُمْ عما وَعَت غرأركم ^(٥) ، وقلت آخذ اليوم وأعطى غداً مثله ، وعلمت أن بدء اللؤم يضر بواقبة الكرم ، ولو شئت لأخذت بحلاقيمكم وقيأتكم ما أَكَلْتُمْ ، لا يزال يبلغنى عنكم ما تبرك له الإبل ، وذنوبكم إلينا أكثر من ذنوبنا إليكم ، خذلتكم عثمان بالمدينة ، وقتلتم أنصاره يوم الجمل ، وحاربتمونى بِصِفَيْنِ ، ولعمري لَبَنُوتَيْمٍ وَعَدَى ^(٦) أعظم ذنوباً منا إليكم ، إذ صرفوا عنكم هذا الأمر ، وسنؤا فيكم هذه السنّة ، فحتى متى أَغْضَى الجفون على القَدَى ^(٧) ، وأسحب الذبول على الأذى ، وأقول لعل الله وعسى ! ما تقول يابن عباس ؟

[١] أى كثير التحقير له . [٢] الصق : الحبيب للمصطفى . [٣] لما جاء عليا الخبر عن طلحة والزبير وعائشة أئمر على المدينة تمام بن العباس ، وبث إلى مكة ثم بن العباس (فتم كسر) وخرج إليهم . [٤] هنأ كنع وضرب : أطعمه وأعطاه . [٥] جمع غرادة بالكسر ومع الجواني (الثوال) . [٦] يئى يئى تيم أبابكر الصديق (وهو من تيم بن مرة بن كعب بن لؤى) ويئى يئى عدى عمر بن الخطاب (وهو من عدى بن كعب بن لؤى) . [٧] الغنى : ما يقع في العين والسراب .

٨٤ — مقال ابن عباس

فتكلم ابن عباس فقال :

« رحم الله أبانا وأباك ، كنا صفيين متفاوضين ^(١) ، لم يكن لأبي من مال إلا ما فَضَلَ لأبيك ، وكان أبوك كذلك لأبي ، ولكن من هنا أباك بإخاء أبي أكثر من هنا أبي بإخاء أبيك ، نصر أبي أباك في الجاهلية ، وَحَقَّقَ دمه في الإسلام ^(٢) ، وأما استعمال علي إيانا فلنفسه دون هواه ، وقد استعملت أنت رجالا لهواك لا لنفسك ، منهم ابن الحضرمي على البصرة فقتل ، وبُشِّرَ بن أَرْطاة على اليمن غان ، وحبيب بن مرة على الحجاز فرُذِّ ، والضَّحَّاك بن قيس الفهري على الكوفة مُحْصَبَ ، ولو طلبت ما عندنا وقينا أعراضنا ، وليس الذي يَلْفَنك عنا بأعظم من الذي يبلغنا عنك ، ولو وُضِعَ أصفر ذنوبكم إلينا على مائة حسنة لَمَحَقْهَا ، ولو وُضِعَ أدنى عذرا إليكم على مائة سيئة لَحَسَنَّا ، وأما خذلنا عثمانَ فلو لَزِمْنَا نَصْرَهُ لَنَصَرْنَا ، وأما قتلنا أنصاره يوم الجمل ، فلي خروجهم مما دخلوا فيه ، وأما حربنا إياك بصفيين ، فلي تركك الحقَّ وأدعائك الباطل ، وإما إغراؤك إيانا بتيمة وعدى فلو أردناها ما غلبونا عليها » وسكت . (القند الفريد ٢ : ١١٠)

عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا

٨٥ — مقال معاوية لابن عباس

أقبل معاوية يوما على ابن عباس ، فقال :

« لو وَلَّيْتُمونا ما أَتَيْتُمْ إِيَّانَا ما أَتَيْنَا إِيَّكُمْ من الترحيب والتقريب وإعطائكم

[١] التفاوض : الاشتراك في كل شيء وللإسوة . [٢] يشير إلى ما كان من العباس إذ شفع عند النبي عليه الصلاة والسلام في أبي سفيان يوم فتح مكة .

الجزيل ، وإكرامكم على القليل ، وصبري على ما صَبَرْت عليه منكم ، إني لا أريد أمراً إلا أظنّ أنتم صَدَره ^(١) ، ولا آتي معروفاً إلا صَغَرْتُمْ خَطَره ^(٢) ، وأعطيك العطية فيها قضاءٌ حقوقكم ، فتأخذونها متكارهين عليها ، تقولون قد نَقَصَ الحَقُّ دون الأمل ، فأى أمل بعد ألف ألف أعطياها الرجل منكم ، ثم أكون أَسْرَ بإعطائها ، منه بأخذها ؟ والله لئن انخدعت لكم في مالى ، ودَلَلت لكم في عرضي ، أرى أنخداعى كرماً ، وذُلّى حلماً ، ولو وليتمونا رضينا منكم بالاتصاف ، ولا نسألكم أموالكم لملنا بحالكم وحالنا ، ويكون أبنضها إلينا أَحَبَّ إلينا أن نُعْطِيكم .

٨٦ - مقال ابن عباس

فقال ابن عباس :

« لو وُلِّينَا أحسنًا للمواساة ، وامتننًا بالآثرة ^(٣) ، ثم لم نَقْشِم ^(٤) الحى ، ولم نَشْتُم الميت ^(٥) ، فليست بأجودَ منا أَكُفًا ، ولا أكرم أنفساً ، ولا أصون لأعراض الرومة ، ونحن والله أعطى للآخرة منكم للدنيا ، وأعطى في الحق منكم في الباطل ، وأعطى على التقوى منكم على الهوى ، والقسم بالسوية والمدل في الرعية يأتين على المنى والأمل ، ما أرضاكم منّا بالكفاف ، فلورضيتم منّا لم نرض بأفْسنا به لكم ، والكفافُ رضا من لاحقٍ له ، فلا تُبْغُوا ^(٦) حتى تسألونا ، ولا تَلْفُظُوا حتى تدفوقنا . »

(المقد للريد ٢ : ١١١)

[١] يقال ورد الماء ليشقى ثم صدر عنه أى رجع ، صدرأ « بسكون الهمزة » وصحوراً والاسم منه الصدر « بفتحين » أى أصدرتم وردتم واردة ظلم أن لا رين ، يريد أنهم دائبون على مخالفتهم في كل أمر ، يرون ضد رأيهم . [٢] قدره وشأنه . [٣] استأثر على أصحابه : اختار لنفسه أشياء حسنة والاسم الآثرة ، والمعنى وامتننا أى وهضنا وأنسنا بما نستأثر به . [٤] غشه غشاً : ظله . [٥] يمرض به في سبه علياً على المنابر . [٦] لا ترموا بالبخل (بفتح) بالتفديد : رماه بالبخل ، وأبغله : وجده بخيلاً .

عبد الله بن عباس ومعاوية أيضاً

٨٧ — مقال معاوية لبني هاشم

اجتمع بنو هاشم عند معاوية فأقبل عليهم فقال :

« يا بني هاشم : والله إن خيرى لكم لمنوح ، وإن بابى لكم لمفتوح ، فلا يقطع خيرى عنكم علة^(١) ، ولا يؤصّد^(٢) بابى دونكم مسألة^(٣) ، ولما نظرت فى أمرى وأمركم رأيت أمراً مختلفاً ، إنكم ترون أنكم أحق بما فى يدي منى ، وإذا أعطيتكم عطية فيها قضاء حقكم قلتم أعطانا دون حقنا ، وقصّرنا عن قدرنا ، فصرت كالملسوب ، والملسوب لا حمد له ، وهذا مع إنصاف قائلكم ، وإسفاف سائلكم »

٨٨ — مقال ابن عباس

فأقبل عليه ابن عباس فقال :

« والله ما منحنا شيئاً حتى سألناه ، ولا فحّت لنا باباً حتى قرّعناه ، ولئن قطعت عنا خيرك ، لله أوسع منك ، ولئن أغلقت دوننا بابك لنكفرن أنفسنا عنك ، وأما هذا المال فليس لك منه إلا ما لرجل من المسلمين ، ولنا فى كتاب الله حقان : حق فى النعمة ، وحق فى النية . فالنعمة : ما غلبنا عليه ، والنية : ما اجتبناه ، ولولا حقنا فى هذا المال لم يأتك منا زائر ، يحمله خُفٌ ولا حافر ، أكفأك أم أزيدك ؟ قال : كفانى فإنك لا تُعزّ^(٤) ، ولا تُشجّ^(٥) . »

(المقدّم الفرید ٢ : ١١١)

[١] أى ولا يظنّى « وفى الأصل ولا يوجد » وهو تحريف . [٢] لا تترأى لا تطلب ، عزّه .

بزه (كنصره) عزّا (بالفتح) غلبه « وفى الأصل لا تفر » وهو مصبف .

[٣] شج رأسه : جرحه ، ولراد لا تطلب ولا تهزم .

عبد الله بن عباس ومعاوية أيضاً

٨٩ - مقال معاوية

وقال يوماً معاوية وعنده ابن عباس : « إذا جاءت بنو هاشم ^(١) بقديهما وحديثها ، وجاءت بنو أمية ^(٢) بأحلامها وسياستها ، وبنو أسد ^(٣) بن عبد المزى بوافدها ودياتها ، وبنو عبد الدار ^(٤) بحجابتها ولوائها ، وبنو غزوم ^(٥) بأموالها وأفعالها ، وبنو تميم ^(٦) بصديقتها وجوادها ، وبنو عدي ^(٧) بفاروقها ومتفكرها ، وبنو سهم ^(٨) بأرائها ودهائها ، وبنو جحج ^(٩) بشرفها وأنوفها ^(١٠) ، وبنو عامر ابن لوئى بفارسها وقريعتها ^(١١) فن ذا يَحْمِلُ مضارها ، ويحمرى إلى غايتها ، ما تقول يا ابن عباس ؟

-
- [١] بنو هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة الخ . [٢] بنو أمية بن عبد شمس بن عبد مناف
- [٣] بنو أسد بن عبد المزى بن قصي بن كلاب .
- [٤] بنو عبد الدار بن قصي ، والحجابة سداة البيت الشريف أى تولى مفاتيحه وخدمته ، والقواء راية يلونها على رمح وينصبونها علامة للمسكر إذا توجهوا إلى مجاورة عدو فيجتمعون تحتها ويقاطون عندها ، وكان قصي بن كلاب قد ولى البيت الحرام وأمر مكة والحكم بها ، وابنى داراً بها وهى دار الندوة ، وكانت قريش لا تحفى أسراً إلا فيها ، وقد ولد له عبد الدار ، وعبد مناف ، وعبد المزى ، وعبد ، فلما كبر قصي ورق ، قال لابنه عبد الدار - وهو أكبر ولده - وكان فيها يزعمون ضيقاً ، وكان عبد مناف قد شرف في زمان أبيه ، وذهب كل مذهب ، وعبد المزى ، وعبد - « أما والله لأخفك بالقوم وإن كانوا قد شرفوا عليك ، لا يدخل رجل منهم الكعبة حتى تكون أنت تحتها ، ولا يقدر لفريش لواء لحرهم إلا أنت يملك ، ولا يشرب رجل بكمة ماء إلا من سقايتك ، ولا يأكل أحد من أهل اللوسم طعاماً إلا من طعامك ، ولا تطلع قريش أمورها إلا في دارك ، فأعطاه داره دار الندوة ، وأعطاه الحجابة ، والقواء والندوة ، والسقاية ، والرفادة ، وكانت الرفادة خراجاً تخرجه قريش في كل موسم من أموالها إلى قصي به فيصنع طعاماً لحاج يأكله من لم يكن له سعة ولا زاد من يحضر اللوسم) . [٥] بنو غزوم بن بظة (بالتحريك) بن مرة بن كعب بن لؤى . [٦] بنو تميم بن مرة بن كعب بن لؤى .
- [٧] بنو عدي بن كعب بن لؤى . [٨] بنو سهم بن هميم (كزير) بن كعب بن لؤى ، ونهم عمرو بن العاص السهمي . [٩] بنو جحج بن هميم بن كعب . [١٠] جحج أوف وهو السيد . [١١] الفريع : الفاروع .

٩٠ - مقال ابن عباس

قال : « لا أقول ليس حتى يَفْخَرُوا بأمرٍ إلا وإلى جنبهم من يَشْرَكُهم إلا قَرِيشًا ، فإنهم يَفْخَرُونَ بالنبوة التي لا يشاركون فيها ، ولا يُسَاوُونَ بها ، ولا يُدْفَعُونَ عنها ، وأشهد أن الله لم يجعل محمدًا من قريش إلا وقريش خير البرية ، ولم يجعله في بني عبد المطلب إلا وهم خير بني هاشم ، يريد أن يفخر عليكم إلا بما تفخرون به ، إن بنا فُتِحَ الأمرُ وبنا يُخْتَمُ ، ولك مُلْكٌ مُعَجَّلٌ ، ولنا ملكٌ مُوَجَّلٌ ، فإن يكن ملككم قبل ملكنا ، فليس بعد ملكنا ملك ، لأننا أهل العاقبة ، والعاقبة للمتقين . (القد الفريد ٢ : ١١٢)

٩١ - عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا

لما بلغ معاوية نعى الحسن بن علي رضي الله عنه أظهر الفرح والسرور ، حتى سجد وسجد من كان معه ، فبلغ ذلك عبد الله بن عباس ، وكان بالشام يومئذ ، فدخل على معاوية ، فلما جلس قال معاوية : يا ابن عباس هلك الحسن ابن علي ، فقال ابن عباس :

« نعم هلك ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، ترجعاً مكرراً ، وقد بلغتني الذي أظهرت من الفرح والسرور لوفاته ، أما والله ماسد جسده حفرتك ، ولا زاد تقصان أجله في عمرك ، ولقد مات وهو خير منك ، ولئن أُصِبتنا به لقد أُصِبتنا بمن كان خيراً منه ، جدّه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجبر الله مصيبتنا ، وخلف علينا من بعده أحسن الخلافة » ثم شقق وبكى ، وبكى من حضر في المجلس ، وبكى معاوية . (الإملة والسياسة ١ : ١٢٧ ، ومروج الذهب ٢ : ٥٢)

٩٢ - عبد الله بن عباس وعتبة بن أبي سفيان

قال عُتْبَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ لابنِ عَبَّاسٍ : « ما منع أمير المؤمنين أن يبعثك مكان أبي موسى يوم الحَكَمَيْنِ ؟ » قال : « منعةُ والله من ذلك حاجز القدر ، وقصر المدة ، ومحنة الابتلاء ، أما والله لو بعثني مكانه لاعترضت له في مدارج نفسه ، ناقضاً لما أبرم ، ومبرماً لما تقض ، أَسِفٌ ^(١) إِذَا طَارَ ، وَأَطِيرُ إِذَا أَسَفَ ، ولكن مضى قدر ، وبقي أسف ، ومع يومنا غد ، والآخرة خير لأمر المؤمنين من الأولى » . (إيجاز القرآن ١٢٢ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ١٩٥ ، وأمل المرتضى ١ : ٢٠٧)

مخاصمة

بين عبد الله بن عباس وبين معاوية وأصحابه

قال ابن أبي الحديد : « روى للدائني قال : وقد عبد الله بن عباس على معاوية مرة ، فقال معاوية لابنه يزيد . ولزيد بن ثُمَيْمَةَ . وعُتْبَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ . ومَرْوَانَ بن الحكم . وعمر بن العاص . والمغيرة بن شُعْبَةَ . وسعيد بن العاص . وعبد الرحمن بن أم الحكم : إنه قد طال العهد بعيد الله بن عباس . وما كان شَجَرٌ ^(٢) بيننا وبينه وبين ابن عمه ، ولقد كان نَصَبَهُ للتحكيم فدُفِعَ عنه ^(٣) ، فخرَّ كره على الكلام لتبلغ حقيقة صفته ، وقِفَ على كُفِّهِ معرفته ، وضُرِفَ ما صُرِفَ عنا من شَبَابٍ ^(٤) حَذَّه . ووُورِيَ عنا من دهاء رأيه ، فربما وُصِفَ للره بغير ما هو فيه . وأعطى من النعت والاسم ما لا يستحقه . ثم أرسل إلى عبد الله بن عباس . فلما دخل واستقر به المجلس . ابتدأه ابن أبي سفيان فقال : يا ابن عباس ما منع علياً أن يؤجَّه بك حكماً ؟

[١] أسف الطائر : دنا من الأرض في طيرانه .

[٢] شجر بينهم الأمر : تنازعوا فيه . [٣] لما رأى على إصرار من قبلوا التحكيم من قومه وتبنيهم

قبوله أشار عليهم أن يختاروا ابن عباس أو الأشتر النخعي حكماً من قبلهم فأبوا إلا أبا موسى الأشعري .

[٤] الشبا جمع شبابة ، وهي حد كل شيء .

٩٣ - جواب ابن عباس

فقال : « أما والله لو فعل لقرن عمرًا بصعته من الإبل ، يُوجع كتفيه مِرَاسُهَا ^(١) ، ولأذهلت عقله ، وأجرحضته بريقه ^(٢) ، وقَدَحْتُ في سُويْدَاءِ قلبه ، فلم يُبْرِمْ أمرًا ، ولم ينفض ترابًا إلا كنت منه بمرأى ومسمع ، فإن نَكَنَتْ أَرَمْتُ ^(٣) قواه ، وإن أَرَمَهُ فَصَمْتُ ^(٤) عُراه ، بِغَرَبِ ^(٥) مِقْوَلٍ لَا يُقَلُّ حَدَّهُ ، وَأَصَالَ رَأْيَ كَمْتَاخٍ ^(٦) الْأَجَلِ لَا وَزَرَ مِنْهُ ، أَصَدَعُ ^(٧) بِهِ أَدِيمَهُ ، وَأَقْلَبُ بِهِ شَبَابَ حَدِّهِ ، وَأَشْحَذُ بِهِ عِزَّامَ الْمُعْتَزِ ^(٨) ، وَأُزِيحُ بِهِ شُبُهَ الشَّاكِّينَ . »

٩٤ - مقال عمرو بن العاص

فقال عمرو بن العاص : « هذا والله يا أمير المؤمنين نُجُومٌ ^(١) أول الشر ، وأقول آخر الخير ، وفي حَسَمِهِ قطعُ مادته ، فبَادِرْهُ بِالْحَلَةِ ، وَاَنْتَهزْ مِنْهُ الْفُرْصَةَ ، وَارِدِعْ بِالْتَّنْكِيلِ بِهِ غَيْرَهُ ، وَشَرِّدْ بِهِ مَنْ خَلَفَهُ . »

٩٥ - جواب ابن عباس

فقال ابن عباس : « يابن الثَّابِتَةِ ، ضَلَّ وَاللَّهِ عَقْلُكَ ، وَسَفِهَ حِلْمُكَ ، وَنَطَقَ الشَّيْطَانُ عَلَى لِسَانِكَ ، هَلَّا تَوَلَّيْتَ ذَلِكَ بِنَفْسِكَ يَوْمَ صِفِّينَ ، حِينَ دُعِيَتْ

[١] أى علاجها وقيادتها . [٢] جرح بريقه كفرح ابتلعه بالجد على م ، وأجرحضه بريقه : أغصه . [٣] أرم الجبل : قتله شديداً .

[٤] حلت . [٥] القرب : حد كل شيء ، والمقوَل : اللسان . [٦] من إضافة الصفة للموصوف أى كالأجل المتاح أى للفرس والوزر للجأ . [٧] أشق ، والأديم : الجلد ، وهو كناية عن غلبته إياه وانتصاره عليه . [٨] فى الأصل « للعتيز » وقد بحثت فى كتب اللغة عن مادة « قيز » فلم أجده هذه المادة ، فقلبت الكلمة على الأوجه التى يظن أنها معرفة عنها ، ورجح لى أنها معرفة عن « المعتز » من اعتز : أى تنحى وانفرد ، يريد الذين تنحوا عن الفتنة والزراع ين على معاوية وكانوا معاصدين . [٩] ظهور (مصدر نجم) .

تَزَالِ ^(١) وتكافح الأبطال ، وكثرت الجراح ، وتقصفت الرماح ، وبرزت إلى أمير المؤمنين مُصَاوِلًا ، فَأَنْكَفَأْ نَحْوَكِ بالسيف حاملاً ، فلَمَّا رَأَيْتِ الكَوَاثِرَ ^(٢) من الموت ، أعددت حيلة السلامة قبل لقاءه ، والانكفاء عنه بعد إجابة دعائه ، فنحنه رجاء النجاة عورتك ، وكشفت له خوفَ بأسه سوءتك ، حذراً أن يسطلمك ^(٣) بسطوته ، أو يلهيك بحملته ، ثم أشرت على معاوية كالتناصح له بمبارزته ، وحسنت له التبرع لمكافحته ، رجاء أن تكفي مثوته ، وتعدم صورته ، فلم غلَّ صدرك ، وما انحنت عليه من النفاق أضلُّك ، وعرف مقرَّ سهمك في غرضك ، فاكفُ غرْبَ لسانك ، واقفُ عَوْرًا ^(٤) لفظك ، فإنك بين أسد خادر ^(٥) ، وبحرٍ زاخر ، إن تبرزت للأسد اقترسك ، وإن عُثمت في البحر قَسَكَ ^(٦) .

٩٦ — مقال مروان بن الحكم ^(٧)

فقال مروان بن الحكم : « يا بن عباس إنك لتصرف ^(٨) بنا بك ، وتُورِي نارك ، كأنك ترجو الفلابة ، وتؤمل العاقبة ، ولولا حلم أمير المؤمنين عنكم ، لتناولكم بأقصر أنامله ، فأوردكم منهلاً ببيدٍ صدره ^(٩) ، ولعمري لئن سطا بكم ليأخذن بعض حقه منكم ، ولئن عفا عن جرائمكم لقد عفا ما تُسبب إلى ذلك » .

[١] تزال اسم فعل بمعنى انزل أى حين قال الأبطال بعضهم لبعض تزال . [٢] جمع كواثر ، وهو الكثير من كل شيء ، والنهر . [٣] اصطلمه : استألمه . [٤] العوراء : الكلمة أرفقها الفصيحة . [٥] الخدر : أجرة الأسد ومنه قيل أسد خادر . [٦] غمك وأغرك . [٧] هو مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، ولد بمكة سنة اثنتين للهجرة ، واستلمه مطوية على المدينة ومكة والطائف ، وولى الخلافة بعد موت مطوية الثاني سنة ٦٤ هـ ومات بالشام في ٣ رمضان سنة ٦٥ هـ ، وكانت ولايته تسعة أشهر وثمانية عشر يوماً . [٨] صرفت البكرة تصرف كصرف صريحاً : صوتت عند الاستقاء وهو أيضاً صرير الباب وقلب البعير . [٩] المصدر : الرجوع .

٩٧ - جواب ابن عباس

فقال ابن عباس : « وإنك لتقول ذلك يا عدو الله ، وطريد رسول الله ^(١) صلى الله عليه وسلم ، والمباح دمه ^(٢) ، والداخل بين عثمان ورعيته بما حملهم على قطع أوداجه ^(٣) ، وركوب أثباجه ^(٤) ، أما والله لو طلب معاوية تأرؤه لأخذك به ، ولو نظر في أمر عثمان لوجدك أوله وآخره ، وأما قولك لي : إنك لتصرف بنابك ، وتورى نارك ، فسل معاوية وعمرأ يخبراك ليلة الحرير ^(٥) كيف ثباتنا للثلاث ^(٦) ، واستخفافنا بالمعضلات ، وصدق جلدانا عند المصاولة ، وصبرنا

[١] يريد « ويطريد رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أيك » أو « ويأين طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم » فإن المحقق أن طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أبوه الحكم بن أبي العاص ، وذلك أنه قدم المدينة بعد الفتح - وكان قد أسلم يوم الفتح - فأخرجه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف ، وقال : « لاساكني في بلد أبدا » لوقيته فيه ، قيل : كان يقسم سر رسول صلى الله عليه وسلم ، ويطلع عليه من باب بيته ، وإياه هو الذي أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلقا عينه بعمري في يوم لما اطلع عليه من الباب ، وقيل كان يحكي رسول الله صلى الله عليه وسلم في مشيته وبض حركاته - وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتكلم في مشيته - فالتفت يوماً فرأه وهو يتخلج في مشيته ، فقال « كن كذلك » فلم يزل يرتفع في مشيته من يومئذ وطرده رسول الله صلى الله عليه وسلم ولته وأبعده حتى صار مشهوراً بأنه طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يزل متنبأ حياة النبي صلى الله عليه وسلم فلما ولي أبو بكر الخلافة قيل له في الحكم ليرده إلى المدينة ، فقال : « ما كنت لأحل عقدة عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم » وكذلك عمر فلما ولي عثمان الخلافة - والحكم همه - رده ، وقال : « كنت قد شفت فيه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعدني برده » وقد توفى في خلافة عثمان . أما مروان فلم ير النبي عليه الصلاة والسلام ، لأنه خرج إلى الطائف طفلاً لا يعقل لما نفي النبي أباه - وقد ولد بمكة سنة اثنتين هجرة - وقيل إنه ولد بالطائف لما نفي أبيه بها .

[٢] أي في فتنة عثمان ، وذلك أن الثوراء بعد أن هدا الأيمل على ثأرتهم خرجوا عن المدينة ، ولكنهم في أثناء رجوعهم ضبطوا غلام عثمان ، ومنه كتاب إلى طائل مصر يأمره فيه بقتلهم ، فعادوا إلى المدينة ثانية وكانوا يستفهمون أن مروان هو الذي كتب ذلك الكتاب ، وقد سألوا عثمان أن يسلم إليهم مروان فأبى أن يسلمه وخشى عليه القتل . [٣] جمع ووج (حركة) وهو عرق الأخدع الذي يقطعه القناص ، فلا يبقى منه حياة . [٤] جمع تيج (حركة) وهو ما بين الكاهل إلى الظهر . [٥] هي ليلة العاشر من صفر سنة ٢٧ ، وفيها حل جيش علي على جيش معاوية في وقعة صفين حلة عتيقة ، واقتلوا ثقتي القيلة كلها حتى الصباح ، وأوشك جيش علي أن تكون له النلبة . [٦] جمع نلثة (كثرة) من نلت بالقتل إذا نلت به .

على اللأواء^(١) والمطاوله ، ومصاغتنا يجباهنا السيوف المرهقة^(٢) ، ومباشرتنا بنحورنا حدّ الأسته ، هل يخنا^(٣) عن كرائم تلك المواقف ؟ أم لم تبدل مهجنا^(٤) للعتاف ؟ وليس لك إذ ذاك فيها مقام محمود ، ولا يوم مشهود ، ولا أثر معدود ، وإنهما شهدا ما لو شهدت لأقلّك ، فازرع على ظلمك^(٥) ، ولا تعرض لما ليس لك ، فإنك كالنروز في صفد^(٦) ، لا يهبط برجل ، ولا يرتقا^(٧) يد .

٩٨ - مقال زياد

فقال زياد : « يابن عباس ، إني لأعلم ، مامنع حسنا وحسبنا من الوفود ممك على أمير المؤمنين إلا ماسولت لهما أنفسهما ، وغرهما به من هو عند البأساء يسليهما^(٨) ، وإيم الله لوليتهما لأدأبا^(٩) في الرحلة إلى أمير المؤمنين أنفسهما ، ولقل بكانهما كبشهما » .

٩٩ - جواب ابن عباس

فقال ابن عباس : « إذن والله يقصردونها بأعك ، ويضيق بهما ذراعك ، ولورمت ذلك لوجدت من دونها فئة صدقا صبرا^(١٠) على البلاء ، لا ينجيمون عن اللقاء ، فلمر كوك بكلاكلهم^(١١) ووطئوك بمناسيمهم^(١٢) وأوجروك^(١٣) مشق رماحهم ، وشفارق^(١٤) سيوفهم ، وخز أسنتهم ، حتى تشهد بسوء ما أتيت ،

[١] اللأواء : الشدة . [٢] للركة . [٣] خلم عنه يجم : جين ونكس .

[٤] جمع مهجة وهي الدم أو الروح . [٥] ربح كنع وقف وانتظر وتعبس ، وظلع ظالما كنع نحر في شيه ، واربع على ظلمك أي أنك ضعيف فانه عمالا تطيقه واسكت على ما فيك من عيب .

[٦] الصفد : القيود ، وفي الأصل « كالنروز في صفد » وأراه « كالنروز في صفد » .

[٧] أي يصعد ويصلو : رقا في الدرجة صمد : يغال رقأت ورقيت (كرضيت) وترك الهزة أكثر .

[٨] أسله : خذله . [٩] أجهما وأتيا . [١٠] أي ذات صدق وصبر على البلاء أو هو

« صدقا صبرا » بضمتين جمع صدوق وصبور . [١١] جمع كلكل وهو الصدر . [١٢] جمع منسم (كجلس) وهو خف البير . [١٣] أوجره الرمح : طعنه به في فيه ، وللشق سرعة في الطعن

والضرب أو هو بمعنى منسول ، قذيب ممقوق أي طويل دقيق . [١٤] جمع شفرة وهي حد السيف .

وتبين ضياع الحزم فيما جنيت ، فحذارِ حذارٍ من سوء النية ، فإنها ترد الأمانة ، وتكون سبباً لفساد هذين الحيين بعد صلاحهما ، وسبباً في اختلافهما بعد اتلافهما ، حيث لا يضرهما إنسانك ^(١) ، ولا يُغني عنهما إنسانك .

١٠٠ — مقال عبد الرحمن بن أم الحكم

فقال عبد الرحمن بن أم الحكم :

« لله درُّ ابن مُلجَم ^(٢) ، فقد بَلَغَ الأملَ ، وأَمِنَ الوَجَلَ ، وأَحَدَ الشَّفَرَةَ ، وأَلَانَ اللَّهْمَةَ ، وأَدْرَكَ الثَّارَ ، وَتَقَى العَارَ ، وفازَ بالمنزلةَ العليا ، وَرَقِيَ الدرَجَةَ القصوى .

١٠١ — جواب ابن عباس

فقال ابن عباس :

« أَمَّا اللهُ لَقَدْ كَرَعَ ^(٣) كَأْسَ حَتْفِهِ يَدَهُ ، وَعَجَّلَ اللهُ إِلَى النَّارِ بَرُوحَهُ ، وَلَوْ أَبْدَى لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ صَفْحَتَهُ ، خَالِطَةُ الْفَحْلِ الْقَطِمْ ^(٤) ، وَالسَّيْفِ الْخَذِمَ ، وَلَا لَمَعَهُ صَابَا ^(٥) ، وَسَقَاهُ سِمَامًا ^(٦) ، وَأَلْحَقَهُ بِالْوَلِيدِ وَتُتِبَةَ وَخْظَلَةً ^(٧) ، فَكَلِمَهُ كَانَ أَشَدَّ مِنْهُ شَكِيمَةً ^(٨) ، وَأَمْضَى عَزِيمَةً ، فَقَرَى بِالسَّيْفِ هَامَهُمْ ^(٩) ، وَرَمَلَهُمْ ^(١٠) بِدِمَائِهِمْ ، وَقَرَى الذَّنَابَ أَشْلَاءَ ^(١١) ، وَفَرَّقَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَحِبَّائِهِمْ ،

- [١] الإيساس : التلطف بالثافة وقت حلبها بأن يقال لها بس بس (يفتح فكون) تكييفاً لها .
 [٢] هو عبد الرحمن بن ملجم المرادي لَمِنَ الله قَاتِلُ الإِمَامِ عَلِيٍّ . [٣] كَرَعَ فِي الْمَاءِ : تَنَاوَلَهُ بِهِ مِنْ مَوْضِعِهِ . [٤] قَطَمُ الْفَحْلِ كَفَرَحُ هُوَ قَطَمُ اشْتَهَى الضَّرَابَ . [٥] عَصَاةُ شَجَرٍ مَرَّةً .
 [٦] جَمَعَ سَمٌ مِثْلُ السَّيْفِ . [٧] الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ مِثْلُ الْمَوَدَّةِ ، وَجَدَّ بِنَ رِيْمَةٍ جَدُّ لَأَمَةٍ ، وَخِظْلَةٌ ابْنُ أَبِي سَفْيَانَ أَخُوهُ ، وَقَدْ قَتَلَهُمْ عَلَى يَوْمِ بَدْرٍ . [٨] الشَّكِيمَةُ : الْأَقْعَةُ ، وَهُوَ شَدِيدُ الشَّكِيمَةِ أَيْ أَقْبَى أَيْ لَا يَتَّقَدُ . [٩] هَامَ جَمَعَ هَامَةً وَهِيَ الرَّأْسُ .
 [١٠] رَمَلَ الثَّوْبُ : لَطَمَهُ بِالْهَمْ ، وَبِجُوزِ أَنْ يَكُونَ وَزَمَلَهُمْ أَيْ لَهَمَهُ بِدِمَائِهِمْ (عَلَى الْمِجَازِ) .
 [١١] أَشْلَاءَ جَمَعَ شَلَا وَهُوَ الضُّعْفُ ، وَقَرَى الضَّعِيفَ قَرَى (بِالْكَسْرِ) : أَضَاهَا .

أولئك حصَب^(١) جهنم لها واردون ، فهل تحبس منهم من أحد أو تسمع لهم
زكراً^(٢) ؟ ولا غزو إن خيل ، ولا وصمة إن قتل ، فإنما لكم ما دريد
ابن الصمة :

فإنما للحم السيف غير مكره وتلحه طورا وليس بذى نكر^(٣)
يفار علينا وارين فيشقتى بنا إن أصبنا أو نغير على وتر^(٤)

١٠٢ - مقال المغيرة بن شعبة

فقال المغيرة بن شعبة :

« أما والله لقد أشرت على علي بالنصيحة ، فأثر رأيه ، ومضى على غلوائه^(٥) ،
فكانت العاقبة عليه لاله ، وإني لأحسب أن خلفه يقتدون بمنهجه » .

١٠٣ - جواب ابن عباس

فقال ابن عباس :

« كان والله أمير المؤمنين عليه السلام أعلم بوجوه الرأي ، ومعاقد الحزم ،
وتصريف الأمور ، من أن يقبل مشورتك فيما نهى الله عنه ، وعف عليه ، قال سبحانه
وتعالى : « لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ^(٦) اللَّهَ

[١] الخطب وما يرى به في النار . [٢] الصوت الحق . [٣] ألمه : ألمه اللحم .

[٤] الوتر : الثأر ، وقد وتره يتره .

[٥] الغلواء : التلوى ، وذلك أن المغيرة جاء عليا بعد مقتل عثمان ، وقال له : ان النصح رخيص وأنت
بقية الناس وأنا لك ناصح ، وأنا أشير عليك أن ترد عمل عثمان عليك هذا ، فكتب إليهم باتباعهم على أمرهم
فإذا بايعواك ، واطمأن أترك عزك من أحببت ، وأقررت من أحببت ، فقال له : والله لا أدامن في
دينى ، ولا أعطى الرياء في أسمى ، قال : فإن أبيت فأنزع من شئت وأترك معاوية فإن له جراءة وهو في
أهل الشام مسبوع منه ، ولك حجة في إتيائه فقد كان عمر ولاء الشام كلها ، قال له : لا والله لا أستعمل
معاوية يومئذ أبدا . (وقد كان ابن عباس يرى إثبات معاوية حتى يبايع ، وقال لعل : فإن بايعك فلي
أن أظنه من منزله ، فقال علي : لا والله لا أعطيه إلا السيف) . [٦] حاده : غاضبه وعاداه وغالقه .

وَرَسُولَهُ، وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ» ولقد وَقَفَكَ على ذكر مبین، وآية متلوّة، قوله تعالى : « وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصُدًا ». وهل كَانَ يسوع له أَنْ يُحَكِّمَ في دماء المسلمين، وَفِي المؤمنين، من ليس بِأُمُومٍ عنده، ولا موثوق به في نفسه؟ هيئات هيئات، هو أعلم بفرض الله وسنّة رسوله أَنْ يُثَبِّتَ خلافَ مَا يُظْهَرُ إِلَّا لِلتَّقِيَّةِ^(١)، ولات حينَ تَقِيَّةٍ، مع وضوح الحق، وثبوت الجنان، وكثرة الأنصار، يعضى كَالسَيْفِ الْمُصَلَّتِ^(٢) في أمر الله، مؤثِّراً لطاعة ربه والتقوى، على آراء أهل الدنيا.

١٠٤ — مقال يزيد بن معاوية

فقال يزيد بن معاوية :

« يابن عباس، إناك لتتلق بلسان طَلِقٍ^(٣)، ينبئ عن مكنون قلب حَرِيقٍ^(٤)، فاطرو على ما أنت عليه كَشْحًا^(٥)، فقد محاضوه حقنا ظلمة باطلكم ».

١٠٥ — جواب ابن عباس

فقال ابن عباس :

« مهلاً يزيد، فوالله ما صَفَّتِ القلوب لكم، منذ تكذرت بالمداوة عليكم، ولا دَنَّتْ بالحجة إليكم، مذ نأت بالبنضاء عنكم، ولا رضيت اليوم منكم، ماسخِطت بالأمس من أفعالكم، وإن تُدِلَّ^(٦) الأيامُ نستقضي ما شدَّ عنا، ونسترجع

[١] التقية : المحافظة على النفس أو الرض أو المال من شر الأعداء إذا كانت المداوة بسبب الدين .

[٢] اللول . [٣] لسان طلق : (يسكون اللام وكسرهما) ذلق .

[٤] الحرق المحروق : وفي الحديث « الحرق شديد » وفي رواية « الحريق » أي الذي يقع في حرق النار (بفتحين) فيلتهب ، والحرق بحركة الذار ولها ، وفي الحديث « الحرق والترك والشرق شهادة » وحرق شعره كفرح تقطع ونيل :

[٥] الكشح ما بين الخاصرة إلى الفخذ الخلف ، وطوى كسحه على الأمر أضمره وستره .

[٦] أداله الله من غموه : نصره عليه .

ما ابْتَرَّ^(١) منا ، كَيْلًا بِكَيْل ، ووزنًا بوزن ، وإن تكن الأخرى ، فكفى بالله وليًا لنا ، ووكيلا على المتدين علينا .

١٠٦ - مقال معاوية

فقال معاوية :

« إن في نفسى منكم لَعَزَازَاتٍ بَابِى هَاشِم ، وإِنِى لَخَلِيقٌ أَن أُذْرِكَ فِيكَ النَّار ، وَأَتْنِى النَّار ، فَإِن دَمَاءُنَا قَبْلَكُمْ ، وظَلَامَتُنَا فِيكُمْ . »

١٠٧ - جواب ابن عباس

فقال ابن عباس :

« والله إِن رَمَتْ ذَلِكَ يَا مُعَاوِيَةَ ، لَتَشِيرَنَّ عَلَيْكَ أَسَدًا مُّخَدَّرَةً^(٢) ، وَأَفَاعَى مُطَرَّقَةً ، لَا يَقْتَرُوهَا^(٣) كَثْرَةُ السِّلَاح ، وَلَا تَقْعَضُهَا نَكَايَةُ الْجِرَاح ، يَضْمُونُ أَسْيَافُهُمْ عَلَى عَوَاتِقِهِمْ ، يَضْرِبُونَ قُدُمًا قُدُمًا مِنْ نَآوَاهُمْ^(٤) ، يَهْوَنُ عَلَيْهِمُ ثُبَاحُ الْكِلَاب ، وَغَوَاهُ الذَّنَاب ، لَا يُقَاتُونَ بَوْتَرًا ، وَلَا يُسْبِقُونَ إِلَى كَرِيمٍ ذَكَر ، قَدْ وَطَّنُوا عَلَى الْمَوْتِ أَنْفُسَهُمْ ، وَصَمَّتْ بِهِمْ إِلَى الْعِلْيَاءِ هَمَمُهُمْ ، كَمَا قَالَتِ الْآزْدِيَّة .

قَوْمٌ إِذَا شَهِدُوا الْهِجَابَ فَلَا ضَرْبَ يُنْهِنُهُمْ وَلَا زَجْرَ^(٥)

وَكَأَنَّهُمْ أَسَادُ غِيثَةٍ قَدْ غَرِمَتْ وَبَلَّ مَنُونُهَا الْقَطَرُ^(٦)

فَلَتَكُونَنَّ مِنْهُمْ بِحَيْثُ أَعْدَدْتَ لَيْلَةَ الْمُرِيرِ لِلْهَرَبِ فَرَسَكَ ، وَكَأَنَّ أَكْبَرَ هَمِّكَ سَلَامَةُ حُشَاةِ^(٧) نَفْسِكَ ، وَلَوْلَا طَعَامُ^(٨) مَنْ أَهْلُ الشَّامِ وَقَوَّكَ بِأَنْفُسِهِمْ ،

[١] ما سلب . [٢] أخذ الأسد : لزم الأجرة ، وأخضر الرين الأسد ستره فهو غدير (بكر

الغال وقتها) . [٣] فتأ الضب كنع سكنه وكسره ، والفرس سكن غليانها .

[٤] القدم : الشجاع والضى ألبم أمام ، ونآوأم عاдам .

[٥] نهبه عن الأمر : كفه وزجره . [٦] النينة : بالسكر الأجرة ، والنينة بالفتح الأشجار اللفة في الجبال وفي السهل بلاماء ، فإذا كانت بجاء فهي غيضة ، وغرث : كفرح لجاع فهو غرثان .

[٧] الحشاشة : بقية الروح في المرض والجريح . [٨] الطعام : أوغاد الناس .

وبذلوا دونك مُهَجِّم ، حتى إذا ذاقوا وخز الشُّقَار ، وأيقنوا بحلول الدَّمار ،
رفعوا المصاحف مستجيرين بها ، وعائذين بعصمتها ، لكنك شلواً مطروحاً
بالمرء^(١) ، تَسْنِي عليك رباحها^(٢) ، ويعتورك ذئابها ، وما أقول هذا أريد
صَرَفَكَ عن عزيمتك ، ولا إزالتك عن معقود نيّتك ، لكن الرِّحِم التي تعطف
عليك ، والأوامر التي توجب صرف النصيحة إليك .

فقال معاوية : « لله درك يا بن عباس ، ما تكشف الأيام منك إلا عن
سيف صقيل ، ورأى أصيل ! وبالله لو لم يلد هاشم غيرك ، لما نَقَصَ عددهم ، ولو لم
يكن لأهلك سواك لكان الله قد كثّرهم » ثم نهض فقام ابن عباس وانصرف .
(شرح ابن أبي الحديد ٢ : ص ١٠٥)

عبد الله بن عباس وعمر بن العاص

قام عمرو بن العاص في موسم من مواسم العرب ، فأطرى معاوية بن أبي سفيان وبنى
أمية ، وتناول بنى هاشم ، وذَكَرَ مَشَاهِدَهُ بَصِيفِينَ ، واجتمعت قريش فأقبل عبد الله
ابن عباس على عمرو فقال :

١٠٨ - مقال ابن عباس

« يا عمرو إنك بمت دينك من معاوية ، وأعطيت ما يدك ، ومَنَّاكَ ما بيد
غيره ، فكان الذي أخذ منك أكثر من الذي أعطاك ، والذي أخذت منه دون
الذي أعطيت ، وكلُّ راضٍ بما أخذ وأعطى^(٣) ، فلما صارت مصر في يدك كدَّرها

[١] المرء : النضاء لا يستزقيه بشيء . [٢] سفت الريح للتراب تحفيه ذرته أو حله .

[٣] وذلك أن عمر لما لحق بمعاوية بعد أن بلغه مقتل هُثَّان سأله معاوية أن ينيبه ، قال عمرو فاكتب

لي مصر وكودرها طمعة فكتب له ، وقال عمرو في ذلك :

معاوية لا أعطيك ديني ولم أزل به منك دنيا فانظرن كيف تصنع
فإن لم تكن مصر فأربح صفقة أخذت بها شيئاً يضرب وتضع

عليك بالزلزلة والتنقيص^(١) ، حتى لو كانت نفسك في يدك أقيمتها ، وذكرت
يومك مع أبي موسى ، فلا أراك تحترق إلا بالنار ، ولا مَنَنْتَ إلا بالفجور
والنفس ، وذكرت مشاهدك بصفين ، فوالله ما ثقلت علينا وطأتك ، ولقد
كشفت فيها عورتك ، وإن كنت فيها لطويل اللسان ، قصير السنان ، آخر
الخليل إذا أقبلت ، وأولها إذا أدبرت ، لك يدان : يد لا تبسطها إلى خير ، وأخرى
لا تقبضها عن شر ، ولسان غرور وذو وجهين : وجه مؤحش ، ووجه مؤنس ،
ولعمري إن من باع دينه بدنياه غيره لحري أن يطول عليها ندمه ، لك لسان
وفيك خطأل ، ولك رأى وفيك نكد ، ولك قدر وفيك حسد ، وأصغر عيب
فيك أعظم عيب في غيرك .

١٠٩ - رد ابن العاص

فأجابه عمرو بن العاص : « والله ما في قريش أثقل على مسألة ، ولا أمر
جواباً منك ، ولو استطعت ألا أجيئك لفعلت ، غير أنني لم أبع ديني من معاوية ،
ولكن بعث الله نفسي ، ولم أنس نصيبي من الدنيا ، وأما ما أخذت من معاوية

ثم إنه سنة ٣٨ في جيش لنزومصر ، وكان عليها محمد بن أبي بكر من قبل الإمام عليّ فخره وقته ،
وصارت مصر في حوزة معاوية فولاه عليها أميراً .

[١] روى ابن سعد في كتاب الطبقات الكبير (ج ٤ : ص ٥) قال :

« لما صار الأمر في يد معاوية استكثر طعمة مصر لسرو ما طاش ، ورأى عمرو أن الأمر كله قد
صلح به ويتديره وعناقه وسعيه فيه ، وظن أن معاوية سيزيده الثأم مع مصر ، فلم يفضل معاوية ، فتكر
عمرو لمعاوية فاختلها وتناظرا . وتميز الناس ، وظنوا أنه لا يجتمع أمرهما ، فدخل بينهما معاوية بن حديج
وأصلح أمرهما ، وكتب بينهما كتاباً ، وشرط فيه شروطاً للمدوية وعمرو خاتمة ، ولعاص عليه ، وأن
لسرو ولاية مصر سبع سنين وعلى أن على عمرو السمع والطاعة للمدوية ، وتواخا وتامدا على ذلك ، وأشهدا
عليهما به شهيداً ، ثم مضى عمرو بن العاص على مصر والياً عليها ، وذلك في آخر سنة سبع وثلاثين ، فوالله
ما كنت بها إلا سنتين أو ثلاثاً حتى مات » .

وأعطيته فإنه لا تعلم الموان الحجرة^(١) . وأما ما أتى إلى معاوية في مصر فإن ذلك لم يغيرني له ، وأما خفة وطأتي عليكم بصفين ، فلما استنقظتم حياتي واستبطأتم وفاتي . وأما الجبن فقد علمت قريش أتى أول من يبارز ، وآخر من ينزل . وأما طول لساني ، فإنني كما قال هشام بن الوليد لثمان بن عفان رضي الله عنه :

لساني طويل فاحترس من شدائِه عليك ، وسيفي من لساني أطول^(٢) وأما وجهاي ولساناي ، فإنني أتى كل ذي قدر بقدره ، وأرى كل ناجح بحجبه ، فمن عرف قدره كفاني نفسه ، ومن جَهِل قدره كفيته نفسي ، ولمعري ما لأحد من قريش مثل قدرك ما خلا معاوية ، فما ينفعني ذلك عندك ، وأنشأ عمرو يقول :

بنى هاشم ما لي أراكم كأنكم	بنى اليوم جهال؟ وليس بكم جهل
ألم تعلموا أنني جَسُور على الوغى	سريع إلى الداعي إذا كثر القتل
وأول من يدعو «تَرَالِ» . طبيعة ^(٣)	جُيِلْتُ عليها ، والطباع هو الجبل
وَأَتَى فَصَلْتُ الأَمْرَ بعد اشتباهه	بدُومَة إِذْ أَعْيَا على الحَكم الفصل ^(٤)
وَأَتَى لَا أَعْيَا بِأَمْرٍ أُرِيدُه	وَأَتَى إِذَا نَجَّتْ بِكَارِكُمْ قَحْلُ ^(٥)

(الفرد ٢ : ١١٢ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ١١٦)

١١٠ - عبد الله بن عباس وعمرو بن العاص أيضاً

حج عمرو بن العاص فرّ بعبد الله بن عباس ، فحسده مكانه وما رأى من

[١] في اللؤلؤ « إن العوان لا تعلم الحجرة » والعوان من النساء التي كان لها زوج ، والحجرة اسم من

الاختار ، واختبرت المرأة لبست الخمار بكسر الخاء (الطرحة) يضرب للرجل ارب .

[٢] الشفة : الحدة ، والشفا والشفا بالفتح والفتح حد كل شيء .

[٣] أي نازلوني أيها الأفران ، والطباع : الطبيعة والحية جيل عليها الإلهان ، والجبل : مصدر جيل .

[٤] هي دومة الجندل التي اجتمع فيها الحكمان عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري .

[٥] البكار : جمع بكرة (بالفتح) وهي الناقة الفتية ، ونجت أي صاحت ووفقت صوتها .

هيئة الناس له، وموقفه من قلوبهم ، فقال له يابن عباس : «مالك إذا رأيتني وليتني
الْقَصْرَةَ^(١) ، وَكَانَ بَيْنَ عَيْنِكَ دَبْرَةٌ^(٢) ، وَإِذَا كُنْتَ فِي مَلَأَ مِنَ النَّاسِ كُنْتَ
الْمُؤَمَّاةَ^(٣) الْمُتَمَرَّةَ ؟ فقال ابن عباس : «لأنك من اللثامِ الْفَجْرَةِ ، وقريش الكرام
الْبَرَّةِ ، لا ينطقون بياطل جهلوه ، ولا يكتمون حقاً علموه ، وهم أعظم الناس
أحلاماً ، وأرفع الناس أعلاماً . دخلت في قريش ولست منها ، فأنت الساقط
بين فريشين ، لا في بني هاشم رَحْكَ ، ولا في بني عبد شمس راحلتك ، فأنت
الْأَثِيمُ الزَّئِيمُ^(٤) الضال المُضِلُّ ، حملك معاوية على رقاب الناس ، فأنت تسطو
بجمله ، وتسو بكرمه » فقال عمرو : أما والله إني لسرور بك ، فهل ينفعني
عندك ؟ قال ابن عباس : حيث مال الحق ملنا ، وحيث سلك قصدنا .

(القد الفريد ٢ : ١١٢)

١١١ — مفاخرة عبد الله بن الزبير وعبد الله بن عباس

تزوج عبد الله بن الزبير أم عمرو بنت منظور بن زَبَانَ الْقَزَّارِيَّةِ ، فلما دخل
بها قال لها تلك الليلة : أتذرين من معك في حَجَلَتِكَ^(٥) ؟ قالت : نعم ، عبد الله
ابن الزبير بن العوام بن خُوَيْلِد بن أسد بن عبد العزى . قال : ليس غير هذا ؟
قالت : فما الذي تريد ؟ قال : معك من أصبح في قريش بمنزلة الرأس من الجسد ،
لا بل بمنزلة العينين من الرأس . قالت : أما والله لو أن بعض بني عبد مناف

[١] القصرة : أصل النقص في مركب في الكامل ، ويقال لمتو الإنسان كله قصرة ، وللمنى وليتني
عنتك إمرأناً عني . [٢] الدبرة : يكون الباء وتحتها المخرجة في القتال وهو اسم من الأدبار والمراد
بها هنا الأعضاء وعدم الاتقال . [٣] قال صاحب اللسان ، وفي حديث عمرو بن السوس : « كنت
المهواة المهزاة » المهواة الأحق ، وقال أيضاً : « رجل مهواة ومهواة ومهواة بفتح الأول ضيف
الفؤاد جيان ، ورجل مهواة بضم الأول جيان أيضاً . [٤] الزئيم الملتحق في قوم ليس منهم والدمي .
[٥] الحجلة كناية ، وموضع يزين بالثياب والتودع لعمروس .

حَضَرَكَ ، لَقَالَ لَكَ خِلَافٌ قَوْلِكَ ، فَغَضِبَ وَقَالَ : لِلطَّعَامِ وَالشَّرَابِ عَلَى حَرَامٍ
 حَتَّى أُخْضِرَكَ الْمَاشِيِّينَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ ، فَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَذَلِكَ
 إِنكَارًا ، قَالَتْ : إِنْ أَطَعْتَنِي لَمْ تَفْعَلْ ، وَأَنْتَ أَعْلَمُ وَشَأْنُكَ ، فَخَرَجَ إِلَى الْمَسْجِدِ
 فَرَأَى حَلْقَةً فِيهَا قَوْمٌ مِنْ قُرَيْشٍ ، مِنْهُمْ : عَبْدِ اللَّهِ بْنُ الْعَبَّاسِ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ
 الْحَصَيْنِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلِبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ ، فَقَالَ لَهُمُ ابْنُ الزَّيْرِ : أَحِبُّ أَنْ
 تَنْتَظِلُّوا مَعِيَ إِلَى مَنْزِلِي ، فَقَامَ الْقَوْمُ بِأَجْمَعِهِمْ ، حَتَّى وَقَفُوا عَلَى بَابِ بَيْتِهِ ، فَقَالَ
 ابْنُ الزَّيْرِ : يَا هَذِهِ اطْرَحِي عَلَيْكَ سِتْرَكَ ، فَلَمَّا أَخَذُوا بِحَالِهِمْ دَعَا بِالْمَاءِ
 فَتَمَدَّى^(١) الْقَوْمَ ، فَلَمَّا فَرَّغُوا قَالَ لَهُمْ : إِنَّمَا جِئْتُمْ لِحَدِيثٍ رَدَّتهُ عَلَى صَاحِبَةِ السِّرِّ ،
 وَزَعَمْتَ أَنَّهُ لَوْ كَانَ بَعْضُ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ حَضَرَ لِمَا أَقَرُّ لِي بِمَا قُلْتَ ، وَقَدْ
 حَضَرْتُمْ جَمِيعًا ، وَأَنْتَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ مَا تَقُولُ ؟ إِنْ أَخْبَرْتَهَا أَنْ مَعَهَا فِي خِذْرَاهَا مَنْ
 أَصْبَحَ فِي قُرَيْشٍ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ ، لَا بَلْ بِمَنْزِلَةِ الْعَيْنَيْنِ مِنَ الرَّأْسِ ،
 فَرَدَّتْ عَلَى مَقَالَتِي .

فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : أَرَأَيْكَ قَصَدْتَ قَصْدِي ، فَإِنْ شِئْتَ أَنْ أَقُولَ قُلْتُ ،
 وَإِنْ شِئْتَ أَنْ أَكْفَ كَفَفْتُ . قَالَ : بَلْ قُلْ ، وَمَا عَسَى أَنْ تَقُولَ ؟ أَلَسْتُ
 تَعْلَمُ أَنَّ أَبِي الزَّيْرَ حَوَارِيٌّ^(٢) رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ وَأَنْ أَمَى أَسْمَاءُ
 بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ ذَاتِ النُّطَاقَيْنِ^(٣) ؟ وَأَنْ عَمَّتِي خَدِيجَةُ سَيِّدَةِ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ؟

[١] تَمَدَّى : أَكَلَ أَوَّلَ النَّهَارِ ، وَالنَّهَارُ : الطَّعَامُ الَّذِي يُوَكَّلُ أَوَّلَ النَّهَارِ مِنْهُ الْمَاءُ ، (وَسُمِّيَ السَّحُورُ
 غَدَاءً ، لِأَنَّهُ لِمَا مِمَّا بِمَنْزِلَةِ الْغَدَاءِ لِلْفَطْرِ) . [٢] الْحَوَارِيُّ : النَّاصِرُ أَوْ نَاصِرُ الْأَنْبِيَاءِ . قَالَ عَلَيْهِ
 الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « الزَّيْرُ بْنُ الْعَوَامِ ابْنُ عَمَّتِي ، وَحَوَارِيٌّ مِنْ أُمَّتِي » .

[٣] كَانَ يُقَالُ لِأَسْمَاءَ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ذَاتُ النُّطَاقَيْنِ ، قِيلَ : لِأَنَّهَا كَانَتْ تَطَارِقُ نَطَاقًا عَلَى
 نَطَاقٍ (تَطَارِقُ بَيْنَ ثَوَيْنِ) وَقِيلَ : لِأَنَّهُ كَانَ لَهَا نَطَاقَانِ تَلْبَسُ أَحَدَهُمَا ، وَتَحْمِلُ فِي الْآخَرِ الزَّادَ إِلَى
 رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي النَّارِ . قَالَ الْأَزْهَرِيُّ : وَهَذَا أَصَحُّ

وَأَنْ صَفِيَّةَ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَدَّتِي ^(١) ؟ وَأَنْ عَائِشَةَ أُمَ الْمُؤْمِنِينَ خَالَتِي ، فَهَلْ تَسْتَطِيعُ لِهَذَا إِنْكَارًا ؟

قال ابن عباس : لا ، ولقد ذكرتَ شرفاً شريفاً ، ونفراً فاخراً ، غيرَ أنك تفاخر من يفخره نخرتَ ، وبفضله مَمُوت . قال : وكيف ذلك ؟ قال : لأنك لم تذكر نفراً إلا برسول الله صلى الله عليه وآله ، وأنا أُوَلِّي بالفخر به منك . قال ابن الزبير : لو شئتُ لفخرتُ عليك بما كان قبل النبوة . قال ابن عباس : قد أنصف القارةَ مَنْ رامَها ^(٢) ، نَشَدتكم الله أبها الحاضرون ، أعبدُ المطلبَ أشرفُ أم خُوَيْلِدٍ في قريش ؟ قالوا : عبدالمطلب . قال : أفهاشم كان أشرف فيها أم أسد ؟ قالوا : بل هاشم . قال : أفعبد مناف أشرف أم عبد العزى ؟ قالوا : عبد مناف ، فقال ابن عباس :

تُنافِرُنِي يَا ابْنَ الزَّبِيرِ ! وَقَدْ قَضَى عَلَيْكَ رَسُولُ اللَّهِ لَا قَوْلَ هَازِلٍ

القولين ، وقيل : إنها شقت فاطمتها نصفين ، فاستعملت أحدهما وجعلت الآخر شدادا لزامها ، وجاء في المقصد الفريد (ج ٢ ص ٢٧٠) أن الحجاج لما حصر ابن الزبير بمكة لعادته وبك يابن ذات النطاقين ، أقبِل الأمان ، وادخل في طاعة أمير المؤمنين ، فدخل على أمه أسماء ، فقال لها سمعتَ رحمة الله ما يقول القوم ، وما يدهونني إليه من الأمان ؟ قالت : سمعتهم لنهم الله ! فما أجعلهم ! وأجيب منهم إذ يسيرونك بذات النطاقين ، ولو علوا ذلك لكان ذلك أعظم فخر عندكم ، قال : وما ذلك بأمان ؟ قالت : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره مع أبي بكر (وروى عن عائشة رضي الله عنها أنه خرج معه مهاجرين كما جاء في لسان العرب) فهايت لها سفرة ، فطلباً شيئاً يربطها به فإ وجدناه ، فقطعت من مئوى لكك ما احتلب إليه ، فقل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما إن لك به نطاقتين في الجنة ، وفي انعاموس المحيط : لأنها شقت فاطمتها إليه خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى القدار ، فجعلت واحدة لسفرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والأخرى صلما لقربته . [١] هي جدته لأبيه .

[٢] القارة : قبيلة ، وهم قوم رماة ، ويزعمون أن وجلين النخيا ، أحدهما قاري ، وقال القاري : إن شئتَ صارعك ، وإن شئتَ سابقتك ، وإن شئتَ راميتك ، قال الآخر : قد اخترت للراماة ، فقال القاري : قد أصفقتي ، وأنا أتأ يقول :

قد أنصف القارة من رامها إنا إذا قامة فقاما

نرد أولاما على آخراما

ثم اخترع له بسوم ، فحك به فؤاده .

ولو غيرنا يابن الزير ففترته ^(١) ولكنما ساميت شمس الأصابل ^(٢)
 قضى لنا رسول الله صلى الله عليه وآله بالفضل في قوله : « ما اقترقت فرقتان إلا
 كنت في خيرهما » فقد فارقتك من بعد قصي ^(٣) بن كلاب ، أفنحن في فرقة
 الخير أم لا ، إن قلت نعم خصمت ، وإن قلت لا كفرت ، فضحك بعض
 القوم ، فقال ابن الزير : أما والله لولا تحرُّمك ^(٤) بطعامنا يابن عباس لأعرت ^(٥)
 جبينك قبل أن تقوم من مجلسك . قال ابن عباس : ولم أياطل ؟ فالباطل
 لا يطلب الحق ، أم بحق ؟ فالحق لا يخشى من الباطل .

فقال المرأة من وراء الستر : إني والله لقد نهيتك عن هذا المجلس فأبى إلا
 ماثرون ، فقال ابن عباس : مة أيتها المرأة ، اقنعي ببطالك ، فإعظم الخطر ،
 وما أكرم الخبر ، فأخذ القوم بيد ابن عباس وكان قد عمى ، فقالوا : انهض أيها
 الرجل فقد أفحمتك غير مرة ، فنهض وقال :

ألا يا قومنا ارتحلوا وسيروا فلو ترك القطا لفقنا وناما ^(٦)
 فقال ابن الزير : يا صاحب القطا أقبل علي ، فإني كنت لندعني حتى أقول :
 وأيم الله لقد عرَّف الأقسام أنني سابق غير مسبوق ، وابن حواري وصديق ،
 متَّبِع ^(٧) في الشرف الأتيق ، خير من طليق ^(٨) وابن طليق ، فقال ابن عباس

[١] الأصابل جمع أصبل وهو النسي « ما بعد صلاة العصر إلى الغروب » .

[٢] كان من أولاده عبد المزي بن قصي (ومن سلالة ابن الزير) وعبد مناف بن قصي

(ومن سلالة بنو هاشم) . [٣] تحرم منه بجمرة التمتع وتسمى بجمرة .

[٤] أي تكررت لك من السواي ما يهرك له جيبك ويندي خيلا . [٥] غفا وأغنى : نام نومة

خفيفة . [٦] من تبعك به إذا اضطرر وتطم ، وأرجح أنه « متَّبِع » من تبعك أي تمكن في الطعام والمال

[٧] يمرض بأية الباس بن عبد اللطيف ، وكان خرج مع المشركين في غزوة بدر الكبرى ووقع أسيرا ،

وقد أطلقه عليه الصلاة والسلام بعد أن أخذ منه الفدية « ويروي أنه لما طلب منه الفداء قال : هلم يؤخذ

من النساء ، وكنت مسلما ؟ ولكن القوم استكروهني ، فقال له صلى الله عليه وسلم : الله أعلم بما تقول

إن يك حقا ، فإن الله يجزيك ، ولكن ظاهرا أمرك أنك كنت علينا » .

رُسِيتَ يَجْرِيكَ^(١) فلم تُبْقِ شيئاً ، هذا الكلام مردود ، من امرئ حَسُود ، فإن كنتَ سابقاً فألى من سبقتَ ؟ وإن كنتَ فاعزاً فبمن غفرتَ ، وإن كنت أدركت هذا الفخر بأسرتك دون أسرتنا ، فالفخر لك علينا . وإن كنت إنما أدركته بأسرتنا فالفخر لنا عليك ، وَالْكَفْكُ^(٢) في فك ويديك ، وأما ما ذكرت من الطليق ، فوالله لقد ابتليَ قَصَبٌ ، وَأُنْعِمَ عليه فَشَكَرَ ، وَإِنْ كَانَ والله لو فياً كريماً ، غيرَ ناقِضٍ يَنْعَةً بعد توكيدها ، ولا مُسْلِمٍ كَتِيبَةً بعد التأثر عليها^(٣) ، فقال ابن الزبير : أتعير الزبير بالجين ؟ والله إنك لتعلم منه خلاف ذلك ، قال ابن عباس : والله إنى لأعلم إلا أنه قرء وما كرم ، وحارب فاصبر ، وباع فاعتم ، وقطع الرِّحِمَ ، وأنكر الفضل ، ورام ما ليس له بأهل^(٤) :

وأدرك منها بعض ما كان يرتجى وقصر عن جزئ الكرام وبلداً

وما كان إلا كالمهجين أمامه عتاق ، فجاءه العتاق فأجهداً^(٥)

فقال ابن الزبير : لم يبق يابني هاشم غيرُ المشاعة والمضاربة ، فقال عبد الله بن الحصين بن الحرث ، أقتاه عنك يابن الزبير ، وتأبى إلا منازعته ؟ والله لو نازعته من ساعتك إلى انقضاء عمرك ، ما كنت إلا كالتفب^(٦) الظلمان ، يفتح فاه

[١] الجرة بالضم والفتح : عصا تربط إلى حباله ، قبيب في التراب لظني يصطاد بها ، فيها وتر ، فإذا دخلت يده في الحبال انصعدت الأوتار في يده ، فإذا وثب ليفك فديده ، ضرب بك الصا يده الأخرى ورجله فكسرها ، ورسغ البعير شد رسغ يديه بخيوط ، والمعنى وقتت في حاله ، وطاد ما غرت به حجة عليك لانه ، وفي الأصل « رسمت » بالعين ، ولا يستقيم للمنى بذلك (يقال : رسع الصبي كنع : شد في يده أو رجله خرزاً لضع العين ، ورسمت أعضاؤه : فشدت واسترخت) وربما كان الأصل « رصمت » بجرئك . من رصمه بالرمح إذا طعنه طعناً شديداً غيب النان كله فيه ، أى طعنت بسيفك وارادت إليك جثتك ، ومنه كالأول . [٢] الكفك (يفتح الكافين وكسرهما) : التراب وقتات المطارة .

[٣] يعرض بالزير وقد بايع الامم ثم تكث يمينه ، وخرج لقتاله مع أصحاب الجبل ثم اعترهم .

[٤] أى رام الحلافة ، وقد قال للإمام حين لحوره قبل نشوب وقعة الجبل : « لا أراك لهذا الأمر أملاً ولا أولى به منا » . [٥] فرس مهين : إذا لم يكن حقيقاً ، وفرس عتيق أى كريم والمج عتاق ، وفي الأصل « عتاق » بالثود ، وهو تصحيف . [٦] الجاهل .

يستزید من الرِّيح ، فلا يَشْتَع من سَعْب^(١) ، ولا يَرْوَى مِنْ عَطَش ، قُلْ إِنْ شئتَ أَوْقَع ، وانصرف القوم . (شرح ابن أبي الحديد ٢ : ٥٠١)

ابن عباس وابن الزبير في مجلس مروان بن الحكم

وكان يوضع إلى جانب سرير مروان بن الحكم - وهو يومئذ أمير المدينة - سرير آخر أصغر من سريره ، فيجلس عليه عبد الله بن عباس إذا دخل ، وتوضع الوسائد فيما سوى ذلك ، فأذن مروان يوماً للناس ، وإذا سريره آخر قد أُحْدِثَتْ تِجَاهَ^(٢) سرير مروان ، فأقبل ابن عباس فجلس على سريره ، وجاء عبد الله بن الزبير فجلس على السرير المُحْدَث ، وسكت مروان والقوم ، فإذا يد ابن الزبير تتحرك ، فعلم أنه يريد أن ينطق ، ثم نطق فقال :

١١٢ - مقال ابن الزبير

« إِنْ نَاسًا يَزْعُمُونَ أَنَّ بَيْتَهُ أَبِي بَكْرٍ كَانَتْ غُلَطًا وَفَلَتَةً وَمُتَالِبَةً ، أَلَا إِنْ شَأْنُ أَبِي بَكْرٍ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يُقَالَ فِيهِ هَذَا ! وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُ لَوْلَا مَا وَقَعَ لَكَانَ الْأَمْرُ لَهُمْ وَفِيهِمْ ، وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحَدٌ أَثْبِتَ إِيمَانًا ، وَلَا أَعْظَمَ سَابِقَةً مِنْ أَبِي بَكْرٍ ، فَمَنْ قَالَ غَيْرَ ذَلِكَ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ ، فَأَيْنَ هُمْ حِينَ عَقَدَ أَبُو بَكْرٍ لِعَمْرِ فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا مَا قَالَ ، ثُمَّ أَلْقَى عَمْرَ حَظَّهُمْ فِي حِظْوِظ ، وَجَدَّهُمْ فِي جُدُود ، فَقَسَمْتَ تِلْكَ الْحِظْوِظَ ، فَأَخْرَجْتَ اللَّهُ سَهْمَهُمْ ، وَأَدْحَضَ جَدَّهُمْ ، وَوَلَّى الْأَمْرَ عَلَيْهِمْ مَنْ كَانَ أَحَقَّ بِهِ^(٣) مِنْهُمْ ، فَخَرَجُوا عَلَيْهِ خُرُوجَ اللَّصُوصِ

[١] جوع . [٢] تِجَاهَهُ ووجهه مثلثين : تلقاء وجهه .

[٣] يشير إلى اختيار عمر رضي الله عنه أصحاب الدورية الستة ، وفيهم الامام عليّ كرم الله وجهه ، وما كان من مباينة عثمان رضي الله عنه بالخلافة .

على التاجر خارجاً من القرية ، فأصابوا منه غيرة^(١) فقتلوه ، ثم قتلهم الله به كل قِيلة ، وصاروا مطرودين تحت بطون الكواكب .

١١٣ — مقال ابن عباس

فقال ابن عباس : « على رسلك^(٢) أيها القائل في أبي بكر وعمر والخلافة ، أما والله ما نالا ولا نال أحد منهما شيئاً ، إلا وصاحبنا خيرٌ من نالا ، وما أنكرنا تقدم من تقدم لمِيبِ عِناهُ عليه ، ولو تقدم صاحبنا لكان أهلاً وفوق الأهل ، ولولا أنك إنما تذكر حظَّ غيرك ، وشرف امرئ سواك لكلماتك ، ولكن ما أنت وما لاحظ لك فيه ؟ اقتصر على حظك ، ودعَ تَبْناً لَتَيْمٍ ، وعدِيّاً لعدى^(٣) وأُمِّيَّةَ لأمية ، ولو كلمني تَيْمِي أو عدَوِي أو أموي ، لكلمته وأخبرته خبرَ حاضر عن حاضر ، لا خبرَ غائب عن غائب ، ولكن ما أنت وما ليس عليك ؟ فإن يكن في أسد بن العزى شيء فهو لك ، أما والله انحن أقرب بك عهداً ، وأيض بك يدأ ، وأوفر عندك نعمة ، ممن أمسيتَ تظن أنك تصول به علينا ، وما أخلق ثوبُ صِفِيَّةَ بعدُ ، والله المُسْتَعْمَانُ على ما تصِفون . »

(شرح ابن أبي الحديد ٤ : ٤٩٠)

١١٤ — خطبة عبد الله بن عباس

يرد على عبد الله بن الزبير وقد طاب بنى هاشم

لما كشف عبد الله بن الزبير بنى هاشم ، وأظهر بنضهم وعابهم ، وهم بما همَّ به في أكرم ، ولم يذكر رسول الله صلى الله عليه وآله في خطبه ، لا يوم الجمعة ولا غيرها ، طابه على ذلك قوم من خاصته ، وتشاءموا بذلك منه ، وخافوا عاقبته ،

[١] غفلة . [٢] الرسل : الرضى والثؤدة . [٣] تيم رطط أبى بكر المدينى ، وعدى رطط عمر الفاروق .

فقال : « والله ما تركت ذلك علانية إلا وأنا أقوله سرّاً وأكثر منه ، لكنني رأيت بني هاشم إذا سمعوا ذكره ، أشربوا^(١) واحمرّت ألوانهم ، وطالت رقابهم ، والله ما كنت لآتي لهم سروراً وأنا أقدر عليه ، والله لقد هممت أن أحظر لهم حظيرة ، ثم أضرمها عليهم ناراً ، فإني لا أقتل منهم إلا أنما كفاراً سحاراً ، لا أنعام الله ، ولا بارك عليهم ! بيت سوء لا أول لهم ولا آخر ، والله ما ترك نبي الله فيهم خيراً ، استفرغ^(٢) نبي الله صدقهم ، فهم أكذب الناس ، فقام إليه محمد بن سعد ابن أبي وقاص فقال : « وفقتك الله يا أمير المؤمنين ! أنا أول من أمانك في أرم ». فقام عبد الله بن صفوان بن أمية الجمحي فقال : « والله ما قلت صواباً ، ولا هممت برشد ، أرهط رسول الله صلى الله عليه وآله تعيب ، وإيام تقتل ، والعرب حولك ؟ والله لو قتلت عدتهم أهل بيت من الترك مسلمين ، ما سوغه الله لك ، والله لو لم ينصرم الناس منك لنصرم الله بنصره ، فقال : اجلس أبا صفوان فلست بناموس^(٣) ، فبلغ الخبر عبد الله بن العباس ، فخرج مغضباً ومعه ابنه ، حتى أتى المسجد ، فقصّد قصّد المنبر .

فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على رسول الله صلى الله عليه وآله ، ثم قال : « أيها الناس : إن ابن الزبير يزعم أن لأول رسول الله صلى الله عليه وآله ولا آخر ! فيأجبا كلّ العجب ، لا قراءته وتكذّبه^(٤) ! والله إن أول من أخذ الإيلاف^(٥)

[١] اشرب إلى : مدعته لينظر أوارحه . [٢] في الأصل « استفرغ » وهو تحريف . يقال استفرغ فلان مجرده إذا لم يبق من جهده وطاقته شيئاً ، وللرأى أنه حوى ما فهم من صدق فلم يبق لهم منه شيء ، فهم أكذب الناس (كذا) . [٣] الناموس : الحاذق ، وهو أيضاً صاحب السر المطلع على باطن لترك . [٤] تكذّب : تكلف الكذب .

[٥] روى أبو علي القالي في أماليه قال :

« كانت قريش تجاراً ، وكانت تجارتهم لا تملو مكة ، إنما تقدّم عليهم الأعاجم

وَحَيَّ عِيرَاتٍ^(١) قَرِيشَ لَهَا شَيْمٌ ، وَإِنْ أَوَّلَ مَنْ سَقَى بِمَكَّةَ عَذْبًا ، وَجَعَلَ بَابَ

بِالسَّلْعِ ، فَيَشْتَرُونَهَا مِنْهُمْ ، ثُمَّ يَتْبَاعُونَهَا بَيْنَهُمْ ، وَيَبِيعُونَهَا عَلَى مَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْعَرَبِ ، فَكَانُوا كَذَلِكَ ، حَتَّى رَكِبَ هَاشِمُ بْنُ عَبْدِ مَنَافٍ إِلَى الشَّامِ ، فَزَلَّ قَبِصَرٌ ، فَكَانَ يَذْمَعُ كُلَّ يَوْمٍ شَاةً ، وَيَصْنَعُ جَفْنَةً تَرِيدُ ، وَيَجْمَعُ مِنْ حَوْلِهِ فَيَأْكُلُونَ ، وَكَانَ هَاشِمٌ مِنْ أَجْلِ النَّاسِ وَأَتَمَّهُمْ ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِقَبِصَرٍ ، فَقِيلَ لَهُ : هَاهُنَا رَجُلٌ مِنْ قَرِيشَ يَهْتِمُّ بِالْخَبَزِ ثُمَّ يَصُبُّ عَلَيْهِ الْمَرْقَ وَيُفَرِّغُ عَلَيْهِ اللَّحْمَ - وَإِنَّمَا كَانَتْ الْعَجَمُ تَصُبُّ الْمَرْقَ فِي الصَّخَافِ ثُمَّ تَأْتِيهِمْ بِالْخَبَزِ - فَذَعَبَ بِهِ قَبِصَرٌ ، فَلَمَّا رَأَاهُ وَكَلَّمَهُ أَتَّعِبَ بِهِ ، فَكَانَ يَبِيتُ إِلَيْهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ ، فَيَدْخُلُ عَلَيْهِ وَيُحَادِّثُهُ ، فَلَمَّا رَأَى فَتَاهُ تَمَكَّنَ عِنْدَهُ ، قَالَ لَهُ : « أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنْ قَوْمِي يُجَارِعُ الْعَرَبَ ، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنَّ تَكْتَبُ لِي كِتَابًا تَوْثِّقُ مِنْ تِجَارَتِهِمْ فَيَقْدَمُوا عَلَيْكَ بَمَا يُسْتَطَرَفُ مِنْ أَدَمِ الْحَبَارِ وَثِيَابِهِ وَتَبَاعِ عِنْدَكُمْ فَهُوَ أَرْخَصَ عَلَيْكُمْ » فَكَتَبَ لَهُ كِتَابَ أَمَانٍ لِمَنْ يَقْدَمُ مِنْهُمْ ، فَأَقْبَلَ هَاشِمٌ بِذَلِكَ الْكِتَابِ ، فَجَعَلَ كُلُّهُمْ مَرَّ بِحَيٍّ مِنْ الْعَرَبِ بِطَرِيقِ الشَّامِ أَخَذَ مِنْ أَشْرَاضِهِمْ إِيْلَافًا - وَالْإِيْلَافُ أَنْ يَأْمَنُوا عِنْدَكَ فِي أَرْضِهِمْ بِخَيْرِ حِلْفٍ ، إِنَّمَا هُوَ أَمَانُ الطَّرِيقِ - وَعَلَى أَنْ قَرِيشًا تَحْمِلُ إِلَيْهِمْ بَضَائِعَ ، فَيَكْفُونَهُمْ مُخْلَاتِهَا ، وَيُودُّونَ إِلَيْهِمْ رُؤُوسَ أَمْوَالِهِمْ وَرَبَجَتَهُمْ ، فَأَصْلَحَ هَاشِمٌ ذَلِكَ الْإِيْلَافَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَهْلِ الشَّامِ حَتَّى قَدِمَ مَكَّةَ ، فَأَتَاهُمُ بِأَعْظَمِ شَيْءٍ أُنُتُوا بِهِ بِرَكَّةٍ ، فَخَرَجُوا بِتِجَارَةٍ عَظِيمَةٍ ، وَخَرَجَ هَاشِمٌ مَعَهُمْ بِمِيزَانٍ ، يُؤَفِّقُهُمْ إِيْلَافَهُمْ الَّذِي أَخَذَ لَهُمْ مِنَ الْعَرَبِ ، حَتَّى أَوْرَدَهُمُ الشَّامَ ، وَأَحْلَهُمْ قَرَاهَا ، وَهَلَتْ فِي ذَلِكَ الْفَرِيقَةِ ، وَخَرَجَ لِلطَّلَبِ بْنُ عَبْدِ مَنَافٍ إِلَى الْبَيْتِ ، فَأَخَذَ مِنْ مَلُوكِهِمْ عَهْدًا لِمَنْ تَجَرَّعَ إِلَيْهِمْ مِنْ قَرِيشَ ، وَأَخَذَ الْإِيْلَافَ كَفَعَلَ هَاشِمٌ ، وَكَانَ لِلطَّلَبِ أَكْبَرُ وَلَدِ عَبْدِ مَنَافٍ ، وَكَانَ يُسَمَّى الْفَيْضَ ، وَهَلَكَ بَرْدَمَانٌ مِنَ الْبَيْتِ ، وَخَرَجَ عَبْدُ شَمْسِ بْنُ عَبْدِ مَنَافٍ إِلَى الْحَبْشَةِ فَأَخَذَ إِيْلَافًا كَفَعَلَ هَاشِمٌ وَالطَّلَبِ ، وَهَلَكَ عَبْدُ شَمْسٍ بِمَكَّةَ قَبْرُهُ بِالْحَبْشَةِ ، وَخَرَجَ نُوْفَلُ بْنُ عَبْدِ مَنَافٍ ، وَكَانَ أَصْفَرُ وَلَدِ أَبِيهِ ، فَأَخَذَ عَهْدًا مِنْ كَسْرَى لِتِجَارَةِ قَرِيشَ ، وَإِيْلَافًا مِنْ مَرَّةَ مِنَ الْعَرَبِ ، ثُمَّ قَدِمَ مَكَّةَ وَرَجَعَ إِلَى الْعِرَاقِ فَاتَّ بَسْلَمَانٌ ، وَاتَّسَعَتْ قَرِيشٌ فِي التِّجَارَةِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَكَثُرَتْ أَمْوَالُهَا ، فَبَنَى عَبْدُ مَنَافٍ أَعْظَمَ قَرِيشَ عَلَى قَرِيشَ مِيتَةً فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ » - ذِيلُ الْأَمَالِيِّ ص ٢٠٤ .

[١] الْمِيرُ بِالْكَسْرِ الْأَبْلُ تَحْمِلُ الْمِيرَةَ : بِلَا وَاحِدٍ مِنْ لَفْظِهَا ، أَوْ كُلِّ مَا مَاتَ عَلَيْهِ إِلَّا كَانَتْ أَوْ حَيْرًا أَوْ بَنَازًا وَجْهَهُ كَسْبَاتٌ وَيَسْكُنُ .

الكعبة ذهاباً ، لَعَبْدُ الْمَطْلَبِ ^(١) والله لقد نشأت نلشتنا مع ناشئة قريش ، وإن كُنَّا لَنَلْقَاهُمْ ^(٢) إذا قالوا ، وخطباءهم إذا خطبوا ، وما عُدَّ مجدُّ كجد أولنا ، ولا كَانَ في قريش مجدُّ لغيرنا ، لأنها في كفر ماحٍ ، ودين فاسقٍ ، وَصِلَةُ ^(٣) وَصِلَاةٌ ، في عَشَوَاءَ ^(٤) عَمِيَاءَ ، حتى اختار الله تعالى لها نوراً ، وبث لها سراجاً ، فَاتَّجَبَهُ ^(٥) طِيَّكاً من طيين ، لَا يُسَبُّ بِمَسَبَةٍ ، وَلَا يُنْفَى عَلَيْهِ غَائِلَةٌ ، فكان أَحَدُنَا وولَدُنَا ومِنَّا وابنُ عَمِنَا ، ثم إنَّ أَسْبَقَ السَّابِقِينَ إليه ، مِنَّا وابنُ عَمِنَا ^(٦) ، ثم تلاه في السَّبْقِ أَهْلُنَا وَلُحْمَتُنَا ^(٧) واحداً بعد واحد ، ثم إنَّ لَئِيزَ النَّاسِ بعده أكرمهم أدباً ، وأشرفهم حسباً ، وأقربهم منه رَجْعاً .

واعجباً كلَّ العجب لابن الزبير ! يعيب بنى هاشم ، وإعما شَرَف هو وأبوه وَجَدَهُ بمصاهرتهم ، أمَّا والله إنه لمصلوب قريش ، ومتى كَانَ المَوَّام بن خُوَيْلِد يطمع في صفة بنت عبد المطلب ؟ قيل للبغل : من أبوك يا بغل ؟ فقال : خالي الفرس « ثم نزل . (شرح ابن أبي المديد ٣ : ص ٤٨٩)

١١٥ — خطبة ابن الزبير يتنقص ابن عباس

وخطب ابن الزبير بمكة على المنبر ، وابن عباس جالس مع الناس تحت المنبر ،

[١] قال الطبري : « وعبد المطلب هو الذي كشف عن زجرم بن إسماعيل بن إبراهيم ، واستخرج ما كان فيها مدفوناً ، وذلك غزوان من ذهب كانت جرم دفنتها فيها ذكر حين أخرجت من مكة وأسياف ظمية » ورج القلة محرمة موضع بالبادية إليه تنسب السيوف « وأدراع » فجعل الأسياف باباً للكعبة ، وضرب في الباب النزالين صفائح من ذهب ، فكان أول ذهب حلت فيها قيل الكعبة « تاريخ الطبري ١٧٩: ٢ » [٢] القلة جمع قائل . [٣] الضلة والضلالة ضد الهدى . [٤] أي في جهالة وقتة عَشَوَاءَ ، من المشى (كما) وهو سوء البصر بالليل والنهار ، وقيل ذهب البحر . عني يمشى (كفرح) فهو أعشى وعي عَشَوَاءَ (والشواء) أيضاً التائه لا يتبصر لأمها فهي تحبب يدعا كل شيء ، لأنها ترفع رأسها فلا تنهد مواقع أخفائها . [٥] اتجبه : اختاره . [٦] حتى الإمام علياً كرم الله وجهه [٧] العمة القرابة .

فقال : « إِنَّ هَاهُنَا رَجُلًا قَدْ أَهْمَى اللَّهَ قَلْبَهُ . كَمَا أَهْمَى بَصَرَهُ ، يَزْعُمُ أَنَّ مُنْعَةَ النِّسَاءِ حِلَالٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَيُفْتِي فِي الثَّمَلَةِ وَالْمَثَلَةِ ، وَقَدْ احْتَمَلَ بَيْتَ مَالِ الْبَصْرَةِ ^(١) بِالْأَمْسِ ، وَتَرَكَ الْمُسْلِمِينَ بِهَا يَرْضَخُونَ ^(٢) النَّوَى ، وَكَيْفَ الْوُفُوهُ فِي ذَلِكَ : وَقَدْ قَاتَلَ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ ، وَحَوَارِيُّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَمَنْ وَقَاهُ يَدُهُ ^(٣) . »

١١٦ — رَدُّ ابْنِ عَبَّاسٍ عَلَيْهِ

فقال ابن عباس لقائده سعد بن جبير مولى بنى أسد بن خزيمة - وكان

[١] ذكر بعض المؤرخين أن ابن عباس كان من أحب الناس إلى عمر ، وكان يقدمه على أكابر الصحابة ولم يمتصه قط ، فقال له يوماً : كدنت أستمعك ، ولكن أخشى أن تمتلئ التيء على التأويل ، فلما صار الأمر إلى علي استصه على البصرة ، فاستل التيء على تأويل قوله تعالى « وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِي الْقُرْبَى » ، واستصه لفرجته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالوا : ومرو ابن عباس على أبي الأسود الدؤلي قتل : لو كنت من البهائم لكنت جلا ، ولو كنت راحياً ما كنت من المرحي ولا أحسن مهنة في المشي ، فكذب أبو الأسود لي على كتابا يقول فيه : « إِنْ ابْنُ عَمِكَ قَدْ أَكَلَ مَا تَحْتَ يَدَيْهِ بِشِيرِ عَمِكَ ، فَلَمْ يَسْمَعْ كِتَابَكَ ذَلِكَ ، فَاقْطَرْ رَحِمَكَ اللَّهُ فِيهَا هَذَاكَ » فكذب علي إلى ابن عباس « أَنْ أَرْفَعُ إِلَيْكَ حَابِكَ » فرد عليه ابن عباس : « إِنْ كُلَ الَّذِي بَلَغَكَ بَاطِلٌ . » فكذب إليه علي : « إِنَّهُ لَا يَسْمَعُ تَرَكَكَ ، حَتَّى تَلْفِي مَا أَخَذْتَ مِنَ الْخِزْيَةِ ، مِنْ أَيْنَ أَخَذْتَهُ ، وَمَا وَضَعْتَ مِنْهَا ، أَيْنَ وَضَعْتَهُ . » فلما رأى أن عليا غير مقلع عنه كتب إليه « أَبِيتَ إِلَى عَمِكَ مِنْ أَحْبَبْتَ ، فَإِنِّي ظَاعِنٌ عَنْهُ » ورحل عن البصرة ، وقد حمل ما كان في بيت مالهما حتى قدم الحجاز فزل مكة ، وتبذلت الكتب بين علي وبينه ثانية ، وكانت خاتمتها أن كتب إليه ابن عباس : « وَاللَّهِ لَوْ لَمْ تَدْعُنِي مِنْ أَسَاطِيرِكَ لَأَحْلَلْتَهُ إِلَى مَسَارِيَةِ يَمَانِكَ بِهِ » فكذب عنه علي ، — انظر النقد القريدي ج ٢ : ص ٢٤٢ ، وتاريخ الطبري ٦ : ٨١ ، ونهج البلاغة ج ٢ : ٤٦ —

وقال آخرون : إن ابن عباس ملاطرق علياً ولا يأنه ، ولم يزل أميراً على البصرة إلى أن قتل علي ويهدم قتل علي حتى صالح الحسن مساوية ، ثم خرج حيثئذ إلى مكة ، وليس هذا موضع بحث تلك المسألة — انظر كلمة عنها في شرح ابن أبي الحديد ج ١٦ ص ٦٤ ، وأمال السيد المرتضى ج ١ ص ١٢٣ .

[٢] رضح النوى (كنع وضرب) كسره ، وفي لسان العرب : « فظفوا يرضخون أى يكسرون الخبز فإيا كلونه ويتأولونه » ولم أجد في كتب اللغة « يرضخ » بهذا المعنى ، وإنما الذي جاء « وهو يرضخ لكتنة عجيسة إذا نشأ منهم ثم صار إلى العرب ، فهو يترفع إلى العجم في ألفاظه ولو اجتهد » وقول ابن الزبير كناية عن شدة القطع والفاقة . [٣] كان طلحة بن عبيد الله ممن ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وحامى عنه في وقعة أحد وقد انهزم المسلمون ، ووقاه بيده من سيوف الشركين ، وقد رمى بهم في يده فبيست ، وقال عليه الصلاة والسلام يومئذ « الْيَوْمَ أَوْجِبُ طَلْعَةَ الْجَنَّةِ » .

ابن عباس قد كُفَّ بصره - استقبلَ بي وجهَ ابن الزبير وَاوْفَع من صدرى ،
فاستقبل به قائِده وجه ابن الزبير وأقام قامته ، فَحَسَرَ عن ذراعيه ، ثم قال :
« يا ابن الزبير :

قد أنصف الفارَّة من راماها إنا إذا مافِئَةً نلقاها

نزدُ أولاهها على أخراها حتى تصيرَ حَرْصًا دَعَوَاهَا ^(١)

يا ابن الزبير : أما العمى ، فإن الله تعالى يقول : « فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ
وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ » ، وأما فُتَيَاى فى القملة والملة ، فإن فيها
حُكْمَيْن لا تلهما أنت ولا أصحابك ، وأما حُلَى المال ، فإنه كان مالا جَيِّدًا ،
فأعطينا كلَّ ذى حق حقه ، وبقيت بقيةٌ هي دون حقنا فى كتاب الله ، فأخذناها
بحقنا ، وأما المُنْعَةُ فسلَّ أملك أسماء إذ نزلت عن بُرْدَى عَوْسَجَةٍ ، وأما قتالنا أُمَّ
المؤمنين ، فبنا مُنِمَّتِ أُمَّ المؤمنين ، لباك ولا بأبيك ، فانطلق أبوك وخالك ^(٢)
إلى حجابِ مَدَّة الله عليها ، فهكاه عنها ، ثم اتخذها فتنةً يقاتلان دونها ، وصانا
حلائلها فى بيوتها ، فإنا أنصفا الله ولا محمداً من أنفسهما أن أبْرزا زوجة نبيه
وصانا حلائلها ، وأما قتالنا إياكم ، فإننا لقيناكم رَحْفًا ، فإن كنا كفاراً فقد
كفرتم بفراركم منا ، وإن كنا مؤمنين فقد كفرتم بقتالكم إيانا ، وإيم الله لولا
مكانُ صفية فيكم ، ومكان خديجة فينا ، لما تركتُ لبنى أسد بن عبد العزى
عظما إلا كسرتة .

[١] المرض : الفساد فى الذهب والفضة والبدن . [٢] بنت طلحة وهو ابن عم جده أبى بكر
الصديق ، فهو طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عبيد الله بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب
ابن لؤى ، وأبو بكر هو عبد الله بن أبى قحافة عثمان بن طلحة بن عمرو بن كعب . . . الخ ، وإنما جله
خاله باعتبار القرابة النسوية .

فلما عاد ابن الزبير إلى أمه سألتها عن بُرْدَى عَوَسَجَةَ ، فقالت : ألم أنهلك
عن ابن عباس ، وعن بنى هاشم ؟ فإنهم كُتِمُوا ^(١) الجواب إذا بُدِّهوا ^(٢) » فقال :
بَلَى وعصيتُكَ ، فقالت : يا بني احذر هذا الأعمى الذى ما أطاقتَه الإنس والجن ،
واعلم أن عنده فضاخٌ قريش وخازيها بأمرها ، فأياك وإياه آخر الدهر .
ورواية صاحب المقد : « أن ابن عباس قال لِمَكْرَمَةَ : أقم وجهي نحوه
يا عكرمة ، ثم قال :

إِنْ يَأْخُذَ اللَّهُ مِنْ عَيْنَيَّ نَوْرَهُمَا فَنِي فَوَادِي وَعَقْلِي مِنْهُمَا نَوْرُ
وَأَمَّا قَوْلُكَ يَا ابْنَ الزَّبِيرِ : إِنِّي قَاتَلْتُ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ ، فَأَنْتَ أَخْرَجْتَهَا وَأَبُوكَ وَخَالُكَ ،
وَبَنَاتُ سَمِيَّتِ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ ، فَكُنَّا لَهَا خَيْرَ بَنِينَ ، فَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْهَا ، وَقَاتَلْتَ أَنْتَ
وَأَبُوكَ عَلِيًّا ، فَإِنْ كَانَ عَلَى مُؤْمِنًا فَقَدْ ضَلَّامٌ بِقِتَالِكُمُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَإِنْ كَانَ كَافِرًا فَقَدْ
بُوْثِمَ بِسَخَطِ اللَّهِ بِفِرَارِكُمْ مِنَ الزَّحْفِ . وَأَمَّا الْمُنْعَةُ فَإِنِّي سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ
يَقُولُ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَخَّصَ فِيهَا فَأَفْتَيْتُ بِهَا ، ثُمَّ سَمِعْتُهُ
يَنْهَى عَنْهَا فَتَنَيْتُ عَنْهَا ^(٣) .

[١] كُتِمَ البعير كُتِمَ شد فاه فلا يضر أو يأكل ، والكلام ككتاب : ما يجعل على فاه ، والجمع كتم
ككتب ، والمضى أنهم ذور أجوبة مكتبة مخزنة تلجيم أنواع مناظرهم . [٢] بدعه بأمر كتمه :
استقبل به أو بداه به .

[٣] جاء في المصباح للنير : « للنة اسم المتع ، ومنه منعة الحج ، ومنعة النكاح ، ومنعة الطلاق ،
ونكاح اللنة هو للوقت في النقد ، وقال في الباب : كان الرجل يشاوط المرأة شرطاً على شيء إلى أجل
معلوم ، ويعطيها ذلك فيستحل بذلك فرجها ، ثم يخلى سبيلها من غير تزويج ولا طلاق ، وقيل في قوله تعالى
« قَالَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَأَتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ » للراد نكاح اللنة ، والجمهور على تحريم نكاح
اللنة ، وقالوا معنى قوله : « قَالَا اسْتَمْتَعْتُمْ » فما نكحتم على الصريضة التي في قوله تعالى : « أَنْ تَبْتَغُوا
بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ » أى عاقدين للنكاح ، واستمتعت بكذا وتمتعت : انتفعت ،
ومنه تمتع بالسرور إلى الحج ، لذا أحرم بالمرءة في أشهر الحج وبعد تعلقها بحرم الحج فإنه بالفراغ من

وأول يَجْمَرُ ^(١) سَطَعَ في الْمُتَعَةِ يَجْمَرُ آلَ الزَّيْرِ ^(٢) .

(فرح ابن أبي الحديد م ٤ : ٤٨٩ ، والقدر الفريد ٢ : ٢٦٩ - ١١٣ ، ومروج الذهب ٢ : ١٠٣)

١١٧ — عبد الله بن جعفر (المتوفى سنة ٨٨٠ هـ) وعمرو بن العاص

قال ابن أبي الحديد : روى المدائني قال :

« بينا معاوية يوماً جالساً وعنده عمرو بن العاص إذ قال الآذن : قد جاء عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، فقال عمرو : والله لأسوأته اليوم ، فقال معاوية : لا تفعل يا أبا عبد الله ، فإنك لا تقتصف منه ، ولعلك أن تُظهر لنا من منْقَبَتِهِ ^(٣) ما هو خفي عنا ، وما لا نحب أن نعلمه منه ، وغشيه عبد الله بن جعفر ، فأدناه معاوية وقرَّبه ، فقال عمرو إلى بعض جلساء معاوية ، فقال من على عليه السلام جهازاً غير سائر له ، وَثَلَبَهُ ثَلْباً ^(٤) قبيحاً ، فامْتَنَعَ ^(٥) لون عبد الله ، واعتراه أَفْكَالٌ ^(٦) ، حتى أُرْعِدَتْ خصائله ^(٧) ، ثم نزل عن السرير كالْفَنِيْقِ ^(٨) ، فقال عمرو : مه يا أبا جعفر ، فقال له عبد الله : مه لا أُمُّ لك ، ثم قال :

أظن الحِلْمَ دَلٌّ عَلَى قَوْمِي وقد يتجهل الرجل الحليم

ثم حَسَرَ عن ذراعيه ، وقال :

أعالمها يحل له ما كان حرم عليه ، فن ثم يسمى منتمياً « اه وجاء في التفسير : « وقيل نزلت الآية في المتعة التي كانت ثلاثة أيام حين فُتِحَتْ مكة ثم فسخت لما روى أنه عليه الصلاة والسلام أباحها ، ثم أصبح يقول : « يا أيها الناس إني كنت أمرتكم بالاستمتاع من هذه النساء ، ألا إن الله حرم ذلك لي يوم القيامة » وهي النكاح الوقت بوقت معلوم ، سمى بها إذ القرض منه مجرد الاستمتاع بالمرأة وتجنبها بما تعطى ، وجوزها ابن عباس رضي الله عنهما ثم رجع عنه » .

[١] الجسر : المود ، واستجبر بالجسر : تيجر بالدود . [٢] قال للسودى في مروج الذهب : « وقد تنازع الناس في ذلك ، فمنهم من رأى أنه عني متعة النساء ، ومنهم من رأى أنه أراد متعة الحج ، لأن الزبير تزوج أسماء بكرة في الإسلام ، وزوجه أبو بكر مملئاً ، فكيف تكون متعة النساء ؟ »

[٣] اللقبة : اللقعة . [٤] ثلبه : حابه . [٥] نثير لونه . [٦] الأفكَل : الرعدة .

[٧] جمع خضيلة وهي لحم التخذين والسندين والدراعين أو كل عصابة فيها لحم غليظ .

[٨] الفنيق : الفعل المكرم لا يؤذى لكرامته على أمه ولا يركب .

« يا معاوية خَتَامَ تَجَرُّعِ غِيظِكَ ، وَإِلَى كَمِ الصَّبْرِ عَلَى مَكْرُوهِ قَوْلِكَ ،
 وَسِيَّ أَدَبِكَ ، وَذَمِيمِ أَخْلَاقِكَ ، هَبْلَتِكَ الْهَبُولُ ^(١) » ، أما يَزَجْرُكَ ذِمَامُ ^(٢)
 الْمَجَالِسَةِ عَنِ الْقَذَعِ ^(٣) لَجْلِيْسِكَ ، إِذَا لَمْ تَكُنْ لَكَ حُرْمَةٌ مِنْ دِينِكَ تَهْأَكُ عَمَّا
 لَا يَحُوزُ لَكَ ، وَاللَّهِ لَوْ عَظَفْتُكَ أَوْاصِرُ ^(٤) الْأَرْحَامِ ، أَوْ حَامِيَتِ عَلَى سَهْمِكَ مِنَ
 الْإِسْلَامِ ، مَا أَوْعَيْتَ بَنِي الْإِمَاءِ الْمُتَكَ ^(٥) ، وَالْعَبِيدِ السُّكَّ ^(٦) أَعْرَاضَ قَوْمِكَ ،
 وَمَا يَجْهَلُ مَوْضِعَ الصَّفْوَةِ ^(٧) إِلَّا أَهْلُ الْجَفْوَةِ ، وَإِنَّكَ لَتَعْرِفُ وَشَائِجَ ^(٨) قَرِيْشٍ ،
 وَصَفْوَةَ غَرَارِهَا ، فَلَا يَدْعُوَنَّكَ تَصْوِيبُ مَا فَرَطَ مِنْ خَطِّكَ فِي سَفْكَ دِمَاءِ
 الْمُسْلِمِينَ ، وَحِمَارَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، إِلَى التَّمَادِي فِيمَا قَدْ وَضَحَ لَكَ الصَّوَابُ فِي
 خِلَافِهِ ، فَاقْصِدِ لِمَنْهَجِ الْحَقِّ فَقَدْ طَالَ عَمَهُكَ ^(٩) عَنْ سَبِيلِ الرُّشْدِ ، وَخَبَطَكَ فِي
 دَيْجُورٍ ^(١٠) ظَلَمَةُ النَّيِّ ، فَإِنْ أَيْتَ أَنْ لَا تَتَابَعْنَا فِي قَبْحِ اخْتِيَارِكَ لِنَفْسِكَ ، فَأَغْنِنَا
 عَنْ سُوءِ الْقَالَةِ ^(١١) فِينَا ، إِذَا ضَمَّنَا وَإِيَّاكَ النَّدِيَّ ^(١٢) ، وَشَأْنُكَ وَمَاتَرِيدُ إِذَا خَلَوْتَ ،
 وَاللَّهِ حَسْبِيكَ ، فَوَاللَّهِ لَوْلَا مَا جَعَلَ اللَّهُ لَنَا فِي يَدَيْكَ لِمَا أَتَيْنَاكَ ، ثُمَّ قَالَ : إِنْ
 كَلَّفْتَنِي مَا لَمْ أَطِقْ ، سَاءَكَ مَا سَتَرْتَنِي مِنْ خَلْقٍ .

[١] هبلته أمه : ثكلته ، والمبول : المرأة لا يبيت لها ولد . [٢] الذمام : الحرمة .
 [٣] قذعه وأقذعه رماه بالفحش وسوء أقول . [٤] جمع آصرة وهي القراية وحبل صغير يشد به
 أسفل الحذاء . [٥] الك جمع متكأ (كمرأ) وهي البطراء والقضاة والقي لامتلك البول .
 [٦] الك جمع أسك من السك (عركة) ، وهو صغر الأذن ولزوتها بالأس أو صغر فوق الأذن
 وضيق الصماخ . [٧] أي صفوة القوم وسادتهم .
 [٨] في الأصل « وشائك » وقد بحت في مادة « وشك » فوجدت فيها « والوشيك السريع
 والغريب ، وامرأة وشيك أي سرية » فوجدنا وشائك جمع وشيك « أو وشيك على الأئنت » لم يستهم
 معنى العبارة ، وأراء محرقة عن « وشائج » بالجم . جمع وشيجة وهي عرق الشجرة ، فحق وشائج قريش
 أصولها وعروقها « والعرق أصل كل شيء » أي وإنك يا معاوية لتعرف أصول قريش الكريمة الزاكية
 التي تأتي الضيم ولا تحتل الثلب والاماعة « والوشيج أيضا شجر الرياح » ونظير هذا التعبير قول الفرزدق
 « مشتقة من رسول الله نبته » - والنبع شجر تنخذ منه القسي والسهام .
 [٩] ألمه معركة : التردد في المنال . [١٠] الديجور : الظلام . [١١] تقول في الخبر والقيل
 والقيل والقالة في الشر . [١٢] الندي .

فقال معاوية : يا أبا جعفر تنفّر الخطأ ، أقسمت عليك لتّجلسن^(١) ، لعن الله من أخرج ضَبَّ صدرك من وَجَارِه^(٢) ، محمول لك ماقلت ، ولك عندنا ماأملت ، فلولم يكن مَحْتَدُكَ^(٣) ومنصيبك لكان خُلُقُكَ وَخَلْقُكَ شافين لك إلينا ، وأنت ابن ذى الجناحين وسيد بنى هاشم ، فقال عبد الله : كلا بل سيد بنى هاشم حسن وحسين لاينازعهما فى ذلك أحد ، فقال أبا جعفر : أقسمت عليك لما ذكرت حاجة لك إلا قضيتها كائنة ما كانت ، ولو ذهبت بجميع ما أملك ، فقال : أما فى هذا فى المجلس فلا ، ثم انصرف ، فأتبعه معاوية بصره فقال : والله لكانه رسول الله صلى الله عليه وآله مشيه وخلقه وخلقه ، وإنه لمن مَشْكَاة^(٤) ، لو ددت أنه أخى بنفيس ما أملك .

ثم التفت إلى عمرو فقال : أبا عبد الله ما تراه منعه من الكلام معك ؟ قال : ما لاخفاء به عنك . قال أظنك تقول : إنه هاب جوابك ؟ لا والله ولكنه ازدرارك واستحقرك ، ولم يرك للكلام أهلا ، أما رأيت إقباله على^(٥) دونك ، ذاهبا بنفسه عنك ؟ فقال عمرو : فهل لك أن تسمع ما أعددت له لجوابه ؟ قال معاوية : أرغب إليك أبا عبد الله ، فلات حين جواب فيما يُرى اليوم ، ونهض معاوية وتفرق الناس . (شرح ابن أبي الحديد ٢ : ص ١٠٤)

١١٨ — الحسن بن علي وعمرو بن العاص

وَوَقَدَ الحسن بن علي رضى الله عنه على معاوية ، فقال عمرو بن العاص لمعاوية : يا أمير المؤمنين إن الحسن رجل أَفَقٌ^(١) ، فلو حملته على المنبر فتكلم وسمع

[١] جبره . [٢] أصاك . [٣] المشكاة : الكوة التى ليست بنافذة .

[٤] أنه : وصف من اللهاة وهى التى ، وفهله فه كفرح ، وقياس الوصف منه أنه على أفضل لآله يدل على خلفه « عيب » كمرور وممى وهرج ، ولكن القى فى كتب الفقه : أنه كمنب وفيه وفيه

الناس كلامه عابوه وسقط من عيونهم ففعل ، فصعد على المنبر وتكلم فأحسن ،
ثم قال : أيها الناس لو طلبتم ابناً لنبيكم ما بين جابر بن إلى جابلق ^(١) لم تجدوه
غيري وغير أخى : وإن أذرى لعلهُ فتنة لكم ومتاع إلى حين . فساء
ذلك عمرأ ، وأراد أن يقطع كلامه ، فقال له : أبا محمد ، هل تنعت الرطب ^(٢) ؟
فقال : « أجل تلقعه الشمال ، وتخرجه الجنوب ، وينضجه برؤ الليل ، بحرّ
النهار ^(٣) » قال : أبا محمد ، هل تنعت الخراة ^(٤) ؟ قال : « نعم ، تبعد المشى في
الأرض الصمخص ^(٥) ، حتى تتوارى من القوم ، ولا تستقبل القبلة ، ولا
تستدبرها ، ولا تستنج بالروثة ، ولا العظم ، ولا تبلى في الماء الراكد »
وأخذ في كلامه .

(القند الفريد ٢ : ١١٥ ، وعيون الأخبار ٢ : ١٧٢ ، ومعجم البلدان ٣ : ٢٢)

١١٩ - الحسن بن علي ومروان بن الحكم

بينما معاوية بن أبي سفيان جالس في أصحابه إذ قيل له : الحسن بالباب ،
فقال معاوية : إن دخل أفسد علينا ما نحن فيه ، فقال له مروان بن الحكم : ائذن
له ، فإني أسأله ما ليس عنده فيه جواب ، قال معاوية : لا تفعل ، فإنهم قوم قد
أهملوا الكلام ، وأذن له ، فلما دخل وجلس ، قال له مروان : أسرع الشيب إلى

[١] جابر : مدينة بأقصى المشرق ، وجابلق : مدينة بأقصى الغرب ، وضبطها ياقوت في سجنه
بكون اللام ، وفي القاموس ولسان الرب بنحها ، قال ياقوت : « وفي رواية : جابلس » وضبطها
صاحب اللسان بفتح اللام ، وفي القاموس بفتح اللام أو سكونها : بلد بالقرب ليس وراءه أنسى ، وفي القند
الفريد : « لو طلبتم أبناء أيكم ما بين لايقها » ولايتا للدينة : حرتان تكتفلان .

[٢] يسأله هذا وما بعده تمييزاً له . [٣] وفي القند : « وتنضجه الشمس ، ويصينه القمر » .

[٤] خرى كسم خراة بفتح الخاء وكسرهما : سلاح . [٥] الصمخص : ملاستوى من الأرض ،

وفي القند الفريد « الصمخ » وهو تخريف .

شاربك يا حسن، ويقال إن ذلك من الحرق^(١)، فقال الحسن : ليس كما بلغك ،
ولكننا معشر بني هاشم ، أفواهُنا عَذْبَةٌ شِفَاهُهَا ، فنساؤنا يُقْبَلْنَ علينا بأفاسهن
وَقِبْلِهِنَّ ، وأتم معشر بني أمية فيكم بَحْرٌ^(٢) شديد ، فنساؤكم يَصْرَفْنَ أفواهُهن
وأفاسهن عنكم إلى أصدافكم ، فَإِنَّمَا يَشِيبُ مِنْكُمْ مَوْضِعُ الْعِذَارِ^(٣) من أجل
ذلك . قال مروان ؟ إن فيكم يا بني هاشم خَصَلَةٌ سوء . قال : وما هي ؟ قال :
الغُلَّةُ^(٤) . قال : أَجَلٌ ، نَزَعَتِ الْغُلَّةُ من نساءنا ، وَوَضِعَتْ في رجالنا ، ونزعت
الغُلَّةُ من رجالكم ، ووضعت في نساءكم ، فإقام لَأَمْوِيَّةَ إِلَّا هاشمي ، فغضب
معاوية وقال : قد كنت أخبركم ، فأنتم حتى سمعتم ما أظلم عليكم يبتكم ، وأفسد
عليكم مجلسكم . (القدر الفريد ٢ : ١١٥)

١٢٠ — عقيل بن أبي طالب ومعاوية

وكان عقيل بن أبي طالب قد خرج إلى معاوية ، مُنَاصِبًا لأخيه الإمام عليّ
كرم الله وجهه^(٥) ، فأكرمه معاوية ، وقربه إليه ، وقضى حوائجه ، وقضى عنه
دينه ، ثم قال له في بعض الأيام : « والله إن عليًّا غيرُ حافظ لك ، قطع قرابتك ،
وما وصلك ، ولا اصطنمك » قال له عقيل : « والله لقد أجزل العطية وأعظمها ،
ووصل القرابة وحفظها ، وحسن ظنه بالله إذ ساء به ظنك ، وحفظ أمانته ،
وأصلح رعيته ، إذ ختم وأفسدتم وجرتتم ، فاكفف لا أبا لك ، فإنه عما
تقول يَمُزَلُ » .

[١] الحرق كسب : الحق وآلا يحسن الرجل العمل والتصرف في الأمور والاسم الحرق كقفل .
[٢] البحر : التنقيص فهو غيره . [٣] العذار : جانبها العجوة . [٤] الغلّة : شدة الشهوة كالشبي بالتحريك .
[٥] وكان قد قدم عليه بالكوفة ، فسأله أن يقضى عنه دينه ، قال : وكم دينك ؟ قال : أربون ألفا ،
قال : ما هي عندي ، ولكن اصبر حتى يخرج عطائي فإنه أربية آلاف فأدفعه إليك ، قال : يوت المال يديك
وأنت تسوفي بطلانك ؟ قال : أتأمرني أن أدفع إليك أموال المسلمين وقد اجتمعوني عليها ؟ قال : فإنني أت
ساوية ، فأذن له فقدم عليه « انظر أسد النابة ٣ : ٤٢٣ والفخرى ص ٧٦ — اقرأ أيضا كلمة في هذا
لصدد في شرح ابن أبي الحديد م ٣ : ٨٢ وفي ترجمة علي بن أبي طالب للؤلؤ ص ٨٣ .

وقال له معاوية يوماً : « أبا يزيد ، أنا لك خير من أخيك علي » قال : « صدقت ، إن أخي آثرَ دينَه على دِيّاه ، وأنت آثرتَ دِيّك على دينك ، فأنت خير لي من أخي ، وأخي خير لنفسه منك ^(١) » .

وقال له مرة : « أنت معنا يا أبا يزيد » قال : « ويوم بدر قد كنت معكم ! » وقال له يوماً : إن علياً قد قَطَعَكَ ووَصَلْتُكَ ، ولا يُرضيني منك إلا أن تَلَمَّعَ على المنبر . قال : أَفْعَلُ ، فَأَصْعِدْ فَصْعِدْ ، ثم قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : « أيها الناس ، إن أمير المؤمنين معاوية أمرني أن أَلَمَّعَ علي بن أبي طالب ، فَالْعَنُوهُ ، فعليه لعنةُ اللهِ والملائكةِ والناسِ أجمعين » ثم نزل ، فقال له معاوية : إنك لم تبين - أبا يزيد - مَنْ لعنتَ يني وبينه . قال : والله لا زِدْتُ حرقاً ، ولا نَقَصْتُ آخر ، والكلام إلى نيّة المتكلم .

ودخل عقيل على معاوية ، وقد كَفَ بصره ، فأجلسه على سريرِه ، ثم قال له : « أنتم معشرَ بني هاشم تُصابون في أبصاركم » قال : « وأنتم معشرَ بني أمية تصابون في بصاركم » .

وقال له يوماً : ما أَيْنَ الشُّبْقَ في رجالكم يا بني هاشم ! قال : لكنه في نسائكم أينُ يا بني أمية .

وقال معاوية يوماً : « يا أهل الشام ، هل سمعتم قول الله تبارك وتعالى في كتابه : « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ^(٢) وَتَبَّ » ؟ قالوا : نعم ، قال : فإنَّ أبا لهب عمه ،

[١] وفي الليل والتبين أن معاوية قال : هنا أبو يزيد ، لولا أنه علم أني خير له من أخيه لما أقام عندنا وتركه ، فقال له عقيل : « أخي خير لي في ديني ، وأنت خير لي في دِيّاي » .

[٢] هو أبو لهب بن عبد المطلب عم الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكان شديد الازدراء له ، يرى الفخر على يابه .

فقال عقيل : « فهل سمعتم قول الله عز وجل : « وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ » ؟ قالوا : نعم ، قال : فإنها عمته ، ثم قال : « يا معاوية ، إذا دخلت النار ، فاعدل ذات اليسار ، فإنك ستجد عمي أبا لهب ، مفترشا عمتك حمالة الحطب ، فانظر أيهما خير ؟ »

وقال له معاوية يوما : والله إن فيكم لحصلة ما تُعجني يا بني هاشم . قال : وما هي ؟ قال : لين فيكم . قال : لين ماذا ؟ قال : هو ذاك . قال : إيانا نُعير يا معاوية ؟ أجل والله إن فينا لآلينا من غير ضعف ، وعزا من غير جبروت ، وأما أئمتنا يا بني أمية ، فإن لينكم غدر ، وعزكم كفر . قال معاوية : ما كل هذا أردنا يا أبا يزيد .

وقال معاوية لعقيل : لم جفوتنا يا أبا يزيد ؟ فأنشأ يقول ؟

إني امرؤ مني التكرُّمُ شيمَةٌ إذا صاحبي يوما على الهون أضيرا

ثم قال : « وايم الله يا معاوية ، لئن كانت الدنيا تهديتك مهادها ، وأظلتك بحذافير^(١) أهلها ، ومدت عليك أطناب سلطانها ، ما ذاك بالنبي يزيدك مني رغبة ، ولا تخشعا رهبة » قال معاوية : « لقد نعتها أبا يزيد نعتا هشا لها قلب ، وإني لأرجو أن يكون الله تبارك وتعالى ما رداني برداء ملكها ، وحبا في فضيلة عيشها ، إلا لكرامة أدخرها لي ، وقد كان داود خليفة ، وسليمان ملكا ، وإنما هو المثال يُحتذى عليه ، والأمور أشباه ، وايم الله يا أبا يزيد ، لقد أصبحت علينا كريما ، وإلينا حبيبا ، وما أصبحت أضير لك إساءة » .

(القد الفرید ٢ : ١١٠ - ١١٩ ، البيان والتبيين ٢ : ١٧٤)

[١] هي أم جميل بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان ، وقيل لها حمالة الحطب ، لأنها كانت تحمل الشوك والسعدان وتلقيه في طريق النبي عليه الصلاة والسلام ليذاه له وكانت جارة ، أو هو النخبة ، إذ كانت تسمى عليه بالنخاء وتوقد بذلك نار الحسومة ، أو حطب جهنم ، فإنها كانت تحمل الأوزار بعماداته ، وتحمل زوجها على يذاه . [٢] الحذافير جمع حذافير أو حفاقر (كصفيور وقرطاس) وهو الجانب .

١٢١ - خطبة السيدة أم كلثوم بنت علي في أهل الكوفة

بعد مقتل الحسين عليهم السلام

لما قُتل الحسين بن عليّ عليهما السلام ، وأُدخلَ النَّسوة من كَرْبَلَاءَ إلى الكوفة ، جعلت نساؤها يَلْتَدِمْنَ ^(١) ، وَهَتَّكْنَ الجُيُوبَ عليه ، فرفع عليّ بن الحسين عليهما السلام رأسه ، وقال بصوت ضئيل - وقد نَحَلَ ^(٢) من المرض - :
يَا أَهْلَ الكوفة إِنَّمَا تَبْكُون عَيْنَا ، فَمَنْ قَتَلَنَا غَيْرَ كَمْ ؟ وَأَوَمَاتُ أُمِّ كُلْثُومِ بِنْتِ عَلِيٍّ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ إِلَى النَّاسِ أَنْ اسْكُتُوا ، فَلَمَّا سَكُنَتِ الْأَنْفَاسُ ، وَهَدَّاتِ الْأَجْرَاسُ ^(٣) ، قَالَتْ :

« أَبْدَأُ بِحَمْدِ اللَّهِ ، وَالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى آيَةِ ^(٤) ، أَمَا بَعْدُ : يَا أَهْلَ الكوفة ، يَا أَهْلَ الْخَرَّةِ ^(٥) وَالْخَذَلِ ، لَا ، فَلَا رَقَاتٍ ^(٦) الْعَبْرَةَ ، وَلَا هَدَّاتِ الرَّيَّةِ ^(٧) ، إِنَّمَا مَثَلُكُمْ كَمَثَلِ النَّبِيِّ قَضَتْ غَزَلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةِ أَنْسَكَاتِهَا ^(٨) ، تَخَذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا ^(٩) يَنْتَسِكُمْ ، أَلَا وَهَلْ فِيكُمْ إِلَّا الصَّلَفُ ^(١٠) وَالشَّنْفُ ^(١١) ، وَمَلَقَ ^(١٢)

[١] لعلت المرأة (كفرب) ، والتفت : لظنت وضربت صدرها في التباحة ، ويهتكن : يمزقن ،

والجبوب جمع جيب : وهو طوق القميص . [٢] كنع وعلم ونصر وكرم .

[٣] الأجراس جمع جرس كشمس : وهو الصوت . [٤] تريد جبها رسول الله صلى الله عليه

وسلم ، وفي رواية : « والصلاة على جدى سيد المرسلين » . [٥] الفدر والحديبة ، أو أُنَجج

الفدر . [٦] رقاً النع : جف وسكن ، والبرية : النسة قبل أن تبيض .

[٧] الرية : الصوت . [٨] أنسكأتاً جمع نكت كحل وهو ماغض ليزل ثانية - حال من غزلها ،

أو مقول ثان لتقضت لأنه بمعنى صيرت - وقيل هي ربطة بنت سعد بن تيم اقمريشة ، وكانت خرقاء لتزل

طول يومها ثم تقضه . [٩] الدخل : ما يدخل في الشيء وإيس منه ، وما داخل من فساد في دقل أو

جسم ، والفدر والمكر والحديبة . [١٠] الصلف : التمدح بما ليس عندك ، أو مجاوزة قبر النظر

والادعاء فوق ذلك تكبرا . [١١] الشنف : النظر بمؤخر العين ، أو النظر إلى الشيء كالمتنص عليه ،

أو كالمتجب منه ، أو كالكاره له ، وشنف له كفرح فرحا : أبغضه وتكره .

[١٢] ملق الجلبة : مجامعتها ، أو هو ملق بالتحريك ، ولللق : التلقى .

الْإِيمَاءُ ، وَغَمَزُوا الْأَعْدَاءَ ، وَهَلْ أَنْتُمْ إِلَّا كَمَرَعَى عَلَى دِمْنَةٍ ^(١) ، وَكَفِضَةً عَلَى
مَلْحُودَةٍ ^(٢) ، أَلَا سَاءَ مَا قَدَّمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ، وَفِي الْعَذَابِ أَنْتُمْ
خَالِدُونَ ، أَتَبْكُونَ ؟ إِي وَاللَّهِ فَابْكُوا ، وَإِنَّكُمْ وَاللَّهِ أَخْرَيَاءُ ^(٣) بِالْبُكَاءِ ، فَابْكُوا
كَثِيرًا ، وَاضْحَكُوا قَلِيلًا ، فَلَقَدْ فَرَزْتُمْ بِمَارِهَا وَشَنَارِهَا ^(٤) ، وَلَنْ تُرْجِحُوهَا ^(٥)
بِغَسَلٍ بَعْدَهَا أَبَدًا ، وَأَنْتُمْ تُرْجِحُونَ قَتْلَ سَلِيلِ خَاتَمِ النَّبَوَّةِ ، وَمَعْدِنِ الرِّسَالَةِ ،
وَسَيِّدِ شِبَّانِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَمَنَارِ حُجَّتِكُمْ ، وَمِذْرَةِ ^(٦) حُجَّتِكُمْ ، وَمُفْرِخِ ^(٧) نَازِلَتِكُمْ ،
فَتَمَسَّا وَنُكْسَا ^(٨) ، لَقَدْ خَابَ السَّعْيُ ، وَخَسِرَتِ الصِّفْقَةُ ^(٩) ، وَبُؤْتُمْ ^(١٠)
بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ، وَضُرِبَتْ عَلَيْكُمْ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ ، لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ^(١١) ،
تَكَادُ السَّنَوَاتُ يَتَقَطَّرْنَ ^(١٢) مِنْهُ ، وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ ، وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ،
أَتَذَرُونَ أَيْ كَيْدَ رَسُولِ اللَّهِ فَرَيْتُمْ ، وَأَيْ كَرِيمَةٍ لَهُ أَبْرَزْتُمْ ، وَأَيْ دَمٍ لَهُ
مَسْفُكْتُمْ ؟ لَقَدْ جِئْتُمْ بِهَا شَوْهَاءَ خَرْقَاءَ ^(١٣) ، شَرُّهَا طِلَاعُ ^(١٤) الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ ،
أَفَمَجِئْتُمْ أَنْ قَطَرَتِ السَّمَاءُ دَمًا ، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يَنْصَرُّونَ ،
فَلَا يَسْتَخَفُّكُمْ الْمَهْلُ ، فَإِنَّهُ لَا تَحْفَظُهُ لِلْمُبَادَرَةِ ^(١٥) ، وَلَا يُخَافُ عَلَيْهِ قَوْتُ النَّارِ ،

- [١] الدمنة : آثار النار بعد الرحيل عنها من البر والرماد وغيرها ، أخفت هذا القول من قول جدتها
عليه الصلاة والسلام : « لِيَاكُمْ وَخُضْرَاءُ الدَّمَنِ » وهي المرأة الحنناء في منبت السوء .
[٢] ملحودة : مدفونة في لحدها ، تريد أنهم لا ينفع بهم . [٣] جديرون .
[٤] الشنار : أقمع اليب . [٥] رحنه كمنه وأرحنه : غله . [٦] دره عن انقوم كنع
إذا تكلم عنه ودفع فهو مدوه . [٧] أي مذهب ومزيل ، يقال : « أفرخ روكك » - على الأمر
وبضم الراء من روكك - أي اسكن وأمن ، والروع : القلب . [٨] النكس : الهلاك ، ونكسه
نكسًا : قلبه على رأسه ، والنكس بالقلم عود للرض بعد القه ، ويقال : تمسأ له ونكسًا ، يضم النون
وقد يفتح ازدواجًا . [٩] البيعة . [١٠] وجبهم . [١١] أي فظيما منكرا .
[١٢] ينشقق ، وتخمر : تسقط ، هذا : أي تهد هذا . [١٣] بيا أي بغضنكم هذه ، وغرقاء من
الحرق : وهو ألا يحسن الرجل العدل والتصرف في الأمور . [١٤] طلاع النوى : ملؤه .
[١٥] أي لا تدفعه إلى العقوبة للمبادرة إلى الذنب ، والضمير لله تعالى .

كلا ، إن ربك لنا ولهم لبالمرصاد ^(١) ، ثم ولت عنهم ، فظل الناس حيارى ،
وقد ردوا أيديهم إلى أفواههم ، وقال شيخ كبير من بني جُفَيٍّ - وقد أخضلت ^(٢)
لحيته من دموع عينه - :

كُھولُهُمْ خَيْرُ الكُھولِ ، وَنَسْلُهُمْ إِذَا عُدَّ ، نَسْلٌ لَا يَبُورُ وَلَا يَحْزَى

(بلاغات النساء : ص ٢٧)

١٢٢ - خطبة السيدة زينب بنت عليّ عليهما السلام بين يدي يزيد
ولما وجهه عُيَيْدُ الله بن زياد آل الحسين عليه السلام إلى يزيد بدمشق ،
ومثّلوا بين يديه أمر برأس الحسين فأبرز في طنت ، فجعل ينكت ثناياه بقضيب
في يده ، وهو يقول من آيات ^(٣) :

لَيْتَ أَشْيَاخِي يَتَذَرُ شَهِيدُوا جَزَعِ الْخَزَرَجِ مِنْ وَقَعِ الْأَسَلِ ^(٤)

لَأَهْلُوا وَأَسْتَهْلُوا فَرَحًا نِمَ قَالُوا : يَا زَيْدُ لَا تَسَلْ ^(٥)

جَزَيْنَا بِمِثْلِ يَدِي مِثْلَهَا وَأَقَمْنَا مِثْلَ يَدِي فَاعْتَدِلْ ^(٦)

فقال زينب بنت عليّ عليهما السلام : صدق الله ورسوله يا يزيد ! « ثُمَّ كَانَ
عَاقِبَةُ الَّذِينَ أَصَاءُوا السُّوءَ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ، وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ »
أظننت يا يزيد أنه حين أخذ علينا بأطراف الأرض وأكناف السماء ، فأصبحتنا

[١] الرصد : الطريق والمكان يرصد فيه العدو ، ورصده : رقبه ، أى يرصد أعمال العباد فلا يغترة
منها شيء . [٢] ابتلت . [٣] تحتل يزيد بهذه الآيات وهي لبد الله بن الزبيرى ، قلما في غزوة
أحد ، وهو يومئذ مشرك ، وكان يهجو المسلمين ، وعرض عليهم كفار قريش في شمره ، ثم أسلم بعد
فتح مكة . [٤] كانت الغلبة يوم بدر للمسلمين ويوم أحد للمعركين ، والأسل : الرماح والنبل ،
والخزرج قبيلة من الأنصار . [٥] كل من رفع صوته فقد أهل لإهلا وإستهلا ، وشلت يده
تشلت كتمب ينصب ، وأشلت وشلت مبذون للجهول : يستوى جلة دغاية ، يقال في السماء : « لا تشلت
يدك ولا تشكك » - والبيت من قول يزيد - . [٦] لانفس ما قدمت لك من أن عليا كرم الله وجهه
كان قد وتر آل أبي سفيان بيده ، قل حظلة بن أبي سفيان أخا معاوية ، والوئيد بن عتبة خله ، وعتبة بن
ربيعة جده لأمه .

نَسَاقَ كَمَا يَسَاقُ الْأُسَارَى ، أَنْ بَنَاهَا عَلَى اللَّهِ ، وَبَكَ عَلَيْهِ كَرَامَةً ؟ وَأَنْ هَذَا لِعَظِيمِ خَطَرِكَ ؟ فَشَمَخْتَ بِأَقْنَعِكَ ، وَنَظَرْتَ فِي عِطْفَيْكَ ^(١) ، جَذَلَانَ فَرَحًا ، حِينَ رَأَيْتَ الدُّنْيَا مُسْتَوْسِقَةً لَكَ ^(٢) ، وَالْأُمُورَ مُنْتَسِقَةً عَلَيْكَ ، وَقَدْ أَتَمَلَّيْتُ وَتَفُسَّتَ ^(٣) وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : « وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّكُمُنَّغْلِي ^(٤) لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ، إِنَّمَا نُنْغِلِي لَهُمْ لِيُزَادُوا إِثْمًا ، وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ » أَمِنْ الْعَدْلِ ، يَا بَنِي الطَّلَاقِ ، تَحْدِيرُكَ ^(٥) نِسَاءَكَ وَإِمَاءَكَ ، وَسَوْفُوكَ بَنَاتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ فَدَهَكَتَ سَنُورَهُنَّ ، وَأَفْخَلْتَ ^(٦) صَوْتَهُنَّ ، مَكْتَنِيَاتٍ تَخْدِي ^(٧) بَيْنَ الْأَبَاعِرِ ، وَتَخْذُو ^(٨) بَيْنَ الْأَعَادِي ، مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ ، لَا يُرَاقِبُنَّ وَلَا يُؤَوِّقُنَّ ، يَتَشَوَّفُهُنَّ ^(٩) الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ ، لَيْسَ مَعَهُنَّ وَلِيٌّ ^(١٠) مِنْ رَجَالِهِنَّ ، وَكَيْفَ يُسَبِّطُنَّ فِي بِنْفَضَتِنَا مَنْ نَظَرَ إِلَيْنَا بِالشَّفَفِ ^(١١) وَالشَّنَانِ ، وَالْإِحْنَ وَالْأَضْغَانَ ؟ أَتَقُولُ : « لَيْتَ أَشْيَاخِي يَدِرُ شَهْدَاؤُهُمْ غَيْرَ مَتَّامٍ وَلَا مُسْتَعْظَمٍ ؟ وَأَنْتَ تَنْكُتُ ثَنِيَا أَبِي عَبْدِ اللَّهِ بِمِخْصَرَتِكَ ^(١٢) ، وَلَمْ لَا تَكُونِ كَذَلِكَ وَقَدْ نَكَاتَ ^(١٣) الْفَرَحَةَ ، وَاسْتَأَصَلْتَ الشَّافَةَ ^(١٤) ، يَاهِرَاقُكَ دِمَاءُ ذُرِّيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَتُنْجُومُ الْأَرْضَ

- [١] أَى جَانِبِكَ ، وَهُوَ كَنَايَةٌ عَنْ إِجَابَةِ بِنْفَسِهِ . [٢] مِنْ اسْتَوْسَقَتْ الْإِبِلُ : أَى اجْتَمَعَتْ ، وَمُنْفَقَةٌ : مُنْتَظَمَةٌ . [٣] أَى أَفْخَلَكَ فِي أَمْرِكَ ، مِنْ نَفْسِ اللَّهِ كَرِيمَةٍ : فَرَحًا .
[٤] نَغْلِي . [٥] صَوْتَهُنَّ فِي خُذُورِهِنَّ . [٦] أَمَجَّجَتْ ، صَحْلَ صَوْتُهُ كَفَرَحٍ : بَجَجَ .
[٧] خَدِي الْجَبْرِ وَالرَّسِ كَجَرَى : أَسْرَعَ وَزَجَّ بِقَوَاعِهِ ، أَوْ هُوَ ضَرْبٌ مِنْ سَبْرِهِمَا .
[٨] يَسُوقُ . [٩] يَطْطُولُ وَيَنْظُرُ إِلَيْهِنَّ وَيَشْرَفُ عَلَيْهِنَّ . [١٠] قَرِيبٌ أَوْ نَصِيرٌ .
[١١] سَبَقَ تَحْمِيرُهُ ، وَفِي الْأَصْلِ « بِالشَّقِّ » وَهُوَ تَحْرِيفٌ (وَالشَّقُّ : أَنْ تَكْفُفَ الْبَعِيرَ بِرِزَامِهِ حَتَّى تَلْقَى ذِفْرَاهُ بَعَادَةَ الرَّحْلِ ، وَالتَّغْرِى بِكَسْرِ التَّاءِ : الْعِظْمُ الشَّائِخِ خَلْفَ الْأُذُنِ) ، وَالشَّنَانُ : الْكِرَامِيَّةُ ، وَالْإِحْنَ : الْأَحْقَادُ . [١٢] الْمِخْصَرَةُ : مَا يَأْخُذُهُ الْمَلِكُ يَشِيرُ بِهِ إِذَا خَاطَبَ . [١٣] نَكَاتَ الْفَرَحَةَ كَنَحَ : قَتَرَهَا قَبْلَ أَنْ تَبْرَأَ فَنَدِيَتْ ، كَنَايَةٌ عَنْ نَبْتِهِ مِمَّا كَادَ يَفْسُقُ مِنَ السَّالْوَةِ بَيْنَ بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي أُمَيَّةٍ .
[١٤] الشَّافَةُ : قَرَحَةٌ تَخْرُجُ فِي أَسْفَلِ الْقَدَمِ فَتَكْوِي فَتَنْهَبُ ، وَاسْتَأَصَلَ اللَّهُ شَافَتَهُ : أَذْهَبَهَا كَمَا تَذْهَبُ تِلْكَ الْقَرَحَةُ

من آل عبد المطلب ، وَلَتَرِدَنَّ عَلَى اللَّهِ وَشَيْكَاً ^(١) مَوْرِدَهُمْ ، وَلَتَوَدَّ أَنْكَ تَحْمِيَتْ
وَبَكَيْتُمْ وَأَنْكَ لَمْ تَقُلْ : « فَاسْتَهْلُوا وَأَهْلُوا فَرَحًا » اللَّهُمَّ خذْ بِحَقِّنَا ، وَاتَّقِمْ
لَنَا مِنْ ظَلَمِنَا ، وَاللَّهُ مَا فَرَيْتَ إِلَّا فِي جِلْدِكَ ، وَلَا حَزَزْتَ إِلَّا فِي لَحْمِكَ ،
وَسَرَدَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بَرْنَعُكَ ^(٢) ، وَعَثَرَتْهُ وَلُحْمَتُهُ فِي حَظِيرَةِ
الْقُدُّسِ ^(٣) ، يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ شَمْلَهُمْ مَلْثُومِينَ مِنَ الشَّعَثِ ^(٤) ، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ
وَتَعَالَى : « وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ
يُرْزَقُونَ » وَسَيُطْلَمُ مِنْ بَوَّأِكَ ^(٥) وَمَكَنَّكَ مِنْ رِقَابِ الْمُؤْمِنِينَ - إِذَا كَانَ الْحَكَمُ
اللَّهُ ، وَالْخَصَمُ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَجَوَارْحُكَ شَاهِدَةٌ عَلَيْكَ ، فَبَيْسَ
لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا - أَيُّكُمْ شَرُّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جَنْدًا ، مَعَ أَنِّي وَاللَّهُ يَا عَدُوَّ اللَّهِ
وَابْنَ عَدُوِّهِ ، أَسْتَصْنِعُ قَدْرَكَ ، وَأَسْتَغْظِمُ تَقْرِيمَكَ ^(٦) ، غَيْرَ أَنَّ الْعَيُونَ عَبْرَى ^(٧) ،
وَالصُّدُورَ حَرَّى ، وَمَا يَجْزِي ذَلِكَ أَوْ يُغْنِي عَنَّا ، وَقَدْ قَتَلَ الْحُسَيْنَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ،
وَحَزَبُ الشَّيْطَانِ ^(٨) يَقْرَبُنَا إِلَى حَزْبِ السُّفَهَاءِ ^(٩) ، لِيُعْطَوْهُمُ أَمْوَالُ اللَّهِ عَلَى اتِّهَامِكَ
مَحَارِمِ اللَّهِ ، فَهَذِهِ الْأَيْدِي تَنْطِفُ ^(١٠) مِنْ دِمَائِنَا ، وَهَذِهِ الْأَفْوَاهُ تَحَابُّ ^(١١) مِنْ
لَحْمُونَا ، وَتِلْكَ الْجَنُثُ الزَّوَاكِي ^(١٢) ، يَغْتَامُهَا عَسْلَانُ الْقَلَوَاتِ ، فَلَنْ نَأْخُذَ تَنَا
مَعْتَمًا لِنَتَّخِذَنَّ مَغْرَمًا ، حِينَ لَا تَجِدُ إِلَّا مَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ ، تَسْتَصْرِخُ ^(١٣) :

[١] سرياً . [٢] الرِّغْمُ : القُلُوبُ . [٣] القِتْرَةُ : رَهْطُ الرَّجُلِ وَعَشِيرَتُهُ الْأَدْنُونُ ، وَالْحَجَّةُ :
الْفِرَاقَةُ ، وَالْقُدُّسُ : الطَّهْرُ ، - أَيُّ فِي الْجَنَّةِ - . [٤] التَّفَرُّقُ . [٥] أَيُّ أَحَدِكَ فِي كُرْسِيِّ
الْخِلَافَةِ وَهُوَ مَمْلُوكَةٌ . [٦] التَّخْرِيجُ : التَّأْيِيبُ . [٧] عَيْنُ عَيْرِي : جَرَتْ عَيْرَتَاهُ وَالصُّدُورُ حَرَّى :
شَدِيدَةُ الْحَرِّ ، كُنْيَةُ عَنْ شُعْبَةَ الْحَزْنِ . [٨] تُرِيدُ عَيْدُ اللَّهِ بْنِ زَيْدٍ وَرَجُلُهُ .
[٩] أَيُّ إِلَى بَزِيدٍ وَشَيْئَتُهُ . [١٠] نَطَفَ اللَّيْلُ كَنَصْرٍ وَضَرْبٍ : سَالَ ، وَنَطَفَ كَنَفْرَجٍ وَعَنِ :
تَطْلُعُ جَيْبٍ . [١١] تَحْلُبُ الْقُرُقُ : سَالَ ، وَتَحْلُبُ يَدُهُ عَرَفًا : سَالَ عَرَقُهُ . [١٢] الزَّوَاكِي جَمْعُ
زَوَاكِيَةٍ مِنْ زَكَاءٍ إِذَا صَلَحَ وَتَمَّ ، وَاعْتَامَ : أَخَذَ الْعِيَةَ بِالْكَسْرِ وَهِيَ خِيَارُ اللَّذَلِ ، وَعَسَلُ الْقَتَبِ عَسْلَانُ كَجَرِي
جَرِيَانًا : أَعْنَقَ وَأَسْرَعَ ، وَالنَّاسِلُ : الْقَتَبُ وَجِهَهُ كَرَكٌ وَغَوَاسُ ، وَالرَّادُ هُنَا مَعْنَى الْجَمْعِ لِلصُّدُورِ ، أَيُّ
خُذِيَانِ الْقَلَوَاتِ ، وَلَمْ أَجِدْ فِي كُتُبِ الْفَنِّ لِمَا لَسَلُ جَمْعًا غَيْرَ هَذَيْنِ ، إِلَّا أَنْ يَرَادَ بِالْمَصْدَرِ الْوَصْفُ .
[١٣] كُنْتِيتُ .

يا بن مرجانة ، ويستصرخ بك ، وتماوى وأتباعك عند الميزان ، وقد وجدت أفضل زادٍ زودك معاويةً قتلك ذرية محمد صلى الله عليه ، فوالله ما اتقيت^(١) غير الله ، ولا شكواى إلا إلى الله ، فكذلك ، وأسع سعيك ، وناصب جهذك^(٢) ، فوالله لا يرحض عنك قار ما أتيت إلينا أبداً ، والحمد لله الذى ختم بالسعادة والمنفرة لسادات شبان الجنان ، فأوجب لهم الجنة ، أسأل الله أن يرفع لهم الدرجات ، وأن يوجب لهم المزيد من فضله ، فإنه ولى قدير .

(بلاغات النساء ص ٢٥)

١٢٣ — رثاء الحسين لأخيه الحسن عليهما السلام

وقال الحسين بن على عند قبر أخيه الحسن ، عليهما السلام :

« رَحِمَكَ اللهُ أَبَا مُحَمَّدٍ ، إِنْ كُنْتَ لِنَاصِرِ الْحَقِّ مَظَانَهُ^(٣) ، وَتَوَثَّرَ اللهُ عِنْدَ تَدَاخُصِ^(٤) الْبَاطِلِ ، فِي مَوَاطِنِ التَّقِيَّةِ بِحُسْنِ الرُّوِيَّةِ ، وَتَسْتَشِفَّ^(٥) جَلِيلَ مَعَاطِلِ الدُّنْيَا بَيْنَ لَهَا حَاقِرَةٍ ، وَتَقْبِضُ عَلَيْهَا يَدًا طَاهِرَةً الْأَطْرَافِ ، نَقِيَّةَ الْأَسْرِ^(٦) ، وَتَرْدَعُ بِإِدْرَةِ غَرْبِ أَعْدَائِكَ ، بِأَيْسَرِ الْمُتُونَةِ عَلَيْكَ ، وَلَا غَرَمَ وَأَنْتَ ابْنُ سُلَالَةِ النَّبَوَةِ ، وَرَضِيعُ لِبَانِ الْحِكْمَةِ ، فَإِلَى رَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَجَنَّةٍ نَعِيمٍ ، أَعْظَمَ اللهُ لَنَا وَلَكُمْ الْأَجْرَ عَلَيْهِ ، وَوَهَبَ لَنَا وَلَكُمْ السَّلَوةَ وَحُسْنَ الْأَسَى^(٧) عَنْهُ .

(عيون الأخبار ٢٠٢ : ص ٣١٤)

[١] أى لا أغتف إلا الله . [٢] ناصبه المدواة : أظهر حاله .

[٣] فى الأصل « لتناصر » بالياء وأراء بالتون ، وقوله « مظانه » أى فى مظانه ، أو هو بدل .

[٤] هى تعامل من الضحض ، دحض برجله كنع : غس بها ، ودحضت رجله : زلقت ، والاعنى : عند تطلعن

الباطل ومناجاة بضه بضاً . [٥] استشفه : نظر ما وراءه . [٦] الأسرة جمع سرار ككتاب :

الخطوط التى تبدو فى ظاهر اليد والجبهة . [٧] الأسى بضم الهززة وكسرها جمع أسوة بالقم والكسر

أيضاً : مما يمتزى به .

١٢٤ — عبد الله بن هاشم بن عتبة وعمر بن العاص في مجلس معاوية

روى المسعودي في مروج الذهب قال :

« لما قُتِلَ عَلَى كَرَمِ اللَّهِ وَجْهُهُ ، كَانَ فِي نَفْسِ مَعَاوِيَةَ مِنْ يَوْمِ صِفِّينَ عَلَى هَاشِمِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ الْمِرْقَالِ وَلِوَلَدِهِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ هَاشِمٍ إِحْسَنٌ ، فَلَمَّا اسْتَعْمَلَ مَعَاوِيَةُ زِيَادًا عَلَى الْعِرَاقِ ، كَتَبَ إِلَيْهِ : « أَمَا بَعْدَ : فَانْظُرْ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ هَاشِمِ ابْنَ عُتْبَةَ فَشُدَّ يَدُهُ إِلَى عُنُقِهِ ، ثُمَّ ابْسُتْ بِهِ إِلَى » ؛ فَحَمَلَهُ زِيَادٌ مِنَ الْبَصْرَةِ مُقَيَّدًا مَقْلُوبًا إِلَى دِمَشْقَ ، وَقَدْ كَانَ زِيَادٌ طَرَفَهُ بِاللَّيْلِ فِي مَنْزِلِهِ بِالْبَصْرَةِ ، فَدَخَلَ إِلَى مَعَاوِيَةَ ، وَعِنْدَهُ عُمَرُو بْنُ الْعَاصِ ، فَقَالَ مَعَاوِيَةُ لِعُمَرُو بْنِ الْعَاصِ : هَلْ تَعْرِفُ هَذَا ؟ قَالَ : لَا . قَالَ : هَذَا الَّذِي يَقُولُ أَبُوهُ يَوْمَ صِفِّينَ ^(١) :

إِنِّي شَرَيْتُ النَّفْسَ لَمَّا اعْتَلَا وَأَكْثَرَ الْأَوَمَ وَمَا أَقْلًا ^(٢)
أَعُورُ يَبْنِي أَهْلَهُ حَمَلًا قَدْ عَالَجَ الْحَيَاةَ حَتَّى مَلَأَ ^(٣)
لَا بَدَّ أَنْ يَقُلَّ أَوْ يُقْلَّ يَتْلَهُمْ بِذِي الْكُؤُوبِ تَلًا ^(٤)
لَا خَيْرَ عِنْدِي فِي كَرِيمٍ وَلَّى

[١] وذلك أن عمار بن ياسر جاء إلى هاشم بن عتبة (وكان هاشم أعور ، قُتِلَ مِنْهُ يَوْمَ الْيَوْمِكَ بِالشَّامِ) قَالَ : يَا هَاشِمُ ، أَعُورًا وَجِنَا لَا خَيْرَ فِي أَعُورٍ لَا يَفْضِي الْبَاسَ ، لِرَكْبِ يَاحَاشِمَ ، فَرَكِبَ وَمَضَى . وَهُوَ يَرْجِزُ : إِنِّي شَرَيْتُ النَّفْسَ . . . الخ وعمار يقول : تقدم ياهاشم ، الجنة تحت ظلال السيوف ، والموت تحت أطراف الأسل ، وقد فتحت أبواب السماء ، وترفت الحور العين ، اليوم أتني الأخية عمدا وحزبه . [٢] شريت النفس : أي بسنها في سبيل الله ، واعتله : تحبب إليه (أي ادعى ذنباً لم يفعل) ، وقاطعه ضيق عمار بن ياسر ، ففنى لما اعتل أي لما دامني عمار بالجبن .

[٣] يبنى أهله عملاً أي يبني عمل أهله أي يطلب مصير أهله الذين استشهدوا في سبيل الله فشكلوا جنات الخلد ، فهو يبني إقامتهم والاجتماع بهم هناك . [٤] يغل : يهزم وينقلب ، وقته صرعه أو ألقاه على عنقه وخدعه (وفي الأصل : أسلمهم بذى الكؤوب سسلاً وهو تحريف ، إذ رواية الطبري ، وابن الأثير يتلهم بالباء ، أو هو صحيح على معنى : أسل أرواحهم وانزعها) ، وذو الكؤوب : الزمخ ، وكؤوب الرمح : النواشر في أطراف الأنايب .

فقال عمرو ومثلا :

وقد يَبْتُ المَرْعى على دِمَنِ الثَّرى وتبقى حَزازاتُ النفوس كماها (١)
« دونك يا أمير المؤمنين الضبُّ الضبُّ » (٢) ، فاشْتَبُ أَوادُجَه (٣) على أسباجه (٤) ،
ولارْدَه إلى أهل العراق ، فإنه لا يصبر على النفاق ، وم أهل عَذَرٍ وشقاق ، وحزبُ
إبليسَ ليومِ هَيَجَانِه ، وإن له هَوًى سَيُودِيه (٥) ، ورأيا سَيُطْفِيه (٦) ، وَبِطَانَه
سَتُقَوِيه ، وَجَزاءَ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا .

فقال عبد الله : « يا عمرو إن أَقْتَلَ فَرَجْلُ أسْلَمَه (٧) قومَه ، وأدركه يومَه ،

[١] الثمن جمع دمنة وهي ما اسود من آثار الدار بالبر والرماد وغيرها ، وقد تَمَلَّ بهذا البيت زفر بن
الحارث الكلابي في قصيدة قالها ، وقد قتل ابتداء يوم وقعة مرج راجطه التي نشبت بعد موت معاوية الثاني
بين مروان بن الحكم وبين من خالف على الأموية ودعا إلى الزيرية من الضحاك بن قيس الغفري وأتباعه
ومنهم زفر الكلابي ، وقد دارت عليهم الدائرة ، وقتل الضحاك « انظر تاريخ الخبزي ، ومروج الذهب ،
والقصد الفريد » .

[٢] الضبُّ : حيوان برى يشبه الورل ، وهو يتلون ألوانا بغير الشمس كما تتلون الحرياء ، وقد ضرب
به للثل فقالوا : « أخذ من ضبِّ » ، وذلك أنهم كانوا يصيدونه ، فيأتي الحارث (حرس الضبِّ
واحتشده : صاده) ويحرك يده على باب جحره ليظه حية فيخرج ذنبه ليضربها فيأخذه ، ولكن الضبُّ
شديد الحذر فإنه يمد يذنبه باب جحره ليضرب به حية أو شيئا آخر إن جاءه ، فيجني المحترش ، فإن
كان الضبُّ مجربا أخرج ذنبه إلى نصف الجحر ، فإن دخل عليه شيء ضربه والا بقي في جحره ، فهذا هو
خدعه - يذود به شدة حذره - وقيل إن معناه أن جحره قلما يخلو من غريب ، لما بينها من الألفة
والاستقامة بها على المحترش ، فإذا أدخل المحترش يده لفتقه وأنشدوا :

وأخذ من ضب إذا جاء حارث أعمد له عند القنابة عقربا

ويقولون : « فلان خبَّ ضبِّ » (والحبُّ بالفتح ويكسر الخادع) فيشبهون الحقد الكامن في قلبه الذي
يسرى ضرره ، بمنح الضبِّ في جحره (ومن أمثالهم فيه أيضا) « أعق من ضبِّ » - يريدون الأتقي ،
وعقوفها أنها تأكل أولادها ، وذلك أن القبة إذا باضت حرست بيضها من كل ما قدرت عليه من وول
وجة وغير ذلك ، فإذا قبت أولادها ، وخرجت من البيض ، ظنتها شيئا يريد يعضها ، فوثبت عليها
تقلها ، فلا ينبو منها إلا الفريد - وقالوا : « أقعد من ذنب الضبِّ » ذكروا أن فيه إحدى وعشرين
فعدة - « وأبين من ضب » ، « وأبلج من ضب » ، « وأحيا من ضب » - أي أطول عمرا .

[٣] الأوداج جمع وذج بالتحريك : مرق في الفتق ، وشخبت أوداج القتل دما من باب قتل ونقع :
جرت ، وشخب ابن وكل مائع : درّ وساء ، وشخبت أنا يتعدى ولا يتعدى .

[٤] الأسباج جمع سبجة « كفرصة » وسبجة الفيض لفته - بفتحته .

[٥] أي وإن له ميلا إلى آل علي سيهلكه . [٦] طنى : جاوز القدر وارتفع وغلا في الكفر
وأسرف في العاصي والظلم . [٧] خفله .

أَفَلَا كَانَ هَذَا مِنْكَ إِذْ تَحِيدُ عَنِ الْقِتَالِ ، وَنَحْنُ نَدْعُوكَ إِلَى التَّزَالِ ، وَأَنْتَ تَلُودُ بِشِمَالِ النَّطَافِ ^(١) ، وَعَقَاتِقِ الرَّصَافِ ^(٢) ، كَالْأَمَةِ السُّودَاءِ ، وَالنَّمَجَةِ الْقَوْدَاءِ ^(٣) لَا تَدْفَعُ يَدَ لَامِسٍ .

فَقَالَ عَمْرُو : « أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ وَقَعْتَ فِي لَهَازِمٍ ^(٤) شَدَقَمٍ لِلْأَقْرَانِ ذِي لِبَدٍ ، وَلَا أَحْسَبُكَ مُنْقَلَبًا مِنْ غَخَالِبِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ » .

فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ : « أَمَا وَاللَّهِ يَا بَنَ الْعَاصِ ، إِنَّكَ لَبَطَرٌ فِي الرِّخَاءِ ، جَبَانٌ عِنْدَ اللَّقَاءِ ، غَشُومٌ ^(٥) إِذَا وَلِيْتَ ، هَيَّابٌ إِذَا لَقِيتَ ، تَهْدِرٌ ^(٦) ، كَمَا يَهْدِرُ الْعَوْدُ الْمُنْكَوسُ ، الْمُقِيدُ بَيْنَ تَجَرِي الشَّوْلِ ، لَا يُسْتَعْجَلُ فِي الْمُدَّةِ ، وَلَا يُزْتَجَى فِي الشَّدَّةِ ، أَفَلَا كَانَ هَذَا مِنْكَ ، إِذْ تَعْمَرُكَ أَقْوَامٌ لَمْ يُنْتَفَوْا صِنَارًا ، وَلَمْ يُمَزَّقُوا كِبَارًا . لَهُمْ أَيْدٍ شِدَادٌ ، وَالسِّنَةُ حِدَادٌ ، يَدْعُمُونَ الْعَوَجَ ^(٧) ، وَيَذْهَبُونَ الْحَرَجَ ^(٨) ، يُكْثِرُونَ الْقَلِيلَ ، وَيَشْفُونَ الْقَلِيلَ ، وَيُمَزُّونَ الذَّلِيلَ ؟ »

[١] النطاف جمع نطفة (كفرصة) وهي الماء الملقاح ، قل أو كثر ، وفي الحديث « قطعنا اليهم هذه النطفة » أي البحر وماءه ، وفي حديث علي : « وليهلها عند النطاف والأعصاب » يعني الأبل والماشية . يريد أنها إذا وردت على المياه والمشب يدفعها لترد وترعى .

[٢] الرصافة بالتحريك : المجاورة التي يرصف بعضها إلى بعض في ميل فيجمع فيها ماء المطر ، والنقائق : القدران . يقال لكل ميل شفه ماء السيل فأظهره ووسمه عقيق ، والجمع أعققة وعقائق ، وتيل العقائق هي الرمال الخمر . [٣] مؤت الأقدود وهو القول المنقاد .

[٤] جمع لهزم بكسر وهوا القاطع من السنة ، والتدقم الأسد ، والواسع التدقم ، وشدقم للأقران أي أسد منبج للأقران ، وأبعد جمع لبد بالكسر ، ولبد الأسد ما تلبد من شعره على منكبيه ، وكنيته « ذو لبد » ويكنى أيضا أبا الأبطال ، وأبا شبل ، وأبا العباس ، وأبا الحارث ، وأبا حفص ، وأبا الزعفران .

[٥] ظلم غشه كفره غشما ظلمه . [٦] هدر البير وهذر بالشد صوت ، وفي المثل « كالهدر في السنة » والسنة بضم الين وتشديد التو : الحظيرة ، يضرب لمن يصبح ويحلب ولا ينفذ قوله ولا فله ، كالبيير يحبس في الحظيرة ممنوعا من الضراب وهو يهدر ، والود : اللسان من الأبل ، والمنكوس الذي طأه المرض بمدلقه ، والشول جمع شائلة ، وهي من الأبل ما آلت عليها من حملها أو وضعا سجة أشهر نجف لبها .

[٧] الموج بالفتح في كل ما كان منتصبا مثل الإنسان والصا والود وشبهه ، والموج بالكسر ما كان في بساط أو أرض أو مائش أو دين ، وقيل بالفتح مصدر وبالكسر اسم منه ، ودمه (كتمه) مال فأفقه .

[٨] حرج صدره كفرح حرجا ضاق .

فقال عمرو : « أما والله لقد رأيت أباك يومئذ تحفُّق^(١) أحشائه ، وتَبُق^(٢) أمعائه ، وتضطرب أصلاؤه^(٣) ، كأنما انطبق عليه صُمد^(٤) »

فقال عبد الله : « يا عمرو ، إنا قد بلَوْنَاكَ ومقاتلك ، فوجدنا لسانك كَذُوبًا غادرًا ، خلوت بأقوام لا يعرفونك ، وجندٍ لا يسأمونك ، ولورمتَ المنطق في غير أهل الشام ، لَجَحَظَ^(٥) إليه عَقْلُكَ ، وتلجلج لسانُك ، ولاضطرب يَفْذَاكَ اضطراب القعود^(٦) الذي أثقله حمله . »

فقال معاوية : « إيهما^(٧) عنكا ، وأمر بإطلاق عبد الله ، فقال عمرو لمعاوية :
أَمَرْتُكَ أَمْرًا حازمًا فَعَصَيْتَنِي وَكَانَ مِنَ التَّوْفِيقِ قَتْلُ ابْنِ هَانِمٍ
أليس أبوه (يا معاوية) الذي أَعَانَ عَلَيَّا يَوْمَ حَزْرَةِ الْأَصْلَامِ^(٨)
فلم يَنْتَنِي حَتَّى جَرَّتْ من دماننا بِصِفَيْنِ أَمْثَالُ الْبُحُورِ الْخَضَارِمِ^(٩)
وهذا ابْنُهُ ، والمرءُ يُشَبِّهُ سِنَخَهُ وَيُوشِكُ أَنْ تَقَرَّعَ بِهِ سِنَّ نَادِمِ^(١٠)
فقال عبد الله يحييه :

مُكَاوِي : إِنَّ الْمَرْءَ عَمْرًا أَبَتْ لَهُ صَنِيعَتُهُ صَدْرَ غِشٍّ غَيْرُ نَائِمٍ

[١] اضطرب . [٢] تخرج ، بقى التبت بقوا : طلع . [٣] جمع صلا بالفتح وهو وسط الظهر من الإنسان ومن كل ذى أربع ، وقيل هو ما انحدر من الوركين . [٤] ضد جرحه : شده بالضاد والضادة (بالكسر) أى المصابة ، والجمع ضد ككتب .

[٥] من جحظ العين جحوظا إذا برزت عفتها ، ولراد اضطرب عفاك وشرد ولم يسل لك قياد التفكير . [٦] القعود من الإيل الذى يقتضيه الراعى فى كل حاجة . [٧] أمر بالكوت .

[٨] التلامع جمع ضامة يفتح الثين والصاد ، وهى رأس الملقوم — الوضع الثانى فى الحلق — أو أصل الحلق . [٩] الخضارم جمع خضرم بكسر الخاء والراء : البحر العظيم . وإنبات الياء فى ينى مع الجازم لنة أو للضرورة أو إشباع والحرف الأصلى محذوف للجازم .

[١٠] قرع ثلاث سنه : حرته نعماء (حرق نابه — كنعصر وضرب — سحقه حتى سمع لصريف) وسكن الفل للضرورة ، والسنخ الأصل من كل شئ . (وفى الأصل شيخه وهو تصحيف)

يَرَى لَكَ قَتْلِي (يَا بَنَ هِنْدٍ) وَإِنَّمَا
عَلَى أَنَّهُمْ لَا يَقْتُلُونَ أُسِيرَهُمْ
يَرَى مَا يَرَى عَمْرُو مُلُوكُ الْأَعَاجِمِ
إِذَا مُنِعَتْ مِنْهُ عَهْدُ الْمُسَالَمِ
وَقَدْ كَانَ مَنَا يَوْمَ صِفَيْنَ نَفَرَةً
عَلَيْكَ جَنَاهَا هَاشِمُ وَابْنُ هَاشِمٍ^(١)
قَضَى مَا تَقْضَى مِنْهَا، وَلَيْسَ الَّذِي مَضَى
وَلَا مَا جَرَى إِلَّا كَأَصْفَاتِ عَالِمٍ^(٢)
فَإِنْ تَعَفُّ عَنِّي تَعَفُّ عَنِ ذِي قَرَابَةٍ
وَإِنْ تَرَ قَتْلِي تَسْتَحِلُّ تَحَارِي^(٣)
فَقَالَ مَعَاوِيَةُ :

أَرَى الْعَفْوَ عَنْ عَلِيٍّ قَرِيشٍ وَسَيْلَةٍ
وَلَسْتُ أَرَى قَتْلَ الْمُدَّةِ ابْنِ هَاشِمٍ
إِلَى اللَّهِ فِي الْيَوْمِ الْعَصِيبِ الْقُمَاطِرِ^(٤)
يَادِرَاكِ ثَارِي فِي لُؤَيٍّ وَعَاطِرِ^(٥)
بَلِ الْعَفْوُ عَنْهُ بَعْدَ مَا بَانَ جُرْمُهُ
وَزَلَّتْ بِهِ إِحْدَى الْجُدُودِ الْمَوَاتِرِ
وَكَانَ أَبُوهُ يَوْمَ صِفَيْنَ جَمْرَةً
عَلَيْنَا فَأَرَدْتَهُ رِمَاحُ نَهَابِرٍ^(٦)
١٢٥ -- عَبْدُ اللَّهِ بْنُ هَاشِمٍ فِي مَجْلِسِ مَعَاوِيَةَ

وحضر عبد الله بن هاشم ذات يوم مجلس معاوية ، فقال معاوية :
« مَنْ يُخْبِرُنِي عَنِ الْجُودِ وَالنَّجْدَةِ وَالْمُرُوءَةِ ؟ » فقال عبد الله : « يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ،
أَمَّا الْجُودُ : فَابْتِذَالُ الْمَالِ ، وَالْمُطِيعَةُ قَبْلَ السُّؤَالِ ؛ وَأَمَّا النَّجْدَةُ : فَالْجَرَاءَةُ عَلَى

[١] نَرِ الْقَوْمَ كَتَحَ هَاجُوا وَاجْتَمَعُوا فِي الْحَرْبِ ، وَنَرِ الرَّجُلَ خَافَ ، وَفِي الْأَصْلِ « عَمْرٌ » وَهُوَ تَمْصِيفٌ . [٢] قَضَى : مَاتَ وَخَضَعَ ، وَأَصْفَاتُ حَالٍ : رُؤْيَا لِأَيِّحَ تَأْوِيلُهَا لِإِخْتِلَافِهَا .

[٣] كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ هَاشِمٍ مِنْ أَقْرَبَاءِ مَعَاوِيَةَ لِذِهِ ابْنُ هَاشِمٍ بْنُ عَنِيَّةَ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ مَاتَ بْنِ وَهَبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ بْنِ زُهْرَةَ بْنِ كَلَابٍ ، وَمَعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سَفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ بْنِ أُمَيَّةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ بْنِ قُصَيٍّ بْنِ كَلَابٍ بْنِ مَرَّةَ بْنِ كَسْبٍ بْنِ لُؤَيٍّ ، فَهُوَ يَجْتَمِعُ مَعَ مَعَاوِيَةَ فِي جَنَةِ كَلَابٍ .

[٤] يَوْمَ عَصِيبٍ : شَدِيدٍ ، وَيَوْمَ قُمَاطِرٍ وَقَطْرِيرٍ شَدِيدٍ أَيْضًا . [٥] الْمُدَّةُ جَمْعُ طَادٍ وَهُوَ الْعَدُوُّ وَلُؤَيٌّ هُوَ الْجَدُّ النَّاسِحُ لِمَعَاوِيَةَ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ هَاشِمٍ (وَالْجَدُّ الثَّلَاثُونَ قَتْلِي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ) وَعَاطِرٌ هُوَ ، طَاعِرٌ بْنُ لُؤَيٍّ . [٦] النَّهَابِرُ : لِلْعَمَّاكِ جَمْعُ نَهْبَةٍ بِضَمِّ النُّونِ وَالْبَاءِ وَكُنَّا لِلنَّهَابِرِ جَمْعُ نَهْبَةٍ .

الإقدام ، والصبر عند ازورار الأقدام^(١) . وأما المروءة فالصلاح في الدين ، والإصلاح للحال ، والمحاماة عن الجار . (مروج الذهب ٢ : ٥٧)

قيس بن سعد بن عبادة ومعاوية

ودخل قيس بن سعد بن عبادة بعد وفاة عليٍّ ووقوع الصلح ، في جماعة من الأنصار على معاوية ، فقال لهم معاوية :

١٢٦ — مقال معاوية

« يا معشر الأنصار ، بِمَ تطلبون ما قبلي ؟ فوالله لقد كنتم قبلا معي ، كثيراً مع عليٍّ ، ولقد قلّتم حدّي يوم صفين ، حتى رأيت المنايا تلغى^(٢) في أسننكم ، وهجوتوني في أسلافي بأشدّ من وقع الأسنة ، حتى إذا أقام الله منا ما حاولتم ميّله ، قلتم ازعّ فينا وصية رسول الله^(٣) صلى الله عليه وسلم ، هيهات يا بني الحقير الفدرة . »

١٢٧ — رد قيس بن سعد

فقال قيس : « نطلب ما قبلك بالإسلام الكافي به الله ، لا بما نمتّ به إليك من الأحزاب . وأما عدلوتنا لك فلو شئت كففتها عنك . وأما هجاؤنا إليك فقول يزول باطله ، ويثبت حقه . وأما استقامة الأمر فعلى كثره كان منا . وأما قلنا حدّك يوم صفين ، فإنّا كنا مع رجل نرى طاعته لله طاعة ، وأما وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم بنا ، فن آمن به رعاها بعده . وأما قولك يا بني الحقير

[١] أى عند انمراحها وتزلزلها . [٢] تلغى أى تذهب . [٣] وقد وصى عليه الصلاة والسلام بأن يحسن إلى محسنهم ، ويجاوز عن سيئهم .

القدرة ، فليس دون الله يد تحجزك منا يا معاوية .

فقال معاوية يومئذ : « ارفموا حوائجكم » .

(مروج الذهب ٢ : ٦٣ ، والحد الفريد ٢ : ١٢١)

١٢٨ — معاوية وصعصعة بن صوحان وعبد الله بن الكواء

روى السمودي في مروج الذهب قال :

حبس معاوية صعصعة بن صوحان العبدى ، وعبد الله بن الكواء اليشكري .
ورجالاً من أصحاب علي ، مع رجال من قريش ، فدخل عليهم معاوية يوماً ، فقال :
« نشدكم بالله إلا ما قلتم حقاً وصدقاً ، أى الخلفاء أيتمونى ؟ » فقال ابن
الكواء : « لولا أنك عَزَمْتَ علينا ما قلنا ، لأنك جبار عنيد ، لا تراقب الله في
قتل الأخيار ، ولكننا نقول : إنك - ما عَلِمْنَا - واسع الدنيا ضيق الآخرة ^(١) ،
قريب الثرى بعيد المرعى ^(٢) ، تجعل الظلمات نوراً ، والنور ظلمات » . فقال
معاوية : « إن الله أكرم هذا الأمر بأهل الشام ، الذائين عن بيضته ، التاركين
لمحارمه ، ولم يكونوا كأمثال أهل العراق ، المتهمكين لمحام الله ، والمُحِلِّين ما حَرَّمَ
الله ، والمَحَرِّمِينَ ما أَحَلَّ الله » . فقال عبد الله بن الكواء : « يابن أبى سفيان ،
إن لكل كلام جواباً ، ونحن نخاف جَبَرُوتَكَ ، فإن كنت تُطَلِّقُ ألسنتنا ذَيْنَا
عن أهل العراق ، بالسنة حِداد ، لا يأخذها فى الله لومة لائم ، وإلا فإننا صابرون
حتى يحكم الله ويضعنا على فَرَجِهِ » . قال : « والله لا يُطَلِّقُ لك لسان » .
ثم تكلم صعصعة فقال : « تكلمت يابن أبى سفيان فأبْلَمْتَ ، ولم تُقْصِرْ

[١] أى إنك ذو حظ وافر فى الدنيا وليس لك من ثواب الآخرة من نصيب .

[٢] قريب الثرى : قريب المالوف الثرى : أى قريب الأجل ، ويبعد الرمي كناية عن أنه بعيد
الأمل ، وللعنى أنك واسع الآمال بعيد رمى الأمان ، مع يفتيك أن الارتفاع من هذه النار وشيك .

عما أردت ، وليس الأمر على ما ذكرت ، أتى يكون الخليفةَ مَنْ مَلَكَ النَّاسَ قَهْرًا ، ودانهم ^(١) كِبْرًا ، واستولى بأسباب الباطل كذبا ومكرًا ؟ أما والله مالِك في يوم بدر مَضْرَب ولا مَرَّتَى ^(٢) ، وما كنت فيه إلَّا كما قال القائل : « لَا حُلَّى وَلَا سِيرَى » ، ولقد كنت أنت وأبوك في العير والنَّفير ^(٣) بمن أُجْلِب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنما أنت طليق بن طليق ^(٤) ، أطلقكما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنت تصلح الخلافة لطليق ؟ » ، فقال معاوية : « لولا أنى أرجع إلى قول أبى طالب حيث يقول :

قَابَلْتُ جَهْلَهُمْ جِلْمًا وَمَعْفِرَةً وَالْعَفْوُ عَنْ قُدْرَةٍ ضَرَبَ مِنَ الْكَرَمِ
لَقَتْلِهِمْ » . (مروج الذهب ٢ : ٧٨)

١٢٩ — صعصعة بن صوحان ومعاوية

ودخل صعصعة بن صوحان على معاوية ، فقال له :
« يا بن صوحان ، أنت ذو معرفة بالعرب وبحالها ، فأخبرني عن أهل البصرة ، وإياك والحمل على قوم لقوم » . قال : « البصرة واسطة ^(٥) العرب ، ومُنْتَهَى الشرف

[١] دانه : ملكه وأذله واستعبده . [٢] أى مالِك ضرب ولا رمى .

[٣] العير الأبل تحمل الميرة ، والراد بها هنا عير قريش التى كان يقدما أبو سفيان بن حرب — وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تحين انصرافها من الشام — فلما دنا أبو سفيان من المدينة ، وعرف أن عيون رسول الله صلى الله عليه وسلم ترصده ساحل بيمه (أى بها الساحل) وترك يدا يسارا ، وقد كان بث إلى قريش حين فصل من الشام يخبرهم بما يخافه من محمد ، فأقبلت قريش من مكة ، فأرسل إليهم أبو سفيان يخبرهم أنه قد أحرز العير (أى حصنها) ويأمرهم بالرجوع ، فأبت قريش أن ترجع ، ورجعت بنو زهرة وعملوا إلى الساحل منصرفين إلى مكة ضادفهم أبو سفيان فقال : يا بني زهرة لا فى العير ولا فى النفير (فنفعت مثلاً) قالوا أنت أرسلت إلى قريش أن ترجع ، ومضت قريش إلى بدر فقاتلهم النبي وأظفروا الله بهم ، والنفير القوم يستقرون للحرب وهم هنا معركو مكة الذين خرجوا يستعصمون العير ، وكان رئيسهم عتبة بن ربيعة بن عبد شمس جد معاوية لأمه .

[٤] الطلقاء هم الذين عفا عنهم النبي صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة ، فقال لهم انذهبوا فأنتم الطلقاء .

[٥] هو على التشبيه بواسطة القدر وعلى الجوهرية الفارقة التى تجعل وسطه .

والسودد، وم أهل الخطط^(١) في أول الدهر وآخره، وقد دارت بهم سروات^(٢) العرب كدوران الرحي على قطبها، قال: فأخبرني عن أهل الكوفة، قال: «قبة الأئمة، وذروة الكلام، ومعان ذوى الأعلام - إلا أن بها أجلاقاً^(٣) تمنع ذوى الأمر الطاعة، وتخرجهم عن الجماعة - وتلك أخلاق ذوى الهيئة والقناعة». قال: فأخبرني عن أهل الحجاز، قال: «أسرع الناس إلى فتنة، وأضعفهم عنها، وأقلهم غناء^(٤) فيها، غير أن لهم ثباتاً في الدين، وتمسكاً بعروة اليقين، يتبعون الأئمة الأبرار، ويحملون الفسقة الفجار» فقال معاوية: من البرورة والفسقة؟ فقال: «يبن أبي سفيان، ترك الخداع، من كشف القناع، على أصحابه من الأئمة الأبرار، وأنت وأصحابك من أولئك». ثم أحب معاوية أن يعرض صمصمة في كلامه، بعد أن بان فيه النصب، فقال: أخبرني عن القبة الحمراء في ديار مصر^(٥)، قال: «أسد مضر بسلاء بين غيلين^(٦)، إذا

-
- [١] الخطط جمع خطة بالكسر: وهي الأرض تزل من غير أن يزولها تازل قبل ذلك، ومنه خطط الكوفة والبصرة، وقد خطها لنفسه واختطها وهو أن يعلم عليها علامة بالخط ليعلم أنه قد احتازها.
- [٢] السروات بالفتح: المروة في درف، سرو فهو سري وجهه أسرياء وسرواء كفضلاء والسرارة بالفتح اسم جمع ووجهه سروات. [٣] جمع جلف بالكسر وهو الرجل الجاني. [٤] غناء: كفاية [٥] ذكروا أن تزار بن ممد لما حضرته الوفاة جمع بينه: مضر، وليداد، وريمية، وأغاراء، فقال: يابني، هذه القبة الحمراء - وكانت من آدم - لمصر - وهذا الفرس الأدم والحجاء الأسود لريمية، وهذه الخادم - وكانت شطاء - لا ياد، وهذه البصرة (بالفتح): كيس فيه ألف أرعشرة آلاف درهم أو سبعة آلاف دينار (والجلس لأغار يجلس فيه، فإن أشكل عليكم كيف تحفسمون، فأثرو الأنفى الجرهمي، وسزله بنجران، ففتاحروا في ميراثه، فاختصموا إلى الأنفى الجرهمي، وهو حكم العرب، فقصوا عليه قصتهم، وأخبروه بما أوصى به يوم فقال: ما أشبه القبة الحمراء من مال فهو لمصر، فذهب بالذناير والابل الحمر، فسمى مضر الحمراء ففك، وقال: وأما صاحب الفرس الأدم والحجاء الأسود، فكل شيء أسود، فصارت لريمية الخيل الدم، وقيل ريمنة الفرس، وما أشبه الخادم الشطاء فهو لا ياد، فصار له المشاية البلق من الحلبق والنقد (الحلبق: يفتح الحاء والياء وتثنية اللام: غم صثار لا تكبر، أو صثار للز ودماها، والنقد كسب: جنس من الفم فيبع الشكل) فسمى إند الشطاء، وتقى لأغار بالفرام وبما فضل، فسمى أعمار الفضل فصدروا من عنده على ذلك. - معج الأئمة ١: ١٠.
- [٦] بسلاء جمع باسل: وهو الأسد والشطع والنيل بالكسر ويفتح: النجر الكثير اللطف والأجة.

أَرْسَلْتَهَا افْتَرَسَتْ، وَإِذَا تَرَكْتَهَا احْتَرَسَتْ. فقال معاوية : « هنالك يابن صوحان ، العز الرأسي ، فهل في قومك مثلُ هذا » ؟ قال : « هذا لأهله دونك يابن أبي سفيان ، ومن أحب قومًا خُشِرَ معهم » قال : فأخبرني عن ديار ربيعة ، وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الْجَهْلُ ، وسابقة الحمية بالتعصب لقومك ^(١) ، قال : « والله ما أنا عنهم براض ، ولكنني أقول فيهم وعليهم ، هم والله أعلام الليل ، وأذئاب في الدين والميل ، لن تُغْلِبَ رأيها إذا رُشِّحَتْ ، خوارج الدين ، برازخ اليقين ، من نصره فَلَجَ ^(٢) ، ومن خذلوه زَلَجَ ^(٣) » . قال : فأخبرني عن مضر ، قال : « كِنَانَةٌ ^(٤) العرب ، وَمَعْدِنُ العز والحسب ، يقذف البحر بها آذِيَةً ^(٥) ، وَالْبَرْ رَدِيَّةٌ ، ثم أمسك معاوية ، فقال له صعصعة : سَلِّ يَا معاوية ، وَإِلَّا أَخْبَرْتُكَ بِمَا تُحِيدُ عَنْهُ ، قال : وما ذاك يابن صوحان ؟ قال : « أهل الشام » ، قال : « فأخبرني عنهم » ، قال : « أطوع الناس لخلق ، وأعصام للخالق ، عُصَاة الجَبَّار ، وخِلَافَةُ ^(٦) الأَشْرَار ، فمليهم الدِّمَار ، ولهم سوء الدار » . فقال معاوية : « والله يابن صوحان ، إنك لحامل مُدْيَتِكَ منذ أزمان ^(٧) » . إِلَّا أَنْ حَلِمَ ابْنُ أَبِي سُفْيَانَ يَرُدُّ عَنْكَ ، فقال صعصعة : « بل أمر الله وقدرته ، إن أمر الله كَانَ قَدْرًا مقدورًا » .

(مروج الذهب ٢ : ٧٨)

١٣٠ — صعصعة بن صوحان وعبد الله بن عباس

وروي المسعودي في مروج الذهب أيضاً ، قال :

« عَنْ مَصْقَلَةَ بْنِ هُبَيْرَةَ الشَّيْبَانِيِّ قَالَ : سَمِعْتُ صَعْصَعَةَ بْنَ صُوحَانَ وَقَدْ

[١] وكان صعصعة من بني عبد القيس بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار .
[٢] فُلج على خصمه : ظفر وفاز . [٣] ذاق وزلَّ . [٤] الكِنَانَةُ في الأصل : جبة السهام .
[٥] الآذِيَّة : للوج . [٦] الخِلَافَةُ في الأصل : ما علق خلف الراكب ، والمراد بها هنا أتباع .
[٧] كِنَانَةٌ عن مجازها بالدعوة .

سأله ابن عباس : ما السُّودَدُ ^(١) فيكم ؟ فقال : « إطمأءن الطمام ، ولين الكلام ، وبَذَلْ التَّوَال ، وكفَّ المرء نفسه عن السؤال ، والتوؤدُّ للصنير والكبير ، وأن يكون الناس عندك شرماً ^(٢) » . قال : فما المُرُوءَةُ ؟ قال : « أخوان اجتماعا ، فإن أقيماً قهراً ^(٣) ، (وإن كان) حارسهما قليل ، وصاحبهما جليل ، محتاجان ^(٤) إلى صيانة ، مع تراهية وديانة » . قال : فهل تحفظُ في ذلك شرماً ؟ قال : نعم ، أما سمعتَ قولَ مُرَّةَ بْنِ ذُهَلٍ بنِ شَيْبَانَ حيث يقول :

إِنَّ السَّيَادَةَ وَالْمُرُوءَةَ عُمَلَقَا حَيْثُ السَّمَاءُ مِنَ السَّمَاءِ الْأَعَزَلُ ^(٥)
وَإِذَا تَقَابَلِ مُجْرِيَانِ لِنَايَةِ عَثَرَ الْمَحِينُ وَأَسْلَفَتِ الْأَرْجُلُ ^(٦)
وَيَجِي الصَّرِيحُ مَعَ الْفِتَاقِ مُعَوِّدَا قَرَبَ الْجِيَادِ فَلَمْ يَجِدْهُ إِلَّا فَكْلُ ^(٧)

في آيات . فقال له ابن عباس : لو أن رجلاً ضرب آباط ^(٨) إبله ، مُشْرِقاً وَمُغْرَباً لِفَائِدَةِ هَذِهِ الْآيَاتِ مَا عَقَفْتُهُ ، إنا منك يا بنِ صُوحَانَ لَمَلَى عِلْمٍ وَحَلَمَ وَاسْتَنْبَاطِ مَا قَدِ عَفَا ^(٩) من أخبار العرب ، فمن الحليم فيكم ؟ قال : « من مَلَكَ غَضَبُهُ فَلَمْ يَفْعَلْ ، وَسُمِّيَ إِلَيْهِ بِمُحَقٍّ أَوْ بَاطِلٍ ، فَلَمْ يَقْبَلْ ، وَوَجَدَ قَاتِلَ آيِهِ وَأَخِيهِ ، فَصَفَحَ وَلَمْ يَقْتُلْ ، ذَلِكَ الْحَلِيمُ يَا بَنَ عَبَّاسَ » . قال : فهل تجد ذلك فيكم كثيراً ؟ قال : « ولا

[١] السودد بفتح اللام غير مهموز ، والسؤدد بضم الدال مهموزاً والعبادة والعبود .

[٢] شرماً بكون الزاء وفتحها أى سواء . [٣] أى أنها قرنان عظيمتان لصاحبهما ، تهران مايلقاء من التنداء والصواب وقوله « وإن كان » أى وإن كان ما أتياه عظيماً ، ولله زيادة من خطأ النسخ أو الطباع . [٤] فى الأصل « لحاجان » وهو تحريف . [٥] السبا كان الأعزل والرامح : نيجان نيران ، وسمى أعزل لأنه لا شيء بين يديه من الكواكب كالأعزل الذى لا سلاح له . كما كان مع الرامح . [٦] فرس هجين إذا لم يكن حقيقاً كرمياً ، وأسلفته : خذلته . [٧] لم يجدّه إلا فكل أى لم تصبه الرعدة « ويلاحظ أن هذا الشعر عيباً من عيوب الغاية وهو الإقراء ، لأن حركة الروى فى البيت الأول كسر ، وفى الثانى والثالث ضم ، وقد وقع فى شعر النابتة الديانى ، وحنان بن ثابت ، وبشر بن أبى خازم » . [٨] آباط جمع إبط كحل ١٠ إبل : باطن للتعب . [٩] درس وإمعى .

قليلًا ، وإنما وصفت لك أقوامًا ، لا تجدم إلا خاشعين راهبين ، لله مُريدن ، يُبيلون ولا ينالون ، فأما الآخرونَ فإنهم سبقَ جهلهم حلمهم ، ولا يبالي أحدٌ (إذا ظفرَ ببعيته) حين الحفيظة ^(١) من كان ، بعد أن يدرك زعمه ، ويقضى بُغيته ، ولو وترَّه أبوه لقتل أباه ، أو أخوه لقتل أخاه ، أما سمعت إلى قول ريان ابن عمرو بن ريان ، وذلك أن عمرًا أباه قتله مالك بن كومة ، فأقام ريان زمانًا ثم غزا مالكا ، فأتاه في مائتي فارس صباحا ، وهو في أربعين بيتا ، فقتله وقتل أصحابه وقتل عمه فيمن قتل ، - ويقال بل كان أخاه - وذلك أنه كان جاورهم ، فقيل لريان في ذلك : قتلت صاحبنا ، فقال :

فلو أُمِّي تَقَفْتُ بِمَيْتُ كَانُوا لَبَلَّ ثِيَابَهَا عَلَقُ صَيْبٍ ^(٢)
ولو كانت أُمِّيَّةُ أُخْتُ عمرو بهذا الماء ، ظَلَّ لها نَجِيبُ
شَهَرَتِ السَّيْفُ فِي الْأَذْيَانِ مَنَى ولم تَمُطِفْ أَوَاصِرَنَا قُلُوبُ ^(٣)

فقال ابن عباس : من الفارسُ فيكم ؟ حَدُّ لِي حَدًّا أَسْمَعُهُ مِنْكَ ، فَإِنَّكَ تَضَعُ الْأَشْيَاءَ مُوَاضِعَهَا يَا بَنَ صُوحَانَ ، قَالَ : « الْفَارِسُ مَنْ قَصُرَ أَجَلُهُ فِي نَفْسِهِ ، وَضَعَهُ ^(٤) عَلَى أَمَلِهِ بِضِرْسِهِ ، وَكَانَتْ الْحَرْبُ أَهْوَى عَلَيْهِ مِنْ أَمْسِهِ ، ذَلِكَ الْفَارِسُ إِذَا وَقَدَتْ ^(٥) الْحُرُوبُ ، وَاشْتَدَّتْ بِالْأَقْسِ الْكُرُوبُ ، وَتَدَاعَوْا لِلنَّزَالِ ، وَتَرَاخَفُوا لِلْقِتَالِ ، وَتَخَالَسُوا الْمُهْجَ ^(٦) ، وَاقْتَحَمُوا بِالسُّيُوفِ اللَّجَجَ » ، قَالَ :

-
- [١] الجية والنضب . [٢] ثغفه كسمه : صاده ، واللق : الدم أو الشديد المرة ، وصيب : أى مصوب . [٣] أواصر جمع أصره وهى اقترابة وحبل صغير يشده أسفل الجباء . [٤] ضنبه كنعضه . [٥] وقتت النار (كوعد) توقدت . [٦] المهج جمع مهجة وهى الروح ، وتخالساها تبادلوا اخلاساها واستلهاها .

أَحْسَنَتْ وَاللَّهُ يَا بَنَ صُوحَانَ ، إِنَّكَ لَسَلِيلُ أَقْوَامٍ كِرَامٍ ، خُطْبَاةٌ فُصَحَاءُ ، مَا وَرِثَتْ
هَذَا مِنْ كَلَالَةٍ ^(١) ، زِدْنِي ، قَالَ : « نَعَمْ ، الْفَارِسُ كَثِيرُ الْحَذَرِ ، مُدِيرُ النَّظَرِ ،
يَلْتَفِتُ بِقَلْبِهِ ، وَلَا يَدِيرُ خَرَزَاتِ صُلْبِهِ ^(٢) » . قَالَ : أَحْسَنَتْ وَاللَّهُ يَا بَنَ صُوحَانَ
الْوَصَفَ ، فَهَلْ فِي مِثْلِ هَذِهِ الصِّفَةِ مِنْ شَعْرٍ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، لَزْهَرِ بْنِ جَنَابِ
الْكَلْبِيِّ ^(٣) يَرَى ابْنَهُ عَمْرًا حَيْثُ يَقُولُ :

فَارِسُ تُكَلَّلُ الصَّحَابَةُ مِنْهُ بِحُسَامٍ يَمُرُّ مَرَّ الْحَرِيقِ ^(٤)
لَا تَرَاهُ لَدَى الْوَعْيِ فِي مَجَالٍ يُغْفِلُ الضَّرْبَ لَا وَلَا فِي مَضِيقٍ
مَنْ يَرَاهُ يَخْلُهُ فِي الْحَرْبِ يَوْمًا أَنَّهُ أَخْرَقَ مُضِلُّ الطَّرِيقِ ^(٥)

فِي آيَاتٍ ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ : فَأَيْنَ أَخْوَاكَ مِنْكَ يَا بَنَ صُوحَانَ ؟ صِفْهُمَا لِأَعْرِفَ
وَرِثَتَهُمَا ، قَالَ : أَمَّا زَيْدٌ فَكَأَنَّ قَالَ أَخُو غَنَى ^(٦) .

فَتَى لَا يُكَلِّي أَنْ يَكُونَ بَوَاجُهُ (إِذَا نَالَ خَلَّاتِ الْكِرَامِ) شُحُوبٌ ^(٧)
إِذَا مَا تَرَاهُ الرِّجَالُ تَحْفَظُوا فَلَمْ يَنْطَقُوا الْمَوْرَاءَ وَهُوَ قَرِيبٌ ^(٨)

[١] تقول العرب : لم يرته كلاله أي لم يرته عن عرض بل من قرب واستحقاق ، قال الفرزدق :

ورثتم قناة الملك غير كلاله عن ابني مناف عبد شمس وهاشم

والكلاله ما لم يكن من النسب لما ، ويؤى العم الأبعد ، وحكى عن أعراق أنه قال : مالي كثير ويرثي كلاله
متراخ نسبهم ، بكل وادى ليس بوالد للبيت ولا ولد له فهو كلاله مودونه . [٢] أى فقرات ظهوره .

[٣] شاعر جاهلي وهو أحد المعمرين . [٤] كلاله : حفظه وحرصه .

[٥] الأخرق : الأحمق ، أما قوله في أول البيت « من يراه » فهو مثل : « ألم يأتيك والأنباء تنمى »
ومثل : « كأن لم ترى قبلي أسيرا يائسا » . الخ ، وقد قال النحويون في ذلك إن إثبات حرف الهمزة
مع الجازم لغة ، وقيل ضرورة ، وقيل هو حرف إشباع ، والحرف الأصلي مخفوف للجازم ، وعندى أنه
ربما كان الأصل « من رآه » وعليه فلا محذور ، مع استقامة وزن البيت .

[٦] هو كعب بن سعد الغنوي (شاعر جاهلي) والآيات المذكورة من تصديده له يرثي بها
أخاه أبا الغوار وأرأها :

قول سليمي ما لمسك شاحبا كأنك يحبك الطعام طيب

(انظرها في الأمالي ٢ : ١٥٠ ، والبغد الفرزدق ٢ : ١٩) .

[٧] خللات جمع خلة بالفتح وهي الحصلة ، وشعب لونه كجمع وقصر وكرم وعنى شحوبا : كثير من هزال
أو جوع أو سفر . [٨] الموراء : الكلمة الفصيحة .

حَلِيفُ النَّدَى، يَدْعُو النَّدَى فَيَجِيبُهُ قَرِيبًا، وَيَدْعُوهُ النَّدَى فَيَجِيبُ (١)
يَبِيتُ النَّدَى (يَأْتُمُّ عَمْرُو) ضَجِيعَهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي الْمُنْقِيَاتِ حُلُوبٌ (٢)
كَأَنَّ يُيُوتُ الْحَيَّ (مَالَمْ يَكُنْ بِهَا) بَسَاسٍ مَا يُلْقَى بِهِنَ غَرِيبٌ (٣)

في آيات، كان والله ابن عباس، عظيم المروءة (٤)، شريف الأخوة، جليل الخطر، بعيد الأثر، كيش (٥) المروءة، أليف الندوة (٦)، سليم جوانح الصدر، قليل وساوس الدهر، ذا كرام الله طرفي النهار وزلفاً (٧) من الليل، الجوع والشبع عنده سيان، لا ينافس في الدنيا، وأقل أصحابه من ينافس فيها، يطيل السكوت، ويحفظ الكلام، وإن نطق نطق بمقام (٨)، يهزّب منه الدُّنار (٩) الأشرار، ويألفه الأحرار الأخيار. قال ابن عباس: « ما ظنك برجل من أهل الجنة، رحم الله زيداً، فأين كان عبد الله منه ؟ »، قال: « كَانَ عبد الله سيداً شجاعاً، مؤلفاً (١٠) مطاعاً، خَيْرُهُ وَسَاعٌ (١١)، وشره دُفَاعٌ، قَلْبِي النَّحِيزَةُ (١٢)، أَحْوَذِي (١٣) الغريزة، لَا يَنْهِنِي (١٤) مُنْهِنَةٌ عَمَّا أَرَادَهُ، وَلَا يَرْكَبُ مِنَ الْأَمْرِ إِلَّا

[١] الندى : الجود . [٢] المنقيات : ذوات النقي (بالكسر) وهو الشمع ، ناقة منقية أى ممتنة . [٣] بساس جمع بسيس يكفر وهو الغفر الخالي (وق الأصل بساس وهو تصحيف) . [٤] مهبل عن المروءة . [٥] يقال رجل كيش الأزار : أى مشر جاد ، ورجل كيش : عزوم ماش سريع في أهوره . [٦] الندوة والنادى والندى والندى : مجلس النوم ومتحدثهم ، وق الأصل « البدوة » ولراء مصحفاً ، أو هو ضلة من البدو وهو الظهور ، أى ذو مظهر حسن يؤلف ولا يبعج . [٧] جمع زلفة ياتهم وهي الطائفة من الليل . [٨] داء عقلم : لا يرا ، أى نطق بقوارس من الكلام جراحة مؤلة لادواء لها . [٩] جمع داصر وصف من الدعارة بفتح الدال وكسرها وهي الحبث والفسق . [١٠] ألفتة وآلفته : أنست به فهو مأولف ومؤلف . [١١] على التشبيه بالفرس الوساع : وهو الجواد الواسع الخطو والقرع ، والدفاع : السبل العظيم ، والشئ العظيم يدفع به مثله « وفرس دفاع كشماد . إذا دفاع جريه » . [١٢] القلب بمنح كل شيء ، والنحيزة الطبيعة ، أى خالص الطبيعة صانها . [١٣] الأحوذى : الخفيف الماذق وللشعر للأمور الفاعر لها لا يفتد عليه شيء . [١٤] نهنه كفه وزجره .

عَتَادَهُ ^(١) ، مِمَامٍ عِدَاً ^(٢) ، وَبَاذِلَ قِرَى ^(٣) ، صَعِبَ الْمَقَادَةَ ، جَزَلَ الرَّفَادَةَ ^(٤) ،
أَخُو إِخْوَانٍ ، وَفَتَى فِتْيَانٍ ، وَهُوَ كَمَا قَالَ الْبَرْجِيُّ حَامِرُ بْنُ سَنَانٍ :
مِمَامٌ عِدَاً ، بِالنَّبْلِ يَقْتُلُ مَنْ رَى وَبِالسِّيفِ وَالرَّمْحِ الرُّذَيْنِيَّ تَشْعَبُ ^(٥)
مَيْبُتٌ مُفِيدٌ لِلنَّوَالِ مُعَوَّدٌ بِفِعْلِ النَّدَى وَالْمَكْرُمَاتِ مُجْرَبٌ
فِي آيَاتٍ ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ : أَنْتَ يَا بَنَ صُوحَانَ بَاقِرٌ ^(٦) عِلْمُ الْعَرَبِ .
(مروج الذهب ٢ : ٨٠)

١٣١ — صَعَصَعَةُ بْنُ صُوحَانَ وَرَجُلٌ مِنْ بَنِي فَزَارَةَ

وَوَقَفَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي فَزَارَةَ عَلَى صَعَصَعَةَ ، فَأَسَمِعَهُ كَلَاماً (مِنْهُ) :
« بَسَطْتَ لِسَانَكَ يَا بَنَ صُوحَانَ عَلَى النَّاسِ فَهَيَّبُوكَ ، أَمَّا لَنْ شَتُّ لَأَكُونَنَّ
لَكَ لِيصَافاً ^(٧) ، فَلَا تَنْطِقْ إِلَّا جَدَدْتُ ^(٨) لِسَانَكَ بِأَذْرَبٍ ^(٩) مِنْ ظُبَّةِ السِّيفِ ،
بَعْضُ قَوِيٍّ ، وَلِسَانٌ عَلِيٍّ ، ثُمَّ لَا يَكُونُ لَكَ فِي ذَلِكَ حَلٌّ وَلَا تَرْحَالُ » فَقَالَ
صَعَصَعَةُ : « لَوْ أَجِدَ غَرَضاً ^(١٠) مِنْكَ لَرَمَيْتُ ، بَلْ أَرَى شَبَحًا ، وَلَا إِخَالَ مِثَالًا
إِلَّا كَسْرَابٍ ^(١١) بَقِيْعَةٍ ، يَحْسَبُهُ الظَّنَّ أَنَّ مَاءً ، حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ،

[١] العتاد : العدة . [٢] مِمَامٌ جَمْعُ سَمٍ مِثْلُ الْبَيْنِ ، وَالْمَاءُ بِالْكَسْرِ وَالضَّمِّ اسْمُ جَمْعٍ عَدُوٍّ أَوْ هُوَ
لِلْأَعْدَاءِ سَمٌ قَاتِلٌ . [٣] قَرَى السِّيفِ (كَرَى) قَرَى : أَثَافَهُ ، وَالْقَرَى أَيْضًا : مَا قَرَى بِهِ الضَّيْفُ .
[٤] رَفَدَهُ (كَفَرَهُ) : أَطْلَاهُ وَوَصَلَهُ ، وَالرَّفَادَةُ فِي الْأَصْلِ خَرَجٌ كَانَتْ تَخْرُجُهُ قَرِيشٌ فِي كُلِّ مَوْسَمٍ مِنْ
أَمْوَالِهَا فَيَصْنَعُ بِهِ طَلَامًا لِلْحَاجِّ ، وَالْمَرَادُ بِهَا هُنَا الطَّيْلَةُ . [٥] الرُّذَيْنِيَّ نِسْبَةً إِلَى رَدِينَةَ امْرَأَةِ سَمِيرٍ ،
وَكَانَ يَقُومَانِ الرِّمَاحَ بِخَطِّ هَجَرَ ، وَيَتَشَبَّهُ : أَيْ يَمْزِقُ وَيَصْدَعُ . [٦] أَصْلُ الْبَقْرِ : الْفَتْحُ وَالشَّقُّ
وَالنُّوسَعَةُ ، وَكَانَ يُقَالُ لِمُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ زَيْنِ الْعَابِدِينَ بْنِ الْحُسَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مُحَمَّدُ الْبَاقِرِ : لِأَنَّهُ بَقَرُ الْعِلْمِ
وَعَرِفَ أَصْلَهُ وَاسْتَنْبَطَ فَرْعَهُ .

[٧] الْإِصْبَاقُ : مَا يُلْسَقُ بِهِ ، وَلِلْعَنَى لَأَكُونَنَّ كَلَامًا مَلَاظِمًا . [٨] جَدْتُ الشَّيْءُ مِنْ يَابِ رَدٍّ :
قَطَعَهُ . [٩] أَذْرَبُ : أَحَدٌ مِنْ ذَوْبِ كَفَرٍ صَارَ حَدِيدًا مَاضِيًا ، وَالظُّبَّةُ : حَدُّ السِّيفِ .
[١٠] النُّرْسُ الْمُدْفَعُ . [١١] السَّرَابُ : مَا يَرَى نَفْسُ الْهَارِكِ أَنَّهُ مَاءٌ ، وَالْقِيَمَةُ جَمْعُ قَاعٍ وَهُوَ أَرْضٌ
سَهْلَةٌ مَطْمَئِنَّةٌ قَدْ انْتَرَجَتْ عَنْهَا الْجِبَالُ وَالْأَكَامُ ، وَيَجْمَعُ أَيْضًا عَلَى قَبْعٍ (بِالْكَسْرِ) وَقِيْعَانِ وَأَنْوَاعٍ وَأَنْوَاعٍ

أَمَّا لَوْ كُنْتَ كُفْتًا لَرَمَيْتُ حَصَاكَ ^(١) بِأَذْرَبَ مِنْ ذَاقِ ^(٢) السَّانِ ، وَلَرَشَقْتُكَ
بِنَالٍ ، تَرَدُّعُكَ عَنِ النَّضَالِ ، وَلَخَطَمْتُكَ بِخَطَامِ ^(٣) ، يَحْزِمُ مِنْكَ مَوْضِعَ الزَّمَامِ ^(٤) .
فَاتَّصَلَ الْكَلَامُ بِابْنِ عَبَّاسٍ ، فَاسْتَضَحَكَ ^(٥) مِنْ الْفَزَارِيِّ ، وَقَالَ : « أَمَّا لَوْ كَلَّفَ
أَخُو قَزَارَةَ نَفْسَهُ قَتْلَ الصَّخُورِ مِنْ جَبَلِ شَمَامٍ ^(٦) إِلَى الْمُضَابِ ، لَكَانَ أَهْوَنَ
عَلَيْهِ مِنْ مَنَازَعَةِ أَخِي عَبْدِ الْقَيْسِ ، خَابَ أَبُوهُ ، مَا أَجْهَلُ ! يَسْتَجْهَلُ أَخَاعِبِدَ الْقَيْسِ
وَقُوَاهُ الْمَرِيرَةَ ^(٧) ! ثُمَّ تَعَلَّ :

صُبَّتْ عَلَيْهِ وَلَمْ تَنْصَبْ مِنْ أَمِّهِ إِنَّ الشَّقَاءَ عَلَى الْأَشَقِيِّنَ مَصْنُوبٌ ^(٨)

(مروج الذهب ٢ : ٨٢)

١٣٢ - رَجُلٌ مِنْ آلِ صُوحَانَ يَحْبِبُهُ ^(٩) عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ وَهُوَ يَخْطُبُ

وَيَخْطُبُ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ ، فَلَمَّا بَلَغَ الْبُلُغَةَ ، قَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ آلِ
صُوحَانَ ، فَقَالَ : « مَهْلًا مَهْلًا يَا بَنِي مَرْوَانَ ، تَأْمُرُونَ وَلَا تَأْمُرُونَ ، وَتَنْهَوْنَ وَلَا
تَنْهَوْنَ ، وَتَمْطُونَ وَلَا تَمْطُونَ ، أَفَتَقْتَدِي بِسِيرَتِكُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ ، أَمْ نَطِيعُ أَمْرِكُمْ
بِالْأَسْتَكْمِ ؟ فَإِنْ قَتَمْتَ اقْتَدُوا بِسِيرَتِنَا ، فَأَتَى وَكَيْفَ ؟ وَمَا الْحُجَّةُ ؟ وَمَا الْمَصِيرُ مِنْ
اللَّهِ ؟ أَتَقْتَدِي بِسِيرَةِ الظُّلَمَةِ الْفَسَقَةِ ، الْجَوَرَةِ الْخَوْنَةِ ، الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَالَ اللَّهِ

[١] الحماائل جمع حصيلة ، يقال حصل الشيء تحصيلًا ، والاسم الحصيلة ، قال لبيد :

وَكُلُّ أَسْرَىٍّ رِجْمًا سَيْلَمٌ غِيهَ إِذَا حَصَلَتْ عِنْدَ الْإِلَهِ الْحَمَائِلُ

وَالْمَقَى : لَرَمَيْتُ مَا حَصَلَتْهُ مِنَ الْعِلْمِ وَالْمَرْفَعَةِ . [٢] ذَاقِ السَّانَ وَالسَّانَ كَفَرَحَ : ذَرَبَ فَهُوَ ذَاقٌ
وَأَذَاقٌ ، وَذَاقِ السَّانَ مِنْ إِضَافَةِ الصَّفَةِ إِلَى الْوَصْفِ . [٣] الْخَطَامُ كُلُّ مَا وَضَعَ فِي أَنْفِ الْبَحِيرِ
لِيُقَاتِلَ بِهِ ، وَخَطَمُهُ بِالْخَطَامِ جَمْعٌ عَلَى أَخَاهُ ، أَوْ جَرَّ أَخَاهُ لِيَضَعَ عَلَيْهِ الْخَطَامَ ، وَخَطَمَهُ بِالْكَلامِ قَهْرَهُ وَمَنْعَهُ
حَتَّى لَا يَنْبَسَ . [٤] حَزَمَ الْبَحِيرُ : جَلَّ فِي جَانِبِ مَنْعِهِ الْخَوَانَةَ (كَكِتَابَةِ) وَالزَّمَامَ مَا يَزِمُ بِهِ .

[٥] اسْتَضَحَكَ الرَّجُلُ وَتَضَحَكَ بِمَعْنَى . [٦] جَبَلُ بِالْمَالِيَةِ . [٧] أَيْ الْقُوَّةُ ، يُقَالُ رَجُلٌ
مَرِيرٌ أَيْ قَوِيٌّ ذُو مَرَةٍ « وَالْمَرَّةُ بِالْكَسْرِ الْقُوَّةُ » . [٨] الْأَمُّ : الْقَرَبُ .

[٩] جَبَّهَ كَقَطْعَةِ لِقَبِهِ بِمَا يَكْرَهُ .

دُولًا^(١)، وعييده خَوْلًا^(٢)؟ وإن قلتم اسمعوا نصيحتنا، وأطيعوا أمرنا، فكيف ينصح لغيره مَنْ يَفْشُ نفسه؟ أم كيف تجب الطاعة لمن لم تثبت عند الله عدالته؟ وإن قلتم خذوا الحكمة من حيث وجدتموها، واقبلوا العِظَةَ ممن سمعتموها، فلامّ وليناكم أمرنا، وحكّمناكم في دماننا وأموالنا؟ أما علمتم أن فينا من هو أنطق منكم بالغات، وأفصح بالمغات؟ فتخلّوا عنها^(٣)، وأطلقوا عقالها، وخلّوا سبيلها، يَنْتَدِبُ^(٤) إليها آل رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذين شرّدتمهم في البلاد، وزقتهم في كل واد، بل تثبّت في أيديكم لا تقضاء المدة، وبلوغ المهلة، وعظم المحنة، إن لكل قائم قدرًا لا يمدوه، ويوما لا يخطوه، وكتابًا بمدّه يتلوه: «لَا يُأَدِرُ صَغِيرَةٌ وَلَا كَبِيرَةٌ إِلَّا أَحْصَاهَا» «وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ». ثم التمس الرجل فلم يوجد. (نهاية الأرب ٧: ٢٤٩)

١٣٣ - وصف عقيل بن أبي طالب لآل صوحان

قال معاوية لعقيل بن أبي طالب: «ميرّ لي أصحاب عليّ، وابدأ بآل صوحان، فإنهم غاريقُ الكلام^(٥)». قال:

«أما صَعْصَعَةُ مُعْظِمِ الشَّانِ، عَضْبُ اللِّسَانِ^(٦)، قَائِدُ فُرْسَانٍ، قَاتِلُ أَقْرَانِ، يَرْتُقِي^(٧) مَا فُتِقَ، وَيَسْتَقُ مَا رُتِقَ، قليل النظر. وأما زيد وعبد الله، فإنهما

[١] جمع دولة بالغم، أي جعلوه متداولًا بينهم.

[٢] الحول ما أعطاك الله تعالى من النعم (حركة) والهيء والاماء وغيرهم من الماشية الواحد والجميع والذكر والأنثى، ويقال الواحد خال. [٣] أي عن الخلافة. [٤] انتدب إليه: أسرع.

[٥] غاريق جمع غرق بالكسر وهو السيف، والبيد، والتصرف في الأمور التي لا يقع في أمر إلا خرج منه (والثر البرى يسمى غرقا لأن الكلاب تطله فيقتل منها، وقلان غرقا حرب أي صاحب حروب يخف فيها). [٦] الضب: القاطع. [٧] الرق ضد الفتق.

نهران جاريان ، يصب فيهما الخُلجان ^(١) ، وَيُمَاتُ بهما البلدان ، رجلا جِدِّ
لَا لَيْبَ معه ، وأما بنو صُوحان فكما قال الشاعر :

إذا نزل العدو فإن عندي أسوداً تَخْلِسُ الأَسَدَ النفوسا ^(٢)

(مروج الذهب ٢ : ٧٥)

١٣٤ — وصية محمد الباقر ^(٣) لعمر بن عبد العزيز

دخل أبو جعفر ، محمد الباقر ، بن عليّ زين العابدين ، بن الحسين عليهم السلام ،
على عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، فقال : يا أبا جعفر ، أوصني ، قال :
« أوصيك أن تتخذ صغير المسلمين ولداً ، وأوسطهم أخاً ، وكبيرهم أباً ،
فارحم ولدك ، وصل أخاك ، وبرّ أباك ، وإذا صنعت معروفاً فربّه ^(٤) » .

(الأمل ٢ : ٣١٢)



[١] الخليج نهر في شرق من التهر الأعظم . [٢] خلس الشيء كضرب خطأ استلبه .
[٣] توفي سنة ١١٣ هـ . [٤] أى أدبه ، يقال رب بالسكان وأرب : أظم به وطم .

خطب الزيريين وما يتصل بها^(١)

خطب عبد الله بن الزير (قتل سنة ٧٣ هـ)

عبد الله بن الزير ومعاوية

دخل الحسين بن علي رضي الله عنه يوما على معاوية ، ومعه مولى له يقال له ذكوان ، وعند معاوية جماعة من قريش ، فيهم ابن الزير ، فرحب معاوية بالحسين ، وأجلسه على سريره ، وقال : ترى هذا القاعد (يعني ابن الزير) فإنه ليذكره الحمد لبني عبد مناف^(٢) ، قال ابن الزير لمعاوية : قد عرفنا فضل الحسين وقربته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكن إن شئت أعلمتك فضل الزير على أيك أبي سفيان فقلت ، فتكلم ذكوان مولى الحسين بن علي ، قال :

١٣٥ - مقال ذكوان

« يا ابن الزير : إن مولاي ما يمنعه من الكلام إلا أن يكون طلق اللسان ، رابط الجان ، فإن نطق نطق بعلم ، وإن صمت صمت بحلم ، غير أنه كف الكلام ، وسبق إلى السنام ، فأقرت بفضل الكرام ، وأنا الذي أقول :

فيم الكلام لسابق في غاية الناس بين مقصر ومبطلد^(٣)

إن الذي يجري ليذكر شأوه ينمي لغير مسود ومسدد^(٤)

[١] تقدم لك في باب خطب بني هاشم وشيبتهم ، خطب أمراء الكوفة من قبل ابن الزير - انظر خطب عبد الله بن يزيد ، وإبراهيم بن محمد بن طلحة ، وعبد الله بن مطيع في ص ٥٧ - ٥٨ - ٦٢ - ٦٨ - ٧٤ - ٧٥ . [٢] عبد مناف جد يجمع بني هاشم وبني أمية - فالرسول عليه الصلاة والسلام هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، ومعاوية هو معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، ولما عبد الله بن الزير فن بن أسد أبوه الزير بن الروام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي . [٣] بله تليدا : لم يتجه لقصي ، والفرس : لم يسبق ، والسحابة : لم تخطر . [٤] الشاؤ : الناية ، وبنى : ينسب .

بل كيف يُدْرِك نورَ بَدْرِ ساطع خَيْرِ الْأَنَامِ وَفَرَجِ آلِ مُحَمَّدٍ
فقال معاوية : صدق قولك يا ذكوان ، أكثر الله في موالى الكرام مثلك ، فقال
ابن الزبير : إن أبا عبد الله ^(١) سكت وتكلم مولاه ، ولو تكلم لأجبتاه ، أو
لكففتنا عن جوابه إجلالا له ، ولا جواب لهذا العبد . قال ذكوان : هذا العبد
خير منك . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَوَّلَى الْقَوْمِ مِنْهُمْ » ، فأنا مولى
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنت ابن العوام بن خويلد ، فنحن أكرم ولأه ،
وأحسن فعلا . قال ابن الزبير : إني لست أجيب هذا ، فهات ما عندك .

١٣٦ — مقال معاوية

فقال معاوية :

« قاتلك الله يا ابن الزبير ! ما أعياك ^(٢) وأبناك ! أتفخر بين يَدَيَّ أمير المؤمنين
وأبى عبد الله ! إنك أنت المتعدي لطورك ، الذي لا تعرف قدرك ، فقس شبرك
بفترك ^(٣) ، ثم تعرّف كيف تقع بين عرائين ^(٤) بنى عبد مناف ، أما والله لئن
دَفَعْتَ في بحور بنى هاشم وبنى عبد شمس ، لَتَقَطَعَنَّكَ بأمواجها ، ثم لتوهين ^(٥)
بك في أجاجها ، فإبقاؤك في البحور إذا غمرتك ، وفي الأمواج إذا بهرتك ^(٦) ؟
هنالك تعرّف نفسك ، وتندم على ما كان من جُرأتك ، وتُعْسى ^(٧) ما أصبحت

[١] كنية الحسين . [٢] ما أعجزك . [٣] الفتر : ما بين طرف الإبهام وطرف السبابة .

[٤] جمع عرين بكرة العين ، وهو السيد الشريف ، (وفي الأصل : الأنث أو ما صلب من خطه) .

[٥] أوهام : أسقطه ، والأجاج : للبحر للز . [٦] بهر بهرا (بالفتح) : غلبه .

[٧] ساء تمية : قال له كيف أسيت ، أو سالك الله بخير ، والمراد : وتودع ما كنت فيه من أمان
نادما أسفا عليه ، وربما كان الأصل « وتعى » بخفف إحدى التاءين أى وتضى ، أو الأصل « وتضى »
من تضى إذا قطع أى يحى وينثر ما كنت فيه من أمان .

إليه من أمان ، وقد جيل بين العير والزوان ^(١) . فأطرق ابن الزير ملياً ، ثم رفع رأسه ، فالتفت إلى من حوله ، ثم قال :

١٣٧ - مقال ابن الزير

« أسألكم بالله: أتسلمون أن أبي حواري رسول الله ﷺ وأن أباه أبا سفيان حارب رسول الله ﷺ ؟ وأن أمي أسماء بنت أبي بكر الصديق ، وأمه هند آكلة الأكباد ؟ وجدّي الصديق ، وجدّه المشدوخ ^(٢) يدر ، ورأس الكفر ، وعمتي خديجة ذات الخطر ^(٣) والحسب ، وعمته أم جميل حمالة الحطب ؟ وجدّتي صفية ^(٤) ، وجدته حمّامة ^(٥) ؟

[١] الدير : الحمار وغلب على الوحش ، والزوان : الثوب ، وهو مثل يضرب لتدوى تخور قواه ، وأول من قاله صخر بن عمرو أخو الخفاء ، وذلك أنه غزا بني أسد ، فاكسح إليهم ، فجاء الصريح فركبوا ، فالتقوا ، فظن أبو ثور الأسدي صخرًا طمعة في جنبه ، وجوى منها فرض حولا حتى مله أهله ، فسمع امرأة تقول لامرأته سلمى : كيف بك ؟ فقالت : لا حتى يفرجى ، ولا ميت فينقى ، لقد لقينا منه الأمرين ، وفي رواية أخرى فرض زمانا حتى مله امرأته ، وكان يكرها ، فربها رجل وهي قائمة ، وكانت جبلة ، فقال لها : يباع الكفل ؟ فقالت : نعم عما قليل ، وكان ذلك يسمعه صخر ، فقال : أما والله لئن قدرت لأقتنك ثبلى ، ثم قال لها : فاوليني السيف أفطر إليه ، هل تله يدي ؟ فنأوته ، فإذا هو لا يخله ، فقال :

أرى أم صخر لا تحمل عيادي وملت سليمان مضجعي ومكاني
فأى امرئ ساوى بأمر حيلة فلا طس إلا في شقا وهوان
أهم بأمر الحزم لو أستطيعه وقد جيل بين العير والزوان

فلما طال به البلاء ، وقد تأتت قطعة من جنبه في موضع الطمعة ، قيل له : لو قطعناها لرجونا أن نبرأ ، فقال شأ نكم ، وأشفق عليه قوم قهوه فأبى ، فأخذوا شفرة فقطعوها فقت .

[٢] هوجد معاوية لأمة عتبة بن ربيعة قتله على يوم بدر ، والمشدوخ للكسور أى القتل .

[٣] أقدر والمزلة ، وهي السيدة خديجة بنت خويلد الأسدية عمه أبيه ، وزوج الرسول عليه الصلاة

والسلام . [٤] هي صفية بنت عبد المطلب أم الزبير وعممة الرسول عليه الصلاة والسلام .

[٥] روى ابن أبي الحديد (م : ١ : ص ١٥٧) قال :

« لما ارتحل دقيل بن أبي طالب عن علي عليه السلام أتى معاوية ، فكان في مجلسه يوما وجلساء معاوية حوله ، فقال : يا أبا يزيد : أخبرني عن عسكري وعسكرك أخيك ، فقد وردت عليهما ، قال : « أخبرك : مررت والله بسكر أحمى ، فلما ليل كليل رسول الله صلى الله عليه وآله ، وتباركت راسل الله صلى الله عليه وآله ، إلا أن رسول الله صلى الله عليه وآله ليس في القوم ، مارأيت إلا مصليا ، ولا سمعت إلا قارئا ، ومررت بسكرك ، فاستجبني قوم من المنافقين من قر برسول الله صلى الله عليه وآله ليسا

وزوج عمتي خير ولد آدم محمد صلى الله عليه وسلم ، وزوج عمته شر ولد آدم أبو لهب ، سَيِّئِي نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ؟ وخالتي عائشة أم المؤمنين ، وخالته أشقى الْأَشْقَيْنِ ؟ وأنا عبد الله ، وهو معاوية .

١٣٨ - مقال معاوية

قال له معاوية :

« وَيَحْكُ يَا بَنَ الزَّيْرِ ! كَيْفَ تَصْرِفُ نَفْسَكَ بِمَا وَصَفْتَهَا ، وَاهِ مَالَكَ فِي الْقَدِيمِ مِنْ رِيَاةٍ ، وَلَا فِي الْحَدِيثِ مِنْ سِيَاسَةٍ ، وَلَقَدْ قُذِّتَكَ وَسُدِّتَكَ : قَدِيمًا وَحَدِيثًا ، لَا تَسْتَطِيعُ لَذَلِكَ إِنْكَارًا ، وَلَا عَنْهُ فِرَارًا ، وَإِنْ هَؤُلَاءِ الْحُضُورَ لَيَحْمِلُونَ أَنْ قَرِيشًا قَدْ اجْتَمَعَتْ يَوْمَ ^(١) الْفَجَّارِ عَلَى رِيَاةِ حَرْبِ بَنِ أُمَيَّةٍ ، وَأَنْ أَبَاكَ

المنعة » ثم قال : من هذا عن عيناك يا معاوية ؟ قال : هذا عمرو بن العاص ، قال : هذا الذي اختصم فيه ستة نفر ، فغلب عليه جزار قريش ، فمن الآخر ؟ قال الضحاك بن قيس القهري ، قال : أما والله لقد كان أبوه جيد الأخذ لسب التبوس « وكان يبيع عصب الفحول في الجاهلية ، والسب كعصب : الكراء الذي يؤخذ على ضرب الفحل ، أو ضرابه ، أو ماؤه ، وعصب الرجل كضرب أعطاه الكراء على الضراب ، وفي الحديث : نعى النبي صلى الله عليه وسلم من عصب الفحل فإن إطارة اتحمل مندوب إليها » ، فمن هذا الآخر ؟ قال أبو موسى الأشعري ، قال : هذا ابن السراقفة ، فلما رأى معاوية أنه قد أغضب جلساءه ، علم أنه إن استخبره من نفسه قال فيه سوءا ، فأحب أن يسأله ليقول فيه ما يلهيه من سوء ، فيذهب بذلك غضب جلسائه ، قال : يا أبا يزيد ، فما تقول في ؟ قال : دعني من هذا ، قال : اتقولن ، قال : أعترف حماة ؟ قال : ومن حماة يا أبا يزيد ؟ قال : قد أخبرتك ، ثم قام فقص ، فأرسل معاوية إلى النساء فدعاه ، فقال : من حماة ؟ قال : ولى الأمان ؟ قال : نعم ، قال : حماة جديتك أم أبي سيفان ، كانت بنتا في الجاهلية صاحبة راية ، فقال معاوية لجلسائه : قد ساوحكم وزدت عليكم . فلا تفتنبوا .

[١] حرب الفجار : هي حرب هاجت بين قريش وكنانة ، وبين هوازن (من قيس عيلان) وسبها أن النعمان بن النضر ملك الحيرة كان يبعث إلى سوق حكاظ في كل عام الطيبة (والطيبة كصيفة : العير التي تحمل الطيب والبز للتجارة) لاتباع له هناك ، ويتبرى له بشن ذك آدم من آدم الطائف ، وكان يرسل تلك الطيبة في جوار رجل من أشرف العرب ، فلما جهز الطيبة كان عنده جماعة من العرب فيهم البراء ابن قيس - وهو من بني كنانة - والبراء كشداد - وهرة الرجل بن عتبة - وهو من بني هوازن ، والرجال كشداد أيضا - فقال : من يجيرها ؟ قال البراء : أنا أجيرها على بني كنانة يعني قومه ، فقال له النعمان : ما أريد إلا من يجيرها على أهل نجد وتهامة ، فقال له عروة الرجل : أنا أجيرها لك على أهل

وأُسرتهك تحت رايته ، راضون بإمارته ، غير منكربن لفضله ، ولا طامعين في عزله ، إن أترأطاعوا ، وإن قال أنصتوا ، فأتزل فينا القيادة ، وعزّ الولاية ، حتى بعث الله عزّ وجل محمداً صلى الله عليه وسلم ، فاتخذه من خير خلقه ، من أُسرتي لا أُسرتك ، وبنى أبى لا بنى أهلك ، فجحدته قرش أشد الجحود ، وأنكرته أشد الإنكار ، وجاهدته أشد الجهاد ، إلّا من عصم الله من قرش ، فنا ساد قرشاً وقادهم إلّا أبوسفیان بن حرب ، فكانت الفئتان تلتقيان ، ورئيسُ الهدى منا ، ورئيسُ الضلالة منا ، فهدّيكُم تحت راية مهدينا ، وضالّكم تحت راية ضالنا ، فنحن الأرباب ، وأنتم الأذئاب ، حتى خلّص الله أباسفيان بن حرب بفضله من عظيم شرکه ، وعصّمه بالإسلام ، من عبادة الأصنام ، فكان في الجاهلية عظيماً شأنه ، وفي الإسلام معروفاً مكانه ، ولقد أعطى يوم الفتح ما لم يُعط أحد من آبائک ، وإن مُنادى رسول الله صلى الله عليه وسلم نادى : من دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، وكانت داره حرماً ، لادارك ولا دار أهلك ، وأما هند فكانت امرأة من قرش ، في الجاهلية عظيمة الخطر ، وفي الإسلام كريمة الخبر ، وأما جدك الصديق

الشيخ والفيصوم من أهل نجد وتهامة ، قال البراء : أعلی بنی کنانة تحيرهما يا عروة ؟ قال : وعلى الناس كلهم ففضها الله إلى عروة ، فخرج بها ، وتبّه البراء ، وترى به وقته ، فهاجت الحرب بين كنانة وهوازن ، وطارقت قرش كنانة ، وكان على كل قبيلة من قرش وكنانة سيدهما ، والقائد العام للجميع حرب بن أمية والد أبى سفيان ، وقد قتل في هذه الحرب اللوام بن خويهد والد الزبير ، وقد حضرهما النبي صلى الله عليه وسلم وله من العمر أربع عشرة سنة ، وقيل خمس عشرة ، وقيل عشرون ، والنجار بمعنى اللعاجة كالقتال بمعنى القتالة ، سمى قرش هذه الحرب نجاراً ، لأنها كانت في الأشهر الحرم قتلوا : قد نجارنا إذ قاتلنا فيها أى فسقنا ، وقيل إنها لم تكن في الشهر الحرام ، وإنما سببها كان في الشهر الحرام ، وهو قتل البراء لعمرة الرجال ، وهذا هو الفجار الرابع ، وهو الأكبر ، وكان قبله ثلاثة أجرة أخرى — انظر السيرة الحلبية ١ : ١٢٢ ، والمقدّم الفرد ٣ : ٩١ ، وسيرة ابن هشام ١ : ١١٦ ، وجمع الأئمال ٢ :

فتبصديق عبد مناف سُمِّيَ صديقاً ، لا تبصديق عبد العُزَّى ، وأما ما ذكرت من جدى المشدوخ بيدى ، فلمعرى لقد دعا إلى البراز هو وأخوه وابنه ، فلو برزت إليه أنت وأبوك ما بارزوكم ، ولا رَأَوْكُم لهم أكفاء ، كما قد طلب ذلك غيركم ، فلم يقبلوه ، حتى برز إليهم أكفأؤم من بنى أبيهم ، فقضى الله منايام بأيديهم ، فحن قَتَلْنَا ، ونحن قَتَلْنَا ، وما أنت وذاك ؟ وأما عمك أم المؤمنين فبنا شَرُفَتْ ، ومميت أم المؤمنين ، وخالتك عائشة مثل ذلك ، وأما صفة فى أدَّتكَ من الظِّلِّ ، ولولا هى لكنت صانِجاً ^(١) ، وأما ما ذكرت من ابن عمك وخال أهلك ^(٢) سيد الشهداء ، فكذلك قَالُوا رحمهم الله ، ونغرَّم وإرثهم لى دونك ، ولا نخرلك فيهم ولا إرث بينك وبينهم . وأما قولك أنا عبد الله وهو معاوية ، فقد علمت قريش أيثا أجود فى الإِزَم ^(٣) ، وأحزم فى القدم ، وأمنع للحُرَم ، لا والله ما أراك متتياً حتى تروم من بنى عبد مناف مارام أبوك ، فقد طألهمم الدُّحُول ^(٤) ، وقدم إليهم الخيول ، وخدعتم أم المؤمنين ، ولم تراقبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ مددتم على نسائكم السُّجُوف ^(٥) ، وأبرزتم زوجته للجنُوف ، ومُقَارعة السيوف ، فلما التقى الجمعان نكص أبوك هارباً ، فلم يُنْجِه ذلك أن طَحَنه أبو الحسين بِكُلِّكَلِه طَحْن الحَصِيد ^(٦) ، بأيدى العبيد ، وأما أنت فأقلت بعد أن

[١] ضحكى ورضى : أصابته الشمس ، والظل : العز واللمعة ، أى أن شرفهم جاء من مصاهرة العوام لبني هاشم ، وزواجه بصفية بنت عبد المطلب . [٢] ابن عمه : هو عبد الله بن عبد الرحمن بن العوام ، وقد قتل يوم الحار ، وخال أبيه هو حمزة بن عبد المطلب ، وقتل يوم أحد . [٣] الأزمة (بالفتح ومجرى) الشدة ، وجهها أزم (كشمس وعنب) . [٤] جمع ذحل (بالفتح) وهو النار ، والمعاوية ، والمقد : أى كشفهم بذلك . [٥] جمع سبف (بالفتح ويكسر) المتر . [٦] الحصيد : الزرع المحصود .

تَحَشَّنَكَ^(١) بِرَأْيَيْتُهُ ، وَنَالَتْكَ غَالِيهِ ، وَإِيْمَ اللَّهِ لَيَقْوَمَنَّكَ بِنُوعِدِ مَنْافٍ بِثِقَافِهَا^(٢) ،
أَوْ لَتُصْبِحَنَّ مِنْهَا صَبَاحُ أَيْكَ بِوَادِي السَّبَاعِ^(٣) ، وَمَا كَانَ أَبُوكَ الْمُدْهَنَ حَدَّهَ^(٤) ،
وَلَكِنَّهُ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

تَنَاوَلَ سِرْحَانٌ فَرَسَةً ضَيْغَمَ قَفَضَتْهُ بِالْكَفِّ مِنْهُ وَحَطَّمَا^(٥)

(القد الفريد ٢ : ١١٣)

١٣٩ — عَبْدُ اللَّهِ بْنِ الزَّيْرِ وَمَعَاوِيَةُ أَيْضًا

دَخَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزَّيْرِ عَلَى مَعَاوِيَةَ فَقَالَ :

« يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، لَا تَدْعَنَّ مَرْوَانَ يَرَى جَاهِلِيَّ قُرَيْشٍ بِعِشَاقِهِ^(٦) ،
وَيَضْرِبُ صَفَاتِهِمْ بِمَعُولِهِ ، أَمَّا وَاللَّهِ لَوْلَا مَكَانُكَ ، لَكُنْ أَخْفَ عَلَى رِقَابِنَا مِنْ قَرِاشَةٍ ،
وَأَقْلَ فِي أَنْفُسِنَا مِنْ خَشَاشَةٍ^(٧) ، وَإِيْمُ اللَّهِ لئن مَلَكَ أَعْنَتُهُ خَيْلٌ تَنْقَادُ لَهُ ، لَتَرَكَبْنَّ^(٨)
مِنْهُ طَبَقًا^(٩) تَخَافُهُ . » فَقَالَ مَعَاوِيَةُ : « إِنْ يَطْلُبُ مَرْوَانُ هَذَا الْأَمْرَ ، فَقَدْ
طَمِعَ فِيهِ مِنْ هُودُونِهِ ، وَإِنْ يَتْرَكَ يَتْرَكَ لِمَنْ فَوْقَهُ ، وَمَا أَرَاكُمْ بِمُتَشَبِّهِينَ حَتَّى
يَبْعَثَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مَنْ لَا يَعْطِفُ عَلَيْكُمْ بِقَرَابَةٍ ، وَلَا يَذْكُرُكُمْ عِنْدَ مُلْكَةٍ ، يَسُومُكُمْ
خَسْفًا^(١٠) ، وَيَسُوفُكُمْ عَسْفًا^(١١) . » فَقَالَ ابْنُ الزَّيْرِ : « إِذْنُ وَاللَّهِ يُطَلِّقُ عِقَالُ الْحَرْبِ

[١] خَشَنَ : خَدَشَهُ . [٢] التَّحَافُ : مَا سَوَى بِهِ الرِّمَاحَ . [٣] مَقْتُلُ أَبِيهِ الزَّيْرِ .

[٤] حَدَّهَ : بَاسَهُ ، وَالْمُدْهَنُ : الْفَتُووشُ ، مِنْ أَدْمَنَ أَيْ غَشَّ ، وَاللَّغِي أَنَّهُ كَانَ شَدِيدَ الْبَاسِ لَمْ تَتَبْ
بِأَلَانِهِ شَائِبَةَ خُورٍ وَلَكِنَّهُ . . . الخ « وَفِي الْأَسْلِ « الدَّهْنُ خَدَمَ » بِالْهَاءِ وَأَرَاهُ مُصَحَّفًا » .

[٥] السَّرْحَانُ : الْقَتَبُ ، وَالضَّيْغَمُ : الْأَسَدُ ، وَتَفَضُّضُهُ تَفَضُّضُ : كَسَرُهُ وَدَقُّهُ ، وَالضَّقِصَةُ : صَوْتُ
كَسْرِ الظَّامِ . وَفِي الْأَسْلِ تَفَضُّضُهُ بِالْهَاءِ ، وَهُوَ مُصْحَفٌ .

[٦] الْمَشَاقِصُ جَمْعُ مَشَقٍّ كَبِيرٌ وَهُوَ التَّحِلُّ الطَّوِيلُ أَوْ سَهْمٌ فِيهِ ذَلِكَ يَرَى بِهِ الْوَحْشَ .

[٧] الْخَشَاشَةُ : وَاحِدَةُ الْخَفَاشِ بِتَثْنِيتِ الْهَاءِ ، وَهِيَ حَصْرَاتُ الْأَرْضِ وَالْمَافِيهِ وَنَحْوُهَا (وَفِي الْأَسْلِ
خَشَاشَةٌ وَهُوَ مُصْحَفٌ) . [٨] الطَّبَقُ : الْحَالُ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَالِي : « لَتَرَكَبْنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ »

[٩] أَيْ يُولِيكُمْ دَلَالًا . [١٠] السَّفْ : الظُّلْمُ ، وَسُلُوكُ الطَّرِيقِ عَلَى غَيْرِ هِدَايَةٍ .

بكتائب تمور^(١) كرجل الجراد ، حافاتها الأسل ، لها دوى كدوى الريح ،
تتبع غطريفا^(٢) من قريش ، لم تكن أمه راعية ثلثة^(٣) . فقال معاوية : « أنا
ابن هند ، أطلقت عقال الحرب ، فأكلت ذروة السنام ، وشربت عفتوان
المكرع^(٤) ، وليس لآكل بدي إلا الفلذة^(٥) ، ولا للشارب إلا الرثق^(٦) .
فسكت ابن الزبير . (شرح ابن أبي الحديد م : ٤ ، ص ٤٩٢ ، والنفد الفريد ٢ : ١١٥)

١٤٠ — عبد الله بن الزبير ومعاوية وعمر بن العاص

قدم عبد الله بن الزبير على معاوية وافداً ، فرحب به وأدناه ، حتى أجلسه
على سريره ، ثم قال : حاجتك أبا خنيب^(٧) ؟ فسأله أشياء ، ثم قال له : سل
غير ما سألت . قال :

« نعم ، المهاجرون والأنصار ترد عليهم قيتهم ، وتحفظ وصية نبي الله
فيهم ، تقبل من محسنهم ، وتتجاوز عن مسيئتهم » فقال معاوية : « هيات
هيات ؟ لا والله ما تأمن النعجة الذئب وقد أكل أليتها^(٨) » . فقال ابن الزبير :
« مهلا يا معاوية ، فإن الشاة لتدر^(٩) للحالب ، وإن المذبة في يده ، وإن الرجل
الأريب ليصانع ولده الذي خرج من صلبه ، وما تدور الرخاء إلا بقطبها^(١٠) ،
ولا تصلح القوس إلا بصحبها^(١١) » . فقال : « يا أبا خنيب ، لقد أجززت
الطروقة قبل هباب الفحل^(١٢) ، هيات ! وهى لا تصطلك لحياها اصطكاك

[١] تمور : تضطرب . [٢] النطريف : السيد الشريف .

[٣] الثلثة : جماعة النعم أو الكثيرة منها . [٤] عفتوان الشيء : أوله أو أول بهجته ، والمكرع

للورد ، مفعل من كرع في الماء أو في الإغناء . [٥] الفلذة : القطعة من اللحم .

[٦] ماء رقيق كمدل وكشف وجبل : كدر . [٧] هي كنية ابن الزبير كنى بآبته خنيب ، وكان أسن

ولده ، ويكنى أيضا أبا بكر . [٨] الآية : ملوك الجز من شحم ولحم . [٩] در الإبل وغيره

من باني ضرب وقتل ، ودرت الناقة بلبنها أدركته . [١٠] قطب الرخا : مالدور عليه ، والرخاء ممدود

الرخا . [١١] العجب : مؤخر كل شيء . [١٢] ناقة طروقة الفحل : بلغت أن يضربها الفحل ،

وأجره رسته : جعله يجره ، وهب الفحل من الإبل وغيره هبابا وهيبا : أراد السفاد .

الْقُرُومِ السَّوَامِي^(١) . فقال ابن الزبير : « الْعَطَنُ بَعْدَ الْعَلِّ^(٢) » ، والعلُّ بَعْدَ
النَّهْلِ ، وَلَا بَدَلَ لِرَحَاءٍ مِنَ الثَّقَالِ^(٣) . ثُمَّ نَهَضَ ابْنُ الزَّبِيرِ ، فَلَمَّا كَانَ الْمِشَاءَ
أَخَذَتْ قَرِيشٌ مَجَالِسَهَا ، وَخَرَجَ مَعَاوِيَةُ عَلَى بَنِي أُمَيَّةَ ، فَوَجَدَ عَمْرُو بْنَ الْعَاصِ
فِيهِمْ ، فَقَالَ : وَيَحْكُمُ يَا بَنِي أُمَيَّةَ ! أَفِيكُمْ مَنْ يَكْفِينِي ابْنَ الزَّبِيرِ ؟ فَقَالَ عَمْرُو : أَنَا
أَكْفِيكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ . قَالَ : مَا أَظْنُكَ تَفْعَلُ . قَالَ : « بَلَى ، وَاللَّهِ لَا زَبْدَنَ^(٤) »
وَجْهَهُ ، وَلَا خَرِسَنَ لِسَانَهُ ، وَلَا زُدْنَهُ أَلَيْنَ مِنْ حِمْلَةٍ^(٥) . فَقَالَ : دُونَكَ فَاعْرِضْ
لَهُ إِذَا دَخَلَ ، فَدَخَلَ ابْنُ الزَّبِيرِ - وَكَانَ قَدْ بَلَغَهُ كَلَامُ مَعَاوِيَةَ وَعَمْرُو - فَجَلَسَ
نُصَبَ عَيْنِي عَمْرُو ، فَتَحَدَّثُوا سَاعَةً ، ثُمَّ قَالَ عَمْرُو :

وَإِنِّي لَنَارٌ مَا يُطَاقُ اصْطِلَافُهَا لَدَيْ كَلَامٍ مُعْضِلٍ مُتَفَاقِمٍ^(٦)

فَاطْرُقَ ابْنَ الزَّبِيرِ سَاعَةً يَنْكُتُ فِي الْأَرْضِ ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ ، وَقَالَ :

وَإِنِّي لِبَحْرٌ مَا يُسَامَى عِبَابُهُ مَتَى يَلْقَى بِحَرٍّ نَارَكَ تَحْمُدُ

فَقَالَ عَمْرُو : وَاللَّهِ يَا ابْنَ الزَّبِيرِ إِنَّكَ مَا عَلِمْتُ لَمُتَجَلِّبٍ جَلَّابِ الْفِتْنَةِ ،

مُتَأَزَّرٍ بِوَصَائِلِ^(٧) التَّيِّهِ ، تَعَامَلِي الذَّرَى الشَّاهِقَةَ ، وَالْمَعَالِيَ الْبَاسِقَةَ ، وَمَا أَنْتَ

مِنْ قَرِيشٍ فِي ثُبَابِ جَوْهَرِهَا ، وَلَا مُؤْتِقٍ^(٨) حَسَبِهَا . فَقَالَ ابْنُ الزَّبِيرِ : « أَمَا

مَا ذَكَرْتَ مِنْ تَعَامَلِي الذَّرَى ، فَإِنَّهُ طَالُ بْنُ إِلِيهَا وَسَمَا ، مَا لَا يَطُولُ بِكَ مِثْلُهُ :

[١] تمطك : تضطرب . والقروم جمع قرم بالفتح وهو النمل ، والسوامى جمع سام : وصف من سما
الفضل سواه : تطاول على شؤله « والمثوله كركم جمع شائل وهي الناقة تشول بذنبها فتاح » .

[٢] العطن : برك الابل حول الخوض ، والعل والعلل : الضرب الثاني ، والنهل : الشرب الأول .

[٣] الثقال : جلد أو نحوه يسط تحت الرمي يقع عليه الطحين . [٤] أى لأصيرنه أريد ، من

الريدة بالضم : وهي لون إلى البيرة . [٥] الحيلة : القطيفة ، وفي الأصل : « ولأوردته » وهو

تحريف . [٦] تافم الأسم : عظم . [٧] الوصائل جمع وصيلة : وهي ثوب مخطط يمان .

[٨] آتقى الشيء : إتنافا : أعجبني ، فهو مؤتى وأتقى أى حسن معجب .

أَنفَ حَمِيٍّ ، وَقَلْبَ ذَكِيٍّ ، وَصَارِمَ مَشْرِقِيٍّ ، فِي تَلِيدِ قَارِعٍ ^(١) ، وَطَرِيفِ مَانِعٍ ،
إِذْ قَعَدَ بِكَ انْتِفَاحَ سَحَرِكَ ^(٢) ، وَوَجِيبَ ^(٣) قَلْبِكَ ، وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ أُنَى
لَسْتُ مِنْ قَرِيشٍ فِي لِبَابِ جَوْهَرِهَا ، وَمَوْثِقِ حَسْبِهَا ، فَقَدْ حَضَرْتَنِي وَإِيَّاكَ
الْأَكْفَاءَ ، الْعَالِمُونَ بِي وَبِكَ ، فَاجْلِمْهُمْ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ، فَقَالَ الْقَوْمُ : قَدْ أَنْصَفَكَ
يَا عَمْرُو ، قَالَ : قَدْ فَعَلْتُ ، فَقَالَ ابْنُ الزَّيْرِ : « أَمَّا إِذَا أَمَكُنْتِي اللَّهُ مِنْكَ فَلَا زَبَدَنٌ
وَجْهَكَ ، وَلَا خَرِسَنَ لِسَانِكَ ، وَلَتَرْجِعَنَّ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ ، وَكَأَنَّ الَّذِي يَنْ
مَنْكَبِيكَ مَشْدُودٌ إِلَى عُرُوقِ أَخْذَعِيكَ ^(٤) » ، ثُمَّ قَالَ : أَقْسَمْتُ عَلَيْكُمْ يَا مَعَاشِرَ
قَرِيشٍ ، أَنَا أَفْضَلُ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ أَمْ عَمْرُو ؟ فَقَالُوا : اللَّهُمَّ أَنْتَ ، قَالَ : فَأَبَى
أَفْضَلُ أَمْ أَبُوهُ ؟ قَالُوا : أَبُوكَ حَوَارِيُّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَابْنُ عَمَّتِهِ ،
قَالَ : فَأَمَى أَفْضَلُ أَمْ أُمُّهُ ؟ قَالُوا : أُمُّكَ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ ، وَذَاتُ
النَّطَّاقِينَ ، قَالَ : فَعَمَتِي أَفْضَلُ أَمْ عَمَّتُهُ ؟ قَالُوا : عَمَّتُكَ سَلَمَى ابْنَةُ الْعَوَّامِ ، صَاحِبَةِ
رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَفْضَلُ مِنْ عَمَّتِهِ ، قَالَ : نَخَالَتِي أَفْضَلُ أَمْ خَالَتُهُ ؟
قَالُوا : خَالَتُكَ عَائِشَةُ أَمْ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ : جَدَّتِي أَفْضَلُ أَمْ جَدُّهُ ؟ قَالُوا : جَدُّكَ
صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ عَمَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، قَالَ : جَدَّتِي أَفْضَلُ
أَمْ جَدُّهُ ؟ قَالُوا : جَدُّكَ أَبُو بَكْرٍ الْخَلِيفَةُ بَدْرُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، فَقَالَ :

قَضَتِ النَّطَارِفُ مِنْ قَرِيشٍ يَسْتَنَّا فَاصْبِرْ لِفَضْلِ خِصَامِهَا وَقَضَائِهَا
وَإِذَا جَرَيْتَ فَلَا تُجَارِ مُبَرَّرَا بَدَّ الْجِيَادِ عَلَى احْتِفَالِ جِرَائِهَا ^(٥)

[١] قَارِعٌ : عَالٍ . [٢] السَّحَرُ وَمَحْرُكٌ وَضَمٌّ : الرِّقَّةُ ، وَانْتِفَاحُ سَحَرِهِ : عَدَا طَوْرَهُ وَجَاوَزَ قَدْرَهُ .

[٣] حَقْفَانُ وَاضْطِرَابٌ .

[٤] الْأَخْدَعَانُ : عَرَفَانِ فِي مَوْضِعِ الْحِجْلَةِ . [٥] بَرَزَ تَبَرَّزَا : فَاقَ أَصْحَابَهُ وَيَدَّ : فَاقَ وَغَلَبَ ،

وَاحْتَقَلَ الْقَوْمُ : اجْتَمَعُوا ، وَالْجِرَاءُ وَالْمَجَارَاةُ : مَصْدَرُ جَارَى .

أَمَّا وَاللَّهِ يَا بَنِي الْعَاصِ ، لَوْ أَنَّ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا وَاجْتَنَى بَنِيهِ ، لَقَصَّرتْ إِلَيْهِ مِنْ سَامِي
بَصْرِهِ ، وَلَتَرَكْتَهُ يَتَلَجَّجُ لِسَانَهُ ، وَتَضَطَّرِمُ النَّارُ فِي جَوْفِهِ ، وَلَقَدْ اسْتَعَانَ مِنْكَ
بَنِيهِ وَافٍ ، وَجَاءَ إِلَى غَيْرِ كَافٍ . ثُمَّ قَامَ فَخَرَجَ .

(شرح ابن أبي الحديد ج ٤ : ص ٤٩٣)

١٤١ — خطبة ابن الزبير لما قتل الحسين عليه السلام

لَمَّا قَتَلَ الْحُسَيْنَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، قَامَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ فِي أَهْلِ مَكَّةَ ، وَعَظَّمْ
مَقْتَلَهُ ، وَعَابَ عَلَى أَهْلِ الْكُوفَةِ خَاصَّةً ، وَلَامَ أَهْلَ الْعِرَاقِ عَامَّةً ، فَقَالَ بَعْدَ أَنْ
حَمِدَ اللَّهَ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، وَصَلَّى عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

« إِنْ أَهْلَ الْعِرَاقِ غُدُرُوا فُجْرًا إِلَّا قَلِيلًا ، وَإِنْ أَهْلَ الْكُوفَةِ شَرَّارَ أَهْلِ الْعِرَاقِ ،
وَإِنَّهُمْ دَعَوْا حُسَيْنًا لِيَنْصُرُوهُ وَيُؤَلُّوهُ عَلَيْهِمْ ، فَلَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِمْ تَارَوْا إِلَيْهِ ، فَقَالُوا
لَهُ : إِمَّا أَنْ تَضَعَ يَدَكَ فِي أَيْدِينَا ، فَتَبْعَتْ بِكَ إِلَى ابْنِ زِيَادِ بْنِ مُثَنَّى سَلَمًا ، فَيَمُضِيَ
فِيكَ حُكْمُهُ ، وَإِمَّا أَنْ تَحَارَبَ ، فَرَأَى وَاللَّهِ أَنَّهُ هُوَ وَأَصْحَابُهُ قَلِيلٌ فِي كَثِيرٍ -
وَإِنْ كَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يُطْلِعْ عَلَى الْغَيْبِ أَحَدًا - أَنَّهُ مَقْتُولٌ ، وَلَكِنَّهُ اخْتَارَ
الْمَيْتَةَ الْكَرِيمَةَ عَلَى الْحَيَاةِ النَّهْمِيَّةِ ، فَرَحِمَ اللَّهُ حُسَيْنًا ، وَأَخْزَى قَاتِلَ حُسَيْنٍ ،
لَعَمْرِي لَقَدْ كَانَ مِنْ خِلَافِهِمْ إِيَّاهُ وَعِصْيَانِهِمْ مَا كَانَ فِي مِثْلِهِ وَاعِظْ وَنَاهِ عَنْهُمْ ،
وَلَكِنَّهُ مَا حُمَّ ^(١) نَازِلٌ ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَمْرًا لَنْ يُدْفَعَ .

أَفَبِعَدِ الْحُسَيْنِ نَظْمُنُّ إِلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ ، وَنُصَدِّقُ قَوْلَهُمْ ، وَتَقْبَلُ لَهُمْ عَهْدًا ؟
لَا ، وَلَا نَزَامُ لَذَلِكَ أَهْلًا ، أَمَّا وَاللَّهِ لَقَدْ قَتَلُوهُ ، طَوِيلًا بِاللَّيْلِ قِيَامُهُ ، كَثِيرًا فِي
النَّهَارِ صِيَامُهُ ، أَحَقُّ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنْهُمْ ، وَأَوْلَى بِهِ فِي الدِّينِ وَالْفَضْلِ ، أَمَّا وَاللَّهِ

ما كَانَ يَدُلُّ بِالْقُرْآنِ الْفِتْنَاءَ ، وَلَا بِالْبُكَاءِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ الْحَدَّاءَ ، وَلَا بِالصِّيَامِ شَرِبَ الْحَرَامَ ، وَلَا بِالْمَجَالَسِ فِي حَلَقِ الذِّكْرِ الرِّكْضَ فِي تَطْلَابِ الصَّيْدِ (يَمْرُضُ يَزِيدُ) فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ^(١) .

فَارَإِلَيْهِ أَصْحَابُهُ ، فَقَالُوا لَهُ : أَيُّهَا الرَّجُلُ أَظْهَرَ يَمْنُكَ ، فَإِنَّهُ لَمْ يَبْقَ أَحَدٌ ، إِذْ هَلَكَ حُسَيْنٌ يَنْزَعُكَ هَذَا الْأَمْرُ ، وَقَدْ كَانَ يَبِيعُ النَّاسَ سَرًا ، وَيُظْهِرُ أَنَّهُ عَائِدٌ بِالْبَيْتِ .

(تاريخ الطبري ٦ : ٢٧٢)

١٤٢ - مناظرة ابن الزبير للخوارج

اجْتَمَعَتِ الْخَوَارِجُ حِينَ تَارَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزَّبِيرِ بِمَكَّةَ (سَنَةِ ٦٤) وَسَارَ إِلَيْهِ مُسْلِمُ بْنُ عُقْبَةَ الْمُرِّي فِي جَيْشٍ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ ، بَعْدَ أَنْ غَزَا الْمَدِينَةَ ، وَكَانَ مِنْهُ فِي وَقْعَةِ الْحَرَّةِ مَا كَانَ ، فَقَالَ لَهُمْ نَافِعُ بْنُ الْأَزْرَقِ : اخْرُجُوا بِنَاتِ الْبَيْتِ ، وَنَلْقَ هَذَا الرَّجُلَ ، فَإِنْ يَكُنْ عَلَى رَأْيِنَا جَاهِدْنَا مَعَهُ الْعَدُوَّ ، وَإِنْ يَكُنْ عَلَى غَيْرِ رَأْيِنَا دَافَعْنَا عَنِ الْبَيْتِ مَا اسْتَطَعْنَا ، وَنَظَرْنَا بَعْدَ ذَلِكَ فِي أُمُورِنَا ، فَخَرَجُوا حَتَّى قَدَمُوا عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزَّبِيرِ ، فَسُرَّ بِمَقْدَمِهِمْ وَنَبَأَهُمْ أَنَّهُ عَلَى رَأْيِهِمْ ، وَأَعْطَاهُم الرِّضَا مِنْ غَيْرِ تَوَقُّفٍ وَلَا تَقْتِيشٍ ، فَقَاتَلُوا مَعَهُ حَتَّى مَاتَ يَزِيدُ بْنُ مَعَاوِيَةَ ، وَانصَرَفَ أَهْلُ الشَّامِ عَنْ مَكَّةَ .

ثُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ لَبَّيْ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فَقَالُوا : إِنَّ هَذَا الَّذِي صَنَعْتُمْ أَمْسَ بِغَيْرِ رَأْيٍ وَلَا صَوَابٍ مِنَ الْأَمْرِ ، تَقَاتِلُونَ مَعَ رَجُلٍ لَا تَدْرُونَ لَعْلَهُ لَيْسَ عَلَى رَأْيِكُمْ ، إِنَّمَا

[١] أَيْ شَرَا وَخَسِرَانَا ، وَكُلُّ شَرٍّ عِنْدَ الْعَرَبِ غَيٌّ ، وَكُلُّ خَيْرٍ رِشَادٌ ، وَقِيلَ هُوَ عَلَى حِفْظٍ مضاف إلى جزء غيٍّ كقولهِ تعالى : « وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا » ، وَالْأَثَامُ الْإِثْمُ أَيْ يَلْقَى جَزَاءَ إِثْمِهِ (وَالْأَثَامُ أَيْضًا جَزَاءُ الْإِثْمِ)

كَانَ أَمْسَ يَقَاتِلُكُمْ هُوَ وَأَبُوهُ ، ينادى يالثرارات عثمان ، ندخل إليه فننظر ما عنده
فإن قَدِمَ أبا بكر وعمر ، وبرئ من عثمان وعلى ، وكفر أباه وطلحة بايعناه ، وإن
تكن الأخرى ، ظهر لنا ما عنده ، فنشأغلنا بما يُجِدِي علينا .

فدخلوا على ابن الزبير وهو مُبْتَذِلٌ ، ^(١) وأصحابه متفرقون عنه ، فقالوا : إنا
جئناك لتخبرنا رأيك ، فإن كنت على الصواب بايعناك ، وإن كنت على غيره
دعوناك إلى الحق ، ما تقول في الشيخين ؟ قال : خيراً . قالوا : فما تقول في عثمان
الذي أحى ^(٢) الحَيَى ، وآوى الطريد ^(٣) ، وأظهر لأهل مصر شيئاً وكتب
بخطه ، وأوطأ آل أبي مُعَيْط ^(٤) وقاب الناس ، وآثرهم بقاء المسلمين ، وفي
الذي بعده ، الذي حَكَمَ في دين الله الرجالَ ، وأقام على ذلك غير تائب ولا نادم ،
وفي أيك وصاحبه ، وقد بايعا علياً وهو إمام عادل مرضى لم يظهر منه كفر ،
ثم نكنا بعرَض من أعراض الدنيا ، وأخرجنا عائشة تقاتل ، وقد أمرها الله وصواحِبها
أن يقرن ^(٥) في بيوتهن ، وكان لك في ذلك ما يدعوك إلى التوبة ، فإن أنت
قلت كما تقول فلك الزلْزَلَةُ ^(٦) عند الله والنصر على أيدينا ، ونسأل الله لك التوفيق ،
وإن أيدت إلا نصر رأيك الأول ، وتصويب أيك وصاحبه ، والتحقيق بعثمان
والتولَّى في السنين الست التي أحلَّت دمه ، وتقصت أحكامه ، وأفسدت إمامته ،
خذلك الله واتصر منك بأيدينا ، فقال ابن الزبير : « إن الله أمر (وله العزة

[١] للبذل لابس البذلة (بالكسر) أو اللبلة وهي الثوب الخلق وما لا يمان من الثياب .

[٢] أحى المكان جله حتى لا يقرب - انظر تفسير المحي الجزء الأول من ١٢٦ .

[٣] هو الحكم بن أبي العاص - انظر من ٩٥ . [٤] ممن ولاهم عثمان الوليد بن عتبة بن أبي

ميط ولاه الكوفة ، وهو أخو عثمان لأمه . [٥] من قرأ بالمكان بغير (بالكسر والتج) قرأوا

أى استقر . أمه يقرن حذفت الأولى من الراي وقلت حركتها إلى القاف .

[٦] الزلعة والزلي : الزربة والزللة .

والقدرة) في مخاطبة أكفر الكافرين ، وأعتى العتاة ، بأرأف من هذا القول فقال لموسى ولأخيه صلى الله عليهما : « أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ، فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَا تُؤْذُوا الْأَحْيَاءَ بِسَبِّ الْمَوْتَى ». فنهى عن سبّ أبى جهل من أجل عِكْرِمَةَ ابنة ، وأبو جهل عدو الله وعدو الرسول ، والمقيم على الشرك ، والجادّ في المحاربة ، والمتبعض إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة ، والمحارب له بعدها ، وكفى بالشرك ذنبًا ! وقد كَانَ يُغْنِيكُمْ عن هذا القول الذى سمعتم فيه طلحة وأبى أن تقولوا : « أَتَبْرَأُ مِنَ الظَّالِمِينَ ؟ » فَإِنْ كَانَا مِنْهُمْ دَخَلَا فِي غَمَارٍ ^(١) المسلمين ، وإن لم يكونا منهم لم تُحْفَظُونِ ^(٢) بسبّ أبى وصاحبه ، وأتمّ تملّون أن الله جلّ وعزّ قال للمؤمن فى أبويه : « وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، فَلَا تُطِعْهُمَا ، وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا » ، وقال جلّ ثناؤه : « وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا » وهذا الذى دعوتهم إليه أمرٌ له ما بعده ، وليس يُقْنِعْكُمْ إِلَّا التَّوْقِيفُ والتصریح ^(٣) ، ولعمري إن ذلك لأخرى بقطع الحجج ، وأوضح لمتّهاج الحق ، وأولى أن يعرف كل صاحبته من عدوه ، فرُوحوا ^(٤) إلى من عشيّتكم هذه ، أكشِفْ لَكُمْ مَا أَنَا عَلَيْهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

فلما كان العشيّ راحوا إليه ، فخرج إليهم وقد لبس سلاحه ، فلما رأى ذلك نجدة ^(٥) . قال : هذا خروج منا بذر ^(٦) لكم ، فجلس على رفيع من الأرض ، فحمد

[١] بالضم وفتح جاعتهم . [٢] تضيؤنى . [٣] تبين الأمر . [٤] الروح المعنى ، وراح إلى القوم : ذهب إليهم رواحا . [٥] هو نجدة بن عامر المثنى من كبار زملائهم . [٦] نابذه : كاشفه بالعداوة .

الله، وأثنى عليه، وصلى نبيه، ثم ذكر أبا بكر وعمر أحسن ذكر، ثم ذكر عثمان في السنين الأوائل من خلافته، ثم وصلهن بالسنين التي أنكروا سيرته فيها، فجعلها كالمأضية، وخبر أنه آوى الحكم بن أبي العاص بإذن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذكر الحمي وما كان فيه من الصلاح، وأن القوم استعقبوه من أمور، وكان له أن يفعلها أولاً مُصيباً، ثم أعقبهم بعد ذلك محسناً، وأن أهل مصر لما أتوه بكتاب ذكروا أنه منه، بعد أن ضعن لهم العتي^(١)، ثم كتب لهم ذلك الكتاب بقتلهم، فدفعوا الكتاب إليه، حلف بالله أنه لم يكتبه، ولم يأمر به، وقد أمر الله عز وجل بقبول اليمين ممن ليس له مثل سابقته، مع ما اجتمع له من صهر رسول الله، ومكانه من الإمامة، وأن يعة الرضوان تحت الشجرة إنما كانت بسببه^(٢)، وعثمان الرجل الذي لزمته يمين، لو حلف عليها لحلف على حق، فاقتداها بمائة ألف ولم يحلف، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من حلف بالله فليصدق، ومن حلف له بالله فليترض». فعثمان أمير المؤمنين كصاحبيه، وأنا ولي وليه، وعدو عدوه، وأبي وصاحبه صاحب رسول الله، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عن الله عز وجل يوم أحد، لما قطعت إصبع طلحة: «سَبَقْتُهُ إِلَى الْجَنَّةِ»، وقال: «أَوْجَبَ طَلْحَةُ^(٣)»، وكان الصديق إذا ذكر يوم أحد قال: «ذاك يوم كله أوجله لطلحة». والزيير حواري

[١] العتي: الرضا .

[٢] وذلك أن الرسول عليه الصلاة والسلام في غزوة المدينة اختار عثمان بن عفان رسولاً من قبله إلى قريش، يعلمهم بمقصده، وأنه أتى مكة محترماً قالوا: إن عمداً لا يدخلها علينا غنوة أبداً، ثم لأنهم حبسوه فشق عند المسلمين أنه قتل . فقال عليه الصلاة والسلام حينما سمع بذلك: لا أبرح حتى تاجرهم الحرب . ودعا للملين إلى البيعة على المثال قايده هناك تحت شجرة سميت بد شجرة الرضوان .

[٣] للوجبة من الحسنات التي توجب الجنة . وأوجب: أتى بها .

رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفوته ، وقد ذكر أنهما في الجنة ، وقال جل وعز :
 « لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ » . وما أخبرنا بعد
 أنه سخط عليهم ، فإن يكن ما سمعوا فيه حقاً ، فأهل ذلك هم ، وإن يكن زلة
 ففى عفو الله تحصيلها ، وفيما وفقهم له من السابقة مع نبينهم صلى الله عليه وسلم ،
 ومهما ذكرتموها فقد بدأت بأمكم عائشة رضى الله عنها ، فإن أبى أن تكون
 له أمّا نبذ اسم الإيمان عنه ، وقد قال الله جل ذكره ، وقوله الحق : « النَّبِيُّ أَوْلى
 بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ » . فنظر بعضهم إلى بعض ، ثم
 انصرفوا عنه . (الكامل للبزد : ٢ : ١٧٣ ، والنفال للبزد : ١ : ٢١٢ ، وتاريخ الطبرى : ٧ : ٥٥)

١٤٣ — أبو صخر الهذلى وعبد الله بن الزبير

وروى أبو الفرج الأصبهاني قال :

لما ظهر ابن الزبير بالحجاز ، وغلب عليها بعد موت يزيد بن معاوية ، وتشاغل
 بنو أمية بالحرب بينهم ، فى ترج راهط وغيره ، دخل عليه أبو صخر الهذلى ، فى
 هذيل ، وقد جاءوه ليقبضوا عطاءهم ، وكان عارفاً بهواه فى بنى أمية ، فنعاه
 عطاءه ، فقال : علام تمنعنى حقاً لى ؟ وأنا امرؤ مسلم ما أحدثت فى الإسلام
 حديثاً ، ولا أخرجت من طاعة يداً . قال : عليك بنى أمية ، فاطلب عندهم
 عطاءك . قال :

« إذن أجدهم سباطاً ^(١) أكفهم ، تمنحة أنفسهم ، بذلاء لأموالهم ،
 وهالين لمجتديهم ^(٢) ، كريمة أعراضهم ، شريفة أصولهم ، زاكية فروعهم ،

[١] رجل سبط اليدى : سقى (وسبط كشمس) .

[٢] المجدى : طالب الجدوى وهى العيلة .

قريباً من رسول الله صلى الله عليه وسلم نَسَبُهُمْ وَسَبَّيُهُمْ ، ليسوا إذا نُسِبُوا بأذنان
ولا وِشَانِظٍ ^(١) ولا أَتْبَاعٍ ، ولا م في قريش كَفَقَعَةٍ ^(٢) القَاع ، لهم السُّودَد في
الجاهلية ، والمَلَك في الإسلام ، لا كمن لا يَمُدُّ في عِيرِهَا ولا تَقِيرُهَا ^(٣) ، ولا حَكَم
أَبَاؤُهُ في تَقِيرِهَا ولا قَطْمِيرِهَا ^(٤) ، ليس من أَحْلَافِهَا ^(٥) الْمُطَيِّبِينَ ، ولا من
سَادَتِهَا الْمُطْعِمِينَ ، ولا من جُودِئِهَا ^(٦) الوَهَّائِينَ ، ولا من هَاشِمِهَا الْمُتَخَنِينَ ،
ولا عبد شَمْسِهَا المُسَوِّدِينَ ، وكيف تَقَاتِلُ الرِّءَسَ بِالْأَذْنَابِ ، وأين النُّصْلُ من
الْجَفْنِ ^(٧) ، والسَّنَان من الزَّجْجِ ^(٨) ، والدُّنَابِي ^(٩) من القُدَامِي ^(١٠) وكيف يُفْضَلُ
الشَّحِيجُ عَلَى الْجَوَادِ ، والسُّوْقَةُ عَلَى الْمَلَكِ ، والْجَامِعُ بِمُخْلَا عَلَى الْمُطْعِمِ فَضْلاً ؟ .

فَقَضِبَ ابْنُ الزَّيْرِ ، حَتَّى ارْتَمَعَتْ فَرَائِصُهُ ^(١١) ، وَعَرِقَ جِينُهُ ، وَاهْتَزَمَ مِنْ
قَرْنِهِ إِلَى قَدَمِهِ ، وَامْتَنَعَ لَوْنُهُ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : يَا بَنَ الْبَوَالَةِ عَلَى غَفِيهَا ، وَيَا جِلْفَ ^(١٢) ،
يَا جَاهِل ، أَمَا وَاقَهُ لَوْلَا الْحُرُمَاتُ الثَّلَاثُ : حُرْمَةُ الْإِسْلَامِ ، وَحُرْمَةُ الْحَرَمِ ،
وَحُرْمَةُ الشَّهْرِ الْحَرَامِ ، لَأَخَذْتَ الَّذِي فِيهِ عَيْنَاكَ ، ثُمَّ أَمْرَبَهُ إِلَى سَجْنِ « عَارِمِ »

[١] وِشَانِظُ جمع وِشِيظَة ، يقال : م وشيظة في قومهم أي حشوفهم ، وفي الأصل :
« وِشَانِظُ » وهو تصحيف . [٢] القَع (بالفتح والكسر) البيضاء الرخوة من الكدأ وجمعه
قَعَمَة كُتْبِيَّة ، والقَاع : أرض سهلة مطبقة قد انفرجت عنها الجبال والآكام . ويضرب اللث بالفتح في القل ،
لأنه لا يمتنع على من ابتداء ، أو لأنه يوطأ بالأرجل . [٣] أَخَذَ مِنْ لَثْل وهو « لا في المير ولا في
الغير » وأول من قاله أبو سفيان بن حرب ، يضرب الرجل : يحط أمره ، وصغر قدره . وقد تقدم
شرحه . [٤] النَغِير : النكة في ظهر النواة ، والقطمير : القشرة الرقيقة بين النواة والبررة .
[٥] الْأَحْلَافُ في قريش ست قبائل : عبد النزار ، وكنب ، ورجع ، وسهم ، وعجوز ، وعدي ،
لأنهم لما أراد بنو عبد مناف أخذ ما في أيدي عبد النزار من الحيازة والسقاية ، وأبت عبد النزار ، عقد كل
قوم على أمرهم حلفاً مؤكداً على أن لا يخادقوا ، فأخرجت عبد مناف جنة مملوءة طيباً ، فوضعتها لأحلافهم
وم أسد ، وزهرة ، وبنو عبد الكعبة ، ففسدوا أيديهم فيها وتماقدوا ، وتماقت بنو عبد النزار وحلفاؤها
حلفاً آخر مؤكداً فسموا الْأَحْلَافَ ، وقوله للطيبين : لنس أَيْمِيمٍ في الطيب .

[٦] جَوْدَاءُ جمع جَوَادٍ : وهو السخى ، ويجمع أيضاً على أجواد وأجود . [٧] مُحَمَّدُ الْبَيْت .
[٨] الْحَدِيدَةُ في أسفل الرمح . [٩] الْقَدَبُ . [١٠] أَرَبُ أو عشر ريشات في مقدم الخناجر .
[١١] جمع فَرَسَة وهي الهمة بين الجنب والكشف . [١٢] الْجِلْفُ : الرجل الجافي .

فجُبِسَ به مدة ، ثم استوهبته هذيل ، ومن له من قریش خُتُولَةٌ في هذيل ، فأطلقه بعد سنة ، وأقسم ألا يعطيه عطاء مع المسلمين أبداً .

فلما وليَ عبد الملك ، أمر له بما فاته من العطاء ، ومثله صِلَةٌ من ماله ، وكساه وحمله . (الأناني ٢١ : ٩٤)

١٤٤ — خطبته وقد قدم عليه وفد العراق

قَدِمَ وفد من العراق على عبد الله بن الزبير ، فَأَتَوْهُ في المسجد الحرام ، في يوم جمعة ، فسلموا عليه ، فسألهم عن مُصَنَّبِ أخيه ، وعن سيرته فيهم ، فقالوا : أحسنُ الناس سيرةً ، وأقضاه بحق ، وأعدُّهُ في حكم ، فصلى عبد الله بالناس الجمعة ، ثم صعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

قد جَرَّبُونِي ثم جَرَّبُونِي من غَلَوَتَيْنِ ومن المِثْنِ^(١)

حتى إذا شابوا وشيَّبُونِي خلَّوْا عَنَّا نِي ثم سيَّبُونِي^(٢)

أيها الناس : « إني قد سألت هذا الوفد من أهل العراق ، عن عاملهم مصعب ابن الزبير ، فأحسنوا الثناء عليه ، وذكروا عنه ما أُحِبُّ ، أَلَا إِنَّ مصعباً أَطْبَي^(٣) القلوبَ ، حتى ما تَعَدِّلُ به ، والأهواء حتى ما تَحُولُ عنه ، واستمال الألسن بتناؤها ، والقلوب بتضحها ، والنفوس بحببتها ، فهو المحبوب في خاصته ، المحمود في عامته ، بما أطلق الله به لسانه من الخير ، وبَسَطَ يده من البَذَلِ » . ثم نزل .

(شرح ابن أبي الحديد ٤ : ص ٤٩٢ ، والأمال ١ : ٢٨٦)

١٤٥ — خطبته لما بلغه قتل مصعب

لما قتل عبد الملك بن مروان مُصَنَّبَ بن الزبير (سنة ٧١ هـ) ، واتفق

[١] الظوة : الناية : وهي رمية سهم أبعد ما يقدر عليه ، وغالب هي قدر ثلاثة ذراع إلى أربعة .

[٢] تركوني . [٣] أطبى : استمال .

خبر مقتله إلى عبد الله بن الزبير، أضرب عن ذكره أياماً، حتى تحدث به إمامة مكة في الطريق، ثم صعد المنبر فجلس عليه ملياً لا يتكلم، والكأبة على وجهه، وجبينه يرتشح عرقاً، فقال رجل من قريش لرجل إلى جانبه: ماله لا يتكلم، أترأه يهاب المنطق؟ فوالله إنه لليبب الخطباء. قال: اعلمه يريد أن يذكر مقتل مصعب سيد العرب، فيشتد ذلك عليه وغير معلوم، ثم تكلم فقال:

« الحمد لله الذي له الخلق والأمر، ومُلك الدنيا والآخرة، يُؤتي الملك من يشاء، وَيُزِيلُ الملك من يشاء، وَيُعِزُّ من يشاء، وَيُذِلُّ من يشاء، أما بعد: فإنه لم يُعِزَّ الله مَنْ كَانَ الْبَاطِلُ معه، وإن كان معه الْأَنَامُ طُرّاً^(١)، ولم يُذِلَّ مَنْ كَانَ الْحَقُّ معه، وإن كان مُفْرَدًا ضَعِيفًا، ألا وإنه قد أتانا خبر من العراق، بلد النَّدْرِ والشَّقَاقِ، فساءنا وسرَّنا، أتانا أن مصعباً قتلَ رَحْمَةً الله عليه ومَقَرَّةً، فأما الذي أحرزنا من ذلك، فإن لفراق الحميم لَدَعَةً ولوعةً يَجِدُهَا حَمِيمُهُ عند المصيبة، ثم يَرْعَوِي من بعدُ ذو الرأى والدين، إلى جميل الصبر، وكريم العزاء، وأما الذي سرَّنا منه فإننا قد علمنا أن قتله شهادة له، وأنه عز وجل جاعل لنا وله في ذلك الْخَيْرَةَ إن شاء الله تعالى.

أسلمه الطغَام^(٢)، الصَّمَّ الْأَذَانُ، أهل العراق، إسلام التَّعَمُّرِ الْمُخَطَّمة^(٣)، وباعوه بأقل من الثمن الذي كانوا يأخذون منه، فإن يُقْتَلَ فقد قُتِلَ أبوه وعمه وأخوه^(٤)،

[١] جيما . [٢] الأوغاد . [٣] خطم البعير بالخطام : جبهه على أهله ، والخطام ككتاب : ما وضع في أنف البعير ليقناده .

[٤] بعد أن اعتزل الزبير بن العوام أصحاب الجبل ، انصرف إلى وادي السباع ، وقد تبعه عمرو بن جرموز قتلته في الصلاة ، ويعني به عبد الرحمن بن العوام بن خويلد ، وقد استشهد يوم اليرموك ، وفي رواية « وإن عمه » ويعني به عبد الله بن عبد الرحمن بن العوام ، وقد قتل يوم اليرموك « انظر أسد الغابة »

وكانوا الخيار الصالحين ، إنا والله لانعوت حَتَفَ آثافًا^(١) ، ولكن قَنَصًا^(٢) بالرماح ، وموتًا تحت ظلال السيوف ، وليس كما يموت بنو مروان ، والله ما قُتِلَ منهم رجل في زحف في جاهلية ولا إسلام قط ، ألا وإنما الدنيا عَارِيَةٌ من الملك القهار الذي لا يزول سلطانه ، ولا يَبِيدُ ملكه ، فإن تُقْبِلَ الدنيا على^٣ لم أخذها أَخَذَ الأشر البَطِر^(٤) ، وإن تُدْبِرْ عني لم أَبْكِ عليها بكاء الخرق المَهِين^(٥) . أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم » ثم نزل .

(الأغاني ١٧ : ١٦٦ ، شرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٣٢٠ - م ٤ ص ٤٩٢ ، والقند الفريد ٢ : ص ١٥٠ و ٢٦٨ ، وتلويح الطبري ٧ : ١٩٠ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٠ ، وتهذيب الكامل ١ : ١٨ ، ومروج الذهب ٢ : ١٢٣)

١٤٦ - خطبة أخرى له

وقال الجاحظ : لما جاءه قتل أخيه مصعب ، قام خطيبًا بعد خطبته الأولى ، فقال :

وأما أخوه فهو للنذر بن الزبير ، وذلك أن جيش يزيد بدد أن أوقع بأهل المدينة في وقعة المرة كما قعدناه سار إلى مكة لنزو ابن الزبير ، فبال لأخيه النذر : ما لهذا الأمر ولضع هؤلاء القوم غيري وغيرك - وكان أخوه النذر من شهد المرة - ثم لحق به - فجرد إليهم أخاه في الناس ، فأنزلهم ساعة قتالا شديدا ، ثم إن رجلا من أهل الشام دعا للنذر إلى المبارزة ، فخرج إليه ، ففرب كل واحد منها صاحبه ضربة خرت صاحبه لها ميتا - وكان مقتله سنة ٦٤ هـ - تاريخ الطبري ٧ : ١٤ - .

[١] الحنف : اللوث ، وقال مات حنف أخاه : أي على فراشه من غير قتل ، ولا ضرب ، ولا غرق ، ولا حرق ، وخمس الألف لأنه أراد أن روحه تخرج من أخاه يتنازع فيه ، أو لأنهم كانوا يتنازعون أن المريض تخرج روحه من أخاه ، والمجرب من جراحته . [٢] القصص : لوث الوحي (أي السريع كفتي) ومات تصا : أصابه ضربة ، أو رمية ، فمات مكانه ، وفي الكامل ، وعيون الأخبار : « إنا والله ما نعوت جببا » وزاد الكامل « كنية آل أبي العباس » والمجرب حركة : انتفاخ بطن البعير من أكل لحاء الرضخ (كسفر) ، وربما خفه ذلك ، يمرض بين مروان لكثرة أكلهم وإسرافهم في ملاذ الدنيا ، وأنهم يموتون بالثخنة . [٣] الأشر : البطور . [٤] من المخرق حركة وهو الدهش من خوف أو حياء ، أو أن يبيت فاحما عليه ينظر ، وللهين : المتغير ، ويروي : « بكاء الخرق المهر » والمخرق : من ضد عقله من الكبر ، والمهر : من ذهب عقله من كبر ، أو مرض ، أو حزن ، فمن المهر بالقسم ، وقد أهرق فهر مهر (ضم الميم وفتح الهاء) : شاذ .

« إن مصعباً قدّم أئزّه ، وأخر خيرّه ، وتشاغل بنكاح فلانة وفلانة ^(١) ، وترك حلبة ^(٢) أهل الشام ، حتى غشيتّه في داره ، ولئن هلك مُصعّب إن في آل الزير خلفاً منه » . (البيان والتبيين ٢ : ٤٧)

١٤٧ - خطبته وقد بلغه قتل عمرو الأشدق

وروى الجاحظ أيضاً أنه لما بلغه قتل عبد الملك بن مروان عمرو بن سعيد الأشدق ، قام خطيباً فقال :

« إن أبا ذبّان ^(٣) ، قتل لطيّم الشيطان ^(٤) ، كذلك تُوُلّي بَعْضَ الظّالِمِينَ بَعْضاً بما كانوا يكسبون » . (البيان والتبيين ٢ : ٤٧)

١٤٨ - عبد الله بن الزير وأمه أسماء بنت أبي بكر

دخل ابن الزير على أمه أسماء بنت أبي بكر ، في اليوم الذي قتل فيه ، وقد رأى من الناس ما رأى من خذلانهم ، فقال :

يا أمّه : خَذَلَنِي الناس حتى ولدي ^(٥) وأهلي ، فلم يبق معي إلا اليسير ممن ليس عنده من الدفع أكثر من صبر ساعة ، والقوم يُعطونني ما أردت من الدنيا ، فما رأيك ؟ فقالت : أنت والله يا بني أعلمُ بنفسك ، إن كنت تعلم أنك

[١] كان تحتها عقيلاً فريش عائشة بنت طلحة ، وسكينة بنت الحسين .

[٢] الملية : خيل تجتمع لسان من كل أوب لنعرة . [٣] الذبّان : الذباب ، والرّب تكون الأجر « أبا ذبّان » وبهمضم يكتبه « أبا ذبّان » وقد غلب ذلك على عبد الملك بن مروان ، لصاد كان في فقه ، وقيل لأنّ لثته كانت تدمي فيقع عليها الذباب . [٤] هو عمرو بن سعيد الأشدق ، سمى بذلك ليل كان في فقه ، وقيل له من أجله : « لطيّم الشيطان » قاله الوزير الكاتب ابن عبدون في مرثيته المشهورة لدولة بني الأفطس بالأندلس التي مطلعها :

« الصحر ينسج بيد المين بالأكر فا البكاء على الأشباح والصور »

ولم تدع لأبي الذبّان فاضيه ليس اللطم لها عمرو بمنصر

[٥] وكان قد خرج إلى الحجاج ابنه حجرة وخيب فأخفا منه لأهسها أمانا .

على حق وإليه تدعو ، فامضِ له ، فقد قُتل عليه أصحابك ، ولا تمكِّن من رقبته
يتلمَّب بها غلمان بني أمية ، وإن كنت إنما أردت الدنيا ، فبئس العبد أنت ،
أهلكت نفسك ، وأهلكت من قُتل معك ، وإن قلتَ كنتُ على حق ، فلما
وهن أصحابي ضَعُفْتُ ، فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين ، وكم خلودك في
الدنيا ؟ القتلُ أحسن ، والله نَصْرَةٌ بالسيف في عزٍّ ، أحبُّ إليَّ من ضربة بسوطٍ
في ذلٍّ ، قال : إني أخاف إن قتلوني أن يُمثَّلوا بي ، قالت : يا بني إن الشاة لا يضرها
سلخها بعد ذبحها .

فدنا منها وقبل رأسها ، وقال : هذا والله رأيي ، والذي قت به داعياً إلى يومي
هذا ، ما رَكَنْتُ إلى الدنيا ، ولا أَحْيَيْتُ الحياة فيها ، وما دعاني إلى الخروج إلا
الغضبُ لله أن تُسْتَحْل حُرْمَةُ ، ولكنتي أَحْيَيْت أن أعلم رأيك ، فزدتني بصيرةً
مع بصيرتي ، فانظري يا أمه ، فإنِّي مقتول من يومي هذا ، فلا يشتد حزنك ،
وسلِّ لأمر الله ، فإن ابنك لم يعمدَ إتيان مُنْكَر ، ولا عملاً بفاحشة ، ولم يجر
في حكم الله ، ولم يَقْدِر في أمان ، ولم يعتمد ظلم مسلم ولا معاهد ، ولم ييلني
ظلم عن عمالي فرضيت به ، بل أنكرته ، ولم يكن شيء آثَرَ عُنْدِي من
رضا ربي ، اللهم إني لا أقول هذا تزيئةً مني لنفسي - أنت أعلم بي - ولكن
أقوله تعزيةً لأمي لتَسْلُو عَنِّي ، فقالت أمه : إني لأرجو من الله أن يكون عزائي
فيك حسناً إن تقدمتي ، وإن تقدمتك في نفسي حَرَجٌ حتى أنظر إلام يصير
أمرك . قال : يا أمه جزاك الله خيراً ! فلا تدعِ الدعاء لي قبلُ وبعْدُ ، فقالت :
لا أدعه أبداً ، فن قُتل على باطل فقد قُتلت على حق ، ثم قالت : « اللهم ارحمه
طول ذلك القيام في الليل الطويل ، وذلك النجيب والظمأ في هواجر المدينة

ومكة ، وبرّه بأبيه وبى ، اللهم قد سلمته لأمرك فيه ، ورضيت بما قضيت ، فأثني في عبد الله ثواب الصابرين الشاكرين . ثم ودّعها وخرج .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٠٢ ، والفخرى ١١١ ، والبغد الفريد ٢ : ٢٧١ ، وبلغات النساء من ١٣٠)

١٤٩ — خطبته يوم قتله

وخرج من عندها فصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
 « أيها الناس ، إن الموت قد تغشّاكم سحابة ، وأحذق بكم ربّاه ^(١) ، واجتمع
 بعد تفرّق ، وارجحنّ بعد تمشّق ^(٢) ، ورجس ^(٣) نحوكم رعدّه ، وهو مفرغ
 عليكم ودّه ^(٤) ، وقائد إليكم البلايا ، تتبعها المنايا ، فاجملوا السيوف لها غرصاً ،
 واستعينوا عليها بالصبر . وتغلّ بأيات ، ثم اقتحم يقاتل وهو يقول :
 قد جدّ أصحابك ضرب الأعناق وقامت الحرب لها على ساق ^(٥)
 (البغد الفريد ٢ : ٢٧١)

١٥٠ — خطبة أخرى

وروى الطبرى قال :

« لما كان يوم الثلاثاء صبيحة سبع عشرة من جمادى الأولى سنة ٧٣ هـ
 وقد أخذ الحجاج على ابن الزبير بالأبواب ، صلى بأصحابه الفجر ، ثم قام فحمد الله
 وأثنى عليه ، ثم قال :

« يا آل الزبير : لو طيتم لى نفساً عن أنفسكم ، كنّا أهل بيت من العرب
 اضطلّنا ^(١) فى الله ، لم تُصبنا زبّاء بنة ^(٢) ، أما بعد يا آل الزبير : فلا يرغكم

[١] الرباب : السحاب الأبيض . [٢] ارجحن : مال من تله واهتز ، وتمشّق ثوبه : تمزق .

[٣] رجست السماء : رعدت شديداً وتمخضت . [٤] الودق : المطر .

[٥] هو من مشطور السريع الوقوف . [٦] أى استؤصلنا . [٧] ازباه من البواهي :

الشديدة ، وقال لا أفسه ألبنة ، وجة لكل أمر لارجة فيه .

وقع السيوف ، فإني لم أحضر موطنًا قط إلا أرتُثنتُ ^(١) فيه من القتل ، وما أجد من دواء جراحها أشدَّ مما أجد من ألم وقعها ، صُونُوا سيوفكم كما تصونون وجوهكم ، لا أعلم امرأة أعزلٌ ، غَضُوا أبصاركم عن البارقة ^(٢) ، وليَسْخَلْ كل امرئ قِرْنَه ، ولا يُلْهِيَنَّكم السؤالُ غنى ، ولا تقولنَّ : أين عبد الله بن الزبير ، إلا من كان سائلاً عني فإني في الرَّعيل ^(٣) الأول :

أَبَى لَابَن سَلَمَى أَنَّهُ غَيْرُ خَالِدٍ مُلَاقِي الْمَنَآيَا أَيْ صَرَفِ تَيْعَمَا
فَلَسْتُ بِمِيتَاعِ الْحَيَاةِ بِسَبَّةٍ وَلَا مُرْتَقٍ مِنْ خَشْيَةِ الْمَوْتِ سُلْمَا

احملوا على بركة الله . ثم قاتل حتى أُنْجِنَ بِالْجِرَاحَاتِ وَقُتِلَ . (تاريخ الطبري ٧ : ٢٠٤)

١٥١ — خطبة مصعب بن الزبير

بسم الله بن الزبير أخاه مُصْعَبًا وَالْيَا عَلَى الْبَصْرَةِ سَنَةِ ٦٧ هـ ، فصعد المنبر ، خمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ طَسِيم . تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ . تَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ ، وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ ، يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ ، وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ . إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ » وأشار يده نحو الشام ، وَرِيدُ أَنْ تَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَتَجْعَلَهُمْ أَعْنَةً وَتَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ » وأشار يده نحو الحجاز ، وَتُمْكِنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَرَبَّى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ » وأشار يده نحو العراق .

(البيان والتبيين ٢ : ١٥٦ ، والقدر الفريد ٢ : ١٥٨ ، وتاريخ الطبري ٧ : ١٤٦)

[١] ارتث (مبنيا للمجهول) حمل من للركبة ريثما أى جرما وه رمق .
[٢] البارقة : السيوف . [٣] الرعيل : القطعة من الخيل القليلة ، أو مقدمتها .

خطب الأمويين

خطباء البيت الأموي

خطب معاوية (توفي سنة ٤٠ هـ)

١٥٢ - خطبته بالمدينة عام الجماعة

قدم معاوية المدينة عام الجماعة (سنة ٤١ هـ) فلقاه رجال قريش ، فقالوا :
الحمد لله الذي أعز نصرك ، وأعلى كعبك ، فارد عليهم شيئاً حتى صعد المنبر ،
فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد فإني والله ما وليتها بحجة علمتها منكم ، ولا مسرة بولايتي ، ولكني
بالدائم بسني هذا مجالدة ، ولقد رُضت ^(١) لكم قسي على عمل ابن أبي قحافة ،
وأردتها على عمل عمر ، فنفرت من ذلك نفاراً شديداً ، وأردتها على سُنَيَات ^(٢)
عثمان ، فأبت عليّ ، فسلكت بها طريقاً لي ولكم فيه منفعة : مؤاكلة حسنة ،
ومشاركة جميلة ، فإن لم تجدوني خيركم ، فإني خير لكم ولايةً ، والله لا أدخل
السيف على من لا سيف له ، وإن لم يكن منكم إلا ما يستشفى به القائل بلسانه ،

[١] من راضٍ لله وإن ذلّه . [٢] سنية مصغر سنة ، والمراد حكم عثمان .

فقد جعلت ذلك له دَبْرٌ^(١) أذنى ، وتحت قدمي ، وإن لم تجدونني أقوم بحكم
كله ، فاقبلوا مني بعضه ، فإن أنا كم مني خير فاقبلوه ، فإن السيل إذا جاد يُشْرِى ،
وإذا قل أغنى ، وإياكم والفتنة ، فإنها تُفسِدُ المِيشة ، وتكدرُ النعمة . ثم نزل .
(القدر الفريد ٢ : ١٢٩)

١٥٣ — خطبة أخرى له بالمدينة

وخطب فحمد الله وأثنى عليه ، ثم صلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال :
« أما بعد ، أيها الناس ، إنا قدمنا عليكم ، وإنما قدمنا على صديق مستبشر ،
أوعلى عدو مستتر ، وناس بين ذلك ينظرون وينتظرون ، فإن أعطوا منها رَضُوا
وإن لم يُعطوا منها إذا هم يَسْخَطُونَ ، ولست واسعا كل الناس ، فإن كانت
تَحْمَدُ ، فلا بد من مَدَمَّة ، فلو ما هَوَتْنا إذا ذكر غفر ، وإياكم والتي إن أخفيت
أوبقت ، وإن ذُكِرَتْ أوثقت . ثم نزل . (القدر الفريد ٢ : ١٤٠)

١٥٤ — خطبة له بالمدينة

وصعد منبر المدينة ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« يا أهل المدينة ، إني لست أحب أن تكونوا خلقا كخلق العراق ، يَصِيُونَ
الشيء وهم فيه ، كل امرئ منهم شِيعَةٌ نفسه ، فاقبلونا بما فينا ، فإن ما وراءنا
شر لكم ، وإن معروف زماننا هذا مُتَكَرِّرُ زمان قد مضى ، ومنكر زماننا معروف
زمان لم يأت ، ولو قد أتى فالرثن خير من الفتن ، وفي كلِّ بلاغٍ ، ولا مقام على
الرَّزِيَّةِ » . (القدر الفريد ٢ : ١٤٠)

١٥٥ — خطبته حين ولى المغيرة بن شعبة الكوفة

ولما ولى معاويةُ المُغِيرَةَ بن شعبة الكوفةَ في جادى سنة ٤١ هـ دعاه ،
فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

«أما بعد : فَإِنَّ لَدَى الْحِلْمِ قَبْلَ الْيَوْمِ مَا تُقَرِّعُ الْعَصَا^(١) ، وقد قال المنلّس :

لدى الحلم قبل اليوم ما تُقَرِّعُ العصا وما علّمَ الْإِنْسَانُ إِلَّا لِيَعْلَمَا

وقد يُجْزَى^(٢) عنك الحكيمُ بغيرِ التلميم ، وقد أردتُ إيصاءك بأشياء كثيرة ،

فأنا تاركها اعتماداً على بَصَرِكَ بما يُرْضِينِي ، وَيُسْعِدُ سُلْطَانِي ، وَتَصْلُحُ بِهِ رِعْيَتِي ،

ولست تاركاً إيصاءك بِمَخْصَلَةٍ : لَا تَنْحَمَّ^(٣) عَنْ شَتَمٍ عَلَى وَدَمِهِ ، وَالتَّرحُّمِ عَلَى

عثمان ، والاستنفار له ، والعيبِ على أصحابِ عليّ ، والإقضاء لهم ، وترك الاستماع

منهم ، وإطراء شيعَةِ عثمان رضوانُ الله عليه ، والإدناء لهم ، والاستماع منهم .

فقال المغيرة : « قد جَرَّبْتُ وَجُرِّبْتُ ، وَعَمِلْتُ قَبْلَكَ لِنِيرِكَ ، فَلَمْ يَذُمَّمُ

بِي دَفْعٌ ، وَلَا رَفْعٌ ، وَلَا وَضْعٌ ، فَسَبِّلُو^(٤) فَتَحْمَدُ ، أَوْ تَذَمُّ . قال : « بل

نحمد إن شاء الله . (تاريخ الطبري ٦ : ١٤١)

١٥٦ — خطبة له في يوم صائف

وخطب الجمعة في يوم صائفٍ شديد الحر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على

[١] من أمثال العرب الشهيرة : « إن العصا قرعت لدى الحلم » وهو مثل يضرب لمن إذا به اتقى به
وأول من قرعت له العصا حاتم بن الطرب البغدادي ، وقيل هو قيس بن خالد ، وقيل ربيعة بن مخاشن ،

وقيل عمرو بن حمة الدوسي ، وقيل عمرو بن مالك . ذكروا أن حاتم بن الطرب كان أحد حكام العرب
المشهورين ، لا تعدل بغيره فها ، ولا يحكمه حكماً ، فلما طعن في السن أنكر من عقله شيئاً ، فقال لبيته :

لأنه قد كبرت سنّي ، وعرض لي سهو ، فإذا رأيتوني خرجت من كلامي ، وأخفت في غيره ، فأتروا لي
الحسن بالصبا ، وقال المنلّس يريد : لدى الحلم قبل اليوم ما تخرج العصا . . . البيت .

[٢] يجزى مسلون عن مجزى أى يفتى ، يقال : أجزأت عنك مجزاً فلان : أى أغضبت منك مضاه .

[٣] احتى ونحى : امتنع . [٤] أى تخبر .

رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

« إن الله عز وجل خلقكم فلم يقسمكم ، وعظكم فلم يهملكم ، فقال : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَتَّى تَقَاتِلَ ، وَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » . قوموا إلى صلاتكم . (القدر الفريد ٢ : ١٤٠)

١٥٧ — آخر خطبة له

صعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قبض على لحيته ، وقال :
« أيها الناس : إني من زرع قد استحصد ^(١) ، وقد طالت عليكم إمرتي ، حتى مللتكم وملتموني ، وتعبت فراقكم وتعبت فراقى ، وإنه لا يأتيكم بعدى إلا من هو شر منى ، كما لم يأتيكم قبلى إلا من كان خيراً منى ، وإنه من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، اللهم إني قد أحبيت لقاءك ، فأحبيب لقاءى » . ثم نزل ، فها صعد المنبر حتى مات ^(٢) . (الأمال ٢ : ٣١٥ ، وتهذيب الكمال ١ : ١٦)

١٥٨ — خطبته وقد حضرته الوفاة

ولما حضرت معاوية الوفاة قال لمولى له : من الباب ؟ قال : نقر من قریش يتباشرون بموتك ، فقال : ويحك ! ولم ؟ قال : لا أدرى . قال فوالله ما لهم بعدى إلا الذى يسوءهم ، وأذن للناس فدخلوا ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وأوجز ، ثم قال :
« أيها الناس : إنا قد أصبحنا فى دهر عنود ^(٣) ، وزمن شديد ^(٤) ، يمد فيه المحسن مسيئاً ، ويزداد فيه الظالم عنواً ، لا نتفع بما علمناه ، ولا نسأل عما جهلناه ، ولا نتخوف قارعة ^(٥) حتى تحمل بنا ، فالناس على أربعة أصناف : منهم من

[١] استحصد الزرع وأحصد : حاذ أن يحصد . [٢] سيرد عليك بنية خطبه بعد فى موضعها .

[٣] جائر . من عند من الطريق كفسر وسمع وكرم عنوان : إنا مال . [٤] وفى نهج البلاغة :

وزمن كنود وهو الكفور . [٥] الدامية التى تخرج أى تصيب .

لا يَنْعَمُ مِنَ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَهَاتُهُ نَفْسُهُ ، وَكَلالُ حَدِّهِ ، وَنَفْيُضُ وَفَرِهِ ،^(١)
وَمِنْهُمْ الْمُصْلِتُ^(٢) لَسِيفِهِ ، الْمُجْلِبُ بِخَيْلِهِ وَرَجَلِهِ ، الْمَلَانُ بِشَرِّهِ ، قَدْ أَشْرَطَ^(٣)
نَفْسَهُ ، وَأَوْبَقَ دِينَهُ ، لِحُطَامٍ يَنْتَهَزُهُ ، أَوْ مِقْنَبٍ^(٤) يَقُودُهُ ، أَوْ مِيزٍ يَقْرَعُهُ^(٥) ،
وَلِبَاسٍ الْمُتَجَرَّأْنَ تَرَاهَا لِنَفْسِكَ غَمًّا ، وَمِمَّا لَكَ عِنْدَ اللَّهِ عَوْضًا ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَطْلُبُ
الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ ، وَلَا يَطْلُبُ الْآخِرَةَ بِعَمَلِ الدُّنْيَا ، قَدْ طَامَنَ مِنْ شَخْصِهِ ،
وَقَارَبَ مِنْ خَطْوِهِ ، وَشَمَّرَ مِنْ ثَوْبِهِ ، وَزَخَرَ نَفْسَهُ لِلْأَمَانَةِ ، وَاتَّخَذَ سِرَّ الرَّاهِ
ذُرِيعةً لِلْمَعْصِيَةِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَدْ أَقْعَدَهُ عَنْ طَلَبِ الْمَلِكِ ضُتُولَةُ نَفْسِهِ ، وَانْقِطَاعُ
سَبَبِهِ ، فَقَصُرَتْ بِهِ الْحَالُ عَنْ أَمَلِهِ ، فَتَحَلَّى بِاسْمِ الْقَنَاعَةِ ، وَزَيَّنَ بِلِبَاسِ الزَّهَادِ ،
وَلَيْسَ مِنْ ذَلِكَ فِي مَرَاحٍ وَلَا مَقْدَى ، وَبَقِيَ رِجَالُ غَضٍّ أَبْصَارِهِمْ ذِكْرُ الْمَرْجِعِ ،
وَأَرَادُوا دُمُوعَهُمْ خَوْفُ الْمَخْشَرِ ، فَهَمَّ بَيْنَ شَرِيدٍ نَافِرٍ ، وَخَائِفٍ مُنْقِمٍ^(٦) ،
وَسَاكَتْ مَكُومٌ^(٧) ، وَدَاعٌ غُلُصٌ ، وَمُوجَعٌ تَكَلَّانُ ، قَدْ أَخْلَتَهُمُ التَّقِيَّةُ^(٨) ،
وَشَمِلَتْهُمْ الدَّلَّةُ ، فَهَمَّ بِحَرَا جَابِجٍ^(٩) ، أَفْوَاهُهُمْ ضَامِرَةٌ^(١٠) ، وَقُلُوبُهُمْ قَرِيحَةٌ ، قَدْ
وَعَظُّوا حَتَّى مَلَّوْا ، وَفُهِرُوا حَتَّى ذَلَّوْا ، وَقَتَلُوا حَتَّى قَلَّوْا ، فَتَلَكَّنَ الدُّنْيَا فِي أَعْيُنِهِمْ
أَصْفَرُ مِنْ خُثَالَةِ الْقَرْطِ^(١١) وَقُرَاضَةِ الْجَلَمِينَ ، وَاتْمَطَّوْا بَعْنُ كَانَ قَبْلَهُمْ ، قَبْلَ أَنْ

[١] أَى قَلَّةُ مَالِهِ . [٢] أَصْلَتُ الْيَفِ : سَلَهُ . [٣] هِيَ أَمَا وَأَعْدَمَا (مِنْ الشَّرْطِ) (عَرَكَةٌ) وَهُوَ الدَّلَامَةُ) أَى مِيَامًا لِفَسَادٍ فِي الْأَرْضِ . وَأَوْبَقَهُ : أَهْلَكَهُ . وَالْمَلَانُ : الدَّلَامَةُ . وَأَمَلَهُ مَا تَكْسَرُ مِنَ الْيَفِ .
[٤] الْقَنْبُ مِنَ الْخَيْلِ : بَيْنَ الثَّلَاثِينَ إِلَى الْأَرْبَعِينَ أَوْ زَهَاءُ ثَلَاثَةِ . [٥] يَطْوُهُ .
[٦] مَقْمُورٌ . [٧] مِنْ كَمِّ الْبَعِيرِ كَنَمَ : شَدَّ قَاهُ ثَلَاثِينَ أَوْ يَأْكُلُ . وَفِي الْيَانِ وَالْتِيَانِ
مَكُومٌ مِنْ عَمَلِ الْمَاعِ يَكْمُهُ شَدَّةٌ يَثُوبُ . [٨] التَّقِيَّةُ : الدَّلَارَةُ . [٩] الْأَجَا : لِلْمَالِ .
[١٠] سَاكِنَةٌ مِنْ ضَمَرٍ كَضَرْبٍ : سَكَتَ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ . وَالْبَعِيرُ أَصْلَكَ جَرَمَةً فِي فِيهِ وَلَمْ يَجْتَرِ .
[١١] الْقَرْطُ : وَرَقُ السِّلْمِ أَوْ ثَمَرُ السَّنَطِ يَدْبَغُ بِهِ ، وَالْجَلَمُ : مَقْرَاضٍ يَجْزِيهِ الصَّوْفُ . وَالْقُرَاضَةُ : مَا يَقُطُّ مِنْهُ عِنْدَ الْجَزْ .

قَالَ الْمُبَاحِظُ : « وَفِي هَذِهِ الْخُطْبَةِ أَجَاكَ اللَّهُ ضُرُوبٌ مِنَ الدَّجِبِ . مِنْهَا أَنْ هَذَا الْكَلَامُ لَا يَشْبَهُ السَّبَبِ

مظ بكم من بعدكم، فافضوها ذميمة فإنها قد رفضت من كان أشغف بها منكم .
البيان والتبيين ٢ : ٢٨ ، والقند الفريد ٢ : ١٤١ ، ونسج البلاغة ١ : ٤٠ ، وإيجاز القرآن ١٢٣

١٥٩ — وصيته لابنه يزيد

لما حضرت معاوية الوفاة ، ويزيد غائب ، دعا معاوية مسلم بن عقبة المرئي ، والضحّاك بن قيس الفهري ، فقال : أبلغنا عن يزيد وقولا له :
« يا بني، إني قد كفيتك الشدة والزعالة ، ووطأت لك الأمور ، وذلت لك الأعداء ، وأخضعت لك رقاب العرب ، وجمعت لك ما لم يجمعه أحد ، فانظر أهل الحجاز ، فإنهم أصلك وعترتك ^(١) ، فن أذاك منهم فأكرمه ، ومن قعد عنك فتعهده ، وانظر أهل العراق ، فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملاً فافعل ، فإن عزل عامل ، أهون عليك من سلّ مائة ألف سيف ، ثم لا تدري علام أنت عليه منهم ؟ ثم انظر أهل الشام ، فاجعلهم الشعار ^(٢) دون الدثار ، فإن ربك من عدوك ريب ، فارمهم ^(٣) بهم ، فإن أظفرك الله بهم ، فاردد أهل الشام إلى بلادهم ، ولا يقيموا في غير بلادهم ، فيتأدبوا بنير أديهم .

وإني لست أخاف عليك أن ينازعك هذا الأمر إلا أربعة نفر من قريش : الحسين بن علي ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الرحمن بن أبي بكر .

الذي من أجله دعا معاوية . ومنها أن هذا للذهب — في تصنيف الناس — وفي الأخبار عنهم ، وتمام عليه من القهر والإذلال ، ومن التقية والخوف — أشبه بكلام علي وجماعته ، وبما له من مجال معاوية . ومنها أن لم نجد معاوية في حال من الحالات يملك في كلامه ملامح الزهاد ، ولا يذهب مذاهب العباد ، وإنما يكتب لكم وتخبر بما سمعناه ، والله أعلم بأحباب الأخبار ويكثر منهم .
ونسبها الشريف الرضي إلى الإمام علي ، وقال هي من كلامه التي لا يترك في .

[١] فترة الرجل : عشرته الأذنون . [٢] الشعار : الثوب يلبس على شعر الجسد ، والدثار : الذي يلبس فوق الشعار . [٣] الضمير لدو ، وهو الواحد والجمع ، والذكر والأنثى ، وقد يعني ويجمع ويؤنث .

فأما عبد الله بن عمر فرجل قد وَقَّده^(١) الورع ، وإذا لم يبق أحدٌ غيره بايعك ؛
وأما الحسين بن عليٍّ ، فإنه رجل خفيف ، وأرجو أن يكفينك الله بمن قَتَلَ أباه ،
وخَذَلَ أخاه ، ولا أُظنُّ أهل العراق تاركيه حتى يُخْرِجوه ، فإن خرج وظفرت
به ، فاصفح عنه ، فإن له رَحِمًا^(٢) مائة ، وحقًا عظيمًا ، وقرابة من محمد صلوات الله
عليه وسلامه ؛ وأما ابن أبي بكر ، فإن رأى أصحابه صنعوا شيئًا صنع مثلهم ،
ليست له همَّةٌ إلا في النساء واللَّهوَ ؛ وأما ابن الزبير ، فإنه حَبَّ صَبَّ^(٣) ، فإن
ظفرت به فقطعته إزبًا إزبًا^(٤) . « أوقال » : وأما الذي يَحِثُّمُ لك جُثُومُ
الأسد ، ويراوذك مراوغة الثعلب ، فإن أمكته فُرْصة وثب ، فذاك ابن الزبير ،
فإن هو وثب عليك ، فظفرت به فقطعته إزبًا إزبًا ، واحقن دماء قومك
ما استطعت .

(١) إيان والتبيين ٢ : ٦٦ وتاريخ الطبري ١٧٩ : ٦ ، المقفريد ٢ : ١٤١ - ٢٤٩ ، البغوي ص ١٠٢)

خطب يزيد بن معاوية (توفي سنة ٦٤ هـ)

١٦٠ - خطبته بعد موت معاوية

« الحمد لله الذي ما شاء صنع : من شاء أعطى ، ومن شاء منع ، ومن شاء
خَفَضَ ، ومن شاء رفع . إن أمير المؤمنين كان حَبَلًا من حبال الله ، مدَّه ما شاء
أن يمدَّه ، ثم قطعهُ حين أراد أن يقطعهُ ، وكان دون مَنْ قَبْلَهُ ، وخيرًا ممن يَأْتِي
بعده ، ولا أَرْكِيه عند ربه وقد صار إليه ، فإن يَصِفْ فبرحمته ، وإن يعاقبه فبذنبه ،
وقد وُلِّيت بعده الأمر ، ولست أعتذر من جهل ، ولا أشتغل^(٥) بطلب علم ،

[١] وقَّده : سرعه وغلبه ، وتركه عيلاً كأوقده . [٢] قرابة .

[٣] الحارثيها في صفحة ١٣١ . [٤] أي عضوا عنوا .

[٥] في المقفريد : ولا أسي على طلب علم ، ولا أتي عن طلب علم .

وعلى رسلكم ، إذا كره الله شيئاً غيرَه ، وإذا أحب شيئاً سِره .

(العقد الفريد ٢ : ١٤٢ - ٢٥٠ ، مروج الذهب ٢ : ٩٣ ، عيون الأخبار ٢ : ٢ ص ٢٣٨)

١٦١ - خطبة أخرى له

« الحمد لله أحمدَه وأستعينه ، وأؤمن به ، وأتوكل عليه ، ونعوذ بالله من
شرو وأتقنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضلَّ له ، ومن يُضِلَّ فلا
هاديَ له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله
اصطفاه لوجه ، واختاره لرسالته ، بكتاب فضله وأعزه وأكرمه ، ونصره
وحفظه ، ضرب فيه الأمثال ، وحلَّ فيه الحلال ، وحرَّم فيه الحرام ، وشرع فيه
الدين إعذاراً وإنذاراً ، لئلا يكون للناس على الله حجةٌ بعد الرسل ، ويكون
بلاغاً لقوم عابدين ^(١) . أوصيكم عباد الله بتقوى الله العظيم الذي ابتدأ الأمور
بعلمه ، وإليه يصير معادها ، واقطع مدتها ، وتصرَّم دارها ، ثم إنى أحذركم
الدنيا ، فإنها خلوة خضرة ^(٢) ، حُفَّت بالشهوات ، وراقت بالقليل ، وأينمت
بالفاني ، وتحببت بالماجل ، لا يدوم نعيمها ، ولا تؤمن نجيعتها ، أكالة غوالة
غرارة ، لا تبقى على حال ، ولا يبقى لها حال . ان تمدوا الدنيا إذا تناهت إلى أمانة
أهل الرغبة فيها والرضا بها أن تكون كما قال الله عزَّ وجلَّ : « وَأَضْرِبْ لَهُمْ
مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ
هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا » نسأل الله ربنا وإلهنا
ونخالقنا ومولانا أن يجعلنا وإياكم من فزع يومئذ آمنين ، إن أحسن الحديث
وأبلغ الموعظة كتاب الله ، يقول الله : « وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ

وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ^(١) ، حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ » . (الفردوس ٢ : ١٤٢)

١٦٢ — خطبة معاوية بن يزيد ^(٢) (توفي سنة ٦٤)

أمر معاوية بن يزيد بن معاوية بعد ولايته ، فنودي بالشأم : الصلاة جامعة ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإنني قد نظرت في أمركم فضغقت عنه ، فابتغيت لكم رجلا مثل عمر بن الخطاب رحمة الله عليه حين فرّج إليّ أبو بكر ، فلم أجده ، فابتغيت لكم ستة في الشورى مثل ستة عمر فلم أجدها ، فأنتم أولى بأمركم ، فاخاروا له من أحببتهم ، فما كنت لأتزوّدّها ميتاً ، وما استمعت بها حياً » .
ثم دخل منزله ولم يخرج إلى الناس ، وتغيّب حتى مات ^(٣) .

(تاريخ الطبري ٧ : ٣٤ ، والنخعي ص ١٠٧ ، ومروج الذهب ٢ : ٩٧)

خطب عبد الملك بن مروان (توفي سنة ٨٦ هـ)

١٦٣ — خطبته بمكة

خطب بمكة فقال في خطبته :

« أيها الناس : إني والله ما أنا بالخليفة المستضعف (يريد عثمان بن عفان)

[١] أي عنتكم (مشقتكم) . [٢] استخلف في شهر ربيع الأول سنة ٦٤ هـ ، ولم يلبث في الخلافة إلا ثلاثة أشهر وقيل أربعين يوما . [٣] قيل دس إليه فتق سبها ، وقال بعضهم دلس ، وتوفي وهو ابن ثلاث عشرة سنة وثمانية عشر يوما وقيل ابن إحدى وعشرين سنة .

ولا بالخليفة المداهن (يريد معاوية بن أبي سفيان) ولا بالخليفة المأفون^(١)
(يريد يزيد بن معاوية) فن قال برأسه كذا ، قلنا له بسيفنا كذا . ثم نزل^(٢) .
(المقد الفريد ٢ : ١٤٢ و ٢٦٣)

١٦٤ - خطبة له موجزة

وخطب على المنبر فقال :

« أيها الناس إن الله حدّ حدوداً ، وفرض فروضاً ، فما زلتُم تردادون في
الذنب ، وترداد في العقوبة ، حتى اجتمعنا نحن وأتم عند السيف .
(المقد الفريد ٢ : ٢٦٣)

١٦٥ - خطبته حين قتل عمرا الأشدق بن سعيد بن العاص^(٣)

« ارمؤا بأبصاركم نحو أهل المعصية ، واجعلوا سلفكم لمن غيّر^(٤) منكم عظة ،
ولا تكونوا أغفالاً من حسن الاعتبار ، فنزل بهم جائحة^(٥) السطّوات ، وتجنّس

[١] للمأفون : الضعيف الرأي والقل . [٢] قال أبو إسحق النخاس : « أما والله لولا ليك من
هذا المستضعف وسبك من هذا المداهن لكنت منها أبعد من الميوق (بفتح الميم وتنديد الياء نجم أحر
مضى . يلو التراب) والله ما أخذتها بوراة ، ولا ساجة ، ولا قرية ، ولا يدعوى شوري ، ولا بورية » .
[٣] وذلك أنه لما كانت الفتنة بعد موت معاوية الثاني ، وانحاز النخاس بن قيس الفهري عن مروان بن
الحكم ، واستمال الناس ودعا إلى ابن الزبير ، اتقى مروان وعمرو بن سعيد الأشدق (وهو عمرو بن سعيد
ابن الناص بن سعيد بن الناص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف) فقال للأشدق لمروان : دل لك فيما
أقول لك ؟ فهو خير لي ولك ، فقال مروان : وما هو ؟ قال : أدعو الناس إليك وأخذها لك على أن
تكون لي من بعدك . فقال مروان : لا بل بعد خالد بن يزيد بن معاوية ، فرض الأشدق بذلك ودعا الناس
إلى بيعة مروان فأجابوا به وباج مروان بعده خالد بن يزيد ، وأمروا بن سعيد بعده خالد ، ثم مات مروان وخلفه
ابنه عبد الملك ، ولما اعتزم عبد الملك أن يخرج إلى العراق لقتال مصعب بن الزبير بنفسه . فله له عمرو :
إنك تخرج إلى العراق ، وقد كان أبوك وعدني هذا الأمر من بعده ، وعلى ذلك جاهدت معه ، وقد كان
من بلائي مع ما لم يخف عليك ، فأقبل لي هذا الأمر من بعدك ، فلم يجبه عبد الملك إلى شيء ، فلما كان
من دمشق على ثلاث مراحل أغلق عمرو بن سعيد دمشق وخالف عليه ، فرجع إلى دمشق وحاصرها حتى
صالح عمرو بن سعيد على أنه الخليفة بعده ففتح له ، ثم إن عبد الملك احتال له حتى قتل سنة ٦٩ .
[٤] نقي ، وأغفال جمع غفل كقتل . [٥] الجوح والاحتياج : الاملاك والاستعمال .

خلالكم بوادئ النقمات ، وتطأ رقابكم بثقلها التوبة ، فتجعلكم حمداً^(١) رؤفاناً ،
وتشتمل عليكم بطون الأرض أمواتاً ، فأبلى من قول قاتل ، ودرشقة جاهل ،
فإعما بيني وبينكم أن أسمع النعوة^(٢) ، فأصمم تصميم الحسام المطرور^(٣) ،
وأصول صيال الحنق الموتور^(٤) ، وإعما هي المصافحة والمكافحة ، بظلمات
السيوف وأسنة الرماح ، والمعاودة لكم بسوء الصباح ، فتأب قائب ، وهديل
خائب^(٥) ، والتوب مقبول ، والإحسان مبذول ، لمن عرف رُشدَه ، وأبصر حفظه ،
فانظروا لأنفسكم ، وأقبلوا على حظوظكم ، وليكن أهل الطاعة يداً على أهل
الجهل من سفهائكم ، واستدعيوا النعمة التي ابتدأتكم برغيد عيشها ، وقفيس
زينتها ، فإنكم من ذلك بين فضيلتين : عاجل الخفض والدعة ، وآجل الجزاء
والمثوبة ، عصمكم الله من الشيطان وفتنته وثرغته^(٦) ، وأمدكم بحسن مموته
وحفظه ، انهضوا رحمكم الله إلى قبض أعطيائكم ، غير مقطوعة عنكم ، ولا
مكدرة عليكم . (صح الأعمى : ١ : ٢١٨)

١٦٦ - خطبته لما دخل الكوفة بعد قتل مصعب بن الزبير^(٧)

لما قتل عبد الملك مُصعب بن الزبير سنة ٧١ هـ دخل الكوفة فصعد
المبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال :

[١] الحمد : البالي من كل شيء ، والرفات : الخطام . [٢] النعوة والنية : أول الخبر قبل أن
تستجبه . [٣] اللحوذ : من الطير وهو تحديد الكين وغيرها . [٤] صاحب الور وهو الثأر .
[٥] هذه يهله كفره : أرغله ، وهديل للكفر كفرح : استرخى أى ضف الحائب وخره والله حائب
من الحوب بفتح الحاء وضها وهو الاتم . حاب بكذا أتم حوباً أى ضف الأثم للذنب .
[٦] ترغ بينهم : أتمد وأغرى .

[٧] نسب القلتندي هذه الخطبة إلى معاوية وذكر أنه خطبها بمغنين (صح الأعمى : ١ : ٢١٥)

وعزاهما القائل في الأمال إلى عبد الله بن مروان وهو ما ترجحه لما يدل عليه سياق الخطبة .

« أيها الناس إن الحرب صعبة مُرَّة ، وإن السِّلْمَ أَمْنٌ وَمَسْرَّةٌ ، وقد زَبَنَّا^(١) الحرب وزَبَنَّاها ، فمرفعاها وألغناها ، فنحن بنوها وهي أمتنا . أيها الناس فاستقيموا على سُبُل الهدى ، ودَعُوا الأهواء المُرْدِيَّة ، وتجنبوا فراق جماعات المسلمين ، ولا تكلفونا أعمال المهاجرين الأولين ، وأنتم لا تعملون أعمالهم ، ولا أظنكم تردادون بمد الموعظة إلا شراً ، ولن ترداد بمد الإعذار إليكم والحجة عليكم إلا عقوبةً ، فمن شاء منكم أن يعود بعدُ لثلاثها فليَعُدْ ، فإنما مثلي ومثلكم كما قال قيس بن رِفاعَةَ الأنصاري :

من يَصْلُ ناري بلا ذنب ولا تِرَّة	يَصْلُ بنار كريم غير غدار ^(٢)
أنا النذير لكم مَنى مجاهرة	كي لا أَلَام على نهي وإندار
فإن عَصَيْتُمْ مَقَالِي اليوم فاعترفوا	أن سوف تلقون خِزْيًا ظاهر العار
لَتَرْجِمُنَّ ^(٣) أحاديثنا مُلَمَّنة	لَهُوَ المقيم وهو المذَلج السَّاري ^(٤)
من كَانَ في نفسه حَوَجا يطلبها	عندي فَإِنِّي له رَهْنٌ بِإِحصار ^(٥)
أقيم عَوَجته إن كَانَ ذا عِوج	كما يَقُوم قِدَحُ التَّبَعَةِ الباري ^(٦)
وصاحب الوتر ليس الدهر مدركه	عندي ، وإِنِّي لَدَرَاكٌ بأوتار

(الأمل : ١ : ١٢)

[١] أي دفننا ودفنناها ، والزن : الدفع ، وانه اشتقاق الزبانية (جمع زبنة أو زبني يكسر الزاي وسكون الباء) لأنهم يدفعون أهل النار إلى النار ومنه أيضا حرب زبون يفتح الزاي .
[٢] الترة والوتر : النار . [٣] أذلج : سار من أول الليل فإن سار من آخره قد أذلج بالتشديد والساري : الذي يسير بالليل . [٤] الموجه : الحاجة . وقوله بإحصار : أي لا أستتر عنه ، ولا أمتنع في الأماكن الحصينة من أحرار القوم : يرذوا إلى الصرراء . [٥] العوج بالفتح في كل ما كان متصبا مثل الإنسان والعصا والنود وشبهه ، والعوج بالكسر : ما كان في بساط أو أرض أو مطش أو دين ، وقيل بالفتح مصدر وبالكسر اسم منه ، والقدح : السهم قبل أن يرش ويصل جه فداح ، والتبة واحدة للنج وهو شجر القسي والسلام .

١٦٧ - خطبته عام حجة

وحج عبد الملك في بعض أعوامه ، فأمر للناس بالطاء ، فخرجت بذرة ^(١) مكتوب عليها من الصدقة ، فأبى أهل المدينة قبولها ، وقالوا : إنما كان عطاؤنا من النبي ، فقال عبد الملك وهو على المنبر :

« يا مشرق ريش ، مذلنا ومثلكم أن أخوين في الجاهلية خرجا مسافرين ، فنزلا في ظل شجرة تحت صفاة ^(٢) ، فلما دنا الزواح خرجت إليهما من تحت الصفاة حية تحمل ديناراً ، فألقته إليهما ، فقالا : إن هذا لمن كثر ، فأقاما عليها ثلاثة أيام ، كل يوم تخرج إليهما ديناراً ، فقال أحدهما لصاحبه : إلى متى ننتظر هذه الحية ؟ ألا تقتلها ونحفر هذا الكنز فنأخذه ، فنهاه أخوه ، وقال : ما تدرى لعلك تطلب ولا تدرك المال ، فأبى عليه ، وأخذ فأسأ معه ، ورصد الحية حتى خرجت ، فضربها ضربة ، جرحت رأسها ولم تقتلها ، فذارت الحية فقتلتها ، ورجعت إلى جحرها ، فقام أخوه ، فدفننه وأقام حتى إذا كان من الغد ، خرجت الحية معصوباً رأسها ، ليس معها شيء ، فقال لها : يا هذه ، إني والله ما رضيت ما أصابك ، ولقد نهيته أخى عن ذلك ، فهل لك أن نجعل الله بيننا أن لا تضريني ولا أضررك ، وترجعين إلى ما كنت عليه ؟ قالت الحية : لا ، قال : ولم ذلك ؟ قالت : إني لأعلم أن قفسك لا تطيب لي أبداً ، وأنت ترى قبر أخيك ، وقفسى لا تطيب لك أبداً ، وأنا أذكر هذه الشجرة ^(٣) ، وأنشدم شعر النابتة :

فقلت أرى قبراً تراه مقابلي وضربة فأس فوق رأسي فأغريه

[١] البذرة : كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم أو سبعة آلاف دينار .

[٢] الصفاة : الحجر المصلد الضخم . [٣] راجع مجمع الأمثال للبيدائي ٢ : ٦١ في اللؤلؤ :

« كيف أطارئك ومذا أثر فاك » .

فيا معشر قريش وليكم عمر بن الخطاب ، فكان فظاً غليظاً مضيقاً عليكم ، فسمعتم له وأطعتم ، ثم وليكم عثمان فكان سهلاً ، فعَدَّوْتم عليه فقتلتموه ، وبشنا عليكم « مسلماً » ^(١) يوم الحرّة فقتلناكم ، فنحن نعلم يا معشر قريش أنكم لا تحبوننا أبداً ، وأنتم تذكرون يوم الحرّة ، ونحن لا نحبكم أبداً ونحن نذكر قتل عثمان .
(مروج الذهب ٢ : ١٢٩)

١٦٨ - خطبته وقد علم بخروج ابن الأشعث

ولما ورد إليه كتاب الحجاج ينبئُهُ بخروج ابن الأشعث ، خرج إلى الناس فقام فيهم حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« إن أهل العراق طال عليهم عمري ، فاستعجلوا قَدْرِي ، اللهم سلط عليهم سيوف أهل الشام ، حتى يلغوا رضاك ، فإذا بلغوا رضاك ، لم يجاوزوا إلى سخطك » .
ثم نزل . (تاريخ الطبري ٨ : ١٠)

١٦٩ وصيته لبعض أمرائه

وأوصى عبد الملك أميراً سيَّره إلى أرض الروم ، فقال :
« أنت تاجر الله لعباده ، فكن كاللضارب الكدّيس الذي إن وجد رجلاً اتجّر ، وإلا تحفظ برأس المال ، ولا تطلب النسيئة حتى تُحرز السلامة ، وكن من احتيالك على عدوك ، أشدَّ حذراً من احتيال عدوك عليك » .

(الفرد ١ : ٤١)

[١] موصل بن عتبة الرّبي صاحب وقعة الحرّة ، وذلك أن أهل المدينة كانوا كرهوا خلافة يزيد بن معاوية وغلوه وحسروا من كان بها من بني أمية وأخانوم ، فوجه إليها مسلم بن عتبة فغاصرها من جهة الحرّة ، « موضع بظاهر المدينة » ودخلها ، ودعا الناس لبيعة على أنهم خول يزيد يحكم في دنائهم وأموالهم وأهلهم ما شاء ، وقد أُلح المدينة ثلاثاً : قتل ، ونهب ، وسي . قيل إن الرجل من أهل المدينة بعد ذلك كان إذا زوج ابنته لا يضمن بكالوتها ، ويقول لها ما اقتضت في وقعة الحرّة . « وكانت في ذى الحجة من سنة ٦٣ هـ » .

١٧٠ — وصيته للشعبي

وروى المسعودي في مروج الذهب قال :

ولما أفضى الأمر إلى عبد الملك بن مروان ، تأقت نفسه إلى محادثة الرجال والأشراف في أخبار الناس ، فلم يجد من يصلح لمناذمته غير الشعبي ، فلما حُمل إليه وناداه ، قال له :

« يَا شَعْبِي ، لَا تَسَاعِدْنِي عَلَى مَا قُبِحَ ، وَلَا تَرُدُّ عَلَيَّ الْخَطَأَ فِي مَجْلِسِي ، وَلَا تُكَلِّفَنِي جَوَابَ التَّشْمِيتِ ^(١) وَالتَّهْنِئَةِ ، وَلَا جَوَابَ السُّؤَالِ وَالتَّعْزِيَةِ ، وَدَع عَنْكَ (كَيْفَ أَصْبَحَ الْأَمِيرَ ، وَكَيْفَ أَمْسَى) . وَكُنْ بَقْدَرِ مَا أُسْتَطْعِمُكَ ، وَاجْعَلْ بَدَلَ الْمَدْحِ لِي ، صَوَابَ الْاسْتِمَاعِ مِنِّي ، وَاعْلَمْ أَنَّ صَوَابَ الْاسْتِمَاعِ أَكْثَرُ مِنْ صَوَابِ الْقَوْلِ ، وَإِذَا سَمِعْتَنِي أَتَحَدَّثُ ، فَلَا يَفُوتُكَ مِنْهُ شَيْءٌ ، وَأَرِي فِيهِمْكَ مِنْ طَرَفِكَ وَتَمْنَعُكَ ، وَلَا تُجْهِدَ نَفْسَكَ فِي تَقْلِيلِ ^(٢) صَوَابِي ، وَلَا تَسْتَدْعِ بِذَلِكَ الزِّيَادَةَ فِي كَلَامِي ، فَإِنْ أَسْوَأَ النَّاسَ حَالًا مِنْ اسْتِكْدَاءِ الْمُلُوكِ بِالْبَاطِلِ ، وَإِنْ أَسْوَأَ النَّاسَ حَالًا مِنْهُمْ مَنْ اسْتَخَفَّ بِحَقِّهِمْ ، وَاعْلَمْ يَا شَعْبِي أَنَّ أَقْلَ مَنْ هَذَا يَنْهَبُ بِسَالِفِ الْإِحْسَانِ ، وَيُسْقِطُ حَقَّ الْحَرَمَةِ ، فَإِنْ الصَّمْتُ فِي مَوْضِعِهِ ، رَبَّمَا كَانَ أَبْلَغُ مِنَ النُّطْقِ فِي مَوْضِعِهِ ، وَعِنْدَ أَصَابَتِهِ وَفُرْصَتِهِ » . (مروج الذهب ٢ : ١٠٩)

١٧١ — وصيته لآخيه عبد العزيز بن مروان

وأوصى عبد الملك بن مروان أخاه عبد العزيز حين ولاء مصر فقال :

« ابْسُطْ بَشْرَكَ ، وَأَلِنْ كَتَفَكَ ، وَآثِرِ الرِّفْقَ فِي الْأُمُورِ ، فَإِنَّهُ أَبْلَغُ بِكَ ،

[١] التَّشْمِيتُ : الدِّعَاءُ لِمَا طُسَ . [٢] فِي الْأَصْلِ « فِي خُطْبَةِ صَوَابِي » وَأَرَادَ عَمْرًا ، وَالتَّنْظِيرَ : الْإِتِّفَاقَ .

وانظر حاجبك ، فليكن من خير أهلك ، فإنه وجهك ولسانك ، ولا يَقِفَنَّ أحد يبابك إلا أعلمك مكانه ، لتكون أنت الذى تأذن له أو رُدَّه ، وإذا خرجت إلى مجلسك فابدأ بالسلام ، يأنسوا بك ، وتثبت في قلوبهم محبتك ، وإذا انتهى إليك مُشْكِل ، فاستظهر عليه بالمشاورة ، فإنها تفتح مغاليق ^(١) الأمور ، وإذا سَخِطت على أحد فأخّر عقوبته ، فإنك على العتوبة بمد التوقف عنه ، أقدرُ منك على رُدِّها بمد إمضاها .

(النخري ١١٣)

١٧٢ — وصيته لولده عند وفاته

نظر عبد الملك إلى ابنه الوليد وهو يبكي عليه عند رأسه ، فقال :
 « يا هذا أحنين الحمامة ؟ إذا أنا ميتٌ فشمروا ثُرر ، والبسن جلد ثَبر ، وضع سيفك على عاتقك ، فن أبدي ذات نفسك ، فاضرب عنقه ، ومن سكت مات بداؤه ، ثم أقبل عبد الملك يذم الدنيا ، فقال : « إن طويلك لقصير ، وإن كثيرك لقليل ، وإن كنا منك لني غرور » . ثم أقبل على جميع ولده فقال : « أوصيكم بتقوى الله ، فإنها عصمة باقية ، وجنة واقية ، فالتقوى خير زاد ، وأفضل في المعاد ، وهى أحسن كهف ، وليعطف الكير منكم على الصغير ، ويعرف الصغير حق الكبير ، مع سلامة الصدر ، والأخذِ بحمِل الأمور ، وإياكم والبنى والتحاسد ، فهما هلك الملوكة الماضون ، وذوو العز المسكين . يابني : أخوكم مسئلة فابكم الذى تَقْرُون ^(٢) عنه ، ومِحَنَكُم ^(٣) الذى تستجئون به ، اصدُرُوا عن رأيهِ ، وأكرموا

[١] جمع ملاق بكسر اللام وهو ما يطلق به الباب . [٢] قرأ الهابة : كشف عن أسنانها لينظر ما فيها . [٣] المحن : الترس .

الحجاج ، فإنه الذي وطأ لكم هذا الأمر ، كونوا أولادا أبراراً ، وفي الحروب أحراراً ، وللمعروف مَناراً ، وعليكم السلام . (مروج الذهب ٢ : ١٥٤)

١٧٣ . خطبة للوليد بن عبد الملك بعد دفن أبيه (توفي سنة ٩٦ هـ) لما رجع الوليد من دفن عبد الملك لم يدخل منزله حتى دخل المسجد ، ونادى في الناس : الصلاة جامعة ، فصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس إنه لا مؤخر لما قدّم الله ، ولا مقدّم لما أخر الله ، وقد كان من قضاء الله ، وسابق علمه ، وما كتب على أنبيائه ، وحملته عرشه من الموت موتٌ ولى هذه الأمة ، ونحن نرجو أن يصير إلى منازل الأبرار ، للذي كان عليه من الشدة على الرّيب ، واللين على أهل الفضل والدين ، مع ما أقام من منار الإسلام وأعلامه ، وحجّ هذا البيت ، وغزو هذه الثغور ، وشنّ الغارات على أعداء الله ، فلم يكن فيها عاجزاً ، ولا وائياً ، ولا مفرطاً ، فهايكُم أيها الناس بالطاعة ، ولزوم الجماعة ، فإن الشيطان مع القدّ ، وهو من الجماعة أبعد ، واعلموا أنه من أبدى لنا ذات نفسه ، ضربنا الذي فيه عيناه ، ومن سكّت مات بدائه .

ثم نزل . (الفتوح ٢ : ١٤٢ ، وتاريخ الطبري ٨ : ٥٩)

١٧٤ — خطبة لسليمان بن عبد الملك (توفي سنة ٩٩ هـ)

الحمد لله . ألا إن الدنيا دار غرور ، ومنزناً باطل ، تُضحك باكياً ، وتُبكي ضاحكاً ، وتُخيف آمناً ، وتؤمن خائفاً ، وتُفقر مثرى ، وتُثري مُقتراً ^(١) ، مبالغة غرارة ، لمابة بأهلها . عباد الله ، فاتخذوا كتاب الله إماماً ، وارتضوا به حكماً ، واجعلوه لكم قائداً ، فإنه ناصح لما كان قبله ، ولم ينسخه كتاب بعده ، واعلموا

عباد الله أن هذا القرآن يجلو كيد الشيطان ، كما يجلو ضوء الصبح إذا تنفس ، ظلام الليل إذا عَسَسَ ^(١) .

(القدر الفريد ٢ : ١٤٣ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٧ ، والبيان والبيان ١ : ١٦٦)

خطب عمر بن عبد العزيز (توفي سنة ١٠١ هـ)

١٧٥ - أولى خطبه

قال المُشَيِّ : أول خطبة خطبها عمر بن عبد العزيز رحمه الله قوله :

« أيها الناس ، أصلحوا سرائركم ، تصلح لكم علائبتكم ، وأصلحوا آخرتكم ، تصلح دنياكم ، وإن امرأ ليس بينه وبين آدم أب حى لمُعْرِق في الموت » .
(القدر الفريد ٢ : ١٤٣ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٢١٧)

١٧٦ - خطبة أخرى

وروى المسعودى فى مروج الذهب ، أنه لما أفضى إليه الأمر ، كان أول خطبة خطب الناس بها أن قال :

« أيها الناس ، إنما نحن من أصول قد مضت فروعها ، فما بقاء فرع بعد أصله ؟ وإنما الناس فى هذه الدنيا أغراض ^(٢) تنتزِل فيهم المنايا ، وهم فيها نُصَب المصائب ، مع كل جرعة شَرَق ^(٣) ، وفى كل أكلة غَصَص ، لا ينالون نعمة إلا بفراق أخرى ، ولا يُعمَّر مُعَمَّرٌ منكم يوماً من عمره إلا بهِذَم آخر من أجله » .
وأورد القالى فى الأمالى هذه الخطبة بصورة أطول ، وهى :

« ما الجزع مما لا بُدُّ منه ، وما الطمع فيما لا يُرْجى ، وما الحيلة فيما سيزول ؟

[١] تنفس المبح : أسفر ، وعسس الليل : أقبل ظلامه (أو أدبر) . [٢] جمع غرض وهو الهدف واتصلت : تتاحلت وتبارت فى الرى . [٣] شرق برقه : غص .

وإنما الشيء من أصله ، فقد مَضَتْ قبلنا أصول نحن فروعها ، فما بقاء فرع بعد أصله ؟ إنما الناس في الدنيا أغراض تتفضل فيهم المنايا ، وهم فيها تهتّب للمصائب ، مع كل جرعة شَرَق ، وفي كل أكلة غَصَص ، لا يتألون نعمة إلا بفراق أخرى ، ولا يعمّر مُعمّر يوماً من عمره إلا بهدم آخر من أجله ، وأنتم أعوان الخوف على أنفسكم ، فأين المَهْرَب مما هو كَأَن ؟ وإنما تنقلب في قدرة الطالب ، فما أصغر المصيبة اليوم ، مع عظيم الفائدة غداً ، وأكبر خيبة الخائب فيه ، والسلام .

(مروج الذهب ٢ : ١٦٨ ، والأمل ٢ : ١٠٢ ، وسيرة عمر بن العزيز لابن الجوزي ص ٢١٣)

١٧٧ - خطبة أخرى

وروى أنه لما دَفَنَ سليمان بن عبد الملك ، وخرج من قبره ، سَمِعَ للأرض رَجَّةً ، فقال : ما هذه ؟ فقيل : هذه مَرَاكِبُ الخلافة يا أمير المؤمنين ، قُرِبَتْ إليك لتركبها ، فقال : مَالِي وَلَهَا ؟ نَحْوُهَا عَنِي ، قُرِبُوا إِلَيَّ بَنَاتِي ، فقربت إليه فركبها ، وجاءه صاحب الشرطة يسير بين يديه بالحرية ، فقال : تنح عني ، مالي ولك ؟ إنما أنا رجل من المسلمين ، فسار وسار معه الناس ، حتى دخل المسجد ، فصعد المنبر ، واجتمع إليه الناس ، فقال :

« أيها الناس : إني قد ابْتُلِيتُ بهذا الأمر عن غير رأيي كان مني فيه ، ولا طَلِبَةٌ له ، ولا مَشُورَةٌ من المسلمين ، وإني قد خلعت ما في أعناقكم من يَمَعِي ، فاختاروا لأنفسكم . »

فصاح الناس صيحةً واحدة : قد اخترناك يا أمير المؤمنين ، ورضينا بك ، فَلِأَمْرِنَا بِالْيَمْنِ والبركة ، فلما رأى الأصوات قد هدأت ، ورضي به الناس جميعاً ،

حمد الله، وأثنى عليه، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم، وقال :

« أوصيكم بتقوى الله ، فإن تقوى الله خَلَفَ من كل شيء ، وليس من تقوى الله عزَّ وجلَّ خَلَفَ ، واعملوا لآخرتكم ، فإنه من عملٍ لآخرته كفاه الله تبارك وتعالى أمرَ دنياه ، وأصلحوا سراركم ، يُصلح الله الكريم علايتكم ، وأكثرُوا ذكر الموت ، وأحسنُوا الاستعدادَ قبل أن ينزل بكم ، فإنه هادِمُ اللذات ، وإن من لا يذكر من آياته فيما بينه وبين آدم عليه السلام أباحيًا لمُغرقٍ في الموت ، وإن هذه الأمة لم تختلف في ربها عزَّ وجلَّ ، ولا في نبيها صلى الله عليه وسلم ، ولا في كتابها ، وإنما اختلفوا في الدينار والدرهم ، وإني والله لا أُعْطِي أحداً باطلا ، ولا أُمْنِعُ أحداً حقاً ، إني لست بخازن ، ولكني أضع حيث أمرتُ . أيها الناس : إنه قد كان قلي ولادة تجتثرون^(١) مودتهم ، بأن تدفعوا بذلك ظلمهم عنكم ، ألا لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، من أطاع الله وجبت طاعته ، ومن عصى الله فلا طاعة له ، أطيعوني ما أطعتُ الله فيكم ، فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم . أقول قولي هذا ، وأستغفر الله العظيم لي ولكم » .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٥٣ - ٢٠١ ، وابن عبد الحكم ص ٣٩)

١٧٨ — خطبة أخرى

وروى أنه لما ولى الخلافة صعد المنبر، وكان أول خطبة خطبها : حمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« يا أيها الناس من صَحِبْنَا فَلْيَصْحَبْنَا بِخَمْسٍ ، وإفلا يَقْرَبْنَا : يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها ، ويُعيننا على الخير يجهد ، ويدلنا من الخير على ما لا نتهدي

إليه ، ولا يفتابنَّ عندنا الرعية ، ولا يعترض فيما لا يعنيه .

فاتشع عنه الشعراء والخطباء ، وثبت الفقهاء والزهاد ، وقالوا : ما يسعنا أن نفارق هذا الرجل ، حتى يخالف قوله فعله .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ١٩٦)

١٧٩ - خطبة أخرى

وصعد المنبر : فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، أيها الناس ، إنه ليس بعد نبيكم صلى الله عليه وسلم نبي ، وليس بعد الكتاب الذي أنزل عليه كتاب ، فما أحلَّ الله على لسان نبيه فهو حلال إلى يوم القيامة ، وما حرَّم الله على لسان نبيه فهو حرام إلى يوم القيامة ، ألا إني لست بقاضٍ ، ولكني منفذ لله ، ولست بمبتدع ، ولكني متَّبِع ، ألا إنه ليس لأحد أن يُطاع في معصية الله عز وجل ، ألا إني لست بخيركم ، وإنما أنا رجل منكم ، غير أن الله جعلني أمثلَكم جَمَلًا . يا أيها الناس : إن أفضل العبادَةِ أداء الفرائض ، واجتناب المحارم . أقول قولي هذا ، وأستغفر الله العظيم لي ولكم . »

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٥٦ ، وص ١٩٨ ، ولابن عبد الحكم ص ٢٨ ، ومروج الذهب ٢ : ١٦٨)

١٨٠ - خطبة أخرى

وخطب فقال :

« أيها الناس ، إنكم ميتون ، ثم إنكم مبعوثون ، ثم إنكم محاسبون ، فلمعري لئن كنتم صادقين لقد قصَّرتُم ، وإن كنتم كاذبين لقد هلكتم . يا أيها الناس ، إنه من يقدر له رزق برأس جبل ، أو بحضيق أرض يأتيه ، فأجملوا في

الطلب . (إيجاز القرآن ص ١٢٤ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ١٩٨)

وخطب فقال :

« إن الدنيا ليست بدار قرار ، دارٌ كَتَبَ اللهُ عليها الفناء ، وكتب على أهلها منها الظَّن ، فكم طائرٌ مُؤْتَقٍ عما قليلٍ يُخْرَب ، وكم مُقِيمٍ مُقْتَبِطٍ عما قليلٍ يظن ، فأحسنوا رحمكم الله منها الرِّخلة ، بأحسن ما يحضركم من الثَّقلَةِ : وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى . إنما الدنيا كُنْزٌ ^(١) ظِلَالٌ قَلَمٌ فذهب ، بينا ابنُ آدم في الدنيا منافس ، وبها قريرٌ عين ، إذ دعا الله بقدره ، ورواه يوم حَفَنِهِ ، فسلبه آثاره ودياره وديناه ، وصير لقوم آخرين مَصَانِمَهُ وَمَقْنَاهُ ^(٢) ، إن الدنيا لا تسر بقدر ما تَصُرُّ ، إنها تسر قليلا ، وتجر حزنا طويلا .

(سيرة مربي عبد العزيز لابن الجوزي ص ١٩٧ و ص ٢٢١)

١٨٢ - خطبة له يوم عيد

وخطب يوم عيد ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم تلا ثلاث آيات من كتاب الله عز وجل ، ثم قال :

« يا أيها الناس ، إني وجدت هذا القلب لا يعبر عنه إلا اللسان ، وَلَعَمْرِي - وإنِ لِعَمْرِي مني لَحَقًّا ^(٣) - لو دِدْتُ أَنَّهُ ليس من الناس عبد ابْتُلِيَ بِسَعَةِ ، إِلَّا نَظَرَ قَطِيعًا مِنْ مَالِهِ ، يَحْمِلُهُ فِي الْفَقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ، وَالْيَتَامَى وَالْأَرَامِلِ ، بدأت أنا بنفسى وأهل بيتي ، ثم كَانَ الناس بعدُ .

[١] الزَّادُ : ما كان شمساً فيلحقه الظل ، وقليل الظل كضرب : امشي . [٢] للمناجى : الباقي من الصور والحسوس ، والشيء : المنزل . [٣] العبر بالفتح والضم : الحياة ، والقرموا المفتوح في القسم خاصة تخفيفاً ، لكثرة استعماله فيه .

ثم كَانَ آخرَ كلمةٍ تكلمَ بها حينَ نزلَ : « لولا سُنَّةُ أَحْيَيْتُهَا ، أوِ بدعةُ أَمْتُهَا ،
لمِ يَأَلِ أَنْ لَا أَتَى فِي الدُّنْيَا إِلَّا قَوَّامًا ^(١) » . (سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢٠١)

١٨٣ — خطبة له

وخطب فقال :

« أما بعد : أيها الناس ، فلا يَطُولَنَّ عَلَيْكُمُ الْأَمَدُ ، وَلَا يَمُدَّنَّ عَنْكُمُ يَوْمُ
الْقِيَامَةِ ، فَإِنْ مِنْ زَاغَتْ ^(٢) بِهِ مَنِيَّتُهُ ، فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ ، لَا يَسْتَقْبِلُ مِنْ سَيِّئٍ ،
وَلَا يَرْيَدُ فِي حَسَنٍ ، إِلَّا لَا سَلَامَةَ لِمَرِيٍّ فِي خِلَافِ السُّنَّةِ ، وَلَا طَاعَةَ لِلْمَخْلُوقِ
فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ ، إِلَّا وَإِنْكُمْ تَعُدُّونَ الْمَهَارِبَ مِنْ ظُلْمِ إِمَامِهِ عَاصِيًا ، إِلَّا وَإِنْ أَوْلَاهُمَا
بِالْمَعْصِيَةِ الْإِمَامُ الظَّالِمُ ، إِلَّا وَإِنِّي أَعَالِجُ أَمْرًا لَا يُبَيِّنُ عَلَيْهِ إِلَّا اللَّهُ ، قَدْ فَنِيَ عَلَيْهِ
الْكَبِيرُ ، وَكَبُرَ عَلَيْهِ الصَّغِيرُ ، وَفُصِّحَ عَلَيْهِ الْأَعْجَمِيُّ ، وَهَاجَرَ عَلَيْهِ الْأَعْرَابِيُّ ، حَتَّى
حَسِبُوهُ دِينًا ، لَا يَرَوْنَ الْحَقَّ غَيْرَهُ » . ثم قال : « إِنَّهُ لَحَبِيبٌ إِلَى أَنْ أَوْفَرَ أَمْوَالَكُمْ
وَأَمْرًا ضَمَّكُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ » .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ٤٠ ، ولابن الجوزي ص ٢٠٤)

١٨٤ — خطبة أخرى

وصعد ذات يوم المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس ، إِنَّمَا يُرَادُ الطَّيِّبُ لِلْوَجَعِ الشَّدِيدِ ، أَلَا فَلَا وَجَعَ أَشَدُّ مِنْ
الْجَمَلِ ، وَلَا دَاءٌ أَخْبَثُ مِنَ الذَّنُوبِ ، وَلَا خَوْفٌ أَخَوْفُ مِنَ الْمَوْتِ » . ثم نزل .
(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢٠٧)

[١] الفراق كغراب ويخرج : ما بين الحبيبين من وقت أو ما بين فتح يدك وقبضها على الفزع .

[٢] من زافت الحامة : إذا غمرت جناحيها وذنبها وسحبها على الأرض ، وفي رواية : « وافته »

١٨٥ — خطبة أخرى

وصعد المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال :

« أما بعد : فإن هؤلاء القوم قد كانوا أعطونا عطايا ^(١) ، والله ما كان لهم أن يُعْطُونَاهَا ، وما كان لنا أن نَقْبَلَهَا ، وإن ذلك قد صار إلى ، ليس على فيه دون الله محاسبٌ ، ألا وإنني قد رَدَدْتُهَا ، وبدأت بنفسى وأهل بيتى » اقرأ يا مَراحِم — وكان مولاه —

وقد جيء قبل ذلك بسَقَطَ فِيهِ تلك الكتب ، فقرأ مراحِم كتاباً منها ، ثم ناوله عمر ، وهو قاعد على المنبر وفي يده جِلْمٌ ^(٢) ، فجعل يَقْصُهُ ، واستأنف مراحِم كتاباً آخر فقرأه ، ثم دفعه إلى عمر فقصه ، فما زال حتى نُودِيَ بصلاة الظهر .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ١٠٨)

١٨٦ — خطبة له

وكان يخطب فيقول :

« أيها الناس : من أَلَمَ بِذَنْبٍ فَلْيَسْتَغْفِرِ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَلْيَتُبْ ، فإن عاد فليستغفر وليتب ، فإن عاد فليستغفر وليتب ، فإنما هي خطايا مطوَّقة في أعناق الرجال ، وإن الهلاك كل الهلاك الإصرارُ عليها . »

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ١٩٨)

١٨٧ — خطبة له

وخطب الناس بعد أن جمعهم فقال :

« إني لم أجمعكم لأمرٍ أحدثته ، ولكنني نظرت في أمر معادكم ، وما أنتم إليه صائرُونَ ، فوجدت المصدقَ به أحقَّ ^(٣) ، والمكذبَ به هالكاً . ثم نزل . »

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الحكم ص ٢٩)

[١] يريد آياه وما ورثوه لياه . [٢] نفس . [٣] أى أحق بثواب الله ولغير جنته .

١٨٨ - خطبة له

وخطب فقال :

« أيها الناس ، لا تستصغروا الذنوب ، والتمسوا تحييص ما سلف منها بالتوبة منها ، إن الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكركم للذاكرين ، وقال عز وجل : « وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً ، أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ، وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ ذُنُوبَهُ إِلَّا اللَّهُ ، وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ » .
(القد القريد ٢ : ٢٧٩)

١٨٩ - خطبة له

وخطب فقال :

« إن لكل سفر زادا لا محالة ، فتزودوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة ، وكونوا كمن عاب ما أعد الله له من ثوابه وعقابه ، فرغبوا ورهبوا ، ولا يطولن عليكم الأمد ، فتفسد قلوبكم ، وتنقادوا لعدوكم ، فإنه والله ما بسط أمل من لا يدري لعله لا يصبح بعد إمساكه ، ولا يئتمى بعد إصابحه ، وربما كانت بين ذلك خطافات المنايا ، فكم رأينا ورأيتم من كان بالدنيا منترا ، فأصبح في حبال خطوبها ومناياها أسيرا ، وإنما تقرأ عين^(١) من وثق بالنجاة من عذاب الله ، وإنما يفرح من آمن من أهوال يوم القيامة ، فأما من لا يبرأ من كل إلا أصابه جرح من ناحية أخرى ، فكيف يفرح ؟ أعوذ بالله أن أمركم بما أنهى عنه نفسي ، فتخسر صفقتي ، وتظهر عورتى ، وتبدو مستكتى ، في يوم يذوفه للغنى والفقير ، والموازين منصوبة ، والجوارح ناطقة ، فلقد عنيتكم بأمر لو عنيت

[١] ثرت منه : بردت واعطى بكأؤما ، أو رأت ما كانت مشغوفة إليه .

به النجوم لا تكدرت ، ولو عنت به الجبال لذابت ، أو الأرض لا تقطرت ، أما تعلمون أنه ليس بين الجنة والنار منزلة ، وأنكم صائرُونَ إلى إحداهما ؟ » .

(شرح ابن أبي الحديد م : ١ ص ٤٧٠ ، والقند الفريد ٢ : ١٤٣ ،

وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ١٩٦)

١٩٠ - خطبة له

وروى أنه قال :

« من وصل أخاه بنصيحة له في دينه ، ونظر له في صلاح دنياه ، فقد أحسن صِلته ، وأذى واجب حقه ، فاتقوا الله فإنها نصيحة لكم في دينكم ، فاقبلوها ، وموعظة مُنْجِيَّة في المواقب ، فآلِزْموها ، الرزق مقسوم ، فلن يعدو ^(١) المؤمن ما قُسم له ، فأتجلبوا في الطلب ، فإن في القنوع ^(٢) سَمَةٌ وبُلْغَةٌ ، وكَفَافَةٌ ، إن أجل الدنيا في أعناقكم ، وجهنم أمامكم ، وما ترون ذاهب ، وما مضى فكأن لم يكن ، وكلُّ أمواتٍ عن قريب ، وقد رأيتم حالات الميت وهو يسوق ^(٣) ، وبعد فراغه وقد ذاق الموت ، والقوم حوله يقولون قد فرغ رحمه الله ، وما ينتم تمجيل إخراجهِ ، وقِسْمَةُ ثَرَاتِهِ ، ووجهه مفقود ، وذكره مَنَمِيٌّ ، وبابه مهجور ، كأن لم يخالط إخوان الحِفَاط ^(٤) ، ولم يَسْمُرَ الديار ، فاتقوا هول يوم لا يُحْقَرُ فيه مثقال ذرة في الموازين » .

(تاريخ الطبري ٨ : ١٤٠ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ٢٠٥)

١٩١ - خطبة له

وقال : « من عمل على غير علم كان ما يُفْسِدُ أكثر مما يُصْلِح ، ومن لم يعدَّ

[١] وفي رواية : « فلن يضر » ، أقفده وغادره : تركه . [٢] القنوع : الرضا بالنعم (وهو أيضا السؤال والتفائل) . [٣] ساق للريش : شرع في زرع الروح . [٤] أي المحافظة على وده .

كلامه من عمله كثرت ذنوبه ، والرضا قليل ، ومُعَوَّلُ الْمُؤْمِنِ الصَّبْرُ ، وما أنعم الله على عبد نعمة ثم انتزعها منه ، فأعاضه مما انتزع منه الصبر ، إلا كان ما أعاضه خيراً مما انتزع منه ، ثم قرأ هذه الآية : « إِنَّمَا يُرَوِّقُ الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » .

(تاريخ الطبري ٨ : ١٤١ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢١٣)

١٩٢ — خطبة له

وحدث شبيب بن شيبة ، عن أبي عبد الملك قال : كنت من حرس الخلفاء قبل عمر ، فكنا نقوم لهم ، ونبدؤهم بالسلام ، فخرج علينا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه في يوم عيد ، وعليه قميص كتان ، وعمامة على قلنسوة لاطئة ^(١) ، فثقلنا بين يديه ، وسلمنا عليه . فقال : مه أتم جماعة وأنا واحد ، السلام على ، والرد عليكم ، وسلم فردنا ، وقربت له دابته ، فأعرض عنها ، ومشى ومشينا ، حتى صعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : « وَدِدْتُ أَنْ أَغْنِيَاءَ النَّاسِ اجْتَمَعُوا ، فَرَدُّوا عَلَيَّ قُرْآنَهُمْ ، حَتَّى نَسْتَوِيَ بَيْنَهُمْ ، وَأَكُونَ أَنَا أَوْلَهُمْ » ، ثم قال : « مَالِي وَلِلدُّنْيَا ؟ أَمْ مَالِي وَلِهَا ؟ وَتَكَلِّمُ فَأَرْقُ : حَتَّى يَكِيَ النَّاسُ جَمِيعًا ، يَمِينًا وَشِمَالًا » ، ثم قطع كلامه ونزل ، فدنا منه رجاء ابن حيوة ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، كلمت الناس بما أرق قلوبهم وأبكاهم ، ثم قطعته أحوج ما كانوا إليه ، فقال : يارجاء إني أكره المباهاة .

(القدر الفريد ٢ : ١٤٤)

١٩٣ — آخر خطبة له

وخطب بجنائصة ^(٢) خطبة لم يخطب بعدها حتى مات ! رحمه الله تعالى

فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : إنكم لم تُخلقوا عبثاً ، ولم تُتركوا سُدىً ، وإن لكم مَعَاداً يحكم الله فيه بينكم ، تخاب وخسر من خرج من رحمة الله ، التي وسعت كل شيء ، وَحُرِّمَ الْجَنَّةُ التي عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ والأَرْضُ ، واعلموا أن الأمان غداً لمن خاف ربه ، وباع قليلاً بكثير ، وفانياً بياق ، ألا ترون أنكم في أسلاب^(١) المالكين ، وسيخلفها من بعدكم الباقون ، كذلك حتى تُردُّوا إلى خير الوارثين ، ثم أنتم في كل يوم تشيعون غادياً ورائحاً إلى الله ، قد قضى نَجْبُهُ^(٢) ، وبلغ أجله ، ثم تغيّبونه في صدع^(٣) من الأرض ، ثم تدعونه غير مؤسّد ولا مُمَهّد ، قد خلخ الأَسْبَابُ ، وفارق الأَحْبَابُ ، وَوَجَّهَ الحِسَابُ ، مرتين بعمله ، غنيا عما ترك ، فقيراً إلى ما قدّم ، وإيم الله إني لأقول لكم هذه المقالة ، وما أعلم عند أحد منكم من الذنوب أكثر مما عندي ، فاستغفر الله لي ولكم ، وما تبلّغنا عن أحد منكم حاجة ، يتسع لها ما عندنا إلا سَدَدْنَاهَا ، ولا أحد منكم إلا وِدِدْتُ أن يده مع يدي ، ولُحِمْتُ^(٤) الذين يُلَوِّتُني ، حتى يستوى عيشنا وعيشكم ، وإيم الله أني لو أردت غير هذا من عيش أو غَضَارَةٍ^(٥) ، لكان اللسان مني ناطقاً ذلولاً ، عالماً بأسبابه ، لكنه مضى من الله كتاب ناطق ، وسنة عادلة ، دل فيها على طاعته ، ونهى فيها عن معصيته ، ثم بكى ، فلتقى دموع عينيه بطرف رداءه ، ثم نزل ، فلم يَرَّ على تلك الأعواد حتى قبضه الله .

(البيان والبيان ٧ : ٦٠ ، والقد الفريد ٢ : ١٤٤ ، وطريق الجبري ٨ : ١٤٠ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٧٠ ، والأغانى ٨ : ١٥٢ ، وعيون الأخبار ٢ : ص ٢٤٦ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢٧٢ ، ولابن عبد الحكم ص ٤١ و ١٣٦)

[١] جمع سلب بالتحريك وهو مايلب . [٢] النجب : الأجل ، والحاجة ، والنفير .

[٣] شق . [٤] اللجة : القربة . [٥] الغضارة : النعمة ، والسمة ، والحصب .

١٩٤ - خطبة أخرى

ورُوي أن آخر خطبة خطبها رحمه الله : حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« أيها الناس : الحقوا ببلادكم ، فإني أنساكم عندي ، وأذكركم ببلادكم ، ألا
وإني قد استعملت عليكم رجالا ، لا أقولُ ثم خيَارُكم ، ولكنهم خير من ثم شرِّ
منهم ، ألا فمن ظلمه عاملُهُ بِمَظْلَمَةٍ فلا إِذْنَ لَهُ عَلَيَّ ^(١) ، ألا وإني مَنَعْتُ نَفْسِي
وأهل بيتي هذا المالَ ، فَإِنْ صَنَعْتَ بِهِ عَلَيَّكُمْ إِنِّي إِذْنٌ لَضَنِينَ ، والله لولا أن
أُنْعَشَ ^(٢) سُنَّةً ، أو أُسِيرَ بِحَقٍّ ، ما أَحْيَيْتُ أَنْ أُعِيشَ قُؤَاثًا .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢١٠ ، وابن عبد الحكم ص ٢٩)

١٩٥ - كلامه في مرضه الذي مات فيه

ودخل عليه مَسْلَمَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ فِي الْمَرَضَةِ الَّتِي مَاتَ فِيهَا ، فَقَالَ لَهُ : يَا أَمِيرَ
الْمُؤْمِنِينَ : « إِنَّكَ فَطَمْتَ أَقْوَاهُ وَلَدَكَ عَنْ هَذَا الْمَالِ ، وَتَرَكْتَهُمْ عَالَةً ^(٣) ، وَلَا
بَدَ مِنْ شَيْءٍ يَصْلَحُهُمْ ، فَلَوْ أَوْصَيْتَ بِهِمْ إِلَيَّ أَوْ إِلَى نَظَرَانِكَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ ،
لَكَفَيْتُكَ مَتْنُوتَهُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ » ، فَقَالَ عُمَرُ : أَجْلِسُونِي . فَأَجْلَسُوهُ ، فَقَالَ :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ ، أَبَا اللَّهِ تَخَوَّفَنِي يَا مَسْلَمَةُ ! أَمَا مَا ذَكَرْتَ مِنْ أَنِّي فَطَمْتُ أَقْوَاهُ
وَلَدِي عَنْ هَذَا الْمَالِ ، وَتَرَكْتَهُمْ عَالَةً ، فَإِنِّي لَمْ أَمْنَهُمْ حَقًّا هَوْلَهُمْ ، وَلَمْ أُعْطِهِمْ
حَقًّا هَوْلَ لَيْسِهِمْ ؛ وَأَمَا مَا سَأَلْتَ مِنَ الْوَصَاةِ إِلَيْكَ ، أَوْ إِلَى نَظَرَانِكَ مِنْ أَهْلِ
بَيْتِي ، فَإِنْ وَصَيْتِي بِهِمْ إِلَى اللَّهِ الَّذِي تَرَّلَ الْكِتَابَ ، وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ، وَإِنَّمَا
بَنُو عَمْرٍاءُ أَجْدُ رَجُلَيْنِ : رَجُلٌ اتَّقَى اللَّهَ ، فَجَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ، وَرَزَقَهُ مِنْ

[١] أى يدخل على بلا إذن ، لا يجوز لي وجبه حاجب . [٢] نشه كنع وأمنه : ربه .

[٣] قراء جمع مائل من حال يميل صلبة (يختلج اليدين) أى اختلج .

حيث لا يَحْتَسِب ، ورجل غَيْرٌ وَفَجِرٌ ، فلا يكون عمرٌ أولٌ من أعانه على ارتكابه ، ادْعُوا لِي يَتِي ، فدَعَوْهم ، وم يومئذ اثنا عشر غلاماً ، فجعل يصعدُ بصره فيهم ويصوبه ، حتى اغرورقت عيناه بالدمع ، ثم قال : « بنفسي قَتِيتُ تركتهم ولا مالَ لهم ! ياتيني : إني قد تركتكم من الله بخير ، إنكم لا تَمُوتون على مسلم ولا مُعَاهِدٍ إلا ولكم عليه حقٌّ واجبٌ إن شاء الله ، يابني مَيِّلْتُ ^(١) وأبي بين أن تفتقروا في الدنيا ، وبين أن يدخل أبوكم النار ، فكان أن تفتقروا إلى آخر الأبد خيراً من دخول أيكم يوماً واحداً في النار ، قوموا ياتيني عَصَمَكُم الله ورزقكم . » قالوا : فما احتاج أحد من أولاد عمر ، ولا افتقر .

(القد اتمرید ٢ : ٢٨٠ ، سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢٨٠)

١٩٦ - مناظرة عمر بن عبد العزيز للخوارج

خرج سنة مائة بالجزيرة شوذَّبُ الخارجي - واسمه بِسْطَام ، من بني شُكْر - فكتب إليه عمر بن عبد العزيز : بلغني أنك خرجت غضباً لله ولرسوله ، ولست أولى بذلك مني ، فهُلِّمْ إِلَيَّ أَنَاظِرَكَ ، فَإِنْ كَانَ الْحَقُّ بِأَيْدِينَا ، دخلت فيما دخل فيه الناس ، وإن كَانَ فِي يَدِكَ ، نظرنا في أمرك ، فكتب بِسْطَام إلى عمر : قد أنصفت ، وقد بعثتُ إليك رجلين يدارسانك وينظرانك ، وأرسل إلى عمر مولى لبني شِيَّان حَبَشِيًّا اسمه عاصم ، ورجلا من بني يَشْكُر ، فقدما على عمر بِخُنَاصِرَةٍ ، فأخبر بكانهما ، فقال : فتشوهما لا يكن معهما حديد وأدخولهما ، فلما دخلا قالَا : السلام عليك ثم جلسا ، فقال لهما عمر : أخبراني ، ما الذي أخرجكم تُخْرِجُكُمْ هذا ؟ وما تَقْتُم علينا ؟ فقال عاصم : ما تقمنا سيرتك ، إنك لتحرِّي العدل والإحسان ،

[١] التميل بين الشيئين كالترجيح بينهما ، تحول العرب : إلى لأميل بين ذنوب الأمرين ، ولأميل بينهما أيها آتى .

فأخبرنا عن قيامك بهذا الأمر ، أعن رضا من الناس ومشورة ، أم ابتزمت أمرهم ؟ فقال عمر : ماسألتهم الولاية عليهم ، ولا غلبتهم عليها ، وعهد إلى رجل كان قبلي ، فقممت ولم ينكره عليّ أحد ، ولم يكرهه غيركم ، وأنتم ترون الرضا بكل من عدل وأنصف ، من كان من الناس ، فتركوني ذلك الرجل ، فإن خالفت الحق ورغبت عنه فلا طاعة لي عليكم ، فقالا : يبتنا وبينك أمر ، إن أنت أعطيتناه ، فنحن منك وأنت منا ، وإن منعتاه ، فلست منا ولسنا منك ، فقال عمر : وما هو ؟ قالوا : رأياناك خالفت أعمال أهل يبتك ، وصميتها مظالم ، وسلكت غير سبيلهم ، فإن زعمت أنك على هدى وهم على ضلال ، فآلئهم وتبرأ منهم ، فهذا الذي يجمع يبتنا وبينك أو يفرق ، فتكلم عمر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« إني قد علمت أنكم لم تخرجوا تخرجكم هذا لطلب دنيا ومتاعها ، ولكنكم أردتم الآخرة ، فأخطأتم سبيلها ، إن الله عز وجل لم يبعث رسوله صلى الله عليه وسلم لمانا ، وقال إبراهيم : « فَنَبِّئْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ، وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » . وقال الله عز وجل : « أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ اقْتَدِهْ » . وقد صميت أعمالهم ظلماً ، وكفى بذلك ذماً ونقصاً ، وليس لمن أهل الذنوب فريضة لا بد منها ، فإن قلتم إنها فريضة ، فأخبرني متى لعنت فرعون ؟ قال : ما أذكر متى لعنته ، قال : أفيَسَعُكَ أن لا تلعن فرعون وهو أخبث الخلق وشرهم ، ولا يسعني أن لا ألعن أهل بيتي وهم مصلون صائمون . قال : أما هم كفار بظلمهم ؟ قال : لا ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الناس إلى الإيمان ، فكان من أقرب به وبشرائه قبل منه ، فإن أحدث حدثاً أقیم عليه الحد ، فقال الخارجي : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الناس إلى توحيد الله ، والإقرار بما نزل من

عنده ، قال عمر : فليس أحد منهم يقول لا أعمل بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن القوم أسرفوا على أنفسهم ، على علم منهم أنه محرم عليهم ، ولكن غلب عليهم الشقاء . قال عاصم : فأبرأ من خالف عملك ، وردُّ أحكامهم . قال عمر : أخبراني عن أبي بكر وعمر : أليْسَ من أسلافكما ومن تولى ان ، وتشهدان لهما بالنجاة ؟ قال : اللهم نعم . قال : فهل علمتا أن أبا بكر حين قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فارتدت العرب ، قاتلهم فسفك الدماء ، وأخذ الأموال ، وسبى الثراري ؟ قال : نعم . قال : فهل علمتم أن عمر قام بعد أبي بكر ، فردَّ تلك السبايا إلى عشايرها بفضية ؟ قال : نعم . قال : فهل برئ عمر من أبي بكر ، أو تبرءون أنتم من أحد منهما ؟ قال : لا . قال : فأخبراني عن أهل النهر وان ، أليسوا من صالحى أسلافكم ، ومن تشهدون لهم بالنجاة ؟ قال : بلى . قال : فهل تعلمون أن أهل الكوفة حين خرجوا كفؤاً أيديهم فلم يسفكوا دمًا ، ولم يُخيفوا آمنًا ، ولم يأخذوا مالا ؟ قال : نعم . قال : فهل علمتم أن أهل البصرة حين خرجوا مع مسعر بن قُدَيْك ، استعرضوا الناس يقتلونهم ، ولقوا عبد الله بن خُبَّاب بن الأَرْت : صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قتلوه وقتلوا جاريته ؟ ثم صبحوا حيًا من أحياء العرب فاستعرضوهم ، فقتلوا الرجال والنساء والأطفال ، حتى جعلوا يلقون الصبيان في قدور الأَقِط ^(١) ، وهي تغور ؟ قال : قد كان ذلك . قال : فهل برئ أهل البصرة من أهل الكوفة ، وأهل الكوفة من أهل البصرة ؟ قال : لا . قال : فهل تبرءون أنتم من إحدى الطائفتين ؟ قال : لا . قال : أرايتم الدين واحدًا أم اثنين ؟ قال : بل واحدًا . قال : فهل يسمكم فيه شيء يمجزعنى ؟ قال : لا . قال : فكيف

وسمِعَ أَنْ تَوَلَّيْتُمْ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ ، وَتَوَلَّى أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ ، وَتَوَلَّيْتُمْ أَهْلَ الْبَصْرَةِ
وَأَهْلَ الْكُوفَةِ ، وَتَوَلَّى بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَقَدْ اخْتَلَفُوا فِي أَكْثَرِ الْأَشْيَاءِ ، فِي الدِّمَاءِ
وَالْفُرُوجِ وَالْأَمْوَالِ ، وَلَا يَسْعَى فِيمَا زَعَمْتُمْ إِلَّا لِمَنْ أَهْلُ يَتَّى وَالتَّبَرُّؤِ مِنْهُمْ ؟
وَيُنَحِّكُمُ الْإِنِّكُمْ قَوْمٌ جَهَالٌ ، أَرَدْتُمْ أَمْرًا فَأَخْطَأْتُمُوهُ ، فَأَنْتُمْ تَرُدُّونَ عَلَى النَّاسِ مَا قَبِلَ
مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَيَأْمَنُ عِنْدَكُمْ مَنْ خَافَ عِنْدَهُ ، وَيَخَافُ
عِنْدَكُمْ مَنْ أَمِنَ عِنْدَهُ . قَالَا : مَا نَحْنُ كَذَلِكَ . قَالَ عُمَرُ : بَلْ سَوْفَ تُقْبِرُونَ بِذَلِكَ
الْآنَ ، هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بُعِثَ إِلَى النَّاسِ وَمِنْ عِبْدَةِ
أَوْثَانٍ ، فُدِّعَاهُمْ إِلَى خَلْعِ الْأَوْثَانِ ، وَشَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ،
فَنَ فَعَلَ ذَلِكَ حَقَّقَ دَمَهُ ، وَأَحْرَزَ مَالَهُ ، وَوَجِبَتْ حُرْمَتُهُ ، وَكَانَتْ لَهُ أُسْوَةٌ لِلْمُسْلِمِينَ ؟
قَالَا : نَعَمْ . قَالَ : أَفَلَسْتُمْ أَنْتُمْ تَلْقَوْنَ مَنْ يَخْلَعُ الْأَوْثَانِ ، وَيَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ،
وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، فَتَسْتَحِلُّونَ دَمَهُ وَمَالَهُ ، وَتَلْقَوْنَ مَنْ تَرَكَ ذَلِكَ وَأَبَاهُ مِنَ الْيَهُودِ
وَالنَّصَارَى وَسَائِرِ الْأَدْيَانِ ، فَيَأْمَنُ عِنْدَكُمْ وَتَحْرُمُونَ دَمَهُ ؟ فَقَالَ الْيَشْكُرِيُّ : أَرَأَيْتَ
رَجُلًا وَلِيَ قَوْمًا وَأَمْوَالَهُمْ فَعَدَلَ فِيهَا ، ثُمَّ صَبَرَهَا بِدَمِهِ إِلَى رَجُلٍ غَيْرِ مَأْمُونٍ ، أَرَاهُ
أَدَّى الْحَقَّ الَّذِي يُلْزِمُهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ؟ أَوْ تَرَاهُ قَدْ سَلِمَ ؟ قَالَ عُمَرُ : لَا . قَالَ : أَفَتَسَلِّمُ هَذَا
الْأَمْرَ إِلَى يَزِيدَ ^(١) مِنْ بَعْدِكَ ، وَأَنْتَ تَعْرِفُ أَنَّهُ لَا يَقُومُ فِيهِ بِالْحَقِّ ؟ قَالَ : إِنَّمَا وَلَاهُ
غَيْرِي ، وَالْمُسْلِمُونَ أَوَّلَى بِمَا يَكُونُ مِنْهُمْ فِيهِ بَعْدِي . قَالَ : أَفَتَرَى ذَلِكَ مِنْ صُنْعِ
مَنْ وَلَاهُ حَقًّا ؟ فَبَكَى عُمَرُ وَقَالَ : أَنْظِرْنِي ^(٢) ثَلَاثًا ، نَخْرُجَا مِنْ عِنْدِهِ ثُمَّ حَادَا
إِلَيْهِ ، فَقَالَ عَاصِمٌ : أَشْهَدُ أَنَّكَ عَلَى حَقٍّ ، فَقَالَ عُمَرُ لِلْيَشْكُرِيِّ : مَا تَقُولُ أَنْتَ ؟

[١] هو يزيد بن عبد الملك ، وقد ولي الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز (سنة ١٠١ - سنة ١٠٥ هـ) .

[٢] أهلاً .

قال : ما أحسن ما وصفت ، ولكن لا أفتات على المسلمين بأمر ، أعرض عليهم ما قلت وأعلم حجبتهم . فأما عاصم فأقام عند عمر ، فأمر له عمر بالمطاء ، فتوفي بعد خمسة عشر يوماً ، فكان عمر يقول : أهلكني أمر يزيد وخصيت فيه ، فاستغفر الله ، تخاف بنو أمية أن يخرج ما بأيديهم من الأموال ، وأن يخلع يزيد من ولاية العهد ، فوضعوا على عمر من سقاه سماً ، فلم يلبث بعد ذلك إلا ثلاثاً ، حتى مرض ومات .

(الكامل لابن الأثير ٥ : ١٧ ، ومروج الذهب ٢ : ١٧٢ ، والمقد البريد ١ : ٢١٦ ، وتاريخ

الطبري ٨ : ١٣١ ، سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ١٣٠ ، ولان الجوزي ٧٧) .

١٩٧ — تأييده ابنه عبد الملك

ولما دفن عمر بن عبد العزيز ابنه عبد الملك ، وسوى عليه قبره بالأرض ، وجعلوا على قبره خشبتين من زيتون ، إحداها عند رأسه ، والأخرى عند رجله ، استوى عمر قائماً ، وأحاط به الناس ، فقال :

« رحمك الله يا مبنى ، فقد كنت برّاً بأبيك ، والله ما زلتُ مذ وهبك الله لي بك مسروراً ، ولا والله ما كنتُ قطُّ أشدَّ سروراً بك ، ولا أرجى لحظي من الله فيك ، منذ وضعتك في الموضع الذي صيرك الله إليه ، ففخر الله لك ذنبك ، وجزاك بأحسن عملك ، وتجاوز عن سيئاتك ، ورحم الله كل شافع يشفع لك بخير ، من شاهد أو غائب ، رضيتنا بقضاء الله ، وسلمنا لأمره ، والحمد لله رب العالمين » .

(البيان والنبين ٢ : ١٨٢ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ٢٦٤)

١٩٨ - خطبة يزيد بن الوليد حين قتل الوليد بن يزيد^(١)

حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : والله ما خرجت أشراً ولا بطراً ، ولا حرصاً على الدنيا ، ولا رغبة في الملك ، وما بي إطرأ نفسي ، وإنى لظالم لها إن لم يرحمني الله ، ولكن خرجت غضبا لله ودينه ، داعياً إلى الله ، وإلى سنة نبيه ، كما هُدمت معالم الهدى ، وأطفي نور أهل التقوى ، وظهر الجبار العنيد^(٢) ، المستحل لكل حرمة ، والراكب لكل بدعة ، الكافر يوم الحساب ، وإنه لابن عمي في النسب ، وكفيئي^(٣) في الحسب ، فلما رأيت ذلك استخرت الله في أمره ، وسألته ألا يكلمني إلى نفسي ، ودعوت إلى ذلك من أjabني من أهل ولايتي ، حتى أراح الله منه العباد ، وطهر منه البلاد ، بحوله وقوته ، لا بحولي وقوتي .

أيها الناس : إن لكم على ألا أضغ حجراً على حجر ، ولا لبنَةً على لبنة ، ولا أكرى^(٤) نهرأ ، ولا أكرى مالا ، ولا أعطيه زوجاً ، ولا ولداً ، ولا أنقله من بلد إلى بلد ، حتى أسد فقر ذلك البلد وخصاصه^(٥) أهله ، فإن فضل فضل ،

[١] قتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك فليتين بقيتا من جادى الآخرة سنة ١٢٦ هـ ، وكان قبل الخلافة منهم كاف في النهو ، وشرب الخمر ، وانشاك حرمت الله ، فلما أنضت إليه الخلافة ، لم يزد إلا انقساماً في الفئات ، واستهترا بالمعاصي ، ذلك إلى ما لوكبه من غضب أكبر أهل ، والإساءة إليهم ، وتفجير ، فاجتمعوا عليه مع أعيان رعيته ، وهجموا عليه وقلوه . وكان للتولى لزيد بن الوليد بن عبد الملك ، وقد ولى الخلافة بعده ، وتوفي هلال ذي الحجة سنة ١٢٦ هـ . [٢] يشير إلى ما حدث من الوليد بن يزيد من أنه استفتح قالاً في للمصنف فخرج « وَأَسْتَفْتَحُوا وَحَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٌ » ، قمبه غرماً لانشاب وأقبل يرميه حتى نزقه ، وهو يقول :

أتوعد كل جبار عنيده فهأنذاك جبار عنيده

إذا لاقيت ربك يوم حشر قتل يارب مرقني الوليد

[٣] كفيته وكفزه بضم الكاف وكفاؤه بكسرهما : مثله . [٤] كرى التهر : استحدث حفره

[٥] الفقر والمخاجة .

تقلته إلى البلد الذي يليه ، ولا أخرجكم ^(١) في بعوثكم ، فأفتنكم وأفتن أهليكم ، ولا أغلق بابي دونكم ، فإياكل قوتكم ضعيفكم ، ولا أحمل على أهل جزيتكم ما أجلبهم به عن بلادهم ، وأقطع به نسلهم ، ولكم على إذرار المطاء في كل سنة ، والرزق في كل شهر ، حتى يستوى بكم الحال ، فيكون أفضلكم كأدناكم ، فإن أنا وفيت لكم ، فعليكم السمع والطاعة ، وحسن المؤازرة والمكافئة ^(٢) ، وإن لم أف لكم ، فلمكم أن تخلموني إلا أن تستتيبوني ، فإن أنا تبت قبلتم مني ، وإن عرضم أحداً يقوم مقامى ، ممن يُعرف بالصلاح ، يُعطيك من نفسه مثل الذى أعطيتكم ، فأردتم أن تبايعوه ، فأنا أول من يبايعه ، ودخل في طاعته .

أيها الناس : إنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، وأقول قولى هذا ، وأستغفر الله العظيم لى ولكم .

(عيون الأخبار ٢ : ص ٢٤٨ ، والمقد الفريد ٢ : ١٤٤ - ٢٩١ ، البيان والتبيين ٢ : ٦٩ ، الفخرى ص ١٢٠)

١٩٩ لا وصية يزيد بن معاوية لسلم بن زياد حين ولاه

لما ولي يزيد بن معاوية سلم بن زياد بن أبيه على خراسان قال له :

« إن أباك كفى أخاه (يعنى معاوية) عظيماً ، وقد استكفيتك صغيراً ، فلا تشككن على عذر منى لك ، فقد اتكلت على كفاية منك ، وإياك منى قبل أن أقول إياى منك ، فإن الظن إذا أخلف منك أخلف منى فيك ، وأنت فى أدنى حظك فاطلب أقصاه ، وقد أتعتك أبوك ، فلا تريحن نفسك ، وكن لنفسك تكن لك ، واذكر فى يومك أحاديث غدك تسعد إن شاء الله تعالى . »

(البيان والتبيين ٢ : ٧٦)

خطبة عتبة بن أبي سفيان ^(١) (توفي سنة ٤٤ هـ)

٢٠٠ - خطبة له في تهديد أهل مصر

بلغ عُتْبَةُ بْنُ أَبِي سَفْيَانَ عَنْ أَهْلِ مِصْرَ شَيْءً فَأَغَضِبَهُ ، فَقَامَ فِيهِمْ ، فَقَالَ بَعْدَ أَنْ حَمَدَ اللَّهَ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ :

« يَا أَهْلَ مِصْرَ ، إِيَّاكُمْ أَنْ تَكُونُوا لِلسَّيْفِ حَصِيداً ^(٢) ، فَإِنَّ قُلُوبَهُ فِيكُمْ ذَيْباً لَعِثْماً ، أَرْجُو أَنْ يُولِيَنِي نُسْكَهَ ، إِنْ أَلَّهَ جَمْعَكُمْ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَ الْفِرْقَةِ ، فَأَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ ، وَكَأَنَّ اللَّهَ أَذْكَرَكُمْ إِذَا ذَكَرْتُ بِخُطْبَةٍ ، وَأَصْفَحَكُمْ بَعْدَ الْمَقْدَرَةِ عَنْ حَقِّهِ ، نِعْمَةً مِنَ اللَّهِ فِيكُمْ ، وَنِعْمَةً ^(٣) مِنْهُ عَلَيْكُمْ ، وَقَدْ بَلَّغْنَا عَنْكُمْ نَجْمُ ^(٤) قَوْلِي ، أَظْهَرُهُ تَقْدِمْ عَفْوٍ مِنَّا ، فَلَا تَصِيرُوا إِلَى وَحْشَةِ الْبَاطِلِ بَعْدَ أَنْسِ الْحَقِّ ، يَا حَيَاءَ الْفِتْنَةِ وَإِمَامَةَ الشُّنَنِ ، فَأَطِئُوا كَيْفَ اللَّهُ وَطِئَهُ ، لَا رَمَقَ ^(٥) مَعَهَا ، حَتَّى تُتَكَبَّرُوا مِنِّي مَا كُنتُمْ تَعْرِفُونَ ، وَتُسْتَخْشِنُوا مَا كُنتُمْ تَسْتَلِينُونَ ، وَأَنَا أَشْهَدُ عَلَيْكُمْ الَّذِي يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ ، ^(٦) وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ » . (الفرد ٢ : ١٠٨)

٢٠١ - خطبة له في تقييعهم وتهديدهم

وخطب أيضاً وقد بلغه عن أهل مصر أمور فقال :

- [١] ولله أخوه معاوية مصر بعد وفاة عمرو بن العاص (وقد مات عمرو في شوال سنة ٤٣ هـ) وأقام عتبة واليا على مصر سنة واحدة وشهرا واحدا ، وتوفي في ذي الحجة سنة ٤٤ هـ (هكذا في كتاب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، وفي أسد الغابة في معرفة الصحابة : « أنه توفي سنة ٤٤ هـ وقيل سنة ٤٣ هـ » ، ولكن قرأت في تاريخ الطبري أن عتبة حج بالناس سنة ٤٦ هـ ، وقال أيضا في حوادث سنة ٤٧ هـ « واختلفوا فمن حج بالناس في هذه السنة ، فقال الواقدي : أقيم الحج في هذه السنة عتبة بن أبي سفيان وقال غيره : بل الذي حج في هذه السنة عتبة بن أبي سفيان » . [٢] أسد الزرع المورود .
- [٣] هكذا في الأصل وقد يكون « ومئة » . [٤] من نعم الله . إذا ظهر وطلع .
- [٥] الرمق : بقية الحياة . [٦] يمارقها النظر إلى الحرم .

« يا حَامِلِي الْأَمِّ أَنْوْفٍ رُكِّبَتْ بَيْنَ أَعْيُنٍ ، إِنَّمَا قَلَّمْتُ أَظْفَارِي عَنْكُمْ ، لِيَلْبِينَ مَسْنَى إِيَّاكُمْ ، وَسَأَلْتُكُمْ صَلَاحَكُمْ لَكُمْ ، إِذْ كَانَ فَسَادُكُمْ رَاجِعًا عَلَيْكُمْ ، فَأَمَّا إِذَا أُيِّتُمْ إِلَّا الطَّمَنُ عَلَى الْأَرْءَاءِ ، وَالْعَتَبُ عَلَى السَّلَفِ وَالْخُلَفَاءِ ، فَوَاقَهُ لَا قُطْمَنُ بَطُونِ السَّيَاطِ عَلَى ظُهُورِكُمْ ، فَإِنْ حَسَمَتْ مُسْتَشْرَى ^(١) دَائِكُمْ ، وَإِلَّا فَالسَّيْفُ مِنْ وَرَائِكُمْ ، فَكُمْ مِنْ عِظَةٍ لَنَا قَدْ صَمَّتْ عَنْهَا آذَانُكُمْ ، وَزَجَرَةٌ مَنَا قَدْ مَجَّتْهَا قُلُوبُكُمْ ، وَلَسْتُ أَبْخُلَ عَلَيْكُمْ بِالْمَقْوِيَةِ ، إِذَا جَدْتُمْ عَلَيْنَا بِالْمَعْصِيَةِ ، وَلَا مُؤَيِّسًا لَكُمْ مِنَ الْمَرَاجِعَةِ إِلَى الْحَسَنِ ، إِنْ صَرْتُمْ إِلَى الَّتِي هِيَ أَبْرَ وَأَتَقَى » .

(صبح الأعشى ١ : ٢١٦ ، والقد الفريد ٢ : ١٥٩ ، والأمالى ١ : ٢٤٥)

٢٠٢ - خطبة له فيهم وقد أَرْجَفُوا بِمَوْتِ معاوية

واحتبست كتب معاوية حتى أَرْجَفَ أَهْلَ مِصْرَ بِمَوْتِهِ ، ثُمَّ وَرَدَ كِتَابُهُ بِسَلَامَتِهِ ، فَصَعِدَ عِثَّةَ الْمَنْبَرِ ، وَالْكِتَابُ فِي يَدِهِ فَقَالَ :

« يَا أَهْلَ مِصْرَ : قَدْ طَالَتْ مَعَانِيَتُنَا إِيَّاكُمْ بِأَطْرَافِ الرِّمَاحِ وَظُبَاكِ السِّوْفِ ، حَتَّى صَرْنَا شَجَى ^(٢) فِي لَهَوَاتِكُمْ ، مَا تُسَيِّفُنَا حُلُوفُكُمْ ، وَأَقْدَاءُ ^(٣) فِي أَعْيُنِكُمْ ، مَا تَطْرِفُ عَلَيْهَا جَفُونُكُمْ ، أَفْخِنْ أَشْتَدَّتْ عُرَى الْحَقِّ عَلَيْكُمْ عَقْدًا ، وَاسْتَرْخَتْ عُتَدُ الْبَاطِلِ مِنْكُمْ حَلًّا ، أَرْجَفْتُمْ بِالْخُلَيْفَةِ ، وَأَرْدْتُمْ تَوْهِينَ ^(٤) السُّلْطَانِ ، وَخَضَعْتُمْ الْحَقَّ إِلَى الْبَاطِلِ ، وَأَقْدَمْتُمْ عَهْدَكُمْ بِهِ حَدِيثًا ؟ فَارْتَجَحُوا أَنْتُمْ إِذْ خَيْرْتُمْ دِينَكُمْ ، فَهَذَا كِتَابُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْخَبَرِ السَّارِّ عَنْهُ ، وَالْمَوْهِدِ الْقَرِيبِ مِنْهُ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ سُلْطَانَنَا عَلَى

[١] اسْتَشْرَى الْبَاءُ : عَظُمَ وَتَمَاقَمَ . [٢] هُوَ مَا اعْتَرَضَ فِي الْحَقِّ مِنْ عَظَمٍ أَوْ نَحْوِهِ ، وَالْأَهْوَاتُ جَمْعُ لَهَاتٍ وَهِيَ الْأَمَّةُ لِلْمَعْرِفَةِ عَلَى الْحَقِّ ، وَأَقْدَاءُ : أَيْلَهُ . [٣] جَمْعُ قَذَى وَهُوَ مَا يَبِغُ فِي الْمِيزَانِ وَالْعَرَابِ ، وَطَرَفٌ بَصَرُهُ : أَطْبَقَ أَحَدُ جَفْنَيْهِ عَلَى الْآخَرِ ، وَطَرَفٌ بَيْتُهُ : حَرَكُ جَفْنَيْهَا . [٤] لِإِضَاعَةٍ .

أبدانكم دون قلوبكم ، فأصلحوا لنا ماظهر ، نكلكم إلى الله فيما بطن ، وأظهروا خيراً ، وإن أمرتم شراً ، فإنكم حاصلون ما أنتم زارعون ، وعلى الله توكل وبه نستعين . (عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٣٩ ، والقدر الفريد ٢ : ١٥٩)

٢٠٣ - خطبته فيهم وقد منعوا الخراج

وخطبهم وكانوا قد منعوا الخراج فقال :

« يا أهل مصر ، قد كنتم تعتذرون لبعض المنع منكم ، ببعض الجور عليكم ، فقد وإيكم من يقول ويفعل ، ويفعل ويقول ، فإن رددتم ترادكم^(١) يده ، وإن استنصبتكم ترادكم بسيفه ، ثم رجا في الآخرة ما أمل في الأولى ، إن البيعة متباعدة ، فلنا عليكم السمع والطاعة ، ولكم علينا العدل ، فأثنا غدر فلا ذمة له عند صاحبه ، والله ما انطلقت بها ألسنتنا حتى عُمِدَت عليها قلوبنا ، ولا طلبناها منكم حتى بذلناها لكم ناجزاً بناجز^(٢) ، ومن حذر كمن بشر ، فنادوه سمعاً وطاعة ، فناداهم عدلاً عدلاً . (القدر الفريد ٢ : ١٥٩)

٢٠٤ - خطبته فيهم إذ طعنوا على الولاية

وقدم كتاب معاوية إلى عتبة بمصر أن قبلك قوماً يطعنون على الولاية ويسبون السلف ، فخطبهم فقال :

« يا أهل مصر : خف على ألسنتكم مدح الحق ولا تفضلونه ، وذم الباطل وأنتم تأتون ، كالخمار يحمل أسفاراً أثقله حملها ، ولم ينفعه علمها ، وإيم الله لا أدأوى أدواءكم بالسيف ما صلحتم على السوط ، ولا أبلغ السوط ما كفتي

[١] هناك : تراداً البيع : من الرذ والفسخ ، ومراده : ردكم . [٢] الناجز والنجيز : الحاضر ، ومن أمثالهم : ناجزاً بناجز ، أى حاضراً بمحضر ، كقولك يدايد ، وطابلاً بماجل ، وقولوا أيكم الساعة ناجزاً بناجز : أى معبلاً .

الدَّوْرَةَ ، ولا أبطلُ عن الأولى ما لم تسرعوا إلى الأخرى ، فآثروا ما أمركم الله به تستوجبوا ما فرض الله لكم علينا ، وإياكم وقال ويقول ، قبل أن يقال فعل ويضعل ، وكونوا خير قوس سهماً بهذا اليوم الذي ما قبله عقاب ، ولا بعده عتاب .
(العقد الفريد ٢ : ١٦٠ ، وعيون الأخبار ٢ : ٢٢٩ ، وأسد النابة في معرفة الصحابة ٣ : ٢٦١)

٢٠٥ — خطبته بمكة

وحج عتبة سنة إحدى وأربعين ، والناس قريب عهدهم بالفتنة ، فصلى بمكة الجمعة ، ثم قال :

« أيها الناس ، إنا قد ولينا هذا المقام الذي يضاعف فيه للمحسن الأجر ، وعلى المسيء فيه الوزر ، ونحن على طريق ما قصدنا له ، فلا تتعدوا الأعناق إلى غيرنا ، فإنها تنقطع من دوننا ، ورب متمن حقه في أميته ، فاقبلونا ما قبلنا العافية فيكم ، وقبلناها منكم ، وإياكم ولوا ، فإن لولا قد أتعبت من كان قبلكم ، وإن تريخ من بعدكم ، وأنا أسأل الله أن يمين كلاً على كل » .

فصاح به أعرابي : أيها الخليفة ، فقال : لست به ولم تبعد ، فقال : يا أخاه ، فقال : سمعتُ قتل ، فقال : « تالله لأن تحسنوا وقد أسأنا خير من أن تسيئوا وقد أحسننا ، فإن كان الإحسان لكم دوننا ، فما أحقكم باستقامته ، وإن كان منا فما أولاً كم بمكافأنا ، رجل من بني هاجر بن صعصعة يلقاكم بالعمومة ، ويقرب إليكم بالخثولة ، وقد كثر عياله ^(١) ، ووطئه زمانه ، وبه فقر ، وفيه أجر ، وعنده شكر » فقال عتبة : « أستغفر الله منكم ، وأستعينه عليكم ، قد أمرنا لك بفنالك ، فليت إسراعتنا إليك يقوم بإبطائنا عنك » .

(الأمال ١ : ٢٤٠ ، والعقد الفريد ٢ : ١٥٩ — ٨١ ، والبيان والبيان ٣ : ٢٣٠)

[١] البال جمع عيل كجند : وهو من يلزم الإعتاق عليه .

٢٠٦ — خطبته في علته التي مات فيها

ولما اشتكى شكاه التي مات فيها تحامل إلى المنبر ، فقال :

« يا أهل مصر لا غنى عن الرب ، ولا هَرَبَ من ذنب ، إنه قد تقدّمت مني إليكم عقوباتٌ كنت أرجو يومئذ الأجرَ فيها ، وأنا أخاف اليوم الوزرَ منها ، فليتنى لا أكون اخترت دنيائى على معادى ، فأصلحتكم بفسادى ، وأنا أستغفر الله منكم ، وأتوب إليه فيكم ، فقد خفت ما كنت أرجو نفعاً عليه ، ورجوت ما كنت أخاف اغتيالاً به ، وقد شقي من هلك بين رحمة الله وعفوه ، والسلام عليكم سلام من لا تزونه عائداً إليكم » ، فلم يعد .

(النقد الفريد ٢ : ١٥٩)

٢٠٧ — وصيته لمؤدب ولده

وقال لعبد الصمد مؤدّب ولده :

« ليكن أول ما تبدأ به من إصلاح بنيّ إصلاح نفسك ، فإن أعينهم معقودة بعينك ، فالحسن عندهم ما استحسنت ، والقبيح عندهم ما استقبحت ، وعلمهم كتاب الله ، ولا تُكْرِههم عليه فيمَلّوه ، ولا تتركهم منه فيهجروه ، ثم رَوْهم من الشعر أعفّه ، ومن الحديث أشرفه ، ولا تخرجهم من علم إلى غيره حتى يُحكّموه ، فإن ازدحام الكلام في السمع مَضَلَّةٌ للفهم ، وتَهْدِئَةٌ لى ، وأدبهم دونى ، وكن لهم كالطبيب الذى لا يُعَجِّلُ بالدواء قبل معرفة الداء ، وجنبهم محادثة النساء ، وروّهم سيرَ الحكماء ، واستزدنى بزيادتك إمامَ أزدك ، وإياك أن تُنكَل على عذر منى لك ، فقد اتكلتُ على كفاية منك ، وزد في تأديبهم أزدك في برى إن شاء الله تعالى » . (البيهقي ٢ : ٣٥٠ ، والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ١ : ١٣٩٦)

٢٠٨ - وصية سعيد بن العاص^(١) لابنيه

لما ولد لسعيد بن العاص ابنه عمرو وترعرع^(٢) ، تفرس فيه النجابة ، وكان يفضل على ولده ، فجمع بينه ، وكانوا يومئذ أكثر من خمسة عشر رجلاً ، ولم يدعُ صمراً معهم ، وقال :

« يا بني ، قد عرفتم خبرة الوالد بولده ، وإن أناكم صمراً ، لدو حمة وأعدة^(٣) ، يسمو جدّه ، ويمد صيته^(٤) ، وتشدد شكيمته^(٥) ، وإني أمركم إن تزل بي من الموت ما لا يحيص عنه ، أن تظاهروه وتوازيروه وتؤزروه ، فإنكم إن فعلتم ذلك يتألف بكم الكرام ، ويخمس^(٦) عنكم اللئام ، ويُنْبِسكم عزاً لا تنهجه^(٧) الأيام . فقالوا جميعاً : « إنك تؤثر علينا ، وتحايه دوننا » فقال : « سأريكم ما ستره البني عنكم » ، وصرفهم ، ثم أهلهم حتى ظن أن قد ذهّلوا عما كان ، وراهم^(٨) عمرو البلوغ ، واستدعاهم دون عمرو ، فلما حضروا قال : « يا بني ، ألم تروا إلى أخيك عمرو فإنه لا يزال يلحف^(٩) في مسألتى مالى ، فأحشُ غيلة^(١٠) »

-
- [١] هو سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أبة بن عبد شمس بن عبد مناف ، وقد تقدم لك أن عثمان استعمله على الكوفة بعد الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، وولاه معاوية المدينة ، فكان يوليه إذا عزل مروان بن الحكم عن المدينة ويولى مروان إذا عزله ، ومات سنة ٥٧ وقيل سنة ٥٨ وقيل سنة ٥٩ هـ .
- [٢] شب وانتقل عن حد العفر . [٣] من قرحم شجرة وأعدة إذا ظهر لرائبها أن قدحاً إن عارها ، وأرض وأعدة إذا رمى خيرها من البيت ، وظهر لرائبها أن قد قرب إمكان للرمي بها ، وفرس وأعد : يدك جرياً بعد جرى ، وسحاب وأعد كأنه وعد بالطر ، ويوم وأعد يد بالمر أو بالبرد أوله .
- [٤] الصيت (بالكسر) والصفات والصوت (بالفتح) : الذكر الحسن . [٥] النكبة : الأفة وفى الهجاء : الحديدة المأترضة في ثمن الفرس ، وهو مثل يضرب للعداءة فى الأورور والمضاء فيها .
- [٦] أى يمد ويتردد . من خسا الكلب كنخ طرده ، وخسا هو بقره : يمد .
- [٧] أى لا تبليه . أتبع اتوب ونهجه (كنه) : أخلفه وأبلاه ، ونهج الثوب مثله الم . ، وأتبع : بلى . [٨] راقى الغلام : قارب الحلم (بضمين) . [٩] يلح .
- [١٠] النيل والبليلة : الانتظار والفاقة ، وأحش أى أطلع وأعجز من حش الحشيش (كرد) : قطعه ، وحش ظلتا : أصلح من حاله ، (وفى الأصل فأحسن بالتون أى أجمل فقره حسناً وأزيل فيه بطلاني إياه والأول أحسن) .

لصفره ، وَأَحْسَبُهُ ^(١) بِالشَّيْءِ دُونَ الشَّيْءِ مِنْ مَالِي ، إِلَى أَنْ اسْتَنْبَتُ أَنَّ أُمَّهُ
بِأَغْيَتِهِ ^(٢) عَلَى ذَلِكَ ، فَزَجَرْتَهَا فَلَمْ تَكْغَفْ ، وَهَذَا تَخَرَّجَهُ الْآنَ مِنْ عِنْدِي ، جَاءَ
يَسْأَلُنِي الصَّمْصَامَةَ ^(٣) ، كَأَنَّ لَا وَلَدَ لِي غَيْرُهُ ، وَقَدْ عَزَمْتُ عَلَى أَنْ أَقْسِمَ مَالِي
فِيكَمِ دُونِهِ ، لَتَعْلَمَنَّ أَنَّهُ مِنْ يَكِيدُ ، فَقَالُوا كُلُّهُمْ : يَا أَبَانَا هَذَا عَمَلُكَ يَا بَارِكُ لَهُ عَلَيْنَا ،
وَإِخْتِصَاصُكَ إِيَّاهُ دُونَنَا ، فَقَالَ : « يَا بَنِي ، وَاللَّهِ مَا آثَرْتُ دُونَكُمْ شَيْءَ مِنْ مَالِي
قَطُّ ، وَلَا كَانَ مَا قُلْتُمْ لَكُمْ إِلَّا اخْتِلَافًا تَسَاهَلْتُمْ فِيهِ ، لِمَا أَمَانَتُهُ مِنْ صَلَاحِ
أَمْرِكُمْ » ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ : ادْخُلُوا الْيُحْدَعُ ^(٤) ، فَدَخَلُوا الْيُحْدَعُ ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى صَمْرُو
فَأَحْضَرَهُ ، فَلَمَّا حَضَرَ قَالَ :

« يَا بُنَيَّ : إِنِّي عَلَيْكَ حَدِّبٌ ^(٥) مَشْفُقٌ ، لَصَفَرِ سَنِكَ ، وَنَفَاسَةِ ^(٦) إِخْوَتِكَ
عَلَى مَكَانِكَ مِنِّي ، وَإِنِّي لَا آمَنُ بَفْتَةِ الْأَجَلِ ، وَلِي كَثْرَ ادْخَرْتَهُ لَكَ دُونَ إِخْوَتِكَ ،
وَهَآنَا مُطْلَمُكَ عَلَيْهِ ، فَافْتَمِرْ أَمْرَهُ .

فَقَالَ : « يَا أَبَتَ ، طَالَ عُمُرُكَ ، وَعَلَا أَمْرُكَ ، إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يُحْسِنَ اللَّهُ

[١] حَسِبَ (بِالتَّشْدِيدِ) وَأَحْسَبَ : أَطْلَعَهُ وَسَفَّاهُ حَتَّى شَبَّحَ وَرَوَى .

[٢] بَنَاهُ الشَّيْءَ : أَطَاعَهُ عَلَى طَلَبِهِ (وَلَا مَانِعَ أَنْ يَكُونَ الْأَصْلُ « أَنْ أُمَّهُ بِأَغْيَتِهِ عَلَى ذَلِكَ ») .

[٣] الصَّمْصَامَةُ : سَيْفُ عَمْرِو بْنِ مَدْيَكْرِبَ الزُّبَيْدِيِّ وَكَانَ قَدْ صَارَ إِلَى سَعِيدِ بْنِ الْمَاسِ ، وَذَلِكَ أَنَّ خَالِدَ
ابْنَ الْوَلِيدِ لَمَّا غَزَا بَنِي زَيْدٍ حِينَ ارْتَدَوْا ، وَكَانَ خَالِدُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ الْمَاسِ « عَمَّ سَعِيدٌ لِلذَّكُورِ » مِنْ جِلَّةِ
أَسْرَائِهِ ، أَوْقَعَ بِهِمْ وَأَسْرَ رِيحَانَةَ أختَ عَمْرِو بْنِ مَدْيَكْرِبَ ، فَضَاهَا خَالِدٌ وَأَتَاهُ عَمْرُو الصَّمْصَامَةَ ، وَلَمْ يَزَلْ
ذَلِكَ السَّيْفُ عِنْدَ آلِ سَعِيدِ بْنِ الْمَاسِ حَتَّى اشْتَرَاهُ مِنْهُمْ الْخَلِيفَةُ الْهَدْيِيُّ الْعَبَّاسِيُّ بِمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، وَوَهَبَهُ
الْهَدْيِيُّ لِابْنَةِ الْهَادِي فَضَاهَا بِهِ بَعْدَ مَا وَلِيَ الْخِلَافَةَ فَوَضَعَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَذِنَ لِلشَّرَاءِ ، فَلَمَّا دَخَلُوا أَمْرَهُمْ أَنْ يَقُولُوا
فِي السَّيْفِ شِعْرًا ، فَبَغَمَ ابْنُ يَاسِينَ الْبَصْرِيُّ ، فَأَعْطَاهُ الْهَادِي السَّيْفَ وَالْجَاثِرَةَ ، فَتَرْتَمَاهُ عَلَى الشَّرَاءِ ،
وَقَالَ : دَخَلْتُمْ هَاهُنَا ، وَحَرَمْتُمْ مِنْ أَجْلِي ، وَفِي السَّيْفِ مَوْضِعٌ ، ثُمَّ بَعَثَ إِلَيْهِ الْهَادِي ، فَاشْتَرَى مِنْهُ السَّيْفَ
بِمِائَةِ أَلْفٍ ، ثُمَّ وَصَلَ إِلَى التَّنُوكْلِ فَضَعَهُ إِلَى فَلَاحَةَ بَاغِزَا الزَّرَكِيِّ ، فَقَتَلَهُ بِهِ ، وَمِنْ عِنْدِ بَاغِزَا أَهْطَعَ خَبْرَهُ .
« أَقْرَأَ خَبَرَ الصَّمْصَامَةِ فِي سَرَحِ الْمُبْرُوكِ ص ٣١٢ ، وَالْأَفَاقِي ١٤ : ٢٦ ، وَأَنْبَاءُ نَجِيَّاءِ الْأَبْنَاءِ ص ١٠٣ .
وَمَرْجُوُّ الذَّهَبِ ٢ : ٢٦٢ . [٤] الْيُحْدَعُ يَضُمُّ الْمِيمَ وَكُسِرَ هَا : الْخِزَانَةُ - بَيْتٌ صَغِيرٌ يَمْجُزُ فِيهِ الشَّيْءُ - .
[٥] مَتَمَطَّ شَفِيقٌ . [٦] تَقَسَّ عَلَيْهِ بِحَيْرٍ (كَفَرَحٍ) حَسَدٌ ، وَتَقَسَّ عَلَيْهِ الشَّيْءُ قَاسَةً : لَمْ يَرَهُ
أَمَلًا .

عنك الدِّفاع ، ويُطيل بك الإمتاع . فأما ما ذكرته من شأن الكنز ، فما يُعجِبني أن أقطع دون إخوتي أثراً ، وأزري في صدورهم غمراً ^(١) .

فقال : « انصرف يا بني ، فإِذاكَ أبوك ، فوالله مالى من كنز ، ولكنى أردت أن أبلُورَ أياك في إخوانك وبنى أهلك » ، فانطلق عمرو ، وخرج إخوته من المخدع ، فاعتذروا إلى أبيهم ، وأعطوه مَوْتَهُمْ على اتباع مشورته . (أبناء نجياء الأبناء من ١٠٠)

خطب عمرو بن سعيد الأشدق ^(٢)

(قتل سنة ٦٩ هـ)

٢٠٩ — خطبة له بالمدينة

قدم عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق المدينة أميراً ، فخرج إلى منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقعده عليه وَغَمَضَ عَيْنَيْهِ وعليه جُبَّةٌ خَزَّ قِرْمِزٌ ^(٣) ، ومُطْرَفٌ ^(٤) خز قرمز ، وعمامة خز قرمز ، فجعل أهل المدينة ينظرون إلى ثيابه إعجاباً بها ، ففتح عينيه ، فإذا الناس ينظرون إليه ، فقال :

« ما بالكم يا أهل المدينة ترفعون إلى أبصاركم ، كأنكم تريدون أن تضربونا بسيفوكم ؟ أغرَّكم أنكم فعلتم ما فعلتم ففعلنا عنكم ؟ أما إنه لو أُثْبِتُمْ ^(٥) بالأولى

[١] الثمر محرَّكة والثمر بكسر النون : الحفد والتفنن .

[٢] لقب بالأشدق لصلاحته ، والأشدق في الأصل : من عظمت أشداته (جمع شفق بالكسر ويفتح وهو جانب الفم) مشتق من الشفق (يفتحون وهو سعة الشفق) وكأولاً يتشادقون في الكلام ويحتدون في الخطيب سعة الفم والتدين ، وقالوا خطيب أشدق : أي بليغ ، وقال شاعرهم في عمرو بن سعيد هذا : شادق حتى مال بالقول شدته وكلّ خطيب لا ألباك أشدق

وقال آخرون : بل كان أقوم ماكل الذنن « والفهم بالتحريك : تقدم التأيي العليا فلا تقع على السفل » . وقد ولى لماوية مكة ولابنه يزيد مكة والمدينة ، وكان له الفضل في نيل مروان بن الحكم الخلافة ، وقد قمنا لك خبر مقلته .

[٣] القرمز : صبيح أحمر . [٤] للطرف : رداء من خزّ مريع ذو أعلام .

[٥] الثواب : الجزاء .

ما كانت الثانية ، أغرَّكم أنكم قتلتم عثمان ، فوافقتم ثأرنا ^(١) منا رفيقاً ، قد فني غضبه وبقى حلمه ، اغتصموا أنفسكم ، فقد والله ملكناكم بالشباب المقبل ، البعيد الأمل ، الطويل الأجل ، حين فرغ من الصفر ، ودخل في الكبر ، حلیم حديد ^(٢) ، لين شديد ، رقيق كشيء ، رقيق عفيف ، حين اشتد عظمه ، واعتدل جسمه ، ورمى الدهر بصره ، واستقبله بأشربه ، فهو إن عَصَّ نَهَس ^(٣) ، وإن سطا قَرَسَ ^(٤) ، لا يُقْلَقَلْ له الحصى ، ولا تُقْرَعَ له العصا ^(٥) ، ولا يمشي السُّمَّى ^(٦) ، فما بقي بعد ذلك إلا ثلاث سنين وثمانية أشهر ، حتى قَصَمَهُ اللهُ .

(المقد الفريد ٢ : ١٥٧)

٢١٠ - خطبة له بمكة

واستعمل سعيد بن العاص - وهو وال على المدينة - ابنه عمرو بن سعيد واليا على مكة ، فلما قدم لم يلقه قرشي ولا أموي إلا أن يكون الحرث بن نوفل ، فلما لقيه قال له : يا عاص ، ما الذي منع قومك أن يلقوني كما لقيتني ؟ قال : ما منعهم من ذلك إلا ما استقبلتني به ، والله ما كنتيتي ، ولا أتممت اسمي ، وإنما أنهارك عن التشذُّر ^(٧) على أكفائك ، فإن ذلك لا يرفعك عليهم ، ولا يضعهم لك ، قال : والله ما أسأت الموعظة ، ولا أتهمك على النصيحة ، وإن الذي رأيت مني لخلق ^(٨) ، فلما دخل مكة قام على المنبر ، حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

[١] الثأر : الأخذ بالثأر ، ووافقتهم أي وجدتكم .

[٢] رجل حديد يكون في اللين والقهم والغضب ، وحده عليه : غضب .

[٣] نهس اللحم : أخذه بمقدم أسنانه وفتقه . [٤] فرس فربيت : دق عنقه .

[٥] يشير إلى المثل المشهور « إن العصا قرعت لدى الحلم » وقد سبق شرحه في ص ١٧٤ .

[٦] السُمَّى والسهمي : الباطل والكذب ، يقول : ذهب في السهمي أي في الباطل ، وجري فلان السهمي أي جرى إلى غير أمر يعرفه . [٧] تشذَّر : توعد وتهدد وتغضب وترجع إلى الأمر والمراد هنا التكبر . [٨] الخلق البالي ، والمراد أنه لا يعود إليه .

«أما بعد ، معشر أهل مكة ، فإننا سكنناها غبطةً ، وخرجنا عنها رغبةً ،
ولذلك كنا إذا رفعت لنا الالهوة ^(١) بعد الالهوة أخذنا أسنانها ، ونزلنا أعلاها ،
ثم شرج ^(٢) أمرين أمرين ، فقتلنا وقتلنا ، فوالله ما نزعنا ولا نزع عنا ، حتى
شرب الدم دماً ، وأكل اللحم لحماً ، وقرع العظم عظماً ، فوالى رسول الله صلى
الله عليه وسلم برسالة الله إياه ، واختياره له ، ثم ولى أبو بكر إيساقته وفضله ، ثم
ولى عمر ، ثم أجيلت قِداحُ نزعنا من شِمَابٍ ^(٣) جَوْلَةَ سَمَةٍ ، ففاز بِمَحْطِئِهَا ^(٤)
أصلبها وأعنتها ، فكنا بمض قِداحها ، ثم شرج أمرين أمرين فقتلنا وقتلنا ، فوالله
ما نزعنا ولا نزع عنا ، حتى شرب الدم دماً ، وأكل اللحم لحماً ، وقرع العظم
عظماً ، وعاد الحرام حلالاً ، وأُسكِت كل ذى حِسٍّ عن ضرب مُهْتَدٍ ، عَزَّكَ
عَزَّكَ ، وَعَسَفَا عَسَفَا ، وَخَزَا وَتَهَسَا ، حتى طابوا عن حقنا نفساً ، والله ما أعطوه
عن هَوَادَةٍ ، ولا رَضُوا فيه بالقضاء ، أصبحوا يقولون : حَقَّنَا غُلْبُنَا عليه ، خَزَيْنَاهُ
هذا بهذا ، وهذا فى هذا . يَأْهَلُ مَكَّةَ : أَنْفَسَكُمْ أَنْفَسَكُمْ ، وَسُفْهَاءُكُمْ سُفْهَاءُكُمْ ،
فإن معنى سَوَاطٍ ^(٥) نَكَالًا ، وسيفاً وبالاً ، وكل منسوب على أهله ، ثم نزل .

(النفد الفريد ٢ : ١٥٧)

٢١١ - ملاحاة الوليد بن عقبة معه فى مجلس معاوية

تلاحي ^(١) الوليد بن عُقْبَةَ ، وعمرو بن سميد بن العاص فى مجلس معاوية ،
فتكلم الوليد فقال له عمرو : كَذَبْتَ أَوْ كَذِبْتَ ^(٢) ، فقال له الوليد : اسكت
يا طليق اللسان ، منزوع الحياء ، ويا ألام أهل بيته ، فلعمري لقد بلغ بك البخل

[١] الالهوة بالضم والفتح : الطيبة أو أفضل المطايا وأجزؤها . [٢] من الشرج بالتحريك : وهو
انشقاق الفرس ، فرس شرج : فيها شق ، وللمراد حدث ونجم . [٣] الشلاب جمع شلبة بالضم : وهي
ما بين الذنبتين وطرف النصف ، يشير إلى أصحاب الثورى السنة . [٤] المحطى : ذو الحظوة أى
للكتابة . [٥] أى سوماً ذا نكال . وسيفاً ذا وبال . [٦] تنازع .
[٧] كذب الرجل أخبر بالكذب .

الناية الشائنة المذلة لأهلها ، فسأت خلاقتك لبحلك ، فَنَعَتَ الحقوق ، ولزمت
 الحقوق ، فأنت غير مشيدِ البنيان ، ولا زفيح المكان ، فقال له عمرو : والله إن
 قريشاً تعلم أني غير خلو المذاقة ، ولا لذيذ الملاكمة ^(١) ، وإني لك الشجاء ^(٢) في
 الحلق ، ولقد علمت أني ساكن الليل ، داهية النهار ، لا أتنعم الأفياء ، ولا أتمى
 إلى غير أبي ، ولا يُجْهَل حسبي ، حام لحقائق النمار ^(٣) ، غير هيوب عند الوعيد ،
 ولا خائف رِعْدِيد ^(٤) ، فلمْ تُعَيِّرْ بالبخل وقد جُبلت عليه ، فلمرى لقد أورشك
 الضرورة لوأما ، والبخل فُخْشاً ، فقطعت رَحْمَك ، وجُرْتُ في قضيتك ، وأضعت
 حق من وَلِيَّت أمره ، فلست تُرْجِي للمظالم ، ولا تعرف بالمكارم ، ولا تستعِف
 عن المحارم ، لم تقدر على التوقير ، ولم يُحْكَمْ منك التدبير ، فأفْجِم الوليد ، فقال
 معاوية : - وساء ذلك - كُفَّالاً أباً لكما ، لا يرتفع بك القول إلى ما لا تريد ،
 ثم أنشأ عمرو يقول :

وَلَيْدٌ إِذَا مَا كُنْتُ فِي الْقَوْمِ جَالِسًا فَكُنْ سَاكِنًا مِنْكَ الْوَقَارُ عَلَى بَالٍ
 وَلَا يَبْدُرَنَّ الدَّهْرُ مِنْ فَيْكِ مَنْطِقٍ بَلَا نَظَرَ قَدْ كَانَ مِنْكَ وَإِغْفَالٍ ^(٥)
 (الأمل : ٢ : ٤٠)

٢١٢ - خطبته حين غلب على دمشق

ولما غلب على دِمَشْق ، صعد المنبر ، حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
 « أيها الناس : إنه لم يَقم أحد من قريشٍ قلى على هذا المنبر ، إلا زعم أن
 له جنة ونارا ، يُدْخِلُ الجنةَ من أطاعه ، والنارَ من عصاه ، وإني أخبركم أن الجنة

[١] الهوك : آمود للنع أو مضغ صلب . [٢] ما اعترض في الحق من عظم ونحوه .

[٣] ما نهج حاجته . [٤] جبان . [٥] يدر : يهرط ويسبق .

والنار يريد الله ، وأنه ليس إلى من ذلك شيء ، غير أن لكم على حسن المؤاساة
والعطية . (تاريخ الطبري ٧ : ١٧٦)

٢١٣ — خالد بن يزيد وعبد الملك بن مروان

روى أن عبد الله بن يزيد بن معاوية جاء إلى أخيه خالد بن يزيد في أيام
عبد الملك فقال : لقد هممتُ اليوم يا أخى أن أهلك بالوليد بن عبد الملك ، فقال
له خالد : بشئ والله ما هممتُ به في ابن أمير المؤمنين ، وولى عهد المسلمين ،
فماذا ؟ قال : إن خيلى مرّت به فعبيتُ بها وأصغرتنى ، فقال له خالد : أنا
أكفيك ، فدخل على عبد الملك ، والوليدُ عنده ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن
الوليد ابن أمير المؤمنين ، وولى عهد المسلمين ، مرت به خيلُ ابن عمه عبد الله
ابن يزيد فعبيتُ بها وأصغره ، وكان عبد الملك مُطرقاً فرفع رأسه وقال :
« إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ، وَجَمَلُوا أَعْرَةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ، وَكَذَلِكَ
يَفْعَلُونَ » فقال خالد : « وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا
فِيهَا ، حَقَّقَ عَلَيْهَا الْقَوْلُ ، فَدَمَرْنَاَهَا تَذْمِيرًا » . فقال عبد الملك : أفى عبد الله
تكلمنى ؟ والله لقد دخل أمس على فسا أقام لسانه لحنًا ، فقال خالد : أفعلى الوليد
تمول يا أمير المؤمنين ؟ قال عبد الملك : إن كان الوليد يلحن ، فإن أخاه سليمان ،
فقال خالد : وإن كان عبد الله يلحن ، فإن أخاه خالد ، فالتفت الوليد إلى خالد ،
وقال له : اسكت ويحك يا خالد ! فوالله ما تعدُّ فى العير ولا فى التنير ، فقال
خالد : اسمع يا أمير المؤمنين : ثم التفت إلى الوليد فقال له : ويحك : فمن صاحب
العير والتنير غير جدّى أبى سفيان صاحب العير ، وجدى غيبة صاحب التنير^(١) ؟

ولكن لو قلت : غُنِيَّاتٌ وَحِيْلَاتٌ وَالطَّائِفُ ، وَرَحِمَ اللهُ عِثْمَانَ لَقُلْنَا صَدَقْتَ ^(١) .

(شرح ابن أبي الحديد ١ : ص ١١١ ، وتهذيب الكامل ١ : ٣٠٢ وجمع الأمثال ٢ : ١١٥)

٢١٤ — خالد بن عبد الله بن أسيد ^(٢) وعبد الملك بن مروان

جلس يوماً عبد الملك بن مروان ، وعند رأسه خالد بن عبد الله بن أسيد ، وعند رجله أمية بن عبد الله بن أسيد ، وأدخلت عليه الأموال التي جاءت من قبل الحجاج ، حتى وضعت بين يديه ، فقال :

« هذا والله التوفير ، وهذه الأمانة ، لاما فعل هذا ، (وأشار إلى خالد)

استعملته على العراق ، فاستعمل كل مُلِطٍ ^(٣) فاسق ، فأدوا إليه العشرة واحداً ، وأدى إلى من العشرة واحداً ، واستعملت هذا على خراسان (وأشار إلى أمية ^(٤)) فأهدى إلى بردؤَيْنِ حَطَمَيْنِ ^(٥) ، فإن استعملتكم صَيَّعْتُمْ ، وإن عزلتكم قَلَّمْتُمْ استخف بنا ، وقطع أرحامنا »

فقال خالد بن عبد الله : « استعملتني على العراق ، وأهله رجلان : سامع مطيع مُنَاصِح ، وعدو مُبْغِضٌ مُكَاشِحٌ ^(٦) ، فأما السامع المطيع المناصح فإننا جَزَيْنَاهُ ، ليزداد وُدّاً إلى وده ؛ وأما المبغض المكاشح ، فإننا داريناه صِفْتَهُ ،

[١] وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما طرد الحكم بن أبي العاص « جدَّ عبد الملك » إلى الطائف — انظر ص ٦٧ — ألقاهما ، فكان يرمي غنيمات اتخذها يهرب من لينها ، ويأري إلى حيلة « مفرجة كفرة وهي الكرمة » وقوله رحم الله عثمان : أي لردء ياءه ، وقد أبي أبو بكر وعمر أن يرداه .
[٢] هو خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي الدان بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وقد ولاه عبد الملك بن مروان بعد قتل مصعب بن الزبير على البصرة وأعمالها سنة ٧١ هـ ، وهزله عنها سنة ٧٤ وولاهما أخاه بشر بن مروان ، وكان على ولاية الكوفة ، فصارت ولايتها وولاية الكوفة إليه .

[٣] لَطَّ حَقَهُ وَالطَّه : جعده . [٤] هو أمية بن عبد الله أخو خالد هذا ، ولاه عبد الملك على خراسان ، حتى كانت سنة ٧٨ فزله ، وجع سلطانه للحجاج ، فبعث للهاب بن أبي صفرة إليها .

[٥] فرس حطم ككثف : إننا هزل وأسن فضف وتهدم .

[٦] المكاشح : الذي يضرك بالدعوة ، كشح له بالدعوة وكاشحه بمعنى .

وَمَلَلْنَا حِقْدَهُ ، وَكَثَرْنَا لَكَ الْمَوَدَّةَ فِي صَدُورِ رَحِيكَ ، وَإِنْ هَذَا جَبَى الْأَمْوَالِ ،
وَزَرَعَ لَكَ الْبَغْضَاءَ فِي قُلُوبِ الرِّجَالِ ، فَيُوشِكُ أَنْ تَنْبُتَ الْبَغْضَاءُ فَلَا أَمْوَالَ
وَلَا رِجَالَ .

فلما خرج ابن الأشعث . قال عبد الملك : « هذا واقع ما قال خالد » .

(القدر الفريد ٢ : ١١٧)

٢١٥ - نصيحة لعمر بن عتبة بن أبي سفيان

ورأى عمرو بن عتبة بن أبي سفيان رجلا يشتم رجلا ، وآخر يسمع منه
فقال للمستمع :

« نَزَّهُ سَمْعَكَ عَنْ اسْتِمَاعِ الْخَنَا ، كَمَا تَنْزَهُ لِسَانَكَ عَنِ الْكَلَامِ بِهِ ، فَإِنَّ السَّامِعَ
شَرِيكَ الْقَاتِلِ ، وَإِنَّمَا نَظَرُ إِلَى شَرِّ مَا فِي وِعَائِهِ فَأَفْرَغَهُ فِي وِعَائِكَ ، وَلَوْ رُدَّتْ كَلِمَةٌ
جَاهِلٌ فِيهِ ، لَسَعِدَ رَأْدُهَا ، كَمَا شَقِيَ قَاتِلُهَا » .

(البيان والخبير ٢ : ١٦٠)

٢١٦ - تأديب معاوية لجلسائه

أَذِنَ مَعَاوِيَةُ لِلْأَخْنَفِ بْنِ قَيْسٍ - وَقَدْ وَافَى مَعَاوِيَةَ مُحَمَّدُ بْنُ الْأَشْعث -
فَقَدَّمَهُ عَلَيْهِ ، فَوَجَدَهُ^(١) مِنْ ذَلِكَ مُحَمَّدُ بْنُ الْأَشْعث ، وَأَذِنَ لَهُ فَدَخَلَ جُلُوسَ بَيْنِ
مَعَاوِيَةَ وَالْأَخْنَفِ ، فَقَالَ مَعَاوِيَةُ :

« إِنَّا وَاللَّهِ مَا أَذِنَّا لَكَ قَبْلَكَ ، إِلَّا لِيَجْلِسَ إِلَيْنَا دُونَكَ ، وَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا
يَرْفَعُ نَفْسَهُ فَوْقَ قَدْرِهِ ، إِلَّا مِنْ ذَلَّةٍ يَجِدُهَا ، وَقَدْ فَطَلَتْ فِئْلَ مَنْ أَحْسَنَ مِنْ
نَفْسِهِ ذِلًّا وَضَعَةً ، وَإِنَّا كَمَا نَعْلَمُكَ أُمُورَكُمْ ، نَعْلَمُكَ تَأْدِيبَكُمْ ، فَأَرِيدُوا مِنَّا مَا نُرِيدُهُ
مِنْكُمْ ، فَإِنَّهُ أَبْقَى لَكُمْ ، وَالْأَقْصَرُ نَاكِمُكُمْ ، فَكُنْ أَشَدَّ عَلَيْكُمْ وَأَعْنَفَ بِكُمْ » .

(البيان والخبير ٢ : ٢٢٠)

٢١٧ - كلام معاوية وقد سقطت ثنيتاه

ولما سقطت ثنيتا معاوية لفَّ وجهه بعمامة ، ثم خرج إلى الناس ، فقال :
 « لئن ابتليْتُ لقد ابتليَّ الصالحون قبلي ، وإنِّي لأرجو أن أكون منهم .
 ولئن عُوقِبْتُ لقد عُوقِبَ الخاطئون قبلي ، وما آمَنُ أن أكون منهم . ولئن سَقَطَ
 عُضْوَانُ مني ، لَمَّا بَقِيَ أَكْثَرُ . ولو أتَى على نفسي لما كَانَ لي عليه خِيَارُ تَبَارَكَ
 وتعالى ، فَرحِمَ الله عبداً دماً بالمافية ، فوالله لئن كَانَ عَبَبَ عَلَى بعضِ خَاصَتِكُمْ ،
 لقد كُنْتُ حَدِّباً ^(١) على عَائَتِكُمْ » . (البيان والبيان ٣ : ٢٢١)

٢١٨ - تقرير عبد الملك بن مروان لأحد عماله

وروى الجاحظ قال .

« قال أبو الحسن : كَانَ عبد الملك بن مروان شَدِيدَ الْيَقَظَةِ ، كثير التماهد
 لولائه ، فبانَ أن عاملاً من عماله قَبِلَ هَدِيَّةً ، فأمر بإشغاضه إليه ، فلما دخل
 عليه قال له : « أَقْبَلْتَ هَدِيَّةً مِنْذ وَلَيْتِكَ ؟ » قال : « يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، بلادك
 عامرة ، وَخَرَجَ جَكَ مَوْفُورٌ ، وَرَعَيْتُكَ عَلَى أَفْضَلِ حَالٍ » قال : « أَجِبْ فِيمَا سَأَلْتُكَ
 عَنْهُ ، أَقْبَلْتَ هَدِيَّةً مِنْذ وَلَيْتِكَ ؟ » قال : نعم . قال : « لئن كُنْتُ قَبِلْتُ وَلَمْ
 تَعْوِضْ إِنَّكَ لَلتَّيْمِ ، وَلئن أُنَلْتَ مُهْدِيكَ لَا مِنْ مَالِكَ ، أَوْ اسْتَكْفَيْتَهُ مَا لَمْ يَكُنْ
 يُسْتَكْفَاهُ ، إِنَّكَ لَجَائِرُ خَائِنٌ ، وَلئن كَانَ مَذْهَبُكَ أَنْ تَعْوِضَ الْمُهْدِيَّ إِلَيْكَ مِنْ
 مَالِكَ ، وَقَبِلْتَ مَا اتَّهَمَكَ بِهِ عِنْدَ مَنْ اسْتَكْفَاكَ ، وَبَسَطَ لِسَانَ مَائِيكَ ، وَأَطْمَع
 فِيكَ أَهْلَ عَمَلِكَ ، إِنَّكَ لَجَاهِلٌ ، وَمَا فِيمَنْ أَتَى أَمْرًا لَمْ يَحْمِلْ فِيهِ مِنْ دَنَاءَةٍ ، أَوْ
 خِيَانَةٍ ، أَوْ جَهْلٍ ، مُضْطَمَّعٌ ، نَحْيَاءٌ عَنْ عَمَلِهِ » . (البيان والبيان ٣ : ٢٣٠)

طلب معاوية البيعة ليزيد

لما كانت سنة ثلاث وخمسين ، أظهر معاوية عهداً مُقْتَعِلاً ، فقرأه على الناس فيه عقد الولاية ليزيد بعده ، فلم يزل يَرُوضُ الناس لبيعته سبع سنين ، ويشاور ، ويُعطى الأقارب ، ويُداني الأباعد ، حتى استوثق له من أكثر الناس . فقال لعبد الله بن الزبير : « ماترى فى بيعة يزيد ؟ » قال : « يا أمير المؤمنين ، إني أناديك ولا أناجيك ^(١) ، إن أخاك من صدقك ، فانظر قبل أن تتقدم ، وتفكر قبل أن تندم ، فإن النظر قبل التقدم ، والتفكير قبل التندم » فضحك معاوية وقال : « ثعلبٌ رَوَّاعٌ ! تعلمت السَّجَاعَةَ ^(٢) عند الكبر ، فى دون ما سَجَعْتَ به على ابن أخيك ما يكفيك » .

ثم التفت إلى الأخنف بن قيس ، فقال : « ماترى فى بيعة يزيد ؟ » . قال : « نخافكم إن صدقناكم ، ونخافُ الله إن كذبنا » .

فلما كانت سنة خمس وخمسين كتب معاوية إلى سائر الأمصار أن يَهْدُوا عليه ، فوفد عليه من كل مصر قوم ^(٣) ، وكان فيمن وفد عليه من المدينة محمد بن عمرو بن حَزَم ، فخلا به معاوية ، وقال له : « ماترى فى بيعة يزيد ؟ » ، فقال : « يا أمير المؤمنين ما أصبح اليوم على الأرض أحدٌ هو أَحَبُّ إلى رشدًا من نفسك سوى نفسى ، وإن يزيد أصبح غنياً فى المال ، وَسَطًا فى الحَسَب ، وإن الله سائلُ كلِّ راعٍ عن رعيته ، فاتق الله ، وانظر من تولى أمرَ أمة محمد » فأخذ

[١] نأجته : سارته . [٢] وفى القُد « السَّجَاعَةُ » وهو تصحيف ، ولم أجد « سَجَاعَةَ » فى كتب اللغة ، وإنما التى فيها هو « سَجَعٌ » كشس مصدر سَجَع كقطع ، وأرى أنها - سجاعة ككتابة - وقد ورد فى كلام البرد : « فإن المختار كان يدعى أنه يلهم ضرباً من السجاعة لأمر تكون . . . الخ » [٣] هكذا ورد فى القُد الفريد ، وفى مروج الذهب : أن وفود تلك الوفود كان سنة تسع وخمسين ، وللهموم مما ورد فى الامامة والسياسة أن وفودها كان قبل سنة ٥٠ ، وفى حياة الحسن بن على رضى الله عنه كما يبين لك مما سيرد بعد (وقد تولى الحسن سنة ٤٩ ، أو سنة ٥٠ أو سنة ٥١) .

معاوية بهز^(١) حتى تنفَس الصُّعْدَاءُ^(٢) ، وذلك في يوم شاتٍ ، ثم قال : « يا محمد : إنك امرؤ ناصح ، قلت برأيك ، ولم يكن عليك إلا ذاك . قال معاوية : إنه لم يبق إلا ابني وأبناؤهم ، فابني أحبُّ إليَّ من أبناهم ، اخرج عني » .

ثم دعا الضحاك بن قيس الفهري ، فقال له : « إذا جلست على المنبر ، وفرغت من بعض موعظتي وكلامي ، فاستأذني للقيام ، فإذا أذنت لك فاحمد الله تعالى . واذا كرزيد . وقل فيه الذي يحقُّ له من حسن الثناء عليه . ثم ادعني إلى توليته من بعدى . فإني قد رأيت وأتجعتُ على توليته . فأسألك الله في ذلك وفي غيره الخيرة^(٣) وحسن القضاء . ثم دعا عبد الرحمن بن عثمان الثقفي ، وعبد الله بن مسعدة الفزاري ، وثور بن مَعْن السلمي ، وعبد الله بن عِصَام الأشعري ، فأمرهم أن يقوموا إذا فرغ الضحاك ، وأن يصدقوا قوله ، ويدعوه إلى يزيد .

وجلس معاوية في أصحابه ، وأذن للوفود فدخلوا عليه ، فخطبهم ، فلما فرغ من بعض موعظته - وهؤلاء التفرَّ في المجلس قد قدموا للكلام - قام الضحاك بن قيس فاستأذن فأذن له .

٢١٩ — خطبة الضحاك بن قيس الفهري

حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« أوصى الله أمير المؤمنين وأمتَّع به ، إنا قد بلَّوْنا^(١) الجماعة والألفة ، فوجدناها أحقنَّ للدماء ، وآمنَ للسُّبُل ، وخيراً في العاقبة والآجلة ، ولا خير لنا أن نُترك سُدىً ، والأيام عُوْجٌ^(٢) رواجع ، والأَنْفُسُ يُمَدَى عليها وَيُرَاحُ ،

[١] البهر بالفتح : العجب . [٢] تنفس طويل . [٣] أى أسأله أن يختار لنا الأفضل ، خارجه على غيره خيرة بكسر الحاء مع سكون الياء وفتحها : فضله وخير الله له في الأمر : جل له فيه الخير . [٤] خبرنا . [٥] بمعنى رواجع اسم فاعل من طاج إذا رجع أى أن الأيام تروح على الإنسان قلبه ما أعطى من الحياة ومتع العيش .

والله يقول : « كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ » . ولسنا ندري ما يختلف به المَصْرَان ^(١) ، وأنت يا أمير المؤمنين ميت ، كما مات من كان قبلك من أنبياء الله وخلفائه ، نسأل الله تعالى بك اللتاع ، وقد رأينا من دَعَا يزيد ابن أمير المؤمنين ، وحُسْن مذهبه ، وقَصْد ^(٢) سيرته ، ويُعْنِ تَقِيَّتَهُ ^(٣) ، مع ما قسم الله له من المحبة في المسلمين ، والشَّيْبَةَ بأمير المؤمنين ، في عقله ومياسته وشيمته المَرْضِيَّة ، مادعانا إلى الرضا به في أمورنا ، والقُتُوعَ به في الولاية علينا ، فَلْيُوَلِّهِ أمير المؤمنين — أكرمه الله — عهدَه ، وليجمله لنا ملجأً ومَفْرَجاً بعده ، نَأْوِي إليه إن كَانَ كَوْنٌ ^(٤) ، فَإِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ أَحَقُّ بِهَا مِنْهُ ، فاعزم على ذلك ، عزم الله لك في رشدك ، ووفَّقَكَ في أمورنا .

٢٢٠ — خطبة عبد الرحمن بن عثمان الثقفي

ثم قام عبد الرحمن بن عثمان الثَّقَفِيُّ ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« أصلح الله أمير المؤمنين ، إنا قد أصبحنا في زمانٍ مختلفةٍ أهواؤُهُ ، قدِ احْتَدَوْدَبَتْ علينا سِيَسَاؤُهُ ^(١) ، واقْطَوَطَبَتْ ^(٢) علينا أَدْوَاؤُهُ ، وأناخت علينا أنباؤُهُ ، ونحن نُشِيرُ عليك بالرشاد ، ندعوك إلى السَّداد ، وأنت يا أمير المؤمنين

[١] المصّر : اليوم واليلة والمعنى إلى احمرار الشمس والنداء . [٢] القصد : استقامة الطريق .

[٣] التقيّة : النفس ، وهي أيضا الخلق ، والمثورة ، وتغاذ الرأي ، والباطنية .

[٤] أى إن حدث حدث . [٥] السياء : منتظم فقار الظهر ، وحمله على سياء الحق أى على حده ، والعرب تضر به مثلا لشدة الأمر ، قاله الشاعر :

انفجحت قيس بن عيلان حربنا على يابس السياء عودب الظهر

يقول : حلتناهم على مركب صعب كسياء الجمار ، أى حلتناهم على ما لا يثبت على مثله .

[٦] اقطوطب : اضطلع من قطب ، وقطب القوم : اجتمعوا ، وقطب بين عينيه : جمع ، والمراد : اجتمعت وتراكبت علينا أدواؤه ، ولم أجدها « اقطوطب » في كتب اللغة ، وإنما أتت فيها « اقطوطي » أى قارب في منيه إسقاطا .

أَحْسَنُ نَظَرًا ، وَأَثْبَتًا ^(١) بَصَرًا ، وَيزِيدُ ابْنَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْرَ فَنَاسِيرَتِهِ ، وَبَلَوْنَا
عَلَانِيَتَهُ ، وَرَضِينَا وَلَايَتَهُ ، وَزَادْنَا بِذَلِكَ انْبِسَاطًا ، وَبِهِ اغْتِبَاطًا ^(٢) ، مَعَ مَا مَنَحَهُ
اللَّهُ مِنَ الشَّيْبَةِ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَالْحُبَّةِ فِي الْمُسْلِمِينَ ، فَاعْزِمِ عَلَى ذَلِكَ ، وَلَا تَضِقْ
بِهِ ذَرْعًا ^(٣) ، فَإِنَّهُ تَعَالَى يُعْجِمُ بِهِ الْأَوَدَ ^(٤) ، وَيَرْدَعُ بِهِ الْأَلَدَ ^(٥) ، وَيُؤْمِنُ بِهِ
السُّبُلُ ، وَيَجْمَعُ بِهِ الشُّمْلُ ، وَيُعْظِمُ بِهِ الْأَجْرُ ، وَيُحْسِنُ بِهِ الْفُخْرَ ^(٦) . ثُمَّ جَلَسَ .

٢٢١ — خُطْبَةُ ثَوْرِ بْنِ مَعْنٍ السُّلَمِيِّ

قَامَ ثَوْرُ بْنُ مَعْنٍ السُّلَمِيُّ ، خَمَدَ اللَّهُ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :
« أَصْلَحَ اللَّهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّا قَدْ أَصْبَحْنَا فِي زَمَانٍ ، صَاحِبُهُ مُشَاغِبٌ ^(٧) ،
وظِلُّهُ ذَاهِبٌ ^(٨) ، مَكْتُوبٌ عَلَيْنَا فِيهِ الشَّقَاءُ وَالسَّعَادَةُ ، وَأَنْتَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
مَيِّتٌ ، نَسْأَلُ اللَّهَ بِكَ الْمَتَاعَ ، وَيزِيدُ ابْنَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَقْدَمُنَا شَرَفًا ، وَأَبْدَلُنَا
عُرْفًا ^(٩) ، وَقَدْ دَعَانَا إِلَى الرِّضَا بِهِ ، وَالْقَنُوعِ بِوَلَايَتِهِ ، وَالْحَرَصِ عَلَيْهِ ، وَالِاخْتِيَارِ لَهُ ،
مَا قَدْ عَرَفْنَا مِنْ صِدْقِ لِسَانِهِ وَوَفَاءِهِ ، وَحُسْنِ بَلَاءِهِ ، فَاجْعَلْهُ لَنَا بَعْدَكَ خَلَفًا ،
فَإِنَّهُ أَوْسَعُنَا كَنَفًا ^(١٠) ، وَأَقْدَمُنَا سَلَفًا ، وَهُوَ رَثِقٌ لِمَا فُتِقَ ، وَزَمِيمٌ لِمَا
شَرِمَتْ ^(١١) ، وَنَكَالٌ لِمَنْ فَارَقَ وَنَاقَ ، وَسَلِيمٌ لِمَنْ وَاطَبَ . وَحَافِظٌ لِلْحَقِّ .
أَسْأَلُ اللَّهَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَفْضَلَ الْبِقَاءِ وَالسَّعَادَةِ ، وَالْخَيْرَةِ فِيمَا أَرَادَ ، وَالتَّوَطُّنَ
فِي الْبِلَادِ ، وَصَلَاحَ أَمْرِ جَمِيعِ الْعِبَادِ » . ثُمَّ جَلَسَ .

[١] لَهُ « وَأَثْبَتًا » . [٢] بَسَطَ فَلَانًا فَانْبَسَطَ : سَرَعَ وَالِاغْتِبَاطُ : الْمَرَّةُ .
[٣] ضَاقَ بِالْأَمْرِ ذَرْعًا : ضَعُفَتْ طَاقَتُهُ وَلَمْ يَجِدْ مِنَ الْمَكْرُوهِ فِيهِ مَخْلَصًا . [٤] الْأَعْوَاجُ .
[٥] الْأَلَدُ : الْحَصَى الشَّجِجُ الَّذِي لَا يَرِيعُ إِلَى الْحَقِّ .
[٦] صَاحِبُهُ يَعْنِي بِهِ مَوَارِيءَ ، أَيْ يَتَابَعُهُ الْمُتَابِعُونَ ، أَمُّ مَفْعُولٌ مِنَ الشُّبِّ : وَهُوَ تَهْيِيجُ الْغَرِّ .
[٧] كُنَايَةٌ مِنْ ذَوِ الْأُجْلِ . [٨] الْمُرُوفُ . [٩] الْكَتْفُ : الظِّلُّ وَالْجَانِبُ .
[١٠] شَعَتْ الْأُمُ ، كَفَرَحَ شَعًا : انْتَشَرَ وَتَهَرَّقَ .

٢٢٢ — خطبة عبد الله بن عصام الأشعري

فقام عبد الله بن عصام ، حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
 « أصلح الله أمير المؤمنين ، وأمتع به ، إنا قد أصبحنا في دُنْيَا مُنْقَضِيَةٍ ،
 وأهواءٍ منجذمة ^(١) ، نخاف حَذَّهَا ، وننتظر جِدَّهَا ، شديدٍ مُنْحَدِرُهَا ، كثيرٍ
 وَعَزُّهَا ، شاحنةٍ مَرَّاقِبُهَا ^(٢) ، نابتةٍ مَرَاتِبُهَا ، صعبةٍ مَرَاكِبُهَا ، فالموتُ يا أمير
 المؤمنين وراءك ووراء العباد ، لا يخلدُ في الدنيا أحد ، ولا يَبْقَى لنا أَمَدٌ ^(٣) ،
 وأنت يا أمير المؤمنين مسئول عن رعيتك ، ومأخوذ بولايتك ، وأنت أنظر
 الجماعة ، وأعلى عيناً بِحُسْنِ الرَّأْيِ لأهل الطاعة ، وقد هُدِيتَ ليزيدَ في أَكْلِ
 الأمور ، وأفضلِهَا رَأْيًا ، وأجمعِهَا رِضًا ، فاقطع يزيدَ قَالَةً ^(٤) الكلام ، وَنَحْوَةً ^(٥)
 المُبْطِلِ ، وشَعَّتِ المنافق ، واكْبَتَ ^(٦) به الباذخ ^(٧) المعادي ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَلَمٌ
 لِلشَّعْتِ ، وأسهلُ للوَعْتِ ^(٨) ، فاعزم على ذلك ، وَلَا تترامى بك الظنون .

٢٢٣ — خطبة عبد الله بن مسعدة الفزاري

ثم قام عبد الله بن مسعدة الفزاري ، حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
 « أصلح الله أمير المؤمنين ، وأمتع به ، إِنْ الله قد آتَرَكَ بِخُلَافَتِهِ ، واختَصَّكَ
 بكرامته ، وجعلك عِصْمَةً لأُولِيَانِهِ ، وذَا نَكَايَةٍ لِأَعْدَائِهِ ، فَأَصْبَحْتَ بِأَنْعُمِهِ
 جَذَلًا ، وَلِمَا حَمَلَكَ مُخْتَبِلًا ، يكشف الله تعالى بك العمى ^(١) ، وَيَهْدِي بك

[١] جَذَلَهُ فَأَجْعَلَهُ : قطعه . [٢] المراقب : جمع مرب (بكسر) المكان المشرف ، يقف
 عليه الرقيب . [٣] الأمد : الناية والمنتهى .

[٤] قَالَهُ : جمع قائل ، أو مصدر قال كالمقول ، والقال ، والقيل . [٥] الكبر والعظمة .
 [٦] كَبَتَهُ : سرعه وأخزاه ، ورد البدو يَنْظُرُهُ ، وأَنَّهُ . [٧] يَنْزَحُ كَفَرَحَ ونَصَرَ : تكبر وعلا ،
 وشرف بالذخ : حال . [٨] وَعَتِ الطريق من بابي تعب وقرب إذ شاق على السالك ، فهو وَعَتَ
 (يسكون العين وكسرهما) . [٩] العمى هنا : ذهاب بصر القلب .

العِدَا ، ويزيدُ ابنُ أمير المؤمنين أحسنُ الناس برِيعتك رَأْفَةً ، وأحَقُّهم بالخِلافة بمدك ، قد ساسَ الأمورَ ، وأحكمتَه الدهورُ ، ليس بالصغير الفَهِيه ^(١) ، ولا بالكبير السَفِيهِه ، قد احتجَن ^(٢) المكارم ، وارْتَجَى لِحْل العِظَام ، وأشدَّ الناس في الدُّو نكايَةً ، وأحسنهم صُنْعاً في الوِلايَةِ ، وأنت أغنى بأمرِك ، وأحفظُ لوصيتِك ، وأحرزُ لنفسِك ، أسألُ اللهَ لأَمير المؤمنين العافيةَ في غير جَهِدٍ ^(٣) ، والنِّعمَةُ في غير تَغْيِيرٍ .

٢٢٤ — خطبة عمرو بن سعيد الأشدق

فقال معاوية لعمر بن سعيد الأشدق : قم يا أبا أمية ، فقام فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإن يزيد بن معاوية أَمَلُ تَأْمُلُونَهُ ، وَأَجَلُ تَأْمُنُونَهُ ، طَوِيلُ الباع ، رَحْبُ الدَّرَاع ، إن استَضَفْتُم إلى حِلْمِهِ وَسِعِمَ ، وَإِن اُخْتَجِمَ إلى رَأْيِهِ أُرْشِدَكُم ، وَإِن افْتَقَرْتُم إلى ذاتِ يَدِهِ أَغْنَاكُم ، جَدَعُ ^(٤) قَارِخٍ ^(٥) ، سُبُوقَ فَسَبَقٍ ، وَمُوجِدَ فَجَدٍ ، وَقُورِعَ فَفَاز سَهْمِهِ ، فَهُوَ خَلَفُ أَمير المؤمنين ، وَلَا خَلَفَ مِنْهُ . فقال له معاوية : « اجلس أبا أمية . فلقد أوسعت وأحسننت » .

قال معاوية : « أَوَكُلُّكُمْ قَدْ أَجْمَعَ عَلَى هَذَا رَأْيِهِ ؟ » فقالوا : « كُلُّنَا قَدْ

[١] الفَهِيه والْفَهْ : البلي ، ضمه كفتح ضاهية . [٢] احتجَن المال : ضمه واحتواه .

[٣] اللشقة . [٤] الجذع : الشاب الحدث .

[٥] أي شديد مجرب ، وهو في الأصل وصف الفرس ، فرح الفرس قروبا : إذا ألقى أقصى أسنانه (وله أربع أسنان يتحول من بعضها إلى بعض) يكون جذعا — وذلك إذا كان في السنة الثانية — ثم ثلثا « بفتح فكسر مع تشديد الياء » — في السنة الثالثة — ثم رابعاً « بفتح أوله وثانيه وتخفيف الياء » — إذا سقطت رابعيته ، ونبت مكانها سن وذلك إذا استتم الرابعة — ثم قارحا — إذا سقطت السن التي تلي رابعيته ونبت مكانها ثلثه ، وهو قارحه الذي صار به قارحا ، وليس بعد اقروح سقوط سن ، ولا نبات سن ، وذلك إذا استتم الخامسة ودخل في السادسة) .

أجمع رأيه على ما ذكرنا » قال : « فأين الأحنف ؟ » فأجابه ، قال : « ألا تسكلم ؟ »
فقام الأحنف .

٢٢٥ — خطبة الأحنف بن قيس

حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أصلح الله أمير المؤمنين ، إن الناس قد أمسوا في مُنْكَرِ زمانٍ قد
سَلَفَ ، ومعروفِ زمانٍ مُؤْتَفٍ ^(١) ، ويزيد ابن أمير المؤمنين نِعَمَ الخَلَفِ ،
فإنَّ ثَوْلَهُ عهدك ، فمن غيرِ كِبَرٍ مُفْنٍ ، أو مَرَضٍ مُضِيٍّ ، وقد حَلَبْتَ الدهور ^(٢) ،
وجرَّبتِ الأمورَ ، فاعْرِفْ من تُسْنِدُ إليه عهدك . ومن توليه الأمر من بعدك ،
واعصِ رأى من يأمرك ، ولا يَقْدِرْ لك ، وبشيرِ عليك ولا ينظرك ، وأنت
أنظرَ للجماعة ، وأعلم باستقامة الطاعة ، مع أن أهل الحجاز وأهل العراق لا يرضون
بهذا ، ولا يبايعون ليزيد ما كان الحسن ^(٣) حيا .

٢٢٦ — خطبة الضحاک بن قيس

فغضب الضحاک بن قيس ، فقام الثانية ، حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« أصلح الله أمير المؤمنين ، إن أهل النِّفاق ، من أهل العراق ، مُرُوهُمْ في
أنفسهم الشقاق ، وألقَهم في دينهم النِّراق ، يَرَوْنَ الحق على أهوائهم ^(١) ،
كأنما ينظرون بأقفاهم . اختالوا جهلا وبطراً . لا يرقبون من الله راقبةً ، ولا
يخافون وبأل عاقبةً ، اتخذوا إبليسَ لهم رَبًّا ، واتخذهم إبليسَ حِزْبًا ، فن يُقَارِبُوهُ

[١] مستأنف . [٢] هكنا في مروج الذهب ، وفي الامامة والبيعة : « وقد حلبت الدهر أشطره »
وأصله من حلب شطرى الناقة (بفتح التين) ولها شطران : قدامان وآخران (بكسر الحاء) والشر كل خليلين
من أخلائها ، والحلف (بكسر الحاء) لها كالفرع البقرة ، وهو مثل يضرب للسجرب ، وأشطره بدل من
الهر منصوب . [٣] هنا وما ورد في كلام الضحاک والأحنف بعد ، يدل على أن تلك الخطب كانت
في حياة الحسن بن علي كما أشرنا إليه قبل . [٤] أى على أغراضهم وميولهم .

لَا يَسْرُوه . ومن يفارقوه لَا يَضُرُّوه . فادفع رأيهم يا أمير المؤمنين في نحورهم ، وكلامهم في صدورهم ، ما للحسن وذوى الحسن في سلطان الله الذي استخلفَ به معاوية في أرضه ؟ هيهات لَا تَوَرَّتْ الخِلافةُ عن كِلَالَةٍ . وَلَا يَحْجُبُ غيرُ الذِّكْرِ العَصْبَةَ . فوطنوا أنفسكم بأهلِ العراق على المناصحة لِإمامكم ، وَكَاتِبِ نبيكم ^(١) وَصِهْرِهِ ^(٢) ، يَسْلَمْ لَكُمْ العاجِلُ ، وَتَرْجَحُوا مِنَ الآجِلِ » .

٢٢٧ - خطبة الأحنف بن قيس

ثم قام الأحنف بن قيس ، حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« يا أمير المؤمنين : إنا قد قررنا ^(٣) عنك قريشاً ، فوجدناك أَكْرَمَهَا زَنْدًا ، وأشدّها عَقْدًا ، وأوفاهَا عَهْدًا ، وقد علمت أَنَّكَ لم تفتحِ العراقَ غَنَوَةً ^(٤) ، ولم تَظْهَرَ عليها قَتَصًا ^(٥) ، ولكنك أعطيت الحسن بن عليٍّ من عهد الله ما قد علمت ، ليكون له الأمر من بعدك ، فَإِنْ تَفَّ فَإِنَّتِ أَهْلُ الوفاء ، وَإِنْ تَغْدِرَ ^(٦) تعلم والله أَنَّ وراء الحسن خيولاً جيادًا ، وأذرعاً شِدادًا ، وسيوفًا حَدَادًا ، إِنْ تَدُنْ لَهُ شِرًّا مِنْ غَدْرٍ ، تَجِدْ وراءه باعًا مِنْ نَصْرِ ، وَإِنَّكَ تعلم أَنَّ أَهْلَ العراق ما أحبوك منذ أبفضوك ، ولا أبفضوا عليًّا وَحَسَنًا منذُ أحبوها ، وما نزل عليهم في ذلك خَبَرٌ مِنَ السماء ، وَإِنْ السيوف التي شَهَرُوهَا عليك مع عليٍّ يوم صفين ، لَعَلَّ عَوَاتِقَهُمْ ، والقلوب التي أبفضوك بها ، لَيِّنَ جِوَانِحَهُمْ ، وإيم الله إِنْ الحسن لأَحَبُّ إِلَى أَهْلِ العراق من عليٍّ » .

[١] وكان معارية من كتّاب الرعي . [٢] وكانت أخته أم حبيبة بنت أبي سفيان زوج النبي عليه الصلاة والسلام .

[٣] فر الدابة : كشف عن أسناتها لينظر ما سنها ، وفر عن الأمر : بحث عنه .

[٤] فتح اليد غنوة أي قهرا . [٥] مات قنصا : أصابته ضربة أو رمية فمات مكانه .

[٦] غدره وغدره كفسر وضرب وصح .

٢٢٨ — خطبة عبد الرحمن بن عثمان الثقفي

ثم قام عبد الرحمن بن عثمان الثقفي ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
«أصلح الله أمير المؤمنين ، إن رأى الناس مختلف ، وكثير منهم منحرف ،
لا يدعون أحداً إلى رشاد ، ولا يجيبون داعياً إلى سداد ، بجانبون لرأى الخلفاء ،
مخالفون لهم في السنة والقضاء ، وقد وقفت ليزيد في أحسن القضية ، وأرضاها
لحمل الرعية ، فإذا خارا الله لك فاعزم ، ثم اقطع قالة الكلام ، فإن يزيد أعظمنا
حِلماً وعلماً ، وأوسعنا كنفاً ، وخيرنا سلفاً ، قد أحكمت التجارب ، وقصدت به
سبل المذاهب ، فلا يصرفنك عن بيعته صارف ، ولا يقفن بك دونها واقف ،
ممن هو شاسع^(١) عاصي ، ينوص^(٢) للفتنة كل مناصي ، لسانه ملتوي ، وفي
صدره داء دوي ، إن قال فشرُّ قاتل ، وإن سكنت فداء غائل^(٣) ، قد عرفنا من
هم أولئك ، ومأم عليه لك ، من المجانية للتوفيق ، والتكلف للتفريق ، فاجل بيعته
عنا النعمة ، واجمع به شمل الأمة ، ولا تجد عنه إذ هديت له ، ولا تنبش عنه إذ
وقفت له ، فإن ذلك الرأي لنا ولك ، والحق علينا وعليك . أسأل الله العون
وحسن العاقبة لنا ولك بمنه .

٢٢٩ — خطبة معاوية

فقام معاوية ، فقال :

«أيها الناس : إن لا بليس من الناس إخواناً وخلاناً ، بهم يستمد ، وإياهم
يستعين ، وعلى ألسنتهم ينطق ، إن رجوا طامعاً أوجفوا^(١) وإن استغنى عنهم

[١] من شسح للغزل كنع : بد . [٢] فاس مناصا : تحرك . [٣] من قاله أي أهلكه .

[٤] أسرموا ، وجف البير والفرس وجيفا : عدا ، وأوجفته : إذا أعديته ، قال تعالى :

«فما أوجستم عليهم من خيل ولا ركاب» أي ما أعلم .

أَرْجِفُوا^(١) ، ثُمَّ يُلْقِحُونَ^(٢) الْفِتْنَ بِالْفُجُورِ ، وَيَشَقُّونَ لَهَا حَطَبَ النِّفَاقِ ، عِيَابُونَ مَرْتَابُونَ ، إِنْ لَوُوا عُرْوَةَ أَمْرٍ حَنَفُوا ، وَإِنْ دُعُوا إِلَى غِيٍّ أَسْرَفُوا ، وَلَيْسُوا أَوْلَئِكَ بِمُنْتَهَيْنَ وَلَا بِمُقْلَعِينَ وَلَا بِمُتَمِّظِينَ ، حَتَّى تَصِيبَهُمْ صَوَاعِقُ^(٣) خَزْيٍ وَبِيلٍ ، وَتَحُلَّ بِهِمْ قَوَارِعُ^(٤) أَمْرِ جَلِيلٍ ، تَجَنَّتْ^(٥) أَصُولُهُمْ كَاجْتِنَاتِ أَصُولِ الْفَقْعِ ، فَأَوَّلَى لِأَوْلَئِكَ نَمَّ أَوَّلَى ، فَإِنَا قَدْ قَدَّمْنَا وَأَنْذَرْنَا ، إِنْ أَعْنَى التَّقَدُّمُ شَيْئًا أَوْ نَفَعَ النَّذْرُ^(٦) .

٢٣٠ - خطبة يزيد بن المقنع

ثم قام يزيد بن المقنع ، فقال :

« أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هَذَا - وَأَشَارَ إِلَى مَعَاوِيَةَ - ، فَإِنْ هَلَكَ هَذَا - وَأَشَارَ إِلَى يَزِيدَ - ، فَنَ أَبَى هَذَا - وَأَشَارَ إِلَى سَيْفِهِ » ، فَقَالَ مَعَاوِيَةُ : اجْلِسْ فَإِنَّكَ سَيِّدُ الْخَطَبَاءِ .

٢٣١ - خطبة الأحنف

ثم تكلم الأحنف بن قيس ، فقال :

« يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : أَنْتَ أَعْلَمُنَا يَزِيدَ فِي لَيْلِهِ وَنَهَارِهِ ، وَسِرِّهِ وَعَلَانِيَتِهِ ، وَمَدْخَلِهِ وَخُرْجِهِ ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُهُ لِلَّهِ رِضًا وَلِهَذِهِ الْأُمَّةِ ، فَلَا تَشَاوِرِ النَّاسَ فِيهِ ،

[١] أَرْجِفُ الْقَوْمَ : خَضَعُوا فِي أَنْخِافِ الْفِتَنِ وَنَحْوِهَا ، قَالَ تَمَالِي : « وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ » .

[٢] فِي الْأَصْلِ « يُلْقِحُونَ » وَهُوَ تَحْرِيفٌ ، وَصَوَابُهُ : « يُلْقِحُونَ » مِنْ أَلْفَحِ النَّافَةِ وَالنَّفْعَةِ .

[٣] جَمْعُ صَاعِقَةٍ ، وَهِيَ لِلْمَوْتِ وَكُلِّ غَلَبٍ مَهْلِكٍ . وَأَرْضٌ وَبَيْلَةٌ : وَخِيمةُ الرَّمْعِ . [٤] جَمْعُ قَارِعَةٍ ،

وَهِيَ الْهَامِيَةُ الْفَاجِئَةُ . قَالَ تَمَالِي : « وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ » .

[٥] تَحَنَّنَ ، وَالتَّحَنُّنُ بِالْفَتْحِ وَيُكْسَرُ : الْبَيْضَاءُ الرَّخْوَةُ مِنَ الْكَوَاكِبِ .

[٦] النَّذْرُ الْإِثَارُ . قَالَ تَمَالِي : « فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذْرِي » أَيْ إِثَارِي ، وَفِي الْإِمْلَةِ

وَالسِّيَاسَةِ عَقِبَ هَذِهِ الْخُطْبَةِ : « قَدِمَا مَعَاوِيَةُ الضَّحَاكُ فُلُوْلَةَ الْكُوفَةِ ، وَدَعَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ فُلُوْلَةَ الْجَبْرِ » .

وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ مِنْهُ غَيْرَ ذَلِكَ ، فَلَا تَرْوِذْهُ الدُّنْيَا وَأَنْتَ صَائِرٌ إِلَى الْآخِرَةِ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْآخِرَةِ إِلَّا مَا طَابَ ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا حُجَّةَ لَكَ عِنْدَ اللَّهِ إِنْ قَدَّمْتَ يَزِيدَ عَلَى الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ مِنْهُمَا ، وَإِلَى مَا هُمَا ، وَإِنَّمَا عَلَيْنَا أَنْ نَقُولَ : « سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ، غُفِرَ لَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ » .

قال صاحب المقد : فتفرق الناس ، ولم يذكرُوا إِلَّا كلامَ الأحنف ، ثم بايع الناس ليزيد بن معاوية ، فقال رجل وقد دُعِيَ إِلَى الْبَيْعَةِ : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مُعَاوِيَةَ » . فقال لَهُ مُعَاوِيَةُ : « تَعُوذُ مِنْ شَرِّ نَفْسِكَ ، فَإِنَّهُ أَشَدُّ عَلَيْكَ وَبَايِعَ » فقال : « إِنِّي أَبَايِعُ وَأَنَا كَارِهِ لِلْبَيْعَةِ » ، فقال لَهُ مُعَاوِيَةُ : بايِعْ أَيُّهَا الرَّجُلُ فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ : « فَمَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا » .
أما ابن قتيبة فيقول :

قالوا : فاستخار الله معاوية ، وأعرض عن ذكر البيعة ، حتى قدم المدينة سنة خمسين ، فتلقاه الناس ، فلما استقرَّ فِي مَنْزِلِهِ أَرْسَلَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ ، وَأَمَرَ حَاجِبَهُ أَلَّا يَأْذَنَ لِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ حَتَّى يَخْرُجَ هَؤُلَاءِ النَّفَرِ ، فَلَمَّا جَلَسُوا تَكَلَّمَ مُعَاوِيَةُ فَقَالَ :

٢٣٢ — خطبة معاوية

« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَمَرَنَا بِحَمْدِهِ ، وَوَعَدَنَا عَلَيْهِ ثَوَابَهُ ، نَحْمَدُهُ كَثِيرًا ، كَمَا أَنْعَمَ عَلَيْنَا كَثِيرًا ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، أَمَا بَعْدُ : فَإِنِّي قَدْ كَبِرَ سِنِّي ، وَوَهَنَ عَظْمِي ، وَقَرُبَ أَجْلِي ، وَأَوْشَكْتُ أَنْ أَذْغَى فَأَجِيبُ ، وَقَدْ رَأَيْتُ أَنْ أُسْتَخْلَفَ عَلَيْكُمْ بِمَدْيِ يَزِيدَ ، وَرَأَيْتُهُ لَكُمْ

رِضًا ، وَأَنْتُمْ عِبَادُهُ قَرِيبٌ وَخِيَارُهَا وَأَبْنَاءُ خِيَارِهَا ، وَلَمْ يَنْغْنَى أَنْ أُحْضِرَ حَسَنًا وَحُسَيْنًا إِلَّا أَنْهَمَا أَوْلَادُ أَيُّهُمَا ، عَلَى حُسْنِ رَأْيِي فِيهِمَا ، وَشَدِيدِ حُبِّي لَهُمَا ، فَرُذُّوا عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ خَيْرًا ، بِرَحْمَةِ اللَّهِ .

٢٣٣ — خطبة عبد الله بن عباس

فَتَكَلَّمَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ فَقَالَ :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَلْهَمَنَا أَنْ نَحْمَدَهُ ، وَاسْتَوْجِبَ عَلَيْنَا الشُّكْرَ عَلَى آلَائِهِ ، وَحُسْنِ بِلَائِهِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ . أَمَّا بَعْدُ : فَإِنَّكَ قَدْ تَكَلَّمْتَ فَأَنْصِتْنَا . وَقُلْتَ فَسَمِعْنَا ، وَإِنْ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ ، وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ ، اخْتَارَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِرِسَالَتِهِ ، وَاخْتَارَهُ لَوَحْيِهِ ، وَشَرَّفَهُ عَلَى خَلْقِهِ ، فَأَشْرَفَ النَّاسَ مِنْ تَشَرَّفَ بِهِ ، وَأَوْلَاهُمْ بِالْأَمْرِ أَخَصَّهُمْ بِهِ ، وَإِنَّمَا عَلَى الْأُمَّةِ التَّسْلِيمُ لِنَبِيِّهَا إِذْ اخْتَارَهُ اللَّهُ لَهَا ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا اخْتَارَ مُحَمَّدًا يَعْلَمُهُ ، وَهُوَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ » .

٢٣٤ — خطبة عبد الله بن جعفر

فَقَامَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ فَقَالَ :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ أَهْلُ الْحَمْدِ وَمُسْتَهَامٌ ، نَحْمَدُهُ عَلَى إلهَامِنَا حَمْدَهُ ، وَنَرْغَبُ إِلَيْهِ فِي تَأْدِيَةِ حَقِّهِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاحِدًا صَمَدًا ^(١) ، لَمْ يَتَّخِذْ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . أَمَّا بَعْدُ : فَإِنَّ هَذِهِ الْخِلَافَةَ إِنْ أُخِذَ فِيهَا بِالْقُرْآنِ : « فَأُولُو الْأَرْحَامِ بِمَقْصُومٍ أَوْلى يَمِصُّ فِي كِتَابِ اللَّهِ » ، وَإِنْ أُخِذَ فِيهَا بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ، فَأُولُو رَسُولِ اللَّهِ ، وَإِنْ أُخِذَ بِسُنَّةِ الشَّيْخَيْنِ أَبِي بَكْرٍ

[١] الصمد : السيد لأنه يصمد إليه في المرواح أي يصمد ، صمده من باب نصر : قصده .

وعمر، فأى الناس أفضل وأكمل وأحق بهذا الأمر من آل الرسول؟ وإيم الله لو ولّوه بعد نبهم، لوضعوا الأمر موضعه، لحقه صدقه، ولأطيع الله، وعصى الشيطان، وما اختلف في الأمة سيفان، فاتق الله يا معاوية، فإنك قد صرت راعياً ونحن رعية، فانظر لرعتك، فإنك مسئول عنها غداً، وأما ما ذكرت من ابني عمي، وتركك أن تُحضرهما، فوالله ما أصبت الحق، ولا يجوز لك ذلك إلا بهما، وإنك لتعلم أنهما معدن العلم والكرم، فقل أودع، وأستغفر الله لي ولكم.

٢٣٥ — خطبة عبد الله بن الزبير

فتكلم عبد الله بن الزبير فقال :

« الحمد لله الذي عرفنا دينه، وأكرمنا برسوله، أحمده على ما أبلى وأولى، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، أما بعد : فإن هذه الخلافة لقريش خاصة، تتناولها بآثارها السيئة، وأفعالها المرئية، مع شرف الآباء، وكرم الأبناء، فاتق الله يا معاوية، وأنصف من نفسك، فإن هذا عبد الله ابن عباس ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا عبد الله بن جعفر ذي الجناحين، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنا عبد الله بن الزبير ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلي خلف حسنًا وحسينًا، وأنت تعلم من هما، وما هما، فاتق الله يا معاوية، وأنت الحاكم بيننا وبين نفسك » .

٢٣٦ — خطبة عبد الله بن عمر (المتوفى سنة ٧٤ هـ)

فتكلم عبد الله بن عمر فقال :

« الحمد لله الذي أكرمنا بدينه، وشرفنا بنيه صلى الله عليه وسلم، أما بعد : فإن هذه الخلافة ليست بهرقلية، ولا قيصرية، ولا كثرورية، يتوارثها الأبناء

عن الآباء ، ولو كان كذلك كنتُ القائمُ بها بعد أبي ، فوالله ما أدخلني مع الستة من أصحاب الشورى ، إلا على أن الخلافة ليست شرطاً مشروطاً ، وإنما هي في قرش خاصة ، لئن كان لها أهلاً ، ممن ارتضاه المسلمون لأنفسهم ، من كان أتقى وأرضى ، فإن كنت تريد الفتيان من قرش ، فلعمري إن يزيد من فتياتها ، واعلم أنه لا يُغني عنك من الله شيئاً .

٢٣٧ - خطبة معاوية

فتكلم معاوية فقال :

« قد قلتُ وقتلتم ، وإنه قد ذهبت الآباء وبقيت الأبناء ، فابني أحبُّ إليَّ من أبنائهم ، مع أن ابني إن قالتموه ^(١) وجد مقالا ، وإنما كان هذا الأمر لبني عبد مناف ، لأنهم أهل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولَّى الناس أبا بكر وعمر ، من غير معدن الملك ولا الخلافة ، غير أنهما سارا بسيرة جميلة ، ثم رجع الملك إلى بني عبد مناف ، فلا يزال فيهم إلى يوم القيامة ، وقد أخرجك الله يابن الزبير وأنت يابن عمر منها . فأما ابنا عمي هذان فليسا بخارجين من الرأي إن شاء الله . ثم أمر بالرحلة وأعرض عن ذكر البيعة ليزيد ، ولم يقطع عنهم شيئاً من صلاتهم وأعطيتهم ^(٢) ، ثم انصرف راجعاً إلى الشام ، وسكت عن البيعة ، فلم يترض لها إلى سنة إحدى وخمسين .

* *

قال ابن قتيبة : ثم لم يلبث معاوية بعد وفاة الحسن رحمة الله (سنة ٥١) إلا يسيراً حتى بايع ليزيد بالشام ، وكتب يبيعه إلى الآفاق ، وكان عامله على

[١] قال : فاعل من القول ، ككذلك وطلب وكالم . [٢] أعطيات جمع أعطية وهو جمع عطاء .

المدينة مروان بن الحكم ، فكتب إليه بذلك وأمره أن يجمع مَنْ قبله من قريش وغيرهم من أهل المدينة ، ثم يبايعوا ليزيد ، فلما قرأ كتاب معاوية أبن من ذلك وأبنته قريش ، وكتب إلى معاوية : إن قومك قد أبوا إجابتك إلى بيعتك ابتك ، فأرني رأيك ، فكتب إليه يأمره أن يعتزل عمله ، ويخبره أنه قد ولّى المدينة سعيد بن العاص ، فخرج مروان مُنْاضِياً في أهل بيته وأحواله من بني كِنانة حتى أتى دمشق ، ودخل على معاوية ، فسلم عليه بالخلافة ، ثم قال :

٢٣٨ — خطبة مروان بن الحكم

«إن الله عظيمُ خَطَرُهُ ، لَا يَقْدِرُ^(١) قَادِرُ قَدَرُهُ ، خَلَقَ مِنْ خَلْقِهِ عِبَاداً ، جعلهم لدعائهم دينه أوتاداً ، هم رُقَبَاؤُهُ على البلاد ، وَخَلَقَاؤُهُ على العباد ، أُسْفَرُ^(٢) بهم الظلم ، وَأَلْفَ بهم الدين ، وَشَدَّدَ بهم اليقين ، وَمَنَحَ بهم الظفر ، وَوَضَعَ بهم من استكبر ، فكان مَنْ قَبْلَكَ من خلفائنا ، يعرفون ذلك في سالف زماننا ، وَكُنَّا نكون لهم على الطاعة إخواناً ، وعلى من خالف عنها أعواناً ، يُشَدُّ بنا العَصْدُ ، وَيُقَامُ بنا الأود ، وَتُسْتَشَارُ في القضية ، وَتُسْتَأْتَرُ^(٣) في أمر الرعية ، وَقد أصبحنا اليوم في أمور مستحيرة^(٤) ، ذات وجوه مستديرة ، تُفْتَحُ بأزمة الضلال ، وَتُحْلَسُ^(٥) بأسوأ الرجال ، يُؤْكَلُ جَزْؤُهَا^(٦) ، وَتُتَّقَى أَهْلُهَا^(٧) ، فإلنا

[١] قدره من باني نصر وضرب وقدره تقديرًا : عظمه ، قال تعالى : «وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدَرِهِ»

أى ما عظموه حق تعظيمه . [٢] سفر الصبح وأسفر : أضاء وأشرق ، أو هو شد من سفرت الحرب أى ولت ، وسفرت المرأة كشفت عن وجهها ، فالتى كشف بهم الظلم . [٣] الاستئثار بالملورة .

[٤] في الأصل «مستخيرة» أى مستخير صاحبها من استشار الله في أمره : طلب أن يجعل له فيه الخير ، وأرى أنها «مستحيرة» بلهاء أى مستحير صاحبها أى متحير ، من استعار إذا نظر إلى الشيء ، فعنى عليه ولم يجد له سبيلاً ، ويؤيد هذا قوله بعد « ذات وجوه مستديرة » أى مستقلة مبهمة ليست مستقيمة .

[٥] جلس البعير كقربه : غشاه مجلس (بكسر الحاء) وهو كساه على ظهر البعير تحت البرذعة « وفى الأصل » وتجلس بأسوأ الريل « بجيمين وهو تصحيف » . [٦] الجزور : البعير أو خاس بالناقعة المجزورة . [٧] احتق التفصيل مالى الصرع شربه كله ، والأحلاب جمع حلب (بضمح) وهو اللبن المالحوب .

لا نَسْتَأْثِرُ فِي رِضَاعِهَا ، وَنَحْنُ فِطَايُهَا وَأَوْلَادُ فِطَايِهَا ، وَآيُمُ اللَّهِ لَوْلَا عَهْدُ مُؤَكَّدَةٌ ، وَمَوَاقِيقُ مُعَقَّدَةٌ ^(١) ، لَأَقْتُ أَوْدَ وَلِيَّيْهَا ، فَأَقِمِ الْأَمْرَ يَا بْنَ أَبِي سَفْيَانَ ، وَاعْدِلْ عَنِ تَأْمِيرِكَ الصَّبِيَّانَ ، وَأَعْلَمْ أَنَّ لَكَ فِي قَوْمِكَ نُظَرَاءَ ، وَأَنَّ لَهُمْ عَلَى مَنَاوَأَتِكَ وَزَرَاءَ .

فغضب معاوية من كلامه غضباً شديداً ، ثم كظم غيظه بحلمه ، وأخذ يمد مروان ، ثم قال :

٢٣٩ — خطبة معاوية

« إِنْ اللَّهُ قَدْ جَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ أَصْلاً ، وَجَعَلَ لِكُلِّ خَيْرٍ أَهْلاً ، ثُمَّ جَعَلَكَ فِي الْكَرَمِ مِنِّي تَحْتِياً ^(٢) ، وَالْعَزِيزِ مِنِّي وَالِدَاً ، اخْتَرْتَ مِنْ قُرُومٍ ^(٣) قَادَةً ، ثُمَّ اسْتُلِّمْتَ سَيِّدَ سَادَةٍ ، فَأَنْتَ ابْنُ يَنَابِيعِ الْكَرَمِ ، فَتَرَجَّحَا بِكَ وَأَهْلًا مِنْ ابْنِ عَمٍّ ، ذَكَرْتَ خَلْفَاءَ مَفْقُودِينَ ، شُهَدَاءَ صِدِّيقِينَ ، كَانُوا كَمَا نَسْتُ ، وَكَانَتْ لَهُمْ كَمَا ذَكَرْتَ . وَقَدْ أَصْبَحْنَا فِي أُمُورٍ مُسْتَحِيرَةٍ ، ذَاتِ وُجُوهِ مُسْتَدِيرَةٍ ، وَبِكَ وَاللَّهِ يَا بْنَ الْعَمِّ نَرْجُو اسْتِقَامَةَ أَوْدِهَا ، وَذُلُولَةَ ^(٤) صَعُوبَتِهَا ، وَشَفُورَ ظُلْمَتِهَا ، حَتَّى يَتَطَّأَ ^(٥) جَسِيمُهَا ، وَيُرْكَبَ بِكَ عَظِيمُهَا ، فَأَنْتَ نَظِيرُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَعُدَّتُهُ فِي كُلِّ شِدِيدَةٍ وَعَضُدُهُ ، وَالثَّانِي بَعْدَ وَلِيِّ عَهْدِهِ ، فَقَدْ وَلَيْتَكَ قَوْمَكَ ، وَأَعْظَمْتُ فِي الْخِرَاجِ سَهْمَكَ ، وَأَنَا حِمِيزُ وَفْدِكَ ، وَمَحْسَنُ رِفْدِكَ ^(٦) ، وَعَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ غِنَاكَ ، وَالتَّزُولُ عِنْدَ رِضَاكَ ^(٧) . »

[١] اسم مفعول من عقد بالقشيد مضاف ضد الجبل والبيع والمهر إذا شدَّ .

[٢] المختد : الأصل . [٣] جمع قرم بالفتح وهو البعد . [٤] مكثنا في الأصل ، وفي كتب

اللقنة : « الذل بالكسر والضم اللين وهو ضد الصعوبة ، ذلَّ فهو ذلول ، يكون في الإنسان والحيَّة » .

[٥] ضطأ رأسه خفضه تخطأ . [٦] الرشد : الطاء والملة .

[٧] قال السعدي : « وجهه ولي عهد يزيد ورده إلى اللدنية ، ثم إنه عزله عنها ، وولاهها الوليد بن

عتبة بن أبي سفيان ، ولم يف لمروان بما جمل له من ولاية عهد يزيد » ، وقال ابن قتيبة : « فكان أول

مارزق ألف دينار في كل هلال ، وفرض له في أهل بيته مائة مائة » .

٢٤٠ - مروان وعبد الرحمن بن أبي بكر

وروى أن مروان لما ورد عليه كتاب معاوية ، قرأه على أهل المدينة وقال :
 « إن أمير المؤمنين قد كبر سنه ، ودقَّ عظمه ، وقد خاف أن يأتيه أمر الله
 تعالى ، فيدع الناس كالنعم لاراعى لها ، وقد أحب أن يُعَلِّمَ علماً ، ويُقيم إماماً » ،
 فقالوا : وفقَّ الله أمير المؤمنين وسدده ، ليفعل ، فكتب بذلك إلى معاوية ، فكتب
 إليه أن سمَّ يزيد ، فقرأ الكتاب عليهم وسمَّى يزيد ، وخطبهم فخصَّهم على الطاعة ،
 وحذَّهم الفتنه ، ودعاهم إلى بيعة يزيد وقال : سنة أبي بكر الهادية المهدية ، فقام
 عبد الرحمن بن أبي بكر ، فقال : « كذبت والله يا مروان ، وكذب معاوية ملك ،
 إن أبا بكر ترك الأهل والعشيرة ، وباع لرجل من بني عدِيّ رضى دينه وأماته ،
 واختاره لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، لا يكون ذلك ، لا تُحدِّثوا علينا سنة
 الروم ، كلما مات هرقلُ قام مكانه هرقل » ، فقال مروان : « أيها الناس : إن
 هذا المتكلم هو الذي أنزل الله فيه : « وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أَفِ لَكَ ، أَمَدًا إِنِّي
 أَنْ أَخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي » (١) » ، فقال له عبد الرحمن :

[١] أخرج : أيث ، قال صاحب الأمالي : « سمعت ذلك عائشة رضى الله عنها فقالت : ألا بن الصديق
 يقول هذا ؟ استرونى فستروها » ، فقالت : كذبت والله يا مروان إن ذلك لرجل معروف نسب » ، وقال
 المسرون في هذه الآية : « والمراد (باقى قال) الجنس اتفائل ذلك القول ، وعن الحسن : هو في الكافر
 العاق لوالديه ، للكذب باليت ، وعن قتادة : نعت عبد سوء : عاق لوالديه ، فاجر لربه ، وقيل نزلت في
 عبد الرحمن بن أبي بكر قبل إسلامه ، وقد دعاه أبوه أبو بكر وأمه أم رومان إلى الإسلام ، فأقف بهما ،
 وقال : ابشوا إلى جدعان بن عمرو ، وعثمان بن عمرو - وهما من أجداده - حتى أسألها عما يقول محمد ،
 ويشهد بيطلا أن المراد باقى قال جنس القائلين ذلك ، وأن قوله : « أَقْدِرِنْ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ »
 هم أصحاب النار ، وعبد الرحمن كان من أفاضل السليين وسرواتهم ، وعن عائشة رضى الله عنها إنكار نزولها
 فيه ، وجن كتب معاوية إلى مروان أن يبايع الناس ليزيد ، قال عبد الرحمن : لقد بختم بهاهرقلية ، أنبايعون
 لأنبايتكم ، فقال مروان : يا أيها الناس هو الذى قال الله فيه « وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ ... الآية » فسمعت
 عائشة فنضبت ، وقالت : « والله ما هو به ، ولو شئت أن أسميه لسميته ، أما أنت يا مروان ، فأشهد أن
 رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن أبأك وأنت في صلبه ، فأنت ضمن من لعنة الله » اهـ

«يا بن الزرقاء»^(١)، أفينا تناول القرآن؟ وتكلم الحسين بن عليّ، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر، وأنكروا ببيعة يزيد، وتفرق الناس، فكتب مروان إلى معاوية بذلك.

قال ابن قتيبة: فقدم معاوية المدينة حاجاً، ثم أرسل إلى الحسين بن عليّ وعبد الله بن عباس فحضرا، وابتدأ معاوية قتال:

٢٤١ - خطبة معاوية

«أما بعد: فالحمد لله وليّ النعم، ومُنزل النعم، وأشهد أن لا إله إلا الله، المتعالى عما يقول الملحّدون علواً كبيراً، وأن محمداً عبده المختصّ المبعوث إلى الجن والإنس كافّة، لينذّرهم بقرآن: «لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ»، فأدّى عن الله، وصدّع^(٢) بأمره، وصبر على

(وقولها فضض كجبل ويروى كمنق وغراب أى قطعة منها).

وجاء في السيرة الحلبية (١: ٣٠٢): «عن الواقدي، استأذن الحكم بن أبي العاص على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحرف صوته، فقال: «أذنوا له لئله الله ومن يخرج من صلبه إلا المؤمن منهم - ونليل ما م - ذوو مكر وخديعة، يطمون الدنيا، وما لهم في الآخرة من خلاق»، وكان لا يولد لأحد ولد بالمدينة إلا أتى به النبي صلى الله عليه وسلم، فأتى إليه بمروان لما ولد، فقال: «هو الوزغ بن الوزغ، لللعون بن اللعون» وعن جبير بن مطعم: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ الحكم بن أبي العاص، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «ويلي لأمتي مما في صلب هذا». وجاء في أسد الغابة في ترجمته: «ذكره عبد الرحمن بن حسان بن ثابت، في هجائه لعبد الرحمن بن الحكم، قال:

إِنَّ الْعَيْنَ أَبُوكَ قَامَ عِظَامُهُ
إِنْ تَرَمَ تَرَمَ مَخْلُجًا مَجْنُونًا

وقد روى في لئله وفيه أحاديث كثيرة لا حاجة إلى ذكرها، إلا أن الأثر المقطوع به أن النبي صلى الله عليه وسلم، مع حله وإغضائه على ما يكره، ما ضل به ذلك إلا لأمر عظيم، وجاء في الفخرى ص ١٠٨ «ورويت أحاديث وأخبار في لئله الحكم بن أبي العاص، ولئله من في صلبه، ووضفها قوم».

[١] في الفخرى ص ١٠٨ «وكان من أراد ذم مروان وعيه يقول له «يا بن الزرقاء» قالوا: وكانت الزرقاء جدتهم من ذوات الرايات التي يستعمل بها على بيوت البنائا في الجاهلية، فذلك كانوا يذمون بها».

[٢] قوله تعالى: «فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ» أى شقّ ججاطهم بالتوحيد أو أجهر بالقرآن أو أظهر

أو احكم بالحق وافضل بالأمر أو اقمده بما تؤمر أو افرق به بين الحق والباطل.

الأذى في جنبه ، حتى أوضح دين الله ، وأعز أوليائه ، وقمع المشركين ، وظهر أمر الله وهم كارهون ، ففضى صلوات الله عليه ، وقد ترك من الدنيا ما بذل له ، واختار منها الترك لما سخر له ، زهادة واختياراً لله ، وأتفة واقتداراً على الصبر ، وبعياً لما يدوم ويبقى ، وهذه صفة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم خلفه رجلان محفوظان ، وثالث مشكوك ، وبين ذلك خوض طالما جالناه ، مشاهدة ومكافحة ، ومماينة وسماعاً ، وما أعلم منه فوق ماتملان ، وقد كان من أمر يزيد ما سبقتهم إليه وإلى تجويزه ، وقد علم الله ما أحاول به من أمر الرعية ، من سدّ الخلل ، ولمّ الصدّع ، بولاية يزيد ، بما أيقظ العين ، وأحمد الفعل ، هذا معناه في يزيد ، وفيكافضل القرابة ، وحظوة العلم ، وكمال المروءة ، وقد أصبت من ذلك عند يزيد على المناظرة والمقابلة ، ما أعياني مثله عندكما ، وعند غيركما ، مع علمه بالسنة وقراءة القرآن ، والجليل الذي يرجح بالصم^(١) الصلاب ، وقد علمتما أن الرسول المحفوظ بمضممة الرسالة ، قدّم على الصديق والفاروق ، ومن دونهما من أكابر الصحابة ، وأوائل المهاجرين ، يوم غزوة ذات السلاسل^(٢) ، من لم يقارب

[١] الصم جمع أصم ، وهو الحجر الصلب الصمت .

[٢] غزوة ذات السلاسل وهي وراء وادي القرى من أرض بني عذرة : غزاهما سرية عمرو بن الناس سنة ثمان للهجرة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يهتف يستقر العرب إلى الشام ، فلما كان على ماء بأرض جذام ، يقال له السلسل — وبذلك سميت تلك الغزوة غزوة ذات السلاسل — خاف فيبت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمدد ، فبعت إليه رسول الله أنا عبيدة بن الجراح في المهاجرين الأولين ، فيهم أبو بكر وعمر ، وقال لأبي عبيدة حين وجهه : لا تخلفا ، فخرج أبو عبيدة ، حتى إذا قدم عليه ، قال له عمرو : إنما جئت مدداً لي قال أبو عبيدة : لا ، ولكني على ما أنا عليه ، وأنت على ما أنت عليه — وكان أبو عبيدة رجلاً ليناً سهلاً هيناً عليه أمر الدنيا — فقال له عمرو : بل أنت مدد لي ، فقال له أبو عبيدة : يا عمرو ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي لا تخلفا ، وإني إن عصيتني أطعك ، قال : فإني الأمير عليك ، وأنت مدد لي ، قال : فمدوك ، ضلي عمرو بالناس .

القوم ، ولم يماندكم ^(١) ، برتبة في قرابة موصولة ، ولا سنة مذكورة ، فقادهم الرجل بأمره ، وجمع بهم صلاتهم ، وحفظ عليهم فيهم ، وقال ولم يقل معة ، وفي رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة ، فهلا بنى عبد المطلب ، فإننا وأنتم شعباً نفع وجد ، ومازلت أرجو الإنصاف في اجتماعكما ، فإيقول القائل إلا بفضل قولكما ، فرداً على ذي رحم مستعيب ، ما يحمد به البصيرة في عتابكما ، وأستغفر الله لي ولكما .

فتيسر ابن عباس للكلام ، ونصب يده للمخاطبة ، فأشار إليه الحسين وقال : على رسلك ، فأنما المراد ، ونصبي في التهمة أوفر ، فأمسك ابن عباس ، فقام الحسين :

٢٤٢ . خطبة الحسين

نحمد الله ، وصلى على الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : « أما بعد يا معاوية ، فلن يؤدّي القائل - وإن أطنب - في صفة الرسول صلى الله عليه وسلم من جميع جزءا ، قد فهمت ما البست ^(٢) به الخلف بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من إيجاز الصفة ، والتكسب عن استبلاغ الشيعة ، وهيئات هيات يا معاوية ! فضح الصبح فحمة الدجى ، وبهرت ^(٣) الشمس أنوار الشرج ، ولقد فضلت حتى أفرطت ، واستأثرت حتى أجحفت ، ومنعت حتى بخلت ، وجرت حتى جاوزت ، ما بذلت لذي حق من أتم حقه بنصيب ، حتى أخذ الشيطان حظه الأوفر ، ونصيبه الأكل ، وفهمت ما ذكرته عن يزيد ،

[١] اللامعة : الفارقة ، أى ولم يمتز عليهم برتبة .

[٢] ألبسه : غطاه . [٣] يقال بهر القمر كنح : غلب ضوءه ضوء الكواكب ، والسر جمع سراج ، وهو المصباح .

من اكتماله وسيابته لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، تريد أن توم الناس في يزيد، كأنك تصيف محجوباً، أو تمت غائباً، أو تخبر عما كان مما احتويه يعلم خاص، وقد دلّ يزيد من نفسه على موقع رأيه، فخذ ليزيد فيما أخذ به من استقرائه^(١) الكلاب المتهاشمة^(٢) عند التحارش، والحمام السبق لأترائين^(٣)، والقيّات^(٤) ذوات المازيف، وضروب الملاهي، تجذّه ناصراً، ودع عنك ما تحاول، فما أغناك أن تلقى الله بوزر هذا الخلق بأكثر مما أنت لاقيه، فوالله ما برحت تقدّم باطلا في جور، وحقاً في ظلم، حتى ملأت الأسقية، وما بينك وبين الموت إلا غمضة، فتقدّم على عمل محفوظ. في يوم مشهود، ولات حين مناص، ورأيتك عرّضت بنا بعد هذا الأمر، ومنعتنا عن آبائنا ترائنا، ولقد - لعمر الله - أورثنا الرسول عليه الصلاة والسلام ولادة، وجئت لنا بما حجبتم به القائم عند موت الرسول عليه الصلاة والسلام، فأذعن للحجة بذلك، وردّه الإيمان إلى النصف، فركبتم الأعاليل، وفلتم الأفاعيل، وقلمتم كان ويكون، حتى أتاك الأمر يامعاوية، من طريق كان قصدها لعيرك، فهناك^(٥)، فاعتبروا يا أولي الأبصار، وذكرت قيادة الرجل القوم بهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتأميره له، وقد كان ذلك، ولعمرو بن العاص يومئذ فضيلة، بصحبة الرسول وبيعه له، وما صار لعمر يومئذ حتى أنف القوم إمرته، وكرهوا تقديمه، وعدّوا عليه أفعاله، فقال صلى الله عليه وسلم: «لا جرّم^(٦) معشر المهاجرين، لا يعمل عليكم بعد اليوم غيري».

[١] استغراء الأشياء : تتبع أفرادها . [٢] المهارشة : تمريش يضيا على بعض .

[٣] جمع قينة : وهي الجارية المنيّة أو أُمّ ، والممازف الآلات التي يضرب بها الكامود، جمع معزف كنبر .

[٤] مهبل من هنا ، يقال هنا الطعام إذا ساع وقد ، أي فنيها لك ماثل من الحلاوة .

[٥] لا جرّم : قال الفراء « هي كلمة كانت في الأصل بمنزلة لا يد ولا عمالة ، فبررت على ذلك وكثرت حتى

فكيف يُحْتَجَّ بالنسوخ من فعل الرسول ، في أوْكَد الأحوال ، وأولاها بالجمْع عليه من الصواب ؟ أم كيف صاحبت بصاحبٍ تابعاً ، وحوْلَكَ مَنْ لَا يُؤْمِنُ في صحبته ، ولا يُعْتَمَدُ في دينه وقرابته ، وتتخطاها إلى مُسْرِفٍ مَقْتُونٍ ؟ تريد أن تلبس الناسَ شُبُهَةً ، يَسْتَعِدُّ بِهَا الْبَاقِي في دنياء ، وَتَشْقَى بِهَا في آخِرَتِكَ ، إن هذا هو الخُسران المين ، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ .

فَنَظَرَ معاوية إلى ابن عباس ، فقال : ما هذا يا ابن عباس ؟ وَلِمَا عِنْدَكَ أَذْهَى وَأَمْرٌ ! فقال ابن عباس : لِعَمْرِ اللهِ ، إنها لَذُرِّيَّةُ الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَأَحَدُ أَصْحَابِ الْكِسَاءِ ^(١) ، وَمِنَ الْبَيْتِ الْمُطَهَّرِ ، فَالَهُ عَمَّا تَرِيدُ ، فَإِنْ لَكَ فِي النَّاسِ مَقْنَعًا ، حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بِأَمْرِهِ ، وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ، فَقَالَ معاوية : أَعُوذُ ^(٢) الْحِلْمِ التَّحَلُّمِ ، وَخَيْرُهُ التَّحَلُّمُ عَنِ الْأَهْلِ . انصرفا في حفظ الله .
ثُمَّ أَرْسَلَ معاوية إلى عبد الرحمن بن أبي بكر ، وإلى عبد الله بن عمر ، وإلى عبد الله بن الزبير ، فجلسوا .

٢٤٣ — خطبة معاوية

حَمْدُ اللهِ ، وَأَتْنِي عَلَيْهِ معاوية ، ثُمَّ قَالَ :
« يَا عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرٍو : قَدْ كُنْتَ تَحَدِّثُنَا أَنَّكَ لَا تَحِبُّ أَنْ تَبِيتَ لَيْلَةً وَلَيْسَ فِي مُتْعَتِكَ يَتَعَةُ جَمَاعَةٌ ، وَأَنَّ لَكَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا . وَإِنِّي أَحْذَرُكَ أَنْ تَشْقَى عَصَا الْمُسْلِمِينَ ، وَتَسْعَى فِي تَفْرِيقِ مَلَّتِهِمْ ^(٣) ، وَأَنْ تَسْفِكَ دِمَاءَهُمْ ، وَإِنْ أَمْرٌ يَزِيدُ قَدْ كَانَ قَضَاءً مِنَ الْقَضَاءِ ، وَلَيْسَ لِلْعِبَادِ خَيْرَةٌ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَقَدْ وَكَّدَ النَّاسُ

تحوَّلَ إِلَى مَعْنَى الْقِسْمِ ، وَصَارَتْ بِمَنْزِلَةِ حَقٍّ ، فَلِذَاكَ يُجَابُ عَنْهَا بِاللَّامِ كَمَا يُجَابُ بِهَا عَنِ الْقِسْمِ ، أَلَا تَرَأَى يَقُولُونَ : « لَا جَرِمَ لَابْنِكَ » . [١] انظر ص ٢٥ . [٢] أَعُوذُ : أَقْنَعُ ، وَالْمَائِدَةُ : اللَّفْظَةُ . [٣] اللَّأْ : الْجَمَاعَةُ .

يَمْتَنِّهِمْ فِي أَعْنَاقِهِمْ . وَأَعْطَوْا عَلَى ذَلِكَ عُهْدَهُمْ وَمَوَائِقَهُمْ . ثُمَّ سَكَتَ .

٢٤٤ - خطبة عبد الله بن عمر

فَتَكَلَّمَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ ، خَمِدَ اللَّهُ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :

« أَمَّا بَعْدُ : يَا مَعَاوِيَةُ ، لَقَدْ كَانَ قَبْلَكَ خُلَفَاءُ ، وَكَانَ لَهُمْ بُنُوءٌ ، لَيْسَ ابْنُكَ بِخَيْرٍ مِنْ أَبْنَائِهِمْ ، فَلَمْ يَرَوْا فِي أَبْنَائِهِمْ مَا رَأَيْتَ فِي ابْنِكَ ، فَلَمْ يُحَابُوا فِي هَذَا الْأَمْرِ أَحَدًا ، وَلَكِنْ اخْتَارُوا لِهَذِهِ الْأُمَّةِ حَيْثُ عَلِمُوا ، وَأَنْتَ تَحْذَرُنِي أَنْ أَشُقَّ عَصَا الْمُسْلِمِينَ ، وَأُفَرِّقَ مِلَّائِهِمْ ، وَأَسْفِكَ دِمَاءَهُمْ ، وَلَمْ أَكُنْ لِأَفْعَلْ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَلَكِنْ إِنْ اسْتَقَامَ النَّاسُ ، فَسَادَ خُلُوفِي صَالِحٌ مَا تَدْخُلُ فِيهِ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ . »

فَقَالَ مَعَاوِيَةُ : يَرْحَمُكَ اللَّهُ ، لَيْسَ عِنْدَكَ خِلَافٌ ، ثُمَّ قَالَ مَعَاوِيَةُ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْنِ أَبِي بَكْرٍ نَحْوَ مَا قَالَهُ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ : إِنَّكَ وَاللَّهِ لَوَدِدْنَا أَنْ نَكِلَكَ إِلَى اللَّهِ فِيمَا جَسَرْتَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ يَزِيدَ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَجْعَلَنِيَا شُورَى ، أَوْ لِأُعِيدَنِيَا جَذْعَةً ، ثُمَّ قَامَ لِيُخْرِجَ ، فَتَعَلَّقَ مَعَاوِيَةُ بِطَرْفِ رِدَائِهِ ، ثُمَّ قَالَ : عَلَى رِسْلِكَ ، اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِ بِمَا شِئْتَ ، لَا تَظْهَرَنَّ لِأَهْلِ الشَّامِ ، فَإِنِّي أَخْشَى عَلَيْكَ مِنْهُمْ ، ثُمَّ قَالَ لِبْنِ الزَّيْرِ نَحْوَ مَا قَالَهُ لِبْنِ عُمَرَ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : أَنْتَ تَعْلَبُ رَوَاعٍ ، كُلَّمَا خَرَجْتَ مِنْ جُغُرٍ انْجَحَرَتْ^(١) فِي آخِرٍ ، أَنْتَ أَلْبَيْتَ^(٢) هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ ، وَأَخْرَجْتَهُمَا إِلَى مَا خَرَجَا إِلَيْهِ . فَقَالَ ابْنُ الزَّيْرِ : أَتُرِيدُ أَنْ تَبَايَعَ لِيَزِيدَ ؟ أَرَأَيْتَ إِنْ بَايَعَنَاهُ أَيُّكُمَا نَطِيعٌ ؟ أَنْطِيعُكَ أَمْ نَطِيعُهُ ، إِنْ كُنْتَ مَلَلْتَ الْخِلَافَةَ فَاخْرُجْ مِنْهَا ، وَبَايِعْ لِيَزِيدَ ، فَتَحْنُ نَبَايَعُهُ ، فَكُنْ كَلَامَهُ وَكَلَامَ ابْنِ الزَّيْرِ ، حَتَّى قَالَ لَهُ مَعَاوِيَةُ

[١] أَيْ دَخَلَ ، جَرَّ الضَّبَّ كَنَحْ : دَخَلَ الْجَبَر ، وَجَرَّ فُلَانٌ الضَّبَّ : أَدْخَلَهُ فِيهِ ، فَانْجَحَرَ .

[٢] التَّالِيْبُ : التَّحْرِيضُ وَالْإِنْدَادُ .

في بعض كلامه : والله ما أراك إلا قاتلاً نفسك ، ولكأنني بك قد تخبّطت في الحبال . ثم أمرهم بالانصراف ، واحتجب عن الناس ثلاثة أيام لا يخرج ، ثم خرج فأمر المنادي أن ينادى في الناس ، أن يجتمعوا لأمر جامع . فاجتمع الناس في المسجد ، وقعد هؤلاء حول المنبر .

٢٤٥ - خطبة معاوية

حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم ذكر يزيدَ وفضله وقراءته للقرآن ، ثم قال : « يا أهل المدينة ، لقد هممت ببيعة يزيد ، وما تركتُ قرية ولا مدرة ^(١) إلا بعثت إليها ببيعته ، فبايع الناس جميعاً وسلموا ، وأخرت المدينة بيعته ، وقلتُ ببيئته ^(٢) ، وأصله ومن لا أخافهم عليه ، وكان الذين أبوا البيعة ، منهم من كان أجدر أن يصله . والله لو علمتُ مكان أحد هو خير للمسلمين من يزيد لبايعت له . »
فقام الحسين فقال : « والله لقد تركت من هو خير مني أباً وأماً ونفساً ! »
فقال معاوية : « كأنك تريد نفسك ؟ » فقال الحسين : « نعم . أصلحك الله ! »
فقال معاوية : « إذن أخبرك ، أما قولك : خير مني أما ، فلمرى أمك خير من أمه ، ولولم يكن إلا أنها امرأة من قریش ، لكان نساء قریش أفضلهن ، فكيف وهي ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم فاطمة في دينها وسابقتها ؟ فأملك لعمر الله خير من أمه ^(٣) ، وأما أبوك فقد حاكم أباه إلى الله ، فقضى لأبيه على أهلك . » فقال الحسين : « حسبتك جهلك . آثرت العاجل على الآجل . »
فقال معاوية : « وأما ما ذكرت من أنك خير من يزيد نفساً ، فيزيد والله خير لأمة محمد منك . » فقال الحسين : « هذا هو الإفك والزور ! يزيدُ شاربُ الخمر .

[١] للدرة : المدينة . [٢] جماعته وأصله . [٣] وأم يزيد هي يسون بنت بعلل الكلبية .

ومشترى اللهو . خبرتني » فقال معاوية : « مهلاً عن شتم ابن عمك . فإنك لو ذكرت عنده بسوء لم يشتُمك » ، ثم التفت معاوية إلى الناس . وقال :

« أيها الناس : قد علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض ولم يستخلف أحداً ، فرأى المسلمون أن يستخلفوا أبا بكر ، وكانت بيعة يعة هُدى ، فعمل بكتاب الله وسنة نبيه ، فلما حضرته الوفاة رأى أن يستخلف عمر ، فعمل عمر بكتاب الله وسنة نبيه ، فلما حضرته الوفاة رأى أن يحملها شورى بين ستة نفر اختارهم من المسلمين ، فصنع أبو بكر ما لم يصنع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصنع عمر ما لم يصنع أبو بكر ، كل ذلك يصنعونه نظراً للمسلمين ، فلذلك رأيت أن أبايع ليزيد ، لما وقع الناس فيه من الاختلاف ، ونظراً لهم بين الانصاف .



وروى من طريق آخر : أن معاوية لما خرج إلى المدينة ودنا منها ، استقبله أهلها ، فيهم : عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، والحسن بن علي ، وعبد الرحمن بن أبي بكر ، فأقبل على عبد الرحمن بن أبي بكر ، فسبّه وقال : « لا مرجأ بك ولا أهلاً » ؛ فلما دخل الحسين عليه قال : « لا مرجأ بك ولا أهلاً ، بدنة »^(١) يترقق دُمها والله مُهرِيقه » ؛ فلما دخل ابن الزبير قال : « لا مرجأ بك ولا أهلاً ، ضبّ تلعة ، مُدخل رأسه تحت ذنبه » ؛ فلما دخل عبد الله بن عمر قال : « لا مرجأ بك ولا أهلاً ، وسبّه » ، فقال : « إني لست بأهل لهذه المقالة » قال : « بلى ، ولما هوشتها منها » ، فدخل معاوية المدينة وأقام بها ، وخرج هؤلاء الرهط معتمرين ، فلما كان وقت الحجّ خرج معاوية حاجاً ، فأقبل بعضهم على بعض ،

[١] البدنة من الابل والبر كالأخية من الغنم تهدي إلى مكة ، للذكر والأنثى .

[٢] التلعة : ما ارتفع من الأرض وما نهبط منها .

فقالوا : لعله قد ندّم ، فأقبلوا يستقبلونه ، فلما دخل ابن عمر ، قال : « مرحباً بصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن الفاروق ، هاتوا لأبي عبد الرحمن دابة » ، وقال لابن أبي بكر : « مرحباً بشيخ قریش وسيدها وابن الصديق ، هاتوا له دابة » ، وقال لابن الزبير : « مرحباً بابن خوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته ، هاتوا له دابة » ، وقال للحسين : « مرحباً بابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسيد شباب المسلمين ، قربوا لأبي عبد الله دابة ، وجعلت أطفائه ^(١) تدخل عليهم ظاهرة يراها الناس ، وَيُحَسِّنُ إِذْنَهُمْ وَشَفَاعَتَهُمْ وَحَلَّاهُمْ عَلَى الدُّوَابِ ، وَخَرَجَ حَتَّى أَتَى مَكَّةَ ، فَقَضَى حُجَّه ، وَلَمَّا أَرَادَ الشَّخْصُ أَمْرَ بِأَتْقَالِهِ فَقَدَّمَتْ ، وَأَمَرَ بِالْمِنْبَرِ فَقَرَّبَ مِنَ الْكَعْبَةِ ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ ، فَاجْتَمِعُوا ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : مَنْ يَكَلِّمُهُ ؟ فَأَقْبَلُوا عَلَى الْحُسَيْنِ فَأَبَى ، فَقَالُوا لابن الزبير : هات ، فَأَنْتَ صَاحِبُنَا . قَالَ : عَلَى أَنْ تَعْطُونِي عَهْدَ اللَّهِ أَنْ لَا أَقُولَ شَيْئًا إِلَّا تَابَسْتُمُونِي عَلَيْهِ . قَالُوا : لَكَ ذَلِكَ ، فَأَخَذَ عَهْدَهُمْ رِجَالًا رِجَالًا ، فَدَخَلُوا عَلَيْهِ ، فَرَحَّبَ بِهِمْ ، وَقَالَ : قَدْ عَلِمْتُمْ نَظْرِي لَكُمْ ، وَتَعَطْفِي عَلَيْكُمْ ، وَصَلَّيْتُ أَرْحَامَكُمْ ، وَزَيْدَ أَخَوَكُمْ وَابْنَ عَمِّكُمْ ، وَإِنَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَقْدِمَهُ بِاسْمِ الْخِلَافَةِ ، وَتَكُونُوا أَنْتُمْ تَأْمُرُونَ وَتَنْهَوْنَ ، فَسَكْتُوا ، فَقَالَ : أَجِيبُونِي ، فَسَكْتُوا ، فَقَالَ : أَجِيبُونِي ، فَسَكْتُوا ، فَقَالَ : لابن الزبير : هات فَأَنْتَ صَاحِبُهُمْ . قَالَ :

٢٤٦ . خطبة عبد الله بن الزبير

« نَحْيَرُكَ بَيْنَ إِحْدَى ثَلَاثٍ ، أَيُّهَا أَخَذْتَ فِيهِ لَكَ رَغْبَةً ، وَفِيهَا خِيَارٌ ، إِنْ شِئْتَ فَاصْنَعْ فِينَا مَا صَنَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَبْضَةُ اللَّهِ وَلَمْ يَسْتَخْلَفْ

أحداً ، فرأى المسلمون أن يستخفوا أبا بكر ، فدفع هذا الأمر حتى يختار الناس لأنفسهم ، وإن شئت فاصنع أبو بكر ، عهد إلى رجل من قاصية قريش وترك من ولده ومن رهنطه الأذنين من كان لها أهلاً ، وإن شئت ، فاصنع عمر ، جعلها شورى في ستة نفر من قريش يختارون رجلاً منهم ، وترك ولده وأهل بيته ، وفيهم من لو وليها لكان لها أهلاً .

فقال معاوية : هل غير هذا ؟ قال : لا ، ثم قال للآخرين : ما عندكم ؟ قالوا : نحن على ما قال ابن الزبير ، فقال معاوية : « إني أتقدم إليكم ، وقد أعدت من أندر ، إني قائم قتائل مقالة ، فإياكم أن تعترضوا علي حتى أغتصمها ، فإن صدقت فعلي صدقي ، وإن كذبت فعلي كذبي ، وأقسم بالله لئن رد علي رجل منكم كلمة في مقامى هذا ، لا ترجع إليه كلمته ، حتى يضرب رأسه ، فلا ينظر امرؤ منكم إلا إلى نفسه ، ولا يبتغي إلا عليها ، وأمر أن يقوم على رأس كل رجل منهم رجلان بسيفهما ، فإن تكلم بكلمة يرد بها عليه قوله قتلاه ، وخرج وأخرجهم معه ، حتى رقي المنبر ، وحف به أهل الشام ، واجتمع الناس ، فقام خطيباً فقال :

٢٤٧ خطبة معاوية

قال بعد حمد الله ، والثناء عليه ، إنا وجدنا أحاديث الناس ذات عوار^(١) ، قالوا إن حسيناً ، وابن أبي بكر ، وابن عمر ، وابن الزبير لم يبايعوا ليزيد ، وهؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم ، لا نبيرم أمراً دونهم ، ولا نقضى أمراً إلا عن مشورتهم ، وإني دعوتهم فوجدتهم سامعين مطيعين ، فبايعوا وسلموا وأطاعوا . فقال أهل الشام : وما يعظم من أمر هؤلاء ؟ أيذن لنا فنضرب أعناقهم ،

لا نرضى حتى يبايعوا علانية ، فقال معاوية : سبحان الله ! ما أسرع الناس إلى قريش بالشر ، وأحلى دماءهم عندهم ، أنصتوا فلا أسمع هذه المقالة من أحد ، ودعا الناس إلى البيعة فبايعوا ، ثم قرئت رواحله ، فركب ومضى ، فقال الناس للحسين وأصحابه : قلتم لا نبايع ، فلما دُعيتُم وأرضيتُم بايعتم . قالوا : لم نفعل . قالوا : بلى قد فعلتم وبايعتم ، أفلا أنكرتم ؟ قالوا : خِفنا القتل وكادكم بنا وكادنا بكم .

(المقدلفريد ٢ : ٢٤٧ — ١٥٧ ، الإمامة والسياسة ١ : ١٢١ ، وروج الذهب ٢ : ٦٩ ، والأمال ٢ : ٧٣ ، وذيل الأمالي ص ١٧٧ ، وعيون الأخبار م ٢ ص ٢١٠ ، والبيان والبيان : ١٦٣ — ١٦٤)

تهنئة وتعزية

٢٤٨ — خطبة عبد الله بن همام السلولى

لما توفى معاوية واستخلف يزيد ابنه (سنة ٦٠) اجتمع الناس على بابه ، ولم يقدروا على الجمع بين تهنئة وتعزية ، حتى أتى عبد الله بن همام السلولى فدخل عليه فقال :

« يا أمير المؤمنين ، آجرك الله على الرزية ، وبارك لك فى العطية ، وأعانك على الرعية ، فلقد رُزئت عظيمًا ، وأُعطيت جسيمًا ، فاشكر الله على ما أُعطيت ، واضبر له على ما رُزيت ، فقد قدمت خليفة الله ، ومُنحت خلافة الله ، ففارقت جليلًا ، ووُهب جزيلاً : إذ قضى معاوية نَحْبَه ، ففراقه ذنبه ، ووُلّيت الرئاسة ، فأُعطيت السياسة ، فأوزدك الله موارد السرور ، ووفّقك لصالح الأمور ، وأنشد :

فاصبر يزيد فقد فارقت ذا ثِقَةٍ واشكر حِباء الذى بالملك أصفاك ^(١)

لا رُزءٌ أصبح في الأفوام نعلمه كما رُزئت ، ولا عُقبى كعقبا
أصبحت والى أمر الناس كلهم فأنت ترعاهم والله يزعاكا
وفي معاوية الباقي لنا خلف إذا نُصبت ، ولا نسمع بئعماكا ^(١)
« وعبد الله بن همام هو أول من فتح الباب في الجمع بين تهنة وتمزية ، فولجته
الناس ، كما روى من غير وجه » .

(زمر الآداب ١ : ٦١ ، ونهاية الأرب ٥ : ٢١٥ ، وتهذيب الكامل ١ : ١٦ ، والمقد الفريد ٢ : ١٤١ -
٣٥ - ٢٥٠ ، ومروج الذهب ٢ : ٩٣ ، والبيان والبيان ٢ : ٦٦)

٢٤٩ - خطبة عطاء بن أبي صيفي الثقفي

وروى السمودي أن يزيد بعد موت أبيه أذن للناس ، فدخلوا عليه لا يدرون
أيهنونه أم يزونه ، فقام عطاء بن أبي صيفي ، فقال :

« السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، أصبحت وقد رُزئت
خليفة الله ، وأعطيت خلافة الله ، ومُنحت هبة الله ، وقد قضى معاوية نجهه ،
ففقر الله له ذنبه ، وأعطيت بعده الرياسة ، ووليت السياسة ، فأحتسب ^(٢) عند
الله أعظم الرزية ، واتخذته على أفضل العطية » .

(مروج الذهب ٢ : ٩٣ ، البيان والبيان ٢ : ١٠٢ ، تهذيب الكامل ١ : ١٦ ،
وصح الأعشى ٩ : ٢٧٨ ، والمقد الفريد ٢ : ٣٥)

٢٥٠ - خطبة عبد الله بن مازن

ثم قام عبد الله بن مازن ، فقال :

« السلام عليك يا أمير المؤمنين ؟ رُزئت خير الآباء ، ومُصِّيت خير الأسماء ،
ومُنحت أفضل الأشياء ، فهناك الله بالعطية ، وأعانك على الرعية ، فقد أصبحت

[١] هو أبو ليلى معاوية بن يزيد . [٢] احتسب به أجراً عند الله : اعتد به ينوي به وجه الله
(واحتسب ابنه إذا مات كبيراً ، فإن مات صغيراً قبل اقترطه) .

قرئش مفعوجةً يُمَد ساستها ، مسرورة بما أحسن الله إليها من الخلافة بك ،
وَالْعَقَبِيَّ مِنْ بَعْدِهِ ، ثُمَّ أُنْشَأَ يَقُولُ :

الله أعطاك التي لا فوقها وقد أَرَادَ الْمُلْحِدُونَ عَوَقَهَا

عَنْكَ فَيَأْتِي اللهُ إِلَّا سَوَاقِهَا إِلَيْكَ ، حَتَّى قَلَدُوكَ طَوَقَهَا

ثم قام عبد الله بن همام فخطب خطبته السالفة . (مروج الذهب ٢ : ٩٣)

٢٥١ — خطبة غيلان بن مسلمة الثقفي

وروى الجاحظ : أنه لما توفي عبد الملك ، وجلس ابنه الوليد دخل عليه

الناس وهم لا يدرون أي هتونه أم يعزونه ، فأقبل غيلان بن مسلمة الثقفي ، فسلم
عليه ، ثم قال :

« يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَصْبَحْتَ قَدْ رَزَّتْ خَيْرَ الْآبَاءِ ، وَتُكْمِلَتْ خَيْرَ الْأَسْمَاءِ ،

وَأَعْطِيتَ أَفْضَلَ الْأَشْيَاءِ ، فَعَظَّمَ اللهُ لَكَ عَلَى الرِّزْيَةِ الصَّبْرَ ، وَأَعْطَاكَ فِي ذَلِكَ

نَوَافِلَ^(١) الْأَجْرِ ، وَأَعَانَكَ عَلَى حَسَنِ الْوَلَايَةِ وَالشُّكْرِ ، ثُمَّ قَضَى عَبْدُ الْمَلِكِ^(٢)

بِخَيْرِ الْقَضِيَّةِ ، وَأَنْزَلَهُ بِأَشْرَفِ الْمَنَازِلِ الْمَرْضِيَّةِ ، وَأَعَانَكَ مِنْ بَعْدِهِ عَلَى الرِّعْيَةِ » .

(البيان والتبيين ٢ : ١٠٣)



خطب ولاة الأمويين وقوادهم

خطب زياد بن أبيه المتوفى سنة ٥٣

٢٥٢ - خطبته بفارس وقد كتب إليه معاوية يتهده

كان الإمام عليّ عليه السلام وليّ زياداً فارس - أو بعض أعمال فارس - فضبطها ضبطاً صالحاً ، وجبى خراجها وسماها ، فلما قتل الإمام بقي زياد في عمله ، وخاف معاوية جانبه ، وعلم صعوبة ناحيته ، وأشفق من مملأته الحسن بن عليّ ، عليه السلام ، فكتب إليه يتهده ^(١) ، فنضب زياد غضباً شديداً ، وجمع الناس ، وصعد المنبر ، فحمد الله ، ثم قال :

« العجب من ابن آكلة الأكباد ^(٢) ، وقاتلة أسد الله ، ومُظهِر الخلاف ، ومُسِرِّ النفاق ، ورئيس الأحزاب ، ومن ألقى ماله في إطفاء نوره الله ، كتب إليّ يُرْعِد وَيُزِقُّ ^(٣) عن صحابة جفلى ^(٤) لا ماء فيها ، وعمماً قليل تصيرها الرياح قزعا ^(٥) ، والذي يدلني على ضعفه تهده قبل القدرة ، أفن إشفاق عليّ تُنذِر

[١] وما ورد في كتابه إليه قوله : « أس عبد ، واليوم أمير ! خطبة ما ارتقاها مثلك يا بن سمية ، وإذا أتاك كتابي هنا ، غدا الناس بالطاعة والبيعة ، وأسرع الإجابة ، فإني إن حمل فمك حققت ، ونفك تداركت ، وإلا اختطفك بأضف ريش ، ونفك بأهون سى ، وأقسم فيها مبرورا أن لا أوق بك إلا في زمرة ، تعنى حافياً من أرض فارس إلى الشام ، حتى أتيتك في السوق ، وأيتك عبداً ، وأردك إلى حيث كنت فيه وخرجت منه » . [٢] هي هند أم معاوية ، وذلك أنها بعد انتهاء غزوة أحد بقرت بطن حزة بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنخت كبده لتأكلها ، فلا كتبها ثم أرسلها ، وكان قد قتل وحشى مولى جبير بن مطعم ، دعاها سيده وقال له اخرج مع الناس ، فإن أنت قتلت حزة بمسي طيبة فأنت حر . [٣] وعد الرجل ويرق (كسر) وأرعد وأبرق : تهدد وتوعد . [٤] الجفل : السحاب هراق مائه ومضى . [٥] التزع : قطع من السحاب رقيقة .

وَتُمْذِر؟ كلا ، ولكن ذهب إلى غير مذهب ، وَقَفَّعَ^(١) لمن رَوَى بين صواعق
تِهَامَةٍ^(٢) ، كيف أُرْهَبُهُ وَيُنِي وَيُنِي ابنُ بنت رسول الله صلى الله عليه وآله ،
وَأَبْنُ ابْنِ عَمِّ فِي مِائَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ؟ وَاللهُ لَوْ أَدْنَى لِي فِيهِ أَوْنَدَبِي
إِلَيْهِ ، لِأَرَيْتُهُ الْكَوَاكِبَ نَهَاراً ، وَلَأَسْعِطَنَّهُ^(٣) ماء الخردل دُونَهُ ، الكلامُ
اليوم ، والجمع غداً ، والمشورة بعد ذلك إن شاء الله » ثم نزل .

(شرح ابن أبي الحديد م ٤ ص ٦٨ ، وتلخ الطبري ٦ : ٩٧)

٢٥٣ — خطبته وقد بعث معاوية إليه المغيرة بن شعبه يستقدمه

وكتب إلى معاوية يردّ عليه ردّاً شديد اللهجة^(١) ، ففهم ذلك معاوية وأحزنه ،
وأوفد إليه المغيرة بن شعبه بكتاب يتلطّف به فيه ، ويستدنيه منه ، ويستلحقه
بنسب أبيه أبي سفيان^(٢) ، وجعل المغيرة يترقب به ، وينصح له أن يصل حبله

[١] انقصة صوت الرد ، وتحريك الشيء اليابس الصلب مع صوت ، ومنه « مايقمع له بالثنان »
وسبأني تفسيره في خطبة الحجاج . [٢] روى : ارتوى ، والمراد نشأ وترعرع بينا ، ولعله (ربي)
وذكروا أنه لما نصب الحجاج ابنانق لقتله عبد الله بن الزبير ، أظلمهم سحابة فأرعدت وأبرقت وأرسلت
الصواعق ، وفزع الناس وأمسكوا عن القتال ، فقام فقيم الحجاج ، فقال : « أيها الناس لا بهولتكم هذا
فإني أما الحجاج بن يوسف ، وقد أمحرت لربي ، فلو ركبنا عظيمًا لحال بيننا وبينه ، ولكنا جبال تهامة لم
نزل الصواعق فنزل بنا » . [٣] سعطه الدواء كتمه وقصره وأسعطه إياه : أدخله في أنفه .

[٤] ونسب كتابه إليه : « أما بعد ، فقد وصل إلى كتابك يا معاوية ، وفهمت ما فيه ، فوجدتك
كالفرق يضطيه الموج فيثبث بالطيِّب ، ويتعلق بأرجل الضفادع طمعاً في الحياة ، إنما يكفر النعم ويستدعي
النقم من حادّ الله ورسوله ، وسعى في الأرض فساداً . فأما سبك لي قولاً حلم يهتأني عنك ، وخوف أن
أدعي سفيراً لأثرت لك مخازي لا يسلها الماء . وأما تميرك لي بسمية ، فإن كنت ابن سمية فأنت ابن جماعة
وأما زعمك أنك تختطفني بأضنف ريش وتقتاولني بأهون سبي ، فهل رأيت بأبازيا يفزعه صغير القنابر ؟ أم
هل سمعت يذئب أكله خروف ؟ فاض الآن لطيفك ، واجهد جهلك ، فلت أنزل إلا بحيث تكره ، ولا
أجتهد إلا فيما يسوء ، وستعلم أينما الخاضع لمعاجبه الظالم إليه والسلام » .

[٥] وكانت ديباجة كتابه إليه : « من أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان إلى زياد بن أبي سفيان »
وفيه يقول : « وحكك سوء ظنك بي ، ويضك لي على أن عفت قرائتي ، وقطعت رحمي ، وبنت نسي
وحرمتي ، كأنك لست أخي ، وليس صخر بن حرب أباك وأبي » وفي آخره يقول : « فإن أحيت جانبي
ووقّعت بي ، فأبره يا مرة ، وإن كرهت جانبي ، ولم تنق بجولي ، قتل جيل ، لا على ولا لي والسلام » .

بجبله ، ولا يقطع رِجَمه ، قرئت زياد يومين أو ثلاثة يروى في أمره ، ثم جمع الناس ، فصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : ادفعوا البلاء ما اندفع عنكم ، وارغبوا إلى الله في دوام العافية لكم ، فقد نظرتُ في أمور الناس منذُ قتل عثمان ، وفكرتُ فيهم فوجدتهم كالأضاحي . في كل عيدٍ يُذبحون ، ولقد أفتى هذان اليومان : يوم الجمل وصِفِّين ما يُنِيف على مائة ألف ، كلُّهم يزعمُ أنه طالبُ حقٍّ ، وتابعُ إمامٍ ، وعلى بصيرةٍ من أمره ، فإن كان الأمر هكذا ، فالقاتلُ والمقتولُ في الجنة ، كلاً : ليس كذلك ولكن أشكلَ الأمر ، والتبسَ على القوم ، وإني خائفٌ أن يرجع الأمر كما بدأ ، فكيف لأمريَّ بِسلامة دينه ؟ وقد نظرتُ في أمر الناس ، فوجدتُ أحمدَ العاقبتين العافية ، وسأعملُ في أموركم ما تحمدون عاقبته ومغبته ، فقد تحدثت طاعتكم إن شاء الله . » ثم نزل .

وكتب إلى معاوية يستوثق منه ^(١) ، فأعطاه معاوية جميع ما سألَه ، وكتب إليه بخط يده ما وثق به ، فدخل إليه الشام ، فقربه وأدناه ، وأقره على ولايته ، ثم استعمله على العراق . (شرح ابن أبي الحديد ٤ : ٦٩)

٢٥٤ — خطبته وقد استلحقه معاوية

ولما أراد معاوية استلحاق زياد ، وقد قدم عليه الشام ، جمع الناس وصعد المنبر ، وأصعد زياداً معه ، فأجلسه بين يديه على المِرْقاة ^(٢) التي تحت مرقاته ،

[١] وفي كتابه يقول : « إن كنت كتبت كتابك هذا من عقد صحيح ، ونية حسنة ، وأردت بذلك براً فستدفع في قلبي مودة وثقلاً ، وإن كنت إنما أردت مكيدة ومكرًا وفساد نية ، فإن النفس تأبى ما فيه العطب ، ولقد قدت يوم قرأت كتابك معاً بما به الخطيب للذرة ، فترك من حضر ، لا أمل ورد ، ولا صبر ، كالبحرين يمهلهن ظل بهم الليل ، وأنا على أمثال ذلك فقير . »

[٢] المِرْقاة بفتح اللام وتكسر : الدرجة .

وَحَمِدَ اللَّهَ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :

« أَيُّهَا النَّاسُ : إِنِّي قَدْ عَرَفْتُ نَسَبَنَا أَهْلَ الْبَيْتِ فِي زِيَادَ ، فَمَنْ كَانَ عَنْده شَهَادَةٌ فَلْيَقُمْ بِهَا » ، فَقَامَ نَاسٌ ، فَشَهِدُوا أَنَّهُ ابْنُ أَبِي سَفْيَانَ ، وَأَنَّهُمْ سَمِعُوا مَا أَقْرَبَ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ^(١) ، فَلَمَّا انْقَضَى كَلَامُ مَعَاوِيَةَ وَمُنَاشَدَتُهُ ، قَامَ زِيَادُ وَأَنْصَتِ النَّاسُ ، فَحَمِدَ اللَّهَ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :

[١] قَامَ أَبُو مَرْمٍ السُّلُوبِيُّ - وَكَانَ خَارِجًا فِي الْمَجَالِيَةِ قَدَمًا : أَشْهَدُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ أَبَا سَفْيَانَ قَدِمَ عَلَيْنَا بِالطَّائِفِ ، فَأَتَانِي ، فَاشْتَرَيْتُ لَهُ لَحْمًا وَخِرًا وَطَلْهًا ، فَلَمَّا أَكَلْتُ قَالَ يَا أَبَا مَرْمٍ : أَصِيبْ لِي بَيْئًا ، فَخَرَجْتُ فَأَتَيْتُ سَمِيَةَ ، فَقُلْتُ لَهَا : إِنَّ أَبَا سَفْيَانَ مِنْ قَدْ عَرَفْتُ شَرَفَهُ وَجُودَهُ ، وَقَدْ أَمَرَنِي أَنْ أَصِيبَ لَهُ بَيْئًا ، فَنَهَى ذَلِكَ ؟ فَقُلْتُ : نَعَمْ يَحْيَى الْآنَ عَيْدُ بَنِيهِمْ - وَكَانَ رَاعِيًا - فَإِذَا تَعَمَّقَ وَوَضَعَ رَأْسَهُ أَتَيْتُهُ ، فَجِئْتُ إِلَى أَبِي سَفْيَانَ فَقُلْتُ لَمْ أَجِدْ إِلَّا جَارِيَةَ الْمَرْثِ بِنَ كَلْدَةَ سَمِيَةَ ، فَقَالَ : اتَّقِي بِهَا عَلَى ذُرْفِهَا وَقُدْرَتِهَا ، فَقَالَ لَهُ زِيَادُ : سَيَلَا يَا أَبَا مَرْمٍ ، إِنَّمَا بَنْتُ شَاهِدًا ، وَلَمْ تَبْتَ شَاهِدًا ، فَقَالَ أَبُو مَرْمٍ : لَوْ كُنْتُمْ أَغْنَيْتُونِي لَكُنْتُ أَحَبَّ إِلَيْ ، وَإِنَّمَا شَهِدْتُ بِمَا طَافَتْ وَرَأَيْتُ ، وَاللَّهِ لَقَدْ أَخَذَ بِكُمْ دَرْعَهَا ، وَأَغْلَقْتُ الْبَابَ عَلَيْهِمَا ، فَلَمْ أَكُنْ أَنْ خَرَجَ عَلَيَّ بِمَحْجَبِيْنِهِ ، فَقُلْتُ : « يَا أَبَا سَفْيَانَ ، فَقَالَ : مَا أَصَبْتُ مِثْلَهَا يَا أَبَا مَرْمٍ لَوْلَا اسْتِغْنَاءُ مِنْ مَدِيْنَةٍ ، وَذَفَرْتُ فِي إِطْيَافِهَا » - وَالذَّفَرُ بِالْتَحْرِيكِ وَيَسْكُنُ : التَّقَنُّ ، وَالذَّفَرُ بِالْتَحْرِيكِ : كَلَّ رَجُلٌ رَجَحَ ذِكَاةً مِنْ طَلَبٍ أَوْ تَقَنَّنَ ، أَوْ يَخْمُسُ رَمَاحَهُ الْإِيطَ لِلتَّقَنَّةِ - وَكَانَتْ أُمُّهُ سَمِيَةَ قَدْ وَهَبَهَا أَبُو الْحَكَمِ بْنِ عَمْرِو الْكِنْدِيُّ لِلْحَارِثِ بْنِ كَلْدَةَ - وَكَانَ طَلِبِيًّا يَمَاجِلُهُ - فَوَلَدَتْ لَهُ عَلَى فِرَاشِهِ نَاقِصًا ، ثُمَّ وَلَدَتْ أَبَا بَكْرَةَ ، فَأَنْكَرَ لَوْنَهُ ، وَقِيلَ لَهُ إِنَّ جَارِيَتَكَ بَنَى ، فَاتَّقَى مِنْ أَبِي بَكْرَةَ وَمَنْ تَلَفَعَ ، وَزَوْجُهَا حَيْدًا وَكَانَ عَبْدًا لِابْنَتِهِ ، فَوَلَدَتْ عَلَى فِرَاشِهِ زِيَادًا .

وَذَكَرُوا أَنَّ عَمْرَ بْنَ الْخَطَّابِ كَانَ قَدْ بَسَّ زِيَادًا فِي إِصْلَاحِ فِسَادِ وَاقِعِ الْبَلَمِ ، فَلَمَّا رَجَعَ مِنْ وَجْهِهِ خُطِبَ عِنْدَ عَمْرِو خُطْبَةً لَمْ يَسْعَ بِتَلَاهَا ، وَهُوَ غَالِمٌ حَمْدًا ، وَأَبُو سَفْيَانَ حَاضِرٌ ، وَعَلَى طَلَبِ السَّلَامِ ، وَعَمْرُو ابْنِ النَّاسِ ، فَقَالَ عَمْرُو : قَدْ أَبُو هَذَا الْفَلَامُ لَوْ كُنَّ قَرَشِيًّا لَأَقَامَ الْعَرَبُ بِمِصْرَ ، قَالَ أَبُو سَفْيَانَ : أَمَا وَاقَعُ إِنَّهُ لَقَرَشِيٌّ ، وَلَوْ عَرَفْتَهُ لَعَرَفْتُ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْ أَهْلِكَ ، فَقَالَ : وَمَنْ أَبُوهُ ؟ قَالَ : أَنَا وَاللَّهِ وَضَعْتُهُ فِي رَحِمِ أُمِّهِ ، قَالَ : فَلَمَّا تَسَلَّمْتُهُ ، قَالَ : أَخَافُ هَذَا الْعَبِيرَ الْجَالِسَ أَنْ يَحْرِقَ عَلَى لِمَامِي .

وَمِنْ كِتَابٍ لَمِثُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى زِيَادَ ، وَقَدْ بَلَغَهُ أَنَّ مَعَاوِيَةَ كَتَبَ إِلَيْهِ بِرِيدٍ خَدِيعَتِهِ بِاسْتِغْلَافِهِ : « وَقَدْ كُنَّ مِنْ أَبِي سَفْيَانَ فِي زَمَنِ عَمْرِو بْنِ الْخَطَّابِ ثَلَاثَةٌ مِنْ حَدِيثِ النَّبِيِّ ، وَزُرْعَةٌ مِنْ نَزَلَاتِ الشَّيْطَانِ لَا يَثْبُتُ بِهَا نَسَبٌ ، وَلَا يَسْتَحِقُّ بِهَا لِرْثٌ » فَلَمَّا قَرَأَ زِيَادُ الْكِتَابَ قَالَ : شَهِدْتُهَا وَوَرَبَ الْكُفَّةِ ، وَلَمْ تَزَلْ فِي نَفْسِهِ حَتَّى ادْعَاهُ مَعَاوِيَةَ ، وَكَانَ يُقَالُ لَهُ : زِيَادُ بْنُ عَيْدٍ ، وَزِيَادُ بْنُ أُمِّهِ ، وَزِيَادُ بْنُ سَبِيَةَ ، وَزِيَادُ بْنُ أُمِّهِ ، وَلَمَّا اسْتَلْقَى قَالَ لَهُ أَكْثَرُ النَّاسِ : زِيَادُ بْنُ أَبِي سَفْيَانَ ، قَالَ الْعَابِرِيُّ : « وَفِي سَنَةِ ٤٤ اسْتَلْقَى مَعَاوِيَةَ نَسَبَ زِيَادُ بْنُ سَمِيَةَ بِأُمِّهِ أَبِي سَفْيَانَ فِيهَا قِيلَ » .

« أيها الناس : هذا أمرٌ لم أشهدْ أوَّلَه ، ولا عِلْمٌ لى بآخِرِه ، وقد قال أمير المؤمنين ، ما بلغكم ، وشهدت الشهود بما سمعتم ، فالحمد لله الذى رفع مِنّا ما وضع الناس ، وحفظ منا ما ضيعوا ، فأما عِيْدُ فِائِغِها هو والد مَبْرُور ، أَوْ رَيْبٌ^(١) مشكور» ثم نزل . (شرح ابن أبى الحديد ٤ : من ٧٠ ، والقدر الفريد ٢ : ١٥١ ، ٣ : ٣ ، ومروج الذهب ٢ : ٥٦ ، وذيل الأمل من ١٨٩)

٢٥٥ - خطبته حين ولى البصرة (وهى البتراء)

وقدم زياد البصرة « غرة جمادى الأولى سنة ٤٥ هـ » واليا لمعاوية ابن أبى سفيان ، وضم إليه خراسان وسجستان ، والفستق بالبصرة كثير فاشي ظاهر ، فخطب خطبة بتراء لم يحمد الله فيها ، وقيل بل قال :
« الحمد لله على إفضاله وإحسانه ، ونسأله المزيد من نعمه وإكرامه . اللهم كما زِدْتَنَا نِعْمًا ، فَالْهَمْنَا شُكْرًا . أما بعدُ : فإن الجمالة الجهلاء^(٢) ، والضلالة العمياء ، والنقى الموفى بأهله على النار ، ما فيه سفهاؤكم ، ويشتمل عليه خُلماؤكم^(٣) ، من الأمور العظام ، ينبئت فيها الصغير ، ولا يتحاشى عنها الكبير ، كأنكم لم تقرأوا كتاب الله ، ولم تسموا ما أعدَّ الله من الثواب الكريم لأهل طاعته ، والعذاب الأليم لأهل معصيته ، فى الزمن السرمدي^(٤) الذى لا يزول ، أتكفونون كمن طرقت^(٥) عينه الدنيا ، وسدَّت مسامعه الشهوات ، واختار الفانية على الباقية ، ولا تذكرون أنكم أحدتم فى الإسلام الحدت الذى لم

[١] الريب هنا : دوج الأم .

[٢] هنا الوصف تركيد للبالغة ، ومنه : وتد واتد ، ومهج هامج ، ويلة ليله ، ويوم أيوم (أو شديد ، أو آخر يوم فى الشهر) . [٣] عطلاؤكم . [٤] الدائم . [٥] طرف عينه : أمابه بشئ . فدمت ، وطرف بصره : أطلق أحد جفنيه على الآخر ، وطرفه عنه كغريبه : صرفه وورده .

تَسْبِقُوا إِلَيْهِ ، مِنْ تَرْكِكُمْ الضَّعِيفَ يُقَهَّرُ وَيُؤْخَذُ مَالُهُ ، هَذِهِ الْمَوَاقِيرُ ^(١)
 المنصوبة ، والضعيفة المسلوقة في النهار المُبْصِر ، والعدو غير قليل ، ألم يكن
 منكم ثَمَاءٌ ^(٢) ، تمنع النواة عن دَلَج ^(٣) الليل ، وغارة النهار ؟ قَرَبْتُمْ الْقَرَابَةَ ،
 وباعدتم الدين ! تعتذرون بغير العذر ، وَتُعْضُونَ عَلَى الْمُخْتَالِسِ ، كلُّ أَمْرٍ مِنْكُمْ
 يَذُبُّ ^(٤) عَنْ سَفِيهِهِ ، صَنِيعٌ مِنْ لَا يَخَافُ عَاقِبَةً ، وَلَا يَرْجُو مَعَادًا ، مَا أَنْتُمْ
 بِالْخُلَمَاءِ ، وَلَقَدْ اتَّبَعْتُمُ السُّفَهَاءَ ، فَلَمْ يَزَلْ بِكُمْ مَا تَرَوْنَ مِنْ قِيَامِكُمْ دُونَهُمْ ، حَتَّى
 اتَّهَكُوا حَرَمَ ^(٥) الْإِسْلَامِ ، ثُمَّ أَطْرَقُوا وَرَاءَكُمْ ، كُنُوسًا ^(٦) فِي مَكَائِسِ الرِّيبِ ،
 حَرَامٌ عَلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ، حَتَّى أَسَوَّيْنَاهَا بِالْأَرْضِ هَذْمًا وَإِحْرَاقًا .
 إِنِّي رَأَيْتُ آخِرَ هَذَا الْأَمْرِ لَا يَصْلُحُ إِلَّا بِأَصْلَحَ بِهِ أَوَّلُهُ ، إِنْ فِي غَيْرِ ضَعْفٍ ،
 وَشِدَّةٍ فِي غَيْرِ غُتْفٍ ، وَإِنِّي أَقْسِمُ بِاللَّهِ لَا أَخَذَنَّ الْوَلِيَّ ^(٧) بِالْمَوْتَى ، وَالْمُقِيمَ بِالظَّالِعِينَ ،
 وَالْمُقْبِلَ بِالْمُذْبِرِ ، وَالْمُطِيعَ بِالْعَاصِي ، وَالصَّحِيحَ مِنْكُمْ فِي نَفْسِهِ بِالسَّقِيمِ ، حَتَّى يَلْقَى
 الرَّجُلُ مِنْكُمْ أَخَاهُ ، فَيَقُولُ : « أَنْجُ سَعْدٌ فَقَدْ هَلَكَ سَعِيدٌ ^(٨) » أَوْ تَسْتَقِيمَ لِي

- [١] جمع مأخور : وهو بيت الربة مريب أو عرق من نخرت السفينة لتردد الناس إليه .
 [٢] جمع ثاء ، وغواء جمع غاو . [٣] السير من أول الليل ، وقد أدلجوا ، فإن ساروا من آخره
 فادلجوا بالشميد . [٤] يدفع . [٥] جمع حرمة ، وهي ما لا يجزئ انتهاكه ، روى الشعبي قال :
 « لما خطب زياد خطبته البزاة بالبصرة ونزل ، سمع تلك القبيلة أصوات الناس يتحارسون ، فقال :
 ما هذا ؟ قالوا : إن البلد مقفون ، وإن المرأة من أهل النضر لتأخذها الفتيان الفساق ، فقال لها : نذني
 ثلاثة أصوات ، فإن أجابك أحد ، وإلا فلا لوم علينا فيما نصنع » . [٦] كنوس جمع كنس أي
 مستتر كقعود وجلس جمع قاعد وجالس ، وأصله من كنس الظبي كضرب : دخل في كناسه (ككتاب)
 وهو مستتر من الشجر ، وجميع كناس أيضا على كنس (كركع) ومنه الجوارى الكنسى (وهي الخنثى)
 وهي الكراكب السيارة ، أو النجوم الخفية : زحل ، والمشتري ، والمريخ ، والزهرة ، وعطارد . لأنها
 تنكس في الغيب كالظباء في الكنس (ككتاب) ، أو هي كل النجوم لأنها تبدو ليلا وتختفي نهاراً (وخصوصاً أنها
 تنيب كما يخنس الشيطان إذا ذكر الله عز وجل) ومكانس الريب : مكانها السترة جمع مكنس كجلس .
 [٧] الولي : السيد ، والولي هنا : السيد .
 [٨] سعد وسعيد هما ابنا ضبة بن أد خرجا في طلب إبل لأبيهما ، فوجدهما سعد فردهما وقتل سعيد ،
 فكان ضبة إذا رأى سواداً تحت الليل قال : سعد أم سعيد ؟

فَتَأْتِكُمْ، إِنْ كَذَبَ النَّبِيُّ بِلِقَاءِ^(١) مَشْهُورَةٍ، فَإِذَا تَمَلَّقْتُمْ عَلَىٰ كَذِبَةٍ فَقَدْ حَلَّتْ لَكُمْ مَعْصِيَتِي^(٢)، فَإِذَا تَمَعْتُمُوهَا مَنِى فَاغْتَرِزُوهَا^(٣) فِيَّ، وَاعْلَمُوا أَنَّ عِنْدِي أَمْثَالَهَا، مَنْ ثَقِبَ مِنْكُمْ عَلَيْهِ فَأَنَا ضَامِنٌ لِمَا ذَهَبَ مِنْهُ^(٤)، فَإِيَّايَ وَدَاجِجَ اللَّيْلِ، فَإِنِّي لَا أُوتَى بِمَدْجِلٍ إِلَّا سَفَكْتُ دَمَهُ، وَقَدْ أَجَلْتُكُمْ فِي ذَلِكَ بِمَقْدَارِ مَا يَأْتِي الْخَبِرُ الْكُوفَةَ وَيَرْجِعُ إِلَيْكُمْ^(٥)، وَإِيَّايَ وَدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ^(٦)، فَإِنِّي لَا أَجِدُ أَحَدًا دَعَا بِهَا إِلَّا قَطَعْتُ لِسَانَهُ، وَقَدْ أَحْدَثْتُمْ أَحْدَانًا لَمْ تَكُنْ، وَقَدْ أَحْدَثْنَا لِكُلِّ ذَنْبٍ عَقُوبَةً، فَمَنْ عَرَّقَ قَوْمًا غَرَفْنَا، وَمَنْ أَحْرَقَ قَوْمًا أَحْرَقْنَا، وَمَنْ ثَقَبَ يَتَنَا ثَقَبْنَا عَنْ قَلْبِهِ، وَمَنْ نَبَشَ قَبْرًا دَفَنَّا حَيًّا فِيهِ، فَكَفُّوا عَنِّي أَيْدِيَكُمْ وَالسَّتَكُمْ، أَكْفَفْتُ عَنْكُمْ يَدَيَّ وَلِسَانِي، وَلَا تَظْهَرُ مِنْ أَحَدٍ مِنْكُمْ رِيَّةٌ بِخِلَافِ^(٧) مَا عَلَيْهِ حَامَتُكُمْ، إِلَّا ضَرَبْتُ عُنُقَهُ، وَقَدْ كَانَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ أَقْوَامٍ إِحْنٌ^(٨)، فَجَعَلْتُ ذَلِكَ

[١] من البلى بالحريك وهو ارتفاع التحجيل في الفرس إلى الفخذين (والتحجيل : يبيض في قوائم الفرس)، والفرس البلاء مشهورة لتمييزها عما سواها بلفظها . [٢] في الطبري « قل الشيء : فواقه ما قالنا عليه بكذبة ، ولا وعدنا خيرا ، ولا شرأ إلا أخذه » . [٣] عدوها من عيوني ، واغترزه : طعن عليه . [٤] في الطبري : « وكان زياد أول من شد أمر السلطان ، وأكذلك معاوية . وأزعم الناس الطاعة ، وتقدم في العقوبة ، وجرّد السيف ، وأخذ بالظنة ، وعاقب على الشبهة ، وخذه الناس في سلطانه خوفا شديدا ، حتى أمن الناس بعضهم بعضا ، حتى كان الشيء يسقط من الرجل أو المرأة ، فلا يعرض له أحد ، حتى يأتيه صاحبه ، فيأخذه ، وتميت المرأة - فلا تقاتل عليها فيها ، وساس الناس سياسة لم ير مثنها ، وهابه الناس هبة لم يهايوها أحدا قبله ، وكان يقول : « لو شاع رجل بيني وبين خراسان حلت من أخذه » . [٥] في الطبري : « استعمل زياد على شرطته عبد الله بن حصين ، فأهل الناس - حتى بلغ الخبر الكوفة وعاد إليه وصول الخبر إلى الكوفة ، وكذا يؤخر العشاء حتى يكون آخر من يسلي ، ثم يسلي ، بأسر رجلا يقرأ سورة البقرة ويصلحها ، يرتل القرآن ، فإذا فرغ أهل جند ما يرى أن إنسانا يبلغ الحرية (كجينة موضع بالبصرة يسمى البصرة الصغرى) ثم بأسر صاحب شرطته بالخروج فيخرج ، ولا يرى إنسانا إلا قتله فأخذ ليلة أمرايا ، فأتى به زيادا ، فقال : هل سمعت النداء ؟ قل : لا والله ، قدمت بمخلوبة لي ، وغشيتي الليل ، فاعطرتني إلى موضع ، فأنت لأصبح ، ولا علم لي بما كن من الأمير ، قال : أظنك والله صادقا ، ولكن في ذلك صلاح هذه الأمة ، ثم أمر به فضربت عنقه » . [٦] قولهم : يا فلان ، وانخرض مناصرة الصبية . [٧] أى تخالف ما اجتمع عليه عامة اقوام . [٨] جمع إحنة ، وهي الحقد والفضينة .

دَبَّرَ أَذْنَى ^(١) وَتَحْتَ قَدَمَى ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُحْسِنًا فَلْيَزِدْ إِحْسَانًا ، وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُسِيئًا فَلْيَنْزِعْ عَنْ إِسَاءَتِهِ ، إِنِّي لَوَعْلْتُ أَنْ أَحْدِكُمْ قَدْ قَتَلَهُ الشَّيْطَانُ مِنْ بَعْضَى لَمْ أَكْشِفْ لَهُ قِنَاعًا ، وَلَمْ أَهْنِكْ لَهُ سِتْرًا ، حَتَّى يُتْدَى لِي صَفْحَتُهُ ^(٢) ، فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ لَمْ أَنَاظِرْهُ ، فَاسْتَأْنَفُوا أُمُورَكُمْ ، وَأَعِينُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، قَرُبَ مُبْتَلِسُ بَقْدُومِنَا سَيُسْرَ ، وَهَسْرُورُ بَقْدُومِنَا سَيَبْتَسُ .

— أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّا أَصْبَحْنَا لَكُمْ سَاسَةً ، وَعِنَكُمْ ذَادَةً ، نَسُوسُكُمْ بِسُلْطَانِ اللَّهِ الَّذِي أَعْطَانَا ، وَنَذُودُ عَنْكُمْ بِنَى اللَّهِ الَّذِي خَوَّلَنَا ^(٣) ، فَلَنَا عَلَيْكُمُ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيمَا أَحْيَيْنَا ، وَلَكُمْ عَلَيْنَا الْعَدْلُ فِيمَا وَلَيْنَا ، فَاسْتَوْجِبُوا عَدْلَنَا وَفِيئَنَا بِمَنَاصِحِكُمْ لَنَا ، وَاعْلَمُوا أَنِّي مَهْمَا قَصَّرْتُ عَنْهُ ، فَلَنْ أَقْصَرَ عَنْ ثَلَاثَ : لَسْتُ مُحْتَجِبًا عَنْ طَالِبِ حَاجَةِ مِنْكُمْ ، وَلَوْ أَنَّنِي طَارِقًا بَلِيلَ ، وَلَا حَاسِبًا عَطَاءَ وَلَا رِزْقًا عَنْ إِبَانِهِ ^(٤) ، وَلَا مُجَمَّرًا ^(٥) لَكُمْ بَمَثَا ، فَادْعُوا اللَّهَ بِالصَّلَاحِ لِأَنْفُسِكُمْ ، فَإِنَّهُمْ سَاسَتُكُمُ الْمُؤَدَّبُونَ لَكُمْ ، وَكَهَفَكُمْ الَّذِي إِلَيْهِ تَأْوُونَ ، وَمَتَى يَصْلَحُوا تَصْلَحُوا ، وَلَا تُشْرِبُوا قُلُوبَكُمْ بِنَفْسِهِمْ ، فَيَشْتَدَّ لَذَلِكَ غَيْظُكُمْ ، وَيَطُولَ لَهُ حَزْنُكُمْ ، وَلَا تُذْرِكُوا لَهُ حَاجَتَكُمْ ، مَعَ أَنَّهُ لَوْ اسْتُجِيبَ لَكُمْ فِيهِمْ لَكَانَ شَرًّا لَكُمْ . أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَبَيِّنَ كُلًّا عَلَى كُلِّ ، وَإِذَا رَأَيْتُمُونِي أَنْفَذَ فِيكُمْ الْأَمْرَ ، فَأَنْفِذُوهُ عَلَى أَذْلَالِهِ ^(٦) ، وَإِيَّاهُ اللَّهُ إِنْ لِي فِيكُمْ لَصَرْعَى كَثِيرَةً ، فَلْيَحْذَرِ كُلُّ أَمْرٍ مِنْكُمْ أَنْ يَكُونَ مِنْ صَرْعَايَ .

[١] أى خلف أذنى وقد اقتبسها من كلام معاوية كما مرّ بك .

[٢] أى يجامرنى بالمعاودة . [٣] ملكتنا ، والنهى ما كان شمساً فيلسفه الظل ، والمراج ، أى تدفع عنكم بظل الله ونسسته التى وهبنا أو تدفع عنكم بما صار فى أيدينا من أموال المراج .

[٤] وقته وموعده . [٥] جر الجند : حبسهم فى أرض العدو ولم يفلهم .

[٦] أى وجوهه وطرقه جمع ذل بالكسر ، وذلل الطريق : بحجته ، وأمور الله جلية على أذلالها أى مجاريها .

فقام إليه عبد الله بن الأهمم فقال : « أَشْهَدُ أَيُّهَا الْأَمِيرُ لَقَدْ أُوتِيَتْ الْحِكْمَةُ وَفَضَّلَ الْخُطَابُ » ، فقال له : « كَذَبْتَ . ذَاكَ نَبِيُّ اللَّهِ دَاوُدَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ »
فقام الأحنف بن قيس ، فقال : « إِنَّمَا الثَّنَاءُ بَعْدَ الْبَلَاءِ » ، والحمد بعد العطاء ،
وإنا لن نُثْنِي حَتَّى نَبْتَكَى » ، فقال له زياد : صدقت ، فقام أبو بلال مِرْدَاس ^(١)
ابن أَدِيَّةٍ وَهُوَ يَتِمِسُ وَيَقُولُ : أَنبَأْنَا اللَّهَ بِنِيرِ مَا قُلْتَ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « وَإِبْرَاهِيمَ
الَّذِي وَفَّى ، الْأَتَرُؤُ وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَى ، وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى »
وَأَنْتَ تَزْعُمُ أَنَّكَ تَأْخُذُ الْبِرَّ بِالسَّقِيمِ ، وَالْمُطِيعِ بِالْعَاصِي ، وَالْمُقْبِلِ بِالْمُدِيرِ ،
فَسَمِعَهَا زِيَادٌ ، فَقَالَ : « إِنَّا لَا نَبْلُغُ مَا نُرِيدُ فِيكَ وَفِي أَصْحَابِكَ حَتَّى نَخُوضَ إِلَيْكُمْ
الْبَاطِلَ خَوْصًا » .

(الليان والنبين ٢ : ٢٩ ، والقدر الفريد ٢ : ١٥٠ ، وصبح الأعشى ١ : ٢١٦ ،
وتاريخ الطبري ٦ : ١٢٤ ، والكامل لابن الأثير ٣ : ٢٢٦ ، وشرح ابن أبي الحديد
٤ : ٥٧ ، وعيون الأخبار ٢ : ٢٤١ ، وذيل الأمالي ١٨٨)

٢٥٦ - خطبته بالكوفة وقد ضمت إليه

ولما مات المنيرة بن شُعْبَةَ أمير الكوفة سنة ٥٠ هـ ، ضم معاوية الكوفة
إلى زياد ، فكان أول من جُمِعَ لَهُ الكوفة والبصرة ^(٢) ، فاستخلفَ عَلَى الْبَصْرَةِ ،
وشَخَّصَ إِلَى الْكُوفَةِ فَاتَّاهَا ، فَصَمَدَ الْمَنْبَرِ ، فَحَمَدَ اللَّهَ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :
« إِنْ هَذَا الْأَمْرُ أَتَانِي وَأَنَا بِالْبَصْرَةِ ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَشَخَّصَ إِلَيْكُمْ فِي الْفَيْنِ مِنْ
شُرْطَةِ الْبَصْرَةِ ، ثُمَّ ذَكَرْتُ أَنَّكُمْ أَهْلُ حَقٍّ ، وَأَنْ حَقَّكُمْ طَالَمَا دَفَعَ الْبَاطِلُ ،
فَأَتَيْتُكُمْ فِي أَهْلِ بَيْتِي ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَفَعَ مِنِّي مَا وَضَعَ النَّاسَ ، وَحَفِظَ مِنِّي
مَا ضَيَعُوا حَتَّى فَرَغَ مِنَ الْخُطْبَةِ ^(٣) » . (تاريخ الطبري ٦ : ١٣١)

[١] وهو من رؤساء الخوارج .

[٢] وكان يقيم ستة أشهر بالكوفة ، وستة أشهر بالبصرة . [٣] قال الطبري : فحبس على المنبر ،
(أى روى بالحسب ، وهو الحصى) جلس حتى أمسكوا ، ثم دعا قوما من خاصته ، وأمرهم ، فأخفوا أبواب

٢٥٧ — خطبة أخرى له بالكوفة

وروى الطبري أيضاً قال :

« جُمِعَت الكوفة والبصرة لزياد بن أبي سفيان ، فأقبل حتى دخل القصر بالكوفة ، ثم صعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإننا قد جُربنا وجرَّبنا ، وسُئنا وسأَسنا السائسون ، فوجدنا هذا الأمر لا يصلُح آخره إلا بما صلح أوله ، بالطاعة اللينة المشبَّه سرُّها بملايتها ، وغيبُ أهلها بشاهدٍ ، وقلوبهم بالسنتهم ، ووجدنا الناس لا يصلحهم إلا إن في غير ضعف ، وشدة في غير عُنف ، وإني والله لا أقوم فيكم بأمر إلا أمضيته على أذلاله ، وليس من كذبة الشاهد عليها من الله والناس أكبر من كذبة إمام على المنبر ، ثم ذكر عثمان وأصحابه فقرَّظهم ، وذكر قتلته ولعنهم » .

(تاريخ الطبري ٦ : ١١٢)

٢٥٨ — خطبته بالكوفة يتهدد الشيعة

وكان زياد قد ولى الكوفة عمرو بن الحرث ، ورجع إلى البصرة ، فبلغه أن حُجْر بن عديّ يجتمع إليه شيعة على ، ويظهرون لعن معاوية والبراءة منه ، وأنهم حصَّبوا عمرو بن الحرث ، فشَخَص إلى الكوفة ، حتى دخلها ، فأتى القصر ، ثم خرج فصعد المنبر ، وعليه قباء سُندُس ، ومُطرَف خَرَّ أخضر ، قد فرَّق شعره ، وحجر جالس في المسجد حوله أصحابه أكثر ما كانوا ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

المسجد ، ثم قال : ليأخذ كل رجلٍ منكم جليسه ، ولا يقولن لا أرى من جليسي ، ثم أمر بكرسي فوضع له على باب المسجد ، فدعا أربعاً أربعة ، يحلفون بالله ما منا من حبك ، فن حلف خلاه ، ومن لم يحلف حبسه وعزله ، حتى صار إلى ثلاثين ، ويقال بل كانوا ثمانين قطع أيديهم على اللسان » .

« أما بعد : فَإِنَّ غَيْبَ الْبَنِيِّ وَالنَّبِيِّ وَخَيْمٌ ، إِنَّ هَؤُلَاءِ جُؤَاءٌ ^(١) فَأَثِرُوا ، وَأُمْنُونِي فَاجْتَرُوا عَلَيَّ ، وَإِيْمُ اللَّهِ لَأَنَّ لَمْ تَسْتَقِيمُوا لِأَدَاوَيْتُكُمْ بِدَوَائِكُمْ ، وَقَالَ : مَا أَنَا بِشَيْءٍ إِنْ لَمْ أَمْنَعْ بَاحَةَ ^(٢) الْكُوفَةِ مِنْ حُجْرٍ ، وَأَدْعُهُ نَكَالًا لِمَنْ بَعْدَهُ ، وَيَا لَأُمِّكَ يَا حَجْرَ ، سَقَطَ الْعِشَاءُ بِكَ عَلَى سِرْحَانٍ ^(٣) » . (تاريخ الطبري ٦ : ١٤٣)

٢٥٩ - خطبة أخرى له

وخطب زياد فقال :

« استوصُوا بِثَلَاثَةٍ مِنْكُمْ خَيْرًا : الشَّرِيفَ وَالْعَالِمَ وَالشَّيْخَ ، فَوَاللَّهِ لَا يَأْتِينِي شَيْخٌ بِشَابٍ قَدْ اسْتَخَفَّ بِهِ إِلَّا أَوْجَعْتُهُ ، وَلَا يَأْتِينِي عَالِمٌ يَجَاهِلُ اسْتَخَفَّ بِهِ إِلَّا نَكَلْتُ بِهِ ، وَلَا يَأْتِينِي شَرِيفٌ بَوَضِيعٍ اسْتَخَفَّ بِهِ إِلَّا انْتَقَمْتُ لَهُ مِنْهُ » .
(البيان والبيان ٢ : ٧٣ ، والقدر الفردي ٢ : ١٥١ ، شرح ابن أبي عمير ٤ م ٤٠ ص ٧٤)

٢٦٠ - خطبة أخرى

وخطب على المنبر فقال :

« أَيُّهَا النَّاسُ : لَا يَمْنَعُكُمْ سُوءُ مَا تَعْمَلُونَ مِنَّا أَنْ تَتَنَفَّعُوا بِأَحْسَنِ مَا تَسْمَعُونَ مِنَّا ، فَإِنَّ الشَّاعِرَ يَقُولُ :

اعْمَلْ بِقَوْلِي وَإِنْ قَصُرْتُ فِي عَمَلِي يَنْفَعَكَ قَوْلِي وَلَا يَضُرُّكَ تَقْصِيرِي

٢٦١ - وصية لزياد

وروى الجاحظ عن عمرو بن عُيَيْدٍ أَنَّهُ قَالَ : كَتَبَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ وَصِيَّةَ زِيَادٍ بِيَدِهِ ، وَأَمَرَ النَّاسَ بِحِفْظِهَا وَتَدْبِيرِ مَعَانِيهَا وَهِيَ :

« إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ لِعِبَادِهِ عَقُولًا ، فَاقْبَهُمْ بِهَا عَلَى مَعْصِيَتِهِ ، وَأَتَابَهُمْ

[١] من جم اللاء جوما : كثر واجتمع . [٢] الباحة : الساحة . [٣] هو مثل : وأمله أن رجلا خرج يلبس العشاء ، فوقع على ذئب فأكله ، يضرب في طلب الحاجة يؤدي بها إليها إلى التلف .

بها على طاعته ، فالناس بين مُحْسِنٍ بنعمة الله عليه ، ومُؤْسِئٍ بِجِذْلَانِ الله إياه ، والله
النعمةُ على المحسن ، والحجةُ على المؤسئ ، فما أولى مَنْ نَمَتْ عليه النعمةُ في نفسه
ورأى العبرةَ في غيره ، بأن يضع الدنيا بحيثُ وضعها الله ، فيعطى ما عليه منها ،
ولا يتكبر بما ليس له منها ، فإن الدنيا دار فناء ، ولا سبيل إلى بقائها ، ولا بد من
لقاء الله ، فأحذركم الله الذي حذركم نفسه ، وأوصيكم بتعجيل ما أخرته العجزةُ ،
قبل أن تصيروا إلى الدار التي صاروا إليها ، فلا تقدرون على توبة ، وليس لكم
منها أوبة ، وأنا أستخلف الله عليكم ، وأستخلفه منكم .

قال الجاحظ : وقد روى هذا الكلام عن الحجاج ، وزيادُ أحق به منه .

(البيان والبيان ١ : ٢٠٦)

٢٦٢ — ما كان يقوله لمن ولاه عملاً

وكان زياداً إذا ولي رجلاً عملاً قال له :

« خذ عهدك ، وبرز إلى عمالك ، واعلم أنك مصروفُ رأسِ سَتِّكَ ، وأنتك
تصير إلى أربع خِلال ، فاختر لنفسك . إنا إن وجدناك أميناً ضعيفاً ، استبدلنا
بك لضعفك ، وسلّمناك من مَعَرَّتِنَا أمانتك ، وإن وجدناك قوياً خائناً استهنا
بقوتك ، وأوجسنا ظهرك ، وتقلنا غُرْمَكَ ، وإن جمعت علينا الجُرْمَيْنِ ، جمعنا
عليك المَضَرَّيْنِ ، وإن وجدناك أميناً قوياً ، زدنا في عمالك ، ورقمنا ذكرك ،
وكثرنا مالك ، وأوطأنا عَقَبَكَ » .

(الأمال ٢ : ٨٢)

٢٦٣ — خطبة الضحّاك بن قيس الفهري بالكوفة ^(١) (قتل سنة ٦٤ هـ)

وخطب الضحّاك بن قيس الفهريّ على منبر الكوفة — وقد كان بلّغه أن

[١] ولاد معاوية الكوفة سنة ٥٥ هـ إلى سنة ٥٨ هـ ثم جله على شرطه ، ولما مات معاوية الثاني بإيمه
أهل دمشق على أن يصلي بهم ، ويقيم لهم ثمرم ، حتى يجتمع أمر الأمة ، وكان يهوى هوى ابن الزبير ،

قوماً من أهلها يشتمون عثمان ويبرءون منه ، فقال :

« بلغني أن رجلاً منكم ضلّلاً يشتمون أئمة الهدى ، ويميّون أسلافنا الصالحين ، أما والذي ليس له نِد ولا شريك ، لئن لم تنتهوا عما يبلغني عنكم ، لأضنّ فيكم سيف زياد ، ثم لا تجدوني ضعيف السّورة ^(١) ، ولا كليل الشّفرة ^(٢) ، أما إني لصاحبكم الذي أغرّث على بلادكم ^(٣) ، فكنتُ أول من غزاها في الإسلام ، وشرب من ماء التّعلية ومن شاطئ القرّات ، أعاقب من شئت ، وأعفو عن من شئت ، لقد ذعرتُ المخدّرات في خدورهن ، وإن كانت المرأة ليبيكي أبنتها فلا ترهبه ولا تستكته إلا بدكر اسمي ، فاتقوا الله يا أهل العراق ، أنا الضحّاك بن قيس ، أنا أبو أنبس ، أنا قاتل عمرو بن عُميّس . »

فقام إليه عبد الرحمن بن عُبيد ، فقال : « صدق الأمير ، وأحسن القول ! ما أغرّفنا والله بما ذكرت ! ولقد لقيناك ببربيّ تدمّر فوجدناك شجاعاً مجرباً صبوراً ^(٤) ! » ثم جلس ، وقال : أيخضر علينا بما صنّع يبلادنا أول ما قدّم ؟

وعنه من إظهار ذلك أن بني أمية كانوا يحضروه ، وكان يصل في ذلك سرا ، ثم نشبت الحرب بينه وبين مروان بن الحكم في مرج راهط ، ودائرة الدائرة على جيش الضحّاك وقيل منتصف ذي الحجة سنة ٦٤ هـ .

[١] سورة السلطان : سلطونه واعتداؤه . [٢] الشّفرة : حد السيف ، وكليل : غير قاطع .
[٣] وكان ذلك سنة ٣٩ هـ ، دله معاوية ، وقال : سرح حق تمر بناحية الكوفة ، وترفع عنها ما استطعت ، فن وجدته من الأعراب في طاعة عليّ فأغر عليه ، وإن وجدت له مسلحة أو خيلاً فأغر عليها فسرّحه فيما بين ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف ، فأقبل الضحّاك قنب الأموال ، وقتل من لقي من الأعراب وسر بالثعلبية فأغار على صالح عليّ وأخذ أشتهم ، ومضى حتى انتهى إلى النطفانة ، فأبى عمرو بن عيسى ابن مسعود - وهو ابن أخي عبد الله بن مسعود - وكان في خيل عليّ ، وأسلمه أهله ، وهو يريد الحج ، فقتله وقتل ناساً من أصحابه ، لما بلغ ذلك علياً سرح حجير بن عدي الكندي في أربعة آلاف ، فلم يزل يغنا في أثر الضحّاك حتى لقيه بناحية تدمر فواقعه ، فاقتلوا ساعة ، فقتل من أصحاب الضحّاك ثلثة عشر رجلاً ، وقتل من أصحاب حجير رجلان ، وحجز الليل بينهم ، فهرب الضحّاك وأصحابه ، فلما أصبحوا لم يجدوا لهم أثراً - سرح ابن أبي الحديد ١ : ص ١٥٤ ، وتاريخ الطبري ٦ : ٧٨ - .
[٤] هذا القول تكلم به كاتري .

وأيُّمُ الله لأذْكَرُّهُ أبْنَضَ مواطنه إليه ، فسكت الضحاك قليلا ، وكأنه خَرَى واستحيا ، ثم قال : نعم ، كان ذلك اليوم بأخْرَةٍ^(١) - بكلام ثقيل - ثم نزل .
(شرح ابن أبي الحديد ١ : ١٠٠)

٢٦٤ - خطبته عند موت معاوية

ولما مات معاوية (سنة ٦٠ هـ) خرج الضحاك بن قيس القهري - وكان صاحب شُرطته - حتى صعد المنبر ، وأكفأ معاوية على يديه تلوح ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« إن معاوية كان عمودَ العرب ، وحَدَّ العرب ، قطع الله عزَّ وجلَّ به الفتنَةَ ، وملَّكه على العباد ، وفتح به البلاد ، ألا إنه قد مات ، فهذه أكفأته ، فنحن مُدْرَجوه فيها ، ومُدْخِلوه قبره ، ومُتَحَلِّون بينه وبين عمله . ثم هو في البرزَخ^(٢) إلى يوم القيامة ، فمن كان منكم يريد أن يشهده فليحضُرْ عند الأولى^(٣) . »
(تاريخ الطبري ٦ : ١٨٢ ، والنفد الفريد ٢ : ٢٥٠)

٢٦٥ - خطبة النعمان بن بشير بالكوفة^(٤) (قتل سنة ٦٤ هـ)

خطب النعمان بن بشير على منبر الكوفة ، فقال :

[١] يقال : جاء أخْرَةً وأخْرَةً بالتحريك : أى آخر كل شيء .

[٢] البرزخ : ما بين الدنيا والآخرة ، من وقت الموت إلى البعث ، فمن مات فقد دخل البرزخ .

[٣] وفي النقد « فمن أراد حضوره صلاة الظهر فليحضره » .

[٤] ولي الكوفة وحسن للمعاوية وزيد ، وكان هواه معهما ، وميله إليهما ، فلما مات معاوية بن يزيد دعا الناس إلى سيرة عبد الله بن الزبير بأشأم ، وكان أول من خالف من أمراء الأجناد - وكان والياً على حمص - وانضم إلى الضحاك بن قيس القهري ، وأسلمه بجيش من أهل حمص عليه شرحبيل بن ذي الكلاع ونسبت الحرب بين الضحاك وبين مروان بن الحكم في مرج راحط ، ودارت الفائرة على جيش الضحاك وقتل كما قدنا ، فلما بلغ الخبر النعمان بن بشير خرج من حمص حاربا ليلومه امرأته وولده وقته ، فسار ليلته جماً ، متعبراً لا يدرى أين يأخذ ، فاقبته خالد بن عدي الكلابي فبين خف منه من أهل حمص ، فلقحه وقتل وبيت برأسه إلى مروان ، وكان قتله في ذي الحجة سنة ٦٤ هـ .

« يأهل الكوفة : إني والله ما وجدت مثلي ومثلكم إلا الضبيع وانعلب ،
أتيا الضبي في جحره ، فقالا : أبا الحنبل ^(١) . قال : أجبتكما . قال : جئناك
نختصم . قال : في بينه يؤتني الحكم . قالت الضبيع : فتحت عيني . قال : فعل
النساء . فعلت . قالت : فلقطتُ تمرّة . قال : حلوا اجتنب . قالت : فاخطفها
ثمالة ^(٢) . قال : لنفسه بقى الخير . قالت : فلطمته لطمّة . قال : حقاً قضيت .
قالت : فلطمني أخرى . قال : كأن حراً فاتصر . قالت : فافض الآن بيننا . قال :
حدّث حديثين امرأة ، فإن لم تفهم فأربعة ^(٣) . »

(العقد الجديد ١ : ٢٦٩ - ٢ : ١٥٨ ، مجمع الأمثال للبيداني ٢ : ١٣)

٢٦٦ - خطبة عبيد الله بن زياد بن أبيه بين يدي معاوية

(قتل سنة ٦٧ هـ)

قدم عبيد الله بن زياد على معاوية بعد هلاك زياد ، فجعل يتصدّى منه
بخلوة ، ليبر من رأيه ما كره أن يُشرك في علمه ، فاستأذن عليه بعد انصداع
الطلاب ، واشتغال الخاصة ، واقتراق العامة ، وهو يوم معاوية الذي كان يخلو
فيه بنفسه ، ففطن معاوية لما أراد ، فبعث إلى ابنه يزيد وإلى مروان بن الحكم
وإلى سعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحكم ، وعمر بن العاص ، فلما أخذوا
بجالسهم أذن له ، فسلم ، ووقف واجماً يتصفح وجوه القوم ثم قال :

[١] أبو حنبل وأبو حنبل : كنية الضبي ، وفي مجمع الأمثال أن للتصاصين : الأرب والعلب .

[٢] ثمالة : اسم العلب الذكر والأنثى . [٣] وقد ذهب أقوال الضبي كلها أثلاً ، قال البيهقي
شرح للتل الأخير (١ : ١٣٠) : « أي زد ، وأراد بالمحدثين حديثاً واحداً تكرره مرتين ، فكأنك
حدثتها بمحدثين ، والمعنى كررها الحديث لأنها أضغف فيها ، فإن لم تفهم فاجعلها أربعة ، وقال أبو
سعيد : فإن لم تفهم بيد الأربعة ، فالربعة (والربعة ككفنة : الصا) وروى : فاربعة « أمر من ربيع
نوع » أي كفّ ، يضرب في سوء السمع والإجابة » .

« صَرِيحُ الْمُتَّقِ مَكَاةُ الْأَذْنَيْنِ ، لَا خَيْرَ فِي اخْتِصَاصِهِ وَإِنْ وَقَرَّ ،
أَحَدُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ عَلَى الْآلَاءِ »^(١) ، وَأَسْتَعِينَهُ عَلَى اللَّأْوَاءِ »^(٢) ، وَأَسْتَعِينَهُ مِنْ عَمِّي
مُجَاهِدٌ ، وَأَسْتَعِينَهُ عَلَى عَدُوِّ مُرْصِدٍ »^(٣) ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْمُتَّقِدُ بِالْأَمِينِ
الصَّادِقِ مِنْ شَفَاعَةِ جُرْفٍ هَارٍ »^(٤) ، وَمِنْ بَدِّ غَارٍ »^(٥) ، وَصَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَى الزَّكِيِّ نَبِيِّ
الرَّحْمَةِ ، وَنَذِيرِ الْأُمَّةِ ، وَقَائِدِ الْهَدْيِ ، أَمَا بَعْدُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : فَقَدْ عَسَفَ بِنَا ظَنُّ
فَرَّعٍ »^(٦) ، وَقَذَعُ »^(٧) صَدَّعَ ، حَتَّى طَمِعَ السَّحِيقُ »^(٨) ، وَيَتَسَّ الرِّفِيقُ ، وَدَبَّ
الْوُشَاةُ بِمَوْتِ زِيَادٍ ، فَكَلَهُمْ مُسْتَحْقِرٌ »^(٩) لِلْعِدَاوَةِ ، وَقَدْ قَلَّصَ الْآزِرَةَ »^(١٠) ، وَشَمَّرَ
عَنْ عِطَافِهِ »^(١١) لِيَقُولَ : مَضَى زِيَادٌ بِمَا اسْتُلْحِقَ بِهِ ، وَدَلَّ عَلَى الْأَنَاءَةِ »^(١٢) مِنْ
مُسْتُلْحِقَتِهِ ، فَلَيْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ سَلِمَ فِي دَعَتِهِ »^(١٣) ، وَأَسْلَمَ »^(١٤) زِيَادًا فِي ضَيْعَتِهِ ،
فَكَانَ تَرَبُّبٌ »^(١٥) عَائَتِهِ ، وَأَحَدَرِيعَتِهِ ، فَلَا تَشْخَصَ »^(١٦) إِلَيْهِ عَيْنُ نَازِرٍ ، وَلَا إِصْبَعُ

[١] التَّم . [٢] الشَّد . [٣] ارْصَدَتْ لَهُ : أَعَدَّتْ . [٤] الشَّنَا : حَرَفُ كُلِّ شَيْءٍ ،
وَالْجُرْفُ كَمَنْقٍ وَقُلٌّ مَا تَجَرَّقَتِ السُّيُولُ وَأَكَلَتْهُ مِنَ الْأَرْضِ ، وَهَارُ الْجُرْفِ انْصَدَعَ وَلَمْ يَسْقُطْ فَهُوَ هَارُ
كَفَاشٍ ، وَهُوَ مَقْلُوبٌ مِنْ هَارٍ ، فَإِذَا سَقَطَ قُدَّ أَنْهَارٌ وَتَبَوَّرَ . [٥] الْبَدُّ : اتَّبَعَ ، وَالْعَارَى :
اللَّازِمُ الشَّامِلُ ، مِنْ غَرَا السِّنُّ قَلْبُهُ لُزُقَ بِهِ وَغَطَا . [٦] فَرَّعٌ بَيْنَ الْقَوْمِ وَفَرَّقَ بِمَعْنَى وَاحِدٍ ، أَيْ
أَنْ هَذَا الظَّنُّ فَرَقَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ لِجَافِقِنَا . [٧] فِي الْأَصْلِ « فَرَعَ » وَأَرَاهَا مُحَرَّفَةٌ عَنْ قَذَعَ وَهِيَ
الَّتِي تَنَاسَبُ لِلْعَامِ . قَذَعَهُ قَذَا (بِالْكَوْنِ) رَمَاهُ بِالْفَحْشِ وَسَوَاءُ الْقَوْلِ كَأَقْذَعَهُ ، وَالْقَذَعُ حَرَكَةُ الْخَنَاءِ
وَالْفَحْشِ وَالْقَفْرِ ، وَصَدَّعَ شَقَّقَ وَفَرَّقَ أَيْ أَنْ مَارِمَانَا بِهِ الْوُشَاةُ لَدَيْكَ مِنْ سَوَاءِ الْقَوْلِ فَرَقَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ .
[٨] الْبَعِيدُ . [٩] فِي الْأَصْلِ هَكَذَا بِمَعْنَى عَقَرَ ، أَيْ عَقَرَ لَنَا لِمَعَادَاتِهِ لِيَانَا ، أَوْ أَنَّهُ لَا يَبَالِي
بِمَعَادَاتِنَا لَمَّا تَابَنَا مِنَ الْعُصْفِ بِمَوْتِ زِيَادٍ ، وَرَبَّمَا كُنَّ « مُتَحَفِّزَةً لِلْعِدَاوَةِ » أَيْ مُتَوَسِّبَةً مُسْتَوْفِرَةً أَوْ « مُسْتَحْفَرَةً
لِلْعِدَاوَةِ » مِنْ اسْتَحْفَرٍ إِذَا مَضَى مَسْرَعًا . [١٠] الْآزِرَةُ وَالْأَزْرُ بَضْمَتَيْنِ جَمْعُ إِزَارٍ وَهُوَ لِلْمَخَةِ .
[١١] الْعِطَافُ : الرِّدَاءُ ، وَجَمْعُهُ عِطْفٌ بِضْمَتَيْنِ ، وَأَعْطَفَهُ ، وَكُنَّا اللَّطْفَ بِالْكَسْرِ ، وَهُوَ مِثْلُ إِزَارٍ ،
وَمَشَّرَ ، وَلِخَافٍ ، وَلِخَفٍ .

[١٢] فِي الْأَصْلِ « الْأَنَاءَةُ » وَأَرَاهُ مُحَرَّفًا مِنْ « الْأَنَاءَةِ » وَهِيَ الْحِلْمُ . [١٣] الدَّعَةُ الْخَفْضُ .

[١٤] أَسْلَمَهُ : خَفَلَهُ أَيْ فَلَيْتَهُ تَرَكَ زِيَادًا ضَائِعًا لِلنَّسَبِ مَضْمُورًا وَلَمْ يَسْتَلْحِقْهُ .

[١٥] التَّرَبُّبُ : مَنْ وَلَدَ مَعَكَ . أَيْ فَكَانَ تَرَبًّا لِأَحَدٍ طَائِفَةِ النَّاسِ ، وَلَمْ يَكُنْ تَرَبًّا لَكَ فَلَا يَقْدِرُ لَهُ قَدْرٌ

[١٦] أَيْ فَلَا تَرْتَقِعُ .

مُشِير، وَلَا تَنْدَلِقِ^(١) عَلَيْهِ السُّنُّ كَلَمَتَهُ حَيًّا ، وَبَشَّشَتْهُ مَيْتًا ، فَإِنْ تَكُنْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ حَايِتَ زِيَادًا بِأَوَّلِ رُقَاتٍ ، وَدَعَاةَ أَمْوَاتٍ ، فَقَدْ حَابَاكَ زِيَادٌ بِجِدَّةِ هَاصُورٍ ، وَعَزَمَ جَسُورٍ ، حَتَّى لَانَتْ شَكَاكُمُ الشَّرِيسُ ، وَذَلَّتْ صَعْبَةُ الْأَشُّوسِ^(٢) ، وَبَذَلَ لَكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَمِينَهُ وَيَسَارَهُ ، تَأْخُذُ بِهِمَا الْمَنِيْعَ ، وَتَقَهَّرُ بِهِمَا الْبَدِيْعَ ، حَتَّى مَضَى وَاللَّهُ يُغْفِرُ لَهُ ، فَإِنْ يَكُنْ أَخَذَ بِحَقِّ أَنْزَلِهِ مَنَازِلَ الْأَقْرَبِينَ ، فَإِنْ لَنَا بَعْدَهُ مَا كَانَ لَهُ ، بِذَلِكَ الرَّحِيمِ ، وَقَرَابَةِ الْحَمِيمِ ، فَالِنَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ نَعْمَتِي الضَّرَاءَ^(٣) ، وَنُشْتَفُ النَّضَارَ^(٤) ؟ وَلَكَ مِنْ خَيْرِنَا أَكْمَلُهُ ، وَعَلَيْكَ مِنْ حُوبِنَا^(٥) أَثْقَلُهُ ، وَقَدْ شَهِدَ الْقَوْمُ ، وَمَا سَأَلْنِي قَرِيبَهُمْ لِيُقَرِّوْا حَقًّا ، وَيُرْثُوا بِأَبْلَا ، فَإِنَّ لِلْحَقِّ مَنَازِلًا وَاضِحًا ، وَسَبِيلًا قَصْدًا^(٦) . فَقُلْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَيِّ أَمْرٍ يَكُ شَيْءٌ ، فَمَا نَارِزُ^(٧) إِلَى غَيْرِ جُحْرِنَا ، وَلَا نَسْتَكْثِرُ بِغَيْرِ حَقِّنَا ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ .

٣٦٧ - رَدَّ معاوية على ابن زياد

فَنَظَرَ مَعَاوِيَةُ فِي وَجْهِهِ الْقَوْمِ كَالْمُعْجَبِ ، فَتَصَفَّحَهُمْ بِلَحْظِهِ رَجُلًا رَجُلًا وَهُوَ مَبْتَسِمٌ ، ثُمَّ انْجَبَ تِلْقَاءَهُ ، وَعَقَدَ حُبُوتَهُ^(٨) ، وَحَسَرَ عَنْ يَدِهِ ، وَجَعَلَ يُؤَمِّئُهَا ، ثُمَّ قَالَ مَعَاوِيَةُ :

-
- [١] اندلق السبل : اندفع ، والسيف انسلّ بلاسل أو شق جفنه فخرج منه ، وكلته جرحته وآذته .
 [٢] وصف من الشوس بالتحريك ، وهو النظر بمؤخر العين تكبرا ، أو تفتيلا .
 [٣] الضراء : الشجر اللثغ في الوادي ، يقال توارى الصيد منه في ضراء ، وفلان يمشي الضراء إذا مشى مستغيا فيما يورى من الشجر . [٤] اشتف ما في الإثناء : ذرية كله ، والنضار : الذهب أو الفضة ، والمراد : تمنع منه ، ولا تمكن من أخذه ، أي يحال بيننا وبين الولاية .
 [٥] الحوب يضم الماء وتحتها : الإثم ، أي عليك من آثامنا التي ارتكبتها في سبيل تأييد سلطانك أهلها ، وفي بعض النسخ : « من جوابنا » أي من جوابنا حين يسألنا للولوى عما أتينا من أخذ الناس بالصف والإرهاق لتمكين ملكك [٦] القصد : استقامة الطريق .
 [٧] من أرزت الحبة أي لاذت بحجرها ورجعت إليه . [٨] احتج بالثوب : اشتغل ، أو جمع بين بين ظهره وساقه بسلامة ونحوها ، والامم : الحبة ، وحسر : كشف .

« الحمد لله على ما نحن فيه ، فكل خير منه ، وأشهد أن لا إله إلا الله ،
فكل شيء خاضع له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، ذلك على نفسه بما بان عن عجز
الخلق أن يأتوا بمثله ، فهو خاتم النبيين ، ومصدق المرسلين ، وحجة رب العالمين ،
صلوات الله عليه وبركاته ، أما بعد : فرب خير مستور ، وشر مذكور ، وما هو
إلا السهم الأخبب لمن طاربه ، والحظ المرغيب لمن فاز به ، فيهما التفاصيل
وفيها الثنائ ، وقد صفت^(١) يداي في أيك صفة ذى الخلّة من رواضع
الفضلان ، عامل اصطناعي^(٢) له بالكفر لما أوليته ، فارميت به إلا اتصل^(٣) ،
ولا انضيت^(٤) إلا غلقت جفنته ، ولزت^(٥) لسمته ، ولا قلت إلا أعاند ، ولا قت
إلا قعد ، حتى اخترمه^(٦) الموت ، وقد أوقع بختره^(٧) ، ودل على حقه ، وقد
كنت رأيت في أيك رأياً حضره الحطل ، والتبس به الزلل ، فأخذ مني بحظ
العقلة ، وما أبرئ نفسي ، إن النفس لأمارة بالسوء ، فما برحت هتات^(٨)
أيك تحطب في جبل القطيعة ، حتى اتكت^(٩) الأبرم ، وأنحل عقد الوداد ،
فيالها توبة تؤتف^(١٠) من حوبة أورتت ندما ، أسمع بها الهاتف ، وشاعت
للشامت ، فليهنأ^(١١) الواشم ما به احتقر ، وأراك تحمد من أيك جداً

- [١] صفق له بالبع ، وصفق يده ، وعلى يده صفقا وصفقة : ضرب يده على يده ، وذلك عند وجوب
البيع ، والفضلان جمع فضيل : وهو ولد الناقة إذا فصل عن أمه ، والخلّة : الحاجة .
[٢] اصطنعه لنفسه : اختاره لحاجة أمر استكفاه لإياه . [٣] اتصل السهم : سقط لصله .
[٤] انضى السيف : اسله ، والجفن : غمد السيف . [٥] لزت : طمته .
[٦] أهلكه . [٧] الحتر : النذر والحذية ، أو أوقع النذر ، وأوقع به : أهلكه .
[٨] أعماله وسبائحه جمع هنة . [٩] انحل وانقض . [١٠] تؤتف : تستأنف ، والحوية :
الإثم والذنب . [١١] من هنأ الطعام أى ساع ولذ ، والواشم فاعل من الوشم ، وشم يده إذا غرزه
بإبرة ثم ذر عليها التليخ ، والمراد به هنا المادى - والوشية : العداوة - أى فهيننا لأعدائنا الذين حرقوه
وقالوا من عرضه ، فهو أهل لما قيل فيه : « يرد معاوية بذلك على قول عبيد الله قيل : « ولا تدلق عليه
ألسن كلته حيا ، ونبيته ميتا » .

وَجُسُوراً ^(١) هَا أَوْفِيَا بِهِ عَلَى شَرَفِ التَّقَحُّمِ ^(٢) ، وَغَبَطِ النِّعْمَةَ ، فَذَعَمَاهَا فَقَدْ
أَذْكَرْتَنَا مِنْهُ مَا زَهَّدْنَا فِيكَ مِنْ بَعْدِهِ ، وَبِهِمَا مَشَيْتَ الضَّرَاءَ ، وَاسْتَشْفَتَ النِّضَارَ ،
فَاذْهَبْ ، إِلَيْكَ ، فَأَنْتَ نَجَلُ الدَّعَلِ ^(٣) ، وَنَثَرِ النُّعْلَ ^(٤) ، وَالْأَجْرَ شَرَّ .

٢٦٨ . مقال يزيد بن معاوية

فَقَالَ يَزِيدُ : « يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ لِلشَّاهِدِ غَيْرَ حُكْمٍ الْغَائِبِ ، وَقَدْ حَضَرَكَ
زِيَادٌ ، وَلَهُ مَوَاطِنٌ مَعْدُودَةٌ بِخَيْرٍ ، لَا يُفْسِدُهَا التَّنْظِي ^(٥) ، وَلَا تَنْتِيرُهَا التُّهَمُ ، وَأَهْلَاوَهُ
أَهْلُوكَ التَّحْقُوقَ بِكَ ، وَتَوَسَّطُوا شَأْنَكَ ، فَسَافَرْتُ بِهِ الرُّكْبَانَ ، وَصِمْتُ بِهِ أَهْلَ
الْبُلْدَانِ ، حَتَّى اعْتَقَدَهُ الْجَاهِلُ ، وَشَكَّ فِيهِ الْعَالِمُ ، فَلَا تَنْحَجِّرْ ^(٦) يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
مَا قَدْ أَنْسَمَ ، وَكَثُرَتْ فِيهِ الشَّهَادَاتُ ، وَأَعَانَكَ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ .

فَانْحَرَفَ مَعَاوِيَةُ إِلَى مَنْ مَعَهُ ، فَقَالَ : هَذَا وَقَدْ ^(٧) نَفْسُهُ بَيْنَيْتُهُ ، وَطَلْعُنِي فِي إِمْرَتِهِ ،
يَعْلَمُ ذَلِكَ كَمَا أَعْلَمَهُ ، يَا لَرَجَالٍ مِنْ آلِ أَبِي سَفْيَانَ ! لَقَدْ حَكَمُوا وَبَذَمُوا ^(٨) يَزِيدُ
وَحْدَهُ ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَى عِيْدِ اللَّهِ . فَقَالَ : يَا بَنَ أَخِي ، إِنِّي لَأَعْرِفُ بِكَ مِنْ أَيْيِكَ ،
وَكَأَنِّي بِكَ فِي غَمْرَةٍ لَا يَخْطُوهَا ^(٩) السَّابِجُ ، فَالْزَمِ ابْنَ عَمِّكَ ، فَإِنْ لِمَا قَالَتْ حَقًّا ،
نَفَرَجُوا وَلَزِمَ عِيْدُ اللَّهِ يَزِيدَ يَرِدُ مَجْلِسَهُ ، وَيَطَأُ عَقِيَّةَ أَيَّامَا ، حَتَّى رَتَى بِهِ مَعَاوِيَةُ
إِلَى الْبَصْرَةِ وَالْيَا عَلَيْهَا ^(١٠) . (المقد الفريد ٢ : ١٤٠)

[١] الجسور : الجسارة . [٢] تقحمت به دابته : نذت به وربما طلحت به في وهدة أو وقصت
به ، والفحة كفرقة : النورطة واللولة ، والمراد الترضى للهلاك .
[٣] الخذل والساد . [٤] تَلَّ الْأَدِيمَ تَلًّا : فسد في العياغ ، والمجرح فسد .
[٥] التنظي : إعمال الظن ، وأمله التظن . [٦] أَى فَلَا تَضِيقُ ، تَجِرْ عَلَيْهِ : ضيق ، وتَجِرْ
مَا وَسَمَهُ اللَّهُ : حرَّبه وضيقه ، وفي الحديث : « لَقَدْ تَجَرَّتْ وَاسِعًا » أَى ضِيقَ مَا وَسَمَهُ اللَّهُ ، وَفِي
الْأَصْلِ « فَلَا يَجِرُ » وَهُوَ تَضِيقُ . [٧] فِي الْأَصْلِ « وَفَدَ » وَطَلَعَ وَقَدْ ، يُقَالُ وَقَدْ أَى عَلَيْهِ
وَسَكَتَهُ . [٨] فَاتَمَّ . [٩] فِي الْأَصْلِ « لَا يَخْطُرُهَا » وَأَرَادَ « لَا يَخْطُوهَا » .
[١٠] قَالَ الطَّبْرِيُّ : « وَلَى مَعَاوِيَةَ عِيْدُ اللَّهِ بَنَ زِيَادَ الْبَصْرَةِ سَنَةَ ٥٥ هـ » .

٢٦٩ - وصية المهلب بن أبي صفرة لأبنائه عند موته ^(١)

روى الطبري قال :

لما كَانَ الْمُهَلَّبُ بْنُ أَبِي صُفْرَةَ بَزَاغُولَ مِنْ مَرْوِ الرُّوْذِ (مِنْ خُرَّاسَانَ)
أَصَابَتْهُ الشَّوْصَةُ ^(٢) (وَقَوْمٌ يَقُولُونَ الشَّوْكَةَ ^(٣)) فَدَمَا حَيِّبًا وَمِنْ حَضْرِهِ مِنْ
وَلَدِهِ ، وَدَعَا بِسِهَامٍ فَحَزِمَتْ ، وَقَالَ : أَتَرَوْنَكُمْ كَأَسْرِهَا مَجْتَمِعَةً ؟ قَالُوا : لَا . قَالَ :
أَقْتَرُونَكُمْ كَأَسْرِهَا مَتَفَرِّقَةً ؟ قَالُوا : نَعَمْ . قَالَ : فَهَكَذَا الْجَمَاعَةُ ، فَأَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ
وَصِلَةِ الرَّحِمِ ، فَإِنْ صَلَاةُ الرَّحِمِ تُنْسِي ^(٤) فِي الْأَجَلِ ، وَتُثْرِي الْمَالَ ، وَتُكْثِرُ الْعَدَدَ ،
وَأَنهَاكُمْ عَنِ الْقَطِيعَةِ ، فَإِنَّ الْقَطِيعَةَ تُعْقِبُ النَّارَ ، وَتُورِثُ الذَّلَّةَ وَالْقِلَّةَ ، تَبَاذَلُوا
وَتَوَاصَلُوا تَحَابُّوا ، وَاجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَلَا تَخْتَلَفُوا ، وَتَبَارَكُوا تَجْتَمِعُ أُمُورُكُمْ ، إِنْ بَنَى
الْأُمَمُ يَخْتَلِفُونَ ، فَكَيْفَ بَيْنَ الْعَلَاتِ ^(٥) ؟ وَعَلَيْكُمْ بِالطَّاعَةِ وَالْجَمَاعَةِ ، وَلَتَكُنْ فِئَاكُمُ
أَفْضَلُ مِنْ قَوْلِكُمْ ، فَإِنِّي أَحَبُّ لِلرَّجُلِ أَنْ يَكُونَ لَعَمَلِهِ فَضْلٌ عَلَى لِسَانِهِ ، وَاتَّقُوا
الْجَوَابَ ، وَزَلَّةَ اللِّسَانِ ، فَإِنَّ الرَّجُلَ تَرَلُّ قَدَمِهِ فَيَنْتَمِشُ مِنْ زَلَّتِهِ ، وَيَزُلُّ لِسَانُهُ
فَيَهْلِكُ ، اعْرِفُوا مَنْ يَفْشَاكُمْ حَقَّهُ ، فَكُنْ بِغَدُوِّ الرَّجُلِ وَرَوَاجِهِ إِلَيْكُمْ تَذَكُّرَةً
لَهُ ، وَآثَرُوا الْجُودَ عَلَى الْبَخْلِ ، وَأَجِبُوا الْعَرَبَ ، وَاصْطَنِعُوا الْعَرَبَ ، فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنَ
الْعَرَبِ تَعِدُّهُ الْعِدَّةَ فَيَمُوتُ دُونَكَ ، فَكَيْفَ الصَّنِيعَةُ عِنْدَهُ ؟ وَعَلَيْكُمْ فِي الْحَرْبِ
بِالْأَنَاءَةِ وَالْمَسْكِدَةِ ، فَإِنَّمَا أَنْفَعُ فِي الْحَرْبِ مِنَ الشَّجَاعَةِ ، وَإِذَا كَانَ اللَّقَاءُ تَرَلُّ
الْقِتْضَاءَ ، فَإِنْ أَخَذَ رَجُلٌ بِالْحَزْمِ فَظَهَرَ عَلَى عَدُوِّهِ . قِيلَ : أَتَى الْأَمْرُ مِنْ وَجْهِهِ ،

[١] سترد خطبه إن شاء الله في باب « خطب الخوارج وما يحصل بها » وذكر الطبري أنه توفي سنة ٨٢ هـ ، وابن خلدون أنه توفي سنة ٨٣ هـ ، وكان الحجاج قد وُلد بعد فراغه من حرب الأزارقة على خراسان ، فوردتها وإليها سنة ٧٩ هـ ولم يزل وإليها عليها حتى أدركته الوفاة هناك .

[٢] الشوصة بالفتح وقد ضم الشين : وجع في البطن . [٣] الشوكة : حرة تلو الجسد .

[٤] تؤخر وتهيل . [٥] بنو العلات : بنو أمهات شقي من رجل واحد .

ثم ظفر فحمِد ، وإن لم يظفر بعد الأناة ، قيل : ما فرط ولا ضيع ، ولكن القضاء غالب ، وعليكم بقراءة القرآن ، وتعليم السنن وأدب الصالحين ، وإياكم والخفة وكثرة الكلام في مجالسكم ، وقد استخلفت عليكم يزيد ، وجمعت حبيبا على الجند ، حتى يقدمهم على يزيد ، فلا تخالفوا يزيد . فقال له الفضل : لو لم تقدمه لقد مناه . (تاريخ الطبري ٨ : ١٦ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٤٦ ، واليان واليتيم ٢ : ٩٨)



وعهد إلى ولده يزيد ، فكان من جملة ما قال له :

« يا بُنَيَّ ، استعقل الحاجب ، واستظرف الكاتب ، فإنَّ حاجِبَ الرجل وجهه ، وكاتبه لسانه » ، وكان يقول لبيه : « يا بُنَيَّ أَحْسَنُ ثيابكم ما كان على غيركم » ، ومن كلماته الماثورة قوله : « الحياة خيرٌ من الموت ، والثناء الحسن خير من الحياة ، ولو أعطيت ما لم يُعطه أحد ، لأحييت أن تكون لي أذنُ أسمع بها ما يُقال في غدا إذا ميتٌ » ، وقوله : « عجبت لمن يشتري العبيد بماله ، ولا يشتري الأحرار بإفضاله » . (وفیات الأعيان ٢ : ١٤٦ ، وشرح العيون ١٢٧)

خطب الحجاج بن يوسف الثقفي

(المتوفى سنة ٩٥ هـ)

٢٧٠ — خطبته بمكة بعد مقتل ابن الزبير (سنة ٧٣ هـ)

لما قتل الحجاج عبد الله بن الزبير ، ارتجحت مكة بالبكاء ، فصعد المنبر ، فقال : « ألا إن ابن الزبير كان من أخبار ^(١) هذه الأمة ، حتى رغب في الخلافة

[١] جمع خبر بفتح الميم وكسر المعاء وهو العالم أو العالم .

ونازع فيها ، وخلع طاعة الله ، واستكنَّ بحرم الله ، ولو كان شيء مانعاً للمصاة ، لمنع آدم حرمة الجنة ، لأن الله تعالى خلقه يده ، وأسجد له ملائكته ، وأباحه جنته ، فلما عصاه أخرجه منها بخطيئته ، وآدم على الله أكرم من ابن الزير ، والجنة أعظم حرمة من الكعبة . (شرح البيون ص ١٢٢)

٢٧١ — خطبته حين ولي العراق (سنة ٧٥ هـ)

حدث عبد الملك بن عمير الألباني قال :

بينما نحن في المسجد الجامع بالكوفة ، وأهل الكوفة يومئذ ذوو حال حسنة ، يخرج الرجل منهم في العشرة والعشرين من مَوَالِيهِ ، إِذْ أَتَى آتٍ ، فقال : هذا الحجاج قد قَدِمَ أميراً على العراق ، فإذا به قد دخل المسجد مُتَمَتِّاً بِعِمَامَةٍ قد غطَّى بها أَكْثَرَ وَجْهِهِ ، مُتَقَلِّداً سَيْفًا ، مُتَكَبِّبًا ^(١) قَوْسًا ، يُوْثِمُ الْمَنِيرَ ، فقام الناس نحوه حتى صعد المنبر ، فكث ساعة لا يتكلم ، فقال الناس بعضهم لبعض : قَبِّحَ اللهُ بَنِي أُمِيَّةَ ، حيث تستعمل مثل هذا على العراق ! حتى قال عُثَيْرُ بْنُ ضَابِيٍّ الْبُرُمُجِيُّ : أَلَا أَحْصِيهِ لَكُمْ ؟ فقالوا : أَمْثَلُ حَتَّى نَنْظُرَ ^(٢) ، فلما رأى عيون الناس إليه ، حَسَرَ اللَّثَامَ عَنْ فِيهِ وَنَهَضَ ، فقال :

« أَنَا ابْنُ جَلَا وَطَلَّاعُ الثَّنَائِيَا مَتَى أَضْعُ الْعِمَامَةَ تَعْرِفُونِي ^(٣) »

[١] وروى : أنه خرج يريد العراق واليا عليها في اثني عشر راكبا على النجائب ، حتى دخل الكوفة فجاء حين انتشر النهار ، فبدأ بالمسجد فدخله ، ثم صعد المنبر فقال : علي بالناس ، لحبوه وأصحابه خوارج فهموا به . [٢] تنكب قوسه : أقفاها على منكبيه . [٣] قال ابن نباتة : « فلما سمعوا هذه الخطبة — وكان بعضهم قد أخذ حتى أراد أن يحصبه به — تساقط من أيديهم حرنا وورعا » . [٤] البيت لحجيم ابن وقيل الراعي قاله الحجاج متثلا ، وقوله « أَنَا ابْنُ جَلَا » أي الواضح الأمر للتكشيف ، وقبل ابن جلا الصبح ، لأنه يجلو الظلمة ، وهو مثل يضرب للشهور الساطعة ، أي أَنَا الظاهر الذي لا يخفى ، وكل أحد يعرفني ، ولم ينون جلا لأنه أراد الفصل ، فكفى على ما كان عليه قبل التسمية كقول الناصر :

وَاللَّهِ مَا زِيدَ بَنَامُ صَاحِبِهِ وَلَا تُخَالِطُ الْإِيَّانَ جَانِبُهُ

ثم قال : يا أهل الكوفة ، أنا والله إني لَأَنْجِلُ الشَّرَّ بِحِمْلِهِ ، وأُحْذِوهُ بِعَمَلِهِ ، وَأَجْزِيهِ بِعَمَلِهِ ، وإني لأَرى أَبْصَاراً طامعة ، وَأَعْنَاقاً متطاولة ، ورءوساً قد أَيَّمَتْ وحانَ قِطَافُهَا ، وإني لَصَاحِبُهَا ، وكأني أنظر إلى السماء بين السمام واللحي تَتَرَقُّرُقُ ، ثم قال :

هذا أوان الشَّدِّ فاشتدَّى زَيْمٌ قد لَقَّها الليلُ بِسَوَاقِ حُطَمٍ
ليس يرَاعِي إِيْلَ وَلَا غَمَمٍ ولا يَجْزَارُ على ظَهَرٍ وَصَمٍ ^(١)
ثم قال : قد لَقَّها الليلُ بِعَصَلِيٍّ أَرْوَعَ خَرَّاجٍ مِنَ الدَّوَى
مُهَاجِرٍ ليس بِأَعْرَاقِي ^(٢)
ثم قال : قد شَمَرَتْ عَنْ سَاقِهَا فَشَدُّوا وَجَدَّتِ الحَرْبُ بِكُمْ فَجِدُّوا
والقوسُ فيها وَتَرٌّ عُرْدٌ مثلُ ذِرَاعِ البَكْرِ أَوْ أَشَدُّ
لا بُدَّ مما ليس منه بُدٌّ ^(٣)

وتقديره أنا ابن الذي يقان له جلا الأمور وكشفها ، وقال بعضهم : ابن جلا - وابن أحلى - رجل بينه ، قال في اللسان : « وكان ابن جلا هذا صاحب فكك يطلع في النارات من ثنية الجبل على أهلها » واتنابا جمع تنيبة : وهي الطريق في الجبل ، أراد به أنه جلد يطلع التنايا في ارتفاعها وصعودها ، والساعة : للفر والبيضة قال تلعب : الساعة تلعب في الحرب وتوضع في السلم . [١] الشعر لرويش بن ربيض الصنبري والشد : العدو ، وزيم اسم فرس أو ناقة ، وقيل اسم للحرب ، والحطمة : الرامي الغلوم الماشية يهجم بعضها ببعض ، فد بقى من السير شيط ، وقد ضرب التل برعاة النعم في الحق قيل : « أحق من راعي ضأن ثاين » قال الجاحظ في البيان والبيان ١ : ١٣٩ « فأما استحقاق رعاة النعم في الجملة فكيف يكون ذلك صوابا ؟ وقد رمي النعم عدة من جلة الأنبياء عليهم السلام » ولطوض : كل ما قطع عليه اللحم . [٢] الصلي : الشديد القوي ، والأروع : الذكي ، أو من يسجك بشجاعته ، رالو : والدوية واندأوية وعغنف : الفلاة المتسمة التي تسع لها دوي بالليل « وإنما ذلك الدوى من أخفاف الإبل ، تنفخ أصواتها فيها ، وتحول جهلة الأعراب : إن ذلك حريف الجن » أي خراج من كل غمام شديدة ، وهجر الرجل : خرج من البلد إلى اللد ، والأعرابي بطبيعته غمر ساذج ليس في تحريته كأهل اللد . وسيرد عليك إن شاء الله في الجزء الثالث في خطبة أبي بكر بن عبد الله بالمدنية :

« إني لست أناوتيا أعلم ، ولا بدوتيا أنهم » .

[٣] جد به الأمر : اشتد ، وعرد : أي شديد ، والبكر : الفتي من الإبل ، ولا بد من كذا : أي لا يجيد منه .

إِنِّي وَاللَّهِ يَا هَلِ الْعِرَاقُ ، وَمَتَدِدَ الشَّقَاقُ وَالنَّفَاقُ ، وَمَسَاوَى الْأَخْلَاقِ ،
مَا يَقْتَضِعُ لِي بِالشَّانِ (١) ، وَلَا يُغْنِي جَانِبِي كَتِفَازِ التِّينِ ، وَلَقَدْ قُرِرتُ (٢) عَنْ
ذِكَا ، وَفُتِّشتُ عَنْ تَجْرِيبَةِ ، وَجَرِيتُ إِلَى الْغَايَةِ الْقُصْوَى ، وَإِنْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
— أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ — نَزَرَكِنَاثَهُ (٣) ، بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَعَجَمَ (٤) عِيدَانَهَا ، فَوَجَدَنِي
أَمْرَهَا عُودًا ، وَأَصْلِبَهَا مَكْسِيرًا (٥) ، فَمَا كَمِ بِي ، لِأَنْكُم طَالَمَا أَوْضَعْتُمْ (٦) فِي الْفِتَنِ ،
وَاضْجَطَعْتُمْ فِي مَرَاقِدِ الضَّلَالِ ، وَسَنَنْتُمْ سُتُنَ النَّتَى ، أَمَا وَاللَّهِ لَأَلْخُوزَكُمُ (٧) لَحَوِ
العَصَا ، وَلَا فَرَعَكُمْ قَرْعَ الْمَرْوَةِ (٨) ، وَلَا عَصِبَكُمْ عَصَبَ السَّلْمَةِ (٩) ، وَلَا ضَرَبَكُمْ
ضَرْبَ غَرَابِ الْإِبِلِ (١٠) ، فَإِنْكُمْ لَكَأَهْلُ قَرْيَةٍ كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً ، يَأْتِيهَا
رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ ، فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ
وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ، وَإِنِّي وَاللَّهِ لَا أَعِدُّ إِلَّا وَفِيَّتْ ، وَلَا أَهْمُ إِلَّا
أَمْضِيَّتْ ، وَلَا أَخْلُقُ (١١) ، إِلَّا فَرِيَّتْ ، فَإِيَّايَ وَهَذِهِ الشَّغْمَاءُ ، وَالزَّرَافَاتِ (١٢)
وَالْجَلَاعَاتِ ، وَقَالَ وَقِيلَا (١٣) ، وَمَا تَقُولُ ؟ وَفِيمَ أَنْتُمْ وَذَلِكَ ؟ أَمَا وَاللَّهِ لَتَسْتَقِيمُنَّ

[١] القمعة : تحريك الشيء اليابس الصلب مع صوت مثل السلاح وغيره ، والشان جمع شن بالفتح : وهو القرية البالية ، وهم يحركونها إذا أرادوا حث الإبل على السير لتفزع فتسرع ، مثل يضرب لمن لا يروعه ما لا حقيقة له ، وقد يمتثل به مملوكة من قبله .

[٢] فر الدابة : فتح حنكها وكشف أسنانها لينظر سنها ، وفر عن الأمر : بحث عنه .

[٣] الكتانة جبة السهام ، وفي رواية : « كَبَ كَاتَهُ » أى قلبها . [٤] عجم الود : عضه ليعرف صلابته من خوره . [٥] وفي رواية « وَأَصْلَبَهَا عَمِدًا » . [٦] أَوْضَعَ إِضَاعًا : أَسْرَعَ فِي سِرِّهِ كَوْضَعِ . [٧] لِمَا الْعَصَا : قَشَرَهَا ، وفي رواية : « لِحَوِ الْوَدِ » .

[٨] الرو : حجارة بيض برّاقة تورى النار . [٩] اللعة : شجر كثير الشوك . قال الملاحظ في البيان والبيان « لِأَنَّ الْأَشْجَارَ تَصُوبُ أَغْصَانَهَا ، ثُمَّ تَحِيطُ بِالْعَصَى لِقُوطِ الْوَرَقِ وَهَسِيمِ الْبِيدَانِ » (٣ : ٢١) . [١٠] قال الملاحظ أيضا : (٣ : ٢٧) « وَهِيَ تَقْرُبُ عِنْدَ الْهَرَبِ ، وَتَعْتَدُ الْخِلَاطَ ، وَعِنْدَ الْمَوْضِ أَشَدَّ الضَّرْبِ » وقال الحارث بن سخر :

يَضْرِبُ يَزِيلُ الْهَامَ عَنْ سِكَانِهِ كَمَا ذِيْدُ عَنْ مَاءِ الْحِيَاضِ الْفَرَاثِ .

[١١] أَخْلُقُ : أَقْدَرُ ، وَفَرِيَّتْ : قَطَعَتْ . [١٢] التَّغْصَاءُ جَمْعُ شَفِيعٍ ، وَكَانُوا يَجْتَمِعُونَ إِلَى السُّلْطَانِ فَيَقِفُونَ فِي أَصْحَابِ الْجُرْأَمِ ، فَتَهَامُ عَنْ ذَلِكَ ، وَالزَّرَافَاتُ جَمْعُ زُرَافَةٍ يَهْتَجِ الْزَايَ وَضَمُّهَا : الْجَمَاعَةُ مِنَ النَّاسِ . [١٣] الْقَوْلُ فِي الْخَيْرِ ، وَالْقَالِ ، وَالْقِيلِ ، وَاتَّقَالَةُ فِي الْفَرِّ .

على طريق الحق ، أولاد عن لكل رجل منكم شُغلا في جسده ، وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم ^(١) ، وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة ^(٢) ، وإني أقسم بالله لا أجد رجلا تخلف بمد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا سَفَكَتُ دمه ، وأَنْهَيْتُ ^(٣) ماله ، وهدمت منزله .

(الكامل المبرد ١ : ١٨١ ، واليانواليتين ٢ : ١٦٤ ، والقند الفريد ٢ : ١٥٣ - ٧ : ٣ ، وتاريخ الطبري ٧ : ٢١٠ ، وصحح الأعشى ١ : ٢١٨ ، وعيون الأخبار ٢ : ص ٢٤٤ ، ومروج الذهب ٢ : ١٣٢ ، ومعاهد التنصيص ١ : ١١٥ ، والكامل لابن الأثير ٤ : ١٥٦ ، وسرح السيوطي ١١٦)

٢٧٢ - خطبته وقد سمع تكبيرا في السوق

فلما كَانَ اليوم الثالث خرج من القصر ، فسَمِعَ تكبيرا في السوق ، فزاعه ذلك ، فصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على نبيه ، ثم قال :

« يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ ، يَا أَهْلَ الشَّقَاقِ وَالنَّفَاقِ ، وَمَسَاوِي الْأَخْلَاقِ ، وَبَنِي الْأَكْبِيَعَةِ ^(١) ، وَعَبِيدَ الْعَصَا ، وَأَوْلَادَ الْإِمَاءِ ، وَالْفَقْعَ بِالْقَرْقَرِ ^(٢) ، إني سمعت تكبيرا لَا يُرَادُ اللهُ بِهِ ، وَإِنَّمَا يُرَادُ بِهِ الشَّيْطَانُ ^(٣) أَلَا إِنَّهَا عَجَاجَةٌ تَحْتَهَا قَصْفٌ ^(٤) ، وَإِنَّمَا مَثَلِي وَمِثْلُكُمْ مَا قَالَ عَمْرُو بْنُ بَرَّاقٍ الْهَمْدَانِيُّ :

وَكُنْتُ إِذَا قَوْمٌ غَزَوْنِي غَزَوْتُهُمْ فَمَلْأْنَا فِي ذَايَا لِهَمْدَانٍ ظَلَمُ !
مَتَى تَجْمَعُ الْقَلْبَ الذِّكْرُ وَصَارِمًا وَأَتَقَا حِمِيًّا تَجْتَنِبُكَ الْمَظَلَمُ

[١] أعطيات جمع أعطية ، وهي جمع عطاء . [٢] قائد الجيوش : الذي لحرب الحوارج الأزارقة ، وقتل شوكتهم ، وسبأ . [٣] جعلته نبيا يشار عليه .

[٤] الكنية . [٥] القرقر : أرض مطشنة لينة ، والفقع ويكر : البيضاء الرخوة من الكدنة ، ويقال للذليل هو أذل من قع بقرقر ، لأنه لا يمنع على من اجتده ، أو لأنه يوطأ بالأرجل .

[٦] وفي رواية : « إني سمعت تكبيرا ليس بالتكبير الذي يراد الله به في التزغيب ، ولكنه التكبير الذي يراد به الترهيب » . [٧] البجاج : النار ، والقصف : شدة الريح .

أما والله لا تفرغ عصا عصا إلا جعلتها كأمس الذابر^(١) .

(البيان والبيان ٢ : ٦٩ — ١ : ٢٠٩ ، والقند الفريد ٢ : ١٥٢ ، وإيجاز القرآن ١٢٤ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ١١٤ ، وتاريخ الطبري ٧ : ٢١٢ ، وتهذيب الكمال ١٩٠ : ١٩٠)

٢٧٣ — خطبته وقد قدم البصرة

وخطب لما قدم البصرة يتهدد أهل العراق ويتوعدهم فقال :

« أيها الناس : من أعياه داؤه ، فمندی دواؤه ، ومن استطال أجله ، فقل أن أعجله ، ومن ثقل عليه رأسه ، وضمت عنه ثقله ، ومن استطال ماضيه ، عُمِرْه ، قَصَرْتُ عليه باقيه ، إن للشيطان طيفا ، وللسلطان ستيفا ، فمن سَقِمت سريره ، صَحَّتْ عُقُوبَتُهُ ، ومن وضعه ذنبه رفعه صلبه ، ومن لم تسمه العافية ، لم تضيق عنه الهلاك ، ومن سبقته بادرة فمه ، سبق بدته بسفك دمه ، إني أنذِرُكم لا أنظر^(٢) ، وأحذِرُكم لا أعذر ، وأتوعدكم لا أعفو ، إنما أفسدكم تزيين^(٣) ، ولأتكم ، ومن استرخى لبيته^(٤) ، ساء أدبه ، إن الحزم والعزم سلباني سَوَاطِي^(٥) ، وأبدلاني به سيفي ، فتاعته في يدي ، ونجاده^(٦) في عنقي ، وذبابه^(٧) قِلَادَةٌ لمن عصاني ، والله لا آمرُ أحدكم أن يخرج من باب من أبواب المسجد ، فيخرج من الباب الذي يليه ، إلا ضربت عنقه . »

(نهاية الأرب ٧ : ٢٤٤ ، صبح الأعشى ١ : ٢٢٠ ، وشرح البيون ١٢٢)

[١] وفي رواية الطبري خاصة : « ألا يرمع رجل منكم على ظلمه ، ويمسحن حقن دمه ، ويعبر موضع قدمه ، فأقسم بالله لأوشك أن أوقع بكم وقعة تكون نكالا لما قبلها ، وأدبا لما بعدها » — يرمع (كيمع) يقف ويبتظر ، والظلع (كئسس) : الفتر في اللقي ، ويقال : لرمع على ظلمك ، أي إلك ضيف ، فاته عما لا تطيقه . [٢] أنظره : أهله .

[٣] التزيين : الضف في الأمر (وفي البدن والبصر أيضا) . [٤] اللب : ما يشد في صدر الدابة لينع استثمار الرجل ، والمراد أن الهوادة واللين تعمد أدب الرعية . [٥] هكنا في نهاية الأرب ، وفي صبح الأعشى : « سكتا في وسطى » والأول أصح ، أي أنه رأى من الحزم ، والعزم : البالغة في استصصال الشدة ، والافتة في التأديب ، فطرح السيط ، واستقبل به مامو اشد منه وهو السيف .

[٦] النجاد : علاة السيف . [٧] ذئلب السيف : حده .

٢٧٤ - خطبته بعد وقعة دير الجماجم^(١)

وخطب أهل المراق بعد وقعة دير الجماجم فقال :

« يَا أَهْلَ الْمَرَاقِ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ اسْتَبْطَنَكُمْ ، غَالَطَ اللَّحْمَ وَالسَّمَّ وَالْعَصَبَ ، وَالسَّاعِ وَالْأَطْرَافَ ، وَالْأَعْضَاءَ^(٢) وَالشَّتَافَ^(٣) ، ثُمَّ أَقْضَى إِلَى الْمِخْلَاحِ^(٤) وَالْأَصْمَاحِ ، ثُمَّ ارْتَفَعَ فَمَشَتْشَ ، ثُمَّ بَاضَ وَفَرَّخَ ، فَحَشَاكُمْ تَفَاقًا وَشِقَاقًا ، وَأَشْمَرَكُمْ خِلَافًا ، اتَّخَذْتُمُوهُ دَلِيلًا تَتَّبِعُونَهُ ، وَقَائِدًا تُطِيعُونَهُ ، وَمُؤَامِرًا^(٥) تَسْتَشِيرُونَهُ ، فَكَيْفَ تَنْفَعُكُمْ تَجْرِبَةُ ، أَوْ تَعْظِمُكُمْ وَقْعَةُ ، أَوْ يَحْجِزُكُمْ إِسْلَامٌ ، أَوْ يَنْفَعُكُمْ بَيَانٌ ؟ أَلَسْتُمْ أَصْحَابِي بِالْأَهْوَازِ^(٦) ؟ حَيْثُ رُمْتُمْ الْمَكْرَ ، وَسَعَيْتُمْ بِالْفَنْدَرِ ،

[١] وقعة دير الجماجم : هي وقعة وقعت بين المجاج وبين عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث قرب الكوفة سنة ٨٤ هـ هزم فيها ابن الأشعث ، وذلك أن عبيد الله بن أبي بكره عامل المجاج على سبستان كال قد غزا رتييل ملك الترك ، وأوغل في بلاده فأصبوا ، وهلك أكثرهم ، فوجه المجاج إلى رتييل ابن الأشعث على رأس جيش عظيم لمحاربه ، فسار إليه وامتنك بعض بلاده ، وكان يرى أن يندرج في الفتح ، فينتصمهم في كل عام طائفة من أرضهم ، ولا يتوغل في بلادهم لكيلا يمرض جيشه للدمار والمهلكة ، وكتب إلى المجاج بذلك ، فأبى عليه المجاج ، وكتب إليه يصف رأيه وأمره بالتوغل في أرضه . وإلا عزله ، وكان من جراء ذلك أن بايع الجند ابن الأشعث على خلع المجاج وقتلوه ثم خلع عبد الملك بن مروان ، وسار ابن الأشعث بهم من سبستان إلى المراق ، وتجهز المجاج لقتاله ، فسار بأهل الشام حتى نزل نستر (مدينة بالأهواز) فانتهزمت مقدمته ، فرجع إلى البصرة حتى نزل الزاوية (موضع قرب البصرة) ودارت رحى الحرب بين الفريقين هزم أهل المراق أهل الشام . فقتل المجاج على ركبته واتضح نحو شهر من سيفه ، واستمد للقاء الموت كرمًا ، فدرت بذلك قلوب جنده واستقبلوا حتى كان لهم النصر . وانهمز ابن الأشعث ، فأقبل نحو الكوفة ، حتى هزم هزيمة منكرة بدير الجماجم وتبدد أمره ، وفر إلى فارس حتى نزل مدينة بست ، فسمع رتييل بتقدمه فأنزله عنده وأكرمه ، فكتب المجاج إلى رتييل يأمره أن يبعث إليه بابن الأشعث ويؤجله إن لم يفعل ، فأراد رتييل أن يرسله إليه ، فقتل ابن الأشعث نفسه بأن ألقى نفسه من فوق قصر ، فقاتل فاحترق رتييل رأسه ، وبسببه إلى المجاج سنة ٨٥ هـ . [٢] في القيد الفريد (والأعضاء) .

[٣] الشفاف : غلاف القلب أو جنته .

[٤] رواية نهاية الأرب « المخلخ » وهو الوارد في كتب اللغة : مخ يجمع على مخاخ ومخخة (كسبة) ، أما سائر المصادر التي روت هذه الخطبة ، فزويها (الأنخاخ) ، وهو ما لم أراه في كتب اللغة . وقد روت جميع المصادر « الأصمخ » بهذا النس ، والذي في كتب اللغة : « الصمخ من الأذن المرقق الباطن القوي يفضى إلى الرأس جمع أصمخ وصمخ ، ومثل الصمخ الأصمخ كصفور ، وجمعه أصمخ ، فصواب الكلمة « الصمخ » أو « الأصمخ » .

[٥] أمره في كذا مؤامرة : شاوره . [٦] ينهر إلى وقعة « نستر » .

واستجمعتم للكفر ، وظننتم أن الله يخذل دينه وخلافته ، وأنا أرىكم بطرفي ، وأنتم تنسللون لؤاذاً^(١) ، وتهزمون سراعاً ؟ ثم يوم الزاوية ، وما يوم الزاوية ! بها كان فشلكم وتنازعكم وتحاذلكم ، وبراءة الله منكم ، وتكوص وليكم عنكم ، إذ ولّيتهم كالإبل الشوارد إلى أوطانها ، التوازع إلى أعطانها^(٢) ، لا يسأل المرء عن أخيه ، ولا يلوى^(٣) الشيخ على بنيّه ، حتى عضّكم^(٤) السلاح ، وقصّتم الرماح ، ثم يوم دِير الجاجم ، وما يوم دِير الجاجم ! بها كانت المارك والملاحم^(٥) ، بضرب يُزيل الهام^(٦) ، عن مَقيله^(٧) ، وَيَذْهَلُ الخليل عن خليله ، يأهل العراق ، والكفّرات بعد الفجرات ، والعدّرات بعد الحترات^(٨) ، والنزوات^(٩) بعد النزوات ، إن بعثكم إلى ثغوركم غلّتم^(١٠) وخُتتم ، وإن أمّتم أوجفتم ، وإن خِفتم نافقتم ، لا تذكرون حسنة ، ولا تشكرون نعمة ، هل استخفكم ناكث ، أو استغواكم غار ، أو استنصركم ظالم ، أو استعضدكم^(١١) خالع ، إلا تبعتموه وآويتموه ، ونصرتموه وزكّيتموه ؟ يأهل العراق ، هل شغب شاعب ، أو نمب ناعب ، أو زفر زافر ، إلا كنتم أتباعه وأنصاره ؟ يأهل العراق : ألم تنهكُم المواعظ ، ألم تزجرُكم الوقائع ؟ .

ثم التفت إلى أهل الشام وهم حول المنبر ، فقال : « يأهل الشام ، إنما أنا

- [١] أى يلوذ بعضهم ببعض : لاوذ لؤاذاً وملادقة . [٢] أعطان جمع عطن كعيب : مبرك الابل حول الخوض كالطعن ، وتوازع : أى متنافة . [٣] لا يلوى على أحد ، أى لا يقف ولا ينتظر . [٤] فى نهاية الأرب « عضّكم » بالظاء ، طعنه الحرب كعضته بالفاد . [٥] جمع ملحمة وهى الوقعة العظيمة القتل . [٦] جمع هامة وهى الرأس . [٧] موضع ، أى الأعناق ، قاله الشاعر :
بضرب بالسيف رموس قوم أزلنا هامهم عن القيل
- [٨] جمع خثرة ، والخثر كشس : النمر والحديمة أو أقيح الفعر . [٩] جمع نزوة من نزا نروانا أى ونب . [١٠] غل كنصر غلولا : خان . [١١] استعضده : سأله أن يصده .

لَكُمْ كَالظَّلِيمِ^(١) الرامح عن فراخه ، يَنْقِي عَنْهَا الْمَدَرُ^(٢) ، وَيَبَاعِدُ عَنْهَا الْحَجَرَ ، وَيَكْثُهَا مِنَ الْمَطَرِ ، وَيَحْمِيهَا مِنَ الضَّبَابِ^(٣) ، وَيَحْرُسُهَا مِنَ الذَّنَابِ ، يَأْهَلُ الشَّامَ ، أَنْتُمْ الْجَنَّةَ وَالرَّدَاءَ ، وَأَنْتُمْ الْمُدَّةَ وَالْحِذَاءَ .

(البيان والتبيين ٢ : ٧١ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٤٥ ، والقصد الفريد ٢ : ١٥٢ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ١١٤ ، ومروج الذهب ٢ : ١٣٥)

٢٧٥ — خطبة أخرى له في أهل الكوفة وأهل الشام

وخطب فقال :

« يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ ، إِنْ الْفِتْنَةُ تُلْقَحُ بِالنَّجْوَى^(٤) ، وَتُنْتَجِجُ بِالشَّكْوَى ، وَتَحْصَدُ بِالسَّيْفِ ، أَمَا وَاللَّهِ إِنْ أَبْغَضْتُمُونِي لَا تَصْرُونِي ، وَإِنْ أَحْبَبْتُمُونِي لَا تَنْفَعُونِي ، وَمَا أَنَا بِالْمُسْتَوْحِشِ لِعِدَاؤِكُمْ ، وَلَا الْمُسْتَرْحِجِ إِلَى مَوَدَّتِكُمْ ، زَعَمْتُ أَنِّي سَاحِرٌ ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « وَلَا يَفْلِحِ السَّاحِرُ » . وَقَدْ أَفْلَحْتُ ، وَزَعَمْتُ أَنِّي أَعْلَمُ الْأَسْمَ الْأَكْبَرَ ، فَلِمَ تَقَاتِلُونَ مَنْ يَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ؟ » .

ثم التفت إلى أهل الشام فقال : « لَا زَوَاجُكُمْ أَطِيبُ مِنَ الْمَسْكَ ، وَلَا بَنَاؤُكُمْ أَنْسُ بِالْقَلْبِ مِنَ الْوَلَدِ ، وَمَا أَنْتُمْ إِلَّا كَمَا قَالَ أَخُو بَنِي ذِيَّانَ :

إِذَا حَاوَلْتَ فِي أَسَدٍ فُجُورًا فَإِنِّي لَسْتُ مِنْكَ وَلَسْتَ مِنِّي

هُمْ دِرْعِي الَّتِي اسْتَلَّامْتُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْفَسَارِ وَهُمْ يَحْجِي^(٥)

ثم قال : « بَلْ أَنْتُمْ يَا أَهْلَ الشَّامِ كَمَا قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ : « وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِمِبَادِنَا الرُّسُلَيْنِ ، إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ، وَإِنْ جُنَدُنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ » . ثُمَّ تَرَلَّ .

(شرح ابن أبي الحديد ١ : ١١٥)

[١] ذكر النمام ، والرامح أي الدافع من رعه أي طعنه بالرمح . [٢] قطع الطين اليابس .

[٣] جمع ضباب ، وهو حيوان كالزُّعَّة والحرياء . [٤] النجوى : للسَّارة .

[٥] استلَّام : لبس الأثمة ، وهي الفروع ، الفسار : ما لبس طاهره يوم ، والمجن : القرس .

٢٧٦ - خطبة له بالبصرة

وخطب بالبصرة ، فقال :

قال الله تعالى : « فَأَتَقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ » ، فهذه لله ، وفيها مثوبة ^(١) ، وقال : « وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا » ، وهذه لعبد الله ، وخليفة الله ، وحبيب الله ، عبد الملك ابن مروان ، أما والله لو أمرت الناس أن يأخذوا في باب واحد ، فأخذوا في باب غيره ^(٢) ، لكانت دماؤهم لي حلالا من الله ، ولو قتل ربيعة ومضر لكان لي حلالا . « عذيري ^(٣) من أهل هذه الحميراء ، يرى أحدم بالحجر إلى السماء ويقول : يكون إلى أن يقع هذا خير ^(٤) ، والله لأجعلنهم كالرسم ^(٥) الدائر ، وكالأس الفابر ، عذيري من عبد هذيل يقرأ القرآن كأنه رَجَز الأعراب ، أما والله لو أدركته لضربت عنقه - يعني عبد الله بن مسعود ^(٦) - ، عذيري من سليمان بن داود ، يقول لربه : « رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي » كان والله - فيما علمت - عبداً حَسُوداً بخيلاً .

(مروج الذهب ٢ : ١٤٣ ، والقند الفريد ٢ : ١٥٢)

٢٧٧ - خطبة أخرى له بالبصرة

حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« إن الله كفانا مَثُونة الدنيا ، وأمرنا بطلب الآخرة ، فليتة كفانا مَثُونة الآخرة وأمرنا بطلب الدنيا ، مالى أرى علماء كم يذهبون ، وجهالكم لا يتعلمون ،

[١] ثواب . [٢] وفي مروج الذهب : « لو أمر الناس أن يدخلوا في هذا الشعب ، فدخلوا في غيره » ولا ذهب بالكسر : سبيل الماء في بطن الأرض ، والطريق في الجبل . [٣] العذير : العاذر والتعذر ، والحال التي تحاولها تفعل عليها . [٤] وفي مروج الذهب : « يبقى أحدم الحجر إلى الأرض ويقول : إلى أن يلحقها يكون نرج الله » . [٥] الرسم : الامر أو بغيته ، والناظر : الدارس المحو . [٦] هو من بني هذيل .

وَشِرَارِكُمْ لَا يَتُوبُونَ؟ مَالِي أَرَأَيْتُمْ تَحْرُصُونَ عَلَى مَا كُفَيْتُمْ ، وَتَضِيعُونَ مَا بِهِ أُمِرْتُمْ ؟
 إِنَّ الْعِلْمَ يَوْشِكُ أَنْ يُرْفَعَ ، وَرَفَعَهُ ذَهَابُ الْعُلَمَاءِ ، أَلَا وَإِنِّي أَعْلَمُ بِشِرَارِكُمْ مِنْ
 الْبَيْطَارِ بِالْفَرَسِ ، الَّذِينَ لَا يَقْرءُونَ الْقُرْآنَ إِلَّا هَجْرًا ^(١) ، وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا
 دُبْرًا ^(٢) ، أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا عَرَضٌ حَاضِرٌ ، يَأْكُلُ مِنْهَا الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ ، أَلَا وَإِنَّ
 الْآخِرَةَ ، أَجَلَ مُسْتَأْخِرٍ ، يَحْكُمُ فِيهَا مَلَكٌ قَادِرٌ ، أَلَا فَاعْمَلُوا وَأَنْتُمْ مِنَ اللَّهِ عَلَى حَذَرٍ ،
 وَاعْمَلُوا أَنْتُمْ مُلَاقُوهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا ، وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا
 بِالْحُسْنَى ، أَلَا وَإِنَّ الْخَيْرَ كُلَّهُ بِحَذَائِرِهِ فِي الْجَنَّةِ ، أَلَا وَإِنَّ الشَّرَّ كُلَّهُ بِحَذَائِرِهِ فِي
 النَّارِ ، أَلَا وَإِنَّ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ،
 وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ ^(٣) . (المَعْدُ الْفَرِيدُ ٢ : ١٥٣)

٢٧٨ — خطبته في أهل العراق يصارحهم بالكراهية

وخطب أهل العراق ، فقال :

« يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ : إِنِّي لَمْ أَجِدْ دَوَاءَ أَدْوَى لِدَائِكُمْ ، مِنْ هَذِهِ الْمَغَازِي وَالْبَعُوثِ ،
 لَوْلَا طِيبُ لَيْلَةِ الْإِيَابِ ، وَفَرَحَةُ الْفَقَلِ ^(١) ، فَإِنِّي تَعْقِبُ رَاحَةً ، وَإِنِّي لَا أُرِيدُ
 أَنْ أَرَى الْفَرْحَ عِنْدَكُمْ ، وَلَا الرَّاحَةَ بِكُمْ ، وَمَا أَرَأَيْتُمْ إِلَّا كَارِهِينَ لِمَقَالَتِي ، وَأَنَا
 وَاللَّهِ لَرُؤْيَاكُمْ أَكْرَهُ ، وَلَوْلَا مَا أُرِيدُ مِنْ تَنْفِيزِ طَاعَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِيكُمْ ، مَا حَمَلْتُ
 نَفْسِي مَقَاسَاتِكُمْ ، وَالصَّبْرَ عَلَى النَّظَرِ إِلَيْكُمْ ، وَاقَّةً أَسْأَلُ حَسَنَ الْعَوْنِ عَلَيْكُمْ ،
 ثُمَّ نَزَلَ . (المَعْدُ الْفَرِيدُ ٢ : ١٥٣)

[١] أَيُ هِجْرًا لَهُ وَتَرَكَ ، وَهِيَ أَنَّهُمْ لَا يَقْرءُونَ ، وَلَا يَتْلُونَ . [٢] الدُّبْرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ : عَقِبُهُ
 وَمُؤَخَّرُهُ ، أَيُ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا فِي آخِرِ وَقْتِهَا .
 [٣] وَذَكَرَ صَاحِبُ الْمَعْدُ أَيْضًا هَذِهِ الْخُطْبَةَ مِنْ قَوْلِهِ : « أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا عَرَضٌ حَاضِرٌ » إِلَى آخِرِهَا
 وَعَرَّاهَا إِلَى شَدَادِ بْنِ أَوْسٍ الطَّائِي . انْظُرِ الْمَعْدُ الْفَرِيدُ ٢ : ١٥٨ .
 [٤] الرَّجُوعُ .

٢٧٩ - خطبة أخرى

وخطب أهل العراق ، فقال :

« يا أهل العراق ، بلغني أنكم تَرَوُونَ عن نبيكم أنه قال : « مَنْ مَلَكَ عَلَى عَشْرَ رِقَابٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، جِئَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَغْلُولَةً يَدَاهُ إِلَى عُنُقِهِ ، حَتَّى يَفْكَهُ الْمَدْلُ ، أَوْ يُوقِعَهُ الْجَوْزُ » . وَابْتِغَاءُ اللَّهِ إِنِّي لِأَحَبُّ إِلَيْكَ أَنْ أُخْشَرَ مَعَ أَبِي بَكْرٍ وَعَمْرٍ مَغْلُولًا ، مِنْ أَنْ أُخْشَرَ مَعَكُمْ مُطْلَقًا » . (النقد النريد ٣ : ١٧)

٢٨٠ - خطبته لما مات عبد الملك بن مروان

ولما مات عبد الملك بن مروان ، قام فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى نَعَى نَبِيَكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى نَفْسِهِ فَقَالَ : « إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِيَّاهُمْ مَيِّتُونَ » ، وَقَالَ : « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ » . فَاتَّخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَمَاتَ الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ الْمُهْتَدُونَ الْمُهْدِيُونَ ، مِنْهُمْ أَبُو بَكْرٍ ، ثُمَّ عُمَرُ ، ثُمَّ عِثْمَانُ الشَّهِيدُ الْمَظْلُومُ ، ثُمَّ تَبِعَهُمْ مُعَاوِيَةُ ، ثُمَّ وَلِيَكُمْ الْبَازِلُ ^(١) اللَّهُ كَرَّ ، الَّذِي جَرَّبَتْهُ الْأُمُورُ ، وَأَحْكَمَتْهُ التَّجَارِبُ ، مَعَ الْفَقْهِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ ، وَالْمُرُوءَةِ الظَّاهِرَةِ ، وَاللِّينِ لِأَهْلِ الْحَقِّ ، وَالْوَطْءِ لِأَهْلِ الزِّنْغِ ، فَكَانَ رَابِعًا مِنَ الْوَلَاةِ الْمُهْدِيَةِ الرَّاشِدِينَ ، فَاخْتَارَ اللَّهُ لَهُ مَا عِنْدَهُ ، وَأَلْحَقَهُ بِهِمْ ، وَعَهَّدَ إِلَى شَبْهِهِ فِي الْعَقْلِ وَالْمُرُوءَةِ وَالْحَزَمِ وَالْجَلْدِ وَالْقِيَامِ بِأَمْرِ اللَّهِ وَخِلَافَتِهِ ، فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا .

أَيُّهَا النَّاسُ ، إِيَّاكُمْ وَالزِّنْغَ ، فَإِنَّ الزِّنْغَ لَا يَحْقِيقُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ، وَرَأَيْتُمْ سِيرَتِي فِيكُمْ ، وَعَرَفْتُ خِلَافَكُمْ وَطَبِيعَكُمْ ، عَلَى مَعْرِفَتِي بِكُمْ ، وَلَوْ عَلِمْتُ أَنَّ أَحَدًا أَقْوَى

عليكم منى ، أو أعرف بكم ، ما وليتكم ، فإياي وإياكم ، من تكلم قتلناه ، ومن
سكت مات بدأته غمماً » ثم نزل . (القدر الفريد ٢ : ١٥٤)

٢٨١ - خطبته حين أراد الحج

وأراد الحجاج أن يحج ، فاستخلف محمداً ولده على أهل العراق ، ثم
خطب فقال :

« يا أهل العراق ، يا أهل الشقاق والنفاق ، إني أريد الحج ، وقد استخلفت
عليكم ابني محمداً ، هذا وما كنتم له بأهل ، وأوصيته فيكم بخلاف ما أوصى به
رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأنصار ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم
أوصى أن يُقبل من مُحْسِنِهِمْ ، وأن يُتجاوز عن مُسيئِهِمْ ، وإني أمرته ألا يقبل
من محسنكم ، ولا يتجاوز عن مسيئكم ، ألا وإنكم ستقولون بمدى مقالة
ما يمنعكم من إظهارها إلا مخافتى : ألا وإنكم ستقولون بمدى : لا أحسن الله له
الصداقة ، ألا وإني مُعجل لكم الإجابة : لا أحسن الله الخلافة عليكم » ثم نزل .
(عبون الأخبار ٢ : ٢٤٥ ، والقدر الفريد ٢ : ١٥٣ - ١٨ : ٣ ، والبيان والبيان ١ : ٢٠٦ ،
ومروج الذهب ٢ : ١٤٤ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ١١٤)

٢٨٢ - خطبته لما أصيب بولده محمد وأخيه محمد في يوم واحد

قال صاحب القدر : فلما كان غداة الجمعة مات محمد بن الحجاج ، فلما كان بالمشي
أتاه برّيد من اليمن ب وفاة محمد وأخيه ، ففرح أهل العراق ، وقالوا : انقطع ظهر
الحجاج وهيض ^(١) جناحه ، ففرج فصعد المنبر ، ثم خطب الناس ، فقال :

« أيها الناس : محمدان في يوم واحد ! أما والله ما كنت أحب أنهما معي
في الحياة الدنيا ، لما أرجو من ثواب الله لهما في الآخرة ، وإيم الله ليوشكن

الباقى منى ومنكم أن يَفْتَنَ ، والجديدُ أن يَلِي ، والحى منى ومنكم أن يموت ، وأن تُذال^(١) الأرض مِنَّا كما أدلنا منها ، فَنَأْكُلَ من لحومنا ، وتشرب من دمائنا ، كما مشينا على ظهرها ، وأكلنا من ثمارها ، وشربنا من مائها ، ثم نكون كما قال الله تعالى : « وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ^(٢) » ثم تمثل بهذين البيتين :

عَرَأَى نَبِيُّ اللَّهِ مِنْ كُلِّ مِيتٍ وَحَسَبَى ثَوَابُ اللَّهِ مِنْ كُلِّ هَالِكٍ
إِذَا مَا لَقِيتُ اللَّهَ عَنِ رَاضِيَا فَإِنْ سُرُورَ النَّفْسِ فِيمَا هُنَاكَ
(الحد الفريد ٢ : ١٥٤ - ٣ : ١٨ ، وشرح الميوز ص ١٢٢)

٢٨٣ - خطبته وقد أرجف أهل العراق بموته

ومرض الحجاج ففرح أهل العراق ، وأرجفوا بموته ، فلما بلغه تحامل حتى صعد المنبر فقال :

« إن طائفة من أهل العراق ، أهل الشقاق والنفاق ، نَزَع^(٣) الشيطان بينهم فقالوا : مات الحجاج ، ومات الحجاج فَهَ ؟ وهل يرجو الحجاج الخير إلا بعد الموت ؟ والله ما يسُرَّنِي إِلَّا أَمُوتَ ، وأنَّ لى الدنيا وما فيها ، وما رأيت الله رَضِيَ بِاتِّخْلِيدٍ إِلَّا لَأَهْوَنَ خَلْقِهِ عَلَيْهِ إِبْلِيسُ ، قال : أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ، قال : إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ، ولقد دعا الله العبد الصالح ، فقال : « رَبِّ اغْفِرْ لِي ، وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي » فأعطاه ذلك إلا البقاء ، فما

[١] أداله الله . منه : نصره عليه . [٢] الصور : القرن ينفخ فيه ، وقيل إنه تمثيل لانبثات اللوح بانبثات الجيش إذا نفخ في البوق ، وقيل : هو جمع صورة مثل برة وبسر (والبسر بالهمز : التمر قبل لوطابه) أى تمخ في صور اللوح الأرواح ، وقرأ الحسن : « يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ » . والاجداث جمع جثث كسب وهو الثبر ، وندل كعرب ونصر : أسرع .
[٣] نزع : أفسد وأغرى .

هسى أن يكون أيها الرجل ؟ وكلكم ذلك الرجل ، كَأَنِّي وَاللَّهِ بِكُلِّ حَيٍّ مِنْكُمْ مَيِّتًا ، وَبِكُلِّ رَطْبٍ يَابِسًا ، وَثُقُلٌ فِي ثِيَابٍ أَكْفَانُهُ إِلَى ثَلَاثِ أَذْرَعٍ طَوْلًا ، فِي ذِرَاعٍ عَرْضًا ، وَأَكَلَتْ الْأَرْضُ لَحْمَهُ ، وَمَصَّتْ صَدِيدَهُ ، وَانصرفت الحبيب من ولده يَقْسِمُ الْخَبِيثَ مِنْ مَالِهِ ، إِنَّ الَّذِينَ يَعْقِلُونَ يَظُنُّونَ مَا أَقُولُ » ، ثم نزل .
(ميون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٤ ، والقند القريد ٢ : ١٥٤ ، ٣ : ١٧ ، وشرح الميون ١٧٢ ، ومروج الذهب ٢ : ١٤٢ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١١٥)

خطبه الوعظية

وخطب الحجاج يومًا فقال :

« أَيُّهَا النَّاسُ ، قَدْ أَصْبَحْتُمْ فِي أَجَلٍ مَنَقُوصٍ ، وَعَمَلٌ مَحْفُوظٌ ، رُبُّ دَائِبٍ مُضْغِعٌ ، وَسَاجِدٌ لِعَبِيدِهِ ، وَالْمَوْتُ فِي أَعْنَاقِكُمْ ، وَالنَّارُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ، وَالْجَنَّةُ أَمَامَكُمْ ، خُذُوا مِنْ أَنْفُسِكُمْ لِأَنْفُسِكُمْ ، وَمَنْ غَنَّاكُمْ لِفَقْرِكُمْ ، وَمَا فِي أَيْدِيكُمْ لِمَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ، فَكَأَنَّ مَا قَدْ مَضَى مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَكُنْ ، وَكَأَنَّ الْأَمْوَاتَ لَمْ يَكُونُوا أَحْيَاءَ ، وَكُلُّ مَا تَرَوْنَهُ فَإِنَّهُ ذَاهِبٌ ، هَذِهِ شَمْسٌ حَادٍ وَتَمُودٌ وَقُرُونٌ كَثِيرَةٌ بَيْنَ ذَلِكَ ، هَذِهِ الشَّمْسُ الَّتِي طَلَمَتْ عَلَى التَّبَابَةِ وَالْأَكْسَرَةِ ، وَخَزَائِنِهِمُ السَّائِرَةِ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ، وَقُصُورِهِمُ الْمَشِيدَةِ ، ثُمَّ طَلَمَتْ عَلَى قُبُورِهِمْ ، أَيْنَ الْمُلُوكُ الْأَوَّلُونَ ، أَيْنَ الْجَبَّارَةُ الْمُتَكَبِّرُونَ ؟ الْحَاسِبُ اللَّهَ ، وَالصَّارِطُ مَنْصُوبٌ ، وَجَهَنَّمَ تَزْفِرُ ^(١) وَتَتَوَقَّدُ ، وَأَهْلُ الْجَنَّةِ يَنْعَمُونَ ، فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ^(٢) ، جَعَلَنَا اللَّهُ وَإِلَاءَكُمْ مِنَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا » .

[١] زفرت النار كضرب : مع لوقعها صوت . [٢] أحبره : سره ، والمجور : السرور .

فكان الحسن البصري رحمه الله يقول : « ألا تمجبون من هذا الفاجر ؟ يَرْقَى عَثَبَاتِ الْمُنْبَرِ ، فَيَتَكَلَّمُ بِكَلَامِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَيُنْزِلُ فِي فَتِكَ فَتِكَ الْجَبَّارِينَ ، يُوَافِقُ اللَّهَ فِي قَوْلِهِ ، وَيُخَالِفُهُ فِي فِعْلِهِ » . (شرح ابن أبي الحديد م ١ ص ١٥٠)

وقال مالك بن دينار ؟ غَدَوْتُ إِلَى الْجُمُعَةِ ، فَجَلَسْتُ قَرِيبًا مِنَ الْمُنْبَرِ ، فَصَعِدَ الْحِجَابُ ، ثُمَّ قَالَ :

« أَمُرُّوْا حَسْبَ نَفْسِهِ ، أَمُرُّوْا رَاقِبَ رَبِّهِ ، أَمُرُّوْا زَوْرًا ^(١) عَمَلِهِ ، أَمُرُّوْا فِكْرَ فِيمَا يَرَوْهُ غَدًا فِي صَحِيفَتِهِ ، وَيَرَاهُ فِي مِيزَانِهِ ، أَمُرُّوْا كَانَ عِنْدَ هَمِّهِ أَمِيرًا ، وَعِنْدَ هَوَاهُ زَاجِرًا ، أَمُرُّوْا أَخْذَ بَعِيَانٍ قَلْبِهِ ، كَمَا يَأْخُذُ الرَّجُلُ بِخِطَامِ جَلْهِ ، فَإِنْ قَادَهُ إِلَى حَقِّ تَبِعَةٍ ، وَإِنْ قَادَهُ إِلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ كَفَّهُ ، إِنَّا وَاللَّهِ مَا خَلَقْنَا لِلْفَنَاءِ ، وَإِنَّمَا خَلَقْنَا لِلْبَقَاءِ ، وَإِنَّمَا نَنْتَقِلُ مِنْ دَارٍ إِلَى دَارٍ » .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٥٢١ ، العقد الفريد ٢ : ١٥٢ ، البيان والتبيين ٢ : ٨٨ ، شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١٥٠)

وخطب يوماً ، فقال :

« أَيُّهَا النَّاسُ ، أَقْدَعُوا ^(٢) هَذِهِ الْأَنْفُسَ ، فَإِنَّمَا أَسْأَلُ ^(٣) شَيْءًا إِذَا أُعْطِيتُ ، وَأَعْصَى ^(٤) شَيْءًا إِذَا سُئِلْتُ ، فَرَحِمَ اللَّهُ أَمْرًا جَعَلَ لِنَفْسِهِ خِطَامًا وَزِمَامًا ، فَقَادَهَا بِخِطَامِهَا إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ ، وَعَظَفَهَا بِزِمَامِهَا عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ ، فَإِنِّي رَأَيْتُ الصَّبْرَ عَنِ

[١] زَوْرًا : حَسَنٌ .

[٢] قَدَعَهُ كَتَمَهُ وَأَفْنَدَهُ : كَفَّهُ وَكَبَحَهُ . [٣] وَفِي عَيُونِ الْأَخْبَارِ : « أَيُّهَا النَّاسُ ، امْضُوا فِرَاجَكُمْ ، وَخَذُوا الْأَخْسَ بِضَمِيرِهَا ، فَإِنَّمَا أَسْأَلُ شَيْءًا » وَأَسْأَلُ : أَمْضِي ، مِنْ سَاكِ الرَّجُلِ سَوَاكًا : سَارِ سِيرًا ضَعِيفًا . . [٤] وَفِي رَوَايَةٍ « وَأَعْلَى شَيْءًا » وَهُوَ تَحْرِيفٌ .

محارم الله ، أيسر من الصبر على عذاب الله ^(١) .

(شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١٥٠ ، وشرح البيهقي ١٢١ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٧ ، والبيان والتبيين ١ : ٢٠٦ ، وتهذيب الكمال ١ : ١٩)

وخطب فقال :

« اللهم أرني النجاة فأجتنبه ، وأرني الهدى هدى فأتبعه ، ولا تكلفني إلى نفسي فأضلّ ضلالاً بعيداً ، والله ما أحب أن ما مضى من الدنيا لي بعمامتي هذه ، ولما بقي منها أشبه بما مضى من الماء بالماء » .

(المعتمد الفريد ٢ : ١٥٢ ، والبيان والتبيين ٢ : ٦٩ ، ١ : ٢٠٦ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١٥٠ ، وشرح البيهقي ١٢٢)

ومن كلامه :

« إن امرأ أتت عليه ساعة من عمره ، لم يذكر فيها ربه ، ويستغفر ربه من ذنبه ، ويفكر في معاده ، لجدير أن يطول حزنه ، ويتضاعف أسفه ، إن الله كتب على الدنيا الفناء ، وعلى الآخرة البقاء ، فلا بقاء لما كتب عليه الفناء ، ولا فناء لما كتب عليه البقاء ، فلا يغترنكم شاهد ^(٢) الدنيا ، عن غائب الآخرة ، وافتروا طول الأمل ، بقصر الأجل ^(٣) » .

(شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١٥٠ ، ومروج الذهب ٢ : ١٤٨ ، والبيان والتبيين ٢ : ٩٩ ، شرح البيهقي ١٢١ ، وتهذيب الكمال ١ : ١٩)

[١] قال ابن أبي الحديد : « وأكثر الناس يروون هذا الكلام عن عليّ عليه السلام » .

[٢] أي حضرها . [٣] قال الذهبي : سمعت الحجاج يقول بكلام ما سبقه إليه أحد ، سمعته يقول : « إن الله عز وجل كتب على الدنيا الفناء . . . الخ » ، وروى الجليلي عن أبي عبد الله التقي عن عمه قال سمعت الحسن البصري يقول : لقد وفدتني كلمة سمعتها من الحجاج ، قلت : وإن كلام الحجاج ليفذك ؟ قال : نعم ، سمعته على هذه الأعراف يقول : « إن امرأ ذهب ساعة من عمره في غير ما خلق له لمحى أن يطول عليها حسرتة » .

خطب قتيبة بن مسلم الباهلي (قتل سنة ٩٦ هـ)

٢٨٩ - خطبته يحث على الجهاد وقد تها "لغزو" طخارستان

قدم قتيبة بن مسلم الباهلي خراسان والياً عليها من قبل الحجاج ^(١) سنة ٨٦ هـ ، فلما تها لغزو أخرون وشومان - وهما من بلاد طخارستان ^(٢) - خطب الناس وحثهم على الجهاد ، فقال :

« إن الله أحلَّكم هذا المحلَّ ليعز دينه ، ويذبَّ بكم عن الحرمات ، ويريد بكم المال استفاضةً ، والعدوَّ وقماً ^(٣) ، ووعد نبيةً صلى الله عليه النصر بحديث صادق ، وكتابٍ ناطق ، فقال : « هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ » ووعد المجاهدين في سبيله أحسن الثواب ، وأعظم الذخر عنده ، فقال : « ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ ^(٤) فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ، وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » ، ثم أخبر عن قتل في سبيله أنه حتى مرزوق ، فقال : « وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أحياء

[١] ولي قتيبة خراسان بعد يزيد بن الهلب ، وغزا بلاد ماوراء النهر ، وافتتح بخارى ، وسمرقند ، وخوارزم ، ووصل في فتوحه إلى كشمير من بلاد الصين ، وقتل سنة ٩٦ هـ .

[٢] ناحية كبيرة شرق خراسان على نهر جيحون ، وقد ضبطها ابن خلكان هكنا - انظر وفيات الأعيان ١ : ٩٠ في ترجمة بشار بن برد - وضبطها ياقوت في معجم البلدان بفتح الطاء .

[٣] وقه : قهيه وأقله . [٤] مجاعة .

عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ » فَتَجَزَّوْا مَوْعِدَ رَبِّكُمْ ، وَوُطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ عَلَى أَقْصَىٰ اثرٍ ،
وَأَمْضَىٰ أَلَمٍ ، وَإِيَّاكُمْ وَالْهُوَيْنَىٰ . (تاريخ الطبري ٨ : ٥٩)

٢٩٠ - خطبته وقد تهيأ لغزو بلاد السغد

ولما صالح قتيبة أهل خوارزم ، وسار إلى السغد^(١) سنة ٩٣ هـ خطب
الذاس ، فقال :

« إن الله قد فتح لكم هذه البلدة في وقت الغزو فيه مُمَكِّنٌ ، وهذه
السُغْدُ شَاغِرَةٌ^(٢) برجلها ، قد نقضوا العهد الذي كان بيننا ، ومنعونا ما كُنَّا
صالحين عليه طَرَحُونَ ، وصنعوا به ما بلفكم ، وقال الله تعالى : « فَمَنْ نَكَثَ
فَإِنَّمَا يَنْسِكُ عَلَىٰ نَفْسِهِ » ، فسيروا على بركة الله ، فإنِّي أرجو أن يكون خوارزم
وَالسُّغْدُ كَالنَّضِيرِ^(٣) وَفَرِيضَةً^(٤) ، وقال الله تعالى : « وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا
قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا » . (تاريخ الطبري ٨ : ٨٥)

[١] وكان قتيبة حين فتح بخارى سنة ٩٠ هـ ، وأوقع بأهلها ، هابه أهل السند « وهي بين نهري
سيحون وجيحون ، وكانت قصبها سمرقند ، وهي بالين ، وربما قلت بالصاد » وأمه طرخون ملك
السند ، وسأله المصلح عن فدية يؤدبها إليه ، فأجاب قتيبة إلى ما طلب وصاله ، ثم نقضوا عهودهم .

[٢] شجر الكلب كنع : رفع إحدى رجله ليبول . [٣] بنو النضير : هي من يهود خيبر ، وكان
بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهود يأمن بها كل فريق الآخر ، ولكنهم لم يفيوا بها حسداً
منهم وبنياً ، فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعض أصحابه في ديارهم ، إذا انشر جماعة منهم على قتله
بأن ياتي عليه أحدهم صخرة من علوه ، فاطلع عليه الصلاة والسلام على قصدهم ، فرجع ، ثم أرسل إليهم يأمرهم
بالجلاء ، لما تقدم منهم من الفدر ، فذهبوا للرحيل ، فأرسل إليهم إخوانهم المنافقون يقولون : لا تخرجوا من
دياركم ونحن معكم ، فصار عليه الصلاة والسلام لقتالهم ، وتحصن بنو النضير في حصونهم ، وظنوا أنها
ما نلتهم من الله ، فحاصرهم ست ليال ، ثم أمر بقطع نخيلهم كي يسلموا ، فقفز الله في قلوبهم الرعب ،
فسألوه أن يجعلهم ويكف عن دماءهم ، وأن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا آلة الحرب ، فقبل ، وصار
اليهود يخرجون بيوتهم بأيديهم ، لئلا يسكنها المسلمون .

[٤] كان يهود بني فريضة يسكنون المسلمين في المدينة ، فانتهزوا فرصة اشتغال المسلمين بصد جوع
الأحزاب - في غزوة الخندق - ونقضوا عهودهم معهم ، وذلك أن حي بن أخطب - سيد بني النضير الذين

٢٩١ - خطبته وقد سارت إليه جيوش الشاش وفرغانة

وَأَتَى قَتِيْبَةُ السُّقْدَ خَصْرَهَا شَهْرًا ، وَخَافَ أَهْلَهَا طَوْلَ الْحَصَارِ ، فَكَتَبُوا إِلَى مَلِكِ الشَّاشِ وَفَرْغَانَةَ ^(١) «إِنَّا نَحْنُ دُونَكُمْ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْعَرَبِ ، فَإِنْ وُصِّلَ إِلَيْنَا كُتِمَ أَمْصَفَ وَأَذَلُّ ، فَهَمَا كَانَ عِنْدَكُمْ مِنْ قُوَّةٍ قَابِضُوهَا» ، فَجَمَعُوا جُوعَهُمْ ، وَوَلَّوْا عَلَيْهِمْ أَبْنَاءَ خَلْقَانِ ^(٢) ، وَسَارُوا وَقَدْ أَجْمَعُوا أَنْ يَبْتَئُوا عَسْكَرَ قَتِيْبَةَ ، وَنَحْنُ ذَلِكَ إِلَيْهِ ، فَاتَّخَذَ أَهْلُ النَّجْدَةِ وَالْبَاسِ وَوُجُوهُ النَّاسِ ، وَخَطَبَهُمْ فَقَالَ :

«إِنْ عَدُوُّكُمْ قَدْ رَأَوْا بَلَاءً ^(٣) اللَّهُ عِنْدَكُمْ ، وَتَأْيِيْدَهُ إِيَّاكُمْ فِي مُرَاحَتِكُمْ وَمُكَاتَرَتِكُمْ ^(٤) ، كُلُّ ذَلِكَ يُفْلِحُكُمْ ^(٥) اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، فَاجْمَعُوا عَلَى أَنْ يَحْتَالُوا غَرِثَكُمْ وَيَبْتَائَكُمْ ، وَاخْتَارُوا دَهَاقِيْنَهُمْ ^(٦) وَمُلُوكَهُمْ ، وَأَتَمَّ دَهَاقِيْنُ الْعَرَبِ وَفُرْسَانُهُمْ ،

أَجْلَوْا عَنْ دِيَارِهِمْ ، تَوَجَّهَ إِلَى كَمْبِ بْنِ أَسَدِ الْفَرُغِي ، خَشِنَ لَهُ قَضِ الْعَهْدِ ، وَلَمْ يَزَلْ بِهِ حَتَّى أَجَابَهُ ائْتَالُ لِلْمَلِكِ ، فَاشْتَدَّ وَجَلَ الْمَلِكِ ، وَزَلْزَلُوا زَلَالًا شَدِيدًا ، وَأَرْسَلَ اللَّهُ إِلَى الْأَعْدَاءِ رَجُلًا بَارِدَةً فِي لَيْلَةٍ مَظْلَمَةٍ وَجُنُودًا لَمْ يَرَوْهَا ، فَأَجْمَعُوا أَرْمَ عَلَى الرَّحِيلِ قَبْلَ أَنْ يَصْبِحَ الصَّبَاحُ ، وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ شَرَّ الْأَحْزَابِ ، وَلَمْ يَتِمَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ سَارَ إِلَى بَنِي قَرِيْقَةَ ، فَخَصَّنُوا بِمُحْصُونِهِمْ ، وَحَاصَرَهُمُ الْمَلِكُونَ خَشَاً وَعَشْرِينَ لَيْلَةً ، فَلَمَّا ضَاوَا بِالْحَصَارِ فَرَحًا ، طَلَبُوا أَنْ يَنْزِلُوا عَلَى مَازِلٍ عَلَيْهِ بِنَاوُ النَّصِيرِ ، مِنْ الْجِلَاءِ بِالْأَمْوَالِ وَتَرَكَ السَّلَاحَ ، فَأَتَى الرَّسُولَ إِلَّا أَنْ يَنْزِلُوا عَلَى ، حَكَمَهُ فَضْلُوا ، فَتَرَانِيَتِ الْأَوْسَ فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّمَا كَاتَبُوا مَوَالِيَنَا دُونَ الْخُرُوجِ ، وَقَدْ فَتَكَتْ فِي مَوَالِي إِخْوَانَتَنَا بِالْأَسْرِ مَا قَدْ هَلَّتْ - وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ بَنِي قَرِيْقَةَ قَدْ حَاصَرَ بَنِي قِيْقَةَ ، وَكَاتَبُوا حُلَاءَ الْخُرُوجِ ، فَزَلُّوا عَلَى حَكَمِهِ ، فَسَأَلَهُ إِيَّاهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بِنِ سُلُوكَ فَوَهَبِهِمْ لَهُ - فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَامُتِرُ الْأَوْسَ : أَلَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَحْكُمَ فِيهِمْ رَجُلٌ مِنْكُمْ ؟ قَالُوا : بَلَى ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَذَلِكَ إِلَى سَعْدِ بْنِ سَادَ - وَكَانَ جَرِيحًا مِنْ سَهْمِ أَمِيْبٍ بِهِ فِي غَزْوَةِ الْخَنْدَقِ - وَلُرْسَلُ مِنْ يَأْتِي بِهِ ، فَقَالَ : إِنِّي أَحْكَمُ فِيهِمْ أَنْ تَقْتُلَ الرَّجُلَ ، وَتَقْسِمَ الْأَمْوَالِ ، وَتَسْبِيَّ النِّسَاءَ وَالْزَّرَارَى ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : فَتَدَحَّكْتُ فِيهِمْ بِحَكَمِ اللَّهِ يَا سَعْدُ ، ثُمَّ أَسْرَ بِتَقْيِيزِ الْحَكَمِ ، فَتَفَضَّ فِيهِمْ .

- [١] الشاش وفرغانة : كورتان وراء نهر سيحون وناحيتان للصين . [٢] خلجان : اسم لكل ملك من ملوك الترك ، وقد خفَّضوه على أنفسهم : أى رأسوه (بالتشديد) . [٣] أى نعمته . [٤] كاتروم فكثروم : غالِبوهم فظهِروهم . [٥] أى يصركم عليهم ، ويظفركم بهم . [٦] جمع دهقان بكسر الدال وضحا : زعيم قلاىى النجم ، ورئيس الاقليم . مغرب .

وَقَدْ فَضَّلَكُمْ اللَّهُ بِدِينِهِ ، فَأَبْلُوا ^(١) لَهُ بِلَاءً حَسَنًا تَسْتَوْجِبُونَ بِهِ الثَّوَابَ ، مَعَ الْقَبْلِ
عَنْ أَحْسَابِكُمْ . (تاريخ الطبري ٨ : ٨٧)

٢٩٢ - خطبه حين دعا إلى خلع سليمان بن عبد الملك

وقام بخراسان حين خَلَعَ سليمان بن عبد الملك ^(٢) ، ودعا الناس إلى خلعهم
فقال للناس :

« إني قد جمعتكم من عين التَّمَر ^(٣) ، وَفَيْضِ الْبَحْرِ ، فَضَمَّتْ الْأَخْ إِلَى
أَخِيهِ ، وَالْوَلَدَ إِلَى أَبِيهِ ، وَقَسَمَتْ بَيْنَكُمْ بَيْنَكُمْ ، وَأَجْرِيَتْ عَلَيْكُمْ أَعْطِيَا تَكُم
غَيْرُ مُكَدَّرَةٍ وَلَا مُؤَخَّرَةٍ ، وَقَدْ جَرَّبْتُمُ الْوَلَاةَ قَبْلِي ، أَتَاكُمْ أُمِّيَّةٌ ^(٤) ، فَكُتِبَ إِلَى
أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ : إِنَّ خَرَجَ خِرَاسَانَ لَا يَقُومُ ^(٥) بِمَطْبَخِي ، ثُمَّ جَاءَكُمْ أَبُو سَعِيدٍ ^(٦)
فَدَوِّمَ ^(٧) بِكُمْ ثَلَاثَ سَنِينَ ، لَا تَدْرُونَ أَفِي طَاعَةِ أَتَمَّ أَمْ فِي مَعْصِيَةٍ ، لَمْ يَحِبَّ فَيْثًا ،
وَلَمْ يَنْكَأْ ^(٨) عَدُوًّا ، ثُمَّ جَاءَكُمْ بَنُوهُ بَعْدَهُ ، يَزِيدُ ، فَخَلَّ تَبَارَى إِلَيْهِ الْفَسَادُ ، وَإِنَّمَا
خَلِيفَتُكُمْ يَزِيدُ بْنُ ثَرْوَانَ هَبْنَقَةُ الْقَيْمِيِّ ^(٩) » فَلَمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ فَفَضِبَ ، فَقَالَ :

[١] الْإِبْلَاءُ : الْإِلْهَامُ وَالْإِحْصَانُ ، يُقَالُ : أَلْبَيْتَ عَنْدَهُ بِلَاءً حَسَنًا ، وَأَبْلَاهُ اللَّهُ بِلَاءً حَسَنًا ، وَأَبْلَيْتُهُ
مَعْرُوفًا ، وَاللَّبَى : فَاصِدُوا الْقَتَالَ ، وَقَدِمُوا مَعْرُوفًا تَبَيَّنُوا بِهِ ثَوَابَ اللَّهِ .

[٢] وَسَبَبَ ذَلِكَ أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ أَرَادَ أَنْ يُجْلِيَ ابْنَهُ عَبْدِ الْعَزِيزَ وَلِيَّ عَهْدِهِ ، وَدَسَّ فِي ذَلِكَ إِلَى
الْقَوَادِ وَالشَّعْرَاءِ ، فَبَايَعَهُ عَلَى خَلْعِ سُلَيْمَانَ الْحَبَّاجَ وَقَتِيَّةَ ، ثُمَّ مَاتَ الْوَلِيدُ وَقَامَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ ، خَفَاهُ
قَتِيَّةٌ وَخَشِيَ أَنْ يُولِيَ سُلَيْمَانَ يَزِيدُ بْنُ الْمُهَلَّبِ خِرَاسَانَ . [٣] بَلَدٌ عَلَى الْفَرَاتِ قَرِبَ الْكُوفَةِ .

[٤] هُوَ أُمِّيَّةُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَالِدِ بْنِ أَسِيدِ بْنِ أَبِي الدَّسِّ بْنِ أُمِّيَّةُ بْنُ عَبْدِ شَمْسٍ ، وَكَانَ حَامِلًا عَلَيْهَا
لِعَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ حَتَّى كَانَتْ سَنَةَ ٧٨ فَزَلَّهَ وَجَمَعَ سُلْطَانُهُ الْحَبَّاجَ ، فَبَعَثَ الْمُهَلَّبَ إِلَيْهَا .

[٥] فِي الْأَصْلِ « لَا يَقِيمُ » وَهُوَ تَحْرِيفُ أَوْ « لَا يَقِيمُ مَطْبَخِي » . [٦] أَبُو سَعِيدٍ كَتَبَ لِلْمُهَلَّبِ

إِنْ أَبِي صَفْرَةَ . [٧] مِنْ دَوِّمَ الْكَلْبُ أَيِ أَمِنَتْ فِي اللَّيْلِ ، وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى « فَدَوِّخْ بِكُمْ الْبِلَادَ »
وَسَتَّى . [٨] نَكَأَ الْعَدُوَّ وَنَكَاهُ نِكَائَةً قَتَلَ وَجَرَحَ .

[٩] هُوَ يَزِيدُ بْنُ ثَرْوَانَ هَبْنَقَةُ ذُو الْوَدَعَاتِ ، وَيَكْنَى أَبَا ذَنْفٍ أَحَدُ بَنِي قَيْسِ بْنِ ثَلْبَةَ ، يُضْرَبُ بِهِ اللَّثْلُ فِي

الْحَقِّ يُقَالُ : « أَحَقُّ مِنْ هَبْنَقَةٍ » وَلَهُ نَوَادِرُ فِي الْحَقِّ مِنْهَا أَنَّهُ جَلَّ فِي عَقْهِ قَلَادَةٌ مِنْ وَدَعٍ وَعِظَامٍ وَخَزَفٍ
وَهُوَ ذُو لِحْيَةٍ طَوِيلَةٍ ، فَتَلَّ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ : لِأَعْرَفَ بِهَا نَعْيًا ، وَلَكِنَّ أَسْلَ ، فَبَاتَ ذَاتَ لَيْلَةٍ ، وَأَخَذَ

« لَا أَعَزَّ اللَّهُ مِنْ نَصْرْتُمْ ، وَاللَّهُ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى عَزْمٍ مَا كَسَرْتُمْ قَرْنَهَا ، يَاهْل السَّافِلَةِ ، وَلَا أَقُولُ أَهْلَ الْعَالِيَةِ . يَا أَوْبَاشُ ^(١) الصَّدَقَةُ ، جَمْعُكُمْ كَمَا تُجْتَمَعُ إِبِلُ الصَّدَقَةِ مِنْ كُلِّ أَوْبٍ ^(٢) . يَا مَعْشَرَ بَكْرَيْنِ وَائِلٍ ، يَاهْلَ التَّفْنُخِ ^(٣) وَالْكَذِبِ وَالْبَخْلِ ، بَأَى يَوْمَيْكُمْ تَفْخَرُونَ : يَوْمَ حَرِيكُمْ ، أَمْ يَوْمَ سَلَحِكُمْ ؟ فَوَاللَّهِ لَأَنَا أَعَزُّ مِنْكُمْ ، يَا أَصْحَابَ مُسَيْلِمَةَ . يَا بَنِي ذَمِيمٍ ، وَلَا أَقُولُ تَمِيمٍ . يَاهْلَ الْخَوَرِ ^(٤) وَالْقَصْفِ ^(٥) وَالْعَدْرِ ، كُنْتُمْ تُسَوُّونَ الْعَدْرَ فِي الْجَاهِلِيَةِ « كَيْتَسَانُ ^(٦) » يَا أَصْحَابَ سَجَاحٍ ^(٧) ، يَا مَعْشَرَ عَبْدِ الْقَيْسِ الْقُسَاةَ ، تَبَدَّلْتُمْ بِأَبْرِ النَّخْلِ ^(٨) أَعِنَّةَ الْخَيْلِ . يَا مَعْشَرَ الْأَزْدِ ، تَبَدَّلْتُمْ بِقُلُوسٍ ^(٩) الشُّقْنِ ، أَعِنَّةَ الْخَيْلِ وَالْحُصْنِ ^(١٠) ، إِنْ هَذَا لِبِدْعَةٍ فِي الْإِسْلَامِ ، وَالْأَعْرَابِ ، وَمَا الْأَعْرَابُ ؟ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْأَعْرَابِ ، يَا كُنَاسَةَ الْمَصْرِينِ ، جَمْعُكُمْ مِنْ مَنَابِتِ الشَّيْخِ وَالْقَيْصُومِ ^(١١) ، وَمَنَابِتِ الْقَلْقِلِ ^(١٢) ، تَرْكَبُونَ الْبَقَرَ

أَخُوهُ فَلَادَهُ فَقَلَدَهَا ، فَلَمَّا أَصْبَحَ ، وَرَأَى الْفَلَادَةَ فِي حَقِّ أَخِيهِ ، قَالَ يَا أَخِي : أَنْتَ أَنَا ، فَنَ أَنَا ؟ وَمِنْهَا أَنَّهُ ضَلَّ لَهُ بَعِيرٌ ، فَجَلَّ يَنَادِي : مَنْ وَجَدَ بَعِيرِي نَهْرٌ لَهُ ، فَقِيلَ لَهُ فَلَمْ تَنْشُدْهُ ؟ قَالَ : فَأَيْنَ حِلَاوَةُ الْوَجْدَانِ ؟ وَمِنْهَا : أَنَّهُ اخْتَصِمَتْ الْعُقَاوَةُ وَبَنُو رَاسِبٍ فِي رَجُلٍ ادَّعَاهُ هُوَ لَمْ يَدْعُهَا ، ثُمَّ قَالُوا : رَضِينَا بِأَوَّلِ مَنْ يَطْلُعُ عَلَيْنَا ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ طَلَعَ عَلَيْهِمْ هَبْتَةٌ ، فَخَسَوْا عَلَيْهِ قَصَبَهُمْ ، فَقَالَ : الْحَكْمُ عِنْدِي فِي ذَلِكَ أَنْ يَذْهَبَ بِهِ إِلَى نَهْرِ الْبَصْرَةِ ، فَيَلْقَى فِيهِ ، فَإِنْ كَانَ رَاسِبِيَا رَسِبَ فِيهِ ، وَإِنْ كَانَ طِفَاوِيَا طَفَا ، فَقَالَ الرَّجُلُ : لَا أُرِيدُ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَحَدٍ هَذَيْنِ الْحَبِينِ .

وَقَالَ قَتِيبَةُ : « إِنَّمَا خَلِفْتُمْ هَبْتَةً » ذَلِكَ لِأَنَّهُ هَبْتَةٌ كُنَّ يَحْسِنُ إِلَى السَّيْمَانِ مِنْ إِبِلِهِ ، فِيرْعِيهَا فِي الشَّجَرِ ، وَيَنْجِي الْمَازِيلَ ، فَقِيلَ لَهُ : وَبِحَكِّ مَا تَصْنَعُ ؟ فَقَالَ : إِنَّمَا أَكْرَمُ مَا أَكْرَمَ اللَّهُ ، وَأَهْمِنُ مَا أَمَانَ اللَّهُ ، وَكَذَلِكَ كُنَّ سَلْمَانٌ يَطْلُبُ الْأَنْثِيَاءَ ، وَلَا يَطْلُبُ الْفُقَرَاءَ ، وَيَقُولُ : « أَصْلَحُ مَا أَصْلَحَ اللَّهُ ، وَأَنْفَسُ مَا أَنْفَسَ اللَّهُ » — انظر مجمع الأمثال ١ : ١٤٦ ، والبيان والتهيين ١ : ١٢٦ — .

[١] الْأَوْبَاشُ السَّفَلَةُ ، جَمْعُ وَبَشٍ كَذِيبٍ . [٢] الطَّرِيقُ وَالْجَلَّةُ . [٣] الْفَخْرُ وَالْكَبَرُ . [٤] الضَّعْفُ . [٥] الْإِلَهُ . [٦] كَيْتَسَانُ عِلْمُ الْعَدْرِ . [٧] سَجَاحٌ بَذْتُ الْحَارِثِ أَدْعَى النَّبُوَّةَ بَعْدَ مَوْتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْجَزِيرَةِ فِي بَنِي قَطَبٍ .

[٨] أَبْرُ النَّخْلِ أَبْرًا : أَصْلَحُهُ . [٩] الْقُلُوسُ جَمْعُ قُلْسٍ كَشَسٍ ، وَهُوَ حَبْلٌ ضَخْمٌ مِنْ لَيْفِ أَوْ خَوْصِ أَوْفِيرِهِمَا مِنْ قُلُوسِ سَفَنِ الْبَحْرِ . [١٠] جَمْعُ حَصَانٍ . [١١] مِنْ نَبَاتِ الْبَادِيَةِ زَهْرُهُ مَرَّجِدًا . [١٢] نَبَاتٌ لَهُ حَبٌّ أَسْوَدٌ حَسَنُ الشَّمِّ .

والحمُر في جزيرة ابن كَوان^(١) ، حتى إذا جمعتم كما يُجْمَع قَرَعَ الحَرِيف^(٢) قلتم : كَيْتَ وَكَيْتَ ، أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَبْنُ أَيْه^(٣) وَأَخُو أَخِيه ، أَمَا وَاللَّهِ لَأَعْصِبَنَّكُمْ عَصَبَ السَّلْمَةِ ، إِنَّ حَوْثَ الصَّلِيَّانِ الزَّمْزَمَةَ^(٤) ، يَأْهَلُ خِرَاسَانَ ، هَلْ تَدْرُونَ مَنْ وَلَيْسَكُمْ ؟ وَلَيْكُمُ زَيْدُ بْنُ نَزْوَانَ ، كَأَنِّي بِأَمِيرِ مَرْجَاهِ^(٥) ، وَحَكَمٌ قَدْ جَاءَكُمْ ، فَمَلِكُمْ عَلَى فَيْئِكُمْ وَأَطْلَالِكُمْ ، إِنْ هَاهُنَا نَارًا ، ازْمُوهَا أَرْمَ مَعَكُمْ ، ارْمُوا غَرَضَكُمْ الْأَقْصَى ، قَدْ اسْتَخْلَفَ عَلَيْكُمْ أَبُو نَافِعِ ذُو الْوَدَعَاتِ ، إِنْ الشَّامُ ابْنُ مَكْفُورٍ ، حَتَّى مَتَى يَنْبَطِحُ أَهْلُ الشَّامِ بِأَفْنَيْتِكُمْ وَظِلَالِ دِيَارِكُمْ ؟ يَأْهَلُ خِرَاسَانَ انْسُبُونِي تَجِدُونِي عِرَاقِي الْأُمِّ ، عِرَاقِي الْأَبِّ ، عِرَاقِي الْمَوْلِدِ ، عِرَاقِي الْهَوَى وَالرَّأْيِ وَالِدِينَ ، وَقَدْ أَصْبَحْتُمْ الْيَوْمَ فِيمَا تَرَوْنَ مِنَ الْأَمْنِ وَالْعَافِيَةِ ، قَدْ فَتَحَ اللَّهُ لَكُمْ الْبِلَادَ ، وَآمَنَ سُبُلَكُمْ ، فَالظَّمِينَةُ^(٦) تَخْرُجُ مِنْ مَرْوَ إِلَى بَلْخٍ بِغَيْرِ جَوَارٍ ، فَاتَّحِدُوا اللَّهَ عَلَى النِّعْمَةِ ، وَسَلُّوهُ الشُّكْرَ وَالْمَزِيدَ . ثم نزل . (تاريخ الطبري ٨ : ١٠٠)

وورد كلام قتيبة في هذا الصدد في العقد الفريد ، والبيان والتبيين في ثلاث خطب هذا نصها :

قام بخراسان حين خلع سليمان بن عبد الملك ، فصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

[١] هي جزيرة في الخليج الفارسي بين عمان والبحرين . [٢] القزع : كل شيء يكون قطا متفرقة (ومنه قيل لقطع السحاب في السماء قزع) وخرقت النملأ آخرها كنصر : اجتنبها ، والنمر مخروف وخريف ، وفي كلام سيدنا علي رضي الله عنه « كما يجتمع قزع الحريف » . [٣] أي ابن أبي . [٤] الصليان : بنت من أفضل للرعي بخنلي (يجز) للخليل التي لا تارق المني ، والززمة : صوت خنق لا يكاد يفهم ، يعني صوت الفرس (بالتحريك) إذا رآه ، وأصلها صوت الجوس عند أسأهم . يراطنون على الأكل ، وهم بصوت لا يستعملون لسانا ، ولا شفة ، لكنه صوت تديره في خياشيمها وحلقها ، ويفهم بعضها من بعض . وهو مثل يضرب للرجل يحوم حول الشيء ولا يظهر مرامه ، والمني في التل : أن ما تسمع من الأصوات والجلب ، لطلب ما يؤكل ويتبع به ، قال الليثاني : وروى « حول الصليان الززمة » الصليان جمع صليب ، والززمة : صوت طائيتها . [٥] هو مزجاء للمطى أي كثير الإجزاء لها ، زجاءها وأزجاءها : سائها ودفعها : وللاراد أنه قلن ظلم . [٦] الظمينة : للرأه ما دامت في المودج .

«أتدرون من ثُبَايعُونَ؟ إنما ثُبَايعُونَ يَزِيدُ بْنُ ثَرْوَانَ - يَعْنِي هَبْنَقَةَ الْقَبِيسِي -
كَأَنِّي بِأَمِيرٍ مِزْجَاءٍ، وَحَكَمَ قَدْ أَتَاكُمْ، يَحْكُمُ فِي أَمْوَالِكُمْ وَدِمَائِكُمْ وَفِرْجِكُمْ
وَأَبْشَارِكُمْ^(١)»، ثُمَّ قَالَ: الْأَعْرَابُ وَمَا الْأَعْرَابُ؟ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْأَعْرَابِ، جَمَعْتُمْ
كَمَا يَجْمَعُ قَرْعُ الْحَرِيفِ^(٢) مِنْ مَنَابِتِ الشَّيْخِ وَالْقَبِصُومِ، وَمَنَابِتِ الْقَلْقَلِ،
وَجَزِيرَةِ ابْنِ كَاوَانَ، تَرْكَبُونَ الْبَقَرَ، وَتَأْكُلُونَ الْهَيْبِيدَ^(٣)، خَمَلْتُمْ عَلَى الْخَيْلِ،
وَأَلْبَسْتُمْ السِّلَاحَ، حَتَّى مَنَعَ اللَّهُ بِكُمْ الْبِلَادَ، وَأَفَاءَ بِكُمْ النَّيْءَ. قَالُوا: مَرْنَا
بَأَمْرِكَ. قَالَ: غُرُّوا غَيْرِي. (القد الفريد ٢: ١٥٥، والبيان والتبيين ٢: ٦٧)

وخطب مرة أخرى، فقال:
«يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ، أَلَسْتُ أَعْلَمُ النَّاسَ بِكُمْ؟ أَمَا هَذَا الْحَيُّ مِنْ أَهْلِ الْعَالِيَةِ،
فَنَعَمَ الصَّدَقَةُ، وَأَمَا هَذَا الْحَيُّ مِنْ بَكْرِ بْنِ وَاثِلٍ فَعَلَجَةٌ^(١) بَطْرَاهُ، لَا تَجْمَعُ
رَجُلِيهَا، وَأَمَا هَذَا الْحَيُّ عَبْدُ الْقَيْسِ فَمَا ضَرَبَ الْعَيْرَ بِذَنَبِهِ، وَأَمَا هَذَا الْحَيُّ مِنْ
الْأَزْدِ، فَمَلُوجٌ^(٢) خَلَقَ اللَّهُ وَأَنْبَاطُهُ^(٣)، وَإِنَّمَا اللَّهُ لَوْ مَلَكَتْ أَمْرَ النَّاسِ لَنَقَشْتُ
أَيْدِيهِمْ، وَأَمَا هَذَا الْحَيُّ مِنْ تَيْمٍ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَسْمُونُ الْغَدَرَ فِي الْجَاهِلِيَةِ كَيْسَانَ»
(القد الفريد ٢: ١٥٥، والبيان والتبيين ٢: ٦٧)

وخطب مرة أخرى، فقال:
«يَا أَهْلَ خُرَاسَانَ، قَدْ جَرَّبْتُمُ الْوَلَاةَ قَبْلِي، أَتَاكُمْ أُمِيَّةٌ، فَكَانَ كَأَسَمِهِ أُمِيَّةٌ
الرَّأْيِ، وَأُمِيَّةُ الدِّينِ، فَكُتِبَ إِلَيَّ خَلِيفَتُهُ: إِنْ خَرَجَ خُرَاسَانَ وَسَجِسْتَانَ لَوْ كَانَ

[١] أَبْشَارُ جَمْعُ بَشَرٍ وَهُوَ جَمْعُ بَشْرَةٍ وَهِيَ ظَاهِرُ الْجِلْدِ. [٢] قَرْعُ الْحَرِيفِ وَالْحَرِيفُ فِي الْبَيَانِ وَالتَّبْيِينِ وَالطَّبَرِيِّ «قَرْعُ الْحَرِيفِ» وَالْمَوَابِ مَا ذَكَرْنَا.
[٣] الْمَنْظَلُ. [٤] مَوْثُ الْمَلْعُ، وَهُوَ حَارُّ الْوَحْشِ السَّيْنِ الْقَوِي، وَأُمَةٌ بَطْرَاهُ: طَائِفَةٌ الْبَطْرِ
كَشَمْسٍ وَهُوَ مَا يَنْشُرُ الرِّيحَ. [٥] جَمْعُ هَلِجٍ (بِالْكَسْرِ) وَهُوَ الرِّجْلُ مِنْ كِفَارِ الْعَجَمِ.
[٦] جَيْلٌ مِنَ النَّاسِ كَانُوا يَنْزِلُونَ سَوَادَ الْعِرَاقِ ثُمَّ اسْتَبَدَّ فِي أَخْلَاطِ النَّاسِ وَعَوَاهِمِهِمْ.

في مطبخه لم يكفهِ ، ثم أتاكم بعده أبو سعيد ، فدوَّخ بكم البلاد ، لا تدرون أفي طاعة الله أنتم أم في معصيته ، ثم لم يجِبَ فيثًا ، ولم ينكأ عدوًّا ، ثم أتاكم بنوه بعده ، مثل أطباء^(١) الكلبة ، منهم ابن الرثمة^(٢) ، حصان يضرب في عانة^(٣) ، ولقد كان أبوه يخافه على أمهات أولاده ، ثم أصبحتم وقد فتح الله عليكم البلاد ، وأمن لكم السبل ، حتى إن الطعينة لتخرج من مَرَوْ إلى مَمَرْتند في غير جوار

(الفرد ٢ : ١٥٥ ، واليان والبيان ٢ : ٦٧)

٢٩٦ - كلمات حكيمة لقتيبة بن مسلم

وَحَرَجَتْ خَارِجَةً بِحُرَّاسَان ، فَقِيلَ لِقُتَيْبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ : لَوْ وَجَّهْتَ إِلَيْهِمْ وَكَيْعَ ابْنِ أَبِي سُودٍ^(١) ، قَالَ : - وَكَانَ وَكَيْعَ رَجُلًا عَظِيمَ الْكِبَرِ ، فِي أَقْهٍ خُزْوَانَةٍ^(٢) ، وَفِي رَأْسِهِ نَعْرَةٌ^(٣) - وَإِنَّمَا أَقْهٍ فِي أَسْلُوبٍ^(٤) ، وَمِنْ عَظُمِ كِبَرِهِ اشْتَدَّ عُجْبُهُ ، وَمِنْ أُعْجِبَ بِرَأْيِهِ لَمْ يُشَاوِرْ كَفِيًّا^(٥) ، وَلَمْ يُؤَامِرْ نَصِيحًا ، وَمِنْ تَقَرَّدَ بِالنَّظَرِ لَمْ يَكْمُلْ لَهُ الصَّوَابُ ، وَمَنْ تَبَجَّحَ^(٦) بِالْإِفْرَادِ ، وَفَقَّرَ بِالْإِسْتِبْدَادِ ، كَانَ مِنَ الصَّوَابِ

[١] جمع طي كقفل والطي : قذات الحف والظف كاتدى للرأفة . [٢] يريد به يزيد بن الهلب .

[٣] السانة : الأذن ، والقطيع من حجر الوحش ، والمراد بها النساء .

[٤] هو وكيع بن أبي سود التيمي ، أحد الأبطال البواسل ، كان مع قتيبة في فتح بخارى وأعلى في القتال بلاد محمود - انظر خبره في الطبري ٨ : ٦٨ - وولاه الناس أرم حين ثاروا بقتيبة وقلوه .

[٥] الخزان ، والخزوانة ، والخزوانية : الكبر ، يقال : هو ذو خزانة .

[٦] النرة : الخيلاء والكبر .

[٧] الأسلوب : التمشق في الألف ، ويقال : إن أقه لي أسلوب إذا كان متكبرًا ، قال الرازي :

أنوهم ملقح في أسلوب وشعر الأستاء في الجيوب

(وهو في معنى التل للهور : آف في السماء واست في الماء ، والجيوب كهيور : الأرض ، والأستاء

جمع ستة كشمس وسبب وهو الاست ، وقوله : ملقح أمه : من الفخر ، ونظيره قول جبل بئنة :

وما أنس ملأ شيء لا أنس قولها (وقد قربت ضوى) أمصر تريد ؟

أي من الأشياء ، وقول قطري بن النعمان :

غداة طفت علماء بكر بن وائل وعجنا صمود الخيل نحو عجم

أي على الماء . [٨] الكفى : الكافي ، ويؤامر : يشاور . [٩] تبجح به : افتخر وتباهى .

بعيدا، ومن الخذلان قريبا، والخطأ مع الجماعة، خير من الصواب مع الفرقة، وإن كانت الجماعة لا تخطئ، والفرقة لا تُصيب، ومن تكبر على عدوه حقره، وإذا حقره تهاون بأمره، ومن تهاون بخصمه، ووثق بفضل قوته قل احتراسه، ومن قل احتراسه كثرت عثرته، وما رأيت عظيم الكبر صاحب حرب، إلا كان منكوبا، فلا والله حتى يكون عدوه عنده، وخصمه فيما تغلب عليه، أسمع من قرس، وأبصر من غقاب، وأهدى من قطاة، وأحذر من عقق^(١)، وأشد إقداما من الأسد، وأوثب من الفهد، وأحفد من جل، وأروغ من ثعلب، وأغدر من ذئب، وأسخر من لافظة^(٢)، وأشح من صبي، وأجمع من ذرة^(٣)، وأحرص من كلب، وأصبر من ضب، فإن النفس تسمح من العناية على قدر الحاجة، وتحفظ على قدر الخوف، وتطلب على قدر الطمع، وتطمع على قدر السبب.

(جمهرة الأمثال ١ : ١١٧)

[١] العقق : نوع من الثريان، وهو ذو لونين : أبيض وأسود طويل الذنب، يشبه صوته البين واتقاف — ولذا سمى عققا، وقيل لأنه يثق فراخه، فيتركهم بلا طعام، وجميع الثريان يفعل ذلك — وقد ضربوا به اللث في الحذر، فقالوا : « أحذر من عقق » — انظر جمهرة الأمثال — كما قالوا : « أحذر من غراب » وقالوا أيضا : « ألس من عقق » لأن في طبعه شدة الاختطاف لما يراه من الحلي — وقالوا : « أحقق من عقق » لأنه كالنميمة التي تضيغ بينها وأفراخها، وتشتتل بيض غيرها، وإياها عنى هدية بقوله :

كثارتك بينها بالراء ومليسة بين أخرى جناحا

— انظر حياة الحيوان الكبرى للدميري ٢ : ٢٠٩، ونجى الأمثال —.

[٢] رواء الليداني : « أسمع من لافظة » وقال : قد اختلفوا فيها فقال بعضهم : هي الذر التي تشل للعلب — أشلي دابته : أراها الخجلة لأتية، وأشلاها دحاما للعلب — فتجي لافظة بجرتها فرحا بالعلب، وقال بعضهم : هي الحماة لأنها تخرج ما في بطنها لفرخها، وقال بعضهم : هي الديك، لأنه يأخذ الحبة بقلوه فلا يأكلها، ولكن يلقها إلى السجاجة، والهاء فيها البالفة هاءنا، وقال بعضهم : هي الرمي لأنها تلفظ ما تلمته أي تذف، وقال بعضهم : هي البحر لأنه يلفظ بالثرة، قال الشاعر :

تجود فتجزل قبل الدوال وكفك أسمع من لافظة .

[٣] الذر : صغار النمل، وفي كلام عمر بن عبد العزيز : قال الله زيادا جمع لهم (أى لأهل الدراق) كما تجمع الثرة، وحاملهم كما تحوط الأم البرة، وقال الشاعر :

تجمع لوارث جما كما تجمع في قريتها القر .

ومن كلماته البليغة قوله حين قدِم خُراسان :

« من كَانَ في يديه شيء من مال عبد الله بن خازم ^(١) فَنَقِيبْهُ ، وإن كَانَ فيهِ فَلْيَلْفِظْهُ ، وإن كَانَ في صدره فَلْيَنْفُثْهُ » فَعَجِبَ الناس من حسن ما فَصَّل وقسم .
(البيان والبيان ٢ : ٥٤)

٢٩٧ — خطبة طارق بن زياد في فتح الأندلس

لما دانت بلاد المغرب لموسى بن نصير - وكان والياً عليها من قبل الوليد بن عبد الملك - طمَح بَصَرُهُ إلى فتح بلاد الأندلس ، فبعث مَوْلَاه طارق بن زياد على جيش جُلَّهُ من البربر سنة ٩٢ هـ ، فَعَبَّرَ بهم البحر ، وَتَمَّى خبره إلى لُدْرِيْق ملك القوط ، فأقبل لمحاربتهم بجيش جرّار ، وخاف طارق أن يستحوذ الرعب على جنده لَقَلَّتْهم ، فأحرق السفن التي أفلَّتْهم ، حتى يقطع من قلوبهم كل أمل في العودة ، وقام فيهم ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم حثهم على الجهاد ، ورغبهم في الشهادة ، فقال :

« أيها الناس ، أين المفر؟ البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق ^(٢) والصبر ، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيعُ من الأيتام

[١] وكان من أمره أنه لما مات يزيد بن معاوية ، ومعاوية بن يزيد ، وثب أهل خراسان بهمالم فأخرجهم ، وغلب كل قوم على ناحية ، ووقعت الفتنة ، وغلب عبد الله بن خازم على خراسان ، ثم كتب إليه عبد الملك بن مروان بعد مقتل عبد الله بن الزبير - وقيل قبله - يدعوهُ إلى الدخول في طاعته على أن يطعمه خراسان عشر سنين ، فأبى وحلف ألا يطعمه طائفة أبداً ، وكان ابن خازم يقاتل بغير بن ورقاء الصرمي بأبرشهر ، وخليفته على مرو بكير بن وشاح ، فكتب عبد الملك إلى بكير بهد عن خراسان ، ووعدهُ ومناه ، فدعا إلى عبد الملك ، وأجابهُ أهل مرو ، وبلغ ابن خازم غلاف أن يأتيه بكير ، فيجتمع عليه أهل مرو وأهل أبرشهر ، ففر بكيراً وأقبل إلى مرو ، فاتبته بغير ملحقة ، ودارت بينهما الحرب فقتل ابن خازم في المركة - انظر تاريخ الطبري ٧ : ص ٤٤ ، وص ١٩٦ .

[٢] أي الصدق في القتال ، والصدق : العدة ، يقال صدقه القتال .

فِي مَادِبِ^(١) اللَّثَامِ ، وَقَدِ اسْتَقْبَلَكُمْ عَدُوُّكُمْ بِحَيْشِهِ ، وَأَسْلَحَتْهُ وَأَقْوَاتُهُ مَوْفُورَةٌ ،
وَأَنْتُمْ لَا وَزَرَ^(٢) لَكُمْ إِلَّا سَيُوفُكُمْ ، وَلَا أَقْوَاتَ إِلَّا مَا تَسْتَخْلِصُونَهُ مِنْ أَيْدِي
عَدُوِّكُمْ ، وَإِنْ أَمْتَدَّتْ بِكُمْ الْأَيَّامُ عَلَى اقْتِفَارِكُمْ ، وَلَمْ تُنْجِزُوا لَكُمْ أَمْرًا ، ذَهَبَتْ
رِيحُكُمْ ، وَتَعَوَّضَتِ الْقُلُوبُ مِنْ رُغْبَاهَا مِنْكُمْ الْجُرْأَةَ عَلَيْكُمْ ، فَادْفَعُوا عَنْ
أَنْفُسِكُمْ خَذْلَانَ هَذِهِ الْعَاقِبَةِ مِنْ أَمْرِكُمْ ، بِمُتَاجَزَةِ^(٣) هَذَا الطَّاعِنَةِ ، فَقَدْ أَلْقَتْ
بِهِ إِلَيْكُمْ مَدِينَتُهُ الْحَصِينَةَ ، وَإِنْ أَتَهَازَ الْفُرْصَةُ فِيهِ لَكُمْ ، إِنْ سَمَحْتُمْ لَأَنْفُسِكُمْ
بِالْمَوْتِ ، وَإِنِّي لَمْ أَحْذَرْكُمْ أَمَّا أَنَا عَنْهُ بِنَجْوَةٍ^(٤) ، وَلَا حَمَلْتَكُمْ عَلَى خُطَّةٍ أَرْخَصُ
مَتَاعَ فِيهَا النُّفُوسُ ، أَرْبَأُ^(٥) فِيهَا نَفْسِي ، وَاعْلَمُوا أَنْكُمْ إِنْ صَبَرْتُمْ عَلَى الْأَشَقِّ
قَلِيلًا ، اسْتَمْتَعْتُمْ بِالْأَرْقَةِ الْأَلَدِّ طَوِيلًا ، فَلَا تَرْغَبُوا بِأَنْفُسِكُمْ عَنْ نَفْسِي ، فِيمَا
حَظَّكُمْ فِيهِ أَوْفَرُ مِنْ حَظِّي .

وَقَدْ بَلَّغْتُكُمْ مَا أَنْشَأَتْ هَذِهِ الْجَزِيرَةُ مِنَ الْحُورِ^(٦) الْحِسَانِ ، مِنْ بَنَاتِ
الْيُونَانِ ، الرَّافِلَاتِ^(٧) فِي الثَّرِّ وَالرَّجَانِ ، وَالْحُلَلِ الْمَنسُوجَةِ بِالْعِيقَانِ^(٨) ،
الْمَقْصُورَاتِ^(٩) فِي قُصُورِ الْمُلُوكِ ذَوِي التَّيْجَانِ ، وَقَدْ اتَّخَذَكُمْ الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ
الْمَلِكِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْأَبْطَالِ عَزَبَانَا^(١٠) ، وَرَضِيَكُمْ لِلْمُلُوكِ هَذِهِ الْجَزِيرَةَ
أَصْهَارًا^(١١) وَأَخْتَانًا^(١٢) ، ثِقَّةً مِنْهُ بَارِتِيَا حَكَمَ لِلطَّعَانِ ، وَإِسْمَاحَكُمُ^(١٣) بِمَجَالِدَةِ

[١] جمع مَادِبَةٍ يَأْتِجُ وَالْقَمْعُ وَهُوَ طَعَامُ صَنْعٍ لِعَوَةِ أَوْ عَرَسٍ . [٢] لَامِلَجًا . [٣] أَيْ مَبَارَزَتِهِ .

[٤] التَّجْوَةُ : مَا ارْتَقَعَ مِنَ الْأَرْضِ . [٥] رَبًّا نَفْسَهُ : هَلَاكِيًا وَارْتَقَعَ أَيْ أَتَعْنَى عَنْ مَشَارِكَتِكُمْ .

[٦] جمع حُورَاءٍ مِنَ الْحُورِ بِالتَّحْرِيكِ وَهُوَ شَعْفَةُ سَوَادِ الْعَيْنِ وَيُضَاهَا .

[٧] رَطَلَتْ : جَرَتْ ذَيْلُهَا وَبَحَثَتْ ، أَوْ خَطَرَتْ يَدَيْهَا . [٨] الْعِيقُ : الْخَيْلُ . [٩] الْمُخْصِرَاتُ : الْمُخْبِرَاتُ .

[١٠] جمع عَزِيبٍ وَالْعَزِيبُ وَالْعَزْبُ وَالْأَعْرَبُ : مِنَ الْأَزْوَاجِ لَهُ . [١١] جمع صِهْرِكُمْ وَهُوَ زَوْجُ

بَنَاتِ الرَّجُلِ ، وَزَوْجُ أَخِي . [١٢] جمع خَنْ كَيْبٍ ، وَهُوَ الْمَهْرُ ، أَوْ كُلُّ مَنْ كَانَتْ مِنْ قَبْلِ الْمَرَاةِ

كَلَابٍ وَالْإِخ . [١٣] مَسَحَ وَأَمْسَحَ : جَدَّ وَكَرَّمَ .

الأبطال والفرسان ، ليكون حظّكم منكم ثواب الله على إعلاء كلمته ، وإظهار دينه بهذه الجزيرة ، وليكون مَنَمُهَا خالصاً لكم من دونه ، ومن دون المؤمنين سواكم ، والله تعالى وَلِيُّ إِتْجَادِكُمْ على ما يكون لكم ذكراً في الدارين .

واعلموا أنّي أول محبب إلى ما دعوتكم إليه ، وأنّي عند مُلْتَقَى الجَمْعَيْنِ ، حامِلٌ بنفسى على طاعة القوم لِدَرْيَقٍ ، فقاتله إن شاء الله ، فاحملوا معى ، فإن هَلَكْتُ بعده ، فقد كُفَيْتُمْ أَمْرَهُ ، ولن يُعَوِّزَكُم بَطْلٌ عَاقِلٌ تُسْتَدُونَ أُمُورَكُمْ إليه ، وإن هَلَكْتُ قبل وصولى إليه ، فاخلقُونى فى عزيمتى هذه ، واحملوا بأنفسكم عليه ، واكتفوا المَهْمُ من فتح هذه الجزيرة بقتله ، فإنهم بعده يُخْذَلُونَ .

(فتح الطيب ١ : ١١٢ ، ووفيات الأعيان ٢ : ١٣٥)

٢٩٨ - نص آخر لخطبة طارق

وروى ابن قُتَيْبَةَ هذه الخطبة فى الإمامة والسياسة بصورة أخرى ، قال : لما بلغ طارقاً دُؤُوءُ لَدَرْيَقٍ ، قام فى أصحابه ، فحمد الله ، ثم حض الناس على الجهاد ، وَرَغَّبَهُمْ فى الشهادة ، وَبَسَطَ لَهُمْ فى آمالهم ، ثم قال :

« أيها الناس : أين المفر؟ البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم ، فليس ثمّ والله إلا الصدق والصبر ، فإنهما لا يُقْلَبَانِ ، وهما جندان منصوران ، ولا تَضُرُّ مَعَهُمَا قِلَّةٌ ، ولا تنفع مع الخَوَرِ والكَسَلِ والفَشَلِ ، والاختلاف والمُجَبِّ كَثَرَةٌ ، أيها الناس : ما فعلت من شئ فافعلوا مثله ، إن حملتُ فاحملوا ، وإن وقفتُ فقفوا ، ثم كونوا كهَيْئَةِ رجل واحد فى القتال ، ألا وإنى عامِدٌ إلى طاعيتهم ، بحيث لا أتهيبُهُ حتى أخاطبُهُ ، وأُقتل دُونَهُ ، فَإِنْ قُتِلْتُ فلا تَهِنُوا ^(١) ولا تحزنوا ،

وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ . وَتُؤَلُّوا الْأُذُنُ لِعَدُوِّكُمْ ، فَتَبَدَّدُوا بَيْنَ قَتِيلٍ وَأَسِيرٍ ، وَإِيَّاكُمْ إِيَّاكُمْ أَنْ تَرْضَوْا بِالذِّنِّ ، وَلَا تَمْطُوا بِأَيْدِيكُمْ ، وَارْغَبُوا فِي مَا تُجَلِّ لَكُمْ مِنَ الْكِرَامَةِ وَالرَّاحَةِ ، مِنَ الْمِنَّةِ وَالذَّلَّةِ ، وَمَا قَدْ حُلَّ لَكُمْ مِنْ ثَوَابِ الشَّهَادَةِ ، فَإِنَّكُمْ إِنْ تَفَلَّوْا ^(١) (وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَمُعِيزُكُمْ) تَبَوَّءُوا بِالْخُسْرَانِ الْمُبِينِ ، وَسُوءَ الْحَدِيثِ غَدًا بَيْنَ مَنْ عَرَفَكُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَهَآنَذَا حَامِلٌ حَتَّى أَغْشَاهُ ، فَاحْمِلُوا بِحِمْلَتِي .
(الاملاء والسياسة ٢ : ٥٣)

٢٩٩ - خطبة عثمان بن حيان المري بالمدينة

وولي الوليد بن عبد الملك عثمان بن حيان المري المدينة سنة ٩٤ هـ ، وقد خطب على المنبر ، فقال بعد حمد الله :

« أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّا وَجَدْنَاكُمْ أَهْلَ غُشٍّ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فِي قَدِيمِ الدَّهْرِ وَحَدِيثِهِ ، وَقَدْ صَوَّى ^(٢) إِلَيْكُمْ مَنْ يَرِيدُكُمْ خَبَالًا : أَهْلُ الْعِرَاقِ ، هُمْ أَهْلُ الشَّقَاقِ وَالنِّفَاقِ ، هُمْ وَاللَّهِ عَشْرُ النِّفَاقِ ، وَيُبَيِّضُهُ الَّتِي تَفَلَّقَتْ عَنْهُ ، وَاللَّهُ مَا جَرَّبَتْ عِرَاقِيًّا قَطُّ إِلَّا وَجَدَتْ أَفْضَلَهُمْ عِنْدَ نَفْسِهِ ، الَّذِي يَقُولُ فِي آلِ أَبِي طَالِبٍ مَا يَقُولُ ، وَمَا هُمْ لَهْمُ بِشَيْعَةٍ ، وَإِنَّهُمْ لَأَعْدَاءُ لَهُمْ وَلِنِيرِهِمْ ، وَلَكِنْ لِمَا يَرِيدُ اللَّهُ مِنْ سَفَكِ دِمَائِهِمْ ، فَإِنِّي وَاللَّهِ لَا أُوْتِي بِأَحَدٍ آوَى أَحَدًا مِنْهُمْ أَوْ أَكْرَاهَ مَنْزِلًا ، أَوْ أَتَزَلَّهُ ، إِلَّا هَدَمْتُ مَنْزِلَهُ ، وَأَتَزَلَّتْ بِهِ مَا هُوَ أَهْلُهُ ^(٣) .

ثم إن البُلْدَانِ لَمَّا مَصَرَّهَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ، وَهُوَ مُجْتَهِدٌ عَلَى مَا يَصْلُحُ رَعِيَّتَهُ ،

[١] إِنْ تَنَازَعُوا وَتَهَرَّمُوا . [٢] صَوَّى كَرَمَى : انضم ولبى ، والخبال : الفساد .

[٣] وَلَمْ يَزَلْ بِالْمَدِينَةِ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ تَاجِرًا ، وَلَا غَيْرِ تَاجِرٍ ، وَأَمَرَ بِهِمْ أَنْ يَهْجَرُوا ، وَجِئَ بِهِمْ وَطَائِفُهُمْ ، ثُمَّ بَثَّ بِهِمْ فِي جَوَاسِعَ إِلَى الْحَبَاكِجِ بْنِ يُوسُفَ .

جعل يمر عليه من يريد الجهاد ، فيستشيرهُ : الشَّامُ أَحَبُّ إِلَيْكَ أَمْ الْعِرَاقُ ؟
فيقول : الشَّامُ أَحَبُّ إِلَيَّ .

إِنِّي رَأَيْتُ الْعِرَاقَ ذَا عَضَاآ ، وَبِهَا فَرَّخَ الشَّيْطَانُ ، وَاللَّهُ لَقَدْ أَعْضَلُوا بِي^(١) ،
وَإِنِّي لَأَرَانِي سَافِرَ قُرُومِهِمْ فِي الْبُلْدَانِ ، ثُمَّ أَقُولُ : لَوْ فَرَّقْتُهُمْ لَأَفْسَدُوا مِنْ دَخَلُوا
عَلَيْهِ بِمَجْدَلٍ وَحِجَّاجٍ ، وَكَيْفَ ؟ وَلَمْ ؟ وَسُرْعَةً وَجِيفٌ^(٢) فِي الْفِتْنَةِ ، فَإِذَا خُبِرُوا
عِنْدَ السَّيُوفِ ، لَمْ يُخْبَرْ مِنْهُمْ طَائِلٌ^(٣) ، لَمْ يَصْلُحُوا عَلَى عَثْمَانَ ، فَلَقِيَ مِنْهُمْ
الْأَمْرَيْنِ^(٤) ، وَكَانُوا أَوَّلَ النَّاسِ فَتَقَ هَذَا الْفَتْقَ الْعَظِيمَ ، وَتَقَضُّوا عُرَا
الْإِسْلَامِ عُرْوَةً عُرْوَةً ، وَانْقَلَبُوا^(٥) الْبُلْدَانَ ، وَاللَّهُ إِنِّي لَأَتَقَرَّبُ إِلَى اللَّهِ بِكُلِّ مَا
أَفْعَلُ بِهِمْ ، لَمَّا أَعْرِفُ مِنْ رَأْيِهِمْ وَمَذَاهِبِهِمْ ، ثُمَّ وَلِيَهُمْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مُعَاوِيَةَ ،
فَدَايَجَهُمْ^(٦) فَلَمْ يَصْلَحُوا عَلَيْهِ ، وَلَوَلِيَهُمْ رِجَالَ النَّاسِ^(٧) جَلَدًا ، فَبَسَّطَ عَلَيْهِمْ
السَّيْفَ وَأَخَافَهُمْ ، فَاسْتَقَامُوا لَهُ ، أَحْبَبُوا أَوْ كَرَهُوا ، وَذَلِكَ أَنَّهُ خَبَّرَهُمْ وَعَرَّفَهُمْ .

أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّا وَاللَّهُ مَا رَأَيْنَا شِعَارًا قَطُّ مِثْلَ الْأَمْنِ ، وَلَا رَأَيْنَا جِلْسًا^(٨)
قَطُّ شَرًّا مِنَ الْخَوْفِ ، فَالْزَمُوا الطَّاعَةَ ، فَإِنْ عِنْدِي يَأْهُلُ الْمَدِينَةَ خَيْرَةٌ مِنْ
الْخِلَافِ ، وَاللَّهُ مَا أَنْتُمْ بِأَصْحَابِ قَتْلِ ، فَكُونُوا مِنْ أَحْلَاسِ يَبُوتِكُمْ ، وَعَضُّوا عَلَى
النَّوَاجِذِ ، فَإِنِّي قَدْ بَشَّتُ فِي مَجَالِسِكُمْ مَنْ يَسْمَعُ فَيَلْتَفِتُنِي عَنْكُمْ ، إِنَّكُمْ فِي قُضُولِ

[١] عضل به الأمر وأعضل : اشتد ، وأعضله أيضاً .

[٢] وجف يجف وجيئاً : اضطرب . والوجيف : ضرب من سير الخيل والاييل .

[٣] الطائل والطائفة والطول : الفضل والقدرة . [٤] الأمران : الفقر والمهرم ، وهو كناية عن

اشتداد الأمر . [٥] أنقلبوا ، من نقل الأديم كفرح : فسد في البياض ، وأنته : أفسده .

[٦] الداججة مثل المدابة وداججه عليه : وانقه . [٧] يريد المجاهدين بن يوسف .

[٨] المجلس : بباط البيت ، وكاء على ظهر البعير تحت رحله ، والمراد : ما رأينا مركباً شراً من الخوف

وفلان جلس من أحلاس البيت : لأنني لا يرح البيت .

كلام غيره ألزِمَ لكم ، فدَعُوا عَيْبَ الْوَلَاةِ ، فَإِنَّ الْأَمْرَ إِنَّمَا يُنْقَضُ شَيْئًا شَيْئًا
حتى تكون الفتنة ، وإن الفتنة من البلاء ، والفتن تذهب بالدين وبالمال والولد .
(تاريخ الطبري ٨ : ١٢)

٣٠٠ - وصية يزيد بن المهلب لابنه مخلد (قتل سنة ١٠٢ هـ)

ولما وَلِيَ يزيد بن المهلب خُرَاسَانَ في عهد سليمان بن عبد الملك ، فتح
جُرْجَانَ ^(١) وطَبَرِسْتَانَ ^(٢) (سنة ٩٨) ، وقد أوصى ابنه مَخْلَدًا حين استخلفه
على جُرْجَانَ ، فقال :

« يَا بُنَيَّ ، إِنِّي قَدْ اسْتَخْلَفْتُكَ عَلَى هَذِهِ الْبِلَادِ ، فَانْظُرْ هَذَا الْحَيَّ مِنَ الْبَيْنِ ،
فَكُنْ لَهُمْ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

إِذَا كُنْتَ مُرْتَادَ الرِّجَالِ لِنَقْمِهِمْ فَرِشْ وَأَصْطَلِعْ عِنْدَ الَّذِينَ بِهِمْ تَرْبِي ^(٣)
وانظر هذا الحيَّ من ربيعة ، فإنهم شَيْعَتُكَ وَأَنْصَارُكَ ، فاقضِ حَقَّوَهُمْ ، وانظر
هذا الحيَّ من تميم ، فامْطُرْهُمْ ^(٤) ، وَلَا تُزِرْهُ ^(٥) لَهُمْ ، وَلَا تُذْنِبْهُمْ فَيَطْمَعُوا ، وَلَا
تُقْصِبْهُمْ فَيَقْطَعُوا ، وانظر هذا الحيَّ من قيس ، فإنهم أَكْفَاءُ قَوْمِكَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ،
وَمُنَاصِفُومُ الْمُنَابِرِ فِي الْإِسْلَامِ ، وَرِضَامُكَ مِنَ الْبَشَرِ .

يَا بُنَيَّ : إِنْ لَا إِلَيْكَ صَنَائِعٌ فَلَا تُفْسِدْهَا ، فَإِنَّهُ كُنِيَ بِالْمَرْءِ نَقْصًا أَنْ يَهْتِمَ
مَا بَنَى أَبُوهُ ، وَإِيَّاكَ وَالدَّمَاءَ فَإِنَّهَا لَا بَقِيَّةَ مَعَهَا ، وَإِيَّاكَ وَشَتَمَ الْأَعْرَاضِ ، فَإِنَّ
الْحَرْأَ لَا يُرْضِيهِ عَنْ عِرْضِهِ عَوْضٌ ، وَإِيَّاكَ وَضَرْبَ الْأَبْشَارِ ، فَإِنَّهُ حَارٌّ بَاقٍ ،

[١] في الجوزي الشرقى من بحر قزوين . [٢] جنوى بحر قزوين .

[٣] رَأَى السَّهْمَ يَرِيثُهُ : أَزَقَ عَلَيْهِ الرِّيشَ ، وَرَأَى الصَّدِيقَ : أَطْمَسَهُ وَسَقَاهُ وَكَسَاهُ وَأَصْلَحَ حَالَهُ
وَقَعَهُ ، وَأَصْطَلَعَ عِنْدَهُ صَنِيعَةً : اتَّخَذَهَا ، وَالْيَيْتَ لَا بُنَى دَوَادُ الْإِيَادِي . [٤] مَطَرْتَهُمُ السَّهَاءَ : أَصَابَتْهُمْ
بِالْمَطَرِ ، وَمَطَرْتُهُمْ بِحَيْرٍ : أَصَابَهُمْ ، وَمَا مَطَرْتُهُ خَيْرًا - وَخَيْرٌ : أَيْ مَا أَصَابَهُ مِنْ خَيْرٍ

[٥] أَلْزَمُو : الْكِبْرَ وَالْيَتَامَى ، وَهِيَ كُنْيَةٌ ، وَكَذَا : قَلِيلَةٌ .

وَوِثْرٌ مَطْلُوبٌ ، وَاسْتَعْمِلْ عَلَى النَجْدَةِ وَالْفَضْلِ دُونَ الْهَوَى ، وَلَا تَعْزِلْ إِلَّا عَنْ
عِزٍّ أَوْ خِيَانَةٍ ، وَلَا يَنْفُكْ مِنْ اصْطِنَاعِ الرَّجُلِ أَنْ يَكُونَ غَيْرَكَ قَدْ سَبَقَكَ إِلَيْهِ ،
فَإِنَّكَ إِنَّمَا تَصْطَنِعُ الرِّجَالَ لِفَضْلِهِمَا ، وَلِيَكُنْ صَنِيعُكَ عِنْدَ مَنْ يَكْفُتُكَ عَنْهُ ، أَجَلٍ
النَّاسِ عَلَى أَحْسَنِ أَدَبِكَ يَكْفُوكَ أَنْفُسَهُمْ ، وَإِذَا كَتَبْتَ كِتَابًا فَأَكْثِرِ النَّظَرَ
فِيهِ ، وَلِيَكُنْ رِسُولُكَ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ مِنْ يَفْقَهُ عَنِّي وَعَنْكَ ، فَإِنْ كَتَبَ الرَّجُلُ
مَوْضِعُ عَقْلِهِ ، وَرِسُولُهُ مَوْضِعَ سِرِّهِ ، وَأَسْتَوْدِعُكَ اللَّهَ ، فَلَا بَدَّ لِلْمَوْدَعِ أَنْ
يَسْكُتَ ، وَلِلْمَشِيعِ أَنْ يَرْجِعَ ، وَمَا عَفَّ مِنَ الْمَنْطِقِ ، وَقُلْ مِنَ الْخَطِيئَةِ أَحَبُّ
إِلَى أَيْكَ ، وَكَذَلِكَ مَلَكَ هَذَا الْمَسَلَكُ الْمَحْمُودُ .

(شرح ابن أبي الحديد ٤ : ص ١٥٥ ، وبلوغ الأرب ٣ : ١٧٣)

٣٠١ — نصيحة عمر بن هبيرة لبعض بنيهِ

وقال عمر بن هُبَيْرَةَ^(١) يُوَدِّبُ بَعْضَ بَنِيهِ :

« لَا تَكُونَنَّ أَوَّلَ مُشِيرٍ ، وَإِيَّاكَ وَالْهَوَى وَالرَّأْيَ الْفَطِيرَ^(٢) ، وَتَجَنَّبْ
ارْتِجَالَ الْكَلَامِ ، وَلَا تُشِرْ عَلَى مُسْتَبَدٍّ ، وَلَا عَلَى وَغْدٍ ، وَلَا عَلَى مَتَلَوْنٍ ، وَلَا عَلَى
لَجُوجٍ ، وَخَفِ اللَّهَ فِي مُوَاقِفَةِ هَوَى الْمُسْتَشِيرِ ، فَإِنَّ التَّمَّاسَ مُوَافِقَتَهُ لُؤْمٌ ، وَسُوءُ
الِاسْتِمَاعِ مِنْهُ خِيَانَةٌ . »

وقال : « مِنْ كَثَرِ كَلَامِهِ كَثُرَ سَقَطُهُ ، وَمَنْ سَاءَ خُلُقُهُ قَلَّ صَدِيقُهُ . »

(البيان والبيان ٢ : ٩٨)

[١] هو عمر بن هبيرة الفزاري ، وكان عاملاً على الجزيرة لعمر بن عبد العزيز ، وولى الرقاق
(وأضيفت إليه خراسان) ليزيد بن عبد الملك . [٢] كل شيء أُنْجَلَتْ عَنْ إِدْرَاكِهِ فَهُوَ فَطِيرٌ —
والسبب الفطير : ضد الخبر أى الذى لم يُخْتَصَرْ — « وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَهَبٍ الرَّاسِي أَبُو الْخَوَارِجِ يَقُولُ :
نَمُوذُ بَاقِهِ مِنَ الرَّأْيِ الْفَبْرِى — وَالْفَبْرِى بِالْتَحْرِيكِ وَتَكُنُّ الْبَاءُ : الَّتِى يَمْرُضُ مِنْ بَدْوِ وَقُوعِ الْفَى —
وَلَا تَقُلْ فَبْرِى يَضْمَتَيْنِ فَإِنَّهُ مِنَ لُحْنِ الْمُحَدِّثِينَ »

خطب خالد بن عبد الله القسري^(١)

(توفي سنة ١٢٦ هـ)

٣٠٢ - خطبته بمكة يدعو إلى الطاعة ولزوم الجماعة

خطب خالد بن عبد الله القسري بمكة ، فقال :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّكُمْ بِأَعْظَمِ بِلَادِ اللَّهِ حُرْمَةً ، وَهِيَ الَّتِي اخْتَارَ اللَّهُ مِنَ الْبُلْدَانِ فَوْضَعَ بِهَا يَتَّهُ ، ثُمَّ كَتَبَ عَلَى عِبَادِهِ حِجَّهٖ ، مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ، أَيُّهَا النَّاسُ : فَعَلَيْكُمْ بِالطَّاعَةِ ، وَلِزُومِ الْجَمَاعَةِ ، وَإِيَّاكُمْ وَالشُّبُهَاتِ ، فَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أُوتِىَ بِأَحَدٍ يَطْعَنُ عَلَى إِمَامِهِ إِلَّا صَلَبْتَهُ فِي الْحَرَمِ ، إِنَّ اللَّهَ جَمَلَ الْخِلَافَةَ مِنْهُ بِالْمَوْضِعِ الَّذِي جَمَلَهَا ، فَسَلُّوا وَأَطِيعُوا ، وَلَا تَقُولُوا كَيْتَ وَكَيْتَ ، إِنَّهُ لَا رَأْيَ فِيمَا كَتَبَ بِهِ الْخَلِيفَةُ أَوْ رَأَاهُ إِلَّا إِمَاضَاؤُهُ ، وَاعْلَمُوا أَنَّهُ بَلَفَنِي أَنْ قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْخِلَافِ يَتَقَدَّمُونَ عَلَيْكُمْ ، وَيُقِيمُونَ فِي بِلَادِكُمْ ، فَإِيَّاكُمْ أَنْ تُنْزِلُوا أَحَدًا مِمَّنْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ زَائِعٌ عَنِ الْجَمَاعَةِ ، فَإِنِّي لَا أَجِدُ أَحَدًا مِنْهُمْ فِي مَنْزِلٍ أَحَدٍ مِنْكُمْ إِلَّا هَدَمْتُ مَنْزِلَهُ ، فَانْظُرُوا مَنْ تُنْزِلُونَ فِي مَنَازِلِكُمْ ، وَعَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ وَالطَّاعَةِ ، فَإِنَّ الْفُرْقَةَ هُوَ الْبَلَاءُ الْعَظِيمُ . وَتَمِيعٌ يَوْمًا يَقُولُ : « وَاللَّهِ لَوْ أَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ الْوَحْشَ الَّتِي تَأْمَنُ فِي الْحَرَمِ لَوْ نَطَقَتْ لَمْ تُقِرَّ بِالطَّاعَةِ ، لِأَخْرَجَتْهَا مِنَ الْحَرَمِ ، إِنَّهُ لَا يَسْكُنُ حَرَمَ اللَّهِ وَأَمْنَهُ مَخَالَفُ لِلْجَمَاعَةِ زَارٍ^(٢) عَلَيْهِمْ » .

(تاريخ الطبري ٨ : ٨٠)

[١] وُلِدَ الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ مَكَّةَ سَنَةَ ٨٩ هـ ، وَوَلَّى الرِّقَاقِينَ فِي عَهْدِ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، وَكَانَتْ لَهُمُ نَصْرَانِيَّةٌ ، قَالُوا وَكَانَ يَتِيمٌ فِي دِينِهِ ، وَهُوَ مِنْ خُطْبَاءِ الرِّبِّ الْمَسْجُودِينَ الْمَشْهُورِينَ بِالْفَصَاحَةِ وَالْبِلَاقَةِ ، تَوَفَّى سَنَةَ ١٢٦ هـ . [٢] زَرَى عَلَيْهِ : طَافَ .

٣٠٣ - خطبة أخرى يشيد فيها بفضل الوليد

ومن غلوّه أنه خطب على منبر مكة ، فقال :

« أيها الناس ، أيهما أعظم ؟ أخليفةُ الرجل على أهله ، أم رسوله إليهم ؟ والله لو لم تعلموا فضل الخليفة إلا أن إبراهيم خليل الرحمن استسقى ربه ، فسقاه ملحاً أجاجاً ^(١) ، واستسقاه الخليفة فسقاه عذبا قُرأتا « يعني بئراً حفرها الوليد ابن عبد الملك بالثَّيْنَيْن : ثَيَّة طوى ^(٢) ، وثنية الحَجُون ، فكان يُنقل ماؤها ، فيوضع في حَوْض من آدم إلى جنب زمزم ، ليعرف فضله على زمزم » .

(تاريخ الطبري ٨ : ٦٧ ، وشرح البيون ص ٢٠٥)

٣٠٤ - خطبته بمكة في الحجاج

وصعد خالد المنبر في يوم الجمعة - وهو على مكة - فذكر الحجاج ، فحمد طاعته ، وأثنى عليه خيراً ، فلما كان في الجمعة الثانية ورد عليه كتاب سليمان بن عبد الملك ، يأمره فيه بِشْتَم الحجاج ، ونَشَر عيوبه ، وإظهار البراءة منه ، فصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« إن إبليسَ كان ملكاً من الملائكة ، وكان يُظهر من طاعة الله ما كانت الملائكة ترى له به فضلاً ، وكان الله قد علم من غشه وخبثه ما خفي على ملائكته ، فلما أراد الله فضيخته أمره بالسجود لآدم ، فظهر لهم ما كان يُخفيه عنهم ، فلمنوه ، وإن الحجاج كان يُظهر من طاعة أمير المؤمنين ما كنا نرى له به فضلاً ، وكان الله قد أطلع أمير المؤمنين من غشه وخبثه على ما خفي علينا ، فلما أراد الله فضيخته

[١] ماء أجاج : ملح مر ، والقرات : الماء الغنيب جداً .

[٢] ذو طوى مثل الطاء ويون : موضع قرب مكة ، والحجون : جبل مشرف بمكة ، وفي شرح البيون

أنه قال : « قد جئكم بماء العاذية ، لانتشبه ماء أم الحنافس » يعني زمزم .

أَجْرَى ذَلِكَ عَلَى يَدَيِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَلَعْنُهُ ، فَالْعَنُوْهُ لَعْنَةُ اللَّهِ « ثم نزل .

(القدر المفيد ٢ : ١٠٨ - ٣ : ١١)

٣٠٥ - خطبة له في الحث على مكارم الأخلاق

وقام على المنبر بواسط ، فحمد الله ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ،

ثم قال :

« أَيُّهَا النَّاسُ ، نَافِسُوا فِي الْمَكَارِمِ ، وَسَارِعُوا إِلَى الْمَغَانِمِ ، وَاشْتَرُوا الْحَمْدَ بِالْجُودِ ، وَلَا تَكْسِبُوا بِالْمُظْلِ ذِمًّا ، وَلَا تَعْتَدُوا بِالْمَعْرُوفِ مَا لَمْ تَعْلَوْهُ ، وَمَهْمَا يَكُنْ لِأَحَدٍ مِنْكُمْ عِنْدَ أَحَدٍ نِعْمَةٌ فَلْيَبْلُغْ شُكْرَهَا ، فَإِنَّهُ أَحْسَنُ لَهَا جِزَاءً ، وَأَجْزَلُ عَلَيْهَا عَطَاءً ، وَاعْلَمُوا أَنَّ حَوَائِجَ النَّاسِ إِلَيْكُمْ ، نِعْمَةٌ مِنْ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ، فَلَا تَمَلُّوا النِّعَمَ فَتَحْوِلُوهَا نِقْمًا ، وَاعْلَمُوا أَنَّ أَفْضَلَ الْمَالِ مَا أَكْسَبَ أَجْرًا ، وَأَوْرَثَ ذِكْرًا ، وَلَوْ رَأَيْتُمُ الْمَعْرُوفَ رَجُلًا رَأَيْتُمُوهُ حَسَنًا جَمِيلًا يَسُرُّ النَّاطِرِينَ ، وَلَوْ رَأَيْتُمُ الْبَخِلَ رَجُلًا رَأَيْتُمُوهُ مُشَوَّهًا قَبِيحًا تَنْفِرُ عَنْهُ الْقُلُوبُ ، وَتُغْضِي عَنْهُ الْأَبْصَارُ .

أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنْ أَجْوَدَ النَّاسُ مَنْ أَعْطَى مَنْ لَا يَرْجُوهُ ، وَأَعْظَمَ النَّاسُ عَفْوَكَ مَنْ عَفَا عَنْ قُدْرَةٍ ، وَأَوْصَلَ النَّاسُ مَنْ وَصَلَ مَنْ قَطَعَهُ ، وَمَنْ لَمْ يَطْبَحْ حَرَّتَهُ ، لَمْ يَرْكُ^(١) نَبْتُهُ ، وَالْأَصُولُ عَنْ مَغَارِمِهَا تَنْمُو ، وَبِأَصُولِهَا تَسْمُو . أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ » .

(مسج الأعشى ١ : ٢٢٣ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٥٥ ، وشرح البيهقي ٢٠٥)

٣٠٦ - خطبة له يوم عيد

خطب فذكر الله وَجَلَّالَهُ ، ثم قال :

« كُنْتُ كَذَلِكَ مَا شِئْتُ أَنْ تَكُونَ ، لَا يَعْلَمُ كَيْفَ أَمْتُ إِلَّا أَنْتَ ، ثُمَّ

ارتأيت أن تَخْلُقَ الخَلْقَ ، فإذا جئتَ به من عجائب صنمك ؟ والكبيرُ والصغيرُ
مِنْ خَلْقِكَ ، والظاهرُ والباطِنُ مِنْ ذَرِّكَ ، من صُنُوفِ أَفْوَاجِهِ ^(١) ، وأفراده
وأزواجه ، كيف أدبجتَ ^(٢) قِوَامَ الذَّرَّةِ والبُؤْسَةِ ، إلى ماهو أعظم من ذلك ،
من الأشباح ، التي امتزجت بالأرواح . (عيون الأخبار م ٧ : ص ٢٤٦)

٣٠٧ — قوله وقد سقطت جرادة على ثوبه

وكان خالد إذا تكلم يظن الناس أنه يصنع الكلام ، لمذوبة لفظه ، وبلاغة
منطقه ، فيينا هو يخطب يوماً إذ سقطت جرادة على ثوبه ، فقال :
« سبحانَ مَنْ الجِرادَةُ من خَلْقِهِ ، أدمجَ قِوَامَها ، وطوّفَها جَنَاحَها ، ووَشَّى ^(٣)
جلدها ، وسلّطَها على ماهو أعظم منها » .

(عيون الأخبار م ٧ : ص ٢٤٧ ، والقدر الفريد ٢ : ١٦٣)

٣٠٨ — خطبة يوسف بن عمر الثقفي ^(١) (قتل سنة ١٢٧ هـ) قام خطيباً ، فقال :

اتقوا الله عبادَ الله ، فكم من مُؤَمِّلٍ أَمَلًا لَا يَنْتَلُهُ ، وجامعٍ مَالًا لَا يَأْكُلُهُ ،
ومانعٍ عما سوف يتركه ، ولملأه من باطلٍ جَمَعَهُ ، ومن حقٍّ مَنَعَهُ ، أصابه حَرَامًا ،
وأورثه عَدُوًّا ، فاحتمل إضره ^(٥) ، وباءَ بِوِزْرِهِ ، وورد على ربه آسِفًا لاهِفًا ، قد
خَصِرَ الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المين .

(القدر الفريد ٢ : ١٥٨ ، والبيان والبيان ٢ : ٧١ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٥٥)

[١] جمع فوج كشمس ، وهو الجماعة . [٢] من أدمج الجبل : أحكم قله في رقة .

[٣] هتس ونتم وزين . [٤] هو ابن ابن عم الحجاج ، ولاء هشام بن عبد الملك اليميني سنة ١٠٦ هـ ،

ثم ولاء المراق سنة ١٢٠ هـ بعد عزل خالد بن عبد الله القسري ، وقتل سنة ١٢٧ هـ .

[٥] الإضر : التعب .

خطب الفتن والأحداث

فتنة المدينة ووقعة الحرة

٣٠٩ - خطبة عبد الله بن حنظلة الأنصاري

وقد علم بقدم جيش الشام إلى المدينة (قتل سنة ٦٣ هـ)

لما كره أهل المدينة خلافة يزيد بن معاوية ، وبايعوا عبد الله بن حنظلة الأنصاري على خلعهم ، ووثبوا على من كان بالمدينة من بني أمية وحصرهم وأخافهم ، وجه إليهم يزيد جيشاً من أهل الشام بقيادة مسلم بن عقبة المرتضى ، ونحى إليهم خبر مقدمه عليهم ، فجمعهم عبد الله بن حنظلة ، فقال : « تبايعوني على الموت ، وإلا فلا حاجة في بيعتكم » فبايعوه على الموت ، ثم صعد المنبر : فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : إنما خرجتم غضباً لدينكم ، فأبئوا إلى الله بلاء حسناً ، ليوجب لكم به الجنة ومغفرته ، ويحل بكم رضوانه ، واستعدوا بأحسن عذتكم ، وتأهبوا بأكل أهابتكم ، فقد أخبرت بأن القوم تزلوا بذى خشب^(١) ومهم مروان بن الحكم ، والله إن شاء مهلكه بنقضه العهد والميثاق عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٢) » .

[١] ذو خشب : واد على مسيرة ليلة من المدينة . [٢] وذلك أن أهل المدينة كانوا قد أخرجوا مروان بن الحكم وكبراء بني أمية من المدينة ، وحلقوه عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن لقوا جيش يزيد ليردوهم منهم إن استطاعوا ، فإن لم يستطيعوا مضوا إلى الشام ، ولم يرجعوا معهم ، لحلقوا لهم على ذلك .

فتصايح الناس ، وجعلوا ينالون منه ويسبونه ، فقال لهم : « إن الشتم ليس بشيء ، نصدقهم اللقاء ، والله ما صدق قوم قط إلا نصروا » ، ثم رفع يديه إلى السماء ، وقال : « اللهم إنا بك واثقون ، وعليك متوكلون ، وإليك ألقانا ظهورنا » ثم نزل . (الاملة والبيعة ١ : ١٥٤)

٣١٠ - خطبة مسلم بن عقبة يؤنب أهل الشام

وأقبل مسلم بجيشه إلى المدينة ، فحاصرها من جهة الحرّة^(١) ، ودعا أهلها إلى الطاعة ومراجعة الحق ، وأجلهم ثلاثاً فلم يُذعنوا لقوله ، ونشبت الحرب بين الفريقين ، وحملت خيل ابن حنظلة على أهل الشام فأنكشفوا ، وقُتل صاحب رأيهم ، فأخذ مسلم الراية ، ونادى :

« يا أهل الشام ، أهذا القتال قتال قوم يريدون أن يدفعوا به عن دينهم ؟ وأن يُعزّوا به نصر إمامهم ؟ قبح الله قتالكم منذ اليوم ، ما أوجع قلبي ، وأغيظه نفسي ! أما والله ما جزأكم عليه إلا أن تُحرموا العطاء ، وأن تُجمرُوا في أقاصى النور ، شدّوا مع هذه الراية ، ترّح^(٢) الله وجوهكم إن لم تُعْتَبُوا^(٣) . »

(تاريخ الطبري ٧ : ٩)

٣١١ - خطبة مسلم يحرضهم

ثم إن خيل مُسلم ورجاله أقبلت نحو ابن حنظلة ورجاله حتى دَنَوْا منه ، وأخذ مسلم يسير في أهل الشام ويحرضهم ، ويقول :

« يا أهل الشام ، إنكم لستم بأفضل العرب في أحسابها ولا أنسابها ، ولا

[١] الحرّة : أرض بظاهر المدينة بها حجارة سود كبيرة . [٢] ترّح : تركها كفرح فرما : حزن ، وترّحه ترحماً : أحزنه . [٣] أعجبه : أعطاه العني (كفرني) وهو الرضا ، أى إن لم ترضوني بصدقكم القتال .

أَكْثَرَهَا عَدَدًا ، وَلَا أَوْسَعَهَا بِلَدًا ، وَلَمْ يَخْصُصْكُمْ اللَّهُ بِالَّذِي خَصَّكُمْ بِهِ مِنَ
النَّصْرِ عَلَى عَدُوِّكُمْ ، وَحُسْنِ الْمَنْزِلَةِ عِنْدَ أَتَمِّكُمْ ، إِلَّا بِطَاعَتِكُمْ وَاسْتِقَامَتِكُمْ ، وَإِنْ هَؤُلَاءِ
الْقَوْمَ وَأَشْبَاهَهُمْ مِنَ الْعَرَبِ غَيَّرُوا ، فَغَيَّرَ اللَّهُ بِهِمْ ، فَمَتُّوا ^(١) عَلَى أَحْسَنِ مَا كُتِمَ
عَلَيْهِ مِنَ الطَّاعَةِ ، يُتِمِّمُ اللَّهُ لَكُمْ أَحْسَنَ مَا يُبَيِّلُكُمْ مِنَ النَّصْرِ وَالْفَلَجِ ^(٢) .
(تاريخ الطبري ١٠ : ٧)

٣١٢ - خطبة ابن حنظلة يحرّض أصحابه

وقام عبد الله بن حنظلة في أصحابه حين رآهم قد أقبلوا يمشون تحت
راياتهم ، فقال :

« يَا هَؤُلَاءِ : إِنْ عَدُوَّكُمْ قَدْ أَصَابُوا وَجْهَ الْقِتَالِ الَّذِي كَانَ يَنْبَغِي أَنْ تَقَاتِلُوهُمْ
بِهِ ، وَإِنِّي قَدْ ظَنَنْتُ أَلَّا تَلْبَسُوا إِلَّا سَاعَةً ، حَتَّى يَفْصِلَ اللَّهُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ ، إِمَّا
لَكُمْ وَإِمَّا عَلَيْهِمْ ، أَمَّا إِنْكُمْ أَهْلُ الْبَصِيرَةِ وَدَارِ الْمُهْجَةِ ! وَاللَّهِ مَا أَظُنُّ رَبِّكُمْ
أَصْبَحَ عَنْ أَهْلِ بِلَدٍ مِنْ بُلْدَانِ الْمُسْلِمِينَ بِأَرْضَى مِنْهُ عَنْكُمْ ، وَلَا عَلَى أَهْلِ بِلَدٍ مِنْ
بُلْدَانِ الْعَرَبِ بِأَسْخَطَ مِنْهُ عَلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُمْ ، إِنْ لِكُلِّ امْرَأٍ مِنْكُمْ
مَيْتَةٌ هُوَ مَيْتُهَا ، وَاللَّهِ مَا مِنْ مَيْتَةٍ بِأَفْضَلَ مِنْ مَيْتَةِ الشَّهَادَةِ ، وَقَدْ سَاقَهَا اللَّهُ
إِلَيْكُمْ ، فَاعْتَمِنُوهَا ، فَوَاللَّهِ مَا كَلَّمَا أَرَدْتُمُوهَا وَجَدْتُمُوهَا » .

ودارت الدائرة على أهل المدينة ، وقُتِلَ ابن حنظلة فيمن قُتِلَ ، ودخل مسلم
المدينة ^(٣) ، وَكَانَتْ وَقْعَةُ الْحَرَّةِ فِي ذِي الْحِجَّةِ سَنَةِ ٦٣ هـ .

(تاريخ الطبري ١٠ : ٧)

[١] تَمَّ عَلَى الْأَمْرِ وَتَمَّ عَلَيْهِ كَهَرَبِ أَيْ اسْتَعْرِ عَلَيْهِ .

[٢] الْفَلَجُ : الْخَطَرُ وَالنَّصْرُ . [٣] انظر ص ١٨٥ .

اضطراب الأمر بعد موت يزيد

٣١٣ - خطبة عيد الله بن زياد بن أبيه

قام عبيد الله بن زياد بن أبيه خطيباً بعد موت يزيد بن معاوية - وهو يومئذ أمير المراق - فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« يا أهل البصرة ، انسبوني ، فوالله ما مهاجر أبي إلا إليكم ، وما مؤلدي إلا فيكم ، وما أنا إلا رجل منكم ، ولقد وليتكم وما أحصى ديوان مقاتلتكم إلا سبعين ألف مقاتل ، ولقد أحصى اليوم ديوان مقاتلتكم ثمانين ألفاً ، وما أحصى ديوان عمالكم إلا تسعين ألفاً ، ولقد أحصى اليوم مائة وأربعين ألفاً ^(١) ، وما تركت لكم ذا ظنة ^(٢) أخافه عليكم ، إلا وهو في سجنكم هذا ، وإن أمير المؤمنين : يزيد بن معاوية قد توثق ، وقد اختلف أهل الشام ، وأتم اليوم أكثر الناس عدداً ، وأعرضه فناء ، وأغناه عن الناس ، وأوسعهُ بلاداً ، فاختاروا لأنفسكم رجلاً ترتضونه لدينكم وجماعتكم ، يُجاهد عدوكم ، ويُنصف مظلومكم من ظالمكم ، ويكف سفهاءكم ، ويُنجي لكم فيتكم ، ويقسمه فيما بينكم ، فأنا أول راضٍ من رضىتموه وتابيع ، فإن اجتمع أهل الشام على رجل ترتضونه ، دخلتم فيما دخل فيه المسلمون ، وإن كرهتم ذلك كتم على جديلتكم ^(٣) حتى تُعطوا حاجتكم ، فابكم إلى أحدم أهل البلدان حاجة ، وما يستغنى الناس عنكم » .

[١] وفي البيان والبيان : « والله لقد وليكم أبي وما مقاتلتكم إلا أربعون ألفاً ، فبلغ بها ثمانين ألفاً وما ذريتكم إلا ثمانون ألفاً ، وقد بلغ بها عشرين ومائة ألف ، وأتم أوسع الناس بلاداً ، وأكثره جنوداً وأبعد مقاداً ، وأغنى الناس عن الناس . . . الخ » . [٢] الظنة : التهمة . [٣] الجدلية : الطريقة ، يقال : ما زال على جدية واحدة ، أي على حال واحدة ، وطريقة واحدة .

فقامت خطباء أهل البصرة ، فقالوا : قد سمعنا مقاتلك أيها الأمير ، وإننا والله ما نعلم أحداً أقوى عليها منك ، فهُلُمْ فَلَنْبَايَكَ ، فقال : لاجأه لى فى ذلك ، فاختاروا لأنفسكم ، فأبوا عليه ، وأبى عليهم ، حتى كرّروا ذلك عليه ثلاث مرات ، فلما أبوا بسط يده فبايعوه .

فلما خرجوا من عنده جعلوا يمسحون أكفهم بالحيطان وباب الدار ، ويقولون : ظن ابن مَرْجَانَةَ أَنَّا نُوَلِّيهِ أَمْرَنَا فى الْفُرْقَةِ ! وأقام عبيد الله أسيراً غير كثير ، حتى جعل سلطانه يَضْعَفُ ، ويأثر بالأمر فلا يُقْضَى ، وَيَرَى الرأى فَيُرَدُّ عَلَيْهِ ، ويأمر بحبس المخطئ فيُحَال بين أعوانه وبينه .

(تاريخ العاصمى ٧ : ١٨ ، واليان والتبيين ٢ : ٦٥ ، وروج الذهب ٢ : ١٠٠)

٣١٤ — خطبة أخرى له

وبلغته أن سَلَمَةَ بن ذُوَيْب يدعو الناس إلى ابن الزبير ، فأمر فتودى : الصلاة جامعة ، فتجمع الناس ، فأنشأ عبيد الله يَقْصُّ أول أمره وأمرهم ، وما قد كان دعاهم إلى من يرتضونه ، فيبایعه معهم ، وقال : « وإني أَيْتَمُّ غيرى ، وإنه بلغنى أنكم مسختم أكفكم بالحيطان وباب الدار ، وقلتم ما قلتم ، وإني آثر بالأمر فلا يُنْفَذ ، وَيُرَدُّ عَلَى رَأْيِي ، وَتَحُولُ الْقِبَالُ بين أعوانى وَطَلَبَتِي ^(١) ، ثم هذا سَلَمَةُ بن ذُوَيْب يدعو إلى الخلفاء عليكم ، إرادة أن يُفَرِّق جماعتكم ، ويضرب بعضكم جباًه بعض بالسيف » .

فقال الأحنف بن قيس والناس جميعاً : نحن نأتيك بِسَلَمَةَ ، فأتوه ، فإذا

جَمْعُهُ قَدْ كُثِفَ ، وَإِذَا الْفَتْقُ قَدْ آتَسَعَ عَلَى الرَّاتِقِ ، وَامْتَنَعَ عَلَيْهِمْ ، فَقَعَدُوا عَنْ
ابن زياد فلم يأتوه .

وروى أنه قال في خطبته : « يَا أَهْلَ الْبَصْرَةِ ، وَاللَّهِ لَقَدْ لَبِسْنَا الْخَزَّ وَالْيُمْنَةَ ^(١)
وَاللَّيْنَ مِنَ الثِّيَابِ ، حَتَّى لَقَدْ أَجَنَّا ^(٢) ذَلِكَ ، وَأَجَنَّتْ جُلُودُنَا ، فَمَا بَنَا إِلَى أَنْ
نُعْقِبَهَا الْحَدِيدَ ؟ يَا أَهْلَ الْبَصْرَةِ ، وَاللَّهِ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى ذَنْبٍ عَيْرٍ لَتَكْسِرُوهُ
مَا كَسَرْتُمُوهُ » . (تاريخ الطبري ٧ : ٢٠)

٣١٥ - خطبة عمرو بن حريث

ولما بايع أهلُ البصرة عبيدَ الله بن زياد - وكانَ خليفته على الكوفة عمرو بن
حُرَيْث - بَسَتْ وَافِدَيْنِ مِنْ قِبَلِهِ إِلَى الْكُوفَةِ : عَمْرُو بْنُ مِثْمَعٍ ، وَسَعْدُ بْنُ الْقَرَّاءِ ^(٣)
الْتِمِيسِي ، لِيَعْلَمَ أَهْلُ الْكُوفَةِ مَا صَنَعَ أَهْلُ الْبَصْرَةِ ، وَيَسْأَلَانِهِمُ الْبَيْعَةَ لِابْنِ زِيَادٍ ،
حَتَّى يَصْطَلِحَ النَّاسُ ، فَجَمَعَ النَّاسَ عَمْرُو بْنُ حَرْيْثَ ، فَحَمْدَ اللَّهَ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ،
ثُمَّ قَالَ :

« إِنْ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ قَدْ أَتَيَاكُمْ مِنْ قِبَلِ أَمِيرِكُمْ ، يَدْعُوَانَكُمْ إِلَى أَمْرٍ يَجْمَعُ اللَّهَ
بِهِ كَلَّتْكُمْ ، وَيُصْلِحَ بِهِ ذَاتَ يَدَيْكُمْ ، فَاسْمَعُوا مِنْهُمَا ، وَاقْبَلُوا عَنْهُمَا ، فَإِنَّهُمَا
بِرُشْدٍ مَا أَتَيَاكُمْ » .

٣١٦ - خطبة عمرو بن مسمع

فَقَامَ عَمْرُو بْنُ مِثْمَعٍ ، فَحَمْدَ اللَّهَ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، وَذَكَرَ أَهْلَ الْبَصْرَةِ ، وَاجْتِمَاعَ
رَأْسِهِمْ عَلَى تَأْمِيرِ عَبِيدِ اللَّهِ بْنِ زِيَادٍ ، حَتَّى يَرَى النَّاسُ رَأْيَهُمْ ، فِيمَنْ يُولُونَهُمْ عَلَيْهِمْ وَقَالَ :

[١] اليمنة : بردى . [٢] أجه : أراحه ، وأسله من أجم الفرس : تركه فلم يركبه فجا من حبه ،
والجام بالفتح : الراحة . [٣] القرءاء في الأصل : الروضة في وسطها نور أبيض .

« قد جئناكم لنجمع أمرنا وأمركم ، فيكونَ أميرُنا وأميركم واحداً ، فإنما الكوفة من البصرة ، والبصرة من الكوفة » .

وقام ابن القرهاء ، فتكلم نحواً من كلام صاحبه ، فقام يزيد بن الحارث الشيباني فحَصَبَهما أولَ الناس ، ثم حصبهما الناس بعدُ ، ثم قال : أنحن نباع لابن مَرْجَانَةَ ؟ لا ولا كرامة ! ورجع الوفد إلى البصرة ، فأعلم الناس الخبر ، فقالوا : أهل الكوفة يخلعونهم ، وأنتم تؤثرونه وتبايعونه ؟ فَوَثَّبَ به الناس ، فاستجار بمسعود بن عمرو الأزدي فأجاره ومنعه ، ثم خرج إلى الشام في خِفَارَةٍ رجال من الأزدي وبكر بن وائل . (تلويح الطبري ٧ : ٣٠)

٣١٧ — خطبة الأحنف بن قيس

واستخلف ابن زياد مسعود بن عمرو الأزدي على البصرة ، فقالت بنو تميم وقيس : لا نولى إلا رجلاً ترضاه جماعتنا ، فقال مسعود : قد استخفني ، فلا أدع ذلك أبداً ، وبينما هو على النهر يبائع من أتاه ، إذ رماه رجل من الخوارج فقتله ، فخرجت الأزدي إلى الخوارج ، فقتلوا منهم وجرّحوا ، وطردهم عن البصرة ، وجاءهم الناس ، فقالوا لهم : تعلمون أن بني تميم يزعمون أنهم قتلوا مسعود بن عمرو ؟ فبعثت الأزدي تسأل عن ذلك ، فإذا أناس منهم يقولونه ، فاجتمعت الأزدي عند ذلك ، وازدلفوا إلى بني تميم ، وخرجت مع بني تميم قيس ، وخرج مع الأزدي بكر بن وائل ، فالتقى القوم ، واقتتلوا أشد القتال ، فقتل من الفريقين قتلى كثيرة ، فقالت لهم بنو تميم : اللَّهُ أَفْهَى اللَّهُ يا معشر الأزدي في دماننا ودمائكم ، بيننا وبينكم القرآن ، ومن شئتم من أهل الإسلام ، فإن كانت لكم علينا بَيِّنَةٌ أنا قتلنا صاحبكم ، فاختاروا أفضل رجل فينا ، فاقتلوه بصاحبكم ، وإن لم تكن لكم بَيِّنَةٌ ، فإننا نخلف بالله ما قَتَلْنَا ولا أَمَرْنَا ، ولا نعلم لصاحبكم قاتلاً ، وإن لم تريدوا ذلك ، فنحن نَدِي صاحبكم بمائة ألف درهم ، فاصطلحوا ، فاتاهم الأحنف بن قيس ، فقال :

« يا معشر الأزد : أنتم جبرئتنا في الدار ، وإخوتنا عند القتال ، وقد أتيناكم في رحالكم ، لإطفاء حشيشتكم ^(١) ، وصل سخيبتكم ^(٢) ، ولكم الحكم منسلا ^(٣) ، فقولوا ، على أعلامنا وأموالنا ، فإنه لا يعمأظمنا ^(٤) ذهاب شيء من أموالنا كان فيه صلاح بيننا » ، فقالوا : أتدنون صاحبنا عشر ديات ؟ قال : هي لكم ، فانصرف الناس واصطلحوا ^(٥) .

وروى الجاحظ وابن عبد ربه هذه الخطبة بصورة أخرى ، وهما ذى : قال بعد حمد الله والتناء عليه : « يا معشر الأزد وزبيعة ، أنتم إخواننا في الدين ، وشركاؤنا في الصهر ، وأشقاؤنا في النسب ، وجيراننا في الدار ، ويدنا على العدو ، والله لأزدد البصرة أحب إلينا من تميم الكوفة ، ولأزدد الكوفة أحب إلينا من تميم الشام ، فإن استشرفت شنائكم ^(٦) ، وأبى حسد صدوركم ، ففي أموالنا ، وسعة أعلامنا ، لنا ولكم سعة » .

(تاريخ الطبري ٨ : ٣١ ، والبيان والبيان ٢ : ٦٨ ، والمقد الفريد ٢ : ١٥٧)

٣١٨ — خطبة روح بن زنباع الجذامي بالمدينة ^(٧)

لما نفي هلاك يزيد بن معاوية إلى الحصين بن ثمير - وهو على حرب ابن

[١] أى نركم الموقدة . من حش النار : أوقدها ، فهي فضيلة بمعنى مفعولة (وإن كانت لم ترد في كتب اللغة بهذا المعنى ، لكن القياس لا يمنعها ، والوارد : الحشيشة طاقة الكلاء) . [٢] السخبة : الحقد . [٣] أى مطلقا كما تشاءون . [٤] تناظله : عظم عليه .

[٥] واجتمع أهل البصرة على أن يجملوا عليهم منهم أميرا يصلى بهم حتى يجتمع الناس على امام ، فجلوا عبد الملك بن عبد الله بن عامر شيئا . ثم جلوا عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب - وهو يثية - فصلى بهم شهرين ، ثم قدم عليهم عمر بن عبيد الله بن مسر من قبل ابن الزبير ، فكث شهره ، ثم قدم الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة للروف بالبيعة ، ثم مصعب بن الزبير ، أما أهل الكوفة فإنهم لما ردوا وفد البصرة ولوا عليهم عامر بن مسعود القرظي ، ثم قدم عليهم عبد الله بن يزيد الأنصاري من قبل ابن الزبير كما تقدم . [٦] استشرفت : انتصب ، أى زاد واستحكم ، والشتان : البغض والكرامية . [٧] هو روح بن زنباع - سيد جنهم - إحدى قبائل اليمن - وقد خلفه مسلم بن عقبة للرعى ، على المدينة بعد فراغه من قتال أهلها - في وقعة الحرة - وشخصه إلى مكة لقتال ابن الزبير - وقد نزل الموت

الوزير بمكة - انصرف يجيشه إلى الشام ، فلما صاروا إلى المدينة ، جعل أهلها يهتفون ^(١) بهم ، ويتوعدونهم ، ويدكرون قتلام بالحرة ، فلما أكثروا من ذلك وخافوا الفتنة وهيجها ، صعد روح بن زنباع الجذامي على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم - وكان في ذلك الجيش - فقال :

يسلم في الطريق ، وولى أمر الجيش الحسين بن نعيم - ولما كانت الفتنة بعد موت معاوية الثاني ، دعا حسان ابن مالك بن جحد الكلي - وكان على فلسطين والأردن - روح بن زنباع فاستخلفه على فلسطين ، ونزل هو الأردن ، فوثب نائل بن قيس الجذامي على روح ، فاخرجه من فلسطين ، وبايع لابن الزبير . « الطبري ج ٧ : ص ١٣ و ٣٤ ، والأعالي ١٧ : ١١١ » ، وكان لروح اليد الطولى في ظفر مروان ابن الحكم بالخلافة ، قال صاحب القصد « ج ٢ : ص ٢٥٩ » لما مات معاوية بن يزيد بايع أهل الشام كلهم ابن الزبير إلا أهل الأردن ، وبايع أهل مصر أيضا ابن الزبير ، واستخلف ابن الزبير الضحاك بن قيس الفهري على أهل الشام ، فلما رأى ذلك رجال بني أمية وناس من أشرف الشام ووجوههم منهم روح بن زنباع وغيره ، قال بعضهم لبعض : إن الملك كان فينا أهل الشام ، فانتقل عنا إلى الحجاز ، لا نرضى بذلك حل لكم أن تأخذوا رجلا منا فينظر في هذا الأمر ؟ فقال : استخبروا الله ، فأتوا عمرو بن سعيد بن العاص ، فقالوا له : ارفع رأسك لهذا الأمر ، فأروه حدثا ، فجاؤا إلى خالد بن يزيد بن معاوية ، فقالوا له : ارفع رأسك لهذا الأمر ، فأروه حدثا حريصا على هذا الأمر ، فلما خرجوا من عنده قلوا : هذا حديث فأتوا مروان بن الحكم ، فقالوا : يا أبا عبد الملك ارفع رأسك لهذا الأمر ، فقال : استخبروا الله ، وأسألوه أن يختار لأمة محمد صلى الله عليه وسلم خيرا وأعد لها ، فقال له روح بن زنباع : إن مى أربماة من جناب ، فأنا أكرم أن يقدموا في المسجد قدا ، ومرة أنت ابنك عبد العزيز أن يخطب الناس ويدعوم إليك ، فإذا فعل ذلك تتادوا من جانب المسجد : صدقت صدقت ! فيظن الناس أن أكرم واحد ، فلما اجتمع الناس قام عبد العزيز فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قل :

« ما أحد أولى بهذا الأمر من مروان ، كبير قريش وسيدها ، والذي نفسى بيده لقد

شاب شعر ذراعيه من الكبر » فقال الجذاميون : صدقت صدقت ! فقال خالد بن يزيد : أمر دبر بليل ! فبايعوا مروان بن الحكم اه . ومن أجل ذلك كان روح أنيرا عند عبد الملك بن مروان « كما يقول للبرد في الكامل ٢ : ١٢٢ » ، ويقول ابن نباتة في سرح البيون ص ١١٣ : « وكان روح يتزلة نائب عبد الملك » ويقول صاحب القصد : « وكان روح بن زنباع وزير عبد الملك » - ٢ : ٧٠ ، ٣ : ٦ - قال ابن طباطبا في الفخرى ص ١٣٦ : « والوزارة لم تشهد فواعدها ، وتقرر قوانينها إلا في دولة بني العباس ، فلما قبل ذلك ، فلم تكن مقتنة القواعد ، ولا مقررة القوانين ، بل كان لكل واحد من الملوك أتباع وحشية ، فلما حدث أمر استنثار ذوى المحي والآراء الصائبة ، فنكل منهم مجرى مجرى وزير ، فلما ملك بن العباس تقرر قوانين الوزارة ، وسمى الوزير وزيرا ، وكان قبل ذلك يسمى كاتباً أو مشيراً ، وأول وزير وزر لأول خليفة عباسي حفص بن سليمان أبو سلة الخلال وزير السجاح » .

« يا أهل المدينة : ما هذا الإيعاد^(١) الذي توعِدُوننا ؟ إنا والله ما دعوناكم إلى « كَلْب » لمبايعة رجل منهم ، ولا إلى رجل من « بَلَقَيْن »^(٢) ولا إلى رجل من « نَحْم » أو « جَذَام » ولا غيرهم من العرب ، ولكن دعوناكم إلى هذا الحَيِّ من قريش - يعني بنى أمية - ثم إلى طاعة يزيد بن معاوية ، وعلى طاعته قاتلناكم ، فَإِنَّا نَوَعِدُكُمْ ؟ أَمَا وَاللَّهِ إِنَّا لَأَبْنَاءُ الطَّمَنِ وَالطَّاعُونَ ، وَفَضَّلَاتُ الْمَوْتِ وَالْمُنُونِ ، فَاشْتُمِ^(٣) » ، ومضى القوم إلى الشام .

(مروج الذهب ٢ : ١٠٤ ، والبيان ١ : ٢٠٨)

٣١٩ — خطبته يؤيد مبايعة مروان بن الحكم بالخلافة

ولما اجتمع الرأي على البيعة لمروان بن الحكم ، قام رَوْح بن زُبَيْع ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّكُمْ تَذْكُرُونَ عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وَتُحِبُّونَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَقَدَّمَهُ فِي الْإِسْلَامِ ، وَهُوَ كَمَا تَذْكُرُونَ ، وَلَكِنْ ابن عمر رجل ضعيف ، وليس بصاحب أمة محمد الضعيف ؛ وَأَمَّا مَا يَذْكُرُ النَّاسُ مِنْ عبد الله بن الزبير ، وَيَذْعُونَ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرِهِ ، فَهُوَ وَاللَّهِ كَمَا يَذْكُرُونَ ، إِنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ الزَّبِيرِ : حَوَارِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَأَبْنُ أَسْمَاءَ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ ذَاتِ النِّطَاقَيْنِ ، وَهُوَ بَعْدُ كَمَا تَذْكُرُونَ فِي قَدَمِهِ وَفَضْلِهِ ، وَلَكِنْ ابن الزبير

[١] يقال : وعده خيرا وبه ، ووعدته شرا وبه — ومن هذا قوله تعالى :

« النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبَاسَ لِلصَّيْرِ » فإذا أسقطوا الخير والشر ، قالوا في الخير وعد وفي الشر أُرْءِد ، وقالوا أوعده خيرا وشرا بالألف أيضا ، وأدخلوا الباء مع الألف في الشر خاصة ، فقالوا أوعده بالسجن ونحوه . [٢] أصله بنو الذين كما قالوا : بلعارت في بني الحارث ، وبلعير في بني النضير . قال البرد في الكامل ٢ : ١٨٣ « وكذلك كل اسم من أسماء القبائل ظهر فيه لام للعرفة ، فإنهم يجيزون معه حذف النون التي في قولك (بنو) اقرب تخرج النون من اللام ، وذلك قولك فلان من بلعارت وبلعير وبلهيم » أي بنو الهيم كزبير .

[٣] وروى الجاحظ أن روحا خطب هذه الخطبة يدعو إلى بيعة يزيد بن معاوية ، وفي آخرها يقول : « وهذا إن أجيتم وأطعتم من الموءة والفائة ماشتم » .

منافق ، قد خلع خليفتين : يزيد وابنة معاوية بن يزيد ، وسَفَكَ الدماء ، وشقَّ عَصَا المسلمين ، وليس صاحبَ أُمّةٍ محمد صلى الله عليه وسلم المنافقُ ؛ وأما مروان بن الحكم ، فوالله ما كَانَ في الإسلام صَدْعٌ قَطُّ ، إلا كَانَ مروان ممن يَشْعَبُ ^(١) ذلك الصَّدْعَ ، وهو الذي قاتل عن أمير المؤمنين عثمان بن عفّان يوم الدار ^(٢) ، والذي قاتل عليّ بن أبي طالب يوم الجمل ، وإنا نرى للناس أن يُبايعوا الكبير ، ويستشيروا ^(٣) الصغير . — يعني بالكبير مروان بن الحكم ، وبالصغير خالد بن يزيد بن معاوية . —

فأجمع رأى الناس على البيعة لمروان . ثم لخالد بن يزيد من بعده ، ثم لعمر بن سعيد بن العاص من بعد خالد . (تاريخ الطبري ٧ : ٢٨)

٢٢٠ --- خطبة الغضبان بن القبعثرى يحض على قتل الحجاج

لما هلك يَشْرِبْنَ مَرْوَانَ ، وَوَلَّى الْحَجَّاجَ الْعِرَاقَ ، بَلَغَ ذَلِكَ أَهْلَ الْعِرَاقِ ، فَقَامَ الْغَضْبَانُ بْنُ الْقَبْعَثَرِيِّ الشَّيْبَانِيُّ بِالْمَسْجِدِ الْجَامِعِ بِالْكُوفَةِ خَطِيْبًا ، فَحَمَدَ اللَّهَ ، وَاثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :

« يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ ، وَيَا أَهْلَ الْكُوفَةِ ، إِنَّ عَبْدَ الْمَلِكِ قَدْ وَلَّى عَلَيْكُمْ مِنْ لَا يَقْبَلُ مِنْ مُحْسِنِكُمْ ، وَلَا يَتَجَاوَزُ عَنْ مُسِيئَتِكُمْ ، الظُّلُومَ النَّشُومَ ^(١) الْحَجَّاجَ ، أَلَا وَإِنْ لَكُمْ مِنْ عَبْدِ الْمَلِكِ مَنْزِلَةٌ ، بِمَا كَانَ مِنْكُمْ مِنْ خِذْلَانٍ مُضْعَبٍ ^(٢)

[١] يصلح . [٢] يوم تسود الثوار عليه داره وقتلوه .

[٣] ينتظروه حتى يشب . [٤] الظلوم .

[٥] وذلك أن مصعب بن الزبير لما كان على العراق حج سنة ٧١ ، قدم على أخيه عبد الله بن الزبير ، ومعه وجوه أهل العراق ، وسأله أن يطعمهم ، فأبى وقبض يده ، فلما حرمهم ابن الزبير ما عنده فسدت قلوبهم ، فراسلوا عبد الملك بن مروان ، حتى خرج إلى مصعب وقاله ، فها هو إلا أن انقضوا حتى حولوا وجوههم ، وصاروا إلى عبد الملك ، وتقى مصعب في شرفة قلعة ، فجاءه عبيد الله بن غلبان — وكان مع

وَقَتْلِهِ ، فَاعْتَرِضُوا هَذَا الْخَيْثَ فِي الطَّرِيقِ فَاقْتَلَوْهُ ، فَإِنْ ذَلِكَ لَا يُعَدُّ مِنْكُمْ خَلْعًا ، فَإِنَّهُ مَتَى يَمْلَأُ عَلَى مَتْنٍ مِنْكُمْ ، وَصَدْرُ سَرِيرِكُمْ ، وَقَاعَةُ قَصْرِكُمْ ، ثُمَّ قَتَلْتُمُوهُ عُدَّ خَلْعًا ، فَأُطِيعُونِي وَتَعَدُّوا بِهِ ، قَبْلَ أَنْ يَتَعَثَّى بِكُمْ .

فَقَالَ لَهُ أَهْلُ الْكُوفَةِ : « جَبَنْتَ يَا غَضْبَانُ ، بَلْ تَنْتَظِرُ سِيرَتَهُ ، فَإِنْ رَأَيْنَا مُنْكَرًا غَيْرَ نَاهٍ » قَالَ : سَتَعْلَمُونَ ، فَلَمَّا قَدِمَ الْحِجَابُ الْكُوفَةَ بِلِقَائِهِ مَقَاتِلُهُ ، فَأَمَرَ بِهِ ، فَأَقَامَ فِي حَبْسِهِ ثَلَاثَ سِنِينَ . (مروج الذهب ٢ : ١٤٦)

فتنة ابن الأشعث

جَهَّزَ الْحِجَابُ عَشْرِينَ أَلْفَ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ ، وَعَشْرِينَ أَلْفَ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ ، لِلْحَارِثَةِ رُمَيْيلَ مَلِكِ التُّرْكِ^(١) ، وَبَثَّ عَلَيْهِمْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مُحَمَّدٍ ابْنَ الْأَشْعَثِ بْنِ قَيْسِ الْكِنْدِيِّ ، فَخَرَجَ بِهِمْ حَتَّى قَدِمَ سِجِسْتَانَ (سنة ٨٠ هـ) فَجَمَعَ أَهْلَهَا حِينَ قَدِمَهَا وَخَطَبَهُمْ فَقَالَ .

٣٢١ - خطبة ابن الأشعث بسجستان

صَعِدَ الْمُنْبَرِ ، فَحَمْدَ اللَّهِ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :

« أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنْ الْأَمِيرَ الْحِجَابَ وَلَأَنِّي تُفَرِّكُم ، وَأَمَرَنِي بِجِهَادِ عَدُوِّكُمْ الَّذِي

مصعب - فقال : أَيْنَ النَّاسُ أَيُّهَا الْأَمِيرُ ؟ فقال : قد غدرتم بأهل العراق ! فرفع عبيد الله السيف ليضرب مصعباً ، فبدره مصعب فضربه بالسيف على البيضة ، ففتت البيضة ، فجاء غلام لبيد الله بن غلبان فضرب مصعباً بالسيف فقتله ، ثم جاء عبيد الله برأسه إلى عبد الملك بن مروان ، فلما نظر إلى رأس مصعب خر ساجداً ، قال عبيد الله بن غلبان - وكان من فاك العرب - ما نعتت على شيء قط ندى على عبد الملك ابن مروان ، إذ أنيته برأس مصعب ، فخر ساجداً ، أن لا أكون ضربت دمه ، فأكون قد قتلت ملكي العرب في يوم واحد . [١] انظر ص ٢٧٩

استباح بلادكم، وأباد خياركم، فإياكم أن تختطف منكم رجلٌ فيَحِلَّ بنفسه العقوبة،
اخرجوا إلى مُسَنِّركم، فمسكروا به مع الناس». (تاريخ الطبري ٨ : ٤)



٣٢٢ — خطبته يعرض على الجند رأى الحجاج

فلما حاز من أرض رُبَيْل أرضاً عظيمةً، وملا يديه من الفنائم والأسلاب، حَبَسَ
الناس عن الوُغُول في أرضه، وقال: نكتفي بما أصبناه العام من بلادهم، حتى نَجْمِيها ونعْرِفها
ويجتري المسلمون على طرقها، ثم تتعاطى في العام المقبل ما وراءها، ثم لم نزل ننتقمهم في
كل عام طائفة من أرضهم، ثم لا تُزِيل بلادهم حتى يهلكهم الله، وكتب إلى الحجاج
بذلك، فورد عليه كتاب الحجاج يَضِفُّ رأيه، ويأمره بالوُغُول في أرضهم، ويهدِّده
بالعزل إن لم يفعل، فدعا ابن الأشعث الناس إليه.

فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال:

«أيها الناس، إني لكم ناصح، ولصلاحيكم مُحِبٌّ، ولكم - في كل ما يُحِيط
بكم نَفْعُهُ - ناظرٌ، وقد كَانَ من رأيي فيما بينكم وبين عدوكم رأيٌ، أَسْتَشَرْتُ فيه
ذوي أحلامكم، وأُولِي التجربة للحرب منكم، فرضوه لكم رأياً، وراوه لكم في
العاجل والآجل صلاحاً، وقد كتبتُ إلى أميركم الحجاج، فجاءني منه كتاب
يمجِّزني ويضعفني، ويأمرني بتعجيل الوُغُول بكم في أرض العدو، وهي البلاد
التي هَلَكَ إخوانكم فيها بالأمس، وإنما أنا رجل منكم، أمضي إذا مضيتكم، وآبى
إذا أبيتكم».

فثار إليه الناس، فقالوا: لا، بل نأبى على عدو الله، ولا نسمع له ولا نطيع.

٣٢٣ — خطبة عامر بن واثلة الكناني

فقام عامر بن واثلة الكناني - وكان أول متكلم يومئذ ، وكان شاعراً خطيباً - فقال بعد أن حمد الله ، وأثنى عليه :

« أما بعد : فإن الحجاج والله ما يرى بكم إلا ما رأى القاتل الأول ، إذ قال لأخيه : « احمل عَبْدَكَ على الفرس ، فإن هَلَكَ هلك ، وإن نجا فَلكَ » . إن الحجاج والله ما يبالي أن يُخاطر بكم ، فَيَقْتَحِمَكم بلاداً كثيرةً اللُّهُوبُ ^(١) واللَّصُوبُ ^(٢) ، فإن ظفِرتم فننتم أكل البلاد ، وحاز المال ، وكان ذلك زيادةً في سلطانه ، وإن ظفِر عدوكم كنتم أنتم الأعداء البُقضاء الذين لا يبالي عنتهم ، ولا يُستقى عليهم ، اخلعوا عدو الله الحجاج ، ويايعوا عبد الرحمن ، فإنني أشهدكم أنني أولُ خالع . فنادى الناس من كل جانب : فعلنا فعلنا ، قد خلعنا عدو الله .

(تاريخ الطبري ٨ : ٨)

٣٢٤ — خطبة عبد المؤمن بن شُبث بن ربيع

وقام عبد المؤمن بن شُبث بن ربيع التيمي ثانياً ، فقال :
« عباد الله ، إنكم إن أطعتم الحجاج ، جعل هذه البلاد بلادكم ما بقيتم ، وجعركم تجمير فرعون الجنود ، فإنه باننى أنه أول من جرَّ البعوث ، ولن تماينوا الأجيّة فيما أرى أويعوت أكثرُكم ، بايعوا أميركم ، وانصرفوا إلى عدوكم ، فانفوه عن بلادكم » ، فوثب الناس إلى عبد الرحمن فبايعوه . (تاريخ الطبري ٨ : ٨)

[١] اللُّهُوب جمع لُهب كحمل ، وهو مهواة ما بين كل جبلين ، أو الصدع في الجبل ، أو الشعب المنير فيه (والشعب كحل : الطريق في الجبل) . [٢] جمع لعب كحل أيضاً ، وهو الشعب المنير في الجبل أضيق من الهب وأوسع من الشعب .

٣٢٥ . خطبة ابن الأشعث بالمربد

ولما كانت الحرب بينه وبين الحجاج بالمربد ^(١) خطب الناس ، فقال :
« أيها الناس : إنه لم يبقَ من عدوكم إلا كما بقي من ذنب الوزغة ^(٢)
تضرب به يميناً وشمالاً ، فالتبث إلا أن تموت ^(٣) » .

(البيان والتبيين ٢ : ٨٧ ، وتهذيب الكامل ١ : ٢١)

٣٢٦ — خطبته حين أراد عبد الملك أن يترضى أهل العراق

ولما نزل ابن الأشعث بدير الجاجم ، واجتمع أهل الكوفة ، وأهل البصرة ، وأهل
الثغور واللساح ^(١) بدير الجاجم والقراء من أهل اللصيرين ، واجتمعوا جميعاً على حرب
الحجاج - جمعهم عليه بعضهم وكراهيتهم له - وهم إذ ذاك مائة ألف مقاتل ، بمن يأخذ
العتاء ، ومعهم مثلهم من مواليتهم ، واشتد القتال بين الفريقين ، بعث عبد الملك بن مروان
ابنه عبد الله وأخاه محمداً ، وأمرهما أن يعرضا على أهل العراق ترزع الحجاج عنهم ، وأن
يجرى عليهم أعطياتهم ، كما تجرى على أهل الشام ، وأن ينزل ابن الأشعث أى بلد من العراق
شاء ، يكون عليه والياً ما دام حياً ، وكان عبد الملك والياً ، فرضا ذلك على أهل العراق ،
فقالوا : نرجع العشيّة ، فاجتمعوا عند ابن الأشعث ، فلم يبق قائد ، ولا رأس قوم ، ولا
فارس إلا أتاه .

فحمد الله ابن الأشعث ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فقد أُعْطِيتُمُ أمراً ، انتهزكم اليوم إياه فرصةٌ ، ولا آمن أن
يكون على ذى الرأي غداً حسرةٌ ، وإنكم اليوم على النصف ، وإن كانوا اعتدوا
بالزاوية ، فأنتم تعتدون عليهم يوم تُسْتَر ، فاقبلوا ما عَرَضُوا عليكم ، وأنتم أعزّاه

[١] موضع بالبصرة . [٢] الوزغة : سمّ أبرص سميت بها لحقتها وسرعة حركتها .

[٣] قال الجاحظ : فرّ به رجل من بني نضير فقال : « قبح الله هذا ورايه ، يأمر أصحابه بقلة الاحتراس

وبعدم الأضاليل ، وبغنيهم الباطل » وناس كثير يرون أن ابن الأشعث هو الحسن دون الفتيوى .

[٤] جمع مسلمة بالفتح وهم التتر .

أقوياء ، والقوم لكم هائبون ، وأنتم لهم منتقصون ، فلا والله لازتم عليهم أجر ثاء ، ولازتم عندهم أعزاء ، إن أنتم قبلتم أبداً ما بقيتم .

فوثب الناس من كل جانب ، فقالوا : إن الله قد أهلكهم ، فأصبحوا في الأزل^(١) والضنك والمجاعة والقلة والدلة ، ونحن ذوو العدد الكثير ، والسعر الرفيع ، والمادة القريبة ، لا والله لا تقبل ، فأعادوا خلع عبد الملك ثانية ، وكان ما كان مما أسلفنا لك ذكره . (تاريخ الطبري ٨ : ١٥)

٣٢٧ - عامر الشعبي والحجاج

وكان عامر الشعبي^(٢) ممن خرج مع ابن الأشعث ؛ فلما أتى الحجاج بأسرى الجماجم ، أتى فيهم بالشعبي مؤثماً . وكان قد تقدم كتاب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج في أمرى الجماجم أن يعرضهم على السيف ، فن أقر منهم بالكفر في خروجهم علينا فيخلى سبيله ، ومن زعم أنه مؤمن فيضرب عنقه . قال الشعبي : فلما جئت باب القصر لقيتني يزيد بن أبي مسلم كاتبه ، فقال : إنا لله يا شعبي ! لما بين دفتيك من العلم ، وليس اليوم يوم شفاعة . قلت له : فما المخرج ؟ قال : بؤ^(٣) للأمير بالشرك والنفاق على نفسك ، وبالحرى أن تنجو ، ثم لقيتني محمد بن الحجاج ، فقال لي مثل مقالة يزيد ، فلما دخلت على الحجاج قال لي : وأنت يا شعبي ممن ألب علينا مع ابن الأشعث ؟ أشهد على نفسك بالكفر . قلت : « أصلح الله الأمير ، نبأ بنا المنزل^(٤) ، وأجذب بنا الجناب ، وأستخلصنا^(٥) الخوف ،

[١] الضيق والشدة . [٢] هو أبو عمرو عامر بن سراحيل (يفتح التين) الشعبي (نسبة إلى شعب وهو بطن من همدان) وهو كوفي تابعي جليل القدر وافر العلم ، توفي سنة ١٠٥ هـ ، وكانت أمه من بني جلولاء . [٣] ارجع . [٤] نبأ منزله به : لم يراققه . [٥] أى لم يطارقنا .

وَكَتَحَلْنَا السَّهْرَ ، وَصَاقَ الْمَسْلَكُ ، وَخَبَطْنَا فَنَتَهُ لَمْ تَكُنْ فِيهَا بَرَّةً أَتَقِيَاءَ ، وَلَا
جَرَّةً أَقْوِيَاءَ » قَالَ : صَدَقْتَ وَاللَّهِ مَا بَرَزْتُمْ بِمُخْرُوجِكُمْ عَلَيْنَا وَلَا قَوِيَّتُمْ ، خَلُّوا
سَبِيلَ الشَّيْخِ . (مروج الذهب ٢ : ١٤٤ ، والقند الفرد ١ : ١٥١ - ١٢ : ٣)

٣٢٨ - أيوب بن القريّة والحجاج

وَكَانَ الْحَجَّاجُ قَدْ بَعَثَ أَيُوبَ بْنَ الْقُرَيْيَّةِ ^(١) رَسُولًا إِلَى ابْنِ الْأَشْعَثِ ، حِينَ
خَلَعَ الطَّاعَةَ بِسِجِسْتَانَ ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ ، قَالَ لَهُ : لَتَقُومَنَّ خَطِيْبًا ، وَلَتَخْلَعَنَّ
عَبْدَ الْمَلِكِ ، وَلَتَسْبِيَنَّ الْحَجَّاجَ ، أَوْ لَا ضَرْبَ عُنُقِكَ ، قَالَ : أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، إِنَّمَا أَنَا
رَسُولُ ! قَالَ : هُوَ مَا أَقُولُ لَكَ ، فَقَامَ وَخَطَبَ وَخَلَعَ عَبْدَ الْمَلِكِ ، وَشَتَمَ الْحَجَّاجَ ،
وَأَقَامَ هُنَاكَ ، فَلَمَّا انْصَرَفَ ابْنُ الْأَشْعَثِ مَهْزُومًا ، كَتَبَ الْحَجَّاجُ إِلَى عُمَاةِ
بَلَدِي وَأَصْبَهَانَ وَمَا يَلِيهِمَا ، يَأْمُرُهُمُ الْأَيْمُرُ بِهِمْ أَحَدٌ مِنْ قِبَلِ ابْنِ الْأَشْعَثِ إِلَّا
بِعَمَلِهِمْ بِهِ أُسِيرًا إِلَيْهِ ، وَأَخَذَ ابْنُ الْقُرَيْيَّةِ فِيمَنْ أَخَذَ .

فَلَمَّا أُدْخِلَ عَلَى الْحَجَّاجِ ، قَالَ : أَخْبِرْنِي عَمَّا أَسْأَلُكَ ؟ قَالَ : سَلْنِي عَمَّا شِئْتَ ،
قَالَ : أَخْبِرْنِي عَنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ ، قَالَ : أَعْلَمُ النَّاسَ بِحَقِّ وَبَاطِلٍ ، قَالَ : فَأَهْلُ
الْحِجَازِ ، قَالَ : أَسْرَعُ النَّاسِ إِلَى فِتْنَةٍ ، وَأَعَجَزُهُمْ فِيهَا ، قَالَ : فَأَهْلُ الشَّامِ ، قَالَ :
أَطْوَعُ النَّاسِ لَخُلَفَائِهِمْ ، قَالَ : فَأَهْلُ مِصْرَ ، قَالَ : عَيِّدُ لِمَنْ غَلَبَ ، قَالَ : فَأَهْلُ
الْبَحْرَيْنِ ، قَالَ : نَبِطٌ ^(٢) اسْتَعْرَبُوا ، قَالَ : فَأَهْلُ عُثْمَانَ ، قَالَ : عَرَبٌ اسْتَنْبَطُوا ،
قَالَ : فَأَهْلُ الْمَوْصِلِ ، قَالَ : أَشَجَعُ فُرْسَانَ ، وَأَقْتَلُ لِلْأَقْرَانِ ، قَالَ : فَأَهْلُ الْبَيْتِ ،
قَالَ : أَهْلُ مِصْرَ ، وَلِزُومِ الْجَمَاعَةِ ، قَالَ : فَأَهْلُ الْيَمَامَةِ ، قَالَ : أَهْلُ جَفَاءَ ،

[١] هو أبو سليمان أيوب بن زيد الهلالي ، والقريّة جدّته ، وكان أمرايا أبا سدودا من جهة خطباء
العرب المشهورين بالفصاحة والبلاغة . [٢] النبط : حيل من الناس ، كانوا يزلون سواد العراق .

واختلاف أهواء ، وأصبرُ عند اللقاء ، قال : فأهل فارس ، قال : أهل بأسٍ شديد ،
 وشَرَّ عَتِيد ، وريِّف ^(١) كبير ، وقرى يسير ، قال : أخبرني عن العرب ، قال :
 سُلَني ، قال : قریش ، قال : أعظمها أخلاماً ، وأكرمها مقاماً ، قال : فبنو عامر
 ابن صعصعة ، قال : أطولها رِمَاحاً ، وأكرمها صَبَاحاً ، قال : فبنو سُلَيم ، قال :
 أعظمها مجالِسَ ، وأكرمها مَحَابِسَ ^(٢) ، قال : فَتَقِيف ، قال : أكرمها جُدُوداً ،
 وأكثرها وُفُوداً ، قال : فبنو زَيْد ، قال : أكرمها للرَّيات ، وأدركها للثَّرات ^(٣) ،
 قال : فَتُقْضَاة ، قال : أعظمها أخطاراً ، وأكرمها نِجَاراً ^(٤) ، وأبعدها آثاراً ،
 قال : فالأنصار ، قال : أثبتها مقاماً ، وأحسنها إسلاماً ، وأكرمها أَيْاماً ، قال :
 فَتَمِيم ، قال : أظهرها بَجَلداً ، وأثراها عَدَدَاً ، قال : فَتَكْرِبَن وائِل ، قال : أثبتها
 صفوفاً ، وأحدّها سيوفاً ، قال : فعبد القَيْس ، قال : أسبقها إلى النّيات ،
 وأصبرُها تحت الرّيات ، قال : فبنو أَسَد ، قال : أهل عَدَد وَجَلَد ، وَعُسْر
 وَنَكَد ، قال : فَلَنَحْم ، قال : مُلُوكٌ ، وفيهم نُوكٌ ^(٥) ، قال : فَجَذَام ، قال :
 يُوقِدُونَ الحربَ وَيَسْتَمِرُّونَهَا ^(٦) ، وَيُلْقِصُونَهَا ثُمَّ يَمْرُونَهَا ^(٧) ، قال : فبنو الحارث
 قال : رُعَاةٌ للقديم ، ومُحَاةٌ عن الحَرِيم ، قال : فَمَكَّةٌ ، قال : لِيُوثٌ جَاهِدَةٌ ، في
 قُلُوبٍ فَاسِدَةٍ ، قال : فَتَقْلِبُ ، قال : يَصْنَدُقُونَ - إِذَا لَقُوا - ضَرْباً ، وَيَسْتَمِرُّونَ
 لِلْأَعْدَاءِ حرباً ، قال : فَفَسَّانٌ ، قال : أكرمُ العربِ أَحْسَاباً ، وأثبتُها أَنْسَاباً ، قال :
 فَأَيُّ العربِ في الجاهلية كانت أَمْنَعُ من أن تُضَامَ ؟ قال قریش ، كانوا أهل

[١] الرِّيف : أرض فيها زرع وخصب . [٢] المجالس جمع مجلس كقصد وهو النجاعة .

[٣] الزرات جمع ترة : وهي الثَّار . [٤] النجار : الأصل . [٥] النوك بالضم والفتح : الملقى .

[٦] سمر الحرب كنخ ، وأسمرها : أوتدعا . [٧] حري الناقة كرمى : سيج ضردها لتدير .

وَكَتَحَلْنَا الْمَهْرَ ، وَصَاقَ الْمَسْلَكُ ، وَخَبَطْنَا فَتْنَةً لَمْ نَكُنْ فِيهَا بَرَّةً أَتْقِيَاءَ ، وَلَا جَفْرَةً أَقْوِيَاءَ » قَالَ : صَدَقَ وَاللَّهِ مَا بَرَرْتُمْ بِمَخْرُوجِكُمْ عَلَيْنَا وَلَا قَوِيْتُمْ ، خَلُّوا سَبِيلَ الشَّيْخِ . (مروج الذهب ٢ : ١٤٤ ، والفرد ١ : ١٥١ - ٣ : ١٢)

٣٢٨ - أيوب بن القرية والحجاج

وَكَانَ الْحَجَّاجُ قَدْ بَعَثَ أَيُوبَ بْنَ الْقُرَيْيَةِ ^(١) رَسُولًا إِلَى ابْنِ الْأَشْعَثِ ، حِينَ خَلَعَ الطَّاعَةَ بِسَجِسْتَانَ ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ ، قَالَ لَهُ : لَتَقُومَنَّ خَطِيئًا ، وَلَتَخْلَعَنَّ عَبْدَ الْمَلِكِ ، وَلَتَسُبَّنَّ الْحَجَّاجُ ، أَوْ لَا ضَرْبَنَّا عَنْكَ ، قَالَ : أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ ! قَالَ : هُوَ مَا أَقُولُ لَكَ ، فَقَامَ وَخَطَبَ وَخَلَعَ عَبْدَ الْمَلِكِ ، وَشَتَّمَ الْحَجَّاجَ ، وَأَقَامَ هُنَاكَ ، فَلَمَّا انْصَرَفَ ابْنُ الْأَشْعَثِ مَهْزُومًا ، كَتَبَ الْحَجَّاجُ إِلَى عُمَّالِهِ بِالرِّيِّ وَأُصْبَهَانَ وَمَا يَلِيهِمَا ، بِأَمْرِهِمْ أَلَّا يَمُرُّ بِهِمْ أَحَدٌ مِنْ قِبَلِ ابْنِ الْأَشْعَثِ إِلَّا بِمَوْتِهِ أَوْ سَبْرًا إِلَيْهِ ، وَأَخَذَ ابْنُ الْقُرَيْيَةِ فِيمَنْ أَخَذَ .

فَلَمَّا أُدْخِلَ عَلَى الْحَجَّاجِ ، قَالَ : أَخْبِرْنِي عَمَّا أَسْأَلُكَ ؟ قَالَ : سَلْنِي عَمَّا شِئْتَ ، قَالَ : أَخْبِرْنِي عَنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ ، قَالَ : أَعْلَمُ النَّاسَ بِحَقِّ وَبَاطِلِ ، قَالَ : فَأَهْلُ الْحِجَازِ ، قَالَ : أَسْرِعُ النَّاسَ إِلَى فَتْنَةٍ ، وَأَعْجَزُهُمْ فِيهَا ، قَالَ : فَأَهْلُ الشَّامِ ، قَالَ : أَطْوَعُ النَّاسَ لِحُلَفَائِهِمْ ، قَالَ : فَأَهْلُ مِصْرَ ، قَالَ : عَيِّدُ لِمَنْ غَلَبَ ، قَالَ : فَأَهْلُ الْبَحْرَيْنِ ، قَالَ : نَبِطٌ ^(٢) اسْتَعْرَبُوا ، قَالَ : فَأَهْلُ عُثْمَانَ ، قَالَ : عَرَبٌ اسْتَنْبَطُوا ، قَالَ : فَأَهْلُ الْمَوْصِلِ ، قَالَ : أَشْجَعُ فُرْسَانَ ، وَأَقْتَلُ لِلْأَقْرَانِ ، قَالَ : فَأَهْلُ الْيَمَنِ ، قَالَ : أَهْلُ سَمْعٍ وَطَاعَةٍ ، وَلِزُومٍ لِلْجَمَاعَةِ ، قَالَ : فَأَهْلُ الْيَمَامَةِ ، قَالَ : أَهْلُ جَفَاءِ ،

[١] هو أبو سليمان أيوب بن زيد اللخمي ، والقرية جدته ، وكان أعرابيا أميا مدودا من جهة خطباء

العرب المشهورين بالفصاحة والبلاغة . [٢] النبط : حيل من الناس ، كانوا يزلون سواد العراق .

واختلاف أهواء ، وأصبرُ عند اللقاء ، قال : فأهل فارس ، قال : أهل بأسٍ شديد ،
وشرَّ عتيد ، وريف ^(١) كبير ، وقرى يسير ، قال : أخبرني عن العرب ، قال :
سَلْنِي ، قال : قريش ، قال : أعظمها أخلاماً ، وأكرمها مقاماً ، قال : فبنو عامر
ابن صعصعة ، قال : أطولها رماحاً ، وأكرمها صبايحاً ، قال : فبنو سليم ، قال :
أعظمها مجالس ، وأكرمها محابس ^(٢) ، قال : فثقيف ، قال : أكرمها جدوداً ،
وأكثرها وفوداً ، قال : فبنو زبيد ، قال : أنزهها للرايات ، وأدركها للثرات ^(٣) ،
قال : فقضاة ، قال : أعظمها أخطاراً ، وأكرمها نجاراً ^(٤) ، وأبعدها آثاراً ،
قال : فالأنصار ، قال : أثبتها مقاما ، وأحسنها إسلاماً ، وأكرمها أياماً ، قال :
فتيم ، قال : أظهرها جلداً ، وأثراها عدداً ، قال : فبكر بن وائل ، قال : أثبتها
صفواً ، وأحدّها سيوفاً ، قال : فعبد القيس ، قال : أسبقها إلى الغايات ،
وأصبرها تحت الرايات ، قال : فبنو أسد ، قال : أهل عدد وجدد ، وعُشر
ونكد ، قال : فلخم ، قال : ملوك ، وفيهم نوك ^(٥) ، قال : فجذام ، قال :
يوقدون الحرب ويسمرؤونها ^(٦) ، ويلقحونها ثم يمرؤونها ^(٧) ، قال : فبنو الحارث
قال : رعاة للقديم ، ومخاة عن الحريم ، قال : فطع ، قال : ليوث جاهدة ، في
قلوب فاسدة ، قال : فتليب ، قال : يصدقون - إذا لقوا - ضرباً ، ويسمرؤون
للأعداء حرباً ، قال : ففسان ، قال : أكرم العرب أحساباً ، وأثبتها أنساباً ، قال :
فأى العرب في الجاهلية كانت أمتع من أن تضام ؟ قال قريش ، كانوا أهل

[١] الريف : أرض فيها زرع وخصب . [٢] المحابس جمع محبس كعبد وهو التجاعة .
[٣] الثرات جمع ترة : وهي الثأر . [٤] التجار : الأمل . [٥] النوك بالضم والفتح : الحمى .
[٦] سمر الحرب كعب ، وأسمرها : أوقدها . [٧] مري الناقة كرمي : مسح ضردها لتبير .

رَهْوَةٌ^(١) لَا يُسْتَطَاعُ ارْتِقَاؤُهَا ، وَهَضْبَةٌ لَا يُرَامُ اتِّزَاؤُهَا^(٢) ، فِي بَلَدَةِ حَمَى اللَّهِ ذِمَارِهَا ، وَمَنْعُ جَارِهَا ، قَالَ : فَأَخْبِرْنِي عَنْ مَأْتَرِ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، قَالَ : كَانَتْ الْعَرَبُ تَقُولُ : خَيْرَ أَرْبَابِ الْمُلْكِ ، وَكِنْدَةَ لُبَابِ الْمُلُوكِ ، وَمَذْحِجَ أَهْلِ الطَّمَانِ ، وَتَهْمَدَانَ أَخْلَاسَ^(٣) الْخَلِيلِ ، وَالْأَزْدَ آسَادِ النَّاسِ ، قَالَ : فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْأَرْضَيْنِ ، قَالَ : سَلْنِي ، قَالَ : الْهِنْدُ ، قَالَ : بِحَرِّهَا دُرٌّ ، وَجَبَلُهَا يَاقُوتٌ ، وَشَجَرُهَا عُودٌ ، وَوَرَقُهَا عِطْرٌ ، وَأَهْلُهَا طَعَامٌ ، كَقَطْعِ الْحَمَامِ^(٤) ، قَالَ : فَخُرَّاسَانٌ ، قَالَ : مَاؤُهَا جَامِدٌ ، وَعُدُوهَا جَاحِدٌ ، قَالَ : فَمُؤْمَانٌ ، قَالَ : حَرَّهَا شَدِيدٌ ، وَصِيدُهَا عَتِيدٌ ، قَالَ : فَالْبَحْرَيْنِ ، قَالَ : كُنْكَسَةُ بَيْنَ الْمِصْرَيْنِ ، قَالَ : فَالْمَيْنِ ، قَالَ : أَصْلُ الْعَرَبِ ، وَأَهْلُ الْبُيُوتَاتِ وَالْحَسَبِ ، قَالَ : فَكُفَّةٌ ، قَالَ : رَجَالُهَا عُلَمَاءُ جُفَاةٌ ، وَنِسَاؤُهَا كِسَاءُ عُرَاةٍ ، قَالَ : فَالْمَدِينَةِ ، قَالَ : رَسَخَ الْعِلْمُ فِيهَا ، وَظَهَرَ مِنْهَا ، قَالَ : فَالْبَصْرَةَ ، قَالَ : شَتَاؤُهَا جَلِيدٌ ، وَحَرُّهَا شَدِيدٌ ، وَمَاؤُهَا مِلْحٌ ، وَحَرِّهَا صُلْحٌ ، قَالَ : فَالْكُوفَةَ ، قَالَ : ارْتَفَعَتْ عَنْ حَرِّ الْبَحْرِ ، وَسَفُلَتْ عَنْ بَرْدِ الشَّامِ ، فَطَابَ لِبَاسُهَا ، وَكَثُرَ خَيْرُهَا ، قَالَ : فَوَاسِطُ ، قَالَ : جَنَّةٌ ، بَيْنَ حِمَاةٍ وَكَنْتَةٍ ، قَالَ : وَمَا حِمَاتُهَا وَكَنْتُهَا^(٥) ؟ قَالَ : الْبَصْرَةُ وَالْكُوفَةُ يُحْسِنُ دَانِهَا ، وَمَا ضَرَّهَا ، وَدَجَلَةُ وَالزَّوَابِ^(٦) يَتَجَارِيَانِ بِإِفَاضَةِ الْخَيْرِ عَلَيْهَا ، قَالَ : فَالشَّامُ ، قَالَ : عَرُوسٌ ، بَيْنَ نِسْوَةٍ جُلُوسٍ ، قَالَ : فَكَيْلَتَكَ أُمُّكَ يَا بَنِي الْقُرَيْيَّةِ ، لَوْلَا اتِّبَاعُكَ لِأَهْلِ الْعِرَاقِ ! وَقَدْ كُنْتَ أَنْهَكَ عَنْهُمْ أَنْ تَتَّبِعَهُمْ ، فَتَأْخُذْ مِنْ تَهَانِهِمْ ، ثُمَّ دَعَا بِالسَّيْفِ ، وَأَوْمَأَ إِلَى السَّيَافِ أَنْ أُمْسِكْ ،

[١] الرهوة : المكان المرتفع (وللتفتيش أيضاً ، ضد) . [٢] أي اعتلاؤها تزاوتوا وتزواتوا : وتب ، وانترى : افصل من الزو ، وفي حديث واثن بن حجر : « إن هذا انترى على أرضي فأخذها » [٣] كناية عن إدامتهم ركوبها . [٤] الطعام : أوغاد الناس وزناد الطير ، والقطع بالكسر : اسم ما قطع من الشيء ، ويقال : ثوب قطع وأقطع أي مقطوع ، أو هو قطع بالقص جمع قطع . [٥] السكنة : امرأة الابن أو الأخ . [٦] الزواب الأسفل ، والزواب الأعلى : نهريان يسبان في دجلة

فقال ابن القريّة : ثلاث كلمات أصلح الله الأمير كأنهن ركبٌ وقوف ، يكنّ مثلاً بمدى ، قال : هات ، قال : لكل جواد كِبْوَة ، ولكل صايرم نَبْوَة ، ولكل حلیم هفوة ، قال الحجاج : ليس هذا وقت المزاح ، يا غلام أوجب جرحه ، فَضْرِبَ عنقه .

وقيل إنه لما أراد قتله قال له : العرب ترعم أن لكل شيء آفة ، قال : صدقت العرب ، أصلح الله الأمير ، قال : فما آفة الحلم ؟ قال : الغضب ، قال : فما آفة العقل ؟ قال : العُجب ، قال : فما آفة العلم ؟ قال : النسيان ، قال : فما آفة السخاء ؟ قال : المنّ عند البلاء ^(١) ، قال : فما آفة الكرام ؟ قال : مجاورة اللثام ، قال : فما آفة الشجاعة ؟ قال : البغى ، قال : فما آفة العبادة ؟ قال : الفترّة ، قال : فما آفة الذهن ؟ قال : حديث النفس ، قال : فما آفة الحديث ؟ قال : الكذب ، قال : فما آفة المال ؟ قال : سوء التدبير ، قال : فما آفة الكامل من الرجال ؟ قال : العُدْم ، قال : فما آفة الحجاج بن يوسف ؟ قال : أصلح الله الأمير ، لا آفةَ لِمَنْ كَرُمَ حَسَبُهُ ، وطاب نسبه ، وزكا فرغه ، قال : امتلأت شقاقا ، وأظهرت نفاقا ، اضربوا عنقه ، فلما رآه قتيلاً ندم ، وكان قتله سنة ٨٤ هـ .



وفي رواية أخرى أنه لما دخل على الحجاج ، قال له : يا ابن القريّة ، ما أعددت لهذا الموقف ؟ قال : « أصلح الله الأمير ، ثلاثة حروف ، كأنهن ركبٌ وقوف ، دنيا وآخرة ومعروف ، قال : اخرج مما قلت ، قال : « أفعلُ ، أما الدنيا فال حاضر ، يأكل منه البترُ والفاجر ، وأما الآخرة فيزانُ عادل ، ومشهدٌ ليس فيه باطل ،

وأما المعروف فإن كان على اعترفت ، وإن كان لي اعترفت^(١) ، قال : أما لي
فاعترف بالسيف إذا وقع بك ، قال : « أصلح الله الأمير ، أفلني عثرتي ، وأسغني
ريقي ، فإنه لا بد للجواد من كبوة ، ولل سيف من نبوة ، وللحليم من هفوة ؟^(٢) »
قال : كلا والله حتى أوردك جهنم ، ألسنت القاتل برستقباذ : تعذوا الجذى قبل
أن يتعساكم ؟ قال : فأرخني فإني أجد حرها ، قال : قدمه يا حرسى فاضرب
عنقه ، فلما نظر إليه يتشحط^(٣) في دمه ، قال : لو كنا تركنا ابن القرية ، حتى
نسمع من كلامه ! ثم أمر به فأخرج فرمى به^(٤) .

(وفیات الأعيان ١ : ٨٣ ، والبيان والتبيين ١ : ١٨٩ ، وتزجى الطبرى ٨ : ٣٧)

٣٣٩ - كلمة لابن القرية

وقال ابن القرية : « الناس ثلاثة : حافل ، وأحمق ، وفاجر ؛ فالعاقل :
الدين شريته ؛ والحليم طبيعته ، والرأى الحسن سجيته ، إن سئل أجاب ، وإن
نطق أصاب ، وإن سمع العلم وعى ، وإن حدث روى ؛ وأما الأحمق : فإن
تكلم عجل ، وإن حدث وهل^(٥) ، وإن استنزل عن رأيه نزل ، فإن حمل على
القبس حمل ؛ وأما الفاجر فإن ائتمته خانك ، وإن حدته شاكك ، وإن وثقت
به لم يزعك ، وإن استكتم لم يكتم ، وإن علم لم يعلم ، وإن حدث لم يفهم ،
وإن فقه لم يفقه » .

(زمر الآداب ٢ : ٨٦)

[١] أى وأعطيت الناس منه . [٢] وفي رواية : « فإنه ليس جواد إلا له كبوة ، ولا شجاع
إلا له هبة » والمهوبة : النبوة . [٣] يضطرب .
[٤] وردى أبو الفرج الإصبهاني أنه قيل : « ثلاثة لم يكونوا قط ، ولا عرفوا : ابن أبي الضب
صاحب قصيدة لللاحم ، وابن الفرة ، ومجنون بنى طامر » - انظر الأتاني ج ١ ص ١٦٣ .
[٥] ضف وفرع .

فتنة يزيد بن المهلب

٣٣٠ - أيوب بن سليمان بن عبد الملك يسأل عمه الوليد

أن يؤمن يزيد بن المهلب ^(١)

لما فرَّ يزيد بن المهلب من سجن الحجاج وعذابه (سنة ٩٠ هـ في خلافة الوليد بن عبد الملك) نزل على أخيه سليمان متعوذاً به ، وكتب سليمان إلى الوليد يطلب له الأمان ، فكتب إليه يُقَسِّمُ أنه لا يؤمنه حتى يبعث به إليه ، فأرسل ابنه أيوب معه ، وكتب معه كتاباً ، فلما دخل به على عمه ، قال :

« يا أمير المؤمنين نفسي فداؤك ، لا تُخَفِّرُ ^(٢) ذِمَّةَ أَبِي ، وأنت أحقُّ من منّهما ، ولا تقطع منا رجاء من رجا السلامة في جوارنا ، لمكانتنا منك ، ولا تُذِلَّ من رجا الدِّرِّ في الانقطاع إلينا لِعِزِّنا بك » . (تاريخ الطبري ٨ : ٧٣)

[١] وخبر ذلك أن الحجاج كان وفد على عبد الملك ، فر في منصرفة بدير فزله ، فقيل له : إن في هذا الدير شيخاً من أهل الكتب طالما فدما به وسأله : أتعلم ما لي من يله يدي ؟ قال : رجل يقال له يزيد ، فوقع في نفسه أنه يزيد بن المهلب ، إذ كان لا يرى من هو أهل لتلك سواء ، وكان يكرمه لما يرى فيه من النجابة ، ويغشى منه ، وكان قد ولاء خراسان بعد وفاة أبيه سنة ٨٢ ، فكتب إلى عبد الملك يقيم يزيد وآل المهلب ، ويذهبهم بأنهم ذرية الهوى ، وبخوفه غدرهم ، وما زال به حتى أجابه إلى ما سأله ، فعزل يزيد سنة ٨٥ ، وولى مكانه حنيفة بن مسلم ، وفي سنة ٨٧ حبس الحجاج يزيد ولأخوته وعقبهم وأغروهم ، وكان يزيد يصبر صبراً حسناً ، وكان الحجاج يفيظه ذلك ، فقيل له : إنه رمى بفتاة ، فثبت فصلها في ساقه ، فهو لا يعسا شيء إلا صاح ، فأمر أن يعذب وبدق ساقه (أي تقطر شديداً) فلما قل به ذلك صاح - وأخته هند بنت المهلب عند الحجاج - فلما سمعت صياح أخيها صاحت وناحت فطلقتها ، ثم إن يزيد ولأخوته أمهلوا الحيلة في الفرار من سجن الحجاج (سنة ٩٠) ولحقوا بسليمان بن عبد الملك مستجيرين به ، وكتب الحجاج إلى الوليد : إن آل المهلب خاؤوا ما أن الله ، وهرجوا مني ، ولحقوا بسليمان ، واستفتح سليمان أمه الوليد ، وما زال به حتى شفه فيه ، فلما ولى الخلافة سليمان سنة ٩٦ ولى يزيد أمر الرائق ، ثم ولاء خراسان سنة ٩٧ . [٢] خفر به كغرب ، وأخفزه : قفى دهمه وغفروه .

وأما المعروف فإن كان على اعترفت ، وإن كان لي اعترفت^(١) » قال : أما لي
فاعترف بالسيف إذا وقع بك ، قال : « أصلح الله الأمير ، أقلني عثرتي ، وأسغني
ريق ، فإنه لا بد للجواد من كبوة ، ولل سيف من نبوة ، وللحليم من هفوة ؟^(٢) »
قال : كلا والله حتى أوردك جهنم ، ألسنت القائل برستقباذ : تغدوا الجدوى قبل
أن يتمشاكم ؟ قال : فأرخني فإني أجد حرها ، قال : قدّمه يا حرسى فاضرب
عنقه ، فلما نظر إليه يتشحط^(٣) في دمه ، قال : لو كنا تركنا ابن القرية ، حتى
نسمع من كلامه ! ثم أمر به فأخرج فرمى به^(٤) .

(وفیات الأمان ١ : ٨٣ ، والبيان والتبيين ١ : ١٨٩ ، وتاريخ الهجرى ٨ : ٣٧)

٣٢٩ - كلمة لابن القرية

وقال ابن القرية : « الناس ثلاثة : عاقل ، وأحمق ، وفاجر ؛ فالعاقل :
الدين شريته ؛ والحلم طبيعته ، والرأى الحسن سجيته ، إن سئل أجاب ، وإن
نطق أصاب ، وإن سمع العلم وعى ، وإن حدث روى ؛ وأما الأحمق : فإن
تكلم عجل ، وإن حدث وهل^(٥) ، وإن استنزل عن رأيه نزل ، فإن جمل على
القيبح حمل ؛ وأما الفاجر فإن ائتمته خانك ، وإن حدّثه شاكك ، وإن وثقت
به لم يترعك ، وإن استكثمت لم يكتهم ، وإن علم لم يعلم ، وإن حدث لم يفهم ،
وإن فقه لم يفقه » .

(زمر الآداب ٢ : ٨٦)

[١] أى وأعطيت الناس منه . [٢] وفي رواية : « فإنه ليس جواد إلا له كبوة ، ولا شجاع
إلا له هبوة » والمهوبة : النبوة . [٣] يضطرب .
[٤] وردى أبو الفرج الإسهاني أنه قيل : « ثلاثة لم يكونوا قط ، ولا عرفوا : ابن أبي المقب
صاحب قصيدة لللاحم ، وابن القرية ، وبنون بن طاهر » - انظر الألفاظ ج ١ ص ١٦٣ .
[٥] ضعف وفرع .

فتنة يزيد بن المهلب

٣٣٠ — أيوب بن سليمان بن عبد الملك يسأل عمه الوليد

أن يؤمن يزيد بن المهلب ^(١)

لما فرَّ يزيد بن المهلب من سجن الحجاج وعذابه (سنة ٩٠ هـ في خلافة الوليد بن عبد الملك) نزل على أخيه سليمان متعوذاً به ، وكتب سليمان إلى الوليد يطلب له الأمان ، فكتب إليه يُقَسِّمُ أنه لا يؤمنه حتى يبعث به إليه ، فأرسل ابنه أيوب معه ، وكتب معه كتاباً ، فلما دخل به على عمه ، قال :

« يا أمير المؤمنين نفسى فداؤك ، لا تُخْفِرُ ^(٢) ذِمَّةَ أبى ، وأنت أحقُّ من منّهما ، ولا تقطع منا رجاء من رجا السلامة في جوارنا ، لِمَ كَانَا مِنْكَ ، ولا تُذِلَّ مَنْ رَجَا الدِّرَّ في الانقطاع إلينا لِمَزْنَا بِكَ » . (تاريخ الطبرى ٨ : ٧٣)

[١] وخبر ذلك أن الحجاج كان وفد على عبد الملك ، فر في منصرفه بدير فزله ، فقيل له : إن في هذا الدبر شيئا من أمل الكتب علما ، فدعا به وسأله : أنصم ما لي ، من يله يدى ؟ قال : رجل يقال له يزيد ، فرقع في نفسه أنه يزيد بن المهلب ، إذ كان لا يرى من هو أهل لذلك سواء ، وكان يكرمه لما يرى فيه من النجابة ، ويحفى منه ، وكان قد ولاء خراسان بعد وفاة أبيه سنة ٨٢ ، فكتب إلى عبد الملك ينم يزيد وآل المهلب ، ويتهمهم بأنهم زيرية الهوى ، ويخوفه غدرهم ، وما زال به حتى أجابه إلى ما سأله ، فعزل يزيد سنة ٨٥ ، وولى مكانه قتيبة بن مسلم ، وفي سنة ٨٧ حبس الحجاج يزيد وإخوته وعذبهم وأغرمهم ، وكان يزيد يصبر صبورا حسنا ، وكان الحجاج ينفذه ذلك ، فقيل له : إنه رعى بنشابة ، فثبت أصلها في ساقه ، فهو لا يسبح شيئا إلا صاح ، فأمر أن يعذب ويدقق ساقه (أى تقص شديدا) فلما فعل به ذلك صاح — وأخته هند بنت المهلب عند الحجاج — فلما سمعت صياح أخيها صاحت وناحت فطلقها ، ثم إن يزيد وإخوته أمعلوا الحيلة في الفرار من سجن الحجاج (سنة ٩٠) ولحقوا بسليمان بن عبد الملك مستجيرين به ، وكتب الحجاج إلى الوليد : إن آل المهلب خاوا ما أن الله ، وهرىوا منى ، ولحقوا بسليمان ، واستفتح سليمان أخاه الوليد ، وما زال به حتى شفه فيه ، فلما ولى الخلافة سليمان سنة ٩٦ ولى يزيد إسماعيل الرقيق ، ثم ولاء خراسان سنة ٩٧ . [٢] خفر به كفره ، وأخفزه : قضى تهمة وغدره .

٣٣١ — خطبة يزيد بين يدي الوليد

وتكلم يزيد، حمد الله، وأثنى عليه، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم، ثم قال:
« يا أمير المؤمنين ، إنَّ بلاءكم عندنا أحسنُ البلاء ، فمن ينسَ ذلك فلنسا
ناسيه ، ومن يتكفر فلنسا كافر به ، وقد كان من بلائنا أهل البيت في طاعتكم ،
والطعن في أعين أعدائكم ، في المواطن العظام ، في المشرق والمغرب ، ما إنَّ
المنة علينا فيها عظيمة . »

فأمنه الوليد وكف عنه . (تاريخ الطبري ٨ : ٧٤)

٣٣٢ — خطبة مخلد بن يزيد بن المهلب بين يدي

عمر بن عبد العزيز

ولما حبس عمر بن عبد العزيز يزيد بن المهلب^(١) ، أقبل ابنه مخلد من
خراسان ، ودخل على الخليفة ، حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

[١] وسبب ذلك : أن يزيد بن المهلب لما فتح جرجان وطبرستان سنة ٩٨ ، كتب بالفتح إلى سليمان
ابن عبد الملك ، وفي كتابه يقول : « وقد صار عندي من خمس ما آفاه الله على المسلمين ، إنه أن صار
إلى كل ذي حق حقه من الولد والغنيمة ، ستة آلاف ألف ، وأنا حامل ذلك إلى أمير المؤمنين إن شاء
الله » وقد قال له كاتبه للنيرة بن أبي قرّة : لا تكتب بقسمة ماله ، فإنك من ذلك بين أمرين ، إما استكثره
فأمرك بحمله ، وإما سخطت نفسه لك به فوسّعك فتكلفت الهدية ، فلا يأتيه من قبلك شيء إلا استغله ،
فكأنك بك قد استغفرت ما سميت ، ولم يقع منه موقفاً ، وبقي المال الذي سميت مخلداً عندهم عليك في
دواوينهم ، فإن ولي وال بعده أخذك به ، وإن ولي من يتعامل عليك لم يرض منك بأضماؤه ، فلا تمن
كتابك ، ولكن اكتب بالفتح ، وسله القسوم ، فتشاهه بما أحببت متافهة وتقصّر ، فإنك أن
تقصّر عما أحببت أخرى من أن تكثر ، فأبى يزيد ، وأعطى الكتاب ، فلما ولي عمر بن عبد العزيز
(سنة ٩٩) — وكان عمر يرضي يزيد وأهل بيته ، ويقول : هؤلاء جابرة ولا أحب مثلهم — دعا
يزيد وسأله عن تلك الأموال التي كتب بها إلى سليمان بن عبد الملك ، فقال : كنت من سليمان بالمكان
الذي قد رأيت ، وإنما كتبت إلى سليمان لأسمع الناس به (والتسميع : إزالة الجول بنشر الذكر) ، وقد
علمت أن سليمان لم يكن ليأخذني بشيء سمعت به ، ولا بأس أكرمه ، فقال له : ما أجد في أرك إلا
حبسك ، فاق الله ، وأدّ ما قبلك ، فإنها حقوق للمسلمين ، ولا يسمى تركها ، ولم يزل يزيد في عيبه ،
حتى بلغه مرض عمر ، فأخذ يصل للهرب مخافة يزيد بن عبد الملك ، لأنه كان قد عذب أصحابه آل أبي

« إن الله يا أمير المؤمنين صنع لهذه الأمة بولايتك عليها ، فلا تكن أشقى الناس بولايتك ، عَلَامَ تَحْبِسُ هذا الشيخ ؟ أنا أحمِل ما عليه ، فَصَالِحِي عَلَى ما إِيَّاهُ تَسْأَلُ » فقال عمر : لَا ، إِلَّا أَنْ تَحْمِلَ جَمِيعَ ما نَسَأَلَهُ إِيَّاهُ ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إِنْ كَانَتْ لَكَ يَتْنَةٌ تَخْذِبُهَا ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ يَتْنَةٌ فَصَدَّقْ مَقَالَهَ يَزِيدُ ، وَإِلَّا فَاسْتَخْلِفْهُ ، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ فَصَالِحِي ، فقال له عمر : ما أجد إِلَّا أَخَذَهُ بِجَمِيعِ المَالِ .

(تاريخ الطبري ٨ : ١٣٢)

٣٣٣ — خطبة يزيد بن المهلب يحرض أصحابه على القتال

وقد سیر يزيد بن عبد الملك العباس بن الوليد بن عبد الملك

ومستلمة بن عبد الملك لقتاله

قام في أصحابه فخرّضهم ورغبهم في القتال ، فكان فيما قال :

« إن هؤلاء القوم ان يردّهم عن غيِّهم إِلَّا الطعنُ في عيونهم ، والضربُ بِالْمَشْرِفَةِ ^(١) عَلَى هَامِيهِمْ ، ثم قال : إنه قد دُكِرَ لِي أَنَّ هذه الجُرَادَةَ الصَفراءُ — يَعْنِي مَسْتَلَمَةَ بْنَ عَبْدِ المَلِكِ ، وَعَاقِرَ نَاقَةِ مُعَوِدٍ ^(٢) — يَعْنِي العباس بن الوليد —

عقيل (إذ كانت أم الحجاج بنت محمد بن يوسف أُمِّي الحجاج بن يوسف عند يزيد بن عبد الملك ، فولدت له ابنة الوليد) وكان يزيد بن عبد الملك قد طأده الله لئن أمكنه الله من يزيد بن المهلب ، ليظعن منه طابعا (يفتح الباء وكسرها أَى عَضُوا) غشي ذلك قهْرُ من الحِجَن سنة ١٠١ ، ومات عمر وأضفت الخلافة إلى يزيد بن عبد الملك ولحق ابن المهلب بالبصرة ، فلب عليها ، وأخذ عامل يزيد بن عبد الملك عليها (وهو عدِيّ بْنُ أَرْطَاةِ الْفَزَارِيِّ) غيَّبه وخلع يزيد ، فبَرَّأ إليه الخليفة العباس بن الوليد بن عبد الملك ، وسلمة بن عبد الملك لحربه فقتل ابن المهلب في أثناء المعركة سنة ١٠٢ هـ .

[١] المشْرِفَةُ سيوف منسوبة إلى مشارف الشام ، وهي قرى من أرض العرب تدنو من الريف ، والمهام جمع هامة وهي الرأس .

[٢] هو قدار (كَشْبَاع) بن سالف ، ويلقب بأحر ، قال زهير في وصف الحرب :

فَتَنْشِجْ لَكُمْ غِلَافًا أَشَامَ كُلُّهُمْ كَأَحْمَرِ عَادٍ ثُمَّ تُرْضِعُ فَتَقْطِمْ

(قال الأصمعي : أخطأ زهير في هنا ، لأن عاقِرَ الناقة ليس من عاد ، وإنما هو من مُعَوِدٍ ، وقال البرد : لا غِلَطَ ، ، لأن مُعَوِدٍ يقال لهم عاد الآخرة ، ويقال لهم هود عاد الأولى) ويضرب به المثل في التؤم ،

(وَكَانَ الْمُبَاسُ أَزْرَقٌ^(١) أَحْمَرُ، كَانَتْ أُمُّهُ رُومِيَّةً) وَاللَّهُ لَقَدْ كَانَ سَلِيمَانَ أَرَادَ أَنْ يَنْفِيهِ، حَتَّى كَلَّمَهُ فِيهِ، فَأَقْرَاهُ عَلَى نَسْبِهِ، فَبَلَغَنِي أَنَّهُ لَيْسَ مَعَهُمَا إِلَّا الْتِمَاسِي فِي الْأَرْضِ، وَاللَّهُ لَوْ جَاءُوا بِأَهْلِ الْأَرْضِ جَمِيعًا، وَلَيْسَ إِلَّا أَنَا، مَا بَرِحْتُ الرَّصَّةَ^(٢) حَتَّى تَكُونَ لِي أَوْلَهُمْ، قَالُوا: نَخَافُ أَنْ تَعْنَيْنَا^(٣) كَمَا عَنَّانَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ مُحَمَّدٍ^(٤)، قَالَ: إِنْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ فَضَحَ الذَّمَّارَ^(٥) وَفَضَحَ حَسَبَهُ، وَهَلْ كَانَ يَمْدُو أَجْلَهُ؟، ثُمَّ نَزَلَ.

(تاريخ الطبري ٨ : ١٥٢)

٣٣٤ - خطبة أخرى له

ورويت له خطبة أخرى في هذا الغرض، وهما كما:

عن خالد بن صفوان قال: خَطَبَنَا يَزِيدُ بْنُ الْمُهَلَّبِ بِوَاسِطٍ، حَمْدُ اللَّهِ، وَأُثْنِي عَلَيْهِ، وَصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ:

« أَيُّهَا النَّاسُ: إِنِّي أَسْمَعُ قَوْلَ الرَّعَاعِ، قَدْ جَاءَ الْمُبَاسُ، قَدْ جَاءَ مَسْئَلَةٌ، قَدْ جَاءَ أَهْلُ الشَّامِ! وَمَا أَهْلُ الشَّامِ إِلَّا تِسْعَةُ أَسْيَافٍ، مِنْهَا سَبْعَةٌ مَعِيَ، وَائِثْنَانِ عَلَيَّ، وَمَا مَسْئَلَةٌ إِلَّا جَرَادَةٌ صَفْرَاءُ، وَأَمَّا الْمُبَاسُ فَنَسْطُوسُ^(٦) بْنُ نَسْطُوسٍ،

فَيَقَالُ: « أَشَامٌ مِنْ أَحْمَرٍ عَادَ » لِأَنَّ اللَّهَ أَهْلَكَ بَغْلَهُ ثَمُودَ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ صَالِحٍ حِينَ دَعَاهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ: يَا صَالِحُ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا فَأُظْهِرْنَا مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ نَافَقَةً، وَصَفْرَاءَ لَهُ، فَأَخْرَجَهَا اللَّهُ بِإِذْنِهِ مِنَ الصَّخْرَةِ (إِنَّا مُرْسِلُو النَّافِقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَبِعْهُمْ وَاصْطَبِرْ). فَأَمَّنْ مِنْهُمْ عِنْدَ ظُهُورِ هَذِهِ الْآيَةِ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: (هَذِهِ نَافِقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبٌ يَوْمَ مَقْلُومٍ، وَلَا تَمْشَوْهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ، فَمَقَرُّوْهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ، فَأَخَذَهُمُ الْمَذَابُ).
(والشرب: النصب من الماء).

[١] أَى أَزْرَقُ الْبَيْتَيْنِ. [٢] الرصة: كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء.

[٣] عناء: أعبه. [٤] هو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث السالف الذكر.

[٥] ما يلزمك حفظه وحمايته. [٦] هو في القدر، ومروج الذهب بالباء، وفي البيان والتبيين بالنون، وليس من ألفاظ العربية، وأقول: هو إما علم رومى، فهو يشير إلى أصل المباس بن الوليد إذ

أَتَاكُمْ فِي بَرَابِرَةٍ ^(١) وَصَقَالِبَةٍ ، وَجَرَامِقَةٍ ^(٢) وَجَرَاجَةٍ ، وَأَقْبَاطٍ وَأَنْبَاطٍ ^(٣) ،
وَأَخْلَاطٍ مِنَ النَّاسِ ، إِنَّمَا أَقْبَلُ إِلَيْكُمْ الْفَلَاحُونَ وَالْأَوْبَاشُ كَأَشْلَاءٍ ^(٤) اللَّحْمِ ،
وَاللَّهُ مَا لَقَوْا قَطُّ حَدًّا كَحَدِّكُمْ ، وَلَا حديدًا كَحَدِيدِكُمْ ، أَعِيرُونِي سَوَاعِدَكُمْ سَاعَةً
مِنْ نَهَارٍ تَصْفِقُونَ ^(٥) بِهَا خِرَاطِيمَهُمْ ، فَإِنَّمَا هِيَ غَدَوَةٌ أَوْ رَوْحَةٌ ، حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ
بَيْنَنَا ، وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ .

(البيان والتبيين : ١ : ١٦٠ ، الغد الفريد : ٢ : ١٥٥ ، ومروج الذهب : ٢ : ١٧٧)

٣٣٥ - خطبة أخرى له

وَقَالَ مُقَاتِلٌ : سَمِعْتُ يَزِيدَ بْنَ الْمُهَلَّبِ يَخْطُبُ بِوَاسِطٍ ، فَقَالَ :
« يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ ، يَا أَهْلَ السَّبْتِ وَالسَّبَاقِ ، وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ ، إِنْ أَهْلَ
الشَّامِ فِي أَفْوَاهِهِمْ لُقْمَةُ دَرِيَّةٍ ^(١) ، قَدْ رَتَبْتُ ^(٢) لَهَا الْأَشْدَاقُ ، وَقَامُوا لَهَا عَلَى سَاقٍ ،
وَمِنْ غَيْرِ تَارِكِيهَا لَكُمْ بِالْمِرَاءِ وَالْجِدَالِ ، فَالْبَسُوا لَهُمْ جُلُودَ الثَّمُورِ ^(٣) » .

(البيان والتبيين : ١ : ٢١٨)

٣٣٦ - خطبة الحسن البصري يثبِط الناس عن يزيد بن المهلب
وَكَانَ مَرْوَانَ بْنَ الْمُهَلَّبِ وَهُوَ بِالْبَصْرَةِ ، يَحِثُّ النَّاسَ عَلَى حَرْبِ أَهْلِ الشَّامِ ،
وَيُسَرِّحُهُمْ إِلَى يَزِيدَ ، وَكَانَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ يُثَبِّطُ النَّاسَ عَنْهُ ، وَكَانَ يَقُولُ
فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ :

كَانَتْ أُمَةُ رُومِيَّةٍ ، أَوْ مَحْرُوفٍ عَنْ « نِطُورِيِّ بْنِ نِطُورِي » أَيْ نِصْرَانِي نِطُورِيٍّ مِنَ النَّاسِاطِرَةِ
إِحْدَى فِرْقِ السَّجِيَّةِ نَسَبَةً إِلَى نِطُورِيَّوْسٍ صَاحِبِ الدَّهَبِ ، وَكَانَ أَسْقَفًا بِأَنْطَسْطَظِيَّةٍ . تَوَقَّعَ حَوْلَ
سَنَةِ ٤٥٠ م . [١] الْبَابِرَةُ : جِيلٌ بِالْقَرْبِ ، وَالْمَعَالِيَةُ : جِيلٌ بِلَادِمِ تَنَازِمِ بِلَادِ الْخَزَرِ « شَمَالِي يَمْرُ
الْخَزَرِ ، وَهُوَ يَمْرُ قَزْوِينَ » أَيْ جَنُوبِي الرُّوسِيَا . [٢] الْجِرَاءَةُ : قَوْمٌ مِنَ الْجَيْمِ صَارُوا بِالْمَوْصِلِ فِي أَوَائِلِ
الْإِسْلَامِ ، وَالْجِرَاجَةُ : قَوْمٌ مِنَ الْجَيْمِ بِالْمَجْرِبَةِ ، أَوْ نِطُ الْتَامِ . [٣] أَنْبَاطٌ جَمْعُ نِطٍ كَجِيلٍ
وَقَدْ تَقَدَّمَ . [٤] أَشْلَاءٌ جَمْعُ شَلَوٍ كَعَمَلٍ ، وَهُوَ الضَّوْءُ ، وَكُلُّ مَلُوحٍ أَكَلَ مِنْهُ شَيْءٌ ، وَبَقِيَ
مِنْهُ بَقِيَّةٌ . [٥] صَفَقَهُ بِالْيَدِ : ضَرَبَهُ ، وَالْخِرَاطِيمُ جَمْعُ خِرَاطِيمٍ ، وَهُوَ الْأَنْفُ .
[٦] رَتَبْتُ : أَيْ ثَبَّتْتُ وَلَمْ تَتَحَرَّكْ « وَذَلِكَ لِامْتِلَاءِ الْأَفْوَاهِ » . [٧] أَيْ تَتَكْرَهُوا لَهُمْ ،
وَأَسْتَعْمَدُوا لِمُنَازِلَتِهِمْ .

« أيها الناس : الزموا رحاكم ، وكفوا أيديكم ، واتقوا الله مولاكم ، ولا يقتل بعضكم بعضاً على دُنيا زائلة ، وطمع فيها يسير ، ليس لأهلها بياق ، وليس الله عنهم فيما اكتسبوا براضٍ ، إنه لم يكن فتنة إلا كان أكثر أهلها الخطباء والشعراء والسفهاء ، وأهل التَّيِّه والخِيَلَاء ، وليس يسلم منها إلا المجهول الخفي ، والمعروف التقي ، فمن كان منكم خفياً فليكرِّم الحق ، وليحبس نفسه عما يتنازع الناس فيه من الدنيا ، فكفاه والله بمعرفة الله إياه بالخير شرفاً ، وكفى له به من الدنيا خُلُقاً ، ومن كان منكم معروفًا شريفاً ، فترك ما يتنافس فيه نظراؤه من الدنيا - إرادة الله بذلك - فواهاً لهذا ، ما أسعدَه وأرشدَه ، وأعظم أجره ، واهتدى سبيله ! فهذا غدا - يعني يوم القيامة - القريرُ عيناً ، الكريمُ عند الله مآباً » .

(تاريخ الطبري ٨ : ١٥٣)

٣٣٧ - خطبة مروان بن المهلب

فلما بلغ ذلك مروان بن المهلب ، قام خطيباً كما يقوم ، فأمر الناس بالجد والاحتشاد ، ثم قال لهم :

« لقد بلغني أن هذا الشيخ الضالَّ المرائي - ولم يُسمَّه - يبط الناس ، والله لو أن جازه تَرَخ من خُصِّ داره قَصَبَة ، لَفَظَّ يَرَعُفُ ^(١) أَنفَه ، أَيْتَكْرُ عَلَيْنَا ، وعلى أهل مصرنا ، أن نطلب خيرنا ، وأن تُشْكِرَ مَظْلِمَتَنَا ؟ أَمَا والله ليكفَنَّ عن ذكرنا ، وعن جمعه إلينا مَقَاط ^(٢) الأَبْلَة ، وَعُلُوجُ قُرَاتِ البصرة ، قوما ليسوا من أنفسنا ، ولا ممن جرت عليه النعمة من أحدٍ منا ، أَوْ لَا تُنْحِيَنَّ عَلَيْهِ مِيزَدًا خَشِنًا » .

[١] رَعَف : خرج من أنفه الدم . [٢] جمع ماقط وهو القيم في حَسبه ونَحْسه ، والأَبْلَة : موضع بالبصرة .

فلما بلغ ذلك الحسن ، قال : والله ما أكره أن يُكرمني الله بهوانه ، فقال
ناس من أصحابه : لو أردك ثم شئت لمنعناك ، فقال لهم : قد خالفتكم إذنً إلى ما
مانهيتكم عنه ، أمرُكم ألا يقتل بعضكم بعضاً مع غيري ، وأدعوكم إلى أن يقتل
بعضكم بعضاً دوني ؟ فبلغ ذلك مروان بن المهلب ، فاشتد عليهم وأخافهم ،
وطلبهم حتى تفرقوا ، ولم يدع الحسن كلامه ذلك ، وكف عنه مروان .
(تاريخ الطبري ٨ : ٥١٣)

خطب الأحنف بن قيس التميمي^(١)

٣٣٨ - الأحنف ومعاوية

كان الأحنف بن قيس ، قد شهد مع الإمام علي ، كرم الله وجهه ، وقعة
صفين ، فلما استقر الأمر لمعاوية ، دخل عليه يوماً ، فقال له معاوية : « والله
يا أخنف ما أذكرك يوم صفين إلا كانت حزازة^(٢) في قلبي إلى يوم القيامة » ،
فقال له الأحنف :

« يا أمير المؤمنين لم ترُدْ الأمور على أعقابها ؟ أما والله إن القلوب التي
أفضناك بها ليتن جوانحنا ، والسيوف التي قاتلناك بها لعل عواقبنا : ولئن

[١] هو أبو بحر النخاع بن قيس سيد بني تميم ، والضروب به التل في الملم ، وهو من سادات
الناجين ، أدرك عهد النبي صلى الله عليه وسلم ولم يصحبه ، وشهد بعض فتوح خراسان في زمن عمر
وعثمان رضي الله عنهما ، وشهد مع علي رضي الله عنه وقعة صفين ، ولم يشهد وقعة الجمل مع أحد الفريقين ،
وبقي لدى زمن مصعب بن الزبير ، فخرج معه إلى الكوفة ، فقاتل بها سنة ٦٧ هـ (وقيل له الأحنف ، لأنه
كان أحنف الرجل - مائلها - يطا على وحشيها) . [٢] الحزازة : وجع في القلب من غيظ ونحوه .

مَدَدَتْ بِشِيرٍ مِنْ غَدَرٍ، لِمُتَدِّنٍ بَاعَا مِنْ خَيْرٍ^(١)، وَلَئِنْ شَدَّتْ لَتَسْتَصْفَيْنَ كَدْرَ قُلُوبِنَا بِصَفْوِ حِلْمِكَ»، قَالَ مَعَاوِيَةُ : فَإِنِّي أَفْعَلُ .

ثُمَّ قَامَ وَخَرَجَ ، وَكَانَتْ أُخْتُ مَعَاوِيَةَ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ تَسْمَعُ كَلَامَهُ ، فَقَالَتْ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : مَنْ هَذَا الَّذِي يَتَهَدَّدُ وَيَتَوَعَّدُ ؟ قَالَ : هَذَا الَّذِي إِذَا غَضِبَ ، غَضِبَ لِنُغْضِبِهِ مِائَةَ أَلْفٍ مِنْ بَنِي تَيْمٍ ، لَا يَذَرُونَ فِيمَ غَضِبَ .

(وَفَاتِ الْأَعْيَانُ لِابْنِ خُلَسَاانَ ١ : ٢٣٠ ، وَنَهَايَةُ الْأَرْبِ ٧ : ٢٣٧ ، وَالْقَدَرُ الْفَرِيدُ ٢ : ١١٨)

٣٣٩ — الْأَحْنَفُ وَمَعَاوِيَةُ أَيْضًا

جَلَسَ مَعَاوِيَةُ يَوْمًا ، وَعِنْدَهُ وَجُوهُ النَّاسِ ، وَفِيهِمُ الْأَحْنَفُ ، فَدَخَلَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ ، فَقَامَ خَطِيئًا ، فَكَانَ آخِرَ كَلَامِهِ أَنَّ لَعَنَ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَأَطْرَقَ النَّاسُ ، وَتَكَلَّمَ الْأَحْنَفُ ، فَقَالَ :

« يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : إِنَّ هَذَا الْقَائِلَ مَا قَالَ آتِفًا ، لَوْ عَلِمَ أَنَّ رِضَاكَ فِي لَعْنِ الرِّسَالَةِ لِلْعَنَتِمْ ، فَاتَى اللَّهَ ، وَدَعَا عَلِيًّا ، فَقَدَّ لَقِيَ اللَّهَ ، وَأُفْرِدَ فِي حُفْرَتِهِ ، وَخَلَا بِعَمَلِهِ ، وَكَانَ وَاللَّهِ - مَا عَلِمْنَا - الْمُبَرَّزَ بِشِقَّةِ^(٢) ، الطَّاهِرَ فِي خُلُقِهِ : الْيَمُونَ النَّقِيَّةَ^(٣) الْعَظِيمَةَ الْمَصِيبَةَ » .

قَالَ مَعَاوِيَةُ : « يَا أَحْنَفُ ، لَقَدْ أَغْضَيْتَ الْعَيْنَ عَلَى الْقَدَى ، وَقُلْتَ بَنِيرَ مَا تَرَى ، وَإِنَّمَا اللَّهُ لَتَصْعَدَنَّ الْمُنِيرُ فَاتْلُغْمَنَّتْهُ طَائِفًا أَوْ كَارِهًا » ، فَقَالَ الْأَحْنَفُ : « إِنَّ تُعْنَفَنِي فَهُوَ خَيْرٌ ، وَإِنْ تَجْبِرَنِي عَلَى ذَلِكَ ، فَوَاللَّهِ لَا تَجْرِي بِهِ شَفَتَايَ » ، فَقَالَ مَعَاوِيَةُ : قُمْ فَاصْعَدْ . قَالَ : « أَمَّا وَاللَّهِ لَا نُصِيفَنَّكَ فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ » ، قَالَ

[١] الْبَاعُ : قَدَرٌ مَدَّ الْيَدَيْنِ ، وَالْحَزْرُ : أَقْبَحُ النَّدَرِ .

[٢] الشُّقُّ الْجَانِبُ ، وَرَوَايَةُ الْقَدَرِ « الْمُبَرَّزُ سَيْفُهُ » وَرَبَّرَ تَبَرَّزًا فَاقَ أَصْحَابَهُ فَضْلًا أَوْ شَجَاعَةً .

[٣] النَّقِيَّةُ : النَّفْسُ .

معاوية : « وما أنت قائل إن أنصفتني ؟ » ، قال : « أصعدُ فأحمد الله ، وأثنى عليه ، وأصلي على نبيه ، ثم أقول :

« أيها الناس : إن معاوية أمرني أن ألعن عليا ، ألا وإن عليا ومعاوية اختلفا واقتتلا ، وادّعى كل واحد أنه مبنّي عليه ، وعلى فتنه ، فإذا دعوتُ فأمنوا رحمكم الله ! ثم أقول : « اللهم العن أنت وملائكتك وأنبيائك وجميع خلقك الباغي منهما على صاحبه ، والفئة الباغية على المبنّي عليها ، اللهم ألعنهم لعنا كبيرا ، آمنوا ، رحمكم الله » ، يا معاوية ، لا أزيد على هذا ، ولا أنقص منه حرفا ، ولو كان فيه ذهابٌ نفسي .

فقال معاوية : « إذن تُعفيك يا أبا بحر » .

(نهاية الأرب ٧ : ٢٣٧ ، والقصد المفيد ٢ : ١١٨)

٣٤٠ - قوله في مدح الولد

ودخل الأحنف على معاوية ، ويزيد بين يديه ، وهو ينظر إليه إعجابا به ، فقال : يا أبا بحر ما تقول في الولد ؟ فعلم ما أراد ، فقال : « يا أمير المؤمنين ، هم عمادُ ظهورنا ، وعمرُ قلوبنا ، وقرّةٌ ^(١) أعيننا ، بهم نصول على أعدائنا ، وهم الخلفُ منا لمن بعدنا ، فكن لهم أرضا ذليلة ، وسما ظليمة ، إن سألك فاعظمهم ، وإن استعيبوك ^(٢) فاعتيتهم ، لا تمنهم رفدك ^(٣) ، فبألو قُرْبَكَ ، ويكرهوا حياتك ، ويستبطنوا وفاتك » .

فقال : لله ذرّك يا أبا بحر ! ثم كما وصفت . (الأمل ٢ : ٤٣)

[١] قرّت عينه : برئت ، واضمح بكافها ، أو رأت ما كانت مقبولة إليه .

[٢] استعيبه : طلب إليه العتي (أى الرضا) وأعجبه : أعطاه العتي .

[٣] الرفد : المطاء .

٣٤١ — شفاعته لدى مصعب بن الزبير

وَأَتَى مِصْعَبَ بْنَ الزُّبَيْرِ يَكْلِمُهُ فِي قَوْمِ حَبْسِهِمْ ، فَقَالَ : « أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ،
إِنْ كَانُوا حُبِسُوا فِي بَاطِلٍ ، فَالْحَقُّ يُخْرِجُهُمْ ، وَإِنْ كَانُوا حُبِسُوا فِي حَقٍّ ، فَالْعَفْوُ
يَسَعُهُمْ » ، فَنَلَّامَ ^(١) . (نهاية الأرب ٧ : ٢٣٨)

٣٤٢ — نصيحته لقومه

وَقَالَ بَحْرُاسَانُ : « يَا بَنِي تَيْمٍ تَحَابُّوا تَجْتَمِعْ كُلْتُمْ ، وَتَبَادَلُوا تَمْتَدِّلْ أُمُورُكُمْ ،
وَابْدِءُوا بِجِهَادِ بَطُونِكُمْ وَفُرُوجِكُمْ ، يَصْلُحْ لَكُمْ دِينُكُمْ ، وَلَا تَقْتُلُوا ^(٢) » يَسْلَمْ لَكُمْ
جِهَادُكُمْ . (نهاية الأرب ٧ : ٢٣٩ ، والبيان والتبيين ٤٦ : ٢)

٣٤٣ — خطبته في قوم كانوا عنده

وَحَدَّثَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَيْمٍ قَالَ : حَضَرْتُ مَجْلِسَ الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ ، وَعِنْدَهُ
قَوْمٌ مُجْتَمِعُونَ فِي أَمْرِ لَهُمْ ، فَعَمِدَ اللَّهُ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :
« إِنْ الْكَرَمُ يَمْنَعُ الْحُرْمَ ^(٣) ، مَا أَقْرَبَ النَّقْمَةَ مِنْ أَهْلِ الْبَغْيِ ، لَا خَيْرَ فِي
لَذَّةِ تُعْقِبُ نَدْمًا ، لَنْ يَهْلِكَ مَنْ قَصَدَ ^(٤) ، وَإِنْ يَهْتَمِرْ مِنْ زَهْدٍ ، رُبَّ هَزَلٍ قَدْ
عَادَ جِدًّا ، مَنْ أَمِنَ الزَّمَانَ خَانَهُ ، وَمَنْ تَعَطَّمَ عَلَيْهِ أَهَانَهُ ، دَعُوا الْمِزَاحَ ، فَإِنَّهُ
يُورَثُ ^(٥) الضَّغَائِنَ ، وَخَيْرَ الْقَوْلِ مَا صَدَّقَهُ الْفِعْلُ ، احْتَمَلُوا لِمَنْ أَدَلَ ^(٦) عَلَيْكُمْ ،
وَاقْبَلُوا عَذْرَ مَنْ اعْتَذَرَ إِلَيْكُمْ ، أَطِيعْ أَخَاكَ وَإِنْ عَصَاكَ ، وَصِلْهُ وَإِنْ جَفَاكَ ،
أَنْصِفْ مَنْ تَفَسَّكَ قَبْلَ أَنْ يُتَنَصَّفَ مِنْكَ ، وَإِيَّاكُمْ وَمَشَاوِرَةَ النِّسَاءِ ، وَاعْلَمُوا

[١] وفي وفیات الأعيان لابن خلكان ١ : ٢٤٤ ، أن هذا القول للشَّيْءِ ، كَأَمٍّ بِهِ عَمْرٌ بْنُ هُبَيْرَةَ
الْفَزَارِيُّ أَمِيرُ الرِّقَاقِ . [٢] أَيْ لَا تَخُونُوا .
[٣] الْحُرْمُ جَمْعُ حُرْمَةٍ بِالضَّمِّ : وَهُوَ مَا لَا يَحِلُّ انْتِهَاكَه . [٤] الْقَصْدُ وَالِاتِّصَالُ : ضِدُّ الْإِفْرَاقِ .
[٥] التَّارُوتُ : إِيقَادُ النَّارِ . [٦] تَمَلَّكُ .

أن كُفِرَ النعمة لئوم ، وَصُحْبَةُ الجاهل شؤم ، ومن الكرم الوفاء بالذَّئِم ، ما أفتح
القطيعةَ بعد الصَّلَّة ، والجفاء بعد اللُّطْف ^(١) ، والمداوة بعد الودِّ ! لا تكونن على
الإساءة أقوى منك على الإحسان ، ولا إلى البخل أسرع منك إلى البذل ، واعلم
أن لك من دنياك ما أصلحت به مَثَوَاك ^(٢) ، فأتفق في حقِّ ، ولا تكونن خازناً
لنيرك ، وإذا كَانَ الغدرُ في الناس موجوداً ، فالثقة بكل أحد عَجْز ، اعرف الحق
لمن عَرَفَه لك ، واعلم أن قطيعةَ الجاهل تَمُدِّل صِلَةَ العاقل . (الأمل : ٢ : ٢٧)

٣٤٤ - كلمات حكيمة للأحنف

قال : « في ثلاث خصال ما أقولهن إلا ليمتبر مُتَبَر : مادخلت بين اثنين
قَطُّ حتى يُدْخِلَانِي بينهما ، ولا أتيت باب أحد من هؤلاء - يعني الملوك - ما لم
أُدْعَ إليه ، وما حَلَلْتُ حُبُوتِي ^(٣) إلى ما يقوم الناس إليه . وقال : « ألا أدلكم على
المُحَمَّدة بلا مرزئة ^(٤) ؟ الخلق السَّجِيح ^(٥) والكف عن القبيح ، ألا أخبركم
بأذوا الداء ؟ الخلقُ الدني ، واللسانُ البذي » ، وقال : « ما خان شريف ، ولا
كذب عاقل ، ولا اغتاب مؤمن » . وقال : « ما ادخرتِ الآباء للأبناء ، ولا
أبقتِ الموتى للأحياء ، أفضل من اصطناع معروف عند ذوى الأحساب
والآداب » ، وقال : « كثرة الضحك تذهب الهيبة ، وكثرة المزاح تذهب
المروءة ، ومن لَزِمَ شيئاً عَرِفَ به » . وسمع رجلاً يقول : ما أبالي أُمِدِّحْتُ أم
ذُمْتُ . فقال له : « لقد استرحت من حيث تَعِب الكرام » ، وقال : « جنبوا
مجلسنا ذِكْرَ الطعام والنساء ، فأني لا بُض الرجل يكون وصافاً لفرجه وبطنه

[١] اللطف : اسم من اللطف بالقم . [٢] آخرتك . [٣] احتي الرجل : جمع بين ظهره
وصافيه بسامة ونحوهما ، والاسم : الحبوة بالفتح وضم . [٤] رزاء مرزئة : أصاب منه خيرا ، والشيء
تقصه ، أي دون أن تفرعوا في سبيلها مالا . [٥] الذين السهل .

وإن المروءة أن يترك الرجل الطعام وهو يشتهيهِ . وكَانَ يقول : إذا عَجِبَ الناس من حِلْمِهِ : « إِنِّي لَأَجِدُ مَا تَجِدُونَ وَلَكِنِّي صَبُورٌ » . وكَانَ يقول : « وَجَدْتُ الحِلْمَ أَنْصَرَ لِي مِنَ الرِّجَالِ » . وَقَالَ : « الْكَذُوبُ لَاحِيْلَةٌ لَهُ ، وَالْحَسُودُ لَارَاحَةُ لَهُ ، وَالْبَخِيلُ لَامُرُوءَةٌ لَهُ ، وَالْمُلُولُ لَأَوْفَاءُ لَهُ ، وَلَا يَسُودُ سَيِّئُ الْأَخْلَاقِ ، وَمِنَ المُرُوءَةِ إِذَا كَانَ الرَّجُلُ بِخِيْلًا أَنْ يَكْتُمَ ذَلِكَ وَيَتَجَمَّلُ » . وَقَالَ : « أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ كَامِلًا ، وَمَنْ تَعَلَّقَ بِخَصْلَةٍ مِنْهُمْ كَانَ مِنْ صَالِحِي قَوْمِهِ : دِينٌ يُرْشِدُهُ ، أَوْ عَقْلٌ يُسَدِّدُهُ ، أَوْ حَسَبٌ يَصُونُهُ ، أَوْ حَيَاةٌ يَقْنَاهُ ^(١) » . وَقَالَ : « الْمُؤْمِنُ بَيْنَ أَرْبَعٍ : مُؤْمِنٌ بِحُسْنِهِ ، وَمُنَافِقٌ يُبْغِضُهُ ، وَكَافِرٌ يَجَاهِدُهُ ، وَشَيْطَانٌ يَفْتِنُهُ ؛ وَأَرْبَعٌ لَيْسَ أَقْلُ مِنْهُمْ : الْيَقِينُ ، وَالْعَدْلُ ، وَدِرْهَمٌ حَلَالٌ ، وَأَخٌ فِي اللَّهِ » . وَقَالَ : « لَأَنْ أَذْعَى مِنْ بَعِيدٍ ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْصَى مِنْ قَرِيبٍ » . وَكَانَ يَقُولُ : « إِيَّاكَ وَصَدَرَ الْمَجْلِسُ ، وَإِنْ صَدَّرَكَ صَاحِبُهُ ، فَإِنَّهُ مَجْلِسٌ قُلَمَةٌ ^(٢) » . وَقَالَ : « مَنْ لَمْ يَصْبِرْ عَلَى كَلِمَةٍ سَمِعَ كَلِمَاتٍ » . وَقَالَ : « رَبُّ غِيظٍ تَجَرَّعَتْهُ خَافَةَ مَا هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ » . وَقَالَ : « مِنْ كَثَرِ كَلَامِهِ كَثُرَتْ سَقَطُهُ ، وَمَنْ طَالَ صَمْتُهُ كَثُرَتْ سَلَامَتُهُ » . وَقَالَ : « ثَلَاثٌ لَا أَثَاةَ فِيهِنَّ عِنْدِي » . قِيلَ : « وَمَاهُنَّ يَا أَبَا بَكْرٍ ؟ » . قَالَ : « الْمُبَادَرَةُ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ ، وَإِخْرَاجُ مِيتَتِكَ ، وَأَنْ تُنْكَحَ الْكَفَّاءُ ^(٣) » . وَكَانَ يَقُولُ : « لَأَفْعَى تَحْكُوكَ فِي نَاحِيَةِ بَيْتِي ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَيْتِمٍ رَدَدْتُ عَنْهَا كَفْتَنَا » . (وَفَيَاتُ الْأَعْيَانِ ١ : ٢٣١ ، وَنَجْمُ الْأَمْثَالِ لِلْبَيْهَقَانِيِّ ١ : ١٤٨ ، وَالْأُمَالُ ٢٣٦ : ١ ، وَالْيَانُ وَالْبَيْهَقَانِيِّ ٢ : ٣٧ ، ٥٨ ، ١٠١ ، ١٠٤ ، ١٠٥)

[١] قَتَى الْحَيَاءَ كَرَضَى وَرَمَى : لَزِمَهُ كَأَقْنَى . [٢] مَجْلِسٌ قُلَمَةٌ : بِحِجَابِ صَاحِبِهِ إِلَى أَنْ يَقْرَأَ مَرَّةً بِسَدْرَةٍ . [٣] الْأَيْمُ : مَنْ لَا زَوْجَ لَهَا بَكْرًا ، أَوْ حَيَاةً . قَالَ الْجَلِيزِيُّ : وَكَانَ يُقَالُ : « مَا بَعْدَ الصَّوَابِ إِلَّا الْخَطَاءُ » ، وَمَا بَعْدَ مَتْنِهِ مِنَ الْكَفَاءِ ، إِلَّا بَطْنٌ لِلْفَقْلِ وَالنَّوْفَاءِ .

٣٤٥ - صفية بنت هشام المنقرية تؤبن الأحنف

وروى أنه لما حُلَّت جِزَاةُ الأحنف، ودُئِلَ في قبره، أقبلت ابنة عمه صَفِيَّة بنت هشام المَنقرِيَّة على نَجِيب لها مُعْتَصِرَةٌ^(١)، فوقفت على قبره، فقالت : « **لِلَّهِ دَرْكٌ مِنْ مُجَنٍّ^(٢) فِي جُنَّتِي، وَمُدْرَجٌ^(٣) فِي كَفَنٍ ! إنا لله وإنا إليه راجعون !** نسأل الله الذي جَفَعْنَا بِمَوْتِكَ ، وَابْتَلَانَا بِفَقْدِكَ ، أَنْ يُوسِعَ لَكَ فِي قَبْرِكَ ، وَأَنْ يَغْفِرَ لَكَ يَوْمَ حَشْرِكَ ، وَأَنْ يَجْعَلَ سَبِيلَ الْخَيْرِ سَبِيلَكَ ، وَدَلِيلَ الرِّشَادِ دَلِيلَكَ ، ثُمَّ أَقْبَلَتْ بِوَجْهِهَا عَلَى النَّاسِ ، فَقَالَتْ : « **مَعَشَرَ النَّاسِ ، إِنْ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ فِي بِلَادِهِ ، شُهُودٌ عَلَى عِبَادِهِ ، وَإِنَّا قَائِلُونَ حَقًّا ، وَمُتَشَوِّنونَ صِدْقًا ، وَهُوَ أَهْلُ الْحُسْنِ التَّنَاءِ ، وَطَيِّبِ الدُّعَاءِ ، أَمَا وَالَّذِي كُنْتُ مِنْ أَجَلِهِ فِي عِدَّةٍ ، وَمِنْ الْمَضَارِ^(٤) إِلَى غَايَةٍ ، وَمِنْ الْحَيَاةِ إِلَى نِهَايَةٍ ، الَّذِي رَفَعَ عَمَلَكَ ، عِنْدَ انْقِضَاءِ أَجَلِكَ ، لَقَدْ عِشْتَ حَمِيدًا مَوْدُودًا ، وَاقْدُمْتَ قَعِيدًا سَعِيدًا ، وَإِنْ كُنْتَ لِعَظِيمِ السَّلَمِ ، فَاصِلَ الْجَلَمِ ، صَحِيحَ الْأَدِيمِ^(٥) ، مَنِيْعَ الْحَرَمِ ، وَارِيَّ الزَّيْنَادِ ، رَفِيعَ الْعِمَادِ ، وَإِنْ كُنْتَ فِي الْمَخَافِ لِشَرِيفًا ، وَعَلَى الْأَرَامِلِ لَعُطُوفًا ، وَفِي الْمَشِيرَةِ مُسَوِّدًا ، وَإِلَى الْخُلَفَاءِ مُوَفِّدًا ، وَلَقَدْ كَانُوا لِقَوْلِكَ مُسْتَمِعِينَ ، وَلِرَأْيِكَ مُتَّبِعِينَ » . ثُمَّ انصرفت .**

(ذيل الأمالي ص ٢٨ ، وبلاغات النساء ص ٥٥ ، والبيان ٢ : ١٦٠)

-
- [١] النجيب : الجبل السريع الخفيف في السير القوي ، واختصر : أمسك المحصرة ، « والمحصرة ككفنة : عما يمسكها الخطيب يذير بها إذا خطب » ، وتخصر بالضميب أيضا : أمسكه .
وفي رواية الجاحظ : « **وطلعت فرغانة بنت أوس بن حجر على قبر الأحنف بن قيس وهي على راحلة** فالتت . . . » ، وفي رواية أبي علي الغالي : « **جاءت امرأة من قومه من بني مقر عليها قبول من النساء ، فوقفت على قبره فالتت** » - وانقبول بالفتح ويضم : الحسن - .
[٢] من أجنته إذا ستره ، والجنت جمع جنة كقبة وهي الوفاة ، والجات كجب : القبر والكفن .
[٣] مطوي . [٤] في الأمالي : « **ومن الضمان** » ، وفي بلاغات النساء : « **ومن الضمار** » وأرى أن سوابه « **ومن للضمار** » فتأوله يمد : « **إلى غاية** » . [٥] الأديم : الجلد ، والمراد صحيح العرض .

خطب الوفود

وما ألقى بحضرة الخلفاء والأمراء والرؤساء

الوافدون على معاوية

٣٤٦ - وفود الأحنف بن قيس والنمر بن قطبة على معاوية

دخل الأحنف بن قيس على معاوية وافداً لأهل البصرة ، ودخل معه النمر بن قطبة ، وعلى النمر عباءة قطوانية ^(١) ، وعلى الأحنف مِذْرَعَةٌ ^(٢) صوف وشَمْلَةٌ ^(٣) ، فلما مثلا بين يدي معاوية اقتَحَمَتِهما ^(٤) عينه ، فقال النمر : يا أمير المؤمنين إن العبادة لا تكلمك ، وإنما يكلمك من فيها ، فأومأ إليه فجلس ، ثم أقبل على الأحنف ، فقال : ثم مه ؟ فقال :

« يا أمير المؤمنين ، أهل البصرة عدد يسير ، وَعَظْمُ كَسِيرٍ ، مع تنابُع من المَحُولِ ^(٥) ، واتصال من الذُحُولِ ^(٦) ، فأكثِرَ فيها قد أطرق ، والمُقِلَّ قد أملق ، وبلغ منه المَخْنَقُ ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يُعْشِ الفقير ، ويَجْبُرَ الكسير ، ويسهِّلَ العسير ، ويصفح عن الذُحُولِ ، ويُدَاوِيَ المَحُولِ ، ويأمر بالمطاء ، ليكشفِ البلاء ، ويُرْزِلَ الأواءَ ^(٧) ، وإن السيدَ مَنْ يَعْتَمُّ ولا يَخْصُ ، ومن يدعو الجفلى ^(٨) ولا يدعو الذَّقَرَى ، إن أحسن إليه شُكْرٌ ، وإن أسيء إليه غَفَرٌ ،

[١] نسبة إلى قطوان : موضع بالكوفة منه الأكسية . [٢] للدرعة : ثوب ولا يكون إلا من صوف . [٣] الشملة : كساء دون الفليفة يشتمل به . [٤] ازدربتها . [٥] جمع عل كشس وهو القحط والجذب . [٦] جمع ذهل كشس أيضا وهو التآر . [٧] الدعة . [٨] الدعوة العامة ، والقرى : الدعوة الخاصة .

ثم يكون من وراء ذلك لرعيته عماداً ، يدفع عنهم الملمات ، ويكشف عنهم المعضلات ، فقال له معاوية : ها هنا يا أبا بحر ، ثم تلا : « وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ^(١) » . (زمر الآداب ١ : ٥٧)

٣٤٧ - وفد أهل العراق على معاوية وفيهم الأحنف

ولما قَدِم وفد أهل العراق على معاوية ، وفيهم الأحنف ، خرج الآذن ، فقال : إن أمير المؤمنين يَترَم عليكم ألا يتكلم أحد إلا لنفسه ، فلما وصلوا إليه قال الأحنف :

« لولا عَزْمَةُ أمير المؤمنين لأخبرته أن دافَّةً ^(٢) دَفَّتْ ، ونازلة نزلت ، ونائبة نابت ، ونائبة نَبَّتْ ، وكلهم بهم حاجة إلى معروف أمير المؤمنين وبرِّه » ، فقال : حَسْبُكَ يا أبا بحر فقد كَفَيْتَ الغائبَ والشاهد .

(نهاية الأرب ٧ : ٢٣٧ ، واليان والتبيين ٢ : ٤٣)

وفد أهل العراق على معاوية ومعهم زياد وفيهم الأحنف

وفد أهل العراق على معاوية ، ومعهم زياد بن أبيه ، وفيهم الأحنف بن قيس ، فقال زياد :

٣٤٨ - خطبة زياد

« يا أمير المؤمنين : أَشَخَّصْتَ إِلَيْكَ أَقْوَاماً الرِّغْبَةُ ، وأَقَمَدْتَ عَنْكَ آخَرِينَ الْمُدْرُ ، فقد جعل الله تعالى في سَعَةِ فضلك ما يُجَبِّرُ به المتخلف ، ويُكَافَأُ به الشاخصُ » .

[١] أى في مناه وخواه . [٢] الدافة : الجماعة من الناس تهبل من بلد إلى بلد ، يقال : دفت علينا من بني فلان دافَّةً ، والدافة أيضا ، قوم من الأعراب يريدون مصر ، والدافة : الجيش يدفعون نحو العدو أى يدفعون .

٣٤٩ — خطبة معاوية

فقال معاوية : « مَرْحَبًا بِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ ، أَمَّا وَاللَّهِ لئن فَرَّقْتُ بَيْنَكُمْ الدَّعْوَةَ ، لَقَدْ جَمَعْتُكُمْ الرَّحِيمَ ، إِنْ اللَّهَ اخْتَارَكُمْ مِنَ النَّاسِ لِيُخْتَارَنَا مِنْكُمْ ، ثُمَّ خَفِظَ عَلَيْكُمْ نَسَبَكُمْ ، بَأَنْ تَخَيَّرَ لَكُمْ بِلَادًا يُجْتَازُ عَلَيْهَا الْمَنَازِلُ ، حَتَّى صَفَّاهُمْ مِنَ الْأُمِّ كَمَا تُصَفَّى الْفِضَّةُ الْبَيْضَاءُ مِنْ خَبَثِهَا ، فَصُوفُوا أَخْلَاقَكُمْ ، وَلَا تُدْنَسُوا أَنْسَابَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ ، فَإِنَّ الْحَسَنَ مِنْكُمْ أَحْسَنُ قَرِيبِكُمْ مِنْهُ ، وَالْقَبِيحُ مِنْكُمْ أَقْبَحُ لِبَعْدِكُمْ عَنْهُ » .

٣٥٠ — خطبة الأخنف بن قيس

فقال الأخنف : « وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا تَعَدَّمُ مِنْكُمْ قَائِلًا جَزِيلًا ^(١) ، وَرَأْيَا أَصِيلًا ، وَوَعْدًا جَمِيلًا ، وَإِنْ أَخَاكَ زِيَادًا لَتَتَّبِعَ آثَارَكَ فِينَا ، فَتَسْتَعِثَّ اللَّهُ بِالْأَمِيرِ وَالْمَأْمُورِ ، فَإِنَّكُمْ كَمَا قَالَ زُهَيْرٌ - فَإِنَّهُ أَتَى عَلَى الْمُدَّاحِينَ فُصُولَ الْقَوْلِ - :

وَمَا يَكُ مِنْ خَيْرٍ أَتَوْهُ فَإِنَّمَا تَوَارَثَهُ آبَاءُ آبَائِهِمْ قَبْلُ
وَهَلْ يُنْبِتُ الْخَطِيئَةَ إِلَّا وَشِيحُهُ وَتُفَرِّسُ إِلَّا فِي مَنَابِتِهَا النَّخْلُ ^(٢)
(زمر الآداب ١ : ٥٨)

٣٥١ — وفد العراق على معاوية وفيهم دغفل النسابة

قديم وفد العراق على معاوية ، وفيهم دَغْفَلٌ ^(٣) ، فقال له معاوية : يَا دَغْفَلُ أَخْبِرْنِي عَنْ ابْنِي زُرَّارٍ : رُبِيعَةٌ وَمُضَرٌّ ، أَيُّهُمَا كَانَ أَعَزَّ جَاهِلِيَّةً وَطَالِمِيَّةً ؟ فقال : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، مُضَرٌّ بِنِ زُرَّارٍ كَانَ أَعَزَّ جَاهِلِيَّةً وَطَالِمِيَّةً . قال معاوية : وَأَيُّ مُضَرٍّ كَانَ أَعَزَّ ؟ قال : بَنُو النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ ، كَانُوا أَكْثَرَ الْعَرَبِ أَجَادًا ، وَأَرْفَعَهُمْ صَدَادًا ،

[١] الجزيل : العاقل الأسيل الرأي . [٢] الخطي : الراجح نسبة إلى الخط : مرأى السفن بالبحرين تنسب إليه الرماح لأنها تباع به لا أنه منبتها ، والوشيح : شجر الرماح جمع وشيجة .
[٣] هو دغفل بن حنظلة النسابة من بني شيبان .

وأعظمهم رماداً . قال : فأئى بنى كِنانة كانَ بدم أعز ؟ قال : بنو مالك بن كِنانة ، كانوا يملّون من سكاتم ، ويكفّون من نأواهم ، ويصدّقون من عاداهم . قال : فمن بدم ؟ قال : بنو الحرث بن عبد مناة بن كِنانة ، كانوا أعزّ بنيه وأمنهم ، وأجودهم وأتقهم . قال : ثم من بدم ؟ قال : بنو بكر بن عبد مناة ، كانَ بأسهم مرهوباً ، وعدوم منكوباً ، وثأرهم مطلوباً . قال : فأخبرني عن مالك بن عبد مناة بن كِنانة ، وعن مُرّة وعامر ابني عبد مناة . قال : كانوا أشرافاً كراماً ، وليس للقوم أكفاء ولا نُظراء . قال : فأخبرني عن بنى أسد . قال : كانوا يُطعمون السديف ^(١) ، ويكرمون الضيوف ، ويضربون في الزُحوف ^(٢) ، قال : فأخبرني عن هذيل . قال : كانوا قليلاً أكياس ^(٣) ، أهل منعة وبأس ، ينتصفون من الناس ، قال : فأخبرني عن بنى ضبة ، قال : كانوا جرة من جرات العرب الأربع ^(٤) ، لا يُصطَلّ بنارهم ، ولا يُفَاتون بنارهم ، قال : فأخبرني عن مُزينة ، قال : كانوا في الجاهلية أهل منعة ، وفي الإسلام أهل دعة . قال : فأخبرني عن تميم ، قال : كانوا أعزّ العرب قديماً ، وأكثرها عظيماً ، وأمنها حريمياً ، قال : فأخبرني عن قيس . قال : كانوا لا يفرحون إذا أُديلوا ^(٥) ، ولا يحزنون إذا ابتلوا ، ولا يَخْلون إذا سُئلوا ، قال : فأخبرني عن أشرافهم في الجاهلية ، قال : غطفان ابن سعد ، وعامر بن صعصعة وسُليم بن منصور ؛ فأما غطفان فكانوا كراماً

[١] شحم السام . [٢] مصدر زحف أو جمع زحف كشس وهو الجيش يزحفون إلى العدو .
[٣] جمع كيس وهو النازل . [٤] قال صاحب النقد : « جرات الرب ، ثم بنو عير بن طهر بن صعصعة ، وبنو الحرث بن كعب ، وبنو ضبة بن أد بن طابخة ، وبنو عيس بن بغيض ، وإما قبل هذه القبائل جرات ، لأنها تجتمع في أنفسها ، ولم يخلوا منهم قيرم ، والتجدير : التجميع ، ومنه قيل : جرة الناقة لاجتماع الحصى فيها ، ومنه قيل : لا تجيروا للسليبي فتفتنوم ، وتفتنوا ندام ، يعني لا تجمعوم في الغزى . الخ - المقد ٢ : ٥٧ . [٥] أداله الله من عدوه : نصره عليه .

سَادَةً ، وَلِلْخَيْسِ^(١) قَادَةً ، وَعَنِ الْبَيْضِ ذَادَةً^(٢) ؛ وَأَمَّا بَنُو عَامِرٍ فَكَثِيرٌ سَادَتُهُمْ ،
تَحْشِيَةً سَطَوَتَهُمْ ، ظَاهِرَةٌ تَجِدُهُمْ ؛ وَأَمَّا بَنُو سُلَيْمٍ فَكَانَ يُدْرِكُونَ النَّارَ ،
وَيَعْمُونَ الْجَارَ ، وَيُعْظَمُونَ^(٣) النَّارَ ، قَالَ : فَأَخْبَرَنِي عَنْ قَوْمِكَ بِكَرِّ بْنِ
وَائِلٍ وَاصْدُقْنِي ، قَالَ : كَانُوا أَهْلَ عَزِّ قَاهِرٍ ، وَشَرَفِ ظَاهِرٍ ، وَمَجْدِ فَاحِرٍ ، قَالَ :
فَأَخْبَرَنِي عَنْ إِخْوَتِهِمْ تَغْلِبَ ، قَالَ : كَانُوا أَسْوَدًا تَرْهَبُ ، وَسِمَامًا^(٤) لَا تُقَرِّبُ ،
وَأَبْطَالًا لَا تُكْذِبُ ، قَالَ : فَأَخْبَرَنِي كَمْ أُدِيلُوا عَلَيْكُمْ فِي قَتْلِكُمْ كُلِّيًّا ؟ قَالَ : أَرْبَعِينَ
سَنَةً ، لَا تَنْتَصِفُ مِنْهُمْ فِي مَوْطِنٍ نَلْقَاهُ فِيهِ ، حَتَّى كَانَ يَوْمَ التَّحَالِيقِ ، يَوْمَ الْحَرْثِ
ابْنُ عَبَادٍ بَعْدَ قِتْلَةِ ابْنِهِ بِجَيْرٍ ، وَكَانَ أَرْسَلَهُ فِي الصَّلَاحِ بَيْنَ الْقَوْمِ ، فَقَتَلَهُ مُهْلِلٌ ،
وَقَالَ : بُؤْسِئِعَ^(٥) نَعْلُ كَلِيبَ ، فَقَالَ الْغَلَامُ : إِنْ رَضِيتَ بِهَذَا بَنُو بَكْرِ رَضِيتُ ،
فَبَلَغَ الْحَرْثُ ، فَقَالَ : نِعَمَ الْقَتِيلُ قَتِيلًا إِنْ أَصْلَحَ اللَّهُ بَيْنَ بَكْرِ وَتَغْلِبَ وَبَاءَ بِكَالِيبِ ،
فَقِيلَ لَهُ : إِنَّمَا قَالَ مُهْلِلٌ مَا قَالَ (الْكَلِمَةُ^(٦)) ، فَتَشَمَّرَ الْحَرْثُ لِلْحَرْبِ ، وَأَمَرْنَا
بِحُلُقٍ رءُوسَنَا أَجْمَعِينَ ، وَهُوَ يَوْمُ التَّحَالِيقِ ، وَلَهُ خَبَرٌ طَوِيلٌ ، وَقَالَ :

قَرَبًا مَرَبُطَ النِّعَامَةِ مِنِّي لَقِيتُ حَرْبُ وَائِلٍ عَنِ حِيَالٍ^(٧)
لَمْ أَكُنْ مِنْ جُنَاتِهَا - عِلْمُ اللَّؤْلُ - وَإِنِّي بِحَرْهَا الْيَوْمَ صَالِي
قَرَبًا مَرَبُطَ النِّعَامَةِ مِنِّي إِنْ يِعَ الْكَرَامَ بِالشَّيْئِ غَالِي

فَأَدْرَأْنَا عَلَيْهِمْ يَوْمَئِذٍ ، فَلَمْ نَزَلْ مِنْهُمْ مَمْتَنِينَ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا . قَالَ : فَزِنِ ذَهَبَ يَدَكَ

[١] الخيس : الجبن . سمى بذلك لأنه خسر فرق : للقصة ، والقلب ، والليمة ، واللبيرة ، والؤخرة .

[٢] البيضة : حوزة كل شيء وساحة القوم ، وبيضة الدار : وسطها . [٣] كناية عن الكرم .

[٤] جمع سم مثل العين . [٥] الشيع : سير يشد به النمل .

[٦] هي قوله (يؤشع نعل كليب) . [٧] النعامة : اسم فرسه ، ولقيت الناقة ، قبل الانفاح

وحالت حيوالا لم تقح ستة ، أو ستين ، أو سنوات .

ذلك اليوم ؟ قال : الحرثُ بنُ عُبَاد ، أسرمه لَهْلَاءَ في ذلك اليوم ، وقال له : دُنِّي
على مهمل بن ربيعة ، قال : مَالِي إِنْ دَلَّلْتُكَ عَلَيْهِ ؟ قال : أَطْلِقْكَ ، قال : على
الوفاء ؟ قال : نعم ، قال له : أَنَا مهمل ، قال : وَيَحْتَك ! دُنِّي على كفاء كريمة ،
قال : امرؤ القيس ^(١) ، وأشار يده إليه عن قُرْب ، فأطلقه الحرث ، وانطلق إلى
امرى القيس فقتله ، وبكر كلها صَبَرَتْ وَأَبْلَتْ فحَسُنَ بَلَاؤُهَا ، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ
ابْنِ لُجَيْم : حَدِيفَةٌ وَمِجْلٌ ، وَيَشْكُرُ بْنُ بَكْرٍ ، فَإِنْ سَعِدَ بْنُ مَالِكِ بْنِ صُبَيْعَةَ
جَدَّ طَرْفَةَ بْنِ الْعَبْدِ ، هَجَامُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ، فَقَالَ :

إِنْ لُجَيْمًا عَجَزَتْ كُلُّهَا أَنْ يُرْفِدُونِي فَارِسًا وَاحِدًا ^(٢)

وَيَشْكُرُ الْعَامَّ عَلَى خَيْرِهَا لَمْ يَسْمَعْ النَّاسُ لَهُمْ حَامِدًا ^(٣)

وقال فيهم أيضاً :

يَا بُؤْسَ لِلْحَرْبِ الَّتِي وَضَعْتَ أَرَاهِطَ فَاسْتَرَاوَا ^(٤)

إِنَّا وَإِخْوَتُنَا غَدًا كَشْمُودَ حِجْرٍ يَوْمَ طَاخُوا ^(٥)

بِالْمَشْرِيقِ لَا تَقِرَّ وَلَا نُبَاحُ وَلَنْ تُبَاحُوا ^(٦)

مَنْ صَدَّ عَنْ نِيرَانِهَا فَأَنَا ابْنُ قَيْسٍ لَا بَرَّاحُ ^(٧)

فقال معاوية : أَنْتَ وَاللهِ يَا دَغْفَلَ أَعْلَمُ النَّاسَ قَاطِبَةً بِأَخْبَارِ الْعَرَبِ .

(ذيل الأمالي ٢٦)

[١] هو امرؤ القيس بن أبان التميمي . [٢] الإرفاد : الإياعة والإيهاء .

[٣] الحرث : الذئب أو أبقعه . [٤] أراهط جمع الجمع لرهط . [٥] الحجر : وادي بين المدينة
والشام : مساكن بني قيس بن عيلان . [٦] مشارف الشام : قرى من أرض العرب قدوة من الريف منها
البيوت المشرفية ، وق ذيل الأمالي « ولا نباح ولن نباحوا » بالنون وقد أصلحته « ولن تباحوا » بالطاء
على الالتفات من التكلم إلى الخطاب ، أي ولن تباحوا يا قوم مادمتا لكم حماة ، وقال مصحح الأمالي :
« ولن نباحوا » كذا في الأصل ، ولعل هنا تحريفا ، ووجه الكلام « كن يباح » .

[٧] قولهم لا براح كقولهم لا ريب ، ويجوز ربه فتكون لا بتزلة ليس .

٣٥٢ - دغفل وجماعة من الانصار

ووقف جماعة من الأنصار على دَغْفَل بعد ما كَفَّ ، فسَلَمُوا عليه ، فقال :
 مَنِ الْقَوْمُ ؟ قالوا : سَادَةُ الْيَمَنِ ، فقال : « أَمِنْ أَهْلِ مَجْدِهَا الْقَدِيمِ ، وَشَرَفِهَا
 الْعَمِيمِ ، كِنْدَةَ ؟ » ، قالوا : لا ، قال : « فَأَتَمُّ الطَّوَالِ قَصَبًا ، الْمُحَصَّنُونَ نَسَبًا ،
 بَنُو عَبْدِ الْمَدَانِ ؟ » قالوا : لا ، قال : « فَأَتَمُّ أَقْوَدُهَا لِلزُّخُوفِ ، وَآخِرُهَا
 لِلصَّفُوفِ ، وَأَضْرِبُهَا بِالسَّيْفِ ، رَهْطُ عَمْرُو بْنِ مَعْدِيكَرِبٍ ؟ » قالوا : لا ،
 قال : « فَأَتَمُّ أَخْضَرُهَا قَرَاءً ^(١) ، وَأَطْيَبُهَا فَنَاءً ، وَأَشَدُّهَا لِقَاءً ، رَهْطُ حَاتِمِ بْنِ
 عَبْدِ اللَّهِ ؟ » قالوا : لا ، قال : « فَأَتَمُّ الْغَارِسُونَ لِلنَّخْلِ ، وَالْمَطْعِمُونَ فِي الْمَخَلِ ^(٢) ،
 وَالْقَاتِلُونَ بِالْمَدْلِ ، الْأَنْصَارُ ؟ » قالوا : نعم . (الأمل : ٢ : ٢٨٧)

٣٥٣ - وفد أهل العراق على معاوية وفيهم صعصعة بن صوحان

قال عبد الملك بن مروان يوماً لجلسائه : خَبَّرُونِي عَنْ حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ
 الْعَرَبِ ، فِيهِمْ أَشَدُّ النَّاسِ ، وَأَسَخَى النَّاسِ ، وَأَخْطَبُ النَّاسِ ، وَأَطْوَعُ النَّاسِ فِي
 قُوَّةِهِ ، وَأَحْلَمُ النَّاسِ ، وَأَخْضَرُهمْ جَوَابًا .

قالوا : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا نَعْرِفُ هَذِهِ الْقَبِيلَةَ ، وَلَكِنْ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تَكُونَ فِي
 قَرِيشٍ ، قَالَ : لَا ، قالوا : فِي خَيْبَرَ وَلَوْ كَمَا ، قَالَ : لَا ، قالوا : فِي مِضَرَ ، قَالَ :
 لَا ، قَالَ مَصْقَلَةُ بْنُ رُقَيْةَ الْعَبْدِيُّ : فَهِيَ إِذَنْ فِي رَيْعَةٍ ، وَنَحْنُ هُمْ ، قَالَ : نَعَمْ ،
 قَالَ جُلَسَاؤُهُ : مَا نَعْرِفُ هَذَا فِي عَبْدِ الْقَيْسِ إِلَّا أَنْ تَخْبِرَنَا بِهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ،
 قَالَ : نَعَمْ .

[١] قرى النيف كرمى قرى بالكسر ، والنصر : وفراء بالفتح وللد : أضافه .

[٢] الخل : الجلب والثمة .

أما أشد الناس ، فحكيم بن جبَل ، كَانَ مع علي بن أبي طالب - رضى الله عنه - فَقُطِعَت ساقه ، فضعها إليه ، حتى مرَّ به الذى قطعها ، فرماه بها فجذله^(١) عن دابته ، ثم جثا إليه فقتله وانكأ عليه ، فرَّ به الناس ، فقالوا له : يا حكيم ، مَنْ قطع سافتك ؟ قال : وسادى^(٢) هذا ، وأنشأ يقول :

يَا سَاقُ لَا تُرَاعَى^(٣) إِنْ مَعِيَ ذِرَاعَى أَتَمِّى بِهَا كُرَاعَى

وأما أسخى الناس فعبد الله بن سِوَار ، استعمله معاوية على السُّنْد ، فسار إليها فى أربعة آلاف من الجند ، وكانت توقدُ معه نار حيثما سار ، فَيُطْعِمُ الناس ، فينبأ هو ذات يوم إذ أبصر نارا ، فقال : ما هذه ؟ قالوا : أصلح الله الأمير ، اعتلَّ بعض أصحابنا ، فاشتوى خبيصا^(٤) ، فعملنا له ، فأمر خبَّازَه ألا يُطْعِمُ الناس إلا الخبيص ، حتى صاحوا وقالوا : أصلح الله الأمير : رُدُّنَا إِلَى الخبز واللحم ، فَسُمِّى مُطْعِمُ الخبيص .

وأما أطوع الناس فى قومه ، فلجَارُود بن بَشْر بن العلاء ، فإنه لما قُبِضَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وارتدَّت العرب ، خطب قومه ، فقال : « أيها الناس : إِنْ كَانَ مُحَمَّدٌ قد مات ، فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوت ، فاستمسِكُوا بدينكم ، فن ذهب له فى هذه الرِّدَّة دِينَارٌ أو درهم أو بئير أو شاة ، فله عَلَى مِثْلَاهُ » فساخلفه منهم رجل .

وأما أَحْضَرُ الناس جوابا ، فَصَعَصَعَةُ بن صُوحان ، دخل على معاوية فى وفد

[١] جذله : صرعه على الجذالة (كسحابة) وفى الأرض . [٢] الوساد : التكاثر ، والنخلة

كلورادة ويثك . [٣] لا تراعى : لا تهتم ، والكراع : جماعة الخيل .

[٤] الخبيص : بقى الدقيق يخلط بالملح ، والخبيصة : أخص منه ، وخبيص الخلاء كضرب ، وخبيصا :

بالفتيد خذلها وعملها .

أهل العراق، فقال معاوية : مَرَحَبًا بِكُمْ يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ ، قَدِمْتُمْ أَرْضَ اللَّهِ الْمَقْدَسَةَ ،
منها الْمَنْشَرُ ، وإليها الْمَحْشَرُ ، قَدِمْتُمْ عَلَى خَيْرِ أُمِيرٍ يَبْرُكُ كَبِيرُكُمْ ، وَبِرَحْمِ صَغِيرِكُمْ ،
وَلَوْ أَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ وَلَدُ أَبِي سَفْيَانَ لَكَانُوا حُلَمَاءَ عَقْلَاءَ ، فَأَشَارَ النَّاسُ إِلَى
صَعْبَةِ قِطَاعٍ :

فَحَمْدُ اللَّهِ ، وَأَمْنِي عَلَيْهِ ، وَصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ قَالَ :
« أَمَا قَوْلُكَ يَا مُعَاوِيَةَ : إِنَّا قَدِمْنَا الْأَرْضَ الْمَقْدَسَةَ ، فَلَعُمْرِي ، مَا الْأَرْضُ
تَقْدَسُ النَّاسَ ، وَلَا يَقْدَسُ النَّاسَ إِلَّا أَعْمَالُهُمْ ، وَأَمَا قَوْلُكَ : مِنْهَا الْمَنْشَرُ ، وَإِلَيْهَا
الْمَحْشَرُ ، فَلَعُمْرِي ، مَا يَنْفَعُ قَرْبُهَا ، وَلَا يَضُرُّ بُعْدُهَا مُؤْمِنًا ، وَأَمَا قَوْلُكَ : لَوْ أَنَّ
النَّاسَ كُلَّهُمْ وَلَدُ أَبِي سَفْيَانَ لَكَانُوا حُلَمَاءَ عَقْلَاءَ ، فَقَدْ وَلَدَهُمْ خَيْرٌ مِنْ أَبِي سَفْيَانَ
آدَمُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، فَتَنَّهُمُ الْحَلِيمُ وَالسَّفِيهَ ، وَالْجَاهِلُ وَالْعَالِمُ » .

وَأَمَا أَحْلَمُ النَّاسَ ، فَإِنَّ وَلَدَ عَبْدِ الْقَيْسِ قَدِمُوا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
بِصَدَقَاتِهِمْ وَفِيهِمُ الْأَشْجُ^(١) ، فَقَرَّبَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَهُوَ أَوَّلُ
عَطَاءٍ فَرَّقَهُ فِي أَصْحَابِهِ ، ثُمَّ قَالَ : يَا أَشْجُ ادْنُ مِنِّي ، فَدَنَا مِنْهُ ، فَقَالَ : « إِنَّ فِيكَ
خَلَّتَيْنِ يَجِبُهُمَا اللَّهُ : الْأَنَاةُ وَالْحِلْمُ » وَكَفَى بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَاهِدًا ،
وَيُقَالُ : إِنَّ الْأَشْجَ لَمْ يَغْضَبْ قَطُّ^(٢) . (القد الفريد ٢ : ٥٦)

٣٥٤ — وفود العرب ومعاوية

عن عمرو بن عتبة بن أبي سفيان ، قال :
عَقِمَتِ النِّسَاءُ أَنْ يَلِدْنَ مِثْلَ عَمِّي ! شَهِدْتُهُ يَوْمًا ، وَقَدْ قَدِمَتِ عَلَيْهِ وَفُودُ

[١] هو عبد الله بن عوف الأشج . [٢] هذا القائل يزيد على العنوان التي عنوته به ، وقد أورد
من ذلك استفاء حديث عبد الملك .

العرب ، فتَضَى حوائجهم ، وأحسنَ جوائزهم ، فلما دخلوا عليه ليشكروه ، سبقهم إلى الشكر ، فقال لهم :

« جزاكم الله يا معشر العرب عن قریش أفضلَ الجزاء ، بتقدّمكم ليّام في الحرب ، وتقديعكم لهم في السّلم ، وحَقْنكم دماءهم بِسَفْكِها منكم ، أمّا والله لا يُؤثّر عليكم غيركم منهم حازِمٌ كريم ، ولا يرغبُ عنكم منهم إلا عاجزٌ لثيم ، شجرةٌ قامت على ساق ، فتفرّعَ أعلاها ، واجتمعَ أصلُها ، عَصَدَ اللهُ مَنْ عَصَدَها ، فيألفها كلمةٌ لو اجتمعت ! وأيدٍ لو ائتلفت ! ولكن كيف يَصِلُ ما يريد الله إفسادَه ؟ » . (الفرد الغريد ٢ : ٤١)

٣٥٥ - وفود عبد العزيز بن زُرارة على معاوية

وفد عبد العزيز ^(١) بن زُرارة على معاوية ، وهو سيد أهل الكوفة ، فلما أذن له وقف بين يديه ، وقال :

« يا أمير المؤمنين : لم أَزَلْ أَهْرُ ذَوَائِبَ ^(٢) الرّجال إليك ، إذ لم أَجد مَعُولًا إلا عليك ، أمتطى الليل بعد النهار ، وأَسِمُ ^(٣) المَجَاهِلَ بالآثار ، يقودنى إليك أَمَلٌ ، وتسوقنى بَلَوَى ، والمجتهد يُمَدِّر ، وإذ بلغتكَ فَقَطِنِي ^(٤) » ، فقال معاوية : أَحْطِطْ عن راحلتك رَحَلَهَا .

وروى الجاحظ هذا القول بصورة أخرى ، فقال :

« ولما وصل عبد العزيز بن زُرارة إلى معاوية قال : « يا أمير المؤمنين ، لم

[١] في صبح الأعشى « عبد الرزى » وفي الامال : « قل رجل لعبد الملك بن مروان . . . الخ » .

[٢] جمع ذؤابة : وهي المبلدة اللصقة على آخره الرجل ، وفي صبح الأعشى « ذوائب الرجاء » .

[٣] وصمه بسمه : علمه بعلامه . [٤] غشي .

أزل أَسْتَدِلُّ بِالْمَعْرُوفِ عَلَيْكَ ، وَأَمْتَطِي النَّهَارَ إِلَيْكَ ، فَإِذَا أَلَوِي ^(١) بِي اللَّيْلِ ،
فَقَبَضَ الْبَصَرَ ، وَعَقَى الْأَثَرَ ، أَقَامَ بَدَنِي ، وَسَافَرَ أَمَلِي ، وَالنَّفْسُ تَلُومُ ، وَالْاجْتِهَادُ
يَعْذِرُ ، وَإِذَا بَلَغْتَكَ فَقَطَّنِي . .

وخرج عبد المزيّن بن زرارة مع يزيد بن معاوية إلى الصّائفة ^(٢) ، فهلك
هناك ، فكتب يزيد إلى أبيه معاوية بذلك ، فقال معاوية لزرارة : أتأني اليوم نَعْيُ
سيد شباب العرب ، قال زرارة : يا أمير المؤمنين هو ابني أو ابنتك ؟ قال : بل
ابنتك ، قال : للموت ما تَلَدِ الوالدة .

(الفرد ١ : ١١٨ ، وصبح الأعشى ١ : ٢٥٧ ، والبيان والبيان ٢ : ٢٧ ، والأمل ١ : ٢٠١)

٣٥٦ - وفود زيد بن مَنِيَّة على معاوية

قدم زيد بن مَنِيَّة على معاوية من البصرة ، (وهو أخو يعلَى بن مَنِيَّة ^(٣)
صاحب جبل عائشة ، ومتولّى تلك الحروب ، ورأس أهل البصرة ، وكان عتبة بن
أبي سفيان قد تزوج ابنة يعلَى بن مَنِيَّة) ، فلما دخل على معاوية شكّا إليه ديناً
لزمه ، فقال : يا كعبُ ، أعطه ثلاثين ألفاً ، فلما ولى قال : وليوم الجمل ثلاثين
ألفاً أخرى ، ثم قال له : الحقّ بصهرّك ، (يعني عتبة ، وكان يومئذ عامل مصر)
فقدّم عليه مصر ، فقال :

« إِنِّي سَرْتُ إِلَيْكَ شَهْرَيْنِ أَخُوْضُ فِيهِمَا الْمَتَافِفَ ، أَلْبَسَ أَرْضِيَّةَ اللَّيْلِ مَرَّةً ،

[١] المراد جن عليّ ، وأحدثت بي ظلمته ، يقال : أوى به : ذهب به ، وألوت به العتاة : طارت
به ، وألوى بما في الإياء : استأثر به .

[٢] الصائفة : غزوة الروم ، لأنهم كانوا ينزون صيفا لمكان البرد والثلج .

[٣] في صبح الأعشى والقند « منه » بالياء وهو تصحيف والصواب « منية » وهو اسم أمه ، واسم
أبيه أمية ، والتصحيح من تاريخ الكامل لابن الأثير . وكان يعلَى عاملاً لعمان رضى الله عنه على اليمن ، فلما
ولى عليّ رضى الله عنه الخلافة عزله ، وولى على اليمن جبير الله بن عباس ، فانصرف يعلَى إلى مكة ومعه
مال كثير ، وانضم إلى السيدة فاطمة رضى الله عنها في قتال عليّ في ومة الجمل .

وَأَخْوَضُ فِي لُجَجِ السَّرَابِ^(١) أُخْرَى ، مُوقَرًّا^(٢) مِنْ حُسْنِ الظَّنِّ بِكَ ، وَهَارِبًا مِنْ دَهْرِ فَطَمٍ^(٣) ، وَدِينَ لَزِمَ^(٤) ، بَعْدَ غِنَى جَدِّعْنَا بِهِ أَنْوَفَ الْحَاسِدِينَ ، فَلَمْ أَجِدْ إِلَّا إِلَيْكَ مَهْرَبًا ، وَعَلَيْكَ مُعَوَّلًا ، فَقَالَ عَتَبَةُ : « مَرْحَبًا بِكَ وَأَهْلًا ، إِنْ الدَّهْرُ أَطَارَكُمْ غِنَى ، وَخَلَطَكُمْ بِنَا ، ثُمَّ اسْتَرَدَّ مَا أَمَكْنَهُ أَخْذُهُ ، وَقَدْ أَبْقَى لَكُمْ مِنْهَا مَا لَا ضِيقَ^(٥) مَعَهُ ، وَأَنَا وَاضِعٌ يَدِي وَيَدَكَ بِيَدِكَ اللَّهُ » ، فَأَعْطَاهُ سِتِينَ أَلْفًا كَمَا أَعْطَاهُ مَعَاوِيَةَ . (القدر الفريد ١ : ١١٨ ، وصبح الأعشى ١ : ٢٥٧)

٣٥٧ - وفود ضرار بن حمزة الصَّدَائِيَّ عَلَى مَعَاوِيَةَ

دَخَلَ ضِرَارُ بْنُ حَمَزَةَ الصَّدَائِيَّ^(١) (وَكَانَ مِنْ خَوَاصِّ عَلَى كَرَمِ اللَّهِ وَجْهِهِ) عَلَى مَعَاوِيَةَ وَاقِدًا ، فَقَالَ لَهُ : يَا ضِرَارُ ، صِفْ لِي عَلِيًّا ، قَالَ : أَغْفِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ : لَتَصِفَنَّهُ ، قَالَ : « أَمَّا إِذَا لَا بُدَّ مِنْ وَصْفِهِ ، فَكَانَ وَاللَّهِ بَعِيدَ الْمَدَى^(٢) ، شَدِيدَ الْقُوَى ، يَقُولُ فَضْلًا ، وَيَحْكُمُ عَدْلًا ، يَتَفَجَّرُ الْعِلْمُ مِنْ جَوَانِبِهِ ، وَتَنْطِقُ الْحِكْمَةُ مِنْ فَوَاحِيهِ ، يَسْتَوْحِشُ مِنَ الدُّنْيَا وَزَهْرَتِهَا ، وَيَسْتَأْنَسُ بِاللَّيْلِ وَوَحْشَتِهِ ، وَكَانَ وَاللَّهِ غَزِيرَ الْمَعْبَرَةِ ، طَوِيلَ الْفِكْرَةِ ، يُقَلِّبُ كَفَّهُ ، وَيَخَاطِبُ نَفْسَهُ ، يُعْجِبُهُ مِنَ اللِّبَاسِ مَا قَصُرَ ، وَمِنَ الطَّعَامِ مَا خَشُنَ ، كَانَ فِينَا كَأَحَدِنَا ، يُجِيبُنَا إِذَا سَأَلْنَاهُ ، وَيُنَبِّئُنَا إِذَا اسْتَنْبَأْنَاهُ ، وَنَحْنُ مَعَ تَقْرِيهِ إِيَّانَا ، وَقُرْبِهِ مِنَّا ، لَا نَكَادُ نَكَلِّهِ لِهَيْئَتِهِ ، وَلَا نَبْتَدِّئُهُ لِعِظَمَتِهِ ، يُعْظَمُ أَهْلُ الدِّينِ ، وَيَحِبُّ الْمَسَاكِينُ ،

[١] السراب : ما تراه نصف النهار كأنه ماء .

[٢] عملا . من الوقر بالكسر وهو الجمل الثقيل أو أعم ، وأوفر الدابة إغراء .

[٣] يردى بالفاء والذاف ، قطمه وقطمه : قطعه ، وضبط في صبح الأعشى بالغاف ، وبالطاء المكسورة وصف من قام كفرح : اشتهى اللحم أو غيره . [٤] وفي صبح الأعشى : « وَدِينَ لَزِمَ » وَأَزَمَ

كضرب وفرح : عض بالتم كله شديدا . [٥] الضيقة : الفقر وسوء الحال ، ويخرج .

[٦] صداد كفراب : حتى بالين . [٧] الناية .

لا يطمع القَوِيُّ في باطله ، ولا يَيْتَس الضعيف من عدله ، وأشهد لقد رأيته في بعض مواقفه ، وقد أُرْخِيَ الليلُ سُدُوْلَهُ ^(١) ، وغارت نجومُهُ ، وقد مَثَلَ في مِغْرَابِهِ قابضاً على لحيته ، يتملِّم تَمَلُّمَ السَّليْم ^(٢) ، ويبكى بكاء الحزين ، ويقول : يا دنيا غُرِّيْ غَيْرِي ، أَلِي تَمَرَّضْتِ ، أَمْ أَلِي تَشَوَّقْتِ ؟ هيهات هيهات ! قد باينتُك ثلاثاً لا رَجْمَةَ فيها ، فَعَمْرُكَ قصير ، وَخَطَرُكَ ^(٣) حَقير ، آه من قلة الزَّاد ، وَبُعد السفر ، وَوَحْشة الطريق ! فبكى معاوية ، وقال : رحم الله أبا الحسن ، فلقد كَانَ كذلك ، فكيف حزنُكَ عليه يا ضرار ؟ قال : حزن من ذُبِحَ وَاحِدُهَا في حجرها . (الأمل ٢ : ١٤٩ ، وسراج النب ٢ : ٤٧ ، وشرح ابن أبي الحديد م ٤ : ص ٢٧٦ ، وزهر الآداب ١ : ٤٧)

الوافدات على معاوية

٣٥٨ - وفود سودة بنت عمار على معاوية

وَفَدَّتْ سَوْدَةُ ابْنَةُ عِمَارَةَ بْنِ الْأَشْثَرِ الْهَمْدَانِيَّةُ ، عَلَى مَعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سَفْيَانَ ، فَاسْتَأْذَنْتْ عَلَيْهِ ، فَأَذِنَ لَهَا ، فَلَمَّا دَخَلَتْ عَلَيْهِ سَلَّمَتْ ، فَقَالَ لَهَا : كَيْفَ أَنْتِ يَا بِنْتَ الْأَشْثَرِ ؟ قَالَتْ : بِخَيْرٍ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ لَهَا : أَنْتِ الْقَائِلَةُ لِأَخِيكَ يَوْمَ صَفِين ؟ :

تَمَرَّزْتُ كَيْفَ لِي أَيْكَ يَا بِنْتَ عِمَارَةَ يَوْمَ الطَّعْمَانِ وَمُلْتَقَى الْأَقْرَانِ
وَأَنْصُرُ عَلِيًّا وَالْحُسَيْنَ وَرَهْطَهُ وَأَقْصِدُ لِهَيْدٍ وَأَبْنَاهَا بِهَوَانٍ
إِنَّ الْإِمَامَ أَخَا النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ عَلَّمَ الْهَدْيَ وَمَنَارَةَ الْإِيمَانِ

[١] الدول جمع سدك بالضم والكسر : وهو السر . [٢] السليم : اللغوغ ، ومعنى بذلك تناولا له بالسلامة ، كما يسمى اليداء مغارة : تناولا بالوز . [٣] الخطر : القدر .

فَقَدِ الْجَبُوشَ وَبَرَّ أَمَامَ لِرَآئِهِ قُدَّمَا بِأَيْضَ صَارِمٍ وَسِنَانٍ^(١)

قالت : إِي والله ، ما مثلي مَنْ رَغِبَ عَنِ الْحَقِّ ، أَوْ اعْتَذَرَ بِالْكَذِبِ ، قَالَ لَهَا : فَمَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ ؟ قَالَتْ : حُبٌّ عَلَىَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَاتِّبَاعُ الْحَقِّ ، قَالَ : فَوَاللَّهِ مَا أَرَى عَلَيْكَ مِنْ أَثَرٍ عَلَى شَيْءٍ ، قَالَتْ : أَنْشُدْكَ اللَّهَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِعَادَةَ مَا مَضَى ، وَتَذْكَارَ مَا قَدْ نُسِيَ ، قَالَ : هِيَاتِ ! مَا مِثْلُ مَقَامِ أَخِيكَ يُنْسَى ، وَمَا لَقِيتُ مِنْ أَحَدٍ مَا لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكَ وَأَخِيكَ ، قَالَتْ : صَدَقْتَ وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، مَا كَانَ أَخِي خَفِيَ الْمَقَامَ ، ذَلِيلَ الْمَكَانِ ، وَلَكِنْ كَمَا قَالَتِ الْخَنَسَاءُ :

وَإِنَّ صَخْرًا لَتَأْتِيَهُمُ الْهَمْدَاءُ بِهِ كَأَنَّهُ عِلْمٌ فِي رَأْسِهِ نَارٌ^(٢)

قَالَ : صَدَقْتَ ، لَقَدْ كَانَ كَذَلِكَ ، فَقَالَتْ : مَاتَ الرَّأْسُ وَبَرَّ الذَّنَبُ ، وَبِاللَّهِ أَسْأَلُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِعْفَائِي مِمَّا اسْتَعْفَيْتُ مِنْهُ ، قَالَ : قَدْ فَعَلْتُ ، فَقَوْلِي حَاجَتَكَ ، قَالَتْ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّكَ أَصْبَحْتَ لِلنَّاسِ سَيِّدًا ، وَلِأُمُورِهِمْ مُتَمَلِّدًا ، وَاللَّهِ سَأَلْتُكَ عَنْ أَمْرِنَا ، وَمَا اقْتَرَضَ عَلَيْكَ مِنْ حَقِّنَا ، وَلَا تَرَالِ تُقَدِّمَ عَلَيْنَا مَنْ يَنْهَضُ بِعِزِّكَ ، وَيَسُطُّ سُلْطَانَكَ ، فَيَحْصِدُنَا حِصَادَ الشُّغْلِ ، وَيُدْوَ سِنَا دِيَاسَ^(٣) الْبَقَرِ ، وَيَسُومُنَا^(٤) الْخَسِيسَةَ ، وَيَسْلُبُنَا الْجَلِيلَةَ ، هَذَا ابْنُ أَرْطَاةَ^(٥) قَدِمَ بِلَادِي ، وَقَتَلَ

[١] القسم : الشجاء ، وفي بلاغات النساء : « فقه الخوف وشر أُمم لِرَآئِهِ » .

[٢] العلم : الجبل . [٣] الفوس والغياس والدياسة : الوطء بالرجل . [٤] يكفنا .

[٥] هو بَرِّ بْنِ أَرْطَاةَ ، وَقِيلَ ابْنُ أَبِي أَرْطَاةَ ، وَكَانَ سَاوِيَةً عَلَى سَبِيلِهِ إِلَى الْحِجَازِ وَالْيَمَنِ لِيَقْتُلَ شَيْعَةَ عَلِيٍّ وَيَأْخُذَ الْيَمِينَ لَهُ ، فَسَارَ إِلَى الدِّيْنَةِ ، فَصَلَّاهَا أَصْلًا شَنِيعَةً ، وَسَارَ إِلَى الْيَمَنِ ، وَكَانَ عَلَيْهَا عَبِيدُ اللَّهِ ابْنُ الْغِيَاثِ مِنْ قَبْلِ عَلِيٍّ ، فَهَرَبَ عَبِيدُ اللَّهِ فَزَلَّهَا بِسَرٍّ وَذَبَحَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ ، وَقَتَمَ ابْنُ عَمِيدِ اللَّهِ وَهَمَّا صَغِيرَانِ يَتِيمَانِ أُمُهُمَا ثَلَاثَةُ بَنَاتٍ عَبْدُ الدَّيَّانِ ، فَأَصَابَهَا مِنْ ذَلِكَ حَزَنٌ عَظِيمٌ ، فَأَتَتْهُنَّ قَوْلُ :

يَا مَنْ أَحْسَ بَنِي الْغِيَاثِ مَا كَلْبَرَتَيْنِ تَشْطِي عَنْهُمَا الصَّدَفُ

يَا مَنْ أَحْسَ بَنِي الْغِيَاثِ مَا صَمِيَّ وَقَلِي ، ظَلَمِي الْيَزِيمُ مَخْطُفُ

يَا مَنْ أَحْسَ بَنِي الْغِيَاثِ مَا مَنَعَ الْمَقَامَ ، قَتَلَنِي الْيَوْمَ مُزْدَهَفُ

رجالى، وأخذ مالى، ولولا الطاعة لكان فينا عزٌّ ومَنعة، فإِما عزَّلتنا عنا فشكرناك، وإِما لا، فترَفناك، فقال معاوية : إِيَّايَ تَهْدِدِينَ بقومك ؟ والله لقد هممت أن أحملك على قَتَب^(١) أشرس فأردك إليه، يُنْفِذُ فيك حكمه، فأطرقت تبكى، ثم أنشأت تقول :

صَلَّى الْإِلَٰهُ عَلَى رُوحٍ تَضَمَّنَتْهُ قَبْرٌ فَأَصْبَحَ فِيهِ الْعَذْرُ مَدْفُونًا

قَدْ سَلَفَ الْحَقُّ لَا يَنْبَغِي بِهِ نَمْنًا فَصَارَ بِالْحَقِّ وَالْإِيمَانِ مَقْرُونًا

قال : ومن ذلك ؟ قالت : على بن أبى طالب، رحمه الله تعالى، قال : وما صنع بك حتى صار عندك كذلك ؟ قالت : أتيتُه يوما فى رجل ولَّاهُ صَدَقَاتِنَا، فكان بيننا وبينه ما بين النَّثِّ^(٢) والسَّيْنِ، فوجدته قائما يُصَلِّي، فانفقت من الصلاة، ثم قال برأفةٍ وتعطف : أَلَيْكَ حَاجَةٌ ؟ فأخبرته خبر الرجل، فبكى ثم رفع يديه إلى السماء، فقال : اللهم إنك أنت الشاهد علىّ وعليهم، إني لم أؤرم بظلم خلقتك، ولا تركِ حقك، ثم أخرج من جيبه قطعة من جراب، فكتب فيها :

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : قَدْ جَاءَ نَكْمٌ يَنْتَنُ مِنْ رَبِّكُمْ، فَأَوْفُوا الْكِيلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ،^(٣) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ، وَلَا تَعْتُوا^(٤) فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ، بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِمَحْفِظٍ، إِذَا أَنَا كَتَابِي هَذَا فَاحْفَظْ بِمَا فِي يَدِكَ مِنْ عَمَلِنَا، حَتَّى يَأْتِيَ مَنْ يَقْبِضُهُ مِنْكَ وَالسَّلَامُ » .

فأخذته منه والله ما خَرَّمَهُ بِخِزَامٍ، وَلَا خَصَمَهُ بِخِتَامٍ^(٥) فقرأته، فقال معاوية :

[١] القتب : الإكاف الصغير على قدر سنام البئر، وللرَّاد به هنا البئر لوصفه بالأعرس فيه مجاز. أو الأعرس : الحسن النليط. [٢] الثت : للهزول. [٣] القسط : العدل. [٤] ثنا يشو شوا : أهد. [٥] الخزام جمع خزيمة بالكسرة، وهي في الأصل : حلقة تجمل في أحد جانبي منغرى البعير، وخزيمة الثل : سير رقيق يجزم بين الصراكين، الختام : الطين يحتم به على الشيء، (والخاتم : ما يوضع على الطينة) .

اكتبوا لها بالإنصاف لها ، والعدل عليها ، فقالت : أَلِي خَاصَّةٌ ، أم لقومي عاتمة ؟ قال : وما أنتِ وغيركِ ؟ قالت : هي واللهِ إِذْنُ الفحشاء واللوم ، إن لم يكن عدلاً شاملاً ، وَإِلَّا يَسْمَعُنِي ما يَسْعُ قومي ، قال : هيهات ! لَمْظُكُمْ ^(١) ابن أبي طالب الجرأة على السلطان ، قَبِطِيئاً ما تُقَطِّمُونَ ، وغيركم قوله :

فلو كنتُ بَوَّاباً على بابِ جَنَّةٍ لَقُلْتُ لِهَمْدَانٍ أَذْخُلُوا بِسَلَامٍ
وقوله : ناديتُ همدانَ والأبوابُ مُعَلَّقَةٌ ومثلُ همدانِ سَنَى فَتَحَةَ البابِ ^(٢)
كأَنَّهُ يَدْعُوَنِي لَمْ تُفَلِّلْ مُضَارِبُهُ وَجَهٌ جَمِيلٌ وَقَلْبٌ غَيْرُ وَجَبٍ ^(٣)

اكتبوا لها ولقومها . (المقد الفريد ١ : ١٢٩ ، وبلغات الذاء من ٣٥)

٣٥٩ - وفود أم سنان بنت خيشمة على معاوية

حبس مروان بن الحكم ، وهو والي المدينة ، في خلافة معاوية ، غلاماً من بني ليث في جناية جناها ، فأنته جمة النلام ، وهي أم سنان بنت خَيْشَمَةَ ^(١) المذحجية ، فكلمته في النلام فأغاظ لها مروان ، فخرجت إلى معاوية ، فدخلت عليه فانتسبت فعرضا ، فقال لها : مَرَّجِباً بك يا بنتَ خَيْشَمَةَ ، ما أقدمك أرضنا ، وقد عاهدتُك تَسْتَمِينُنَا ^(٢) ، وَتَحْضِينَ علينا عدونا ؟ قالت : إِنْ لَبِنِي عبد مناف أخلاقاً طاهرة ، وأعلاماً ظاهرة ، وأحلاماً وافرة ، لا يَجهَلُونَ بعد علم ، ولا

[١] اللفظ : التفوق ، وأن يحرك الإنسان لسانه في فمه بعد الأكل ، ينتج به بقية من الطعام بين أسنانه ، ويخرجه فيمسح به شفتيه ، واسم ما بقي في أتم اللماظة بالضم ، ويقال : لَمَظَ لَمَظاً (بالتشديد) لماظة : أي شيئاً يلمظه ، ولمظه من حقه شيئاً : أعطاه (والمامة تبدل الظاء ضاهاً) .
[٢] سناء كسنية : سهله وفضحه . [٣] سيف هندواني بكسر الهاء ، ويجوز ضمها لإتباع الدال منسوب إلى الهند ، ووجاب من وجب القلب وجباً إذا خفق .

[٤] في صبح الأعشى « جنسية » ، وهو تحريف ، وتحريره : ما ذكرنا .

[٥] وفي بلغات النساء : « تشنين قربي » أي تبضين .

يَسْفَهُونَ بَعْدَ حِلْمٍ ، وَلَا يَنْتَقِمُونَ بَعْدَ عَفْوٍ ، وَإِنْ أَوَّلَى النَّاسُ بِاتِّبَاعِ مَا سَنَّ آبَاؤُهُ
لَأَنْتَ ، قَالَ : صَدَقْتَ ، نَحْنُ كَذَلِكَ ، فَكَيْفَ قَوْلُكَ ؟

عَزَبَ الرَّفَادُ ، فَقُلْتُ لَا تَرْفُدُ وَاللَّيْلُ يُصْدِرُ بِالْمُحُومِ وَيُورِدُ^(١)
بِآلِ مَذْحِجٍ ، لَأَمْتَقَامَ ، فَشَمَّرُوا إِنْ الْعَدُوَّ لَيْلَ أَحْمَدَ يَقْصِدُ
هَذَا عَلَى كَالْهَلَالِ تَحْفُهُ وَسَطَ السَّمَاءِ مِنَ الْكَوَاكِبِ أَسْعَدُ^(٢)
خَيْرُ الْخَلَائِقِ وَإِنْ عَمَّ مُحَمَّدٌ إِنْ يَهْدِيَكُمْ بِالنُّورِ مِنْهُ تَهْتَدُوا
مَا زَالَ مَذْهَبُ الْحُرُوبِ مُظْفَرًا وَالنَّصْرُ فَوْقَ لَوَائِهِ مَا يُفْقَدُ

قالت : قد كَانَ ذَلِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ لَنَا خَلْفًا بَعْدَهُ ، فَقَالَ
رَجُلٌ مِنْ جُلَسَاءِهِ : كَيْفَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ وَهِيَ الْقَائِلَةُ :

إِنَّمَا هَلَكْتَ أَبَا الْحُسَيْنِ فَلَمْ تَزَلْ بِالْحَقِّ تُعْرِفُ هَادِيًا يَهْدِيًا
فَاذْهَبْ ، عَلَيْكَ صَلَاةُ رَبِّكَ مَا دَعَتْ فَوْقَ النُّصُورِ سَحَابَةٌ قُمْرِيَا^(٣)
قَدْ كُنْتَ بَعْدَ مُحَمَّدٍ خَلْفًا كَمَا أَوْصَى إِلَيْكَ بَنِي ، فَكُنْتَ وَفِيًا
وَالْيَوْمَ لَا خَافَ يُؤَمِّلُ بَعْدَهُ هِيَاهُ تَأْمَلُ بَعْدَهُ إِنْ سَبَا

قالت : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَسَانُ نَطَقَ ، وَقَوْلُ صَدَقَ ، وَلَنْ تَحْقُقَ فَيْكَ مَا ظَنَّنَاهُ ،
لِحَظِّكَ الْأَوْفَرِ ، وَأَلَّهِ مَا أَوْرَثَكَ الشَّنَّانَ^(٤) فِي قُلُوبِ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا هَؤُلَاءِ ،
فَادْحِضْ مَقَالَتَهُمْ ، وَأَبْعِدْ مَنْزِلَتَهُمْ ، فَإِنَّكَ إِنْ فَعَلْتَ ذَلِكَ تَرُدُّ مِنْ اللَّهِ قُرْبًا ،
وَمِنَ الْمُؤْمِنِينَ حُبًّا ، قَالَ : وَإِنَّكَ لَتَقُولِينَ ذَلِكَ ؟ قَالَتْ : يَا سَبْحَانَ اللَّهِ ، وَاللَّهِ

[١] عَزَبَ : بَعَدَ .

[٢] سَمُودُ النُّجُومِ هُنَا : سَعْدٌ بِلَاغٍ (يَضْمُ فَتْحُ) وَسَعْدُ الْأَخْيَةِ ، وَسَعْدُ الْقَبَاحِ ، وَسَعْدُ السُّعُودِ ،
وَهَذِهِ الْأَرْبَعَةُ مِنْ مَنَازِلِ الضَّرِّ ، وَسَعْدُ تَأْسُرَةٍ ، وَسَعْدُ الْمَلِكِ ، وَسَعْدُ الْبَاهِمِ كَكِتَابِ ، وَسَعْدُ الْمَسَاءِ
كَشِبَاعِ ، وَسَعْدُ الْبَارِعِ ، وَسَعْدُ مَطَرٍ ، وَهَذِهِ السَّتَةُ لَيْسَتْ مِنَ الْمَنَازِلِ .

[٣] ضَرْبٌ مِنَ الْحَمَامِ وَالْجَمْعُ قُرَى . [٤] الْبَنِيُّ .

ما مثلك من مدح ياطل ، ولا اعتذر إليه بكذب ، وإنك لتعلم ذلك من رأينا ،
 وضير قلوبنا ، كأن والله على أحب إلينا منك ، وأنت أحب إلينا من غيرك .
 قال : يمين ؟ قالت : من مروان بن الحكم وسعيد بن العاص . قال : وبم
 استحققت ذلك عندك ؟ قالت بسعة حلمك ، وكرم عفوك ، قال : وإنيهما
 يطمعان في ذلك ؟ قالت : هما والله لك من الرأي على مثل ما كنت عليه لعثمان
 ابن عفان رحمه الله تعالى ^(١) . قال : والله لقد قاربت ، فاحاجتك ؟ قالت :
 يا أمير المؤمنين إن مروان تبتك ^(٢) بالمدينة تبتك من لا يريد منها البراح ، لا يحكم
 بعدل ، ولا يقضي بسنة ، يتبع غترات المسلمين ، ويكشف عورات المؤمنين ،
 حبس ابن ابني ، فأتيته ، فقال : كيت وكيت ، فألقته أحسن من الحجر ، وألقته
 أمر من الصبر ، ثم رجعت إلى نفسي باللائمة ، وقلت : لم لا أصرف ذلك إلى
 من هو أولى بالعفو منه ، فأتيته يا أمير المؤمنين لتكون في أمري ناظراً ، وعليه
 مُعدياً ^(٣) ، قال : صدقت ، لا أسألك عن ذنبه ولا عن القيام بحجته ، اكتبوا
 لها بإطلاقه . قالت : يا أمير المؤمنين ، وأني لى بالرجمة ، وقد فقد زادي ،
 وكلت راحتي ؟ فأمر لها براحة موطاة ، وخمسة آلاف درهم .

(القند الفرید ١ : ١٣١ ، وصبح الأعشى ١ : ٢٥٧ ، وبلاغات النساء ص ٦٧)

٣٦٠ - وفود بكاره الهلالية على معاوية

استأذنت بكاره الهلالية على معاوية بن أبي سفيان ، فأذن لها وهو يومئذ
 بالمدينة ، فدخلت عليه ، وكانت امرأة قد أسنت ، وعشى ^(١) بصرها ، وضغفت
 قوتها ، ترعش بين خادمين لها ، فسلمت وجلست فرد عليها معاوية السلام ،

[١] تريد أنها ياملل الخلقة بذك كما كنت تأملها يد عثمان . [٢] تبتك به : أقام .

[٣] أعداء عليه : نصره ، وأخاه ، وقواه . [٤] ضحف .

وقال : كيف أنت يا خالة ؟ فقالت : بخير يا أمير المؤمنين ، قال غَيْرِكَ الْمَهْرُ ،
قالت : كذلك هو ذُو غَيْرٍ ^(١) ، من عاش كَبِيرَ ، ومن مات قُبِيرَ ، قال عمرو بن
الماص : هي والله القائلة يا أمير المؤمنين :

يازيدُ دونك فاحتضر من دارنا سيفاً حُساماً في التراب دفينا
قد كنتُ أذخرُهُ ليوم كريمةٍ فالיום أبرَزَهُ الزمان مَصُونَا
قال مروان : وهي والله القائلة يا أمير المؤمنين :

أترى ابنَ هَندٍ للخِلافة مالكا ! هيهات ، ذاك - وإن أراد - بَعِيدُ
مَتَّكَ نَفْسِكَ فِي الْخَلَاءِ ضَلَالَةً أغراك عمرو للشُّقا وَسَعِيدُ
قال سعيد بن الماص هي والله القائلة :

قد كنت أطمع أن أموت ولا أرى فوق النَّابِرِ مِنْ أُمَيَّةَ خَاطِبَا
فَاللَّهُ أَخَّرَ مُدَّتِي فَتَطَاوَلَتْ حَتَّى رَأَيْتُ مِنَ الزَّمَانِ عَجَابَا
فِي كُلِّ يَوْمٍ لِلزَّمَانِ خَطِيبُهُمْ بَيْنَ الْجَمِيعِ لَيْلَ أَحَدٍ حَاطِبَا
ثم سكت القوم ، فقالت بكارة : نبحتي كلابك يا أمير المؤمنين واعتورتني ^(٢) ،
فَقَصُرَ عِجْبِي ، وَكَثُرَ عَجْبِي ، وَعَشِيَ بَصَرِي ، وَأَنَا وَأَقْبَهُ قَائِلَةٌ مَا قَالُوا ، لَا أَدْفَعُ
ذَلِكَ بِتَكْذِيبٍ ، وَمَا خَفِيَ عَلَيْكَ مِنِّي أَكْثَرُ ، فَامْضِي لِشَأْنِكَ ، فَلَا خَيْرَ فِي
الْعِيشِ بَعْدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَضَحِكَ مَعَاوِيَةَ وَقَالَ : لَيْسَ يَمْنَعُنَا ذَلِكَ مِنْ بَرِّكَ ،
إِذْ كَرَى حَاجَتَكَ ، قَالَتْ : أَمَا الْآنَ فَلَا .

وقيل : إنه قد قضى حوائجها ووردها إلى بلدها .

(اللحد الفريد ١ : ١٣٠ ، وبلاغات النساء ص ٣٩)

٣٦١ - وفود أروى بنت الحارث بن عبد المطلب على معاوية

دخلت أروى بنت الحارث بن عبد المطلب على معاوية وهي عجوز كبير ، فلما رآها معاوية قال : مرحباً بك وأهلاً يا عمّة ، فكيف كنت بعدنا ؟ فقالت : « يابن أخي ، لقد كفرت يد النعمة ، وأسأت لابن عمك الصّحبة ، وتسميت بنير اسمك ، وأخذت غير حقك ، من غير بلاء كان منك ولا من آبائك ، ولا سابقة في الإسلام ، ولقد كفرتم بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، فأتعس الله منكم الجُدود ^(١) ، وأضرع ^(٢) منكم الخُدود ، وردّ الحق إلى أهله ، ولو كره المشركون ، وكانت كلمتنا هي العليا ، ونبينا صلى الله عليه وسلم هو المنصور ، فَوَلَّيْتُمْ عَلَيْنَا مِنْ بَعْدِهِ - وَتَحْتَجُّونَ بِقِرَابَتِكُمْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْكُمْ ، وَأَوْلَى بِهَذَا الْأَمْرِ - فَكُنَّا فِيكُمْ بِمَنْزِلَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي آلِ فِرْعَوْنَ ، وَكَانَ عَلَيَّ بَنُ أَبِي طَالِبٍ رَحْمَةُ اللَّهِ بَعْدَ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى ^(٣) ، فَنَافِئَتُنَا الْجَنَّةُ ، وَغَايَتِكُمُ النَّارُ » .

فقال لها عمرو بن العاص : كفى أيتها العجوز الضالة ، وأقصري من قولك ، وَغَضَى مِنْ طَرَفِكَ ، قالت : وَمَنْ أَنْتَ ، لَا أَمَّ لَكَ ؟ قال : عمرو بن العاص ، قالت : يابن اللّخناء ^(٤) النابغة تتكلم ، وأمك كانت أشهر امرأة تنفى

[١] جمع جد وهو المخط . [٢] أذلّ ، وفي بلاغات النساء « وأصر » .

[٣] ورواية بلاغات النساء : « فكنا أهل البيت أعظم الناس في الدين حظاً ، ونصيباً وقدراً ، حتى قبض الله نبيه صلى الله عليه وسلم ، منفوراً ذنبه ، مرفوعاً درجته ، شريفاً عند الله مرضياً ، فصرنا أهل البيت منكم بمنزلة قوم موسى من آل فرعون ، يذبحون أبناءهم ، ويستحيون نساءهم ، وصار ابن عم سيد المرسلين فيكم بعد نبينا بمنزلة هرون من موسى حيث يقول : « يَا بَنُ أُمِّ إِبْرَاهِيمَ اسْتَصْفَوْنِي ، وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي » ولم يجمع بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم شمل ، ولم يسهل لنا عمر .

[٤] رجل الحن وأمة الحناء : لم يحنأ ، ولحن السقاء ، وغيره كفرح : أفتن ، والجوزة فسدت ، ومن

بمكة ، وأَخَذَهُنَّ لِأَجْرَةٍ ! اِزْبَعْ عَلَى ظِلْمِكَ ، وَاعْنِ بِشَأْنِ نَفْسِكَ ، فَوَاللَّهِ مَا أَنتَ
 مِنْ قَرِيشٍ فِي الْأَبَابِ مِنْ حَسَبِهَا ، وَلَا كَرِيمٍ مَنَصِّبِهَا ، وَلَقَدْ اِدْعَاكَ خَمْسَةَ ^(١)
 قَرَمِنْ قَرِيشٍ ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ أَبُوكَ ، فَسُئِلْتَ أُمُّكَ عَنْهُمْ ، فَقَالَتْ : كُلُّهُمْ أَتَانِي ،
 فَاظْفَرُوا أَشْبَهُهُمْ بِهِ ، فَأَلْحَقُوهُ بِهِ ، فَفَلَّحَ عَلَيْكَ شَبَهَ الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ ، فَلَحِقْتُ بِهِ ،
 وَلَقَدْ رَأَيْتُ أُمُّكَ أَيَّامَ مَنَى بِمَكَّةَ مَعَ كُلِّ عَبْدٍ عَاهَر ^(٢) ، فَأَتَمَّ بِهِمْ ، فَإِنَّكَ بِهِمْ أَشْبَهُ .
 فَقَالَ مِرْوَانُ : كَفَى أَيْتَاهَا الْمَجُوزَ ، وَأَقْصَرَى لِمَا جِئْتَ لَهُ ، سَاخُ بَصْرِكَ مَعَ
 ذَهَابِ عَقْلِكَ ، فَلَا تَجُوزُ شَهَادَتَكَ ، فَقَالَتْ : وَأَنْتِ أَيْضًا يَا بِنْتَ الزَّرْقَاءِ تَتَكَلَّمُ ؟
 فَوَاللَّهِ لَا أَنتِ إِلَى سُفْيَانَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ كَلْدَةَ أَشْبَهُنَّكَ بِالْحَكَمِ ، وَإِنَّكَ لَشَبِهُهُ
 فِي زُرْقَةِ عَيْنَيْكَ ، وَخُمْرَةِ شَعْرِكَ ، مَعَ قِصَرِ قَامَتِهِ ، وَظَاهِرِ دِمَامَتِهِ ^(٣) ، وَلَقَدْ
 رَأَيْتُ الْحَكَمَ مَاذَا ^(٤) الْقَامَةِ ، ظَاهِرِ الْإِمَةِ ^(٥) ، سَبَطِ ^(٦) الشَّعْرِ ، وَمَا يَبِينُكَ
 قِرَابَةَ إِلَّا كَقِرَابَةِ الْفَرَسِ الضَّامِرِ مِنَ الْأَتَانِ الْمُقَرَّبِ ^(٧) ، فَاسْأَلِ أُمُّكَ تَخْبِيرَكَ
 بِشَأْنِ أَيْلِكَ إِنْ صَدَقَتْ ، ثُمَّ التَفَقْتُ إِلَى مَعَاوِيَةَ ، فَقَالَتْ : وَاللَّهِ مَا جَرَأُ عَلَى
 هَؤُلَاءِ غَيْرِكَ ، وَإِنْ أُمُّكَ لِلْقَائِلَةِ يَوْمَ أُحُدٍ فِي قَتْلِ حِمْرَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ :

نَحْنُ جَزَنَانَا كَمَ يَوْمٍ بَدَرٍ وَالْحَرْبُ بَعْدَ الْحَرْبِ ذَاتُ سَعْرِ ^(٨)
 مَا كَانَ عَنْ عُتْبَةَ لِي مِنْ صَبَرٍ أَبِي وَعَمِّي وَأَخِي وَصِهْرِي ^(٩)

شَمَّ الْعَرَبُ « يَا بِنْتَ الْخَنَاءِ » كَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ يَا ذِي الْأَصْلِ ، أَوْ يَا لَيْثِ الْأُمِّ ، وَالزَّائِبَةُ أُمُّ عَمْرٍو ، وَقَدْ قَدِّمْتَ
 — انْظُرْ ص ١٩ . [١] وَفِي بِلَاضَاتِ النِّسَاءِ « سَتَةٌ » . [٢] فَاجِرٌ .
 [٣] الْعَمَلَةُ : الْقَبِيحُ . [٤] مَمْدُوحًا . [٥] الْإِمَةُ بِالْكَسْرِ وَفِيهِمُ : الشَّأْنُ وَالنِّصَةُ وَالْمِيَّةُ .
 [٦] طَوِيلُهُ . [٧] الْأَتَانُ : الْحَمَارَةُ ، وَالْمُقَرَّبُ الَّذِي قَرِبَ وَلَادَهَا (فَيَكُونُ بَطْنَهَا كَبِيرًا) .
 [٨] السَّرُّ بِالْفَتْحِ مَصْدَرُ سَرَّ الْحَرْبِ أَيْ أَرَادَهَا ، وَالْفَلَمُ : الْجُنُونُ . [٩] قَتَلُوا أَرْبَعِينَ يَوْمَ
 بَدْرٍ : أَبُوهُمَا عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ — قِيلَ اشْتَرَكَ فِي قَتْلِ عَلِيٍّ ، وَحِمْرَةَ ، وَعُبَيْدَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ
 عَبْدِ الْمَطَّلِبِ — وَعَمُّهَا شَيْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ — قَتَلَ حِمْرَةَ — وَأَخُوهَا الْوَلِيدُ بْنُ عُتْبَةَ — قَتَلَ عَلِيٍّ — وَابْنُ زَوْجِهَا
 حَنْظَلَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ — وَلَيْسَتْ هُنَا أُمُّهُ ، قِيلَ اشْتَرَكَ فِي قَتْلِ حِمْرَةَ ، وَعَلِيٍّ ، وَزَيْدُ بْنُ حُلَاقَةَ — .

شَفَيْتَ (وَحْشِي) غَلِيلَ صَدْرِي شَفَيْتَ نَفْسِي وَقَضَيْتَ نَذْرِي ^(١)
فَشَكَرْتُ وَحْشِيَّ عَلَى دَهْرِي حَتَّى تَرِمَّ أَغْطِي فِي قَبْرِي ^(٢)

فَأَجَبْتَهَا :

يَا بِنْتَ جَبَّارٍ عَظِيمِ الْكَفْرِ خَزَيْتِ فِي بَذْرِ وَغَيْرِ بَدْرِ
صَبَّحَكَ اللَّهُ قُبَيْلَ الْفَجْرِ بِالْهَاشِمِيِّينَ الطَّوَالِ الزُّهْرِ ^(٣)
بِكُلِّ قِطَاعٍ حُسَامٍ يَفْرِي حِمْزَةُ لَبْنِي ، وَعَلَى صَقْرِي

فَقَالَ مَعَاوِيَةُ لِمُرْوَانَ وَعَمْرُو : وَيَلَكُمَا ! أَتَمَّا عَرَضْتُمَانِي لَهَا ، وَأَسْمَعْتُمَانِي مَا أَكْرَهَ ،
ثُمَّ قَالَ لَهَا : يَا عَمَّةُ أَقْصِدِي قَصْدَ حَاجَتِكَ ، وَدَعِي عَنْكَ أَسَاطِيرَ النِّسَاءِ ، قَالَتْ :
تَأْمُرُنِي بِأَلْفِي دِينَارٍ ، وَأَلْفِي دِينَارٍ ، وَأَلْفِي دِينَارٍ ، قَالَ : مَا تَصْنَعِينَ يَا عَمَّةُ بِأَلْفِي
دِينَارٍ ؟ قَالَتْ : أَشْتَرِي بِهَا عَيْنًا خَرَزْخَارَةً ^(٤) فِي أَرْضِ خَوَارَةَ ^(٥) ، تَكُونُ لَوْلَا
الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ ، قَالَ : نَعَمْ الْمَوْضِعُ وَضَعْتُهَا ، فَاتَصْنَعِينَ بِأَلْفِي دِينَارٍ ؟
قَالَتْ : أُرْوِجُ بِهَا قَتِيلَانِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ مِنْ أَكْفَأِهِمْ ، قَالَ : نَعَمْ الْمَوْضِعُ وَضَعْتُهَا ،
فَاتَصْنَعِينَ بِأَلْفِي دِينَارٍ ؟ قَالَتْ : أَسْتَعِينُ بِهَا عَلَى غُشْرِ الْمَدِينَةِ ، وَزِيَارَةِ بَيْتِ اللَّهِ
الْحَرَامِ ، قَالَ : نَعَمْ الْمَوْضِعُ وَضَعْتُهَا ، هِيَ لَكَ نَعْمٌ وَكَرَامَةٌ ^(٦) ، ثُمَّ قَالَ : أَمَّا وَاللَّهِ
لَوْ كَانَ عَلَيَّ مَا أَمَرَ لَكَ بِهَا ، قَالَتْ : صَدَقْتَ ، إِنْ عَلَيَّ أَدْوَى الْأَمَانَةِ ، وَعَمِلَ بِأَمْرِ
اللَّهِ ، وَأَخَذَ بِهِ ، وَأَنْتَ ضَيَعْتَ أَمَانَتَكَ ، وَخُنْتَ اللَّهَ فِي مَالِهِ ، فَأَعْطَيْتَ مَالَ اللَّهِ
مَنْ لَا يَسْتَحِقُّهُ ، وَقَدْ فَرَضَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ الْحَقُوقَ لِأَهْلِهَا وَبَيْنَهَا ، فَلَمْ تَأْخُذْ بِهَا ،

[١] وَحْشِي غُلَامٌ جَبِيرٌ بْنُ مَطْعَمٍ قَاتِلُ حِمْزَةٍ يَوْمَ أُحُدٍ . [٢] رَمَى الدَّيْلَمُ كَضْرِبَ وَأَرَمَ : بَنَى فَهُوَ رَمِي

[٣] الزُّهْرُ : الْحَسَنُ الْبَيْضُ الْوَجُوهُ . [٤] الْخَرَزُ : الْمَاءُ الْجَارِي ، أَيْ عَيْنُ مَاءٍ جَارِيَةٍ .

[٥] الْمُرَادُ أَرْضٌ سَهْلَةٌ تَصْلُحُ لِلزَّرَاعَةِ ، مِنْ قَوْلِهِمْ : خَوَارُ النَّانِ ، أَيْ سَهْلُ الْمَطْفِ ، كَثِيرُ الْجَرَى .

[٦] يُقَالُ : نَعِمَ عَيْنٌ وَنَعْمَةٌ وَنَعَامٌ وَنَعِمَ بِخَتْمَيْنِ ، وَنَعِمَ وَنَعَامٌ وَنَعِمَ وَنَعْمَةٌ بِضَمٍّ ، وَنَعْمَةٌ وَنَعْمَةٌ بِكَسْرٍ ، أَيْ أَنْبَلَ ذَلِكَ لِإِنَّمَا لَيْتَكَ وَإِكْرَامًا .

ودعانا (أى على) إلى أخذ حقنا ، الذى قَرَضَ الله لنا ، فَشَغِلْ بِمَجْرَبِكَ عَنْ وَضْعِ
الْأُمُورِ مَوَاضِعَهَا ، وَمَا سَأَلْتُكَ مِنْ مَالِكَ شَيْئًا فَتَمَنَّ بِهِ ، إِنَّمَا سَأَلْتُكَ مِنْ حَقِّنا ،
وَلَا نَرَى أَخَذَ شَيْءٍ غَيْرَ حَقِّنا ، أَتَذْكُرُ عَلِيًّا ؟ فَضَّ اللَّهُ فَاكَ ^(١) ، وَأَجْهَدَ بِلَاءَكَ ،
ثُمَّ عَلَا بِكَأُوهَا وَجَعَلَتْ تَنْدُبُ عَلِيًّا ، فَأَمَرَ لَهَا بِسِتَةِ آلَافِ دِينَارٍ ، وَقَالَ لَهَا :
يَا عَمَّةُ ، أَتَفِيقُ هَذِهِ فِيمَا تَحْبِبِينَ ، فَإِذَا احْتَجَّتِ فَاكْتُبِي إِلَى ابْنِ أَخِيكَ يُحْسِنُ
صَفَدَكَ ^(٢) وَمَعُونَتَكَ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ . (النفد الفريد ١ : ١٣٤ ، بلاغات النساء ص ٢٢)

٣٦٢ - أم البراء بنت صفوان ومعاوية

اسْتَأْذَنْتِ أُمَ الْبِرَاءِ بِنْتَ صَفْوَانَ عَلَى مَعَاوِيَةَ فَأَذِنَ لَهَا ، فَدَخَلَتْ عَلَيْهِ وَعَلَيْهَا
ثَلَاثَةُ دُرُوعٍ ^(٣) (بُرُودٍ) تَسْجَبُهَا ذِرَاعًا ، قَدْ لَأَتَتْ ^(٤) عَلَى رَأْسِهَا كَوْرًا
كَأَلِنَسْفٍ ، فَسَلَّمَتْ وَجَلَسَتْ ، فَقَالَ لَهَا مَعَاوِيَةُ : كَيْفَ أَنْتِ يَا بِنْتَ صَفْوَانَ ؟
قَالَتْ : بِخَيْرٍ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ : كَيْفَ حَالُكَ ؟ قَالَتْ : ضَعُفْتُ بَعْدَ جَلْدٍ ،
وَكَسَلْتُ بَعْدَ نَشَاطٍ ، قَالَ : شَتَّانَ بَيْنَكَ الْيَوْمَ وَحِينَ تَقُولِينَ :

يَا زَيْدُ دُونَكَ صَارِمًا ذَا رَوْتٍ	عَضِبَ الْمَهْرَةَ لَيْسَ بِالْخَوَارِ ^(٥)
أُخْرِجْ جَوَادِكَ مُسْرِعًا وَمُسَمَّرًا	لِلْحَرْبِ غَيْرَ مُعَرِّدٍ لِفِرَارٍ ^(٦)
أَجِبِ الْإِمَامَ وَذُبْ تَحْتَ لَوَاهُ	وَالْقَ الْمَدُوءَ بِصَارِمٍ بَتَّارٍ
يَا لَيْتَنِي أَصْبَحْتُ لَسْتُ قَعِيدَةً	فَأَذُبْ عَنْهُ عَسَاكِرَ الْفُجَّارِ

قَالَتْ : قَدْ كَانَ ذَلِكَ ، وَمِثْلُكَ مِنْ عَفَا ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ : « عَفَا اللَّهُ عَنْمَا سَلَفٌ ،

[١] تدعو عليه أى نثر الله أسنانه . [٢] الصغد : السقاء .

[٣] درع المرأة قميصها (مذكر) ودرع الحديد مؤنث وقد يذكر .

[٤] ألوت عصب العمامة ، والكور لوث السامة وإدارتها ، واللف ما ينقض به الحب : شئ طويل

منصوب الصدر ، أعلاه مرتفع . [٥] الضب : السيف القاطع ، والخوار من خار : إذا ضعف وكل .

[٦] عرَد تمريداً ، وعرد كسع : هرب .

وَمِنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ » قَالَ : هِيَاهُ ، أَمَا وَاللَّهِ لَوْ عَادَ لَعُدَّتِ ، وَلَكِنَّهُ اخْتَرِمَ^(١) مِنْكَ ، قَالَتْ : أَجَلْ ، وَاللَّهِ إِنِّي لَمَلِي يَنْتَه مِنْ رَبِّي ، وَهَدَى مِنْ أَمْرِي ، قَالَ : كَيْفَ كَانَ قَوْلُكَ حِينَ قَتَلَ ؟ قَالَتْ : أَنْسَيْتُهُ ، قَالَ بَعْضُ جُلَسَاءِهِ : هُوَ وَاللَّهِ حِينَ تَقُولُ :

يَا لِّلرَّجَالِ لِعُظْمِ هَوْلِ مِصْيَةٍ قَدَحَتْ ، فَلَيْسَ مُصَابِهَا بِالْحَائِلِ^(٢)
الشمس كاسفةً لِفَقْدِ إِمَامِنَا خَيْرُ الْخَلَائِقِ وَالْإِمَامِ الْعَادِلِ
يَا خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطْلَى وَمَنْ مَتَى فَوْقَ التَّرَابِ لِحَتَفٍ أَوْ نَاعِلِ
حَاشَا النَّبِيَّ . لَقَدْ هَدَدَتْ قُورَاءَنَا فَالْحَقُّ أَصْبَحَ خَاضِعًا لِلْبَاطِلِ^(٣)

فَقَالَ مَعَاوِيَةُ : قَاتَلَكِ اللَّهُ ! فَاتْرَكْتِ مَقَالًا لِقَاتِلٍ ، أَذْكَرِي حَاجَتَكَ ، قَالَتْ : أَمَا الْآنَ فَلَا ، وَقَامَتْ فَمَرَّتْ ، فَقَالَتْ : تَعَسَّ شَاكِيٌّ عَلَيَّ^(٤) ، فَقَالَ : زَعَمْتِ أَنْ لَا ، قَالَتْ : هُوَ كَمَا عَلِمْتُ ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ بَعَثَ إِلَيْهَا بِجَائِزَةٍ . وَقَالَ : إِذَا ضِيعَتْ الْحِلْمُ فَمَنْ يَحْفَظُهُ ؟ (صَحِاحُ الْأَعْنَى ١ : ٢٦١ ، بَلَاغَاتُ النِّسَاءِ ص ٧٨)

٣٦٣ - دَارِمِيَّةُ الْحَجُونِيَّةُ وَمَعَاوِيَةُ

وَحَجَّ مَعَاوِيَةُ سَنَةً مِنْ سَنِيهِ ، فَسَأَلَ عَنْ امْرَأَةٍ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ كَانَتْ تَنْزِلُ بِالْحَجُونِ^(٥) ، يُقَالُ لَهَا دَارِمِيَّةُ الْحَجُونِيَّةُ ، وَكَانَتْ سُودَاءَ كَثِيرَةٍ اللَّحْمِ ، فَأَخْبَرَ بِسَلَامَتِهَا ، فَبَعَثَ إِلَيْهَا خِجْيًا بِهَا ، فَقَالَ : مَا حَالُكَ يَا بَنَتَ حَامٍ ؟ فَقَالَتْ : اسْتَزَلَّ الْحَامُ إِنْ عِبْتَنِي ، إِنَّمَا أَنَا امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ ، ثُمَّ مَنْ بَنِي أَيْكَ ، قَالَ : صَدَقْتِ ، أَتَدْرِينَ لِمَ بَعَثْتُ إِلَيْكَ ؟ قَالَتْ : لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ، قَالَ : بَشِّرْ

[١] هَاكَ . [٢] التَّحَوَّلُ : التَّنْبِيْهُ . [٣] جَمْعُ الْقُوَّةِ قُوَى ، وَإِنَّمَا قَاتَ قُورَاءَ بِالذَّلَّةِ لِلضَّرُورَةِ .

[٤] أَيْ مَبْغُضُهُ . [٥] الْحَجُونُ : جَبَلٌ بِمَدِينَةِ مَكَّةَ .

إِلَيْكَ لِأَسْأَلَكَ : عَلِمَ أَحْيَيْتَ عَلِيًّا وَأَبْغَضْتَنِي ، وَوَالَيْتِهِ وَعَادَيْتَنِي ؟ قَالَتْ : أَوْ
تُعَفِّنِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ قَالَ : لَا أُعَفِّيك ، قَالَتْ : « أَمَا إِذَا أُبَيْتُ فَإِنِّي أَحْيَيْتُ
عَلِيًّا عَلَى عَدْلِهِ فِي الرَّعِيَّةِ ، وَقَسَمَهُ بِالسُّرْيَةِ ، وَأَبْغَضْتُكَ عَلَى قَتَالِ مَنْ هُوَ أَوْلَى
مَنْكَ بِالْأَمْرِ ، وَطَلَبْتُكَ ^(١) مَا لَيْسَ لَكَ بِحَقٍّ ، وَوَالَيْتُ عَلِيًّا عَلَى مَا عَقَدَ لَهُ
رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْوِلَايَةِ ^(٢) ، وَعَلَى حُبِّهِ الْمَسَاكِينَ ، وَإِعْظَامِهِ
لَأَهْلِ الدِّينِ ، وَعَادَيْتُكَ عَلَى سَفْكَكَ السَّمَاءَ ، وَشَقَّكَ الْمَصَا ، وَجَوْرَكَ فِي الْقَضَاءِ ،
وَحَكَمَكَ بِالْهَوَى » .

قَالَ : فَلَذَلِكَ اتْفَخَّ بَطْنُكَ ، وَعَظُمَ نَدِيَاكَ ، وَرَبَّتْ تَحِيَّزَتُكَ ، قَالَتْ : يَا هَذَا
بِهِنْدٍ ^(٣) وَاللَّهِ كَانَ يُضْرَبُ الْمَثَلُ فِي ذَلِكَ لِأَبِي ، قَالَ مُعَاوِيَةُ : يَا هَذِهِ أَرَبَعِي ^(٤) ،
فَإِنَّا لَمْ نَقُلْ إِلَّا خَيْرًا ، إِنَّهُ إِذَا اتْفَخَّ بَطْنُ الْمَرْأَةِ تَمَّ خَلْقُ وَلَدِهَا ، وَإِذَا عَظُمَ نَدِيَاهَا
تَرَوْنِي ^(٥) رَضِيْعَهَا ، وَإِذَا عَظُمَتْ تَحِيَّزَتُهَا رَزُنَ مَجْلِسُهَا ، فَجِئْتُ وَسَكَنْتُ ،
فَقَالَ لَهَا : يَا هَذِهِ هَلْ رَأَيْتَ عَلِيًّا ؟ قَالَتْ : إِي وَآلَهُ لَقَدْ رَأَيْتُهُ ، قَالَ : فَكَيْفَ
رَأَيْتَهُ ؟ قَالَتْ : رَأَيْتُهُ وَاللَّهِ لَمْ يَفْتِنِهِ الْمَلِكُ الَّذِي فَتَنَكَ ، وَلَمْ تَشْغَلْهُ النِّعْمَةُ الَّتِي شَغَلَتْكَ ،
قَالَ : فَهَلْ سَمِعْتَ كَلَامَهُ ؟ قَالَتْ : نَعَمْ وَاللَّهِ فَكَانَ يَجْلُو الْقُلُوبَ مِنَ الْعَمَى ، كَمَا
يَجْلُو الزَّيْتُ الطُّسْتُ مِنَ الصَّدَأِ ، قَالَ : صَدَقْتَ ، فَهَلْ لَكَ مِنْ حَاجَةٍ ؟ قَالَتْ :
أَوْ تَفْعَلْ إِذَا سَأَلْتُكَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَتْ : تَعْطِينِي مِائَةَ نَافَةِ حَمْرَاءٍ فِيهَا خُلُهَا ،
وَرَاعِيهَا ، قَالَ : تَصْنَعِينَ بِهَا مَاذَا ؟ قَالَتْ : أَغْذُو بِأَلْبَانِهَا الصِّغَارَ ، وَأَسْتَحْيِي بِهَا
الْكِبَارَ ، وَأُكْتَسِبُ بِهَا الْمَكَارِمَ ، وَأُصْلِحُ بِهَا بَيْنَ الْعِشَائِرِ ، قَالَ : فَإِنِ أُعْطِيَتْكَ

[١] الطَّلِبَةُ : الطَّلَب . [٢] تنبأ إلى قوله : « أَهْلَهُمُ وَالِدٌ مِنَ الْوَالِدِ » ، وَمَادَّ مِنْ عَادَاهُ .

[٣] هي أمه هند بنت عتبة . [٤] ربيع : وقف وانتظر وتحمس . [٥] ارتوى .

ذلك ، فهل أحلّ عندك محلّ عليّ بن أبي طالب ؟ قالت : ما به ولا كصداء^(١) ،
وَرَمَى وَلَا كَالسَّعْدَانِ^(٢) ، وفي ولا كمالك^(٣) ، سبحان الله أودونه ، فأنشأ
معاوية يقول :

إذا لم أعُدْ بالحلم مني عليكمُ فن ذا الذي بعدى يؤمّل للحلم
خُذِيهَا هَيْثَا ، واذكري فعلَ ماجِدٍ جزاكِ على حربِ العداوة بالسلمِ

ثم قال : أما والله لو كان عليّ حياً ما أعطاك منها شيئاً ، قالت : لا والله ولا وَبَرَةٍ
واحدة من مال المسلمين (القدافري ١ : ١٣٢ ، وصح الأعمش ١ : ٢٥٩ ، وبلغان النساء ص ٦٧)

٣٦٨ - شداد بن أوس ومعاوية

وأمر معاوية شداد بن أوس الطائى أن يتنقّص عليّاً ، فقام فقال :

« الحمد لله الذى اقترض طاعته على عباده ، وجعل رضاه عند أهل التقوى
آثراً من رضا خلقه ، على ذلك مضى أولهم ، وعليه يمضى آخرهم ، أيها الناس :

[١] صداء : عين لم يكن عندهم ماء أعذب من مائها . وروى عن ابنة هانيّ بن قبيصة : أنه لما قتل
أقيط بن زبارة (من دارم) تزوجها رجل من أهلها ، فكان لا يزال يراها تذكر لقيطاً ، فقال لها ذات
مرة : ما استحسنيت من أقيط ؟ قالت : كل أموره حسن ، ولكنى أحذرك أنه خرج إلى الصيد مرة وقد
ابقى بي ، فرجع إلىّ ، وبقيمه نفع من دماء صيد ، والمك يضوع من أعطائه ، ورائحة الثراب من
فيه ، فضئض ضة ، وشعبي شمة ، فليكني متّ شمة ، ففعل زوجها مثل ذلك ثم ضمها ، وقال لها : أين أنا
من لقيط ؟ قالت : ماء ولا كصداء .

[٢] السعدان : بنت ذو شوكة ، وهو من أفضل مراعى الابل ، ولا تعسن على بنت حسنها عليه ،
وأول من قال ذلك الحشاء بنت مرو بن السريد ، وذلك أنها أقبلت من الموسم ، فوجدت الناس مجتئفين
على هند بنت عتبة بن ربيعة ، ففرجت عنهما وهي تشدهم مراعى في أهل بيتها ، فلما دنت منها قالت : على من
تبتكين ؟ قالت : أبكي سادة مشوا ، قالت : فأشدني بعض ما قلت ، فأخذتها ، فقالت الحشاء : مرعى
ولا كالسعدان ، ثم أنفدتها ما روت به أخاها صخرًا . وقيل إن المثل لامرأة من طيء كان تزوجها امرؤ
القيس بن حجر الكندي ، وكان مفرّكا (ينج الزاء بفضه الذاء) فقال لها : أين أنا من زوجك الأول ؟
قالت : مرعى ولا كالسعدان . [٣] قاله شمس بن نويرة في أخيه مالك لما قتل في الردة . والأمثال الثلاثة
تضرب للنبي بفضل على أقرانه .

إِنَّ الْآخِرَةَ وَعْدٌ صَادِقٌ ، يَحْكُمُ فِيهَا مَلِكٌ قَادِرٌ ، وَإِنَّ الدُّنْيَا عَرَضٌ حَاضِرٌ ، يَأْكُلُ مِنْهَا الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ ، وَإِنَّ السَّامِعَ الْمَطِيعَ لِلَّهِ لَا حُجَّةَ عَلَيْهِ ، وَإِنَّ السَّامِعَ الْعَاصِيَ لِلَّهِ لَا حُجَّةَ لَهُ ، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَرَادَ بِالْعِبَادِ صَلَاحًا عَمِلَ عَلَيْهِمْ صَلَاحًاوَمَ ، وَقَضَى بَيْنَهُمْ فَقَهَاوَمَ ، وَمَلَكَ الْمَالَ مُمَحَاوَمَ ، وَإِذَا أَرَادَ بِهِمْ شَرًّا ، عَمِلَ عَلَيْهِمْ سُفَهَاوَمَ ، وَقَضَى فِيهِمْ جَهْلًاوَمَ ، وَمَلَكَ الْمَالَ بُخْلًاوَمَ ، وَإِنْ مِنْ صَلَاحِ الْوَلَاةِ أَنْ يَصْلُحَ قُرْنَاوَهَا ، وَنَصَحَ لَكَ يَامَعَاوِيَةُ مَنْ أَسْخَطَكَ بِالْحَقِّ ، وَغَشَّكَ مَنْ أَرْضَاكَ بِالْبَاطِلِ .

قَالَ : اجْلِسْ رَحِمَكَ اللَّهُ قَدْ أَمَرْنَاكَ بِمَالٍ ، قَالَ : « إِنْ كَانَ مِنْ مَالِكَ الَّذِي تَمَهَّدْتَ جَمْعَهُ خَافَةَ تَبِعَتَهُ ، فَأَصْبَتَهُ حِلَالًا ، وَأَتَقَفْتَهُ إِفْضَالًا ، فَتَنَعَمَ ، وَإِنْ كَانَ مِمَّا شَارَكَكَ فِيهِ الْمُسْلِمُونَ ، فَاحْتَجَجْتَهُ ^(١) دُونَهُمْ فَأَصْبَتَهُ اقْتِرَافًا ، وَأَتَقَفْتَهُ إِسْرَافًا ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ : « إِنَّ الْمُبْدِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ » .

(البيان والتبيين ٣ : ٢٢٠)



وَرَوَى أَنَّ مَعَاوِيَةَ قَالَ لَهُ : « يَا شَدَادُ ، أَنَا أَفْضَلُ ، أَمْ عَلِيٌّ ؟ وَأَيْنَا أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ » ، فَقَالَ : « عَلِيٌّ أَقْدَمُ هِجْرَةً ، وَأَكْثَرُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى الْخَيْرِ سَابِقَةً ، وَأَشْجَعُ مِنْكَ قَلْبًا ، وَأَسْلَمُ مِنْكَ نَفْسًا ، وَأَمَّا الْحُبُّ ، فَقَدْ مَضَى عَلَيٌّ ، فَأَنْتَ الْيَوْمَ عِنْدَ النَّاسِ أَرْجَى مِنْهُ » .

(عيون الأخبار ٢ : ص ٢١١)

٣٦٥ — معاوية ورجل من أهل سبأ

وَقَالَ مَعَاوِيَةُ لِرَجُلٍ مِنْ أَهْلِ سَبَأٍ : « مَا كَانَ أَجْهَلَ قَوْمِكَ ، حِينَ مَلَكَوْا عَلَيْهِمْ امْرَأَةً » ، فَقَالَ : « بَلْ قَوْمُكَ أَجْهَلُ ، قَالُوا حِينَ دَعَاكُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْحَقِّ ، وَأَرَامَ الْيَنَنَاتِ : اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ

[١] احتجج المال : ضمه واحترامه .

فَأَمْطِرَ عَلَيْنَا حَجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ أَتَيْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ، أَلَا قَالُوا : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْدِنَا لَهُ ! » . (البقرة والتين ٣ : ٢٢٠)

٣٦٦ — حديث معاوية مع عبد الله بن عبد الحاجر بن عبد الممدان

سأل معاوية بعد الاستقامة ^(١) عبد الله بن عبد الحاجر بن عبد الممدان فقال له :

كيف علمك بقومك ؟ قال : كعلمي بنفسى ، قال : ما تقول فى مُراد ؟ قال :

مُدْرِكُوا الأوتار ^(٢) ، ومُحَامَةُ الدِّمَارِ ، وَمُخْرِزُوا الخِطَارَ ، قال : فما تقول فى النَّجْعِ ؟

قال : مَا نَبُو السَّرْبِ ^(٣) ، وَمُسْعِرُوا الحرب ، وكَاشِفُوا الكَرْبِ ، قال : وما تقول

فى بنى الحرث بن كعب ؟ قال : قَرَأْجُوا اللِّكَاكَ ^(٤) ، وقُرْسَانِ العِرَاكِ ، وَلِزَازُ

الصُّكَاكِ ، تَرَاكِ تَرَاكِ ، قال : فما تقول فى سعد المشيرة ؟ قال : مَا نَبُو الصَّيْمِ ،

وَبَانُوا الرِّيمِ ^(٥) وشَافُوا النِّيمَ ، قال : ما تقول فى جُفَيْيَ ؟ قال : قُرْسَانِ الصَّبَاحِ ^(٦) ،

وَمُعْلِمُوا الرِّمَاحِ ، وَمُبَارِزُوا الرِّيَاحِ ، قال : ما تقول فى بنى زُيَيْدِ ^(٧) ؟ قال : كُفَاةُ

أَنْجَادِ ، سَادَاتِ أَمْجَادِ ، وقُرْمُ ^(٨) عِنْدَ الدِّيَادِ ، صُبْرُ عِنْدَ الطَّرَادِ ، قال : ما تقول فى

جَنْبِ ؟ قال : كُفَاةُ يَنْمُونِ عَنِ الْحَرِيمِ ، وَيَقْرَجُونَ عَنِ الكَظِيمِ ^(٩) ، قال : فما

[١] أى بعد استقامة الأُسرة له : عام الجماعة . [٢] جمع وتر : وهو الثَّأْرُ ، والدِّمَارُ : ما يلزمك

حفظه وحياته ، والخطار جمع خطر بالحريك : وهو السبق يترامى عليه .

[٣] السرب : ما دعى من المال . [٤] اللكاك : الزحام ، ومنها الفكاك ، وزنه كرده : شدة

والصقة ، والاراز ككتاب : خشية يلز بها الباب ، وفلان لاز الظالم : أى يلز بها ويقرب لينالها ، ومنه

قول لبيد :

إنا إذا لفت الحجام لم يزل منا لاز عظيمة جثامها

وتراك : اسم فعل بمعنى اترك ، والأُسرة هنا التنظيم ، أى دعى هؤلاء ولا تتحدث بشأنهم ، فإنهم فى أسمى

مكان . [٥] الرِّيم : الدرجة والفضل والزيادة ، والنِّيم : الطش . [٦] النار .

[٧] ضبط فى الأصل بفتح الزاى ، وهو خطأ ، زيد كزير : بطن من مفتح ، رهم عمرو بن

مديكرب ، وكأُميد بك بالهمز ، وكاة جمع كى : وهو الشجاع أو لابس السلاح ، والأنجاد جمع نجد كنههم

وكفت ورجل : الشجاع الماضى فيها يسجد غيره . [٨] وتر جمع وقور ، وصبر جمع صبور ، والدياد

والنود : الفخ . [٩] الكظيم والمكطوم : المكروب .

تقول في صدء؟ قال : سمام الأعداء ، وَمَسَاعِيرُ الْهَيْجَاءِ ^(١) ، قال : فما تقول في رهاك؟ قال : يُتَهَنُّونَ ^(٢) عادية الفوارس ، وَيَرِدُونَ الْمَوْتَ وَرَدَ الْخَوَامِسَ ^(٣) ، قال : أنت أعلم بقومك . (الأمل ١ : ١٦٠)

٣٦٧ - حديث الخيار بن أوفى النهدي مع معاوية

دخل الخيار بن أوفى النهدي على معاوية ، فقال له : يا خيار كيف تجدك ، وما صنع بك الدهر ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، صدع الدهر فَنَاتِي ، وَأُنْكَكَنِي لِذَاتِي ^(٤) ، وأوهى عِمَادِي ، وَشَيَّبَ سَوَادِي ، وأسرع في تِلَادِي ^(٥) ، ولقد عِشْتُ زَمَنًا أَضْيَا الْكَعَابَ ^(٦) ، وَأُسْرَ الْأَصْحَابِ ، وَأَجِيدُ الضَّرَابَ ^(٧) ، فبان ذلك عَنِّي ، ودنا الموت مني ، وأنشأ يقول :

عَبَرْتُ زَمَانًا يَزْعَبُ الْقِرْنَ جَانِي	كَأَنِّي شَتِيمٌ بِاسِلُ الْقَلْبِ خَادِرُ ^(٨)
يَخَافُ عَدُوِّي صَوَاتِي وَيَهَابُنِي	وَيُكْرِمُنِي قِرْنِي وَجَارِي الْمَجَاوِرُ
وَتُضَيِّبُ الْكَعَابَ لِمَتِي وَشِمَائِلِي	كَأَنِّي غُضْنٌ نَاعِمِ النَّبْتِ نَاضِرُ ^(٩)
فَبَانَ شِبَابِي ، وَاعْتَرَتْنِي رَثِيَّةٌ	كَأَنِّي قَنَاقَةٌ أَطْرَسَهَا الْمَاطِرُ ^(١٠)
أَدِبْتُ إِذَا رُمْتُ الْقِيَامَ كَأَنِّي	لِنَيْ الْمَشْيِ قَرْمٌ قَيْدُهُ مُتْقَاصِرُ ^(١١)
وَقَصُرَ الْفَتَى شَيْبٌ وَمَوْتَ كَلَاهِمَا	لَهُ سَائِقٌ يَسْمَى بِذَاكَ وَنَاطِرُ
وَكَيْفَ يَلْذُ الْعَيْشُ مَنْ لَيْسَ زَانِلًا	رَهِينَ أُمُورٍ لَيْسَ فِيهَا مَصَادِرُ

[١] الهيجاء : الحرب ، وهو مسمر حرب (كدرم) أي موقد نارها . [٢] يكفرون .

[٣] الخس بانكسر : أي ترى الإبل ثلاثة أيام ، وترد الراعي ، وهي إبل خوامس .

[٤] اللعة : من ولد ملك . [٥] التلاد : المال القديم . [٦] كعب تدي الجارية : نهدي ، وهي كاعب وكعاب . [٧] ضرب الفعل ضرابا : تكبح . [٨] القرن : كفؤك في الشجاعة أو طام ، والشتم : الأسد المابس ، والمندرد : أجرة الأسد . ومنه أسد خلد . [٩] اللعة : الشمر المجاوز شعبة الأذن . [١٠] الرثية : وجع المفاصل والبدن والرجلين . والأطر والتأطير : عطف الشيء ، وتأطر الراج : تقي ولعوج . [١١] القرم : الفصل .

فقال معاوية : أحسنت القول ! واعلم أن لها مصادر ، فنسأل الله أن يحملنا من المصادرين بخير ، فقد أوردنا أنفسنا مواردَ تَرغب إلى الله أن يُصَدِّقَنا عنها وهو راض .
(الأمالي ٢ : ٩٤)

٣٦٨ — حديث عرابة بن أوس بن حارثة مع معاوية

قال معاوية لعرابة بن أوس بن حارثة الأنصاري : بأي شيء سُدَّتْ قومك يا عرابة ؟ قال : أخبرك يا معاوية بأني كنت لهم كما كان حاتم لقومه . قال : وكيف كان ؟ فأنشدته :

وأصبحتُ في أمرِ العشيرةِ كلِّها كذِي الحِلْمِ يُرَضَى ما يقول ويُعرَف
وذاك لَأَنِّي لا أعادي سَرَاتِهِمْ ولا عن أخِي ضَرَّائِهِمْ أَتَنَكَّفُ^(١)
وإني لَأُعْطِي سَائِلِي ، وَلرَبِّمَا أَكَلَّفْتُ ما لا أَسْتَطِيعُ فَأُكَلِّفُ
وإني لَمَذْمُومٌ إِذَا قِيلَ : حاتم نبا تَبَوَّءَ ، إنَّ الكَرِيمَ يُنْتَفِ
ووالله إني لأَعْفُو عن سَفِيهِمْ ، وَأَحْلُمُ عن جَاهِلِهِمْ ، وَأَسْمِي في حَوَائِجِهِمْ ، وَأُعْطِي
سَائِلَهُمْ ، فَن فَعْلُ فَعْلِي فهو مثلي ، وَمَنْ فَعْلُ أَحْسَنُ مِنْ فَعْلِي فهو أَفْضَلُ مِنِّي ،
وَمَنْ قَصَّرَ عَن فَعْلِي فَأَنَا خَيْرُ مَنْهُ ، فقال معاوية : لقد صدق الشَّماخ حيث
يقول فيك :

رَأَيْتُ عَرَابَةَ الْأَوْسِيِّ يَسْمُو إلى الخِيراتِ مُنْقَطِعَ التَّرِيقِ
إِذَا مَارَايَةً رُفِعَتْ لِمَجْدٍ تَلَقَّاهَا عَرَابَةُ بِالْيَمِينِ

(الأمالي ١ : ٢٧٧)

٣٦٩ — سعيد بن عثمان بن عفان ومعاوية

دخل سعيد بن عثمان بن عفان رضى الله عنه على معاوية ، وابنه يزيد إلى

جانبه ، فقال له : « ائتمك أبى واصطنعك ، حتى يلمك باصطناعه إياك المذى الذى لا يحارى ، والفاية التى لا تسامى ، فاجازيت أبى بالآله ، حتى قدمت هذا على ، وجعت له الأمر دونى - وأوماً إلى يزيد والله لا أبى خير من أبيه ، وأبى خير من أمه ، ولأنا خير منه » ، فقال معاوية : « أمّا ما ذكرت يابن أخى من تواتر آلائكم على ، وتظاهر نعمائكم لى ، فقد كان ذلك ، ووجب على المكافأة والمجازاة ، وكان شكرى إياه أن طلبت بدمه ، حتى كابدت أهوال البلاء ، وغشيت عساكر المنايا ، إلى أن شفيت حزازات الصدور ، وتجلت تلك الأمور ، ولست لنفسى باللائم فى التسمير ، ولا الزارى ^(١) عليها فى التقصير ، وذكرت أن أباك خير من أبى هذا - وأشار يده إلى يزيد - فصدقت ، لعمر الله لعثمان خير من معاوية ، أكرم كريماً ، وأفضل قديماً ، وأقرب إلى محمد صلى الله عليه وسلم رجلاً ، وذكرت أن أمك خير من أمه ، فلمرى إن امرأة من قریش خير من امرأة من بنى كلب ، وذكرت أنك خير من يزيد ، فوالله يابن أخى ما يسرنى أن القوطه ^(٢) عليها رجال مثل يزيد .

فقال له يزيد : مة يا أمير المؤمنين ، ابن أخيك استعمل الدالة عليك ، واستمبك لنفسه ، واستزاد منك فزده ، وأنجل له فى ردك ، وأنجل على نفسك ، وولّه خراسان بشفاعتى ، وأعنه بحال يظهر به مؤروته ، فولاه معاوية خراسان وأجازته بمائة ألف درهم ، فكان ذلك أعجب ما ظهر من حلم يزيد .

(صبح الأعشى ١ : ٢٥٦ . والإمامة والسياسة ١ : ١٣٩)

٣٧٠ - مصقلة بن هبيرة ومعاوية

مرض معاوية مرضاً شديداً ، فأرجف به مصقلة بن هبيرة ، وساعده قوم

على ذلك ، ثم تماثل ^(١) ، وهم في إرجافهم ، حمل زياد مصقلة إلى معاوية ، وكتب إليه أنه يجمع مرثاقاً من مرثاق العراق ، فيرجفون بأمر المؤمنين ، وقد حملته إليه ليرى رأيه فيه ، فقدم مصقلة ، وجلس معاوية للناس ، فلما دخل عليه ، قال : ادن مني ، فدنا منه ، فأخذ يده فجذبه فسقط مصقلة ، فقال معاوية :

أَبَقِيَ الْحَوَادِثُ مِنْ خَلِيلِكَ مِثْلَ جَنْدَلِ الْمَرَاثِمِ ^(٢)

صُلْبًا إِذَا خَارَ الرَّجَا لُ أَيْلٍ مَمْتَنِعِ الشَّكَاثِمِ ^(٣)

قد رانى الأعداء قبلك فامتنت من المظالم

فقال مصقلة : « يا أمير المؤمنين ، قد أبقي الله منك ما هو أعظم من ذلك بطشاً وجلباً راجحاً ، وكلاً وترعى لأوليائك ، وسماً ناقماً لأعدائك ، كانت الجاهلية فكان أبوك سيد المشركين ، وأصبح الناس مسلمين وأنت أمير المؤمنين » وقام ، فوصله معاوية ، وأذن له في الانصراف إلى الكوفة ، فقيل له : كيف تركت معاوية ؟ فقال : زعمتم أنه كبير وضعف ، والله لقد غمرني غمرة كاد يخطئني ، وجذبني جذبة كاد يكسر عضواً مني .

(زهر الآداب ١ : ٥٧ ، والأمال ٢ : ٢١٠)

٣٧١ - روح بن زنباع ومعاوية

وَوَلَّى معاوية رَوْحَ بْنَ زَنْبَاعٍ ، فَتَبَّ عَلَيْهِ فِي جَنَائِهِ ، فَكُتِبَ إِلَيْهِ بِالْقُدُومِ ، فلما قدم أمر بضربه بالسياط ، فلما أقيم ليضرب قال : « نَشَدْتُكَ اللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ تَهْدِمَ مِنِّي رَكْنًا أَنْتَ بَيْتُهُ ، وَأَنْ تَضَعَ مِنِّي حَسِيصَةً أَنْتَ رَفَعْتَهَا

[١] تماثل الليل : غارب البره . [٢] الجندل : المجارة ، والواحدة جندلة .

[٣] الأبل : المتع ، والألف : الجدل ، والشكاثم جمع شكبة : وهي من الأجل المديعة المقرضة في فم

الفرس ، وفلان شديد الفكية : أفت أي لا يتقاد .

أَوْ تَشْمِيتَ بِي عَدَاؤُكَ أَنتَ وَقَتَهُ ^(١) ، وَأَسْأَلُكَ بِاللَّهِ إِلَّا أَتَى حُلْمُكَ وَعَقُوكَ دُونَ
إِفْسَادِ صَنَائِعِكَ » ، فَقَالَ مَعَاوِيَةُ : إِذَا اللَّهُ سَتَى عَقْدَ أَمْرٍ تَبَيَّنَ ، خَلَوْا سَبِيلَهُ .
(الأمالي ٢ : ٢٥٩ ، وزهر الآداب ٢ : ١٩٤)

٣٧٢ - مَخَاصِمَةُ أَبِي الْأَسْوَدِ الدَّوْلِيِّ وَامْرَأَتِهِ بَيْنَ يَدَيِ زِيَادِ بْنِ أَبِيهِ
جَرَى بَيْنَ أَبِي الْأَسْوَدِ الدَّوْلِيِّ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ كَلَامٌ ، فِي ابْنِ كَانَ لَهَا مِنْهُ ، وَأَرَادَ
أَخْذَهُ مِنْهَا ، فَسَارَ إِلَى زِيَادٍ وَهُوَ وَالِي الْبَصْرَةِ .

فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ : « أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ، هَذَا ابْنِي ، كَانَ بَطْنِي وَعَاءَهُ ، وَجِجْرِي
فِنَاءَهُ ، وَتَذْنِي سِقَاءَهُ ^(٢) ، أَكَلُوهُ ^(٣) إِذَا نَامَ ، وَأَحْفَظْهُ إِذَا قَامَ ، فَلَمْ أَزَلْ
بِذَلِكَ سَبْعَةَ أَعْوَامَ ، حَتَّى إِذَا اسْتَوَيْ فِصَالُهُ ^(٤) ، وَكَمَلَتْ خِصَالُهُ ، وَاسْتَوَكَمَتْ ^(٥)
أَوْصَالُهُ ، وَأَمَلْتُ نَفْسَهُ ، وَرَجَوْتُ دَفْعَهُ ، أَرَادَ أَنْ يَأْخُذَهُ مِنِّي كَرهًا ^(٦) ، فَأَدْنَى ^(٧)
أَيْهَا الْأَمِيرَ ، فَقَدَرَامَ تَهْزِي ، وَأَرَادَ قَسْرِي ^(٨) » .

فَقَالَ أَبُو الْأَسْوَدِ : « أَصْلَحَكَ اللَّهُ ، هَذَا ابْنِي حَمَلْتُهُ قَبْلَ أَنْ تَحْمِلَهُ ، وَوَضَعْتُهُ
قَبْلَ أَنْ تَضَعَهُ ، وَأَنَا أَقُومُ عَلَيْهِ فِي أَدْبِهِ ، وَأَنْظُرُ فِي أَوْدِهِ ، وَأَمْنَحُهُ عِلْمِي ، وَأُلْهِمُهُ
حِلْمِي ، حَتَّى يَكْمُلَ عَقْلُهُ ، وَيَسْتَحْكِمَ قَتْلُهُ » .

فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ : « صَدَقَ أَصْلَحَكَ اللَّهُ ، حَمَلَهُ خِفًا ^(٩) ، وَحَمَلْتُهُ ثِقَلًا ، وَوَضَعُهُ
شَهْوَةً ، وَوَضَعْتُهُ كَرهًا » .

فَقَالَ لَهُ زِيَادٌ : ارْجِعْ عَلَى الْمَرْأَةِ وَلِهَا ، فَهِيَ أَحَقُّ بِكَ مِنْكَ ، وَدَعْنِي مِنْ

[١] وقته : قهره - وأذله . وفي زهر الآداب : « كَيْتُهُ » . [٢] السقاء : جلد السحلة يكون
للماء واللبن . [٣] أرعاه . [٤] فظلمه . [٥] اشتدّت ومنعت . [٦] الإياء والمشفقة
بالفتح والغم ، أو بالفتح ما أكرهك غيرك عليه ، وبالضم ما أكرهت نفسك عليه .
[٧] آداه على فلان : أعداه وأطاعه . [٨] الإكراه . [٩] الخف : الخفيف .

سجلك . أو قال : « إنها امرأة عاقلة يا أبا الأسود ، فادفع ابنها إليها ، فأخلق
أن تحسن أدبه » . (الأماي ٢ : ١٤ ، وأماي اليد المرتضى ١ : ٢١٤)

٣٧٣ — صورة أخرى

وروى أحمد بن أبي طاهر طيفور هذا الخبر بصورة أطول وها كها :
قال أبو محمد القشيري : كان أبو الأسود الدؤلي من أكبر الناس عند معاوية بن
أبي سفيان ، وأقربهم مجلساً ، وكان لا ينطق إلا بقل ، ولا يتكلم إلا بفهم ، فينا هو
ذات يوم جالس ، وعنده وجوه قرش وأشراف العرب ، إذ أقبلت امرأة أبي الأسود
الدؤلي ، حتى حاذت معاوية ، وقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله
وبركاته ؛ إن الله جعلك خليفة في البلاد ، ورفيقاً على العباد ، يُستسقى بك المطر ،
وَيُسْتَنْبَتُ بك الشجر ، وتؤلف بك الأهواء ، ويأمن بك الخائف ، ويُرَدِّع
بك الجانف ^(١) ، فأنت الخليفة المصطفى ، والإمام المرتضى ، فاسأل الله لك النعمة
في غير تغيير ، والعافية من غير تعذير ^(٢) . قد أُلْجَأَني إليك يا أمير المؤمنين أمرٌ
ضاق عليّ فيه المنهج ، وتفاقم عليّ منه المخرج ، لأمر كرهت عاره ^(٣) ، لما
خشيت إظهاره ، فليُصِفْني أمير المؤمنين من الخصم ، فإني أعوذ بِمَقْوَمِهِ ^(٤)
من العار الويل ، والأمر الجليل ، الذي يشتدُّ على الحرائر ، ذوات البُؤُولِ
الأجائر ^(٥) ، فقال لها معاوية : وَمَنْ بَعَثَكَ هذا الذي تَصِفِينَ من أمره المنكر ،
ومن فعله المشهر ^(٦) ؟ فقالت : هو أبو الأسود الدؤلي ، فانتفت إليه فقال : يا أبا

[١] اللائل : الجائر . [٢] أي من غير حق ، من عذر في الأمر تعذيراً : إذا قصر ولم يجتهد
(أو من غير تشويه من عذر الشيء : لطخه بالمفرقة كفرحة) . [٣] تكني بذلك عن طلاقها .
[٤] الفتوة : ماحول النار . [٥] البعول والبعولة جمع بل وهو الزوج ، والأجائر جمع أجور ،
أفضل تفضيل من جار . [٦] شهره كتمه ، وظهره بالتعديدي : أظهره في شناعة .

الأسود: ما تقول هذه المرأة؟ فقال أبو الأسود: هي تقول من الحق بعضاً، ولن يستطيع أحدٌ عليها نقضاً؛ أما ما ذكرت من طلاقها فهو حق، وأنا مُخبر أمير المؤمنين عنه بالصدق، والله يا أمير المؤمنين ما طَلَّقْتُها عن رِيَّةٍ ظهرت، ولا لأى هفوة حضرت، ولكنى كرهت شمائلها، ففقطعتُ عنى جائلها، فقال معاوية: وأى شمائلها يا أبا الأسود كرهت؟ قال: يا أمير المؤمنين: إنك مهتجها على «بجواب عتيد»^(١)، ولسان شديد، فقال معاوية: لأبدلك من محاورتها، فاردد عليها قولها عند مراجعتها، فقال أبو الأسود: «يا أمير المؤمنين، إنها كثيرة الصخب، دأمة الذرب»^(٢)، مُهينة للأهل، مؤذية للبتل، مُسيئة إلى الجار، مُظهرة للعار، إن رأت خيراً كتمته، وإن رأت شراً أذاعته»، فقالت: «والله لولا مكانُ أمير المؤمنين، وحضورُ من حَصَرَه من المسلمين، لرددتُ عليك بَوادرِ كلامك، بنوافذ أقرعُ بها كلَّ سِهامك»^(٣)، وإن كَانَ لا يحملُ بالمرأة الحرَّة أن تَشْتِمَ بَنِيَّ، ولا أن تُظْهِرَ لأحدٍ جهلاً، فقال معاوية: عَزَمْتُ عليكِ لِمَا أَجَبْتِهِ، فقالت: «يا أمير المؤمنين، ما عَلِمْتُهُ إِلَّا سَتُولًا جَهُولًا، مُلِحًا بِخَيْلٍ»^(٤)، إن قال فَشَرُّ قَاتِلٍ، وإن سَكَتَ فذُو دَغَائِلٍ»^(٥)، لَيْتُ حِينَ يَأْمَنُ، وَتَمْلُبُ حِينَ يَخَافُ، شَجِيعٌ حِينَ يُضَافُ»^(٦)،

[١] حاضر ميبأ . [٢] الصخب : شدة الصوت ، والقرب : حدة اللسان وبذاته .

[٣] البوادر جمع بادرة ، وهي ما يبدو من حدثك في الغضب من قول أو فعل ، بنوافذ أى بجميع نافذة ماضية ، وكل السيف وغيره فهو كل وكليل : لم يقطع .

[٤] وكان أبو الأسود مروجاً بالبعل ، ومن طريق ما يروى عنه أن رجلاً قال له : « أنت والله ظرف لفظ ، وظرف علم ، ووعاء حلم ، غير أنك عجول » فقال : « وما خير ظرف لا يمسك ما فيه ؟ » وسلم عليه أدرابى يوماً ، فقال أبو الأسود : كلمة . فتارة : « فقال له : أتأخذ في الخول ؟ قال : وراءك أوسع لك ، قال : فهل عندك شيء ؟ قال : نعم ، قل : أطعنى ، قال : عيال أسق منك ، قل : مارأيت الأم منك ؟ قال : ليت تهلك . » أمالى المرتضى ١ : ٢١٤ . [٥] دغائل : جمع دغيلة كدغينة والدغيلة والدغل بالتحريك : دخل في الأمر مفرد . [٦] ضافه يضيفه : نزل عليه ضيفاً .

إِنْ ذَكَرَ الْجُودَ انْتَمَعَ^(١) ، لِمَا يَعرِفُ مِنْ قِصَرِ رِشَاءِهِ^(٢) ، وَلَوْثُمْ أَبَاؤُهُ ، ضَيْفُهُ جَائِعٌ ، وَجَارُهُ ضَائِعٌ ، لَا يَحْفَظُ جَارًا ، وَلَا يَحْمِي ذِمَارًا ، وَلَا يُدْرِكُ ثَارًا ، أَكْرَمَ النَّاسَ عَلَيْهِ مِنْ أَهَانِهِ ، وَأَهْوَنَهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَكْرَمِهِ ، فَقَالَ مَعَاوِيَةُ : سُبْحَانَ اللَّهِ لِمَا تَأْتِي بِهِ هَذِهِ الْمَرَأَةُ مِنَ السَّجْعِ ! فَقَالَ أَبُو الْأَسْوَدِ : أَصْلَحَ اللَّهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّهَا مُطْلَقَةٌ ، وَمَنْ أَكْثَرُ كَلَامٍ مِنْ مُطْلَقَةٍ ؟ فَقَالَ لَهَا مَعَاوِيَةُ : إِذَا كَانَ رَوَاحًا^(٣) فَنَمَلًا أَفْصَلَ يَبْنِيكَ وَيَبْنِيهِ بِالْقَضَاءِ .

فَلَمَّا كَانَ الرِّوَّاحُ جَاءَتْ وَمَعَهَا ابْنُهَا قَدْ احْتَضَنَتْهُ ، فَلَمَّا رَأَاهَا أَبُو الْأَسْوَدِ قَامَ إِلَيْهَا لِيَنْزِعَ ابْنَهُ مِنْهَا ، فَقَالَ لَهُ مَعَاوِيَةُ : يَا أَبَا الْأَسْوَدِ ، لَا تُعْجِلِ الْمَرَأَةَ أَنْ تَنْطِقَ بِحُجَّتِهَا ، قَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَنَا أَحَقُّ بِحَمْلِ ابْنِي مِنْهَا ، فَقَالَ لَهُ مَعَاوِيَةُ : يَا أَبَا الْأَسْوَدِ دَعْنَاهَا تَقُلْ ، فَقَالَ : « يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، حَمَلْتُهُ قَبْلَ أَنْ تَحْمِلَهُ ، وَوَضَعْتُهُ قَبْلَ أَنْ تَضَعَهُ » ، فَقَالَتْ : « صَدَقَ وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : حَمَلَهُ خِفَاءً ، وَحَمَلْتُهُ ثِقَلًا ، وَوَضَعَهُ شَهْوَةً وَوَضَعْتُهُ كَرْهًا ، إِنْ بَطْنِي لَوِعَاؤُهُ ، وَإِنْ ثَدْيِي لَسِقَاؤُهُ ، وَإِنْ حِجْرِي لَفِنَاؤُهُ » ، فَقَالَ مَعَاوِيَةُ : سُبْحَانَ اللَّهِ لِمَا تَأْتِينَ بِهِ ! فَقَالَ أَبُو الْأَسْوَدِ : إِنَّهَا تَقُولُ الْآيَاتِ مِنَ الشَّعْرِ فَتَجِيدُهَا ، فَقَالَ مَعَاوِيَةُ : إِنَّهَا قَدْ غَلِبَتْكَ فِي الْكَلَامِ ، فَتَكَلَّفَ لَهَا آيَاتًا لَمَّا لَمَلَتْكَ تَغْلِيهَا ، فَأَنْشَأَ أَبُو الْأَسْوَدِ يَقُولُ :

مَرْحَبًا بِالنَّاسِ تَجَوُّرُ عَلَيْنَا نَمُ سَهْلًا بِالْحَامِلِ الْمَحْمُولِ
أَغْلَقْتُ بَابَهَا عَلَى وَقَالَتْ : إِنْ خَيْرَ النِّسَاءِ ذَاتُ الْبُعُولِ
شَفَلْتُ قَسَمَهَا عَلَى فَرَاغًا هَلْ سَمِعْتُمْ بِالْفَارِغِ الْمَشْغُولِ ؟

[١] انتمتع : دخل البيت مستحقاً . [٢] الرشاء في الأصل : الجبل .

[٣] أى إذا كان الوقت رَوَاحًا ، والرواح : العشى .

فأجابته وهي تقول :

ليس من قال بالصواب وبالحق كمن جار عن منار السبيل
 كان تذيي سقاءه حين يضحى ثم جري فئاؤه بالأصيل
 لست أنبي بواحدى يابن حرب بدلاً ما علته والخليل^(١)
 فأجابها معاوية :

ليس من غذاه حيناً صعباً وسقاه من تذييه بخذول
 هي أولى به وأقرب رُحماً من أيه بالوحي والتزيل^(٢)
 أمه ما حنت عليه وقامت هي أولى بحمل هذا الضئيل^(٣)

فقضى لها معاوية عليه ، واحتملت ابنها وانصرفت . (بلاغات النساء من ٥٢)

٣٧٤ — وفد أهل البصرة إلى عبد الله بن الزبير

لما قدم الأحنف في وجوه أهل البصرة ، إلى عبد الله بن الزبير ، تكلم
 أبو حاضر الأسديّ - وكان خطيباً جميلاً - فقال له عبد الله بن الزبير : اسكت
 فوالله لو ددت أن لي بكل عشرة من أهل المراق رجلاً من أهل الشام ، صرّف
 الدينار بالدرم ، قال : « يا أمير المؤمنين : إن لنا ولك مثلاً ، أفتأذن في ذكره ؟ »
 قال : نعم ، قال : « مثلنا ومثلك ومثل أهل الشام قول الأعشى حيث يقول :
 علقته عرساً وعلقت رجلاً غيري وعلقت أخرى غيرها الرجل^(١)
 أحبك أهل المراق ، وأحببت أهل الشام ، وأحب أهل الشام عبد الملك
 ابن مروان . » (البيان والتبيين ١ : ١٦٤)

[١] أي أنسم بخليل الله وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . [٢] الرحم : الرحمة والرفقة والتعطف .

[٣] في الأصل : « أم ما حنت عليه . . . » وهو تحريف ، إذ يحتمل وزن البيت .

[٤] علق فلان امرأة (بالبناء ، للجهول مشدداً) : أحبا .

٢٧٥ - كلام خطيب الأزديين عبد الملك بن مروان

بعث الحجاج خطباء من الأحاس^(١) إلى عبد الملك بن مروان ، فتكلموا ، فلما انتهى الكلام إلى خطيب الأزدي ، قام فقال :

« قد علمت الرب أنا حتى فإل ، ولسنا بحجى مقال ، وأنا نجزى بفعلنا عند أحسن قولهم ، إن السيوف لتعرف أكفنا ، وإن الموت ليمتدب أرواحنا ، وقد علمت الحرب الزبون ، أنا تفرع جاحها ، ونحلب صراها^(٢) » ثم جلس^(٣) .
(الأمال ٢ : ٢٥٩)

٣٧٦ - سؤال عبد الملك للعجاج وما أجاب به

ودخل العجاج^(١) على عبد الملك بن مروان ، فقال : يا عجاج بلغنى أنك لا تقدر على الهجاء ، فقال : يا أمير المؤمنين ، من قدر على تشييد الأنبياء ، أمكنه إخراج الأخيئة ، قال : فما يمنحك من ذلك ؟ قال : إن لنا عزاً يمننا من أن نُظلم ، وإن لنا حِلماً يمننا من أن نُظلم ، فعلامَ الهجاء ؟ فقال : لكلماتك أشعرُ من شعرك ! فأتى لك عزٌ يمنك من أن تُظلم ؟ قال : الأدب البارع ، والفهم الناصع ، قال : فما الحِلْم الذى يمنك من أن تُظلم ؟ قال : الأدب

[١] المجلس كقفل : الأمانة الصلبة جمع أحسن ، واتب به قريش ، وكنانة ، وجديلة ، ومن تابعهم في الجمالية لتحمسهم في دينهم ، أو لاتبائهم بالهاء وهى الكمية ، وأحاس العرب : من أمهاتهم من قريش ، وكانوا يتشددون في دينهم ، وكانوا شجعان العرب لا يطاقون . [٢] الصرى : بقية نالين .

[٣] وفى رواية الجاحظ : « قاروا : ولما قدمت خطباء تزارع عند معاوية » فذهبت في الخطب كل مذهب ، قام صبرة بن شيان فقال : « يا أمير المؤمنين : إنا حتى فإل ، ولسنا حتى مقال ، ونحن نبلغ بفعلنا أكثر من مقال غيرنا (البيان والبيان ١ : ١٦٤) » ، وروى البرد في الكامل هذا القول عن صبرة أيضاً - انظر تهذيب الكامل ١ : ١٦ - ، وقد تقدم لك أن صبرة بن شيان من الأزديين - انظر الجزء الأول ص ٢٤٧ . [٤] هو العجاج بن رؤبة راجع عبيد مشهور مات سنة ٨٩٠ هـ .

المُسْتَظَرَف، والطَّبَع الثَّالِد، قال : يا عجاج لقد أصبحتَ حَكِيمًا . قال : وما
يعننى وأنا نَجِيٌّ^(١) أمير المؤمنين ؟ . (الأمل ٢ : ٤٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٢٦٤)

٣٧٧ - وفود الحجاج بإبراهيم بن محمد بن طلحة

على عبد الملك بن مروان

لما وَلِيَ الحجاج بن يوسف الحَرَمَيْنِ بعد قتله ابن الزبير ، استَخَصَّ إبراهيم
ابن محمد بن طَلْحَةَ ، فَقَرَّبَهُ وعَظَّمَ منزلته ، فلم تَرَلْ تلك حاله عنده ، حتى خرج
إلى عبد الملك بن مَرْوَانَ ، فخرج معه مُعَادِلًا ، لا يَقْصُرُ له في بَرٍّ وإِعْظَام ، حتى
حَضَرَهُ عبد الملك ، فلما دخل عليه لم يبدَأْ بشيء بعد السلام ، إِلَّا أن قال له :
« قَدِمْتُ عَلَيْكَ أمير المؤمنين برجل الحجاز ، لم أدع له بها نظيرًا في الفضل
والأدب ، والمروءة ، وحسن المذهب ، مع قرابة الرَّحِم ، ووجوب الحق ،
وعِظَم قدر الأبوة ، وما بلوتُ منه في الطاعة والنصيحة ، وحُسن المؤازرة . وهو
إبراهيم بن محمد بن طلحة ، وقد أحضرته بابك ، لِيسْتَهْلَ عليه إِيذَنُكَ ، وتعرف له
ما عَرَفْتُكَ » . فقال : أَذْكَرْتُكَ رَحِمًا قَرِيبَةً ، وَحَقًّا وَاجِبًا ، يَا غُلَامُ : ائْذَنْ لِي إِبْرَاهِيمَ
ابن محمد بن طلحة ، فلما دخل عليه أدناه عبد الملك ، حتى أَجْلَسَهُ على فراشه ، ثم
قال له : يَا بْنَ طَلْحَةَ ، إِنْ أَبَا مُحَمَّدٍ (الحجاج) ذَكَرْنَا مَا لَمْ تَرَلْ نَعْرِفُكَ بِهِ مِنَ الْفَضْلِ
وَالْأَدَب ، وَالْمَرْوَةِ ، وَحَسَنِ الْمَذْهَب ، مَعَ قَرَابَةِ الرَّحِم ، وَوَجُوبِ الْحَقِّ ، وَعِظَمِ
قَدْرِ الْأَبَوَةِ ، وَمَا بَلَاهُ مِنْكَ فِي الطَّاعَةِ وَالنَّصِيحَةِ ، وَحَسَنِ الْمُوَازَرَةِ ، فَلَا تَدْعُنَّ
حَاجَةً فِي خَاصَّةِ نَفْسِكَ وَطَامَتِكَ إِلَّا ذَكَرْتَهَا . فقال : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنْ أَوَّلَ
الْحَوَائِجِ ، وَأَحَقُّ مَا قُدِّمَ بَيْنَ يَدَيِ الْأُمُورِ ، مَا كَانَ اللَّهُ فِيهِ رِضًا ، وَلِحَقِّ نَبِيِّهِ صَلَّى

الله عليه وسلم أداء ، ولك فيه ولجاعة المسلمين نصيحة ، وعندى نصيحة لا أجد
بُداً من ذكرها ، ولا أقدر على ذلك إلا وأنا خالٍ ، فأخلىنى يا أمير المؤمنين تَرِد
عليك نصيحتى ، قال : أَدُونَ أبى محمد ؟ قال : نعم ، دون أبى محمد ، قال عبد الملك :
للحجاج قم ، فلما خَطَرَفَ ^(١) السَّترَ أقبل على إبراهيم ، فقال : يا بن طلحة قل
نصيحتك ، قال : بالله يا أمير المؤمنين لقد عَهِدَتِ إلى الحجاج فى تَغَطُّرِهِ
وتَعَجُّرِهِ ، وَبُعْدِهِ من الحق ، وَقُرْبِهِ من الباطل ، فولَّته الحرمين ، وهما ما هما
وبهما مَنَ بهما من المهاجرين والأنصار ، والمَوَالِى الأَخيار ، يسومُهم الخَسَفُ ^(٢) ،
ويحكم فيهم بنير السُّتَةِ ، بعد الذى كَانَ من سَفَكِ دِمَائِهِمْ ، وما انتَهَك من حُرْمِهِمْ ،
وَيَطْوُم بِطَنَامِ أَهل الشام ، وَرَعَاعٍ لآرَوِيَةٍ لَهُمْ فى إقامة حق ، ولا فى إراحة
باطل ، ثم أَظَن أن ذلك ينجيك من عذاب الله ؟ فكيف بك إذا جاثاك محمد صلى
الله عليه وسلم غداً للخصومة بين يدي الله تعالى ؟ أما والله إنك لن تنجو هناك
إلا بِحُجَّةٍ تَضْمَنُ لك النجاة ، فازبغ على نفسك أودع ، وكان عبد الملك مُتَكَبِّراً ،
فاستوى جالساً ، وقال : كَذَبْتَ وَمِنْتَ ^(٣) فيما جئت به ! ولقد ظن بك الحجاج
ظناً لم نجد فيه ، وقد يُظَنُّ الخَيْرُ بغير أهله ، قم فأنت المائِن الحاسد ! قال :
فَقَعْتُ والله ما أَبْصِرُ شيئاً ، فلما خطرَ السَّترَ لحِقْنى لاحق ، فقال للحاجب :
امنع هذا من الخروج ، وأذِن للحجاج ، فدخل فلبث مَلِكِيّاً ، ولا أشكُ أنهما فى
أمرى ، ثم خرج الإِذْن لى ، فدخلت ، فلما كشف لى السَّترَ ، إذا أنا بالحجاج
خارج ، فاعتقننى ، وقَبَّلَ ما بين عَيْنَيْ ، وقال : أما إذا جِزَى الله التَّوَاخِيَيْنَ خيراً

[١] المراد أرخى من خطر جلد المرأة إذا استرخى . [٢] يوليم القل .

[٣] مان ميتا : كذب .

بفضل تواصلهما ، فجزاك الله عنى أفضل الجزاء ، فوالله لئن سلمت لك لأرفعن ناظريك ، ولأُعَلِّينَ كعبك ، ولأُثْبِعَنَّ الرجال غبارَ قدميك ، قال : فقلت في نفسي إنه ليسخر بى ، فلما وصلت إلى عبد الملك أدنانى حتى أدنانى مجلسى الأول ، ثم قال : يا بن طلحة : هل أعلمت الحجاج بما جرى أو شاركك أحد فى نصيحتك ؟ فقلت : لا والله ، ولا أعلم أحداً أظهرَ يدًا عندى من الحجاج ، ولو كنت حياً أحداً بدينى لكان هو ، ولكنى آثرتُ الله ورسوله والمسلمين ، قال : قد علمت أنك لم ترد الدنيا ، ولو أردتها لكانت لك فى الحجاج ، ولكن أردت الله والدار الآخرة ، وقد عزلته عن الحرمين : لما كرهت من ولايته عليهما ، وأعلمته أنك - تنزلتنى له عنهما : استقلالا لهما ، ووليته المراقين وما هنالك من الأمور ، التى لا يُدَحِّضُهَا إلا مثله ، وإنما قلت له ذلك ليوذى ما يلزمه من ذمامك ، فإنك غير ذام لصحبته مع يدك عنده ، فخرجت مع الحجاج ، وأكرمنى أضعاف إكرامه .

(المقد الفريد ١ : ١٢١ ، وشرح البيون ص ١١٩)

٢٧٨ - قدوم الحجاج مع أشراف المصرين على عبد الملك

لما فرغ الحجاج من دير الجاجم ، وقدم على عبد الملك ومعه أشراف أهل المصرين - البصرة والكوفة - أدخلهم عليه ، فبينما هم عنده إذ نادى كروا البلدان ، فقال محمد بن عُمَيْرُ بْنُ عَطَّارٍ : « أصلح الله الأمير ، إن الكوفة أرض ارتفعت عن البصرة وحرَّها وغمَّعها ^(١) ، وسفلت عن الشام ووبَّأها ، وجاورها الفرائث ، فتدب ماؤها ، وطاب ثمرها » ، فقال خالد بن صفوان الأهمسى : « أصلح الله الأمير ، نحن أوسعُ منهم بريةً ^(٢) ، وأسرعُ منهم فى السرية ^(٣) ، وأكثرُ منهم

[١] النقي : ركوب الندى الأرض ، أرض غمقة كفرجة : ذات ندى وتقل ، أو قرية من المياه ، وفى الأصل : « وعقمها » وهو تصحيف . [٢] السرية : من حصة أعس لك ثلثة ، أو أربعة ، والمراد فى البهوض القتال .

قَدْنا^(١)، مَواجِبًا، مَساجِبًا،^(٢) وَنَاسًا^(٣)، مَاؤُنَا صَفْوً، وَخَيْرُنَا عَفْوً، لَا يَخْرُجُ مِنْ عِنْدِنَا إِلَّا قَائِدُ سَائِقٍ وَنَاعِقُ^(٤)، قَالَ الْحِجَابُ: «أَصْلَحَ اللَّهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! إِنِّي بِالْبَلَدَيْنِ خَيْرٌ، وَقَدْ وَطَّيْتُهُمَا جَمِيعًا»، فَقَالَ لَهُ: قُلْ فَأَنْتَ عِنْدَنَا مُصَدِّقٌ، فَقَالَ: «أَمَّا الْبَصْرَةُ فَمَجُوزٌ شَمَطَاءٌ، دَفْرَاءٌ، بَخْرَاءٌ، أُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ حَلْيٍ وَزِينَةٍ؛ وَأَمَّا الْكُوفَةُ، فَشَابَةٌ حَسَنَاءٌ جَمِيلَةٌ، لَا حَلْيَ لَهَا وَلَا زِينَةَ». فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ: فَضَلْتَ الْكُوفَةَ عَلَى الْبَصْرَةِ. (مروج الذهب ٢: ١٤٨)

* * *

وروى الجاحظ قال :

قال خالد بن صفوان^(٥) - وَسُئِلَ عَنِ الْكُوفَةِ وَالْبَصْرَةِ - : «نَحْنُ مَنَابِئُنَا قَصَبٌ، وَأَنْهَارُنَا عَجَبٌ، وَسَمَاؤُنَا رُطَبٌ^(٦)، وَأَرْضُنَا ذَهَبٌ». وقال الأحنف: «نَحْنُ أَبْعَدُ مِنْكُمْ سَرِيَّةً، وَأَعْظَمُ مِنْكُمْ تَجَرِيَّةً^(٧)»، وَأَكْثَرُ مِنْكُمْ ذُرِّيَّةً، وَأَغْذَى مِنْكُمْ بَرِّيَّةً». وقال أبو بكر الهذلي: «نَحْنُ أَكْثَرُ مِنْكُمْ سَاجَا، وَعَاجَا، وَدِيَابِجَا، وَخَرَاجَا، وَنَهْرًا تَجَّاجَا^(٨)». (اليان والتبيين ٢: ٤٦)

[١] الفند: فصل قصب الكر . [٢] الساج: خشب أسود رزق يجلب من الهند، ولا تنكاد الأرض تبليه، وهو يشبه الأبنوس . [٣] في الأصل: «وياسا» بالباء، وأراه بالتون . [٤] يريد بالسائق: الأمير، وبالناعق: المطيب . [٥] أي يصف البصرة، وكذا ما بعده . [٦] السماء: كل ما علاك، يشير إلى كثرة التخيل في مشائن البصرة، «مثلان كحطب: قرية قرية منها»، وأن التمر لكثرة ووفرة يظلمهم . [٧] تجر كنصر تجرا وتجارة: البحر، وأرى أن «تجيرة» مصدر صناعي للبحر يريد أن أهل البصرة أعظم وأطول بابا من أهل الكوفة في التجارة - لأن البصرة تفر على الخليج الفارسي، فهي حصلة بلاد الهند والفرق - . [٨] السجاج: الرياح من كل ذي صوت .

٣٧٩ - وفود مالك بن بشير على الحجاج بقتل الأزارقة

لما هزم المهلب بن أبي صفرة قطري بن الفجاءة : صاحب الأزارقة . بعث إلى مالك بن بشير ، فقال له : إني مؤفدك إلى الحجاج ، فسر ، فإنما هو رجل مثلك ، وبست إليه بجائزة فردها ، وقال : إنما الجائزة بعد الاستحقاق ، وتوجه فلما دخل على الحجاج قال له : ما اسمك ؟ قال : مالك بن بشير ، قال : ملك وبشارة ! كيف تركت المهلب ؟ قال : أدرك ما أمل ، وأمن من خاف ، قال : كيف هو لجنده ؟ قال : والده وف ، قال : فكيف رضام عنه ؟ قال : وسعهم بالفضل ، وأقنعهم بالعدل ، قال : فكيف تصنعون إذا لقيتم عدوكم ؟ قال : نلقاهم بجيّدنا فنطمع فيهم ، ويلقوننا بجيّدهم فيطمعون فينا ، قال : كذلك الجِد إذا لقي الجِد . قال : فما حال قطري ؟ قال : كأدنا يبعث ما كدناه . قال : فما منكم من اتباعه ؟ قال : رأينا المقام من وراءه خيراً من اتباعه ، قال : فأخبرني عن ولد المهلب ، قال : أعباء القتال بالليل ، ثمّة السّرح ^(١) بالنهار ، قال : أيهم أفضل ؟ قال ذلك إلى أيهم ، قال : لتقولن ، قال : هم كلّقة مضروبة لا يُعرَف طرفاها ، قال : أقسمت عليك هل رَوّأت ^(٢) في هذا الكلام ؟ قال : ما أطلع الله على غيبه أحداً ، فقال الحجاج لجلسائه : هذا والله الكلام المطبوع ، لا الكلام المصنوع .

(القد الفردي ١ : ١٢٢ ، ومروج الذهب ٢ : ١٤٨)

٣٨٠ - وفود كعب الأشقرى على الحجاج

أوفد المهلب بن أبي صفرة كعب بن معدان الأشقرى - ومعه ثروة بن تليد الأزدي - إلى الحجاج بعد هزيمة الأزارقة ، وقَتَلَ أميرهم عبْد رَبَّة الصنير ، فلما دخلا عليه بَدَرَ كَعْبٌ ، فأنشده قصيدته التي مطلعها :

[١] السرح في الأصل : الدل السالم . [٢] رَوّأت الأمر : نظر فيه وتقبّه ، ولم يجعل بجواب .

يَا خَفْصُ: إِنِّي عَدَا فِي عَنكِ السَّقَرُ وَقَدْ صَهَرْتُ فَأَذَى عَنِّي السَّهَرُ
 فقال له الحجاج: أشاعر أم خطيب؟ قال: كلاهما، ثم أقبل عليه، فقال له:
 أخبرني عن بني المهلب، قال: «الْمُغِيرَةُ فَارِسُهُمْ وَسَيِّدُهُمْ، نَارُ ذَاكِيَّة^(١)،
 وَصَعْدَةُ^(٢) عَالِيَّةٌ، وَكَفَى يَزِيدَ فَارِسًا شَجَاعًا، لَيْثُ غَابٍ، وَبَحْرُ جَمٍّ غُبَابٍ،
 وَجَوَادُهُمْ وَسَخِيهِمْ قَبِيصَةٌ، لَيْثُ الْمُنَارِ^(٣)، وَحَامِي الدُّنَارِ، وَلَا يَسْتَجِي الشَّجَاعُ
 أَنْ يَفِرَّ مِنْ مُدْرِكٍ، فَكَيْفَ لَا يَفِرُّ مِنَ الْمَوْتِ الْحَاضِرِ، وَالْأَسَدِ الْخَادِرِ؟ وَعَبْدُ
 الْمَلِكِ سَمٌّ نَاقِعٌ، وَسَيْفٌ قَاطِعٌ، وَحَبِيبُ الْمَوْتِ الزُّعَافُ، إِنَّمَا هُوَ طَوْدُ^(٤)
 شَامِخٍ، وَغَرَبَازِخٍ، وَأَبُو عَيْنَتِهِ الْبَطْلُ الْمُكَمُّ، وَالسَّيْفُ الْحَسَامُ، وَكَفَاكَ بِالْمُفْضَلِ
 نَجْدَةً، لَيْثُ هَذَارٍ، وَبَحْرُ مَوَارٍ^(٥)، وَمُحَمَّدُ لَيْثُ غَابٍ، وَحُسَامُ ضِرَابٍ، قال:
 فكيف كانوا فيكم؟ قال: كَانُوا حِمَاةَ السَّرْحِ نَهَارًا، فَإِذَا أَلْبَلُوا^(٦) فَفَرُّ سَانَ الْبَيَاتِ،
 قال: فَأَيُّهُمْ كَانَ أَنْجَدُ؟ قال: كَانُوا كَالْحَلَقَةِ الْمُفْرَغَةِ: لَا يُدْرِي أَيْنَ طَرَفُهَا، قال:
 فكيف كان لكم المهلب وكنتم له؟ قال: كَانَ لَنَا مِنْهُ شَفَقَةُ الْوَالِدِ، وَلَهُ مِنَّْا بَرُّ
 الْوَلَدِ، قال: فكيف جماعة الناس؟ قال: عَلَى أَحْسَنِ حَالٍ: أَدْرَكُوا مَا رَجَوْا،
 وَأَمِنُوا مِمَّا خَافُوا، وَأَرْضَاهُمُ الْمَدْلُ، وَأَغْنَاهُمُ النَّقْلُ^(٧)، قال: فكيف كنتم أنتم
 وعدوكم؟ قال: كُنَّا إِذَا أَخَذْنَا عَفْوَنَا، وَإِذَا أَخَذُوا يَدِيْنَا مِنْهُمْ، وَإِذَا اجْتَهَدُوا
 وَاجْتَهَدْنَا طَمِعْنَا فِيهِمْ، فَقَالَ الْحَجَّاجُ: إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ، قال: كيف أفلتكم
 قطري؟ قال: كَدَنَاهُ بِيَعُضِّ مَا كَادَنَا بِهِ، فَصَرْنَا مِنْهُ إِلَى الذِّى نَحْبُ، قال: فهلا
 اتبتموه؟ قال: كَانَ الْحَدُّ عِنْدَنَا آثَرُ مِنَ الْقُلِّ^(٨)، قال: أَكُنْتُ أَعْدَدْتُ لِي

[١] ذَكَتِ النَّارُ: اشْتَدَّ لَهَا . [٢] الصَّعْدَةُ: الْفَتَاةُ الْمُسَوَّمَةُ تَبَيَّنَتْ كَذَلِكَ . [٣] أَقَارُ عَلَى
 الْمَدَى إِفَارَةٌ وَمَنَارًا . [٤] الطُّودُ: الْجِبَلُ، وَبَازِخٌ: عَالٍ . [٥] مَوَارٍ: مَاجٍ وَاضْطَرَبَ .
 [٦] أَلْبَلُوا رَأَلُوا: دَخَلُوا فِي اللَّيْلِ . [٧] الْغَنِيَّةُ وَالْهَبَةُ . [٨] الْهَرَبَةُ .

هذا الجواب؟ قال : لا يعلم الغيب إلا الله ، فقال : هكذا تكون والله الرجال ، المهلب كان أعلم بك حيث وجهك ، وأمر له بعشرة آلاف درهم ، وحمله على فرس ، وأوفده على عبد الملك بن مروان ، فأمر له بعشرة آلاف أخرى .

(الكامل للمبرد ٢ : ٢٣٢ ، والأغانى ١٣ : ٥٥ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ٤٠٥ ، وزهر الآداب ٣ : ١٣)

٣٨١ - سليك بن سلكة والحجاج

دخل على الحجاج سليك بن سلكة^(١) ، فقال :

« أصلح الله الأمير ! أعزني ممحك ، واغضض عني بصرك ، واكفف عني حزبك ، فإن سمعت خطأ أو زللاً فدوتك والعقوبة ، فقال : قل ، فقال : عصى حاص من عرض العشرة ، فخلق على اسمي ، وهدمت دارى ، وحرمت عطائى ، قال . هيهات ، أما سمعت قول الشاعر :

بَنايِكَ مَنْ يَجْنِي عَلَيْكَ وَرَبِّما تُعَدِي الصَّحَّاحَ مَبَارِكُ الْجُرْبِ^(٢)
وَلَرُبَّ مَا خُوِذَ بِذَنْبِ عَشِيرِهِ وَبِجَا الْمُقَارِفِ صَاحِبُ الذَّنْبِ

قل . أصلح الله الأمير ، سمعت الله قال غير هذا ، قال : وما ذاك ؟ قال : قال :
« يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبَا شَيْخًا كَبِيرًا ، فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ، إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ، قَالَ : مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذْنُ أَظْلَامُونَ . »

[١] هو غير سليك بن سلكة الذى ضرب به الثقل فى الدوء ، قيل : « أعدى من السليك » ، فإن سليكا العداء جاهلى ، (وهو سليك بن عمرو التميمي ، والسلكة أمه ، وهى أمة سوداء ، وكان أحد صمالك العرب ولصوصهم الداهين الذين لا يلحقون ، ولا تملق بهم الخيل إذا عدوا ، وم : السليك بن السلكة ، والشغرى ، ونأبط شرًا ، وعمرو بن براق ، وقيل بن براق) ، قال صاحب القاموس فى مادة غرب : « وأغربة العرب سوفاتهم ، والأغربة فى المبالغة : عنفة ، وخفاف بن ندية ، وأبو عمير ابن الحباب ، وسليك بن السلكة ، وهشام بن عتبة بن أبي معيط ، إلا أنه مخضرم قد ولى فى الإسلام ... الخ » ، وقال ابن نباتة فى سرح العيون « وهو جاهلى قديم » - انظر ترجمته فى سرح العيون ص ٨٠ والأغانى ١٨ : ١٢٣ - .

[٢] فى الأصل « جانيك من يجنى عليك وقد » على أن الروض حذاء كالضرب وهو صحيح ، ولكن رأى الروض فى البيت الذى يليه كلمة « فوضت » وربما « بدل » وقد « المشاكلة بين العرويين .

قال الحجاج : عليّ يزيد بن أبي مسلم^(١) ، فأُتي به فقتل بين يديه ، فقال :
افكك لهذا عن اسمه ، واصكك^(٢) له بمطأه ، وابن له منزله ، ومرر مناديا
ينادي في الناس ، صدق الله ، وكذب الشاعر . (العقد الفرید ٣ : ٦)

٣٨٢ - جامع المحاربي والحجاج

شكا الحجاج سوء طاعة أهل العراق ، وتنقم مذهبهم ، وتسخط طريقتهم ،
فقال له جامع المحاربي - وكان شيخا صالحا خطيبا لسا - : « أما إنهم لو أحبوك
لأطاعوك ، على أنهم ما شئتوك لنسبك ، ولا لبلدك ، ولا لذات نفسك ، فدع
ما يعدم منك ، إلى ما يقر بهم إليك ، والتيس العافية ممن دونك ، تُعطها ممن فوقك ،
وليكن إيقاعك بعد وعيدك ، ووعيدك بعد وعدك . قال الحجاج : « إني والله
ما أرى أن أردّ بني اللكية إلى طاعتي إلا بالسيف » ، فقال : « أيها الأمير ، إن
السيف إذا لاقى السيف ذهب الخيَار » ، فقال الحجاج : « الخيَار يومئذ لله » ،
قال : « أجل ، ولكن لا تدري لمن يجعله الله » ، فغضب الحجاج وقال :
« يا هناؤ^(٣) إنك من محارب » ، فقال جامع :

والحرب مُمينًا ، وكان محاربًا إذا ما القنا أسمى من الطمن أحمرًا
فقال الحجاج : « والله لَهَمَمْتُ أَنْ أَخْلَع لِسَانَكَ ، فَأَضْرِبَ بِهِ وَجْهَكَ » ، فقال
جامع : « إِنْ صَدَقْنَاكَ أَغْضَبْنَاكَ ، وَإِنْ غَشَشْنَاكَ أَغْضَبْنَا اللَّهَ » ، فغضب الأمير
أهون علينا من غضب الله قال : أجل ، وسكن ، وشغل الحجاج ببعض الأمر ،

[١] كاتب الحجاج . [٢] صك له كقتل : كتب له صكا ، وهو الكتاب الذي يكتب في
الأملاك : (التيك) . [٣] هن : كلمة يكتب بها عن اسم الإنسان ، فإذا ناديت مذكرا بغير التعرّج
باسمه قلت : يا هن أقبل ، وقد ترد الألف والهاء في آخره في اللفظ خاصة ، فيقال يا هناه أقبل ، أي
مافلان ، وهذه اللفظ تصير ناء في الوصل ، وقسم على تقدير أنها آخر الاسم وتكرار لاجتماع الساكنين .

فانسَلَّ جامع ، فرَّ بين صفوف خيل الشام ، حتى جاوز إلى خيل أهل العراق -
وكان الحجاج لا يَخْلُطُهُمْ - فَأَبْصَرَ كَبْكَبَةً ^(١) فيها جماعةٌ من بكر العراق ، وتيمم
العراق ، وأزد العراق ، وقيس العراق ، فلما رآوه أشرُّوا إليه ، وبلغهم خروجه ،
فقالوا له : ما عندك ؟ دافع الله لنا عن نفسك ، فقال : وَيَحْكُمُ اللهُ بِالْخُلْعِ كما
يَعْتَمِكُم بِالْعِداوَةِ ، وَدَعَا التَّعَادَى ما عاداكم ، فإذا ظفرتُم به تراجعتُم وتعاقبتُم ،
أيها التيمي : هو أعدى لك من الأزدي ، وأيها القيسي : هو أعدى لك من
التغلي ، وهل ظفرتُ بمن ناواه منكم إلا بمن بقي معه منكم ؟ وهرب جامع من
قوره ذلك إلى الشام ، فاستجار بِرُقْرِ بْنِ الْحَارِثِ .

(البيان والبيان ٢ : ٦٨ ، والقدر الفريد ٢ : ١٥١ - ١ : ١٥٢ ،

وعيون الأخبار م ٢ ص : ٢١٢ ، وزهر الآداب ٣ : ٢٣٠)

٣٨٣ - ليلي الأخيلية والحجاج

عَنْ مَوْلَى لَعْنَبَةَ بْنِ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِي قَالَ :

كنت أدخل مع عَنبَسَةَ بْنِ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِي إذا دخل على الحجاج ، فدخل
يوماً ، فدخلت إليهما ، وليس عند الحجاج أحد إلا عنبسة ، فأقعدني ، فجئ
الحجاج بِطَبَقٍ فِيهِ رُطَبٌ ، فأخذ الخادم منه شيئاً فجاءني به ، ثم جئ بِطَبَقٍ
آخر ، حتى كثرت الأطباق ، وجعل لا يأتون بشيء إلا جاءني منه بشيء ، حتى
ظننت أن ما بين يدي أكثر مما عندهما ، ثم جاء الحجابُ فقال : امرأة بالباب ،
فقال له الحجاج : أدخلها ، فدخلت ، فلما رآها الحجاج طأطأ رأسه ، حتى ظننت
أن ذقته قد أصاب الأرض ، فجاءت حتى قعدت بين يديه ، فنظرتُ فإذا امرأة قد
أسنَّت ، حَسَنَةُ الْخَلْقِ ، ومعها جاريتان لها ، وإذا هي لَيْلَى الْأَخِيلِيَّةُ ، فسألها

الحجاج عن نسبا، فانتسبت له ، فقال لها : يا ليلي ، ما أتى بك ؟ فقالت :
 « إخلاف النجوم »^(١) ، ورثة القيوم ، وكلب^(٢) البرد ، وشدة الجهد ، وكنت
 لنا بعد الله الرقد^(٣) ، فقال لها : صني لنا الفجاج^(٤) ، فقالت : « الفجاج
 مغبرة ، والأرض مقشيرة ، والمبرك^(٥) معتل ، وذو العيال مختل^(٦) ، والهلاك
 للقل^(٧) ، والناس مستنون^(٨) ، رحمة الله يَرْجُونَ ، أصابتنا سنون مجحفة^(٩)
 مبطلطة^(١٠) ، لم تدع لنا هبما^(١١) ولا ربما ، ولا عافطة ولا نافطة^(١٢) ، أذهبت
 الأموال ، ومزقت الرجال ، وأهلك العيال » ، ثم قالت : إني قلت في الأمير
 قولا ، قال : هاتي ، فأنشأت تقول :

أَحْجَاجٌ لَا يُقَلِّلُ سِلَاحُكَ ، إِنَّمَا أَلْمَنَّا بِكَفِّ اللَّهِ حَيْثُ رَأَاهَا^(١٣)

أَحْجَاجٌ لَا تُعْطِي الْمُصَاةَ مُنَاهُمْ وَلَا اللَّهُ يُعْطِي الْمُصَاةَ مُنَاهَا

إِذَا هَبَطَ الْحَجَاجُ أَرْضًا مَرِيضَةً تَتَّبِعُ أَقْصَى دَأْبِهَا فَشَفَاهَا

شَفَاهَا مِنَ الدَّاءِ الْمُضَالِ الَّذِي بَهَا غَلَامٌ إِذَا هَزَّ الْقَنَاةَ سَقَاهَا

سَقَاهَا فَرَوَاهَا بِشُرْبِ سِجَالِهِ دَمَاءَ رِجَالٍ حَيْثُ مَالِ حَشَاهَا^(١٤)

[١] أي أخلفت النجوم التي يكون بها للطر ، فلم تأت بطر . [٢] كلب البرد : شدته ، وأصل
 الكلب : السوار (بالضم) الذي يصيب الكلاب والذئب . [٣] الرقد (بالفتح) : الموت ، مصدر رقد
 كضربه : أماته وأعطاه ، وبالكسر : السقاء والملة . [٤] الفجاج جمع فج : بالفتح ، وهو الطريق
 الواسع بين جبلين . [٥] أرادت به الإبل الباركة فيه . [٦] مختل : عتاج من الخلقة بالفتح
 وهي الحاجة . [٧] للقل : أي حاله من أجل القلة . [٨] أي مضطرون ، والسنون الضبط .
 [٩] مجحفة : فاهرة ، وبطلطة : مزقة بالباط ، والباط : الأرض اللداء ، والمجبرة التي تخرش في الغارة
 وأبطل الرجل فهو مبطل : إذا ترقى بالأرض . [١٠] المصاة : الضائقة (النجدة) ، من العطف ، وهو
 الريع : الفصيل يتبع في الريع (وهو أول الناج) . [١١] عافطة : الضائقة (النجدة) ، من العطف ، وهو
 الضرب ، عطف كضرب : ضربت ، فهي عافطة ، والعطف أيضاً : تير الضأن ، تتر بأثوفها كما تتر الحمار ،
 والنافطة العنز ، من النطف ، سقط الذكر كضرب نثرت بأعها ، أو عطست ، فهي نافطة ، أو لاثها تنفط
 يولها أي تدسه دسا ، أو النافطة لإتباع لنافطة ، أو النافطة الامة الراعية ، والنافطة للشاة .
 [١٢] السلاج مذكر ويؤنث كما في هذا البيت . [١٣] السجال جمع سجل كشمس وهو اللؤلؤ المطيبة .

إِذَا سَمِعَ الْحِجَابُ رِزًّا كَتَبَتْهُ أَعَدَّ لَهَا قَبْلَ النُّزُولِ قِرَاهَا ^(١)
 أَعَدَّ لَهَا مَسْمُومَةً فَارِسِيَّةً بِأَيْدِي رِجَالٍ يَحْلُبُونَ صَرَاهَا ^(٢)
 فَمَا وَلَدَ الْأَبْكَارُ وَالْمَوْتُ مِثْلَهُ يَبْخِرُ وَلَا أَرْضٍ يَحْفُ ثَرَاهَا ^(٣)

قال : فلما قالت هذا البيت ، قال الحجاج : قَاتَلَهَا اللَّهُ ! والله ما أصاب صِفَتِي شاعرٌ منذ دخلتُ المراقَ غيرها ، ثم التفت إلى عنبسة بن سعيد ، فقال : والله إني لأَعِدُّ للأمر عسى أن لا يكون أبداً ، ثم التفت إليها فقال : حَسْبُكَ ! قالت : إني قد قلتُ أكثر من هذا ، قال : حَسْبُكَ ، وَيَحْكُ حَسْبُكَ ، ثم قال يا غلام ، اذهب إلى فلان فقل له : اقطع لسانها ، فذهب بها ، فقال له : يقول لك الأمير : اقطع لسانها ، فأمر بإحضار الحجام ، فالتفت إليه ، فقالت : ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ ! أما سمعتَ ما قال ؟ إنما أُمِرُك أن تقطع لسانى بالصَّلَّة ، فبعت إليه يَسْتَنْبِتُهُ ، فاستشاط الحجاج غَضَبًا ، وحمَّ بقطع لسانه ، وقال : ارزُدْها ، فلما دخلت عليه ، قالت : كَادَ وَأَمَانَةُ اللَّهِ يَقْطَعُ مِقْوَلِي ! ثم أنشأت تقول :

حَجَّاجُ أَنْتَ الَّذِي مَا فَوْقَهُ أَحَدٌ إِلَّا الْخَلِيفَةُ وَالْمُسْتَغْفَرُ الصَّمَدُ ^(٤)
 حَجَّاجُ أَنْتَ شِهَابُ الْحَرْبِ إِنْ لَقِيتِ وَأَنْتِ لِلنَّاسِ نَوْرٌ فِي الدُّجَى يَقْدُ ^(٥)
 ثم أقبل الحجاج على جلسائه ، فقال : أتدرون من هذه ؟ قالوا : لا والله أيها الأمير ، إلا أنا لم تَرَ قطُّ أفصحَ لسانًا ، ولا أحسنَ محاورَةً ، ولا أملحَ وجهًا ، ولا أُرصَنَ شعرًا منها ، فقال : هذه ليلي الأَخيلية ، التي ماتت تُوْبَةُ الْخَفَّاجِيَّ مِنْ حُبِّهَا ، ثم

[١] الرِّزُّ: الصوت تسمعه من بعيد . [٢] العرى : بقية العن . [٣] اللون جمع موان كحلب ، وحن التي كان لها زوج . [٤] الصمد : الذي يصمد أى يقيم في قضاء الحاجات .
 [٥] لقيت : أمه من لقيت الناقة أى قبلت الفلاح ، والشهاب : شملة من ثار ساطعة ، ويعد يتوقد

التفت إليها فقال : أنشدينا يا ليلي بعض ما قال فيك توبة ، قالت : نعم أيها الأمير هو الذي يقول :

وهل تبكين ليلى إذا مِتُّ قبلها وقام على قبري النساء النوائح ؟
كما لو أصاب الموت ليلى بكيتها وجاد لها دمع من العين سافح^(١)
وأغبط من ليلى بما لا أناله بلى ، كل ما قرئت به العين طامح
ولو أن ليلى الأخيلية سلمت على ، ودوني جندل وصفايح^(٢)
لسلمت تسليم البشاشة أوزقا إليها صدى من جانب القبر صائح^(٣)

فقال : زيدنا من شعره يا ليلي ، قالت : هو الذي يقول :

حامة بطن الواديين ترمني سقالك من الثمر النواذى مطيرها^(٤)
أبينى لنا ، لا زال ريشك ناعما ولا زلت في خضراء غصن نصيرها
وكنت إذا ما زرت ليلى تبرقمت فقد رآيتي منها المداة سُفورها
وقد رآني منها صدود رأيت وإعراضها عن حاجتى وبُسورها^(٥)
وأشرف بالقور اليقاع لعلنى أرى نار ليلى أويرانى بصيرها^(٦)
يقول رجال : لا يصيرك نأيا بلى ، كل ما شفت النفوس يصيرها
بلى ، قد يصير العين أن تُكثرا بك ويمنع منها نوتها وسرورها
وقد زعمت ليلى بأنى فاجر لنفسي ثقاها ، أو عليها فجورها

[١] - سافح : منصب . [٢] الجندل : المجبرة ، والمصافح : حجارة القبر العرائس .

[٣] زقا : صاح ، والصدى - وهو الهامة - طائر يخرج من رأس المقتول ، تزعج الأعراب أن روح القاتل تخرج ، قصير هامة إذا لم يدرك بثأره ، فيصبح على قبره : اسقون اسقوني حتى يثار به ، وهذا مثل يراد به تحريض ولى القاتل على طلب دمه ، فله جلة الأعراب حقيقة . [٤] النواذى جمع غاذية : وهى الحماة تنشأ غداة . [٥] بسر كمدخل : عبس وكلع . [٦] القور جمع قارة : وهى الجبل الصغير للقطع عن الجبال ، واليقاع : الل .

فقال الحجاج : يا ليلي ، ما الذي رآته من سُفورك ؟ فقالت : أيها الأمير ، كان يُلبِّمُ بني كثيرًا ، فأرسل إليَّ يومًا : إني آتيكِ ، وقَطِنِ الحى ، فأرصدوا له ، فلما أتاني سَفَرْتُ عن وجهي ، فعلم أن ذلك لِشَرٍّ ، فلم يزد على التسليم والرجوع ، فقال : لله درُّك ! فهل رأيت منه شيئًا تَكْرهينه ؟ فقالت : لا والله الذي أسأله أن يُصْلِحَكَ ، إنه قال مرة قولًا ظننتُ أنه قد خضعَ لبعض الأمر ، فأنشأتُ أقول :

وذى حاجةٍ قلنا له لا تَبْجُ بها فليس إليها ما حَيَّتَ سبيلُ
لنا صاحبٌ لا يَبْنِي أن نخوَّته وأنت لأخرى صاحبٌ وخليطُ

فلا والله الذي أسأله أن يصلحك ، ما رأيت منه شيئًا ، حتى فرَّق الموت بيني وبينه ، قال : ثم مه ؟ قالت : ثم لم يلبث أن خرج في غَزاة له ، فأوصى ابن عم له ، إذا أتيت الحاضِرَ من بني عبادة فنادِ بأعلى صوتك :

عفا الله عنها ، هل أيتنَّ ليلةً من الدهر لا يَسْرِي إلى خيالها ؟
وأنا أقول :

وعنه عفا ربِّي وأحسنَ حاله فَعَزَّتْ علينا حاجةٌ لا ينالها
قال : ثم مه ؟ قالت : ثم لم يلبث أن مات ، فأتانا نعيه ، فقال : أنشدنا بعض مرثييك فيه ، فأنشدت :

لَيْتَكَ الْعَذَارَى مِنْ خَفَاجَةٍ نِسْوَةٍ بماء شُئُونِ الْعَبْرَةِ الْمُتَحَدَّرِ^(١)
قال لها : فأنشدنا ، فأنشدته :

[١] الشئون جمع شأن : وهو مجرى الدمع إلى العين ، وكتب صحيح الأمال قال : « قوله المتحدر ، كذا في النسخ ، وكتب بهامش بعضها لله المتحادر بالألف قبل الهمزة ، لتستقيم القافية ، وفي هامش بعض النسخ بعد البيت الآتي :

فنى لا تخطاه الرقاق ، ولا يرى لغير عبالا دون جار مجاور » اهـ

كَأَنَّ فِي الْفَتَيَانِ تَوْبَةً لَمْ يُبْعَخْ فَلَا يَمْنَعُ يَفْحَصُنَ الْحَصَى بِالْكَرَاكِ^(١)
 فلما فرغت من القصيدة ، قال مَحْصَنُ الْفَقْمَعِي : - وكان من جلساء الحجاج -
 مَنْ الَّذِي يَقُولُ هَذِهِ هَذَا فِيهِ ؟ فَوَاللَّهِ إِنِّي لَا أَظْنُهَا كَاذِبَةً ، فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَتْ :
 أَيُّهَا الْأَمِيرُ إِنَّ هَذَا الْقَائِلَ لَوَرَأَى تَوْبَةَ لِسَرِّهِ أَنْ لَا تَكُونَ فِي دَارِهِ عَذْرَاءٌ إِلَّا هِيَ
 حَامِلٌ مِنْهُ ، فَقَالَ الْحَجَّاجُ : هَذَا وَأَيُّكَ الْجَوَابُ ، وَقَدْ كُنْتُ عَنْهُ غَنِيًّا ، ثُمَّ قَالَ
 لَهَا : سَلِي يَا لَيْلَى تُعْطَى ، قَالَتْ : أُعْطِ ، فَتِلْكَ أُعْطِيَ فَأَحْسَنَ ، قَالَ : لَكَ
 عَشْرُونَ ، قَالَتْ : زِدْ فَتِلْكَ زَادَ فَأَجَلَ ، قَالَ : لَكَ أَرْبَعُونَ ، قَالَتْ : زِدْ ، فَتِلْكَ
 زَادَ فَأَكْمَلَ ، قَالَ : لَكَ ثَمَانُونَ ، قَالَتْ : زِدْ ، فَتِلْكَ زَادَ فَتَمَّ ، قَالَ : لَكَ مِائَةٌ ،
 وَاعْلَمِي أَنَّهُمَا غَنِمَ ، قَالَتْ : مَعَاذَ اللَّهِ أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، أَنْتَ أَجْوَدُ جُودًا ، وَأَعْجَدُ مَجْدًا ،
 وَأَرْوَى زَنْدًا ، مِنْ أَنْ تَجْعَلَهَا غَنِمًا ، قَالَ : فَهِيَ ؟ وَتَحْكُمُ يَا لَيْلَى ؟ قَالَتْ : مِائَةٌ
 مِنَ الْإِبِلِ بَرْحَاتِهَا ، فَأَمَرَ لَهَا بِهَا ، ثُمَّ قَالَ : أَلَاكِ حَاجَةٌ بَعْدَهَا ؟ قَالَتْ : تَدْفَعُ إِلَى
 النَّابِئَةِ الْجَمْدِي ، قَالَ : قَدْ فَعَلْتُ ، وَقَدْ كَانَتْ تَهْجُوهُ وَيَهْجُوها ، فَبَلَغَ النَّابِئَةُ
 ذَلِكَ ، فَخَرَجَ هَارِبًا عَائِدًا بِعَبْدِ الْمَلِكِ ، فَاتَّبَعَتْهُ إِلَى الشَّامِ ، فَهَرَبَ إِلَى قُتَيْبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ
 بِخُرَّاسَانَ ، فَاتَّبَعَتْهُ عَلَى الْبَرِيدِ بَكْتَابِ الْحَجَّاجِ إِلَى قُتَيْبَةَ ، فَاتَتْ بِقَوْمَس^(٢) ،
 وَيُقَالُ بِمُحْلَوَانِ .

(الأمالي ١ : ٨٦ ، وزهر الآداب ٣ : ٢٦٥)

٣٨٤ — الغضبان بن القبيش والحجاج

ورد على الحجاج كتاب من عبد الملك ، يأمره أن يبعث إليه بثلاثين جارية ،
 عَشْرًا مِنَ النِّجَاجِ ، وَعَشْرًا مِنْ قَعْدِ النِّكَاحِ ، وَعَشْرًا مِنْ ذَوَاتِ الْأَحْلَامِ ، فَلَمَّا

[١] الفلاس جمع قوم كسور ، وهي النافذة الشابة ، أو الباقية على البير ، يمحسن : يقلن ، من
 غس للعر التراب قلبه ، وغس انطأ التراب : اتخذ فيه أخوصا وهو مجننه ، والكرار جمع كركرة
 بالكسر : وهي زور البير . [٢] قومس : صنع كبير بين خراسان وبلاد الجبل .

نظر إلى الكتاب لم يدرك ما وصّفه من الجوارى ، فعرضه على أصحابه فلم يعرفوه ، فقال له بعضهم : أصلح الله الأمير ، ينبغي أن يعرف هذا من كان في أوليته بدويًا ، فله معرفة أهل البدو ، ثم غزا فله معرفة أهل التزو ، ثم شرب الشراب ، فله بداء أهل الشراب ، قال : وأين هذا ؟ قيل : في حبسك ، قال : ومن هو ؟ قيل النضبان الشيباني ، فأحضر فلما مثل بين يديه ، قال : أنت القاتل لأهل الكوفة يتندون بي قبل أن أتمشي بهم ^(١) ؟ قال : أصلح الله الأمير ، ما نعتت من قالمها ، ولا ضرت من قلت فيه ، قال : إن أمير المؤمنين كتب إلي كتابًا لم أدر ما فيه ، فهل عندك شيء منه ؟ قال : يُقرأ عليّ ، فقرأ عليه ، فقال : هذا يئن ، قال : وما هو ؟ قال : « أما النجبة من النساء : فالتى عظمت هامتها ، وطال عنتها ، وبعد ما بين منكيها وتذيتها ، واتسمت راحتها ، وتختبر كبتها ، فهذه إذا جاءت بالولد جاءت به كالأيت ؛ وأما قعد النكاح ، فهن ذوات الأنجاز ، منكسرات الثدي ، كثيرات اللحم يقرب بعضهن من بعض ، فأولئك يشفين القرم ، ويؤوين الظمان ؛ وأما ذوات الأحلام ، فبنات خمس وثلاثين إلى الأربعين ^(٢) .

قال الحجاج : أخبرني بشر النساء ، قال : أصلح الله الأمير : شرهن الصغيرة الثقب ^(٣) ، الحديدية الركبة ، السريعة الوثبة ، الواسطة ^(٤) في نساء الحى ، التى إذا غضبت غضب لها مائة ، وإذا سمعت كلمة قالت لا والله لا أتهدى حتى أقرها

[١] انظر خطبته في ص ٣٢٠ . [٢] القرم بحركة : شدة شهوة اللحم ، وكثر حتى قيل في الشرق إلى الحبيب . [٣] هنا سطر أسقطناه ، فليظرو في الأصل من شاء . [٤] الوجه . [٥] وسطهم (كوعد) : جلس وسطهم ، كتوسطهم .

قَرَارَهَا ، التي في بطنها جارية ، ويتبعها جارية ، وفي جحرها جارية ، قال الحجاج :
 على هذه لعنة الله ، ثم قال : وَيَمُحُ ، فأخبرني بخير النساء ، قال : خيرهن القريةُ
 القائمة من السماء ، الكثيرة الأخذ من الأرض ، الوُدُود الوُلُود ، التي في بطنها غلام ،
 وفي جحرها غلام ، ويتبعها غلام ، قال : وَيَمُحُ فأخبرني بشر الرجال ، قال : شرهم
 السُّنُوط ^(١) الرُّبُوط ، المحمود في حرَم الحَيِّ ، الذي إذا سقط لأحدهن دَلُوٌّ في
 بئر ، انحطَّ عليه حتى يُخْرِجَه ، فهن يُخْرِزِنه الخير ، ويقلن عاقى الله فلاناً ، قال :
 على هذا لعنة الله ، فأخبرني بخير الرجال ؟ قال : خيرهم الذي يقول فيه الشَّمَاخ التنكبي :
 فَنِي لَيْسَ بِالرَّاضِي بِأَدْنَى مَعِيشَةٍ وَلَا فِي يَوْتِ الْحَيِّ بِالتَّوَلُّجِ ^(٢)
 فَنِي يَمَلَأُ الشَّيْزَى وَيُرْوِي سِنَانَهُ وَيَضْرِبُ فِي رَأْسِ الْكَمِيِّ الْمُدَجِّجِ ^(٣)
 فقال له : حَسْبُكَ ، كم حَبَسْنَا عطاءك ؟ قال : ثلاث سنين ، فأمر له بها
 وخلق سبيله . (مروج الذهب ٢ : ١٤٧)

٣٨٥ — ابن القرية يعدد مساوي المزاح

وقال الحجاج بن يوسف لابن القرية : ما زالت الحكماء تنكره المزاح وتنعى
 عنه ، فقال : « المزاح من أدنى منزلته إلى أقصاها عشرة أبواب : المزاح أوْلُهُ
 فَرَح وآخره تَرَح ، المزاح تقاض السفهاء كالشعر تقاض الشعراء ، والمزاح
 يُوغِر صدر الصديق ، وينفّر الرفيق ، والمزاح يُبْدِي السرائر ، لأنه يُظهر المعابر ،
 والمزاح يُسْقِط المُرُوءة ، وَيُبْدِي الحَنَاء ، لم يَحْمَرَّ المزاح خيراً وكثيراً ما جَرَّ شراً ،

[١] السنوط : التي لاشعر في وجهه ألبنة « الكوسج » بكسر ، وفي الأمل « البوط » بإباء ،
 ولم أجده في كتب اللغة ، وإنما أتى فيها من هذه اللفظة : « أسبط بالأرض : اسق » فالوصف منه
 « مسبط » ومنه على هذا : الكسل التقاعد من السعي ، والربوط ، يريد به لللازم ليجه الذي لا يخرج
 منه للتصرف والعمل كأنه قد ربط نفسه فيه . [٢] الفاضل .
 [٣] التيزي : ختب أسود تتخذ منه الفصاع ، يكنى عن كرمه ، والمجج : الشاك في الملاح .

الغالبُ بالمزاح وإِثره، والمغالوب به نأثر، والمزاح يَحْلِبُ الشتمَ صغيره، والحربَ كبيره، وليس بعد الحرب إلا عفوٌ بعد قدرة، فقال الحجاج: «حسبك، الموت خير من عفوٍ معة قدرة». (زهر الآداب ٢ : ٨٥)

٣٨٦ — يزيد بن أبي مسلم وسليمان بن عبد الملك

لَمَّا وَلِيَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ، أُنِّيَ يَزِيدُ بْنُ أَبِي مُسْلِمٍ: مَوْلَى الْحَجَّاجِ، فِي جَامِعَةٍ^(١)، وَكَانَ رَجُلًا دَمِيًّا تَقْتَحِمُهُ^(٢) الْعَيْنُ، فَلَمَّا رَأَى سُلَيْمَانُ قَالَ: لَعَنَ اللَّهُ أَمْرًا أَجْرَكَ رَسَنَكَ^(٣)، وَقَوَّلَى مِثْلَكَ، فَقَالَ: «يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّكَ رَأَيْتَنِي وَالْأَمْرَ عَنِي مُذْبِرٌ، وَلَوْ رَأَيْتَنِي وَالْأَمْرَ عَلَى مُقْبِلٍ، لَاسْتَعْظَمْتَ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَصَفَرْتَ، وَلَا اسْتَجَلَلْتَ مَا اسْتَحْقَرْتَ»، فَقَالَ لَهُ سُلَيْمَانُ: «أَيْنَ تَرَى الْحَجَّاجَ، أَيَهْوَى فِي النَّارِ، أَمْ قَدْ اسْتَقَرَّ فِي قَعْرِهَا؟»، فَقَالَ: «يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، لَا تَقُلْ هَذَا، إِنَّ الْحَجَّاجَ قَعَّ لَكُمْ الْأَعْدَاءَ، وَوَطَأَ لَكُمْ الْمَنَابِرَ، وَزَرَعَ لَكُمْ الْهَيْيَةَ فِي قُلُوبِ النَّاسِ، وَبَعْدُ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ عَيْنِ أَيْيِكَ، وَشِمَالِ أَخِيكَ الْوَلِيدِ، فَضَعَهُ مِنَ النَّارِ حَيْثُ شِئْتَ»، فَصَاحَ سُلَيْمَانُ: أَخْرَجْ إِلَى لَعْنَةِ اللَّهِ، ثُمَّ التَفَتَ إِلَى جُلَسَائِهِ، فَقَالَ:

[١] الجامعة: القيد. [٢] تزدريه. [٣] الرسن: الجبل، وأجره رسنه: تركه يصنع ما شاء، يعني الحجاج، وكان سليمان يكتب إلى الحجاج في أيام أخيه الوليد بن عبد الملك كتاباً لا ينظر له فيها، فحقد عليه، وكتب إليه كتاباً شديد الالهبة، وفيه يقول «وأيام الله لثأماً مكنتي الله منك لأدوسك دوسة تلين منها فرائصك، ولأطعنك شريفاً في الجبال، تلوذ بأطراف الشمال» ويقول: «فرويدك حتى تنظر كيف يكون مصيرك إن كانت بي وبك مدة ألتقي بها» فرد عليه الحجاج بكتاب يقول فيه: «ولسرى لك لصي حديث السن تسدر بقلة عقلك، وحدانة سنك، وبرقب فيك غيرك» ويقول: «جمعت أموراً دلاك فيها الشيطان على أسوأ أمرك، فكان الجفاء من خليقتك، والحق من طبيعتك، وأقبل الشيطان بك وأدبر... الخ» انظر القند الفريد ج ٣ ص ١٦، وقد مات الحجاج قبل أن يحول سليمان الخلافة بسنة.

قَبَّحَهُ اللَّهُ مَا كَانَ أَحْسَنَ تَرْبِيَّتِهِ لِنَفْسِهِ وَلِصَاحِبِهِ ، وَلَقَدْ أَحْسَنَ الْمَكَافَأَةَ ،
أَطْلَقُوا سَبِيلَهُ . (أمال البید المرتضی ١ : ٢١٥ ، والقند الفريد ١ : ١٥٠ ،

ومروج الذهب ٢ : ١٦٤ ، والبيلا والتبيين ١ : ٢١٠)

٣٨٧ - وفود العراق على سليمان بن عبد الملك

وقد تمت وفود العراق على سليمان بن عبد الملك بعد ما استخلف ، فأمرهم بستم
الحجاج ، فقاموا يشتمونه ، فقال بعضهم : « إن عدو الله الحجاج كان عبدا زبانا »^(١) ،

[١] بائع زبيب ، قيل إنه كان يبيع الزبيب بالطائف ، وذكروا أنه كان أول أمره يعلم الصبيان مع أبيه
بالطائف - ويسمى كليباً - وفيه يقول الشاعر .

أبني كليب زمان الهزال وتعلمه سورة الكوثر ؟

رغيف له فلك دائر وآخر كالحمر الأهر

« يشير إلى خبز المملوك ، فإنه مختلف في الصغر والكبر على قدر بيوت الصبيان » ويقول آخر :

فلولا بنو مروان كان ابن يوسف كما كان عبداً من عبيد إباد

زمان هو البعد للفر بذهل يروح صبيان القرى وينادي

« راحهم وروّحهم : ذهب إليهم رواحاً » ، ثم صار دباً كما يدل على ذلك هجاء كعب الأشقرى له ،
وذلك أن المهلب بن أبي صفرة لما أطال قتال الأزارقة ، كتب إليه الحجاج يستبطله ويضعفه ويجزئه في
تأخير مناجرتهم ، فقال المهلب لرسوله : « قل له : إن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب ، فإن كنت نصبتني
لحرب هؤلاء القوم على أن أدبرها كما أرى ، فإن أمكنتني الفرصة انتزعتها ، وإن لم تمكني فأنا أدبر ذلك
بما يصلحه ، وإن أردت مني أن أحمل برأيك وأنت غائب ، فإن كان صواباً ففك ، وإن كان خطأ فقل » ،
فأبى من رأيته مكاني » وقام كعب الأشقرى إلى المهلب ، فأنتدبه بحضرة رسول الحجاج أياً ما منها :

إن ابن يوسف غرّه من غزوكم خفض اللقاص بجانب الأمصل

لو شاهد المغيث حين تلاقيا ضاقت عليه رحمة الأقطار

ورأى معاودة الدياغ غنية أزمان كان محائف الإقطار

فلنت آياته الحجاج ، فكتب إلى المهلب يأمره بإيصاله كعب الأشقرى إليه ، فأعلم المهلب كعباً بذلك ،
وأوفده إلى عبد الملك من ليلته ، وكتب إليه يستوحيه منه فقدم كعب على عبد الملك واستنشد ، فأعجبه
ما سمع منه ، فأوفده إلى الحجاج ، وكتب إليه يضم عليه أن يفتو عنه ، فلما دخل عليه قال : إيه يا كعب ،
« ورأى معاودة الدياغ غنية » ا فقال له : أيها الأمير ، والله لقد وددت في بعض مشاهدته في تلك
الحروب وأزماتها ، وما يوردناه المهلب من خطرهما ، أن أنجو منها ، وأكون حياهما ، أو حائكا ، فقال
له الحجاج : أولئك ، لولا قسم أمير المؤمنين لما خضك ما أسمع ، فالحق صاحبك ، وبس الرواد يتكر
هذا القول ، ويقول : هذه من أكاذيب الشعراء ، - انظر الأغانى ج ١٣ ص ٥٧ ، وشرح البيون
ص ١١٢ ، والقند الفريد ٢ : ٦ - .

فَتَوَرَّبَن قَنَوْر^(١) ، لَا تَسَبَّ لَهُ فِي الْعَرَبِ « قَالَ سَلِيمَانُ : أَيُّ شَتْمٍ هَذَا !
 إِنْ عَدُوَّ اللَّهِ الْحِجَابُ كَتَبَ إِلَيَّ : « إِنَّمَا أَنْتَ تَقْطَعُ مِنْ مِدَادٍ ، فَإِنْ رَأَيْتَ
 فِيَّ مَا رَأَى أَبُوكَ وَأَخُوكَ كُنْتَ لَكَ كَمَا كُنْتَ لَهَا ، وَإِلَّا فَأَنَا الْحِجَابُ وَأَنْتَ
 النُّقْطَةُ ، فَإِنْ شَتَّتَ مَحَوْتُكَ ، وَإِنْ شَتَّتَ أَثْبَتْتُكَ « فَالْعَنُوهُ لَعْنَةُ اللَّهِ ، فَأَقْبَلَ
 النَّاسُ يَلْعَنُونَهُ ، فَقَامَ ابْنُ أَبِي بُرْدَةَ بْنُ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ فَقَالَ : « يَا أَمِيرَ
 الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّا نَخْبِرُكَ عَنْ عَدُوِّ اللَّهِ بِعِلْمٍ « قَالَ : هَاتِ ، قَالَ : « كَانَ عَدُوَّ اللَّهِ
 يَتَزَيَّنُ تَزْيِنَ الْمُؤْمِسَةِ^(٢) ، وَيَصْعَدُ الْمُنْبِرَ فَيَتَكَلَّمُ بِكَلَامِ الْأَخْيَارِ ، فَإِذَا نَزَلَ عَمِلَ
 عَمَلِ الْفَرَاعِنَةِ ، وَأَكْذَبُ فِي حَدِيثِهِ مِنَ النَّبَالِ « ، فَقَالَ سَلِيمَانُ لِرَجَاءِ بْنِ حَبَّوَةَ :
 « هَذَا وَأَيُّكَ الشَّتْمُ ، لَا مَا تَأْتِي بِهِ السَّفِيلَةُ^(٣) » . (الْبَيَانُ وَالتَّبَيُّنُ ١ : ٢١١)

٣٨٨ — كَلَامُ أَبِي حَازِمٍ لِسَلِيمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ

حَجَّ سَلِيمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ ، فَلَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ لِلزِّيَارَةِ بَعَثَ إِلَى أَبِي حَازِمٍ
 الْأَعْرَجِ ، وَعِنْدَهُ ابْنُ شِهَابٍ ، فَلَمَّا دَخَلَ قَالَ : تَكَلِّمْ يَا أَبَا حَازِمٍ . قَالَ : فِيمَ
 أَتَكَلِّمُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ قَالَ : فِي الْمَخْرَجِ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ . قَالَ : يَسِيرُ إِنْ أَنْتَ
 فَمَلَّتْهُ . قَالَ : وَمَا ذَاكَ ؟ قَالَ : لَا تَأْخُذْ الْأَشْيَاءَ إِلَّا مِنْ حِلِّهَا ، وَلَا تَضَعُهَا إِلَّا فِي
 أَهْلِهَا . قَالَ : وَمَنْ يَقْوَى عَلَى ذَلِكَ ؟ قَالَ : مَنْ قَلَّدَهُ اللَّهُ مِنْ أَمْرِ الرِّعْيَةِ مَا قَلَّدَكَ ،
 قَالَ : عَظَنِي أَبَا حَازِمٍ . قَالَ : اعْلَمْ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ لَمْ يَصِرْ إِلَيْكَ إِلَّا بِمَوْتِ مَنْ كَانَ
 قَبْلَكَ ، وَهُوَ خَارِجٌ مِنْ يَدَيْكَ بِمَثَلِ مَا صَارَ إِلَيْكَ . قَالَ : يَا أَبَا حَازِمٍ أَشْرَ عَلَىَّ ، قَالَ
 إِنَّمَا أَنْتَ سَوَقٌ ، فَاسْتَفَقَ^(٤) عِنْدَكَ مُجْلٍ إِلَيْكَ مِنْ خَيْرِ أَوْشَرٍ ، فَاخْتَارَ أَيُّهُمَا شَتَّتَ .

[١] الْقَنَوْرُ : الثَّرْسُ الصَّعْبُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَكَثُورُ : الْعَبْدُ . [٢] إِرَاءَةُ مُوسَى وَمُؤْمِسَةٍ :
 فَاجِرَةٌ ، أَوْ مَجَامِرَةٌ بِالْفُجُورِ « مِنْ الْوَسْوَاسِ كَوَعْدٍ » وَهُوَ احْتِكَاكُ النَّاسِ بِالنَّاسِ حَقَّ يَنْجَرِدُ ، وَأَوْمَسَتْ :
 أَمْسَكَتْ مِنَ الْوَسْوَاسِ » . [٣] سَفِيلَةُ النَّاسِ كَتِفَةٌ وَفَرَحَةٌ : أَسَافِلُهُمْ وَغَوَظُهُمْ . [٤] رَاجَ .

قال : مالك لا تأتينا ؟ قال : وما أصنع بإتيانك يا أمير المؤمنين ؟ إن أدبني فتتني ، وإن أقصيتني أخزيتني ، وليس عندك ما أرجوك له ، ولا عندى ما أخافك عليه . قال : فارفع إلينا حاجتك . قال : قد رفعتها إلى من هو أقدر منك عليها ، فإعطاني منها قبلتُ ، وما منعتني منها رضىتُ .

(الغد الفريد ١ : ٣٠٦ ، والبيان والبيان ٣ : ٧٢)

٣٨٩ — أبو حازم وسليمان بن عبد الملك أيضاً

ودخل عليه أبو حازم الأعرج ، فقال يا أبا حازم : ما لنا نكره الموت ؟ فقال : لأنكم عمرتم دنياكم ، وأخرجتم آخرتكم ، فأنتم تكرهون الثقلة من العمران إلى الخراب ، قال : فأخبرني ، كيف القدوم على الله ؟ قال : أما المحسن فكالنائب يأتي أهله مسروراً ، وأما المسيء فكالعبد الآبق ^(١) يأتي مولاه محزوناً ، قال : فأى الأعمال أفضل ؟ قال : أداء الفرائض مع اجتناب المحارم ، قال : فأى القول أعدل ؟ قال : كلمة حق عند من تخاف وترجو ، قال : فأى الناس أعقل ؟ قال : من عمل بطاعة الله ، قال : فأى الناس أجهل ؟ قال : من باع آخرته بدنيا غيره ، قال : عظمى وأوجز ، قال : يا أمير المؤمنين ، نرّم ربك ، وعظمه أن يراك حيث نهاك ، أو يفقدك حيث أمرك ، فبكى سليمان بكاء شديداً ، فقال له بعض جلسائه : أسرفت ونجحت على أمير المؤمنين ، فقال له أبو حازم : أسكت فإن الله عز وجل أخذ الميثاق على العلماء ليديننّه للناس ولا يكتمونونه ، ثم خرج فلما صار إلى منزله بعث إليه سليمان بقال ، فردّه وقال للرسول : قل له : والله يا أمير المؤمنين ما أرضاه لك ، فكيف أرضاه لنفسى ؟ (مروج الذهب ٢ : ١٦٤ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ م : ١٤٧)

[١] الآبق : المارِب .

٣٩٠ - وفد أهل الحجاز عند عمر بن عبد العزيز

لما استخلف عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، قَدِمَ عليه وفود أهل كل بلد ، فتقدم إليه وفد أهل الحجاز ، فأشرأب منهم غلام للكلام ، فقال عمر : مهلاً يا غلام ، ليتكلم من هو أسنُّ منك ، فقال الغلام : مهلاً يا أمير المؤمنين ، إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه ، فإذا منح الله العبدَ لساناً لا فِظاً ، وقلباً حافظاً ، فقد استجاد له الحليَّةُ ، ولو كان التقدم بالسِّنِّ لكان في هذه الأمة مَنْ هو أحقُّ بمجلسك منك ، فقال عمر : صدقتَ ، تكلم ، فهذا السَّحر الحلال ، فقال : يا أمير المؤمنين ، نحن وفد التهنة لا وفد المُرزقة ^(١) ، قدِمنا إليك من بلدنا ، نحمد الله الذي مَنَّ بك علينا ، لم يُخرجنا إليك رغبة ولا رهبة ، لأننا قد آمنا في أيامك ما خِفْنَا ، وأدركنا ما طَلَبْنَا ، فقال : عِظْنَا يا غلام وأوجِزْ ، قال : نعم يا أمير المؤمنين ، إن أنا سَأَرْتُم حِلْمُ الله عنهم : وطولُ أَمَلِهِمْ ، وحسنُ ثناء الناس عليهم ، فلا يفرِّتْك حِلْمُ الله عنك ، وطولُ أَمَلِك ، وحسنُ ثناء الناس عليك ، فزِلْ قَدَمَكَ ، فنظر عمر في سن الغلام ، فإذا هو قد أَّتَتْ عليه بضعةُ عشرة سنة ^(٢) ، فأنشأ عمر يقول :

تعلم فليس المرء يولد عالماً وليس أخو علم كمن هو جاهل

وإن كبير القوم لا عِلْمَ عنده صغيرٌ إذا التفت عليه المحافل

(مروج الذهب ٢ : ١٦٦ ، وزهر الآداب ١ : ٩)

٣٩١ - خالد بن صفوان يعزى عمر بن عبد العزيز ويهتبه

وعزى خالد بن صفوان عمر بن عبد العزيز وهنأه بالخلافة ، فقال :

[١] رزاه ماله كجمل وعلم : أصاب منه شيئاً ، ورزاه مرزقة : أصاب منه خيراً ، أى لساناً واندِين لعمناء . [٢] وفي زهر الآداب : «سأل عمر عن سن الغلام فقيل ثلثين» .

« الحمد لله الذى مَنَّ على الخلق بك ، والحمد لله الذى جعل موتكم رحمة .
وخلافكم عِصمة ، ومصابكم أُسوةً ، وجعلكم قدوة » . (زهر الآداب ٣ : ٢٤٧)

٣٩٢ - خطبة عبد الله بن الأَهم

دخل عبد الله بن الأَهم على عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - تعالى مع العامة ،
فلم يَجِبْأَ عمر إلا وهو مائلٌ مِين يديه يتكلم ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« أما بعد ، فإن الله خَلَقَ الخلق ، غنياً عن طاعتهم ، آمناً من معصيتهم ،
والناسُ يومئذٍ فى المنازل والرأى مختلفون ، والعربُ بِشَرِّ تلك المنازل ، أهل الوَبَرِ
وأهل المدَر ، تُحتَارُ دونهم طيباتُ الدنيا وَرَقَاغَةٌ ^(١) عِيشَتِهَا ، مَيْتَهُمْ فى النار ،
وحَيْثُهم أَعْمَى ، مع ما لا يُحْصَى من المرغوب عنه ، والمزهود فيه ، فلما أراد الله أن
يَنْشُرَ فيهم رحمته ، بعث إليهم رسولا منهم « عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ
عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » ، فلم يَنْعَمْهم ذلك أن جَرَحَوه فى جسمه ،
ولقَبَوه فى اسمه ^(٢) ، ومعه كتاب من الله لا يَرُحَلُ إلا بأمره ولا يَنْزِلُ إلا بِإِذْنِهِ ،
واضطروه إلى بطن خَار ، فلما أَمَرَ بالمَرْيعة أسْفَرَ لأمر الله لوْثُهُ ، فأَقْلَجَ ^(٣) الله
حُجَّتَهُ ، وأعلى كلمته ، وأظهر دعوته ، ففارق الدنيا نَقِيّاً تَقِيّاً ، صلى الله تعالى عليه
وسلم ، ثم قام بعده أبو بكر رضى الله تعالى عنه ، فسلك سُنَّتَهُ وأخذ سَبِيلَهُ ،
وارتدت العرب فلم يقبل منهم بعد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إلا الذى
كَانَ قابلاً منهم ، فانتضى السيوف من أَعْمَادِهَا ، وأوقد النيران من شَعْلِهَا ، ثم
ركب بأهل الحق أهلَ الباطل ، فلم يَبْرَحْ يَفْصِلُ أوصالهم ، ويسقى الأرضَ
دماءً ، حتى أدخلهم فى الذى خرجوا منه ، وقرَّهم بالذى نفروا منه ، وقد كَانَ

[١] الرقاغة والرغاغة : سمة البيش والحصب . [٢] فوسفوه بأنه ساحر ، وكذاب ، وكاهن ،
وشاعر . [٣] نصر .

أصاب من مال الله بَكَراً^(١) يروى عليه ، وجَبْشِيَّةُ تُرْضِعُ وَلَدًا لَهُ ، فرأى ذلك غُصَّةً عند موته في حلقه ، فأدَّى ذلك إلى الخليفة من بعده ، وَبَرَّى إِلَيْهِمْ مِنْهُ ، وفارق الدنيا نقيًا تقيًا ، على مِنْهَاجِ صاحبه ، رضى الله تعالى عنه ، ثم قام من بعده عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، فَصَّرَ الْأَمْصَارَ ، وَخَلَطَ الشَّدَّةَ بِاللِّينِ ، فَحَسَرَ عَنْ ذِرَاعِيهِ ، وَشَمَّرَ عَنْ سَاقِيهِ ، وَأَعَدَّ لِلْأُمُورِ أَقْرَانَهَا^(٢) ، وَالْحَرْبَ آتِنَهَا ، فَلَمَّا أَصَابَهُ قَيْنٌ^(٣) الْمَخِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ ، أَمَرَ ابْنَ عَبَّاسٍ يَسْأَلُ النَّاسَ : هَلْ يُؤْمِنُونَ قَاتِلَهُ ؟ فَلَمَّا قِيلَ لَهُ قَيْنٌ الْمَخِيرَةُ ، اسْتَهْلَ^(٤) بِحَمْدِ اللَّهِ أَنْ لَا يَكُونَ أَصَابُهُ ذَوْحٌ فِي النَّفْسِ ، فَيَسْتَحِلُّ دَمَهُ بِمَا اسْتَحَلَّ مِنْ حَقِّهِ ، وَقَدْ كَانَ أَصَابَ مِنْ مَالِ اللَّهِ بَضْعًا وَثَمَانِينَ أَلْفًا ، فَكَسَرَ بِهَا رِبَاعَهُ^(٥) ، وَكَرِهَ بِهَا كِفَالَةَ أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ ، فَأَدَّى ذَلِكَ إِلَى الْخَلِيفَةِ مِنْ بَعْدِهِ ، وَفَارَقَ الدُّنْيَا نَقِيًّا تَقِيًّا عَلَى مِنْهَاجِ صاحبه ، رضى الله تعالى عنهما ، ثُمَّ إِنَّا وَاللَّهِ مَا اجْتَمَعْنَا بَعْدَهَا إِلَّا عَلَى ظُلْمٍ^(٦) ، ثُمَّ إِنَّكَ يَا عَمْرُ بْنُ الدُّنْيَا ، وَلَدَتْكَ مَلُوكُهَا ، وَأَلْقَمْتَكَ ثَدْيَهَا ، فَلَمَّا وَلِيَتْهَا أَلْقَيْتَهَا حَيْثُ أَلْقَاهَا اللَّهُ ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَلَّا بِكَ حَوْبَتَهَا^(٧) ، وَكَشَفَ بِكَ كُرْبَتَهَا ، أَمْضٍ وَلَا تَلْتَفَتَ ، فَإِنَّهُ لَا يَنْدِلُ عَلَى الْحَقِّ شَيْءٌ ، وَلَا يَمِيزُ عَلَى الْبَاطِلِ شَيْءٌ ، أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ، وَلَمَّا أَنْ قَالَ : « ثُمَّ إِنَّا وَاللَّهِ مَا اجْتَمَعْنَا بَعْدَهَا إِلَّا عَلَى ظُلْمٍ » سَكَتَ النَّاسُ كُلُّهُمْ إِلَّا هَشَامًا فَإِنَّهُ قَالَ : « كَذَبْتَ » .

(البيان والبيان ٢ : ٥٩ . والمقد الفريد ٢ : ١٤٣ . وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ١٠٩ . وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ١٣٦) .

- [١] الفقى من الإبل . [٢] أسبابها التي تهدأ بها ، جمع قرن كسبب وهو الميل يجمع به البعيران . [٣] القن : عبد ملك هو وأبوه ، أو القن ولد عندك ولا تستطيع إخراجه عنك . [٤] صاح . [٥] الرباع جمع ربع كشمس وهو الدار . [٦] جمع ظالم : وهو التهم وللنائل ، وأصله من ظلم البعير كنح : غمز في منبه . [٧] الملوحة : اللحم والحاجبة .

٣٩٣ — مقام محمد بن كعب القرظي بين يدي عمر بن عبد العزيز

قام محمد بن كعب القرظي بين يدي عمر بن عبد العزيز، فقال :
 « إنا الدنيا سوق من الأسواق ، فمنها خرج الناس بما ينفعهم وبما يضرهم ،
 وكم من قوم قد غرهم مثل الذي أصبَحنا فيه ، حتى أتاهم الموت فاستوعبهم ،
 فخرجوا من الدنيا مُرَمِلِينَ ^(١) ، لم يأخذوا ما أُحِبُّوا من الآخرة عُدةً ، ولا لِمَا
 كَرِهوا جُنَّةً ، واقتسم ما جمعوا مَنْ لم يَحْمَدْهم ، وصاروا إلى من لا يَعْذِرُهم ،
 فانظر الذي تحب أن يكون معك إذا قَدِمْتَ ، فَقَدِّمه بين يديك حتى تخرج
 إليه ، وانظر الذي تكره أن يكون معك إذا قَدِمْتَ ، فابتغ به البَدَل ، حيث
 يجوز البذل ، ولا تذهبن إلى سِلعة قد بارت على غيرك ، ترجو جَوَازَها عنك ،
 يا أمير المؤمنين ، افتح الأبواب ، وسهِّل الحِجَاب ، وانصر المظلوم ، ورُدِّ الظالم .
 (عيون الاخبار م ٢ ص ٣٤٣ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ١٣٤)

٣٩٤ — وفد أهل الحجاز على هشام بن عبد الملك

وفد أهل الحجاز من قريش على هشام بن عبد الملك بن مروان ، وفيهم محمد
 ابن أبي الجهم ^(٢) بن حُذَيْفة العَدَوِي ، وكان أعظمهم قدراً ، وأكبرهم سِنًا ،
 وأفضلهم رأياً وحِلماً ، فقام متوكِّئاً على عصا ، فقال :
 أصلى الله أمير المؤمنين ، إن خطباء قريش قد قالت فيك فأطبَّت ،
 وأثنت عليك فأحسنْتَ ، ووالله ما بلغ قائلهم قدرَكَ ، ولا أحصى مُنْهِيهم
 فضلك ، أَتَأْذُنُ لي في الكلام ؟ قال : تكلم ، قال : أفأوجز أم أطيب ؟ قال :
 بل أوجز ، قال : « تولاك الله أمير المؤمنين بالحُسنى ، وزَيَّنَكَ بالتقوى ، وجمع لك

خير الآخرة والاولى، إن لى حوائج أفأذكرها؟ قال: هاتهما، قال: كبرت سننى، وضعفت قواى، واشتدت حاجتى، فإن رأى أمير المؤمنين أن يجبر كسرى، ويثني فقري، قال: يا بن أبى الجهم، وما الذى يجبر كسرك، وينفى فقرك؟ قال: ألف دينار، وألف دينار، وألف دينار، فأطرق هشام طويلاً، ثم قال: هيهات يا بن أبى الجهم، بيت المال لا يحتمل ما سألت! فقال: أما إن الأمر لواحد، ولكن الله أترك لمجلسك، فإن تُعطينا خفناً أذيت، وإن تمنعنا نسأل الذى بيده ما حوت، إن الله جعل العطاء حجة، والنع مَبْعُضَةٌ، ولأن أحببنا أحب إلى من أن أبغضك، قال: فألف دينار لماذا؟ قال: أقضى بها ديناً قد حُمَّ^(١) قضاؤه، وقد حنى^(٢) سِجْلُهُ، وأرهتني^(٣) أهله، قال: نعم المسلك أسلكنها، ديناً قضيت، وأمانة أديت، وألف دينار لماذا؟ قال: أزوجه بها من أدرك من ولدى، فأشد بهم عضدى، ويكثر بهم عدى، قال: ولا بأس أغضضت طرفاً، وحصنت فرجاً، وأمرت^(٤) نسلاً، وألف دينار لماذا؟ قال: اشتري بها أرضاً يبدش بها ولدى، وأستعين بفضلها على نوائب دهرى، وتكون ذخراً لمن بعدى، قال: ولا بأس، أردت ذخراً، ورجوت أجراً، ووصلت رجحاً، قد أمرنا لك بما سألت، قال: فالحمد لله على ذلك، وجزاك الله يا أمير المؤمنين والرحم خيراً، وخرج، فقال هشام: تالله ما رأيت رجلاً أطف في سؤال، ولا أرفق في مقال، من هذا، هكذا فليكن القرشى، وإنا لنعرف الحق إذا نزل، ونكره الإسراف والبخل، وما نُعطى تبذيراً، ولا نمنع تقشيراً، وما نحن إلا خُزَّان الله فى بلاده، وأمناءه على عباده، فإن أذن أعطينا، وإذا

[١] حم الأمر: قضى وقدر. [٢] أهلى.

[٣] الإرهاق: أن تحمل الإنسان على ما لا يليقه. [٤] كثوث.

منع أئمتنا ، ولو كان كل قائل يصدق ، وكل سائل يستحق ، ما جبهنا ^(١) قائلًا ، ولا ردّدنا سائلًا ، فنسأل الذى يده ما استحقّظنا أن يُجرّبه على أئدينا ، فإنه يسطّ الرزق لمن يشاء ويقدر ^(٢) ، إنه كان بمباديه خيرًا بصيرًا ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، لقد تكلمت فأبلفت ، وما بلغ فى كلامه ما قصصت ، فقال : إنه مبتدئ ، وليس المبتدئ كالمُتدبى .

(سج الأعشى ١ : ٢٦٤ ، والأمالى ١ : ١٤٧ ، والنفد الفريد ٢ : ٢٨٥)

٣٩٥ - مقام خالد بن صفوان بين يدى هشام

قال خالد بن صفوان : وفدت على هشام فوجدته قد بدأ يشرب ألّذهن ، وذلك فى عام باكر وشميه ، وتابع وائيه ^(٣) ، وأخذت الأرض زُخرفها ، فعى كالزرابى ^(٤) المبتوثة ، والقباطى ^(٥) المنشورة ، وترّاهما كالكافور ، لو وضعت به بضعة ^(٦) لم تُترَب ^(٧) ، وقد ضربت له سُرادقات حبر ^(٨) ، بعث بها إليه يوسف بن عمر من اليمن ، تملأ كالعقيان ^(٩) ، فأرسل إلىّ ، فدخلت عليه ، ولم أزل واقفاً ، ثم نظر إلىّ كالمستنطق لى ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، أتمّ الله عليك نعمه ، ودفع عنك نقمه ، وجعل ما قلّدتك من هذا الأمر رُشدًا ، وعاقبة ما يثول إليه تحدا ، وأخلصه لك بالثقى ، وكثره لك بالثما ، ولا كدر عليك منه ماصفاً ، ولا خالط سُروره بالردى ، فلقد أصبحت للمؤمنين ثقة ومُستراحا ،

[١] جبهه كنهه : اقيه بما يكره . [٢] يقضى ويضيق . [٣] الومى : مدار الربيع الأول ، سمى بذلك لأنه يسم الأرض ، والول : المطر بعد الومى . [٤] جمع ذربى بالكسر ويضم : المناروق والبسط ، أو كل ما بسط واتسكى عليه (والمناروق : الوسائد الصغيرة) . [٥] قباطى يضم الأول مع تشديد الآخر ، وقباطى يفتح الأول مع تخفيف الآخر جمع قبطية بالغم على خير قيس ، وقد تكسر : ثياب كتان بيض رفاق كانت تمل فى مصر . [٦] البضعة وقد تكسر : انقطة من اللحم . [٧] أنزبه وترّبه جعل عليه التراب . [٨] حبر جمع حبرة كنبه : ضرب من برود اليمن . [٩] العقيان : الذهب .

إليك يتصدون في مظالمهم ، ويفزعون في أمورهم ، هذا مقام زين الله به ذكرى ، وأطاب به نثرى ^(١) ، إذ أرانى وجه أمير المؤمنين ، ولا أرى لمقامى هذا شيئاً هو أفضل من أن أنبه أمير المؤمنين لفضل نعمة الله عليه ، ليحمد الله على ما أعطاه ، ولا شئ ، أحضر من حديث سلف لملك من ملوك العجم ، إن أذن لى فيه حديثه به ، قال : هات ، قلت : « كان رجل من ملوك الأعاجم ، جمع له فتاه ^(٢) السن ، وصحة الطباع ، وسعة الملك ، وكثرة المال ، وذلك بالخوذة ، فأشرف يوماً ، فنظر ماحوله ، فقال لمن حضره : هل علمتم أحداً أوتى مثل الذى أوتيت ؟ فقال رجل من بقايا حملة الحجة : إن أذنت لى تكلمت . فقال : قل ، فقال : أرايت ما جمع لك ، شئ . هو لك ، لم يزل ولا يزول ، أم هو شئ . كان لمن قبلك زال عنه ، وصار إليك ، وكذلك يزول عنك ؟ قال : لا . بل شئ . كان لمن قبلى ، فزال عنه ، وصار إلى ، وكذلك يزول عنى ، قال : فمُدرت بشئ . تذهب لذهته ، وتبقى تبعته ، تكون فيه قليلاً ، وتزهرن به طويلاً ؟ فبكى وقال : أين المهزب ؟ قال : إلى أحد أمرين : إما أن تُقيم فى ملكك ، فتعمل فيه بطاعة ربك ، وإما أن تُلقى عليك أمساحاً ^(٣) ، ثم تلحق بجبل ، تعبد فيه ربك ، حتى يأتى عليك أجلك ، قال : فبالى إذا أنا فعلت ذلك ؟ قال : حياة لا تموت ، وشباب لا يهرم ، وصحة لا تسقم ، وملك جديد لا يبلى ، قال : فإذا كان السحر فافزع على بابى ، فإنى مختار أحد الرأيين ، فإن اخترت ما أنا فيه ، كنت وزيراً لا يُنصى ، وإن اخترت قلوات الأرض وقفر البلاد ، كنت رفيقاً لا يخالف ، فقرع عليه عند السحريابه ، فإذا هو قد وضع تاجه ، وخلع أطماره ، ولبس أمساحه ، وتهميا

[١] النصر : الرائحة الطيبة : [٢] الفتاه كماء : الشاب .

[٣] الأمساح جمع مس كمل وهو الكساء من شعر كتوب الرهبان . .

للسياحة ، فلزما والله الجبل ، حتى أتاهما أجلهما » ، وأنشده قول عدي بن زيد :

وتفكرُ ربَّ الخَوَرَنَقِ إِذْ أَصْبَحَ يوماً وللهُدَى تفكيرُ

سرِّه حاله وكثرة ما يَمْلِكُ والبحرُ مُعْرِضاً والسدير^(١)

فارعوى قلبه ، فقال : وما غِبْطَةُ حَيٍّ إلى الممات يصير ؟^(٢)

فبكى هشام وقام ودخل ، فقال لى حاجبه : لقد كسبت نفسك شراً ، دعاك

أمير المؤمنين لتحديثه وتلميحاً ، وقد عرفت علته ، فزادت على أن نمت إليه

نفسه ، فأقت أياماً أتوقع الشر ، ثم أتانى حاجبه ، فقال : قد أمر لك بجائزة ،

وأذن لك في الانصراف . (ميون الأخبار ٢ : ص ٣٤١ ، الأغاني ٢ : ٣٣)

٣٩٦ — خالد بن صفوان يصف جريراً والفرزدق والأخطل

قال هشام بن عبد الملك لشيبة بن عقال — وعنده جرير والفرزدق والأخطل ،

وهو يومئذ أمير — ألا تخبرني عن هؤلاء الذين قد مزَّقوا أعراضهم ، وهتكوا

أستارهم ، وأغرَّوا بين عشائهم ، في غير خير ولا بر ولا نفع ، أيهم أشعر ؟ فقال

شيبة : « أما جرير فيغري من بحر ، وأما الفرزدق فينح من صخر ، وأما

الأخطل فيجيد المدح والفخر » ، فقال هشام : ما فسرت لنا شيئاً تحصيله ، فقال :

ما عندي غير ما قلت . فقال لخالد بن صفوان : صفهم لنا يا بن الأهتم ، فقال :

« أما أعظمهم غرّاً ، وأبدم ذكرّاً ، وأحسنهم عُذراً ، وأسيرهم مثلاً ،

وأقلهم غزلاً ، وأحلام عِللاً ، الطامى إذا زخر ، والحامى إذا زأر^(٣) » ، والسامى

إذا خطر ، الذي إن هدر قال ، وإن خطر صال ، الفصيح اللسان ، الطويل

[١] معرضاً : من أعرض الشيء إذا ظهر وبرز . [٢] النبطة : السرة .

[٣] وفي رواية زهر الآداب : « إذا زهر » .

العنان ، فالفرزدق ؛ وأما أحسنهم نعتاً ، وأمدحهم بيتاً ، وأقلهم فتوراً ، الذى إن
هجا وضع ، وإن مدح رفع ، فلا أخطئ ؛ وأما أغزرهم بحراً ، وأرقهم شعراً ،
وأهتكمهم لمدوه سترأ ، الأغرأ الأبلق ، الذى إن طلب لم يُسبَق ، وإن طلب لم
يُلحق ، فجرير ، وكلهم ذكى القواد ، وفيه العماد ، وإرى الزناد .

فقال له مسلمة بن عبد الملك : ما سمعنا بمثلك يا خالد فى الأولين ، ولا رأينا
فى الآخرين ، وأشهد أنك أحسنهم وصفاً ، وألينهم عطفاً ، وأعفهم مقالا ،
وأكرمهم فعلا .

فقال خالد : « أتم الله عليكم نعمة ، وأجزل لديكم قيسمه ، وآنس بكم
الغربة ، وفرج بكم الكربة ، وأنت والله ما علمت أيها الأمير كريم الفراس ، عالم
بالناس ، جواد فى المخل »^(١) ، بسام فى البذل ، حلیم عند الطيش ، فى ذروة
قريش ، ولباب عبد شمس ، ويومك خير من أمس .

فضحك هشام وقال : « ما رأيت كنتخلصك يابن صفوان فى مدح هؤلاء .
ووصفهم ، حتى أرضيتهم جميعاً ، وسلمت منهم » .

(الأغانى ٧ : ٦٩ ، وزهر الأدب ٢ : ٢٦٣)

٣٩٧ — خالد بن صفوان وبلال بن أبى بردة

قال أبو المنذر هشام بن محمد السائب الكلبي : كَانَ بلال بن أبى بُردة^(٢)
جلدا حين ابْتُلِيَ ، أحضره يوسف بن عمر فى قيوده ، لبعض الأمر ، وم بالحيرة ،
فقام خالد بن صفوان ، فقال ليوسف : « أيها الأمير ، إن عدو الله بلائاً ضربنى
وحبسنى ، ولم أفارق جماعة ، ولا خلعت يداً من طاعة » ، ثم التفت إلى بلال

[١] الخط والجذب . [٢] هو بلال بن أبى بردة بن أبى موسى الأشعري .

فقال : « الحمد لله الذى أزال سلطانك ، وهدأ أركانك ، وأزال جمالك ، وغير حالك ، فوالله لقد كنتَ شديدَ الحِجاب ، مستخفاً بالشريف ، مُظهراً للمصيبة ^(١) » .

فقال بلال : « يا خالد ، إنما استطلتَ على ثلاث ، هن معك على ، الأميرُ مُقبل عليك ، وهو عنى مُعرض ؛ وأنت مُطلق ، وأنا مأسور ؛ وأنت فى طينتك وأنا غريب » ، فأخذه .

وكان سبب ضرب بلالٍ خالداً فى ولايته ، أن بلالاً تزَّ بحالد فى مؤكِّب عظيم ، فقال خالد : سحابةٌ صيف عن قليل تَقشَعُ ^(٢) ، فسمعه بلال ، فقال : والله لا تَقشَعُ أو يصيبك منها شئٌ بوب ^(٣) بَرْد ، وأمر بضربه وجبسه .
(زمر الآداب ٣ : ١٩٠)

٣٩٨ — خطبة الكميث بن زيد بن بين يدي هشام يستعطفه

روى صاحب المقد قال :

كان الكميث بن زيد الأسدى يمدح بنى هاشم ويمرّض بينى أمية ، فطلبه هشام ، فهرب منه عشرين سنة ^(١) ، لا يستقر به القرار ، من خوف هشام ، وكان مسلمة بن عبد الملك له على هشام حاجةٌ فى كل يوم يقضيها له ، ولا يرده فيها ، فلما خرج مسلمة يوماً إلى بعض صُيُوده ، أتى الناسُ يسألون عليه ، وأتاه الكميث ابن زيد فيمن أتى ، فقال : السلام عليك ورحمة الله وبركاته ، أما بعد :

قِفْ بالديار وقوف زائر وتأن ، إنك غير صاغِر ^(٥)

[١] وكان أصلاً من العرب البليانين . [٢] تتكشف وتنفرد . [٣] التؤبوب : الدفعة من اللطم .

[٤] يلاحظ أن مدة خلافة هشام كانت عشرين سنة من سنة ١٠٠ — إلى سنة ١٢٥ هـ .

[٥] صاغر : ذليل .

حتى انتهى إلى قوله :

يَا مَسْلَمَ بْنَ أَبِي الْوَلِيدِ لَيْتَ إِنْ شِئْتَ نَاسِرًا^(١)
عَلَقْتَ حَبَالِي مِنْ حَبَا لِكَ ذِمَّةِ الْجَارِ الْمَجَاوِرِ
فَالآنَ صِرْتُ إِلَى أُمِّيَّةَ، وَالْأُمُورُ إِلَى الْمَصَائِرِ
وَالآنَ كُنْتُ بِهِ الْمَصِيبَ كَمُهْتَدٍ بِالْأَمْسِ حَائِرًا

فقال مسلمة : سبحان الله ! مَنْ هَذَا الْهِنْدَكِيُّ^(٢) الْجَلِيبُ^(٣) ، الذي أقبل من
أَخْرِيَاتِ النَّاسِ ، فبدأً بالسَّلامِ ، ثمَّ أَمَّا بَعْدُ ، ثمَّ الشَّعْرُ ؟ قِيلَ لَهُ : هَذَا الْكَمِيتُ
ابْنُ زَيْدٍ ، فَأَعْجِبْ بِهِ لِفَصَاحَتِهِ وَبِلَاغَتِهِ ، فَسَأَلَهُ مُسْلِمَةُ عَنْ خَبَرِهِ ، وَمَا كَانَ فِيهِ
طَوْلٌ غِيَتِهِ ، فَذَكَرَ لَهُ مُخْطَطُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ ، فَضَمِنَ لَهُ مُسْلِمَةُ أَمَانَتَهُ ،
وَتَوَجَّهَ بِهِ حَتَّى أَدْخَلَهُ عَلَى هِشَامٍ - وَهْشَامٌ لَا يَعْرِفُهُ - فَقَالَ الْكَمِيتُ : السَّلَامُ
عَلَيْكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ ، الْحَمْدُ لِلَّهِ ، قَالَ هِشَامٌ : نَعَمْ ،
الْحَمْدُ لِلَّهِ ، مَا هَذَا ؟ قَالَ الْكَمِيتُ : مَبْتَدِئُ الْحَمْدِ وَمَبْتَدِعُهُ ، الَّذِي خَصَّ بِالْحَمْدِ نَفْسَهُ ،
وَأَمَرَ بِهِ مَلَائِكَتَهُ ، جَمَلَهُ فَاتِحَةَ كِتَابِهِ ، وَمَتَّعَنِي شُكْرَهُ ، وَكَلَامَ أَهْلِ جَنَّتِهِ ،
أَحْمَدَهُ مُحَمَّدٌ مِنْ عِلْمٍ يَقِينًا ، وَأَبْصَرُ مُتَيْنِيًا ، وَأَشْهَدُ لَهُ بِمَا شَهِدَ بِهِ لِنَفْسِهِ
« قَائِمًا بِالْقِسْطِ »^(٤) وَحَدَّثَهُ لِأَشْرِيكَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ الْعَرَبِيُّ ،
وَرَسُولُهُ الْأُمِّيُّ ، أَرْسَلَهُ وَالنَّاسِ فِي هَفَوَاتِ حَيَرَةٍ ، وَمَذْهَبَاتِ ظُلْمَةٍ ، عِنْدَ
اسْتِمْرَارِ أَهْلِيَّةٍ^(٥) الضَّلَالِ ، فَبَلَغَ عَنِ اللَّهِ مَا أُبْرِئُ بِهِ ، وَنَصَحَ لِأَمَّتِهِ ، وَجَاهَدَ فِي
سَبِيلِهِ ، وَعَبَدَ رَبَّهُ ، حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينُ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

[١] نَسِرًا وَأَنْتَرًا : أَحْيَا . [٢] رَجُلٌ هِنْدَكِيٌّ : مِنْ أَهْلِ الْهِنْدِ ، (وَهُوَ هُنَا عَلَى الذَّنْبِ) .

[٣] الْجَلِيبُ : النَّيْغُ الْكَبِيرُ ، وَالضَّغْمُ الْأَجْلَحُ ، (وَالْأَجْلَحُ : الْقِيَّ الْغَمْرُ التَّمَرُّعُ جَانِبِي رَأْسِهِ) .

[٤] الْعَدْلُ . [٥] الْإِهْيَةُ : الظُّلَّةُ وَالْبُهْجَةُ وَالْكَبَرُ .

ثم إني يا أمير المؤمنين، تهت في حيرة، وحيرت في سكرة، اذْلَامٌ ^(١) بي خطرُها، وأهاب ^(٢) بداعيها، وأجاني غاوبها، فاططَوَطَيْتُ ^(٣) إلى الضلالة، وتسكّمت ^(٤) في الظلمة والجهالة، جأراً عن الحق، قائلاً بنير صدق، فهذا مقام العائذ ^(٥)، ومنطوق التائب، ومُبَصِّر الهدى بعد طول العمى، يا أمير المؤمنين كم من عائرٍ أَقْلَمْتُمْ غُثْرَتَه، ومجترِمٍ ^(٦) عفونتم عن جرّمه .

فقال له هشام - وأيقن أنه الكهيت - وَفَنَحْكَ ! مَنْ سَنَ لَكَ الْغَوَايَةَ ، وأهاب بك في العماية ^(٧) ؟ قال : الذي أخرج أبي آدم من الجنة : فَتَسَى وَلَمْ يَحِدْ لَهُ عَزَمًا ، وأمير المؤمنين كريح رحمة أثارت سحباً متفرقاً ، فَلَفَقَتْ ^(٨) بعضه إلى بعض ، حتى التحم ، فاستحك هَدْرٌ ^(٩) رَعْدُه ، وتلاؤلُ بَرَقه ، قنزل الأرض فَرَوَيْتَ ، واخْضَلَّتْ ^(١٠) واخْضَرَّتْ ، وأُسْتَقِيتْ ، فَرَوَى ظَمَأُهَا ، وامْتَلَأَ عَطَشَانُهَا ، فكذلك نَعُدُّكَ أَنْتَ يا أمير المؤمنين ، أضاء الله بك الظلمة الدَّاجِيَةَ ^(١١) بعد الْعُمُوسِ ^(١٢) فيها، وَحَقَّنَ بك دماء قومٍ أَسْعَرَ قُلُوبَهُمْ ^(١٣) ، فهم يكون لما يملكون من حَزْمِكَ وبصيرتك ، وقد علموا أنك الحرب وابن الحرب إذا احترتِ الْحَدَقُ ، وَعَصَّتِ الْمَغَافِيرُ ^(١٤) بالهام ، عَزَّ بِأُسْكَ ، واستربط جَأَشُكَ ^(١٥) ،

[١] اذْلَامٌ : ليل : ادلم أي اسود وأظلم ، وفي الأصل « اذْلَامٌ » وهو تصريف .

[٢] أي دعاني ، وفي الأصل « وأب » وهو تحريف ، (ويقال أيضاً هبت به أي دعوته لينزو) .

[٣] اَطْطَوَطَيْتُ : قارب في مشي إسراراً . [٤] فسكح : منى شيئاً متمسكاً لا يدرى أين يأخذ من بلاد الله ، وتحير . [٥] اللانبي : المستجير . [٦] جرم فلان وأجرم واجرم : أذنب .

[٧] الساية : النواية . [٨] من افق الثوب كضرب : ضم شقة إلى أخرى غطاها .

[٩] من هدر البعر كضرب هدرأ وهديراً : صوت ، وفي الأصل « هدار » وهو تحريف .

[١٠] ابطت . [١١] الظلمة . [١٢] في الأصل : « العُمُوس » بالعين ، وهو تحريف ، والصواب : « السوس » من حس ككرم ونزع عاسة وعموساً : اشتد واسود وأظلم .

[١٣] أَسْعَرَ أشعر الخوف والملم قلبي : لُزِقَ به ، وكل ما أَلْزَقَهُ بَشِيءٌ : أشعرته به . [١٤] النفر كبير ، وبهاء ، وكثناية : زرد من البرق يلمس تحت أظفانوه ، أو حلق يتنح بها للفساح .

[١٥] أي صار رابطاً من ربط جأشه ورباطة (بالكسر) اشتد قلبه .

مِسْعَارٌ^(١) هَئَانُ ، وَكَأَفُ بَصِيرٍ بِالْأَعْدَاءِ ، مُغْرَى الْخَيْلِ بِالنُّكْرَاءِ^(٢) ، مُسْتَفْنٍ
بِرَأْيِهِ عَنْ رَأْيِ ذَوِي الْأَلْبَابِ ، بَرَأَى أَرِيبَ ، وَجَلَّمَ مُصِيبَ ، فَأَطَالَ اللَّهُ
لَأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْبَقَاءَ ، وَتَمَّ عَلَيْهِ النِّعْمَاءَ ، وَدَفَعَ بِهِ الْأَعْدَاءَ^(٣) ، فَرَضَى عَنْهُ هِشَامُ ،
وَأَمَرَ لَهُ بِجَازَةِ .

وروى صاحب الأغاني خطبة الكميث^(٤) فقال :

[١] فَلَا مَرَّ حَرْبٍ وَمَسَارٍ : أَيْ مَوْقِدَ نَارِ الْحَرْبِ ، وَمَطَرِ هَتَانٍ : هِطَالٍ ، وَكَأَفُ كَذَلِكَ ، وَهِيَ
كُنَايَةٌ عَنِ الْجُلُودِ . [٢] النُّكْرَاءُ : الْأَمْرُ الشَّدِيدُ .
[٣] وَكَانَ سَبَبُ غَضَبِ هِشَامٍ عَلَى الْكَمِيثِ : أَنَّ حَكِيمَ بْنَ عِيَّاسٍ الْكَلْبِيَّ كَانَ وَلِيًّا مَهْجَاءً ، مَضَرَّ
وَالْكَمِيثُ مَضَرِيٌّ - فَكَانَتْ شِعْرَاءُ مَضَرٍ تَجُوهُ وَيَجِيهُ ، وَكَانَ الْكَمِيثُ يَقُولُ هُوَ وَآلُهُ أَشَدَّ مِنْكُمْ
قَالُوا فَأَجَبَ الرَّجُلُ ، قَالَ إِنَّ خَالِدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْقُرَاشِيَّ - وَابْنُ الْعِرَاقِ وَهُوَ عَيْنِي - عَمِنَ إِلَيَّ ، فَلَا أَقْدَرُ
أَنْ أُرَدَّ عَلَيْهِ ، قَالُوا فَاسْمِعْ بِأَذْنِكَ مَا يَقُولُ فِي بَنَاتِ عَمِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ مِنَ الْمَهْجَاءِ ، وَأَشَدُّهُ ذَلِكَ خُصْمِي
الْكَمِيثُ لِمَشِيرَتِهِ ، فَقَالَ قَصِيدَتُهُ لِلنَّبْعَةِ ، وَبَلَغَ ذَلِكَ خَالِدًا ، فَقَالَ وَآلُهُ لَا تَقْتُلُهُ ، ثُمَّ اشْتَرَى ثَلَاثِينَ جَارِيَةً
بِأُغْلَى ثَمَنٍ ، وَتَغَيَّرَ مِنْهَا فِي حَسَنِ الْوُجُوهِ وَالْكَوَالِ وَالْأَدَبِ ، فَرَوَّاهُنَ الْمَهْشَمِيَّاتُ - وَهِيَ قَصَائِدُ قَالَهَا
الْكَمِيثُ فِي مَدْحِ بَنِي هَاشِمٍ ، وَكَانَ مَعْرُوفًا بِالتَّشْبِيعِ لَهُمْ مَشْهُورًا بِذَلِكَ ، وَتَمَدَّ هَذِهِ الْقَصَائِدُ مِنْ حَيْدِ شِعْرِهِ
وَمُخْتَارِهِ وَهِيَ مَطْبُوعَةٌ مَشْهُورَةٌ - وَدَسَنَ مَعَ تَخْلُصٍ إِلَى هِشَامِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، فَاشْتَرَاهُنَّ جَمِيعًا ، لَهَا أُنْسٌ
بِهِنَّ اسْتَنْطَفِهِنَّ ، فَرَأَى فِصَاحَةً وَأَدَبًا ، فَاسْتَقْرَأَهُنَّ الْقُرْآنَ فَتَرَأَى ، وَاسْتَنْتَفَهْنَ الشَّمْرَ ، فَأَشَدَّهُنَّ قَصَائِدَ
الْكَمِيثِ الْمَهْشَمِيَّاتِ ، فَقَالَ : وَيْلَكُنَّ مِنْ قَتْلِ هَذَا الشَّمْرِ ؟ قَتَلَ الْكَمِيثُ بْنُ زَيْدٍ الْأَسَدِيَّ ، قَالَ وَفِي أَيْ
بَلَدٍ هُوَ ؟ قَتَلَ : فِي الرِّقَاقِ ثُمَّ فِي الْكُوفَةِ ، فَكُتِبَ إِلَيْ خَالِدٍ طَائِلُهُ بِالْعِرَاقِ : ابْتَغِ إِلَيَّ رَأْسَ الْكَمِيثِ ، فَبَعَثَ
إِلَيْهِ خَالِدٌ فِي اللَّيْلِ ، فَأَخَذَهُ وَأَوْدَعَهُ السِّجْنَ ، وَعَزَمَ لِيَنْفِذَ أَمْرَ الْخَلِيفَةِ فِيهِ ، وَأَعْمَلَ لِّلْكَمِيثِ الْحِيلَةَ فِي
الْفِرَارِ ، فَبَعَثَ إِلَى زَوْجَتِهِ (يُضْمُ قَتْلُهَا لِلشَّدَةِ) فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ لَيْسَ ثِيَابًا ، وَتَقَبَّ ثِيَابَهَا ، وَأَقْلَمَهَا مَكَاهَ ،
وَخَرَجَ مُتَنَكِّرًا ، وَظَلَّ مُتَوَارِيًا مَدَّةً حَتَّى إِذَا أَيْقَنَ أَنَّ الطَّلَبَ قَدْ خَفَّ عَنْهُ ، خَرَجَ لَيْلًا فِي جَمَاعَةٍ مِنْ بَنِي أَسَدٍ ،
وَمَا زَالَ يَسِيرُ حَتَّى بَلَغَ الثَّأْمَ ، وَاسْتَجَارَ بِسُلَيْمَةَ بْنِ هِشَامٍ ، فَأَجَارَهُ وَاحْتَالَ لَهُ فِي عَفْوِ الْخَلِيفَةِ عَنْهُ ، وَقَالَ لَهُ
إِنَّ مَسَاوِيَةَ بْنَ هِشَامٍ مَاتَ قَرِيبًا ، وَقَدْ جَزَعُ عَلَيْهِ جِزَاءً شَدِيدًا ، فَإِذَا كَانَ اللَّيْلُ فَاضْرِبْ رِوَاثَكَ عَلَى قَبْرِهِ ،
وَأَنَا أَبْتُ إِلَيْكَ بَنِيهِ يَكُونُونَ مَعَكَ فِي الرِّوَاثِ ، فَإِذَا دَعَا بِكَ تَهَنَّتَ إِلَيْهِمْ أَنْ يَرْبُطُوا ثِيَابَهُمْ بِثِيَابِكَ ،
وَيَقُولُوا : هَذَا اسْتِجَارَ بِقَبْرِ أَيْنَا ، وَنَحْنُ أَحَقُّ مِنْ أَجَارِهِ ، فَأَصْبَحَ هِشَامُ عَلَى عَادَتِهِ مُتَطَلِّمًا مِنْ قَصْرِهِ إِلَى
الْقَبْرِ ، قَالَ : مِنْ هَذَا ؟ قَالُوا : لِمَهْ مُسْتَجِيرٍ بِالْقَبْرِ ، قَالَ : يَجَارُ مِنْ كَانَ إِلَّا الْكَمِيثُ فَإِنَّهُ لَا جَوَارَ لَهُ
فَقِيلَ : فَإِنَّ الْكَمِيثَ ، قَالَ : يَحْضُرُ أَعْتَفَ إِحْسَانٍ ، فَلَمَّا دَعِيَ بِهِ رِبِطَ السِّبْيَانِ ثِيَابَهُمْ بِثِيَابِهِ ، فَلَمَّا نَظَرَ
هِشَامُ إِلَيْهِمْ اغْرَوْرَقَتْ عَيْنَاهُ وَاسْتَعِيرَ ، وَمِنْ يَقُولُونَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ اسْتِجَارَ بِقَبْرِ أَيْنَا ، وَقَدْ مَاتَ وَمَاتَ
حُطَّهُ مِنَ الدُّنْيَا ، فَاجْلِسْ هَبْ لَهْ وَلَنَا ، وَلَا تَفْضَحْنَا فَيَسْنَ اسْتِجَارَ بِهِ ، فَبَكَى هِشَامُ حَتَّى اسْتَحَبَّ ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى
الْكَمِيثِ ، فَقَالَ لَهُ : يَا كَمِيثُ : أَنْتَ الْقَاتِلُ كَذَا وَكَذَا مِمَّا أَوْرَدَهُ فِي مَهْشَمِيَّاتِهِ ؟ قَالَ : لَا وَآلُهُ ، وَلَا أَتَانِ
مِنْ أَنَّ الْمَجَازَ وَحْشِيَّةً ، ثُمَّ خَطَبَ بَيْنَ يَدَيْهِ يَتَمَطَّطُهُ ، فَمَا عَنْهُ وَأَجَارُهُ ، وَتَوَقَّى الْكَمِيثُ سَنَةَ ١٢٦ هـ .

« حَمْدُ اللَّهِ ، وَأَثْنِي عَلَيْهِ ، وَصَلَّى عَلَى نَبِيِّهِ ثُمَّ قَالَ : « أَمَا بَعْدَ : فَإِنِّي كُنْتُ أَتَدَّهْدِي ^(١) فِي تَمَرَةٍ ، وَأَعُومُ فِي بَحْرِ غَوَايَةِ ، أَخْنِي عَلَى خَطَلُهَا ، وَاسْتَفْزَنِي وَهَلُّهَا ^(٢) ، فَتَحِيرْتُ فِي الضَّلَالَةِ ، وَتَسَكَّمْتُ فِي الْجَهَالَةِ ، مُتْرَعًا عَنِ الْحَقِّ ، جَائِرًا عَنِ الْقَصْدِ ، أَقُولُ الْبَاطِلَ ضَلَالًا ، وَأَقُوهُ بِالْبَهْتَانِ وَبِالْبَلَا ، وَهَذَا مَقَامُ الْعَائِدِ ، مُبْصِرُ الْهَدْيِ ، وَرَافِضُ الْعِمَايَةِ ، فَاغْسِلْ عَنِّي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الْحَوْبَةَ ^(٣) بِالتَّوْبَةِ ، وَاصْفَحْ عَنِ الزَّلَّةِ ، وَاعْفُ عَنِ الْجَرِيمَةِ ^(٤) ، ثُمَّ قَالَ :

كَمْ قَالَ قَاتِلَكُمْ لَمَّا لَكَ ، عِنْدَ عَثْرَةِ لِمَازٍ ^(٥)
وَعَفَرْتُمْ لِدَوَى الذَّنْوِ بَمِنْ الْأَكْبَرِ وَالْأَصَاغِرِ
أَبْنِي أُمِّيَّةَ : إِنَّكُمْ أَهْلُ الْوَسَائِلِ وَالْأَوَامِرِ
تَقْنِي لِكُلِّ مُلْهَةٍ وَعَشِيرَتِي دُونَ الْعِشَائِرِ
أَنْتُمْ مَعَادِنُ الْخَلَا فَهَ كَابَرًا مِنْ بَعْدِ كَابَرِ
بِالنَّقْمَةِ الْمَتَابِعِينَ خَلَاثِفًا وَبُخَيْرَ طَاشِرٍ ^(٦)
وَالِى الْقِيَامَةِ لَا تَرَا لِي لِشَافِعٍ مِنْكُمْ وَوَاتِرِ

ثُمَّ قَطَعَ الْإِنْشَادَ ، وَعَادَ إِلَى خُطْبَتِهِ فَقَالَ : « إِغْضَاءُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَمِمَّا حَتَّهُ وَصَبَّاحَتُهُ ^(٧) ، وَمَنَاطُ الْمُتَجَعِّينَ بِحَبْلِهِ ، مَنْ لَا تُحَلُّ حُبُوتُهُ لِإِسَاءَةِ الْمَذْنِينِ ، فَضْلًا عَنِ اسْتِشَاطَةِ غَضَبِهِ يَجْهَلُ الْجَاهِلِينَ ، فَقَالَ لَهُ : وَيَلَكَ يَا كَيْتَ ! مَنْ زَيْنَ لَكَ التَّوْبَةَ ، وَدَلَّكَ فِي الْعِمَايَةِ ؟ قَالَ ! الَّذِي أَخْرَجَ أَبَانَا مِنَ الْجَنَّةِ ، وَأَنْسَاهُ

[١] دَهْدَى الْمَجْرُ فَتَدَّهْدَى : دَحْرَجَهُ ، كَدَهْدَمَهُ ، وَالْفَرَسَةُ : الْإِسْهَاقُ فِي الْبَاطِلِ ، وَالشُّعَّةُ .

[٢] الْوَهْلُ : الضَّعْفُ وَالْفَرْعُ . [٣] الْحَوْبَةُ : الْإِثْمُ . [٤] الْجَرِيمَةُ كَكَلِمَةِ : الْجَرِيمَةُ .

[٥] يَخَالُ طَاشِرٌ : لَمَّا لَكَ ، وَهُوَ دَعَا لَهُ بِأَنْ يَنْتَشِ . [٦] « شَامَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ » وَطَاشِرٌ خَلْفَاءُ .

بَنَى أُمِّيَّةَ . [٧] الْمَبَاحَةُ : الْجَمَالُ ، صَبَحَ كَكَرَّمَ فَهُوَ صَبِيحٌ .

العهد ، فلم يجد له عزماً « فرضى عنه ، وأمر له بإجازة .

(النقد الفريد ١ : ١٥٤ ، والأغانى ١٥ : ١١٣)

٣٩٩ — محاصرة عدى بن أرتاة لامرأته عند شريح القاضي

دخل عدى بن أرتاة على شريح ^(١) القاضي يخاص امرأته له ، فقال :
السلام عليكم ، قال : وعليكم ، قال : استمع منى ، قال : قل أسمع ، قال : إني
رجل من أهل الشام ، قال : من مكان سحيق ، قال : وإني قدِمت إلى بلدكم
هذا ، قال : خير مقدم ، قال : وإني تزوجت امرأة ، قال : بالرفاء ^(٢) والبنين ،
قال : وإنها ولدت غلاماً ، قال : ليتهنك الفارس ، قال : وقد كنت شرطت لها
صدقتها ، قال : الشرط أملاك ، قال : وقد أردت الخروج بها إلى بلدى ، قال :
الرجل أحق بأهله ، قال : فاقض بيننا . قال : قد فعلت ، قال : فعلى من حكمت ؟
قال : على ابن أمك ، قال : بشهادة من ؟ قال بشهادة ابن أخت خالتك .

(البيان والبيان ٣ : ٢٣٤ ، ووقيات الأعيان ١ : ٢٢٤)

٤٠٠ — كلمة لعمر بن عتبة بن أبي سفيان

وقد تشاح بنو هاشم ، وبنو أمية في ميراث بينهم

عن سفيان بن عمرو بن عتبة بن أبي سفيان قال : وقع ميراث بين بني هاشم
وبني أمية ، تشاحوا فيه ، وتضايقوا ، فلما تفرقوا أقبل علينا أبونا عمرو ، فقال :
« يَا بَنِيَّ : إِنْ لَقِيشَ دَرَجَا تَرِلُّ عَنْهَا أَقْدَامُ الرِّجَالِ ، وَأَفْأَلَا تَحْشَعُ لَهَا

[١] هو أبو أمية شريح بن الحارث الكندي ، كان من كبار التابعين ، وأدرك الجاهلية ، واستغنى
عمر بن الخطاب على الكوفة ، وقد أظم قاضياً خيراً وسبعين سنة ، وكان أعلم الناس بالقضاء ، ذا فطنة
وفكاك ، ومعرفة ، وعقل ، وإصابة ، توفي سنة ٨٧ هـ ، وهو ابن مائة سنة ، وقيل ابن مائة وعشرين .
[٢] أى بالانتماء وجع النمل ، رفاً التوب كنع : لأم خرقة ، وضم بضه إلى بعض .

وقابُ الأموال ، وغاياتِ تقصُّرِ عنها الجِئادُ السَّوْمَةُ ^(١) ، وألْسُنًا تَكِلُ عنها الشُّقار المشحوذة ، ولو اختلفت الدنيا ما تَرِيفَتْ إلا بهم ، ولو كانت لهم ضاقت بِسَعَةِ أخلاقهم ، ثم إنه ليخيلُ إلى أنَّ منهم ناساً تخلَّقوا بأخلاق العوامِّ ، فصار لهم رِفَقٌ في اللوِّم ، وخرقٌ ^(٢) في الحرِّص ، ولو أمكنهم لقاسموا الطير في أرزاقها ، إن خافوا مكرهاً تمجَّلوا له الفقر ، وإن مُجِّلَتْ لهم نعمةٌ أخرَّوا عليها الشكر ، أولئك أنضاء ^(٣) الفِكر ، وعِجْزَةُ حَمَلَةِ الشُّكر .

(الأمال : ٢ : ٢٣٨ ، والنفد الفريد : ٢ : ٤٠)

٤٠١ — رجل يمدح خالد بن عبد الله القسري

وقال رجل لخالد بن عبد الله القسري : « والله إنك لتبذل ما جَلَّ ، وتَجَبُّرُ ما انْقَلَّ ، وتُكْثِرُ ما قلَّ » ، ففضلك بديع ، ورأيك جَميع ، تحفظ ما شذَّ ، وتؤاَف ما نَدَّ .
(زهر الآداب : ٣ : ١٦٧)

خطب الخوارج وما يتصل بها

٤٠٢ — خطبة حيان بن ظبيان السلي

روى ابن جرير الطبري في تاريخه قال :

كَانَ حَيَّانُ بْنُ ظَبْيَانَ السُّلَمِيُّ يَرَى رَأْيَ الْخَوَارِجِ - وَكَانَ مِمَّنْ ارْتَضَى ^(١) يَوْمَ النَّهْرَوَانِ ، فَعَفَا عَنْهُ عَلَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فِي الْأَرْبَعِمِائَةِ الَّذِينَ كَانَ عَفَا عَنْهُمْ ، مِنْ

[١] الخيل السَّوْمَةُ : الرسالة وعليها ركابها ، أو العملة ، أي التي جبل عليها سومة (بالضم) أي سمة وعلامة ، أو الرعية . [٢] كقتل وسبب : ضد الرفق ، وأن لا يحسن الرجل العمل والتصرف في الأمور . [٣] جمع فضو كحل وهو للهِزول .
[٤] ارتد : حمل من المعركة رثيئاً ، أي جريحاً وبه رمق .

المرتثين يوم النهر - فكان في أهله وعشيرته : فليث شهراً أو نحوه ، ثم إنه خرج إلى الرئي ، في رجال كانوا يزورون ذلك الرأي ، فلم يزالوا مقيمين بالرى حتى بلغهم قتل عليّ كرم الله وجهه ، فدما أصحابه أولئك ، وكانوا بضعة عشر رجلاً ، فأتوه ، فحيد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الإخوان من المسلمين : إنه قد بلغني أن أخاكم ابن ملجم أخا مُراد قعد لقتل عليّ بن أبي طالب عند أغباش ^(١) الصبح ، مُقابل السدة ^(٢) التي في المسجد مسجد الجماعة ، فلم يبرح راكداً ينتظر خروجه ، حتى خرج عليه حين أقام المقيم الصلاة : صلاة الصبح ، فشدّ عليه ، فضرب رأسه بالسيف ، فلم يبق إلا ليلتين حتى مات » .

فقام سالم بن ربيعة العبسي : لا يقطع الله عينا عمت قدّاله ^(٣) بالسيف ، فأخذ القوم يحمدون الله على قتله عليه السلام ، ورضى الله عنه ولا رضى عنهم ولا رحمهم ، ثم إن حيان بن ظبيان قال لأصحابه :

« إنه والله ما يبقى على النهر باقٍ ، وما يلبث الليالي والأيام ، والسنون والشهور على ابن آدم ، حتى تُدْفِنَهُ الموت ، فيفارق الإخوان الصالحين ، ويدع الدنيا التي لا يبكي عليها إلا المجزّة ، ولم تزل ضارّة لمن كانت له هما وشجنا ^(٤) ، فانصرفوا بنا رَحِمَكُمُ اللهُ إلى مِصرنا ، فلتأتِ إخواننا ، فلندعهم إلى الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وإلى جهاد الأحزاب ، فإنه لا عُذرَ لنا في التعمود ، وولائنا ظلمة ، وسنة الهدى متروكة ، وتأرنا ^(٥) الذين قتلوا إخواننا في المجالس آمنون ، فإن يُظفرنا الله بهم نعيد بئد إلى التي هي أهدى وأرضى وأقوم ، وبشقي

[١] أغباش جمع غيش بالتحريك : وهو ظلة آخر الليل . [٢] السدة : باب الفار ، وهي هنا مايق من الطاق للسود . [٣] القتال : جماع مؤخر الرأس . [٤] الشجن : المم والحزن . [٥] الثار : قاتل حيك .

أَفْهَ بِذَلِكَ صُدُّورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ، وَإِنْ تُقْتَلْ فَإِنَّ فِي مَفَارِقَةِ الظَّالِمِينَ رَاحَةً لَنَا ، وَلَنَا بِأَسْلَافِنَا أُسُوةٌ .

فَقَالُوا لَهُ : كُلُّنَا قَاتِلٌ مَا ذَكَرْتَ ، وَحَامِدٌ رَأْيِكَ الَّذِي رَأَيْتَ ، فَرِذْ بِنَا الْمِصْرَ ، فَإِنَّا مَعَكَ رَاضُونَ بِهَذَاكَ وَأَمْرِكَ ، فَخَرَجَ وَخَرَجُوا مَعَهُ مَقْبِلِينَ إِلَى الْكَوْفَةِ ، حَتَّى نَزَلُهَا ، فَلَمْ يَزَلْ بِهَا حَتَّى قَدِمَ مَعَاوِيَةَ ، وَبَعَثَ الْمُنِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ وَالْيَأَى عَلَى الْكَوْفَةِ .
(تاريخ الطبري ٦ : ٩٩)

اتِّمَارُ الْخَوَارِجِ

ثُمَّ إِنَّ الْخَوَارِجَ فِي أَيَّامِ الْمُنِيرَةِ فَرَعُوا إِلَى ثَلَاثَةِ فَرَقٍ مِنْهُمْ : الْمُسْتَوْدِ بْنِ عُلْفَةَ التَّيْمِيِّ ، وَحَيَّانَ بْنَ ظَبْيَانَ الثَّلَاحِيِّ ، وَمُعَاذَ بْنَ جُوَيْنٍ بْنِ حُصَيْنِ الطَّلَاحِيِّ ، فَاجْتَمَعُوا فِي مَنْزِلِ حَيَّانَ بْنِ ظَبْيَانَ ، فَتَشَاوَرُوا فِيمَنْ يُؤْتُونَ عَلَيْهِمْ ، فَقَالَ لَهُمُ الْمُسْتَوْدِ :

٤٠٣ — مَقَالُ الْمُسْتَوْدِ بْنِ عُلْفَةَ

« يَا أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ وَالْمُؤْمِنُونَ ، أَرَأَيْتُمْ مَا تَحِبُّونَ ، وَعَزَلْتُمْ عَنْكُمْ مَا تَكْرَهُونَ ، وَتُلَوُّوا عَلَيْكُمْ مَنْ أَحْبَبْتُمْ ، فَوَالَّذِي يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ (١) وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ، مَا أَبَالَى مَنْ كَانَ الْوَالِي عَلَى مَنْكُمْ ، وَمَا شَرَفَ الدُّنْيَا نَزِيدَ ، وَمَا إِلَى الْبَقَاءِ فِيهَا مِنْ سَبِيلَ ، وَمَا نَزِيدَ إِلَّا الْخُلُودَ فِي دَارِ الْخُلُودِ .

٤٠٤ — مَقَالُ حَيَّانَ بْنِ ظَبْيَانَ

فَقَالَ حَيَّانُ بْنُ ظَبْيَانَ : « أَمَا أَنَا فَلَا حَاجَةَ لِي فِيهَا ، وَأَنَا بِكَ وَبِكُلِّ امْرِئٍ مِنْ إِخْوَانِي رَاضٍ ، فَانظُرُوا مَنْ شَتَمَكُمْ فَسَمُّوهُ ، فَإِنَّا أَوَّلُ مَنْ يَبَايَهُهُ .

٤٠٥ - مقال معاذ بن جوين

فقال لهم ماذ بن جوين : « إذا قلتما أنتما هذا ، وأنتما سيدا المسلمين ، وذَوَا أنسابهم ، في صلاحكما ودينكما وَقَدْرُكما ، فمن يَرَأْسُ المسلمين ؟ وليس كلكم يصلحُ لهذا الأمر ، وإنما ينبغي أن يَلِيَ على المسلمين - إذا كانوا سواء في الفضل - أبصرُهم بالحرب ، وأفقهُهم في الدين ، وأشدُّهم اضطِلاعاً ^(١) بما حُمِّل ، وأنتما بحمد الله ممن يُرْضَى لهذا الأمر ، فليَتَوَلَّه أحداكما .

قالا : فتَوَلَّه أنت : فقد رَضِينَاكَ ، فأنت - والحمد لله - الكاملُ في دينك ورأيك ، فقال لهما : أنتما أَسْنُ مني ، فليَتَوَلَّه أحداكما ، فقال حينئذ جماعة من حضر : قد رَضِينَا بكم أيها الثلاثة ، فولُّوا أَيْكُمْ أَحَبَّيْتُمْ ، وَكَانَتْ خاتمة ذلك التَّفَاش أن يابِعوَ المستورد ، واتَّعدوا أن يتجهَّزوا ويتيسَّروا ويستعدُّوا ، ثم يخرجوا هلال شعبان سنة ٤٣ هـ . (تاريخ الطبري ٦ : ١٠٠)

٤٠٦ - خطبة المغيرة بن شعبه أمير الكوفة

يحذر أهلها من إيواء الخوارج ونصرتهم

وَنَمَى إلى المَغِيرَةِ بن شُعْبَةَ أن الخوارج خارجة عليه ، فقام في الناس ، فحَمِدَ الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، فقد عَلِمْتُم أيها الناس أني لم أزل أَحِبُّ لجماعتكم العافية ، وأكُفُّ عنكم الأذى ، وإني والله لقد خَشِيتُ أن يكون ذلك أَذَبَ سَوِّءِ لِسْفَهائكم ، فأما الحُلَمَاءُ الأتقياء فلا ، وإيَّاهُ اللهُ لقد خَشِيتُ أن لا أجد بُدًّا من أن يُعْصَبَ الحليم

التقى ، بذنب السفية الجاهل ، فكفُّوا أيها الناس سفهاءكم ، قبل أن يشمل البلاء عوامكم ، وقد ذُكر لى أن رجالاً منكم يريدون أن يظهرُوا في المصر بالشقاق والخلاف ، وإيَّهم الله لا يخرجون في حيٍّ من أحياء العرب في هذا المصر إلا أبدثتهم ، وجعلتهم نكالا لمن بعدهم ، فنظر قوم لأنفسهم قيل الندم ، فقد قت هذا المقام إرادة الحجة والإعذار .

ثم نزل ، وبعث إلى رؤساء الناس فدعاهم ، ثم قال لهم :
« إنه قد كان من الأمر ما قد علمتم ، وقد قلت ما قد سمعتم ، فليكن في كل امرئ من الرؤساء قومه ، وإلا فالذى لا إله غيره لأتحوَّلَنَّ عما كنتم تعرفون ، إلى ما تنكرون ، وعما تحبون إلى ما تكرهون ، فلا يَلُمُّ لائِمٌ إلا نفسه ، وقد أعذر من أنذر .

فخرجت الرؤساء إلى عشائرهم ، فنادى الله والإسلام إلا دُلُّوهم على من يرون أنه يريد أن يهيج فتنة ، أو يفارق جماعة ، وجاء صعصعة بن صوحان ، فقام في عبد القيس ، فقال :

٤٠٧ — خطبة صعصعة بن صوحان

يا معشر عباد الله : إن الله — وله الحمد كثيراً — لما قسم الفضل بين المسلمين خصكم منه بأحسن القسم ، فأجبتم إلى دين الله ، الذي اختاره الله لنفسه ، وارتضاه للملائكة ورُسُلُه ، ثم أقمت عليه حتى قبض الله رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم اختلف الناس بعده ، فثبت طائفة ، وارتدت طائفة ، وأذهنت طائفة ، وتربصت طائفة ، فلزمت دين الله إيماناً به وبرسوله ، وقالت المرتدَّين ، حتى قام الدين ، وأهلك الله الظالمين ، فلم يزل الله يزيدكم بذلك خيراً في كل شيء ، وعلى

كل حال، حتى اختلفت الأمة بينها، فقالت طائفة: نريد طلحة والزبير وعائشة، وقالت طائفة: نريد أهل المغرب^(١)، وقالت طائفة: نريد عبد الله بن وهب الراسبي: راسب الأزد، وقتلهم: أنتم لا نريد إلا أهل البيت، الذين ابتدأنا الله من قبلهم بالكرامة، تسديداً من الله لكم وتوفيقاً، فلم تزالوا على الحق لازمين له، آخذين به، حتى أهلك الله بكم، وبمن كان على مثل هذاكم ورأيكم، الناكثين يوم الجمل، والمارقين يوم النهر، (وسكت عن ذكر أهل الشام لأن السلطان كان حينئذ سلطانهم)، ولا قوم أعدى لله ولكم، ولأهل بيت نبيكم، وجماعة المسلمين، من هذه المارقة الخاطئة، الذين فارقوا إمامنا^(٢)، واستحلوا دماءنا، وشهدوا علينا بالكفر، فإياكم أن تؤثؤوم في دؤوركم، أو تكتموا عليهم، فإنه ليس يفيئ الحى من أحياء العرب أن يكون أعدى لهذه المارقة منكم، وقد والله ذكر لي أن بعضهم في جانب من الحى، وأنا باحث عن ذلك وسائل، فإن كان حكي لي ذلك حقاً، تقربت إلى الله تعالى بسمائهم، فإن دماءهم حلال، ثم قال: يا معشر عبد القيس: إن ولاتنا هؤلاء هم أعرف شيء بكم وبرأيكم، فلا تجملوا لهم عليكم سبيلاً، فإنهم أسرع شيء إليكم وإلى أمثالكم.

وأقبل أصحاب المستورد يأتونه، فليس منهم رجل إلا يُخبره بما قام به المغيرة بن شعبه في الناس، وبما جاءهم رؤسائهم وقاموا فيهم، وقالوا له: اخرج بنا فوالله ما نأمن أن نؤخذ في عشارتنا، نخرج بهم من الكوفة، ووجه المغيرة لقتالهم معقل بن قيس الرياحي، فلما علم المستورد بمسير معقل إليه جمع أصحابه.

(تاريخ الطبرى ٦ : ١٠٦)

[١] أى معاوية، وكان والياً على الشام، وهى بالنسبة لعمراق فى المغرب.

[٢] أى علياً عليه السلام.

٤٠٨ — خطبة المستورد

نحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال :

« أما بعد : فإن هذا الخرف مقبل بن قيس قد وُجّه إليكم ، وهو من السَّبِيَّة ^(١) المفترين الكاذبين ، وهو لله ولكم عدو ، فأشيروا على رأيكم » .
فقال له بعضهم : والله ما خرجنا نريد إلا الله ، وجهاد من عادى الله ، وقد جاءونا فآين نذهب عنهم ؟ بل نقيم حتى يحكم الله بيننا وبينهم وهو خير الحاكمين ، وقالت طائفة أخرى : بل نعتزل وننتجى ، ندعو الناس ونحتج عليهم بالدعاء .

فقال : « يا معشر المسلمين : إني والله ما خرجت ألتبس الدنيا ، ولا ذكرها ، ولا تغرها ، ولا البقاء ، وما أحبُّ أنْها لي بحذافيرها ، وأضعاف ما يُتَنَافَس فيه منها ، بقيال ^(٢) تملئ ، وما خرجت إلا التماس الشهادة ، وأن يثديني الله إلى الكرامة ، بهوان بعض أهل الضلالة ، وإني قد نظرت فيما استشرتكم فيه ، فرأيت أن لا أقيم لهم حتى يَقْدَمُوا عَلَيَّ ، وهم حامون متوافرون ، ولكن رأيت أن أسير حتى أُمَيِّن ، فإنهم إذا بلغهم ذلك خرجوا في طلبنا ، فتقطعوا وتبددوا ، فلي تلك الحال ينبغي لنا قتالهم ، فاخرجوا بنا على اسم الله عز وجل » .

فخرجوا فضوا على شاطئ دجلة ، فبروه ومضوا في أرض جُوخَى ، حتى

[١] السَّبِيَّة : أتباع عبد الله بن سبأ ، وهو يهودى من سعاء أسلم زمن عثمان ، ثم تنقل في بلدان المسلمين يحاول ضلالهم ، وغلا في عليّ ، وزعم أنه نبي . ثم غلا فيه حتى زعم أنه إله ، ودعا إلى ذلك قوما من غواة الكوفة ، وآتى قوم منهم إلى عليّ ، فقالوا له : أنت هو ؟ قال : ومن هو ؟ قالوا : أنت الله ، فاستعظم الأمر ، وأمر بنار ، فأجبت في حفرتين ، وأحرقهم بها ، فجللوا يقولون وهم يرمون في النار : الآن صبح عندنا أنه الله ، لأنه لا يذب بالنار إلا الله ، ثم إن علياً خاف من إحراق الباقي منهم شجاعة أهل الشام ، وخاف اختلاف أصحابه عليه ، فقتل ابن سبأ إلى سابط اللذان ، فلما يابده يقتل عليّ قال : لو أتيتونا بدماعه سبعين مرة ما صدقنا موته ، وزعم أن القتل لم يكن علياً ، وإنما كان شيطاناً تصور للناس في صورة عليّ ، وأن علياً صعد إلى السماء كما صعد إليها عيسى بن مريم ، ومن ابن سبأ انتسب أصناف الثلاثة . [٢] قبل التمل : زمام بين الأصبع الوسطى والى تليها .

بلغوا المذار فأقاموا فيها ، وأقبل معقل بن قيس ، فأقام بالمدائن ثلاثاً ، ثم جمع أصحابه ، فقال :
(تاريخ الطبري ٦ : ١١٠)

٤٠٩ — خطبة معقل بن قيس

« إن هؤلاء المارقة الضلال إنما خرجوا فذهبوا على وجوههم ، إرادة أن
تتمجلوا في آثارهم ، فتقطعوا وتتبددوا ، ولا تلحقوا بهم إلا وقد تعبتهم ونصبتهم^(١) ،
وإنه ليس شيء يدخل عليكم من ذلك إلا وقد يدخل عليهم مثله » ، فخرج في
آثارهم حتى لحقهم بالمدار مقيمين .

ودارت بينهما رحى الحرب بشدة ، ودعا المستورد معقلاً للبارزة فبارزا ،
وطعنه المستورد حتى خرج سنان الرمح من ظهره ، وضربه معقل بالسيف حتى
خالط سيفه أم الدماغ ، فوقع ميتاً ، وقُتل معقل ، وشد أصحابه على الخوارج ،
فالبثوم أن قتلهم .
(تاريخ الطبري ٦ : ١١١)

٤١٠ — كلمات حكيمة للمستورد

كان المستورد يقول : إذا أفضيتُ بسرى إلى صديقي فأفشاء لم الله ، لأنني
كنت أولى بحفظه ، ويقول : لا تُفشي إلى أحدٍ سرّاً ، وإن كان غليظاً ، إلا
على جهة المشاورة ، ويقول : كن أحرص على حفظ سرِّ صاحبك ، منك على
ختمين دمك ، ويقول : أول ما يدُلُّ عليه عائبُ الناس معرفته بالعيوب ، ولا يعيب
إلا معيباً ، ويقول : المال غير باقي عليك ، فاشتر من الحمد ما يبقى عليك ،
ويقول : بذلُ المال في حقِّه استدعاء للزَّيد من الجواد^(٢) ، وكان يُكثِّر أن
يقول : لو ملكْتُ الأرض بحذاقيرها ، ثم دُعيت إلى أن أستفيد بها خطيئة ما فعلت .
(الكامل للبرد ٢ : ١٥٥ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ من ٤٥٢)

اتِّمَارُ الْخَوَارِجِ ثَانِيَةٌ

٤١١ - خطبة حيان بن ظبيان

فلما كانت سنة ٥٨ هـ ، جمع حَيَّانُ بْنُ ظَبْيَانَ السَّلَاسِيَّ أَصْحَابَهُ إِلَيْهِ ، ثُمَّ لَمَّ بِهِ
 حَمْدَ اللَّهِ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ :
 « أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ كَتَبَ عَلَيْنَا الْجِهَادَ ، فِتْنًا مِّنْ قَضَى نَحْبِهِ ^(١) ،
 وَمِنَّا مَن يَنْتَظِرُ ، وَأُولَئِكَ الْأَبْرَارُ الْفَائِزُونَ بِفَضْلِهِمْ ، وَمَنْ يَكُنْ مِنَّا مَن يَنْتَظِرُ ،
 فَهُوَ مِنْ سَلَفِنَا الْقَاضِينَ نَحْبَهُمْ ، السَّابِقِينَ بِإِحْسَانٍ ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَرِيدُ اللَّهُ ثَوَابَهُ ،
 فَلَيْسَ لَكَ سَبِيلٌ أَصْحَابُهُ وَإِخْوَانُهُ ، يُؤْتِيهِ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ،
 وَاللَّهُ مَعَ الْمُحْسِنِينَ » .

٤١٢ - خطبة معاذ بن جوين

قَالَ مُعَاذُ بْنُ جُوَيْنٍ الطَّائِي : « يَا أَهْلَ الْإِسْلَامَ : إِنَّا وَاللَّهِ لَوَعَلْنَا أَنَا إِذَا
 تَرَكْنَا جِهَادَ الظُّلْمَةِ ، وَإِنْكَارَ الْجَوْرِ ، كَانُوا لَنَا بِهِ عِنْدَ اللَّهِ عُذْرًا ، لَكِنْ تَرَكُّهُ
 أَيْسَرَ عَلَيْنَا ، وَأَخَفَ مِنْ رُكُوبِهِ ، وَلَكِنَّا قَدْ عَلِمْنَا وَاسْتَيْقَنَّا أَنَّهُ لَا عُذْرَ لَنَا ، وَقَدْ
 جَعَلَ لَنَا الْقُلُوبَ وَالْأَصْمَاعَ ، حَتَّى تُنْكَرِ الظُّلْمَ ، وَتُنْفِرَ الْجَوْرَ ، وَنَجَاهِدَ الظَّالِمِينَ » .
 ثُمَّ قَالَ : ابْطُ يَدُكَ نَبَايِعَكَ ، وَبَايِعَهُ الْقَوْمَ ، فَضَرَبُوا عَلَى يَدِ حَيَّانَ فَبَايَعُوهُ ،
 وَذَلِكَ فِي إِمَارَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُثْمَانَ الثَّقَفِيِّ ^(٢) .



ثم إن القوم اجتمعوا بعد ذلك بأيام إلى منزل مُعَاذِ بْنِ جُوَيْنٍ ، فَقَالَ لَهُمْ

[١] الشعب : الأجل والتفر . [٢] وهو ابن أم الحكم أخت معاوية بن أبي سفيان .

حيان : عبادَ الله ، أُشِيرُوا بِرَأْيِكُمْ ، أَيْنَ تَأْمُرُونَنِي أَنْ أَخْرَجَ ؟ فَقَالَ مُعَاذُ : إِنْى أَرى أَنْ تَسِيرَ بِنَا إِلَى حُلُوانَ^(١) حَتَّى نَنْزِلَهَا ، فَإِنَّهَا كُورَةٌ بَيْنَ السَّهْلِ وَالْحِلِيلِ ، وَبَيْنَ الْمِصْرِ وَالنَّفَرِ - يَعْنِي بِالنَّفَرِ الرَّيَّ - فَنَ كَانَ يَرى رَأْيَنَا مِنْ أَهْلِ الْمِصْرِ وَالنَّفَرِ وَالْجِبَالِ وَالسَّوَادِ^(٢) لِحَقِّ بِنَا .

٤١٣ - رد حيان بن ظبيان

فَقَالَ لَهُ حَيَّانُ : « عَدُوُّكَ مُعَايِجُكَ قَبْلَ اجْتِمَاعِ النَّاسِ إِلَيْكَ ، لِمَعْرِى لَا يَتَرَكُونُكَ حَتَّى يَجْتَمِعُوا إِلَيْكَ ، وَلَكِنْ قَدْ رَأَيْتَ أَنْ أَخْرَجَ مَعَكُمْ فِي جَانِبِ الْكُوفَةِ وَالسَّبَّخَةِ ، أَوْ زُرَّارَةَ^(٣) وَالْحِجِيرَةِ ، ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى نَلْحَقَ بِرَبَّنَا ، فَإِنِى وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكُمْ لَا تَقْدِرُونَ - وَأَنْتُمْ دُونَ الْمَائَةِ رَجُلٍ - أَنْ تَهْزِمُوا عَدُوَّكُمْ ، وَلَا أَنْ يَشْتَدَّ نَكَائِتُكُمْ فِيهِمْ ، وَلَكِنْ مَتَى عَلَّمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ قَدْ أَجْهَدْتُمْ أَنْفُسَكُمْ فِي جِهَادِ عَدُوِّهِ وَعَدُوِّكُمْ ، كَانَ لَكُمْ بِهِ الْمَذْرُوءُ ، وَخَرَجْتُمْ مِنَ الْإِيمِ » قَالُوا : رَأَيْنَا رَأْيَكَ .

٤١٤ - مقال عتريس بن عرقوب

فَقَالَ لَهُمْ عَتْرِيسُ بْنُ عُرْقُوبٍ : وَلَكِنْ لَا أَرى رَأْيَ جِئَانِكُمْ ، فَانْظُرُوا فِي رَأْيِ لَكُمْ ، إِنِى لَا إِخَالَكُمُ تَجْهَلُونَ مَعْرِفَتِى بِالْحَرْبِ ، وَتَجْرِبَتِى لِلْأُمُورِ ، فَقَالُوا لَهُ : أَجَلٌ ، أَنْتَ كَمَا ذَكَرْتَ ، فَمَا رَأْيُكَ ؟ قَالَ : مَا أَرى أَنْ تَخْرُجُوا عَلَى النَّاسِ بِالْمِصْرِ ، إِنَّكُمْ قَلِيلٌ فِي كَثِيرٍ ، وَاللَّهِ مَا تَزِيدُونَ عَلَى أَنْ تَخْزِرُوا^(٤) أَنْفُسَكُمْ ، وَتُقَرِّبُوا أَعْيُنَهُمْ بِقَتْلِكُمْ ، وَلَيْسَ هَكَذَا تَكُونُ الْمَكَايِدَةُ ، إِذَا أَثَرْتُمْ أَنْ تَخْرُجُوا عَلَى قَوْمِكُمْ ، فَكَيْدُوا عَدُوَّكُمْ مَا يَفْضَحُكُمْ » قَالُوا : فَمَا الرَّأْيُ ؟ قَالَ : تَسِيرُونَ إِلَى الْكُورَةِ الَّتِى

[١] بَدْ بَغَارَس . [٢] أَى سَوَادِ الْعِرَاقِ . [٣] حَلَّةٌ بِالْكُوفَةِ . [٤] أَى تَعْلِكُمْ .

أشار بزولها مُعَاذُ بْنُ جُوَيْنٍ ، يعنى حُلْوَانُ ، أو تسيرون بنا إلى عين التَّمَرِ ، فتقيم بها ، فإذا سمع بنا إخواننا أتونا من كلِّ جانب وأوب^(١) »

٤١٥ — رد حيان

فقال له حيان : « إنك والله لومِرت بنا أنت وجميع أصحابك نحو أحد هذين الوجهين ، ما اطمانتم به حتى يلحق بكم خيول أهل مصر ، فأنتي تشفون أنفسكم ؟ فوالله ماعدتكم بالكثيرة ، التي ينبغي أن تطعموا معها بالنصر في الدنيا على الظالمين المعتدين ، فاخرجوا بجانب من مصركم هذا ، فقاتلوا عن أمر الله من خالف طاعة الله ، ولا ترَبُّصُوا ولا تنتظروا ، فإنكم إنما تبادرون بذلك إلى الجنة ، وتخرجون أنفسكم بذلك من الفتنة » . قالوا : أما إذا كان لابد لنا ، فإنما لن نخالفك ، فاخرج حيث أحييت .

٤١٦ — خطبة حيان

ثم إن أصحاب حيان بن ظبيان اجتمعوا إليه ، فقال لهم : « يا قوم : إن الله قد جعلكم لخير ، وعلى خير ، والله الذي لا إله غيره ، ما سررت بشيء قط في الدنيا بعد ما أسلمت ، سرورى لخرجى هذا على الظلمة الأئمة ، فوالله ما أحب أن الدنيا بمخافيرها لى ، وأن الله حرمنى في مخرجى هذا الشهادة ، وإنى قد رأيت أن نخرج حتى نزل جانب دار جرير ، فإذا خرج إليكم الأحزاب ناجزعموم » . فقال عتريس بن عرقوب : أما أن تقاتلهم في جوف مصر ، فإنه يقاتلنا الرجال ، وتصعد النساء والصبيان والإماء فيرموتنا بالحجارة ، فقال لهم رجل منهم : انزلوا بنا إذن من وراء المصر الجسر - وهو موضع زُرارة ، وإنما بنيت

زرارة بعد ذلك إلا أياتا يسيرة كانت منها قبل ذلك - فقال لهم معاذ بن جوين : لا . بل سيروا بنا فلننزل بآتقيا^(١) ، فأسرع ما يأتيكم عدوكم ، فإذا كان ذلك استقبلنا القوم بوجوهنا ، وجعلنا البيوت في ظهورها ، فقاتلناهم من وجه واحد ، فخرجوا ، فبعث إليهم جيش^٢ ، فقتلوا جميعا . (تاريخ الطبري ٦ : ١٧٢)

٤١٧ - خطبة مسلم بن عبيس

حين خرج لقتال الأزارقة

لما ملك نافع بن الأزرق - زعيم الأزارقة^(٣) - بلاد الأهواز ، وفشا أعماله في السواد ، ارتاع لذلك أهل البصرة ، فاجتمعوا إلى الأحنف بن قيس ، فشكوا ذلك إليه ، وقالوا : ليس بيننا وبين العدو إلا ليلتان ، وسيرتهم ماترى ، فقال الأحنف : إن فيكم في مصركم إن ظفروا به كيف لهم في سوادكم ، فجدوا في جهاد عدوكم ، فاجتمع إليه عشرة آلاف ، فأتى عبد الله بن الحرث بن نوفل^(٤) أمير البصرة ، فسأله أن يؤمر عليهم ، فاختر لهم مسلم بن عبيس ، وكان ديننا شجاعا ، فأمره عليهم وشيعة .

فلما نفذ من جسر البصرة أقبل على الناس فقال : « إني ما خرجت لانتصار^(٥) »

[١] باقيا : ناحية من نواحي الكوفة .

[٢] قسنا لك في « مناظرة عداقة بن الزبير للخوارج » أن الخوارج كانوا قد مضوا إلى مكة سنة ٦٤ ليمتروا الحرم من جيش يزيد ، وناصروا ابن الزبير ، وقتلوا معه ، ثم نأظروه ، فلم يرقهم فاستمروا منه ، ففارقوا عنه ، وصارت طائفة كبيرة منهم إلى البصرة ، وبايعوا نافع بن الأزرق الحنفي ، وسموه أمير المؤمنين ، وخرج بهم إلى الأهواز ، فقبلوا عليها وعلى ما وراءها من أرض فارس وكرمان ، ونسبوا إليه قليل لهم : الأزارقة ، وهذه الفرقة من أشد فرق الخوارج بأسا ، وأصلها عودا ، وأكثرها عددا وأخطرها حوادث وأنباء .

[٣] انظر هامش ص ٢٠٣ . [٤] أى للجب ، وأصله من امتار لأمله : جلب لهم لليرة بالكسر ومع اللام .

ذهب ولا فضة ، وإني لأحارب قوماً إن ظفرت بهم فسا وراهم إلا سيوفهم ورماحهم ، فمن كان شأنه الجهاد فلينهض ، ومن أحب الحياة فليرجع .
فلما صاروا « بدُولَاب » خرج إليهم نافع ، فاقتلوا قتالا شديداً ، وقتل في المعركة ابن عيسى وابن الأزرق سنة ٦٥ هـ . (الكامل للبرد ٢ : ١٨٠)

خطب المهلب بن أبي صفرة

٤١٨ - خطبته في حث جنده على قتال الأزارقة

وكان المهلب بن أبي صفرة - وهو على قتال الأزارقة - يأمر أصحابه بالتحريض ويخوفهم اليك ، وإن بُد منهم العدو ، ويقول : « احذروا أن تُسكادوا كما تُكيدون ، ولا تقولوا هَزَمْنَا وَغَلَبْنَا . فإن القوم خائفون وجِلون ، والضرورة تفتح باب الحيلة ، ثم قام فيهم خطيباً فقال : « يا أيها الناس ، إنكم قد عرفتم مذهب هؤلاء الخوارج ، وأنهم إن قَدَرُوا عليكم فتتوكم في دينكم ، وسفكوا دماءكم فقاتلهم على ما قاتل عليه أولهم على بن أبي طالب صلوات الله عليه ، فقد لقيهم قبلكم الصابر المحتسب مُسْلِمٌ بن عُيْنَس ، والعجل المفرط عثمان بن عُبَيْد الله ^(١) ، والمعصي المخالف حارثة بن بدر ، فَقَتَلُوا جميعاً وقتلوا ، فالقوم يجد

[١] هو أخو عمر بن عبيد الله بن مصر الذي ولاه ابن الزبير البصرة (تولاهما بعد عبد الله بن الحرث ابن نوفل) ، وولى عثمان محاربة الأزارقة بعد مسلم بن عيسى ، وخرج إليهم في نبي عمر ألفاً ، فلما دبروا إليهم دحيلة نرض إليهم الخوارج - وذلك قيل الكاهن - فقال عثمان بن عبيد الله لحارثة بن بدر : أما الخوارج إلا ما أرى ؟ فقال له حارثة : حبك هؤلاء ، قل : لا جرم ، والله لا أقدي حتى أناجزم ، فقال له حارثة : إن هؤلاء لا يقاتلون بالتسلف ، فأبى على نفسك وجندك ، قال : أيتهم أهل المراق إلا جبناً ، وأنت باحارثة ما ملكت الحرب ؟ أنت والله خير منا أعلم (يعرض له بالشراب) فضرب حارثة فاضل وحاربهم عثمان يومه إلى أن غابت الشمس ، فأجلت الحرب عنه قليلا ، وانهمز الناس ، وولى حربهم بعده حارثة بن بدر فهزموه أيضاً ، فهرب يركض حتى أتى دحيلة ، فركب سقينة هو وجعته من أصحابه ، وأقام

وَحَدَّثَ ، فَإِنَّمَا مَهَتَكُمْ ^(١) وَعِيدَكُمْ ، وَعَارَضَكُمْ ، وَتَقَعُّمْ فِي أَحْسَابِكُمْ وَأَدْيَانِكُمْ
أَنْ يَغْلِبَكُمْ هَؤُلَاءِ عَلَى فَيْتِكُمْ ، وَيَطْشُوا حَرِيْعَكُمْ .

(الكامل للبرد ٢ : ١٨٩ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٣٨٥)

٤١٩ — خطبة أخرى له في جنده

وخطب أصحابه ، وقد مال الخوارج بأجمعهم على العسكر ، وانهزم الناس
بِسُؤْلَافٍ فَقَالَ :

« وَاللَّهِ مَا بَيْكُم مِّنْ قَلَّةٍ ، وَمَا ذَهَبَ عَنْكُمُ إِلَّا أَهْلُ الْجَبَنِ وَالضَّعْفِ ، وَالطَّمَعِ
وَالطَّبْعِ ^(٢) ، فَإِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ ^(٣) فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ، فَسِيرُوا إِلَى
عَدُوِّكُمْ عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ » . (الكامل للبرد ٢ : ١٩١ ، وشرح ابن أبي م ١ : ص ٣٨٦)

٤٢٠ — نص آخر

وروى الطبري خطبة المهلب في أصحابه يوم هزموا فقال :

ثُمَّ إِنَّ الْخَوَارِجَ شَدَّتْ عَلَى النَّاسِ بِأَجْمَعِهَا شِدَّةً مَّنْكَرَةً ، فَأَجْفَلَ النَّاسُ ،
وَانْصَاعُوا ^(٤) مَنِهْزِمِينَ ، لَا تَقْوَى ^(٥) أُمٌّ عَلَى وَلَدٍ ، حَتَّى بَلَغَ الْبَصْرَةَ هَزِيمَةُ النَّاسِ ،
وَخَافُوا السَّبَاءَ ^(٦) ، وَأَسْرَعَ الْمُهَلَّبُ حَتَّى سَبَقَهُمْ إِلَى مَكَانٍ يُقَالُ ^(٧) ، فِي جَانِبٍ عَنِ
سَنَنِ الْمَنِهْزِمِينَ ، ثُمَّ إِنَّهُ نَادَى النَّاسَ : إِلَيَّ إِلَى عِبَادِ اللَّهِ ، فَتَابَ إِلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِّنْ

رجل من بني تميم ، وعليه سلاحه ، والخوارج وراءه ، ضاحك به : يا حارث ليس مثلي ضيف ، فقال للراح :
قرب ، ف قرب إلى جرف ، فطرق بسلاحه في السفينة ، فساخت بالقوم جيأ ، فأتوا غرقا ، وتوجه الخوارج
نحو البصرة ، فضع الناس ، وخطوم خوافا شديدا ، واختاروا لتألم المهلب بن أبي صفرة ، فولاه القبايع
(وهو الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة الخزوي والي البصرة من قبل ابن الزبير بعد عمر بن عبد الله) .

[١] جمع ما من ، وهو البعد والحامد . [٢] الشين واليب .

[٣] القرح ويضم غش السلاح ونحوه مما يخرج بالبدن ، أو بالقنح : الآثار ، وبالضم : الألم .

[٤] انصاع : اعتل راجعا مسرعا . [٥] مرة لا يلو على أحد : أي لا يقف ولا ينتظر .

[٦] السبي . [٧] الباغ : ما ارتفع من الأرض .

قومه ، فاجتمع إليه منهم نحو من ثلاثة آلاف ، فلما نظر إلى من قد اجتمع رضى جاعتهم ، حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإن الله ربما يَكِلُ الجمع الكثير إلى أنفسهم فيَهْزَمُونَ ، ويُنزِل النصر على الجمع اليسير فيَظْهَرُونَ ، ولمرى ما بكم الآن من قلة ، إني لجماعتكم لراضٍ ، وإنكم لأنتم أهل الصبر ، وفُرسان أهل المِصر ، وما أحبُّ أن أحداً ممن انهزم معكم ، فإنهم لو كانوا فيكم ما زادوكم إلا خَبَالاً ^(١) ، عَزَمْتُ على كل امرئ منكم لما أخذ عشرة أحجار ^(٢) ، ثم امشوا بنا نحو عسكرهم ، فإنهم الآن آمنون ، وقد خرجت خيلهم في طلب إخوانكم ، فوالله إني لأرجو ألا ترجع إليهم خيلهم ، حتى تستيحيوا عسكرهم ، وتقتلوا أميرهم » . (تاريخ الطبري ٧ : ٨٨)

٤٣١ - خطبته في جنده وقد استخلف عليهم ابنه المغيرة

ولما كتب إليه مُصَنَّب بن الزبير أن أقدم على ، واستخلف ابنك المغيرة ، جمع الناس فقال لهم : « إني قد استخلفت عليكم المغيرة ، وهو أبو صغيركم : رقة ورحمة ، وابن كبيركم : طاعة وبراً وتبجيلاً ، وأخو مثله : مؤاسةً ومناصحةً ، فلتَخْسُنْ له طاعتكم ، وليلن له جانبكم ، فوالله ما أردت صواباً قط إلا سبقتني إليه » ، ثم مضى إلى مصعب .

(الكامل للبدر ٢ : ١٩٨ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٤٩ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : من ٣٨٩)

٤٣٢ - خطبة الزبير بن علي في الأزارقة

وكان نافع بن الأزرق قبل قتله استخلف عبيد الله بن بشير بن الماحوز

[١] ضاعا . [٢] وفي الكامل للبدر : وقال المهلب لأصحابه : أعدوا غللاً فيها حجارة ، وارموا بها في وقت النفاة ، فلما تصد الفارس ، وتصرع الرجل ، وقال رجل من الخوارج :
أنا بأحجار ليقتلنا بها . وهل تغل الأبطال ويحك بالحبر ؟

السَّليطى ، وقتل ابن الماحوز يوم سَلَى وَسَلَبَى ^(١) ، فاجتمعت الخوارج بأَرْجَان ، فبايعوا الزُّبير بن عَلى السليطى ، فرأى فيهم انكساراً شديداً ، وضعفاً يَبِئْنَا ، فقال لهم : اجتمعوا .

نَحْمِدُ اللهَ ، وأثنى عليه ، وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم أقبل عليهم فقال : « إن البلاء للمؤمنين تحصيلٌ وأجرٌ ، وهو على الكافرين عقوبة وخِزْيٌ ، وإن يُصَبَّ منكم أمير المؤمنين ، فصار إليه خيرٌ مما خَلَفَ ، وقد أصبتم منهم مسلم بن عُبَيْس ، وريمًا الأَجْدَم ^(٢) ، والحجاج بن باب ، وحارثة بن بدر ، وأشجيتهم المهلب ، وقتلتهم أخاه المَعَارِك ^(٣) ، والله يقول لإخوانكم من المؤمنين : « إِنْ يَمَسَّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ ، وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا يَبْنِى النَّاسُ ، فَيَوْمٌ سَلَى كَانَ لَكُمْ بِلَاءٌ وَتَحْيِصًا ، وَيَوْمٌ سُولَافٌ ^(٤) كَانَ لَهُمْ عَقُوبَةٌ وَنِكَالًا ، فَلَا تُعْلَبُونَ عَلَى الشُّكْرِ فِي حِينِهِ ، وَالصَّبْرِ فِي وَقْتِهِ ، وَثِقُوا بِأَنكُمْ الْمُسْتَخْلَفُونَ فِي الْأَرْضِ ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ » .

(الكامل للبرد ٢ : ١٩٦ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ م : من ٣٨٨)

[١] مجموع القطين موضع واحد بالاهواز قرب جند يسابور ، وقمت فيها وقعة بين الخوارج والمهلب ، وقتل فيها ابن الماحوز رئيس الخوارج ، وق ذلك يقول رجل منهم :

بلى وسلبى مصارع فتية كرام وجرمى لم توسد خدودها

[٢] كان مسلم بن عيسى تقدم إلى أصحابه « يوم دولاب » فقال : إن أصبت فأمرهم الريح بن عمرو الاجنم ، فلما أصيب ابن عيسى أخذ الريح الراية ، فلم يزل يقاتلهم نيفاً وعشرين يوماً حتى قتل ، ثم أخذها الحجاج بن باب الحميرى ، فلم يزل يقاتلهم زهاء شهر حتى قتل أيضاً ، والنقى هو ، وعمران بن الحارث الراسي فاختلفا ضربين ، فمقطايتين .

[٣] وكان ابن الماحوز وجه يمشى جيشه إلى نهر تبرى ، وبها المَعَارِك بن أبى صفرة ، وقتلوه وصلبوه ، فبنى الحجر إلى المهلب ، فوجه ابنه المنيرة ، فدخل نهر تبرى ، فاستنزه ودقته ، وسكن الناس ، واستخلف

بها ورجع إلى أبيه . [٤] وق ذلك اليوم يقول رجل من الخوارج :

وكانن تركنا يوم سولاف منهم أسارى وقتلى فى الجيم مصيرها

٤٣٣ — خطبة عتاب بن ورقاء الرياحي وقد طال عليه الحصار

وانحط الزبير بن عليّ على أصفهان^(١) ، فحصر بها عتاب بن ورقاء الرياحي سبعة أشهر ، وعتاب يحارب في بعضهن ، فلما طال به الحصار ، وأصابه الجهد الشديد ، دعا أصحابه ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : أيها الناس ما تنتظرون وقد أصابكم من الجهد ما قد ترون ؟ فوالله إن^(٢) بقي مع هذا الحصار إلا أن يموت أحدكم على فراشه ، فيجىء أخوه فيدفنه إن استطاع ، وبالحرزى أن يضمف عن ذلك ، ثم يموت هو ، فلا يجد من يدفنه ولا يصلى عليه ، فاتقوا الله ، فوالله ما أتمم بالقليل الذين تهون شوكتهم على عدوهم ، وإن فيكم لفرسان أهل المصر ، وإنكم لصلحاء من أتمم منه ، ولقد حاربتموه مراراً فاتصفتهم منهم ، أخرجوا بنا إلى هؤلاء القوم ، وبكم حياة وقوة ، قبل أن لا يستطيع رجل منكم أن يمشى إلى عدوه من الجهد ، وقبل أن لا يستطيع رجل أن يمتنع من امرأة لو جاءته ، فقاتل رجل عن نفسه وصبر وصدق ، فوالله إني لأرجو إن صدقتموه أن يظفركم الله بهم ، وأن يظفركم عليهم . »

فلما أصبح الفد صلى بهم الصبح ، ثم خرج إلى الخوارج ، وهم غارون ، فلم يشعروا بهم حتى غشوه ، فقاتلوهم بجدة لم ير الخوارج منهم مثله ، فمقرّوا منهم خلقاً ، وقتلوا رئيسهم الزبير بن عليّ ، وانتهزت الخوارج . ثم أدار الخوارج أمرهم بينهم ، فولّوا عليهم قطريّ بن الفضالة المازني وبايعوه . (تاريخ الطبري ٧ : ١٦٦ ، والكمال للبرد ٢ : ٢٠٢ ، وشرح ابن أبي الحديد ١٢ : ص ٢٩١)

[١] أسبان : بفتح الهزة والباء ، وقد تكرر هزتها ، وقد تبدل بأوها فاه .

[٢] إن هنا نافية .

٤٢٤ — نصيحة عرهم العدوى لخالد بن عبدالله

ولما بعث خالد بن عبدالله بن خالد بن أسيد^(١) أخاه عبد العزيز لقتال الأزارقة^(٢)، قام إليه عرهم أخو بني المدوية، فقال :
 « أصلح الله الأمير، إن هذا الحى من تميم تئط^(٣) بقريش منهم رجم^(٤)
 داسة ماسة، وإن الأزارقة ذو بان العرب وسباعها، وليس صاحبهم إلا المباكر
 المناكر، المجرب^(٥) الذى أرصعته الحرب بلياً، وجرسته^(٦)
 وضرسته، وذلك أخو الأزدي المهلب بن أبي صفرة، والله إن غنك أحب إلينا
 من ممينه، ولكنى أخاف عدوات الدهر وغدره، وليس المجرب كمن لا يُسلم،
 ولا الناصح المشفق، كالغاشئ المتهم^(٧)، قال له خالد : امسكت، ما أنت وذاتك ؟
 وقد هزمت الأزارقة عبد العزيز، وأخذوا امرأته^(٨) وفرّ عنها . (ذيل الأمان ص ٣٣)

[١] كان والى البصرة وأعمالها من قبل عبد الملك بن مروان من سنة ٧١ إلى سنة ٧٤ (انظر ص ٢٢٠) .
 [٢] قال أبو العباس المبرد فى الكامل (٢ : ٢٠٧) : « ومضى قطرى إلى كerman ، فانصرف خالد إلى البصرة ، فأقام قطرى بكرمان أشهراً ، ثم عمد لفارس ، وخرج خالد إلى الاهواز ، ونذب قناس رجلاً فجعلوا يطلبون المهلب ، فقال خالد : « ذهب المهلب يحفظ هذا المصر ، إلى قد وليت أئني قتال الأزارقة » فولى أخاه عبد العزيز ، واستخلف المهلب على الاهواز فى ثلثة ، ومضى عبد العزيز فى ثلاثين ألفاً ، فجعل عبد العزيز يقول فى طريقه : « يزعم أهل البصرة أن هذا الامر لا يتم إلا بالمهلب فيملكون ! » إلى أن قال : فناهضهم عبد العزيز ، فواقوه ساعة ، ثم انهزموا عنه مكيدة ، فاتبعهم ، فقال له الناس : لا تتبعهم فإننا على غير تسمية فأبى ، فلم يزل فى آثارهم حتى اقتحموا عقبة ، فاقترعهم وراهم ، والناس ينهونه ويأبى وكان لهم فى بطن العقبة كمين ، فلما صاروا وراهم خرج عليهم الكمين ، وأعاجز عبد العزيز ، واتبعهم الخوارج يقتلونهم كيف شاؤوا .

[٣] أصله من أط الرحل أطيلا : صوت . [٤] من حرب السنان : حدده .

[٥] التجريس : التحكيم والتجربة ، وضرسته الحرب تضريساً : جربته وأحكته أيضاً .

[٦] وكان عبد العزيز قد خرج بامرأته أم حصن بنت المنذر بن الجارود ، ففى الخوارج النساء يومئذ وكانت أم حصن ممن سين ، قال ابن عبد ربه فى العقد الفريد (٢ : ٧٥) : « فأقاموها فى السوق حائرة بادية الخاسن ، فاعترضوها وقلبوها ، وكانت من أكل الناس بكلاً وحشاً ، فتزايدت فيها العرب ، والموالى ، حتى بلغوها تسعين ألفاً ، فأقبل رجل من الخوارج من عبد القيس من خلفها ، فضرب عنقه ، فأخذوه ورضوه إلى قطرى بن النجاء ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، إن هذا استهك تسعين ألفاً من بيت

٤٣٥ — خطبة قطري بن الفجاءة^(١)

وصدّ قطريُّ بن الفُجَاءَةِ منبر الأزارقة ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
 « أما بعد : فإني أحذركم الدنيا ، فإنها خلوة خَصِرَةٍ ^(٢) ، حُفَّتْ ^(٣)
 بالشّهوات ، وراقت ^(٤) بالقليل ، وَتَحَيَّيْتُ بالعاجلة ^(٥) ، وَحَلَيْتُ ^(٦) بالآمال ،
 وتزيّنت بالغرور ، لاتدوم حَبْرَتُهَا ^(٧) ، ولا تُؤْمِنُ فَجَعَتَهَا ، غَرَارَةٌ ضَرَّارَةٌ ،
 خَوَانَةٌ غَدَّارَةٌ ، وَحَالَّةٌ ^(٨) زَائِلَةٌ ، وَنَافِذَةٌ ^(٩) بَائِدَةٌ ، أَكَالَةٌ غَوَالَةٌ ^(١٠) ، بَذَالَةٌ
 نَقَّالَةٌ ، لَا تَعْدُو إِذَا هِيَ تَنَاهَتْ إِلَى أُمْنِيَّةِ أَهْلِ الرِّغْبَةِ فِيهَا ، وَالرِّضَا عَنْهَا ، أَنْ
 تَكُونَ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ ، فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ ،

اللذ ، وقتل أمة من إماء المؤمنين ، فقال له : ماهول ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، إني رأيت هؤلاء قد
 تنازعوا عليها ، حتى ارتفعت الأصوات ، واحمرت الخدق ، فلم يبق إلا الحُجُبُ بِالْيَافِ ، فرأيت أن لمحني
 ألفاً في جنب ماخِشِيَتٍ مِنَ الْفِتْنَةِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ هَيْتَ ، فقال قطري : خلوا عنه ، عين من عيون
 الله أصابها » اهـ .

[١] أورد الشريف الرضي رحمه الله هذه الخطبة في نيج البلاغة ، وعزاهما إلى الإمام عليّ كرم الله
 وجهه ، وكذلك القاضي في دستور معالم الحكم ، وقال ابن أبي الحديد في شرحه (٢٠٢ : ص ٢٤٢) :
 « وهذه الخطبة ذكرها شيخنا أبو عثمان الجاحظ في البيان والبيان ، ورواها لقطري بن الفجاءة ،
 والناس يروونها لأمر المؤمنين عليه السلام ، وقد رأيتها في كتاب الوثيق لأبي عبيد الله المرزباني ، مروية
 لأمر المؤمنين عليه السلام ، وهي بكلام أمير المؤمنين أشبه ، وليس يبعد عندي أن يكون قطري قد خطب
 بها بعد أن أخذها عن بعض أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام ، فإن الخوارج كانوا أصحابه وأنصاره ، وقد
 لقي قطري أكثرهم » .

[٢] أي ناضرة ، من خضر الزرع كفرح ، فهو أخضر وخضر ، وهو من كلام رسول الله صلى الله عليه
 عليه وسلم — انظر خطبته في الجزء الأول ص ٥٥ : [٣] أي أطافت بها الشهوات .

[٤] أعجبت أهلها بمتاع قليل ليس بدائم . [٥] أي وتحببت إليهم بالآفة العاجلة ، (والنفس مولمة
 بحب العاجل) . [٦] حلّيت للرأفة فهي حال وحالية كنتحت « وفي رواية : وتحت » .

[٧] الحيرة : السرور ، وفي رواية : « لا تقوم نضرتها » ، لاقوم : لا تثبت ، والنضرة : النعمة
 والنفى والمحسن . [٨] أي متحولة متغيرة من حال يحول ، وفي رواية « ختلة » أي خادعة .

[٩] أي هالكة فانية من قد يفقد كفرح . [١٠] أي مهلكة من غاله ينوله .

فَأَصْبَحَ هَشِيماً ^(١) تَذَرُوهُ الرِّيحُ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً ، مع أن
امراً لم يكن منها في حَبْزَةٍ ، إِلَّا أَعْقَبَتْهُ بَعْدَهَا عِزَّةٌ ، ولم يَلْقَ من سَرَّأُهَا بَطْناً ،
إِلَّا مَنْحَتْهُ من ضَرَّأُهَا ظَهْراً ^(٢) ، ولم تَطْلُ غَيْثُهُ ^(٣) رِخاءً ، إِلَّا هَطَلَتْ ^(٤) عليه مِرْنَةٌ
بَلَاءً ، وَحَرَى إِذَا أَصْبَحَتْ لَهُ مَتَصَرَّةٌ ، أَنْ تُنْمِىَ لَهُ خَاذِلَةٌ مُتَنَكِّرَةٌ ، وَإِنْ جَانِبُ
مِنْهَا اعْدُوذَبَ وَالْخُلُوْلَى ^(٥) ، أَمْرٌ عَلَيْهِ مِنْهَا جَانِبٌ وَأَوْبَى ^(٦) ، وَإِنْ آتَتْ أَمْرًا
مِنْ غَضَارَتِهَا ^(٧) وَرَفَاهَتِهَا نَعْمًا ، أَرْهَقَتْهُ مِنْ نَوَائِبِهَا تَعَبًا ، ولم يُنْسِ أَمْرٌ مِنْهَا
فِي جَنَاحِ أَمْنٍ ، إِلَّا أَصْبَحَ مِنْهَا عَلَى قَوَادِمِ ^(٨) خَوْفٍ ، غَرَّارَةٌ ، غُرُورٌ مَا فِيهَا ،
فَانِيَةٌ ، فَإِنْ مَا عَلَيْهَا ، لِأَخِيرٍ فِي شَيْءٍ مِنْ زَادِهَا إِلَّا التَّقْوَى ، مِنْ أَقَلِّ مِنْهَا اسْتَكْثَرُ
مِمَّا يُؤْمِنُهُ ، وَمِنْ اسْتَكْثَرُ مِنْهُ اسْتَكْثَرُ مِمَّا يُؤْبِقُهُ ^(٩) ، وَيُطِيلُ حُزْنَهُ ، وَيُشْكِي
عَيْنَهُ ، كَمْ وَاتَّقِ بِهَا قَدْ جَمَعَتْهُ ، وَذَى طُمَأْنِينَةً إِلَيْهَا قَدْ صَرَعَتْهُ ^(١٠) ، وَذَى
اِخْتِيَالٍ ^(١١) فِيهَا قَدْ خَدَعَتْهُ ، وَكَمْ مِنْ ذَى أَثْبَةٍ فِيهَا قَدْ صَيَّرَتْهُ حَقِيرًا ، وَذَى نَحْوَةٍ

- [١] الهشيم : ما تهشم وتطحم ، وتذروه : أى تطيره . [٢] كنى بالبطن والظهر عن إقبالها عليه وإدبارها عنه لأن الملاقاة بالصدر ملاقاة بالوجه ، فهو مقبل عليك ، والمطيك ظهره مدبر عنك .
[٣] طله السحاب يطله : إنا أمطره مطراً قليلاً ، وربما كانت « غيثه » مصحفة عن « غيبه » والنية
بفتح الغين : المطرة غير الكثيرة ، وفي رواية « ديمة » والدية بالكسر : مطر يدوم في سكون بلا
رعد وبرق . [٤] هطلت السماء بكسرها هطلا : تابع مطرها ، وفي رواية : « هتفت » هتفت السماء
بكسرها أيضاً هتتاً : انصبت ، أو هو فوق المظل ، والمِرْنَةُ : السحابة أو ذات اللاء .
[٥] أى صار عذبا حلوا . [٦] أمر : صار مرا ، وأوبى : سهل عن أوبأ ، أى صار ويطأ ،
وبئت الأرض كفرح وكرم وعنى : وأويأت : صارت كثيرة الوياه ، وهو الطامعون أو كل مرض علم .
[٧] التضارة : النعمة والمنة والمحب ، وأرهقه : حمله على مالا يطيقه ، وفي رواية : « لا ينال أَمْرٌ
من غَضَارَتِهَا رِغْبًا » والرغب بالتحريك ما ترغب فيه ، وفي رواية : « فإن آتت أَمْرًا من غصونها ورقا » ،
وفي رواية : « وإن لبس أَمْرٌ من غَضَارَتِهَا وَرَفَاهَتِهَا نَعْمًا ، أَرْهَقَتْهُ مِنْ نَوَائِبِهَا غَمًا » .
[٨] القوادم : أربع أو خمس ريشات في مقدم الجناح ، الواحدة قادمة ، وخمس الحروف بالقوادم لأنها
مقادير الريش ، والراكب عليها يمرض سقوط قريب . [٩] يهلكه . [١٠] وفي رواية : « وذى
حكم تفتت إليها قد صرعت » . [١١] الاختيال : الكبر والعجب ، والأبهة : النظفة ، والبهجة
والكبر والنحوه .

قد رَدَّته ذليلاً ، وكَم من ذى تاج قد كَبَّته ^(١) للبدن والفم ، سُلْطَانَهَا دُؤْل ،
وعيشها رَتْق ^(٢) ، وَعَذْبُهَا أُجَاجٌ ، وَخُلُوهَا صَبْرٌ ، وَغِدَاؤُهَا سِمَامٌ ، وَأَسْبَابُهَا ^(٣)
رِمَامٌ ، وَقِطَافُهَا سَلَعٌ ^(٤) ، حَيْثُا بَعَرَضَ مَوْتُ ، وَصَحِيحُهَا بَعَرَضُ سُقْمٍ ، وَمَنِيعُهَا
بَعَرَضُ اهْتِضَامٍ ، مَلِكُهَا مَسْلُوبٌ ، وَعَزِيزُهَا مَقْلُوبٌ ، وَسَلِيمُهَا مَنَكُوبٌ ،
وَجَامِعُهَا مَخْرُوبٌ ^(٥) ، مع أن وراء ذلك سَكَرَاتِ المَوْتِ ، وَهَوْلُ المُطْلَعِ ،
وَالْوَقُوفِ بَيْنَ يَدَى الْحَكَمِ الْمَذَلِّ « لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا ، وَيَجْزِيَ
الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى » .

الستم في مساكن من كَانَ أطولَ مِنْكُمْ أعماراً ، وأَوْضَحَ مِنْكُمْ آثَاراً ، وَأَعْدَّ
عَدِيداً ، وَأَكْثَفَ جُنُوداً ، وَأَعْتَدَ عَنَاداً ^(٦) ، وَأَطولَ عِمَاداً ؟ تُعْبِدُوا ^(٧) للدنيا
أى تُعْبُدُوا ! وآثروها أى إِيَّاهُ ! وَظَلَمْنَا عَنْهَا بِالْكُرْهِ وَالصَّفَارِ ! فهل بَلَّغْتُمْ أَنَّ الدُّنْيَا
سَمَحَتْ لَهُمْ نَفْساً بَغْدِيَّةً ، أَوْ أَغْنَتْ عَنْهُمْ فِيمَا قَدْ أَهْلَكْتَهُمْ بِخُطْبٍ ^(٨) ؟ بل قد
أَرَهَقْتَهُم بِالْفَوَادِحِ ^(٩) ، وَضَعُضَتَهُم بِالنَّوَائِبِ ، وَعَقَرْتَهُم بِالمَصَائِبِ ^(١٠) ، وَقَدْ

[١] صرخته وقلبه . [٢] رتق الماء كفرح ونصر : كدر ، فهو رتق كمدل وكتف وجبل ،
وأجاج : ملح مر ، وسام جمع سم مثلث السين . [٣] أسباب جمع سبب : وهز الحبل ، ورمام :
بالية ، حبل أرمام ، ورمام : أى بال . [٤] السلع : شجر مر ، أو سم ، أو خرب من الصبر ، أو
بقلة خبيثة الطعم . [٥] مسلوب ، من حربه حرباً كإليه طلباً : سلب ماله فهو محروب وحريب ، وفي
رواية : « وجارها محروب » . [٦] العناد : العدة ، وقد عتد ككرم عتاداً فهو عتيد : أى حاضر
مهماً مدد ، وفي رواية : « وأخذ عتوداً » من عند عن الطريق كنصر وسمح وكرم عتوداً : أى مال ،
وفي رواية : « وأشدَّ عقوداً » . [٧] أى استعبدتهم الدنيا ، تعبدته : اتخذه عبداً .
[٨] أى بشأن وأمر . [٩] الفوادح : النوائب المثقلة ، من فدحه الدين إذا أهله ، وفي رواية :
« الفوادح » والفوادح جمع فادح : وهو أكل يقع في الشجر والأستان ، وفي رواية : « وأوهقهم »
أى جعلتهم في الوهق بفتح الهاء وتكيتها : وهو جبل كالطول .

[١٠] وفي رواية : « وعقرتهم بالفواجع » وفي رواية : « وعقرتهم المناخر » ووطنهم بالناسم ،
عقرتهم المناخر : أُلصقت أنوفهم بالفر (كسب وبسكن) وهو الزراب ، والمناخر جمع منخر بفتح اللام
والهاء ، وبكرهما ، وبضمهما ، وكبلس : الأنت ، والناسم جمع منسم كبلس وهو خذ البير .

رَأَيْتُمْ تَنْكُرُهَا لِمَنْ دَانَ^(١) لَهَا ، وَأَخْلَدَ إِلَيْهَا ، حِينَ ظَنَعُوا عَنْهَا لِفِرَاقِ الْآبَدِ ، إِلَى
آخِرِ الْمُسْتَدِ^(٢) ، هَلْ زَوَّدْتَهُمْ إِلَّا السَّنْبَ^(٣) ، وَأَحْلَتَهُمْ إِلَّا الضَّنْكَ ، أَوْ نَوَّرَتْ
لَهُمْ إِلَّا الظُّلْمَةَ ، أَوْ أَعَقَبْتَهُمْ إِلَّا النَّدَامَةَ ؟ أَفْهَذِهِ تَوْفِيرُونَ ، أَمْ عَلَى هَذِهِ تَحْرِصُونَ ،
أَمْ إِلَيْهَا تَطْمَثُونَ ؟ يَقُولُ اللَّهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا
نُوفِ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُنْجِسُونَ ، وَأُوَائِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي
الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » ، فَبُنِيتِ الدَّارُ
لِمَنْ لَمْ يَتَّهَمْهَا ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا عَلَى وَجَلٍ مِنْهَا .

فَاعْمَلُوا - وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ - أَنْكُمْ تَارِكُوها لِآبَدٍ ، فَإِنَّمَا هِيَ كَمَا وَصَفَهَا اللَّهُ بِاللَّعِيبِ
وَاللَّهُو ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « أَتُبْنُونَ بِكُلِّ رِيحٍ^(٤) آيَةً تَعْبَثُونَ ، وَتَتَّخِذُونَ
مَصَانِعَ لَكُمْ تَخْلُدُونَ ، وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ » ، وَاتَعَطَّوْا فِيهَا
بِالَّذِينَ قَالُوا : « مَنْ أَشَدُّ مَنَا قُوَّةً ؟ » ، حُمِّلُوا إِلَى قُبُورِهِمْ فَلَا يُدْعَوْنَ رُكْبَانًا ،
وَاتَزَلُّوا الْأَجْدَاثَ فَلَا يُدْعَوْنَ^(٥) ضِيْفَانًا ، وَجُعِلَ لَهُمْ مِنَ الضَّرِيحِ أَكْنَانٌ^(٦) ،
وَمِنَ التَّرَابِ أَكْفَانٌ ، وَمِنَ الرُّفَاتِ جِيرَانٌ ، فَهُمْ جَبَرَةٌ لَا يُجِيبُونَ دَاعِيًا ، وَلَا يَمْنَعُونَ
ضَيْمًا ، وَلَا يَبَالُونَ مَنَدَبَةً^(٧) ، إِنْ أَخْصَبُوا^(٨) لَمْ يَفْرَحُوا ، وَإِنْ قَحِطُوا^(٩) لَمْ

[١] أَى خَضَعَ لَهَا وَذَلَّ ، وَفِي رَوَايَةٍ : « لِمَنْ رَادَمَا » أَى طَلَبَهَا ، وَادَّاهُ رَوْدًا ، وَأَخْلَدَ إِلَيْهَا : مَالٌ .

[٢] الْمُسْتَدُ : الْاَمْرُ ، وَفِي رَوَايَةٍ : « إِلَى آخِرِ الْأَمَدِ » . [٣] الْجَوْعُ ، وَفِي رَوَايَةٍ : « التَّقَاةُ »

وَالضَّنْكَ : الْغَيْقُ . [٤] نَزَلَتْ فِي حَادِثِ قَوْمِ هُودَ ، الرِّيحُ : لِلرَّيْحِ مِنَ الْأَرْضِ ، آيَةٌ : أَى آيَةٌ

وَقَصُورًا يَفْتَخِرُونَ بِهَا ، وَيَعْبَثُونَ بِالْقُرْآنِ ، وَيَطَاوِلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَجْلِهَا ، وَالْمَصَانِعُ : الْبَنَانُ مِنَ

الْقُصُورِ وَالْحُصُونِ . [٥] وَفِي رَوَايَةٍ : « فَلَا يَرْعَوْنَ » أَى فَلَا يَرْعَاهُمْ أَحَدٌ .

[٦] الْأَكْنَانُ جَمْعُ كُنَّ بِالْكَسْرِ : وَهُوَ وَفَاءُ كُلِّ شَيْءٍ وَسِتْرُهُ ، وَالضَّرِيحُ : أَقْبَرُ أَوْ النَّقِ وَسَطُهُ ،

وَفِي رَوَايَةٍ : « وَجُعِلَ لَهُمْ مِنَ الْمَفْجِجِ أَجْنَانٌ » ، وَالْأَجْنَانُ جَمْعُ جَنْ كَسَبَ وَهُوَ : الْقَبْرِ ، وَالْمَفْجِجُ :

الْحِجَابَةُ الْعَرَضُ ، وَالرُّفَاتُ : الْعِظَامُ الْبَالِيَةُ . [٧] لِلنَّدْبَةِ : النَّدْبُ عَلَى اللَّيْلِ . [٨] وَفِي رَوَايَةٍ :

« إِنْ جَبَدُوا » مِنْ جَادَمِ الْغَيْثِ إِذَا امْطَرُوا . [٩] قَطَعَ النَّاسُ كَسَعَ ، وَقَحِطُوا وَأَقْهَطُوا مَبْنِيَيْنِ

لِلْجَهْلِ (قَلِيلٌ) ، وَبِكُلِّ رَوَى .

يَقْنُطُوا ، يَجْمَعُ وَهُمْ آحَادٌ ، وَجِيْرَةٌ وَهُمْ أَبْعَادُ ، مَتْنَاءُ وَنَ لَا يَزُورُونَ وَلَا يُزَارُونَ ،
حُلُمَاءٌ قَدْ ذَهَبَتْ أَصْفَانُهُمْ ، وَجُهْلَاءٌ قَدْ مَاتَتْ أَحْقَادُهُمْ ، لَا يُخْشَى فَجْهُهُمْ ، وَلَا
يُرْجَى دَفْعُهُمْ ، وَكَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى : « قَتَلْتَ مَسَاكِيْنَهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ
إِلَّا قَلِيْلًا ، وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِيْنِ » ، اسْتَبَدَلُوا بِظَهْرِ الْأَرْضِ بَطْنًا ، وَبِالسَّعَةِ ضَيْقًا ،
وَبِالْأَهْلِ غُرْبَةً ، وَبِالنُّورِ ظُلْمَةً ، فَفَارَقُوها كَمَا دَخَلُها ، خُفَاءً غُرَاءً فُرَادَى ، غَيْرَ
أَنْ ظَلَمْنَا بِأَعْمَالِهِمْ إِلَى الْحَيَاةِ الدَّائِمَةِ ، وَإِلَى خُلُودِ الْأَبَدِ ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : « كَمَا
بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ، وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِيْنَ » ، فَاحْذَرُوا مَا حَذَرَكَمُ
اللَّهُ ، وَاتَّقِعُوا بِمَوَاعِظِهِ ، وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِهِ ، عَصَمَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ بِطَاعَتِهِ ، وَرَزَقْنَا
وَإِيَّاكُمْ أَدَاءَ حَقِّهِ . (البیان والتبيين ١ : ٦٣ ، وصبح الأعشى ١ : ٢٢٣ ، والمغناfreid

٢ : ١٦٠ ، عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٥٠ ، ونهاية الأرب ٧ :
٢٥٠ ، ونهج البلاغة ١ : ١٢٢ ، دستور سالم الحكم ص ٥١)

٤٣٦ — خطبة عبدربه الصغير

وَلَمَّا دَبَّتْ عَقَارِبُ الْخِلَافِ بَيْنَ الْأَزَارِقَةِ ، وَلَمِبَتْ بِهِمْ يَدُ الشَّقَاقِ ، خَلَعُوا
قَطْرِيَّ بَنِ الْفَجَاءَةِ ، وَوَلَّوْا عَبْدَرْبَةَ الصَّغِيرِ ، فَانْفَصَلَ إِلَى عَبْدَرْبِهِ أَكْثَرُ مِنْ ^(١)
الشَّطْرِ ، وَنَشِبَتْ الْحَرْبُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَهْلَبِ ، فَأَجَلَّتْ الرُّوْقَةُ عَنْهُ قَتِيْلًا ، وَقَدْ جَمَعَ
أَصْحَابُهُ فِي اللَّيْلَةِ الَّتِي قُتِلَ فِي صَدِيْحَتِهَا ، فَقَالَ :

« يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ : إِنْ قَطَرِيًّا وَعُيَيْدَةً ^(٢) هَرَبَا طَلَبَ الْبَقَاءَ ، وَلَا سَبِيلَ
إِلَيْهِ ، فَالْقَوْا عَدُوْكُمْ ، فَإِنْ غَلِبَكُمْ عَلَى الْحَيَاةِ ، فَلَا يَنْفُلِيْكُمْ عَلَى الْمَوْتِ ، فَتَلْقَوْا

[١] أما قطري فقد ارتحل ومن معه إلى طبرستان ، فوجه الحجاج إليه حينئذ عليه سفيان بن الأبرد
فقاتلوه ، وتفرق عنه أصحابه ، وقتل سنة ٧٨ هـ ، وبقته انتهت حروب الأزارقة .
[٢] هو عبيدة بن هلال البكرى من كبراء الأزارقة .

الرماح بنحوركم ، والسيوف بوجوهكم ، وهبوا أنفسكم لله في الدنيا ، يهبها لكم في الآخرة . (الكامل للمبرد ٢ : ٢٣١ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ م : ٤٠٥)

٤٢٧ - خطبة صالح بن مسروح^(١)

وروى الطبري في تاريخه قال :

كان صالح بن مسروح يرى رأى الصُفْريَّة^(٢) ، وكان رجلاً ناسكاً مُخْبِتاً^(٣) ، مصفراً الوجه ، صاحب عبادة ، وكان بذاراً^(٤) وأرض الموصل والجزيرة ، له أصحاب يُقرئهم القرآن ، ويفقههم ويقصُّ عليهم ، وكان قصصه :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ، ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ، اللَّهُمَّ إِنَّا لَا نَعْدِلُ بِكَ ، وَلَا نَحْفِدُ^(٥) إِلَّا إِلَيْكَ ، وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاكَ ، لَكَ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، وَمَنْتَ النِّفْعَ وَالضَّرَّ ، وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ، وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ الَّذِي اصْطَفَيْتَهُ ، وَرَسُولُكَ الَّذِي اخْتَرْتَهُ وَارْتَضَيْتَهُ لِتَبْلِيغِ رِسَالَاتِكَ ، وَنُصِيحَةِ عِبَادِكَ ، وَنَشْهَدُ أَنَّهُ قَدْ بَلَغَ الرِّسَالَةَ ، وَنُصِحَ لِلْأُمَّةِ ، وَدَعَا إِلَى الْحَقِّ ، وَقَامَ بِالْقِسْطِ ، وَنَصَرَ الدِّينَ ، وَجَاهَدَ الْمُشْرِكِينَ ، حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . أَوْصِيَكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ ، وَالزَّهْدِ فِي الدُّنْيَا ، وَالرَّغْبَةِ فِي الْآخِرَةِ ، وَكَثْرَةِ ذِكْرِ الْمَوْتِ ، وَفِرَاقِ الْفَاسِقِينَ ، وَحُبِّ الْمُؤْمِنِينَ ، فَإِنَّ الزَّهَادَةَ فِي الدُّنْيَا تَرْغَبُ الْعَبْدُ

[١] هو صالح بن مسروح أحد بني امرئ القيس ، وهو زعيم فرقة من الخوارج الصفرية ، تسمى : « الصالحية » نسبة إليه ، وقد خرج على بني أمية سنة ٧٦ هـ ، فبعث إليه محمد بن مروان أمير الجزيرة جيشاً بقيادة عيسى بن عدي بن عميرة ، فهزمه صالح ونزل صكره وحوى ماله ، وبعث محمد بن مروان إليهم جيشاً آخر فقاتلهم ، فخرجوا من أرض الجزيرة إلى الموصل ، فشرح إليهم المحتاج جيشاً يقوده الحارث ابن عميرة غارهم ، وقتل في المعركة صالح . [٢] الصفرية : فرقة من الفرق الرئيسية للخوارج ، وهم أصحاب زياد بن الأصغر ، وقيل نسبوا إلى عبد الله بن سفيان ، وقيل لأنهم نهكهم العبادة ، أو لخلوهم من الدين ، وليس هذا موضع تفصيل عقائدهم . [٣] أخبت لله : خضع وتواضع . [٤] داراً : بلد بين نصيبين وماردين من أرض الجزيرة . [٥] حقد كفر : خف وأسرع .

فما عند الله ، وتفرغ بذه لطاعة الله ، وإن كثرة ذكر الموت تُخيف العبد من ربه ، حتى يُجَار^(١) إليه ويستكين له ، وإن فراق الفاسقين حق على المؤمنين ، قال الله في كتابه : « وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا ، وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ، إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَانُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ » ، وإن حب المؤمنين للسبب الذي يُنال به كرامة الله ورحمته وجنته ، جعلنا الله وإياكم من الصادقين الصابرين ، ألا إن من نعمة الله على المؤمنين أن بعث فيهم رسولاً من أنفسهم ، فعلمهم الكتاب والحكمة وزكّاهم وطهرهم ، وفقهم في دينهم ، وكان بالمؤمنين رءوفاً رحيماً ، حتى قبضه الله ، صلوات الله عليه ، ثم ولي الأمر من بعده التقي الصديق ، على الرضا من المسلمين ، فاقتدى بهديه ، واستن بسنته ، حتى لحق بالله رحمه الله ، واستخلف عمر فولاه الله أمر هذه الرعية ، فعمل بكتاب الله ، وأحيا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم ينحني في الحق على جرته^(٢) ، ولم يخف في الله لومة لائم ، حتى لحق به رحمه الله عليه ، وولي من بعده عثمان ، فاستأثر بالني ، وعطل الحدود ، وجار في الحكم ، واستذل المؤمن ، وعزّز الجرم ، فسار إليه المسلمون وقتلوه ، فبرئ الله منه ورسوله وصالح المؤمنين ، وولي أمر الناس من بعده علي بن أبي طالب ، فلم يقشِب أن حكم في أمر الله الرجال ، وشك في أهل الضلال ، وركن^(٣) وأذهن ، فنحن من علي وأشياعه برأه ، فبسرّوا رحمك الله لجهاد هذه الأحزاب المتحرّية ، وأئمة الضلال الظلمة ، وللخروج من دار الفناء إلى دار البقاء ، والأحق بإخواننا المؤمنين الموقنين الذين

[١] جأز إليه كنع : رفع صوته بالدعاء ، وفزع واستفاد . [٢] أحق الملب : لزم البطن ، والجرّة : ما يخرج البعير من جوفه ويضعه ، كنى بذلك عن عدم إظهاره الحقد والغش . [٣] ركن إليه : مال .

باعوا الدنيا بالآخرة ، وأففقوا أموالهم التماسَ رضوان الله في العاقبة ، ولا تجزَعوا من القتل في الله ، فإن القتل أيسرُ من الموت ، والموت نازل بكم - غيرَ ما ترَجُمُ الظنون - ففرَّقْ بينكم وبين آبائكم وأبنائكم وحلائلكم ودنياكم ، وإن اشتدَّ لذلك كُرْهُكُمْ وجَزَعُكُمْ ، أَلْفَبِعُوا اللهَ أنفُسَكُمْ طامعينَ وأموالكم ، تدخلوا الجنةَ آمنين ، وتُعَانِقُوا الحُورَ الْعِين ، جعلنا الله وإياكم من الشاكرين الذَّاكِرِينَ ، الذين يَهْدُونَ بالحق وبه يُعْدِلُونَ » . (تاريخ الطبري ٧ : ٢١٧ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٠٩)

٤٢٨ — خطبة أخرى له

وروى الطبري أيضاً قال :

« يينا أصحابُ صالحٍ يختلفون إليه ، إذ قال لهم ذاتَ يوم : « ما أذرى ما تنتظرون ؟ وحتى متى أنتم مُقيمون ؟ هذا الجور قد قَسَا ، وهذا العَدْلُ قد عَفَا ، ولا ترداد هذه الوِلاية على الناس إلا غُلُوءًا وَغُتُوءًا ، وتباعداً عن الحق ، وَجُرْأَةً على الرب ، فاستمِدُّوا ، وابشوا إلى إخوانكم الذين يريدون من إنكارِ الباطل والدعاء إلى الحق ، مثلَ الذي تريدون ، فأتوكم فلتقى ، وننظر فيما نحن صانعون ، وفي أى وقت إن خرجنا نحن خارجون » .

(تاريخ الطبري ٧ : ٢١٨ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٠٩)

٤٢٩ — خطبة أخرى

وقال لأصحابه ليلة خرج : « اتقوا الله عبادَ الله ، ولا تَمَجَّلُوا إلى قتالِ أحدٍ من الناس إلا أن يكونوا قومًا يريدونكم وَيَنْصِبُونَ^(١) لكم ، فإنكم إنما خرجتم غضباً لله ، حيث انتم كَتَحَارْمُهُ ، وَعَصَى في الأرض ، فسُفِكَتِ الدماءُ بغير

حِلْمًا ، وَأَخَذَتِ الْأَمْوَالَ بَنِيرَ حَقِّهَا ، فَلَا تَعْبُوا عَلَى قَوْمِ أَعْمَالًا تَمَلُّوْا بِهَا ، فَإِنْ كَلَّ مَا أَنْتُمْ عَامِلُونَ ، أَنْتُمْ عَنْهُ مَسْئُولُونَ ، وَإِنْ عَظَمَكُمْ رَجَالُهُ ، وَهَذِهِ دَوَابُّ لِحَمْدِ بْنِ مَرْوَانَ فِي هَذَا الرُّسْتَقِ ^(١) ، فَايْدُوا بِهَا فَشُدُّوا عَلَيْهَا ، فَاحْمِلُوا أَرْجُلَكُمْ ، وَتَقَوُّوا بِهَا عَلَى عَدُوِّكُمْ .

(تاريخ الطبري ٧ : ٢٢٠ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤١٠)

٤٣٠ — خطبة زائدة بن قدامة

وَخَلَّفَ عَلَى رِيَاسَةِ الْخَوَارِجِ الصُّفَرِيَّةِ بَعْدَ مَقْتَلِ صَالِحِ بْنِ مُسْرَحٍ أَحَدُ أَصْحَابِهِ ، وَهُوَ شَيْبِ بْنِ يَزِيدِ الشَّيْبَانِيِّ ، فَكَتَبَ الْحِجَاجُ لِقِتَالِهِ الْكِتَابَ ، وَكَانَ أَمِيرَهَا فِي بَعْضِ الْوَقَعَاتِ زَائِدَةُ بْنُ قُدَامَةَ ، وَجَاءَ شَيْبِ حَتَّى وَقَفَ مُقَابِلَ الْقَوْمِ ، فَخَرَجَ زَائِدَةُ يَسِيرَ بَيْنِ الْمِيمَنَةِ وَالْمِيسَرَةِ ، يَحْرِضُ النَّاسَ وَيَقُولُ :

« عِبَادَ اللَّهِ ، إِنَّكُمْ الطَّيِّبُونَ الْكَثِيرُونَ ، وَقَدْ نَزَلَ بِكُمْ الْخَيْشُونُ الْقَلِيلُونَ ، فَاصْبِرُوا جُعِلَتْ لَكُمْ الْفِدَاءُ ، إِنَّهَا تَحْتَلَتَانِ أَوْ ثَلَاثَ ، ثُمَّ هُوَ النَّصْرُ لَيْسَ دُونَهُ شَيْءٌ ، أَلَا تَرَوْنَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَكُونُونَ مَائِنِي رَجُلٍ ؟ إِنْ غَايَ أَكْلُهُمْ أَسْرَاقَ الْمُرَاقِ ، إِنْ غَايَ جَاءَ وَكَمْ لِيَهْرَبُوا دِمَاءَكُمْ ، وَيَأْخُذُوا فِيكُمْ ، فَلَا يَكُونُوا عَلَى أَخْذِهِ ، أَقْوَى مِنْكُمْ عَلَى مَنْعِهِ ، وَهُمْ قَلِيلٌ وَأَنْتُمْ كَثِيرٌ ، وَهُمْ أَهْلُ فُرْقَةٍ ، وَأَنْتُمْ أَهْلُ جَمَاعَةٍ ، غَضُّوا الْأَبْصَارَ ، وَاسْتَقْبَلُوهُمْ بِالْأَسِنَّةِ ، وَلَا تَحْمِلُوا عَلَيْهِمْ حَتَّى آتُرْكُمْ » ، فَابْرَحَ يَقَاتِلُهُمْ مُقْبِلًا غَيْرَ مُذْبِرٍ ، حَتَّى قُتِلَ . (تاريخ الطبري ٧ : ٢٣٥ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤١٥)

٤٣١ — خطبة الحجاج بن يوسف

وَلَمَّا هَزَمَ شَيْبِ الْجَيْشَ الَّذِي كَانَ الْحِجَاجُ وَجَّهَهُ إِلَيْهِ مَعَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ

[١] الرستاق . يستعمل في الناحية التي هي طرف الإقليم ، (مررب) .

ابن محمد بن الأشعث ، أقبل نحو المدائن ، وبلغ ذلك الحجاج ، فقام في الناس ،
فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : والله لَتُقَاتِلَنَّ عن بلادكم وعن فيكم ، أو لَا يُعْتَنَ إلى قومٍ
م أطوع وأسمع ، وأصبر على اللأواء والنيظ منكم ، فيقاتلون عدوكم ، ويأكلون
فيكم . — يعني جند الشام . — »

فقام إليه الناس من كل جانب ، فقالوا : نحن نقاتلهم ، ونُعْتَبُ الأمير ،
فَلْيَنْدُبْنَا الأمير إليهم ، فإننا حيث سره .

(تاريخ الطبري ٧ : ٢٤٣ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤١٨)

٤٣٢ — خطبة أخرى للحجاج

وبعث الحجاج إلى عَتَّاب بن وَرْقَاء ليأتيه . وكان مع المهلب - ووجهه
في جيش لقتال شبيب ، وخطب الناس حين وجهه فقال :

« يا أهل الكوفة اخرجوا مع عَتَّاب بن ورقاء بأجمعكم ، لا أرخص لأحد
من الناس في الإقامة ، إلا رجلاً قد وُثِنَ من أعمالنا ، ألا إن للصابر المجاهدِ
الكرامةَ والأثرَ ، ألا وإن لِلنَّاسِ كلِّ المَهابِ المَوانَ والجَفْوَةَ ، والذي لا إله
غيره ، لئن فعلتم في هذا المَوْطِنِ ، كفعلكم في المَواطن التي كانت ، لأُولِيَّكُمْ
كَفْئًا خَشِنًا ، ولَأَعَزُّكُمْ بِكُلِّ كَلِّ ثَقِيلٍ » ، ثم نزل .

(تاريخ الطبري ٧ : ٢٤٥)

٤٣٣ — خطبة شبيب بن يزيد الشيباني

وعرض شبيب أصحابه بالمدائن فكانوا ألف رجل ، فخطبهم ، فحمد الله ،
وأثنى عليه ، ثم قال :

« يا معشر المسلمين : إن الله قد كان ينصركم عليهم وأتم مائة ومائتان ، وأكثر من ذلك قليلاً ، وأنتص منه قليلاً ، وأتم اليوم مِثُون ومِثُون ، ألا إني مُصَلِّي الظهر ، ثم سأُرِيكم إن شاء الله . »

(تاريخ الطبري ٧ : ٢٤٦ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤١٩)

٤٣٤ — خطبة عتاب بن ورقاء

ولما تواقف الفريقان للقتال ، جعل عتاب يسير فيما بين الميمنة إلى الميسرة ، يمرّ بأهل راية راية ، فيحثهم على تقوى الله ويأمرهم بالصبر ، ويقص عليهم قصصاً كثيراً منه قوله :

« يا أهل الإسلام : إن أعظم الناس نصيباً في الجنة الشهداء ، وليس الله لأحد من خلقه بأحمد منه للصابرين ، ألا تَرَوْنَ أَنَّهُ يَقُولُ : « وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » ، فنحمد الله فعله فما أعظم درجته ، وليس الله لأحد أمقت منه لأهل البغي ، ألا تَرَوْنَ أَنَّ عَدُوَكُمْ هَذَا يَسْتَعْرِضُ الْمُسْلِمِينَ بِسَيْفِهِ ؟ لَا يَزَالُونَ إِلَّا أَنْ ذَلِكَ لَهُمْ قُرْبَةً عِنْدَ اللَّهِ ، فهم شِرَارُ أَهْلِ الْأَرْض ، وكِلَابُ أَهْلِ النَّارِ . »

فلم يجبه أحد ، فقال : أين القصص يقصون على الناس ويحرضونهم ؟ فلم يتكلم أحد ، فقال : أين من يروى شعر عنترة فيحرك الناس ؟ فلم يجبه أحد ، ولا رد عليه كلمة ، فقال : إنا لله ! والله لكأني بكم وقد قرّرتم عن عتاب بن ورقاء ، وتركتموه أنسني في استبد الریح ، وحمل عليه شبيب ففترق عنه كثير من أصحابه وخذّلوه ، وثبت في عصابة قليلة صبرت معه ، وقاتل حتى قتل .

(تاريخ الطبري ٧ : ٢٤٦ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٢٠)

٤٣٥ - خطبة الحجاج

ولما رأى الحجاج غجز أهل الكوفة عن قتال شبيب في مواطن كثيرة ، في كلِّها يقتلُ أمراءهم ، ويقتلُ جنودهم ، كتب إلى عبد الملك يستمده ، فبعث إليه سُفيانَ بن الأبرد الكلبي ، في أربعة آلاف ، وحبيب بن عبد الرحمن الحكمي من مدحج ، في ألفين ، ودخلا فيمن معهما من أهل الشام الكوفة ، فشذوا للحجاج ظهره ، فاستغنى بهما عن أهل الكوفة ، فقام على منبرها ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : يا أهل الكوفة ، فلا أعزَّ الله من أراد بكم العزَّ ، ولا نصر من أراد بكم النصر ، اخرجوا عنا ، ولا تشهدوا معنا قتال عدونا ، الحقوا بالحيرة ، فانزلوا مع اليهود والنصارى ، ولا تقاتلوا معنا ، إلا من كان لنا عاملاً ، ومن لم يكن شهد قتال عتَّاب بن ورقاء ^(١) . »

(تاريخ الطبري ٧ : ٢٤٨ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٢٠)

٤٣٦ - خطبة عبد الله بن يحيى الإيباضية ^(٢)

لما استولى عبد الله بن يحيى الكندي على بلاد اليمن سنة ١٢٩ ، خطب

[١] ولم تن هه شبيب عن القتال ، وقد هاجم الكوفة ودخلها ، ونهض الحجاج لدفاعته ، فشتت جوهه ، فانصرف عن الكوفة ، وأتبعه الحجاج حيثاً عليه سُفيان بن الأبرد ، فالتقى على جسر دجيل ، وحمل بينهما وطيس القتال ، حتى جثَّ الليل ، فقال شبيب لأصحابه : عبروا ماضٍ لليلين ، فإذا أصبحنا باكرناهم ، فمبروا أمامه ، وزلَّ حافر فرسه عن حرف السقينة ، فسقط في الماء ، وكان هلاكه سنة ٧٧ هـ .

[٢] هو عبد الله بن يحيى الكندي ، كثر من حضرموت ، وكان مجتهداً طابداً من رؤساء الحوارج الإيباضية (والإيباضية : فرقة من فرق الحوارج الرئيسة تنسب إلى زعيمها عبد الله بن إياض - بكر الهذلة -) وقد خرج ابن يحيى باليمن في أيام مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، إذ رأى جوراً ظاهراً وعسفاً شديداً ، وسيرة في الناس قبيحة ، فقال لأصحابه : إنه لا عمل لنا القلم على ما نرى ، ولا الصبر عليه ، وكتب إلى جماعة من الإيباضية بالبصرة وغيرها يشاؤهم في الخروج ، فوافقوه ، وشخص إليه أبو حمزة المختار بن عوف الأزدي ، وبلغ بن عتبة السعدي في رجاله من الإيباضية ، فخرضوه على الخروج ، وكثر

الناس ، فحمد الله جلَّ وعزَّ ، وأثنى عليه ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ،
ووعظ وذكَّر وحذَّر ، ثم قال :

« إنا ندعوكم إلى كتاب الله تعالى ، وسنة نبيه ، وإجابة من دعا إليهما ،
الإسلام ديننا ، ومحمدُ نبينا ، والكعبةُ قبلتنا ، والقرآنُ إمامنا ، ورضينا بالحلل
حلالا ، لا نبيَّ به بديلا ، ولا نشتري به ثمنًا قليلا ، وحرَّمنا الحرام ونبذناه
وراء ظهورنا ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وإلى الله المشتكى ، وعليه الموعول ،
من زنى فهو كافر ، ومن سرق فهو كافر ، ومن شرب الخمر فهو كافر ، ومن شكَّ
في أنه كافر فهو كافر ، ندعوكم إلى فرائضَ يثبت ، وآياتٍ مُحْكَمات ، وآثارٍ
مُقْتَدِيها ، ونشهد أن الله صادق فيما وعد ، عدل فيما حَكَم ، وندعو إلى توحيد
الرب ، واليقين بالوعيد والوعد ، وأداء الفرائض ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن
المنكر ، والولاية لأهل ولاية الله ، والمداوة لأعداء الله .

أيها الناس : إن من رحمة الله أن جعل في كلِّ فترة بقايا من أهل العلم ،
يدْعُون من صلَّ عن الهدى ، ويصبرون على الألم في جنب الله تعالى ، يُقْتَلُونَ
على الحق في سالف الدهور وشهداء ، فانسِيهم ربُّهم ، وما كان ربُّك نسيًّا ،
أوصيكم بتقوى الله ، وحسن القيام على ما وكلكم الله بالقيام به ، فأبْلَوْا الله بلاء
حسنًا في أمره وذكره ، أقول قولي هذا ، وأستغفر الله لي ولكم .

(الأطاف : ٢٠ : ٩٨ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٥٥)

جمه . وسموه طالب الحق ، وتوجه إلى صماء سنة ١٢٩ (وكان عامل مروان على صماء القاسم بن عمر)
فجرت بينه وبين ابن يحيى حروب ومناوشات كانت النصره فيها لابن يحيى ، فدخل صماء ، وأحرز ما فيها
من الخزائن والأموال .

خطب أبي حمزة الشاري

٤٣٧ - خطبته حين دخل المدينة

ولما دخل أبو حمزة المدينة ^(١) سنة ١٣٠ ، رقي المنبر ، فحمد الله ، وأثنى

عليه ، وقال :

« يا أهل المدينة : سألناكم عن ولائكم هؤلاء ، فأسألكم - لعمر الله - فيهم القول ، قلتم والله ما فيهم الذي يعلم ، أخذوا المال من غير حيلة ، فوضعه في غير حقه ، وجاروا في الحكم ، فحكوا بنير ما أنزل الله ، واستأثروا بفتننا ، فجعلوه دولة بين الأغنياء منهم ، وجعلوا مقامنا وحقوقنا في مهر النساء ، وفروج الإماء ^(٢) ،

[١] بعد أن استولى عبد الله بن يحيى على اليمن سنة ١٢٩ ، أقام بصنعاء أشمرا يحسن السيرة في الناس ويلين جانبه لهم ، ويكف الأذى عنهم ، فكثر جمه ، وأتته النראה من كل جانب (والفراء كقضاء جمع شارك قاض وهم الخوارج ، من شرى يشري كرمى أى باع ، معوا بذلك لقولهم : شربنا أقتنا في طاعة الله أى بشانها وريبتها ، أخذاً من قوله تعالى : « وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ أُتْبَعًا مَرْضَاةَ اللَّهِ » أو لقولهم : شربنا الآخرة بالدنيا ، أى اشتربناها) فلما كان وقت الحج وجه ابن يحيى أبا حمزة « وهو المختار بن عوف الأزدي ثم السلي » من أهل البصرة « إلى مكة ، فأقبل إليها يوم التروية « وهو ثامن ذى الحجة » وعليها وعلى المدينة عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك ، فكره عبد الواحد قتالهم ، ثم خلى مكة لهم ، فدخلها أبو حمزة بخير قتال ، ووضى عبد الواحد إلى المدينة ، فجهز جيشاً لقتالهم أمر عليه عبد العزيز ابن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان ، فسار حتى نزل قديداً « وقديد كزير » وبلغ أبا حمزة إقبال أهل المدينة إليه ، فاستخلف على مكة ، وشخص إليهم ، وبعث إليهم يسألهم أن يكفوا عنهم ، ويقول لهم : خلوا سبلنا إلى الشام لنسير إلى من ظلمكم ، وجار في الحكم عليكم ، ولا تجلوا حدنا بكم ، فإنه لا يزيد قتالكم ، فتسبهم أهل المدينة ، وقالوا يا أعداء الله : أنحن نغلبكم ونعصمكم تصدون في الأرض ؟ فقال الخوارج يا أعداء الله : أنحن نفسد في الأرض ؟ إنما خرجنا لنكف أهل الفساد ، وقاتل من قاتلنا ، واستأثر بالني ، فانظروا لأهسكم ، واخبروا من لم يجعل الله له طاعة ، فإنه لا طاعة لمن عصى الله ، فادخلوا في السلم ، وعادوا أهل الحق ، فأبوا عليهم ، ونشب القتال بينهم ، فذهب أبو حمزة هزيمة لم يبق بعدها منهم بقية ، وقد بلغت قتلى قديد ألفين ومائتين وثلاثين رجلاً ، منهم من قرش أربعة مائة وخمسون ، ودخل أبو حمزة المدينة ثلاث عشرة بقيت من صفر سنة ١٣٠ هـ ، وهرب عبد الواحد بن سليمان إلى الشام [٢] وفي رواية : « وسألناكم : هل يقتلون بالظن ؟ قلتم : نعم ، وسألناكم : هل يستطرون المال الحرام والفروج الحرام ؟ قلتم : نعم » .

فقلنا لكم : تمالؤا نحن وأنتم إلى هؤلاء الذين ظلمونا وظلموكم ، وجارؤا في الحكم ، فكموا بغير ما أنزل الله ، ثناشدم الله أن يَنْخُوا عنا وعنكم ، ليختار المسلمون لأنفسهم ، فقلتم : لا يفعلون ، فقلنا لكم : تمالؤا نحن وأنتم تقائلهم ، فإن نظهر نحن وأنتم ، نأتِ بِن يُقيم فينا وفيكم كتاب الله وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، فقلتم : لا تقوى على ذلك ، فقلنا لكم : ثفلؤا بيتنا وبينهم ، فإن نظفر نعدل في أحكامكم ، ونحيطكم على سنة نبيكم صلى الله عليه وسلم ، وتقسيم فيكم بينكم ، فأيتيم وقائلتمونا دونهم ، فقاتلناكم وقتلناكم ، فأبعدكم الله وأسحقكم .
(تاريخ الطبري ٩ : ١٠٧ ، والأغانى ٢٠ : ١٠٣ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : س ٤٥٨ ، والنفد الفريد ٢ : ١٦٢)

٤٣٨ — خطبة أخرى له

وروى أنه لما دخل المدينة قام فخطب ، فقال في خطبته :

« يا أهل المدينة مررتُ بكم في زمن الأحوال هشام بن عبد الملك ، وقد أصابكم حاجة بشاركم ، وكتبتم إليه تسألونه أن يضع خراجكم عنكم ، فكتب إليكم بوضعه عن قوم من ذوى اليسار منكم ، فزاد الغنى غنى ، وزاد الفقير فقراً ، فقلتم : جزاك الله خيراً ، فلا جزاكم الله خيراً ، ولا جزاه خيراً » .

(تاريخ الطبري ٩ : ١٠٨ ، والأغانى ٢٠ : ١٠٣ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : س ٤٥٨)

٤٣٩ — خطبته وقد بلغه أن أهل المدينة يعيرون أصحابه^(١)

وبلغ أباهزة أن أهل المدينة يعيرون أصحابه ، لحداثة أسنانهم ، وخفة أحلامهم ، فصعد المنبر ، وعليه كساء غليظ ، وهو متنكب قوساً عربية ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم وآله ، ثم قال :

[١] روى الجاحظ أن هذه الخطبة كانت بمكة ، وذكر أن اسم أبي حزة « يحيى بن المختار » .

« يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ ، قَدْ بَلَغْتَنِي مَقَالَتُكُمْ لِأَصْحَابِي ، وَلَوْ لَا مَعْرِفَتِي بِضَعْفِ رَأْيِكُمْ وَقَلَّةِ عَقُولِكُمْ ، لَأَحْسَنْتُ أَدَبَكُمْ ، وَنَحَكَمَ ! إِنْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابُ ، وَوُيِّنَ لَهُ فِيهِ السُّنَنُ ، وَشُرِّعَ لَهُ فِيهِ الشَّرَائِعُ ، وَوُيِّنَ لَهُ فِيهِ مَا يَأْتِي وَمَا يَنْدَرُ ، فَلَمْ يَكُنْ يَتَقَدَّمُ إِلَّا بِأَمْرِ اللَّهِ ، وَلَا يُخْجِمُ إِلَّا عَنْ أَمْرِ اللَّهِ ، حَتَّى قَبِضَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَقَدْ أَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ ، وَعَلَّمَ الْمُسْلِمِينَ مَعَالِمَ دِينِهِمْ ، وَلَمْ يَدْعُهُمْ مِنْ أَمْرِهِمْ فِي شُبْهَةٍ ، وَوَلَّى أَبَا بَكْرٍ صَلَاتِهِمْ ، فَوَلَاهُ الْمُسْلِمُونَ أَمْرَ دِيَارِهِمْ ، حِينَ وَلَّاهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمْرَ دِينِهِمْ ، فَعَمِلَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَقَاتَلَ أَهْلَ الرَّدَّةِ ، وَشَمَّرَ فِي أَمْرِ اللَّهِ ، حَتَّى قَبِضَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ، وَالْأَمَّةُ عَنْهُ رَاضُونَ ، رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ وَمَغْفَرَتُهُ ، ثُمَّ وَلِيَ بَعْدَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَسَارَ بِسِيرَةِ صَاحِبِهِ ، وَعَمِلَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَجَنَّدَ الْأَجْنَادَ ، وَمَصَّرَ الْأَمْصَارَ ، وَجَبَى النَّقْيَ ، وَفَرَضَ الْأَعْطِيَةَ ، وَشَمَّرَ عَنْ سَاقِهِ ، وَحَسَّرَ عَنْ ذِرَاعِهِ ، وَجَلَدَ فِي الْحَرَمَيْنِ ، وَجَمَعَ النَّاسَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ ^(١) ، وَغَزَا الْمَدُونِ فِي بِلَادِهِمْ ، وَفَتَحَ الْمَدَائِنَ وَالْحَصُونِ ، حَتَّى قَبِضَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ، وَالْأَمَّةُ عَنْهُ رَاضُونَ ، رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ وَرِضْوَانُهُ وَمَغْفَرَتُهُ ، ثُمَّ وَلِيَ مِنْ بَعْدِهِ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ ، فَسَارَ مَسِيرَتَ سَنَيْنَ بِسِيرَةِ صَاحِبِهِ - وَكَانَ دُونَهُمَا - ثُمَّ سَارَ فِي السَّيْرِ الْأَوَاخِرِ بِمَا أَحْبَبَ بِهِ الْأَوَائِلَ ، وَاضْطَرَبَ حَبْلُ الدِّينِ بَعْدَهَا ، فَطَلَبَهَا ^(٢) كُلُّ امْرِئٍ لِنَفْسِهِ ، وَأَصْرَكَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ سِرِيرَةَ أَبْدَاها اللَّهُ عَنْهُ ، حَتَّى مَضَوْا عَلَى ذَلِكَ ، ثُمَّ وَلِيَ عَلَى بَنِي أَبِي طَالِبٍ ، فَلَمْ يَبْلُغْ مِنَ الْحَقِّ قَصْدًا ، وَلَمْ يَرْفَعْ لَهُ مَنَارًا ، ثُمَّ مَضَى لِسَبِيلِهِ .

[١] أَيْ لِمَلَائِكَةِ الْقِيَامِ ، وَفِي رِوَايَةٍ : « وَقَامَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ » .

[٢] أَيْ الْخِلَافَةَ ، يُشِيرُ إِلَى تَطَلُّعِ طَلْعَةِ وَالزَّيْرِ إِلَيْهَا ، وَطَعِ مَعَايِةَ فِيهَا .

المأبون^(١) في فرجه ، تخالف القرآن ، واتبع الكهَّان ، ونام القرد ، وعمل بما يشتهي ، حتى مضى على ذلك لعنه الله ، وفعل به وفعل ، ثم ولي مروان بن الحكم ، طريد لَمَيْنُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله وابن لعينه ، فاسق في بطنه وفرجه ، فالعنوه والعنوا آباءه .

ثم تداولها بنو مروان بعده ، أهل بيت اللعنة ، طرداء رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله ، وقوم من الطلقاء ، ليسوا من المهاجرين والأنصار ، ولا التابعين بإحسان ، فأكلوا مال الله أكلاً ، ولعبوا بدين الله لعباً ، واتخذوا عباد الله عبيداً ، يورث ذلك الأكبر منهم الأصغر ، فيألفها أمة ! ما أضعفها وأضعفها ! والحمد لله رب العالمين ، ثم مضوا على ذلك من سيئ أعمالهم ، واستخفافهم بكتاب الله تعالى ، قد نبذوه وراء ظهورهم ، لعنهم الله ، فالعنوم كما يستحقون ، وقد ولي منهم عمر بن عبد العزيز ، فبلغ ولم يكد ، وعجز عن الذي أظهره حتى مضى لسبيله - ولم يذكره بخير ولا شر -

ثم ولي يزيد بن عبد الملك ، غلام ضعيف سفيه ، غير مأمون على شيء من أمور المسلمين ، لم يبلغ أشده^(٢) ، ولم يؤت نرسد^(٣) ، وقد قال الله عز وجل :

كبيراً ، وقد بلغ منها العيش والتعب ، وكادت تموت ، فلم أنها ليزيد وأنها قد شفت منه ، فقام إليها وقدم لها ماء وتمدها بنفسه ، فما شر إلا بشاب حسن الصورة على فرس جميل ، وعليه زى الملوك ، وقد علته غيرة ، فقام إليه وسلم عليه ، فقال له ، أرايت كلبة طابرة بهذا الموضع ؟ فقال : نعم يا ولانا ، ما هي في الحنية ، قد ضربت ماء واستراحات ، وقد كانت على غاية من العيش والتعب ، فلما سمع يزيد كلامه نزل ودخل الحنية ، ونظر إلى الكلبة وقد استراحات ، فغضب بمحبها ليزج ، فشكا الرجل إليه حاله وعرفته ما أخذ منه ابن زياد ، فطلب دواة وكتب إليه يرد ماله وخلعة سفيه ، وأخذ الكلبة وخرج ، فرد الرجل من ساعته إلى الكوفة ، ولم يدخل دمشق .

[١] أبته بغي كنصر وضرب : اتهمه ، فهو مأبون ، بخير أو شر ، فإن أطلقت فقلت مأبون فهو لغير والأبنة كنفقة : اليب . [٢] بلغ أشده أى قوته ، وهو ما بين ثمانى عشرة إلى ثلاثين سنة ، وقد

« فَإِنْ آتَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ^(١) » ، فأمرُ أمة محمد في أحكامها وفروجها ودمائها أعظم عند الله من مال اليتيم ، وإن كان عند الله عظيما ، غلام مأبون في بطنه وفرجه ، يشرب الحرام ، ويأكل الحرام ، ويلبس الحرام ، يلبس بُرذتين قد حيكتا له ، وقومتا على أهلها بألف دينار ، وأكثر وأقل ، قد أخذت ^(٢) من غير حِلِّها ، وصُرفت في غير وجهها ، بعد أن ضُربت فيها الأَبْشَارُ ^(٣) ، وَحُلِّقَتْ فِيهَا الْأَشْعَارُ ، وَهَتَكَتْ فِيهَا الْأَسْتَارُ ، وَاسْتُحِلَّ مَالُهَا يُحِلُّ اللهُ لِعَبْدٍ صَالِحٍ ، وَلَا نَبِيَّ مُرْسَلٍ ، ثُمَّ يُخَاسِ حَبَابَةً عَنْ عَيْنِهِ ، وَسَلَامَةً عَنْ شِمَالِهِ ، تَغْنِيَانِهِ بِزَامِيرِ الشَّيْطَانِ ، وَيَشْرَبُ الْخِرَاصِرَ الْحَرَامَةَ نَصَابِعِينَهَا ، حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ مِنْهُ مَاخِذَهَا ، وَخَالَطَتْ رُوحَهُ وَلَحْمَهُ وَدَمَهُ ، وَغَابَتْ سَوْرَتُهَا عَلَى عَقْلِهِ ، مَزَّقَ حُلَّتِيهِ ، ثُمَّ التَفَّتْ إِلَيْهِمَا فَقَالَ : أَتَأْذَنَانِ لِي أَنْ أُطِيرَ ^(٤) ؟ نعم ، فطُربَ إِلَى لَعْنَةِ اللهِ ،

اختلف المؤرخين في مقدار سنّ يزيد ، فقيل إنه توفي وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، وقيل ابن سبع وثلاثين ، وكانت ولايته أربع سنين وشهرا ، والمراد أنه لم يبلغ أشده لضعفه وعكوفه على القذات والنهوات .

[١] الآية الكريمة في الباقى ، وأولها : « وَأَبْقُوا الَّتِي تَأْكُلُ حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النُّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ ^(١) . . . » . [٢] أى الدنانير . [٣] فيها : أى فى تحصيلها ، والأبشار جمع بشر وهو

جمع برة : ظاهر الجِلْد ، والمراد ضرب الداس فى حياة الأموال .

[٤] ذكر ذلك ابن طباطبائي فى الغزى ص ١١٧ قال : « كان يزيد بن عبد الملك خليف بنى أمية شنف بجاريين اسم أحدهما سلامة ، والأخرى حياة ، قطعَ منهما زماته ، قالوا : فنت يومًا حياة :

بين التراق والهامة حرارة ما تطفئ ولا تسوغ فزيد

فأمرى يزيد لطير ، فقالت يا أمير المؤمنين : لنا فيك حاجة ، فقال : والله لأطيرن ، قالت : فعلى من تدع الأمة ؟ قال : عليك وقبل يدها ، فخرج بعسى خدمه وهو يقول : « سخنت عيك فاأستك » وروى أبو الفرج الأصبهاني فى الأغاني « ج ١٣ ص ١٤٨ » قال : « كانت حياة مولدة من مولدات المدينة ، حلوة جيلة أوجه طريفة حسنة الغناء ، وقد قال يزيد بن عبد الملك : ما ترحبني بما أرتيت من الخلافة حتى أشتري سلامة وحياة ، فأرسل فاشترى به ، فلما اجتمعا عنده قال : أنا الآن كما قال القائل :

فألقت عصاما واستخرت بها النوى كما قرّ عينا بالأياب المسافر

وذكروا أن مسلمة بن عبد الملك أقبل على يزيد يلومه فى الإلحاح على التناهى والشراب ، وقال له : إليك

وحريق ناره ، وأليم عذابه ، طُرِّ إلى حيثُ لا يردُّكَ الله .

ثم ذكر بنى أمية وأعمالهم وسيرهم فقال : « أصابوا إمرة ضائعة ، وقومًا طغافًا جُمَّالًا ، لا يقومون لله بحقٍّ ، ولا يفرقون بين الضلالة والهدى ، ويرون أن بنى أمية أرباب لهم ، فلكوا الأمر ، وتسلطوا فيه تسلط رُبُويَّة ، بطشُهم بطش الجبارة ، يحكمون بالهوى ، ويقتلون على الغضب ، يأخذون بالظنَّة ، ويمطّلون الحدود بالشفاعات ، ويأتمنون الخَوَنة ، ويقصّون ذوى الأمانة ، يأخذون الفريضة من غير موضِعها ، ويضمّعونها في غير أهلها ، وقد بين الله أهلها ، فجعلهم ثمانية أصناف ، فقال : « إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ

وليت يقبى عمر بن عبد العزيز وعدله ، وقد تشاغل بهذه الأمة عن النظر في الأمور ، والوفود ببابك ، وأصحاب الغلامات يصيحون ، وأنت غافل عنهم ، قل : صدقت والله وأعقبه ، وممّ برك التراب ، ولم يدخل على حباة أياما ، فستحباة إلى الأحرص أن يقول آياتا في ذلك ، وقالت له : إن رددته من رأيه ، فكأن ألف دينار ، فقال :

ألا لا تلته اليوم أنت يتلبا فقد غلب اغزوت أن يجلبا
بكيت الصبا جهدى فن شاء لاني ومن شاء آسى في البكاء وأسدا
وإني وإن فنتت في طلب الننى لأعلم أنى لست في الحب أوحدا
إذا أنت لم تشقى ولم تدّر مانهوى فكُن حجرا من يابس الصخر جليدا
فما العيش إلا ما تلذّ وتشتى وإن لام فيه ذو الشنان وفندا

ومكث يزيد جمة لا يرى حباة ، ولا يدعو بها ، فلما كان يوم الجمعة ، قالت لبعض جوارها : إذا خرج أمير المؤمنين إلى الصلاة فأعلميني ، فلما أراد الخروج أعلمتها ، فخلعت والدرد في يدها ، ففتت البيت الأول ، فقطي وجهه ، وقال : مه لا تغلى ، ثم غنت : فما العيش إلا ما تلذّ وتشتى : ففعل إليها ، وقال : صدقت والله ففج الله من لاني فيك ، يا غلام مرسله أن يصلى بالناس ، وأقام معها يشرب وتفتيه ، وعاود ما كان فيه ، ثم قال لها : من يقول هذا الشعر ؟ قالت : الأحرص ، فأخبره ثم ألتصقه قصيدة مدحه فيها ، فقال له : ارفع حواجبك ، فكذب إليه في نحو أربعين ألف درهم من دين وغيره ، فأسرله بها . انظر أيضا تاريخ الطبري ٨ : ١٧٩ ، ومروج الذهب ج ٢ : س ١٧٥ ، وما ذكره السعدي : أن حباة اعتكف فأقام يزيد أياما لا يظهر للناس ، ثم ماتت ، فأقام أياما لا يدفنها حتى حيّفت فقيل له : إن الناس يجحدون بمجرعك وإن الخلافة تجل عن ذلك ، فدفنها وأقام على قبرها ، فقال :

فإن تسل عتك النفس أو تدع الهوى فبالأس تسلو النفس لا بالتجلى

ثم أطم بعدها أياما فلائل ومات .

وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبَهُمْ وَفِي الرِّقَابِ ، وَالْفَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ ^(١) » ، فأقبل صَنَفٌ تاسع ليس منها ، فأخذ كلُّها ، تلکم الفرقة الحاکمة بغير ما أنزل الله ، فالمنوم لعنهم الله .

وأما إخواننا من هذه الشيعة - وليسوا بإخواننا في الدين ، لكنني سمعت الله عز وجل قال في كتابه : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا » - فإنها فرقة تظاهرت بكتاب الله ، وأعلنت الفرية على الله ، لا يرجعون إلى نظير نافذ في القرآن ، ولا عقل بالغ في الفقه ، ولا تفتيش عن حقيقة الصواب ، قد قلّدوا أمورهم أهواءهم ، وجعلوا دينهم المصبية لحزب لزموه ، وأطاعوه في جميع ما يقوله لهم ، غيًّا كان أو رشدًا ، ضلالةً أو هدى ، ينتظرون الدُّوْلَ في رَجْمَةِ الموتى ^(٢) ، وَيُؤْمِنُونَ بالبعث قبل الساعة ، ويدْعُونَ علم الغيب لمخلوق ، لا يعلم أحدٌ ما في بيته ، بل لا يعلم ما ينطوي عليه ثوبه ، أو يحويه جسمه ، يَنْقِمُونَ المأصِي على أهلها ، ويعملون

[١] الصدقات : الزكاة ، العاملين عليها : الساجدين في تحصيلها وجمعها ، والمؤلفة قلوبهم : الذين أسلموا ودينهم ضئيلة في الاسلام ، فقتلوا قلوبهم ، وفي الرقاب : أي وفي فك رقاب المكائين ، فيه انون بضم منها ، والنارمين : أي الدينين لأعضهم في غير مصبة ، ومن غير إصراف إذا لم يكن لهم وفاة .
[٢] كان بعض الشيعة يتفقون في أنهم قتلوا ماوتوا ، أنهم أحياء لم يموتوا ، إلا أنهم ظالمون عن أعين الناس ، فالشيعة الكيسانية يقولون أن محمد بن المنفي رضي الله عنه لم يموت ، وأنه في جبل رضوى (بالحجاز) بين أسد ونمر يحفظانه ، وعنده عتبان فضاختان تجريان بماء وعسل ، وأنه يعود بعد النبوة فيلأ الأرض عدلا كما ماتت جورا ، وفيه يقول كثير من أبيات :

يشيب ولا يرى فيهم زمانا برضوى عنده عسل وماء

— اظفر الممل والنحل للمهرستاني ١ : ١٥٥ والنصل لابن حزم ٤ : ١٣٧ والفرق بين الفرق ص ٢٨ والاثنا عشرية » وهي إحدى فرقتي الشيعة الاملية ، سموا بذلك لوقوفهم عند الامام الثاني عشر وهو محمد ابن الحسن العسكري ، ويلقبونه بالهادي المنتظر » يزعمون أنه دخل في سرداب بسر من رأى ، وظل هناك ، وأنه يخرج في آخر الزمان فيلأ الأرض عدلا وهم ينتظرونه - ويسوونه المنتظر لذلك - ويغفون في كل ليلة بعد صلاة المغرب يباب هذا السرداب وقد قدموا مركبا ، فيهتفون باسمه ، ويدعونه للخروج ، حتى تشبك النجوم ، ثم يتفقون ويرجعون الأسر إلى القيلة الآتية - انظر مقدمة ابن خلدون ص ٢٢٠ -

إِذَا وَلَّوْا بِهَا ، يُصِرُّونَ عَلَى الْفِتْنَةِ وَلَا يَعْرِفُونَ الْمَخْرَجَ مِنْهَا ، جُفَاءً فِي دِينِهِمْ ، قَلِيلَةٌ عَمَلُهُمْ ^(١) ، قَدْ قَلَدُوا أَهْلَ بَيْتٍ مِنَ الْعَرَبِ دِينَهُمْ ، وَزَعَمُوا أَنَّ مُؤَالَاتِهِمْ لَهُمْ تَنْجِيهِمْ عَنِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ، وَتُنْجِيهِمْ مِنَ عِقَابِ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ ، قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنْتَ يُؤَفِّكُونَ ^(٢) .

فَأَيُّ هَؤُلَاءِ الْفِرْقِ يَأْهَلُ الْمَدِينَةَ تَتَّبِعُونَ ، أَمْ بَأْيَ مَذَاهِبِهِمْ تَقْتَدُونَ ؟ وَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّكُمْ تَنْتَقِصُونَ أَصْحَابِي ! قَلِمَ هُمْ شَبَابُ أَحْدَاثٍ ، وَأَعْرَابُ جُفَاءٍ ، وَيُنْحَكُمُ يَأْهَلُ الْمَدِينَةِ ! وَهَلْ كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَآلَهُ الْمَذْكُورُونَ فِي الْخَيْرِ لِإِشْبَابِ أَحْدَاثًا ؟ أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَعَالِمٌ بِتَابِعِيكُمْ فِيمَا يَضُرُّكُمْ فِي مَعَادِكُمْ ، وَلَوْلَا اسْتِغْنَاؤِي بِغَيْرِكُمْ عَنْكُمْ مَا تَرَكْتُ الْأَخْذَ فَوْقَ أَيْدِيكُمْ . شَبَابُ اللَّهِ مُكْتَنِيُونَ ^(٣) فِي شَبَابِهِمْ ، غَضِيضَةٌ عَنِ الشَّرَائِعِ نُهُمْ ، ثَقِيلَةٌ عَنِ الْبَاطِلِ أَرْجُلُهُمْ ، أَنْضَاءُ ^(٤) عِبَادَةٍ ، وَأَطْلَاحُ سَهَرٍ ^(٥) ، بَاعُوا أَنْفُسًا تَمُوتُ غَدًا ، بِأَنْفُسٍ لَا تَمُوتُ أَبَدًا ، قَدْ نَظَرَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ ، مَنْحَنِيةً أَصْلَابُهُمْ عَلَى أَجْزَاءِ الْقُرْآنِ ، كَلَامًا زَاحِدًا مِنْ ذِكْرِ الْجَنَّةِ بِكَيْ شَوْقًا إِلَيْهَا ، وَإِذَا مَرَّ بِآيَةٍ مِنْ ذِكْرِ النَّارِ شَقِيَ شَهْقَةً ، كَانَ زَفِيرَ جَهَنَّمَ بَيْنَ أُذُنَيْهِ ، قَدْ أَكَلَتْ الْأَرْضُ رُكَبَهُمْ وَأَيْدِيَهُمْ وَأَنْوُفَهُمْ وَجِبَاهَهُمْ ، وَوَصَلُوا كَلَالَ ^(٦) اللَّيْلِ بِكَلَالِ النَّهَارِ ، مُصَفَّرَةً أَلْوَانَهُمْ ، نَاحِلَةً أَجْسَامَهُمْ ، مِنْ طَوْلِ الْقِيَامِ ، وَكَثْرَةِ الصِّيَامِ ، مُسْتَقِلُونَ لَذَلِكَ فِي جَنْبِ اللَّهِ ، مُؤَفُّونَ بِعَهْدِ اللَّهِ ، مُنْجَزُونَ لَوَعْدِ اللَّهِ ، حَتَّى إِذَا رَأَوْا سِيَاهَ الْعَدُوِّ وَقَدْ فُوتَ ^(٧) ،

[١] وَفِي الْيَاقُوتِ وَالتَّبْيِينِ « جُفَاءً عَنِ الْفِرَاقِ ، أَتْبَاعُ كَهَانَ » . [٢] أَفَفَكَ عَنْهُ كَضَرْبٍ : صَرْفُهُ

وَقَلْبُ رَأْيِهِ . [٣] أَيْ قَدْ أَمْرَزُوا رِزَاةَ الْكُهُولِ وَسَدَادَ رَأْيِهِمْ .

[٤] جَمْعُ نَضْوِكَدِيلٍ وَهُوَ الْهَزُولُ . [٥] جَمْعُ طَاحٍ وَهُوَ كَضَرْبٍ وَزَنَا وَمَعْنَى .

[٦] الْكَلَالُ : التَّعَبُ وَالْإِعْيَاءُ . [٧] فُوتَ السَّهْمُ : جَلَّ لَهُ نَوْطًا (بِالْفَمِّ) وَهُوَ مَوْضِعُ الْوُزْرِ

مِنَ السَّهْمِ ، أَيْ أَعْدَتْ لَهَا .

ورماهم وقد أشرعت^(١) ، وسيوفهم وقد اتضيت^(٢) ، وبرقت الكتيبة
ورعدت بصواعق الموت ، استخفوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله ، ولم يستخفوا
بوعيد الله لوعيد الكتيبة ، ولقوا شبا^(٣) الأستة ، وشائك السهام ، وطبات
السيوف بنحورهم ، ووجوههم وصدورهم ، فضى الشاب منهم قُدُما ، حتى
اختلفت رجلاه على عنق فرسه ، واخضبت محاسن وجهه بالدماء ، وعُقر^(٤)
جبينه بالثرى ، وانحطت عليه طير السماء ، وتمزقه سباع الأرض ، فطوبى لهم
وحسن مأب ، فكم من عين في منقار طائر طالما بكى بها صاحبها في جوف
الليل من خوف الله ، وكم من يد قد أيدت عن ساعدها ، طالما اعتمد عليها
صاحبها راكما وساجدا ، وكم من وجه رقيق ، وجبين عتيق^(٥) ، قد فلق بعمد
الحديد ، ثم بكى ، وقال : آه ، آه على فراق الإخوان ، رحمة الله على تلك الأبدان ،
وأدخل أرواحهم الجنان . (الأغانى ٢٠ : ١٠٠ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٥٩ ،
والبيان والبيان ٢ : ٦١ ، والقدر المفيد ٢ : ١٦١)

٤٤٠ - خطبة أخرى

ورقى المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« أوصيكم بتقوى الله وطاعته ، والعمل بكتابه ، وسنة نبيه صلى الله عليه
وسلم ، وصلة الرحم ، وتعظيم ما صغرت الجبارة من حق الله ، وتصغير
ما عظمت من الباطل ، وإماتة ما أحيوا من الجور ، وإحياء ما أماتوا من الحقوق ،
وأن يطلع الله ، ويعصى العباد في طاعته ، فالطاعة لله ولأهل طاعة الله ، ولا
طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، ندعو إلى كتاب الله وسنة نبيه ، والقسم

[١] سددت . [٢] استلت . [٣] جمع شباة : وهي حد كل شيء ، والطبات جمع طبة ،
وهي حد السيف . [٤] أصابه الضر : وهو التراب . [٥] كريم .

بالسوية ، والعدل في الرعية ، ووضع الأخماس في مواضعها التي أمر الله ^(١) بها ،
تعالون يا أهل المدينة أنا لم نخرج من ديارنا وأموالنا أشرأ ولا بطراً ، ولا عبثاً ،
ولا لهواً ، ولا لدولة مُلك نريد أن نخوض فيه ، ولا لثأر قديم نيل منا ، ولكننا
لما رأينا مصاييح الحق قد أطفئت ، ومعالم العدل قد غطت ، وكثر الأدواء
في الدين ، وعمل بالهوى ، وغنّف القاتل بالحق ، وقُتل القائم بالقسط ، ضاقت
علينا الأرض بما رحبت ، وسمعنا داعياً ^(٢) يدعو إلى طاعة الرحمن ، وحُكم
القرآن ، فأجبنا داعي الله ، ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز ^(٣) في الأرض ،
فأقبلنا من قبائل شتى ، النفرة ^(٤) منا على بغير واحد ، عليه زادهم وأقسمهم ،
يتعاونون لحافوا واحداً ، قلابون مُستضعفون في الأرض ، فأوانا الله وأيدنا نصره ،
وأصبحنا والله جميعاً بنعمته إخواناً ، وعلى الدين أعواناً ، ثم لقينا رجالكم بقديدي ،
فدعوتناهم إلى طاعة الرحمن ، وحكم القرآن ، ودعوتنا إلى طاعة الشيطان ، وحكم
مروان وآل مروان ، فشتان لعمري الله ما بين النقي والرشد ! ثم أقبلوا يهرعون
ويزفون ^(٥) ، قد ضرب الشيطان يجرانه ^(٦) ، وغلت بدماهم مراحله ، وصدق
عليهم إبليس طئنه ، وأقبل أنصار الله عصائب وكتائب ، بكل مُهند ذي روثق ،
فدارت رحانا واستدارت رحام بضرب يرتاب منه المبطولون .

وأتم يا أهل المدينة إن تنصروا مروان وآل مروان يُسحقكم ^(٧) الله بعذاب

[١] قال الله تعالى : « وَأَعْلَوْا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي

الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالسَّائِكِينَ وَابْنِ السَّبِيلِ » . [٢] يريد عبد الله بن عبيد الكندي .

[٣] أي لا يجز الله بالحرب منه فيفوته . [٤] النفرة : جماعة الرجال من ثلاثة إلى عشرة .

[٥] زف : اللطم وغيره كضرب زفا وزفياً وزفوا وأزف : أسرع .

[٦] جران البير : مقدم عقه من مذبحه إلى منحره أي استولى حليم . [٧] أسحقه : استأمله .

من عنده أو بأيدينا ، وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ، يَأْهَلُ الْمَدِينَةَ إِنْ أَوْلَكُم خَيْرَ أَوْلٍ ، وَآخِرُكُمْ شَرٌّ آخِرٍ ، يَأْهَلُ الْمَدِينَةَ : النَّاسُ مِنَّا وَنَحْنُ مِنْهُمْ ، إِلَّا مُشْرِكًا عَابِدَ وَثَنٍ ، أَوْ كَافِرًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، أَوْ إِمَامًا جَائِرًا أَوْ شَاذًا عَلَى عِصْمِهِ ، يَأْهَلُ الْمَدِينَةَ : مَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَلَّفَ نَفْسًا فَوْقَ طَاقَتِهَا ، أَوْ سَأَلَهَا مَا لَمْ يُؤْتِهَا ، فَهُوَ لِلَّهِ عَدُوٌّ وَلَنَا حَرْبٌ ^(١) . (تاريخ الطبري ٩ : ١٠٨ ، الألفاظ ٢٠ : ١٠٤ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ٤٥٨ ، والعقد النريد ٢ : ١٦١)

٤٤١ — خطبة له في سبِّ أهل المدينة وتقريرهم

وخطب بالمدينة ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ : مَا لِي رَأَيْتَ رَسَمَ الدِّينِ فِيكُمْ بَاقِيًا ، وَآثَارَهُ دَارِسَةً ، لَا تَقْبَلُونَ عِظَتَهُ ، وَلَا تَفْقَهُوْنَ مِنْ أَهْلِهِ حُجَّةً ، قَدْ بَلَّيْتُ فِيكُمْ جِدَّتَهُ ، وَانْطَمَسَتْ عَنْكُمْ سُنَّتُهُ ، تَرَوْنَ مَعْرُوفَهُ مُنْكَرًا ، وَالْمُنْكَرَ مِنْ غَيْرِهِ مَعْرُوفًا ، إِذَا انْكَشَفَتْ لَكُمْ الْعِبَرُ ، وَأَوْضَحَتْ لَكُمْ النُّذُرَ ^(٢) ، تَحْمِيَتْ عَنْهَا أَبْصَارُكُمْ ، وَصُمَّتْ عَنْهَا أَسْمَاعُكُمْ ، سَاهِينَ فِي عَمْرَةٍ ، لَاهِينَ فِي غَفْلَةٍ ، تَبْسِطُ قُلُوبَكُمْ لِلْبَاطِلِ إِذَا نُشِرَ ، وَتَنْقُبُضُ عَنِ الْحَقِّ إِذَا ذُكِرَ ، مُسْتَوْحِشَةً مِنَ الْعِلْمِ ، مُسْتَأْنَسَةً بِالْجَهْلِ ، كَلِمًا وَقَمْتُ عَلَيْهَا مَوْعِظَةٌ زَادَتْهَا عَنِ الْحَقِّ قُفُورًا ، تَحْمَلُونَ قُلُوبًا فِي صُدُورِكُمْ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدَّ قَسْوَةً مِنَ الْحِجَارَةِ ، أَوْ لَمْ تَلِنِ لِكِتَابِ اللَّهِ الَّذِي لَوْ أَنْزَلَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ ، مَا تُثْنِي

[١] روى أنه قال عقب ذلك : « يَا أَهْلَ الدِّينَةِ أَخْبِرُونِي عَنْ تِمَانِيَةِ أَسْمِهِ فَرَضَهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ عَلَى الْفَرْدِ ، عَلَى حَيْهِ الضَّعِيفُ ، لِمَا تَسْمَعُ ، لَيْسَ لَهُ مِنْهَا وَلَا سَهْمٌ وَاحِدٌ ، فَأَخَذَ جَمِيعَهَا لِنَفْسِهِ مَكْرَبًا عَارِيًا لِرَبِّهِ ، مَا يَقُولُونَ فِيهِ وَفِيمَنْ عَاوَنَهُ عَلَى فُلِهِ ؟ يَا أَهْلَ الدِّينَةِ بَلِّغْنِي أَنْتُمْ تَنْقُصُونَ أَصْحَابِي . . . الخ » وقد حدثته هنا لوروده في الخطبة السالفة . [٢] النذر : جمع نذير وهو للنذر .

عنكم صحة أبدانكم إذا سقيمت قلوبكم ، إن الله قد جعل لكل شيء سبباً غالباً
ينقاد له ، ويطيع أمره ، وجعل القلوب غالباً على الأبدان ، فإذا مالت القلوب
مَيْلاً ، كَانَتِ الأبدان لها تَبَعاً ، وإن القلوب لا تَلِينُ أهلها إلا بصحتها ، ولا
يُصَحِّحُهَا إلا المعرفةُ بالله ، وقوةُ النية ، ونفاذُ البصيرة ، ولو استشعرت تقوى
الله قلوبُكم ، لاستعملت في طاعة الله أبدانكم ، يأهل المدينة : دارُكم دارُ
الهجرة ، وسمَوَى رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نَبَتَ به دارُهُ ، وضاق به
قَرَارُهُ ، وآذاه الأعداء ، وتجهمت ^(١) له ، فنقله الله إليكم ، بل إلى قوم لعمري لم
يكونوا أمثالكم ، متوازنين مع الحق على الباطل ، مختارين الآجل على العاجل ،
يصبرون للضرأ رجاء ثوابها ، فنصروا الله ، وجاهدوا في سبيله ، وآووا رسول الله
صلى الله عليه وسلم ونصروه ، واتبعوا النورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ، وآثروا الله على
أنفسهم ولو كَانَ بهم خِصَاصَةٌ ^(٢) . قال الله تعالى لأمثالهم ولن أهتدى
بهدام : « وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » ، وأنتم أبناؤهم
ومن بقي من خَلَقَهم ، تَرَكُون أن تقتدوا بهم ، أو تأخذوا بسنتهم ، عُنى القلوب ،
صُمِّمَ الآذان ، اتبعتم الهوى ، فأزداكم عن الهدى وأسهاكم ، فلا موعظُ
القرآن تَجْرِكُكم فتزدجرون ، ولا تَعْظُكم فتعتبرون ، ولا تُوقِظُكم فتستيقظون ،
لبئس الخَلَفَ أنتم من قوم مَضَوْا قبلكم ، ماسرتم بسيرتهم ، ولا حَفِظْتُمْ
وصيتهم ، ولا احتذيتُم مثالهم ، لو شَقَّتْ عنهم قبورهم ، فَعُرِضَتْ عليهم أعمالكم ،
لَعَجِبُوا كيف صُرفَ العذاب عنكم ! » .

(الأفاقي ٢٠ : ١٠٠ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٥٨)

وجاء في رواية المقد الفريد :

« ي أهل المدينة : أولكم خيرٌ أول ، وآخركم شر آخر ، إنكم أطفتم قراءكم وفقهاءكم فاختانوكم ^(١) عن كتاب غير ذي عوج ، بتأويل الجاهلين ، واتصال المبطلين ، فأصبحتم عن الحق ناكين ^(٢) ، أمواتا غير أحياء وما تشمرون ، ي أهل المدينة : يا أبناء المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ، ما أصح أصلكم ، وأسقم قرعكم ! كان آباؤكم أهل اليقين ، وأهل المعرفة بالدين ، والبصائر النافذة ، والقلوب الواعية ، وأنتم أهل الضلالة والجهالة ، استعبدتكم الدنيا فأذلّتكم ، والأمانى فأضلتكم ، فتح الله لكم باب الدين فسددتموه ، وأغلق عنكم باب الدنيا ففتحتهموه ، سراع إلى الفتنة ، بطالة عن السنة ، غمى عن البرهان ، صم عن العرفان ، عبيد الطمع ، خلفاء الجزع ، نعم ما ورثكم آباؤكم لو حفظتموه ، وبئس ما تورثون أبناءكم إن تمسكوا به ، نصر الله آباءكم على الحق ، وخذلكم على الباطل ، كان عدد آباءكم قليلا طيبا ، وعددكم كثير خيث ، اتبعتم الهوى ، فأرداكم ، واللهو فأسهاكم ، ومواعظ القرآن تزجركم فلا تردجرون ، وتعبركم ^(٣) فلا تهبرون . »

(المقد الفريد ٢ : ١٦١)

٤٤٢ — خطبة أخرى

وخطب فقال : « أما بعد ، فإنك في نائي فتنة ^(١) ، وقائد ضلالة ، قد طال جثومها ، واشتد عليك غمومها ، وتلوّنت ^(٢) مصايد عدواقه فيها ، وما

[١] خاتوكم . [٢] أي تالين عنه متفرين . [٣] المراد : تمطكم ، من البرية ، ولم أجده في كتب اللغة بهذا المعنى ، وإنما ألقى فيها : « عبر الدرام : وزنها » .
[٤] من إضافة الصفة الموصوف أي في فتنة ناشئة ، أي حيلة شابة .
[٥] تعددت وصارت ذات أو ان أي نصب المدور لنا للمزيد ، ودبر الكايد للإيقاع بنا .

نَصَبَ مِنَ الشَّرْكَ لِأَهْلِ الْفَلَةِ عَمَّا فِي عَوَاقِبِهَا ^(١) ، فَلَنْ يَهْدُ عَمُودَهَا ، وَلَنْ يَنْزِعَ أَوْتَادَهَا ، إِلَّا الَّذِي يَدُهُ مُلْكُ الْأَشْيَاءِ ، وَهُوَ اللَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ، أَلَا وَإِنَّ اللَّهَ بَقَايَا مِنْ عِبَادِهِ لَمْ يَتَحَيَّرُوا فِي ظُلْمَتِهَا ، وَلَمْ يُشَاسُوا أَهْلَهَا عَلَى شُبُهَاهَا ، مَصَابِيحُ النُّورِ فِي أَفْوَاهِهِمْ تَرَهُو ، وَالسُّنَنُومُ بِحُجَجِ الْكِتَابِ تَنْطِقُ ، رَكِبُوا مَنَهِجَ السَّبِيلِ ، وَقَامُوا عَلَى الْعِلْمِ ^(٢) الْأَعْظَمِ ، هُمْ خُصَمَاءُ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ، بِهِمْ يُصْلَحُ أَقْضَى الْبِلَادِ ، وَيَدْفَعُ عَنِ الْمَبَادِ ، فَطُوبَى لَهُمْ وَلِلْمُتَصَبِّحِينَ ^(٣) بَنُورِهِمْ ، وَأَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنا مِنْهُمْ ^(٤) . (القدر الفريد ٢ : ١٦٢)

٤٤٣ — خطبته حين خرج من المدينة

وخطب حين خرج من المدينة ، لقتال جيش مروان ^(٥) فقال :
« يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ : إِنَّا خَارِجُونَ لِحَرْبِ مَرْوَانَ ، فَإِنْ نَظَرْتُمْ نَعْدِلَ فِي أَحْكَامِكُمْ ، وَنَحْمِلُكُمْ عَلَى سَنَةِ نَبِيِّكُمْ ، وَنَقْصِمَ بَيْنَكُمْ فَيْشَكُمْ ، وَإِنْ يَكُنْ مَا تَقْتَضُونَ لَنَا : فَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيْ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ » .
(تاريخ الطبري ٩ : ١١٠ ، والأغانى ٢٠ : ١١٠ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٦١)

[١] أى ولنا منهم . [٢] العلم : الجبل ، والمراد أنهم لا يستحقون في دعوتهم .

[٣] أى للسقيطين . [٤] ذكر الجاحظ هذه الخطبة ، وقال : ذهب عن إسنادها ، وهو لأبي حنيفة كما في القدر الفريد .

[٥] وذلك أن مروان بن محمد جهز جيشاً من أهل الشام ، واستعمل عليهم عبد الملك بن محمد بن عطية ، وأمره أن يعفى فيقاتلهم ، فإن هو ظفر بهم مضى حتى يبلغ اليمن ، وقاتل عبد الله بن يحيى ، فسار إليهم ، وخرج أبو حنيفة قاتله ، فقاتلهم ابن عطية حتى قتلهم ، وقتل أبا حنيفة ، وبث برأسه إلى مروان ، وصلبه هو وكبار أصحابه (سنة ١٣٠) ولم يزالوا صليين حتى أفضى الأمر إلى بني العباس ، ثم سار ابن عطية إلى اليمن ، فقاتل عبد الله بن يحيى وقتله ، وبث برأسه إلى مروان .

٤٤٤ - عمران بن حطان والحجاج

ولما ظفر الحجاج بعمران ^(١) بن حطان الشَّارِي . قال : اضربوا عنق ابن الفاجرة ، فقال عمران : لبئس ما أدَّبَكَ أَهْلُكَ يَا حَجَّاج ! كيف أمنتَ أَنْ أجيبَكَ بمثل ما لَقِيتَنِي به ؟ أبتدَ للوثِ منزلةُ أصانِكَ عليهما ؟ فأطرق الحجاج أَسْتَحْيَاءَ وقال : خَلُّوا عنه ، فخرج إلى أصحابه ، فقالوا : وآله ما أطلقَكَ إِلَّا اللَّهُ ، فارجع إلى حربِهِ معنا ، فقال : هيهات ! غَلَّ يَدَا مُطْلِقِهَا ، وَأَسَرَّ رِقَبَةَ مُنْتَقِمِهَا .
(زهر الآداب ٣ : ١٧٨)

الخطب الوعظية والوصايا

٤٤٥ - خطبة سحبان بن زفر الوائلي ^(٢) (توفي سنة ٥٤ هـ)

خطب فقال :

« إن الدنيا دارُ بَلاغٍ ، والآخرة دارُ قَرَارٍ ، أيها الناس : تَخَذُوا مِنْ دَارِ

[١] كان رأس القصد من الخوارج الصفرية وخطيبهم وشاعرهم .

[٢] هو سحبان بن زفر الوائلي ، وقد ضرب به المثل في الفصاحة والبيان ، فقيل : « أخطب من سحبان وائلي » ومع ذلك لم يؤثر عنه إلا هذه الخطبة الوجزة ، على أنها تترى إلى الامام عليّ - انظر نهج البلاغة ١ : ٢٦٠ - وذكر المبرد في الكامل عن الأصمعي أن أعرابيا خطبها بالبادية - تهذيب الكامل ١ : ٢٨ - وكذا ذكر أبو علي الفارابي في الأملال ١ : ٢٥٨ - وابن عبد ربه - في العقد الفريد ٧ : ١٦٤ - وأبو الفضل الميداني - في مجمع الأمثال ١ : ٣١٨ ، وابن قتيبة في عيون الاخبار ٢ : ٢٥٣ - والحصري - في زهر الآداب ٢ : ٤ - قال ابن أبي الحديد : « وأكثر الناس على أن هذا الكلام لأُمير المؤمنين علي عليه السلام ، ويجوز أن يكون الأعرابي حفظه ، فأورده كما يورد الناس كلام غيرهم » - ٣ م : ٢ - .

وقد روى ابن نُبَاتَةَ في سرح الميرون أنه قدم على معاوية وقد من خراسان ، فبهم سعيد بن عثمان ابن عفان ، فطلب سحبان فلم يوجد في منزله ، فانتصب من ناحية اقتضابا ، وأدخل عليه ، فحكم منذ صلاة الظهر إلى أن قامت صلاة العصر ، ما تنتجع ، ولا تسئل ، ولا توقف ، ولا اجبأ في معنى ، فخرج منه ، وقد بقي عليه منه شيء ، فما زالت تلك صلاة حتى أشار معاوية بيده ، فأشار إليه سحبان أن لا تطع كلامي فقال معاوية : الصلاة ، قال : هي أملاك : نحن في صلاة ونحمد ، ووعد ووعد ، فقال مطوية : أتأخطب الرب ، فقال سحبان : « والعجم والمجن والانس » اهـ ، ولعل هذه الإطالة هي التي فاقته الرواة عن حفظ ما يقول .

تَمَرَّكُمْ لِدَارِ مَقَرِّكُمْ ، وَلَا تَهَيَّكُوا أَسْتَارَكُمْ عِنْدَ مَنْ لَا تَحْقُقُ عَلَيْهِ أَسْرَارُكُمْ ،
وَأَخْرِجُوا مِنَ الدُّنْيَا قُلُوبَكُمْ ، قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْهَا أَبْدَانُكُمْ ، فَفِيهَا حَيِّثُمْ وَلَنَبِيرُهَا ،
خُلِقْتُمْ ، إِنْ الرِّجْلُ إِذَا هَلَكَ ، قَالَ النَّاسُ : مَا تَرَكَ ؟ وَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ مَا قَدَّمَ اللَّهُ ؟
قَدَّمُوا بَعْضًا يَكُونُ لَكُمْ ، وَلَا تَخْلُقُوا كُلًّا يَكُونُ عَلَيْكُمْ .

(شرح الصيون ص ٩٥)

٤٤٦ — خطبة معاوية

وخطب معاوية بدمشق ، فقال :

« أَيُّهَا النَّاسُ : سَافِرُوا بِأَبْصَارِكُمْ فِي كَرِّ الْجَدِيدِينَ ^(١) ، ثُمَّ ارْجِعُوا كَلِيلَةً
عَنِ بُلُوغِ الْأَمَلِ ، فَإِنَّ الْمَاضِيَ عِظَةٌ لِلْبَاقِي ، وَلَا تَجْمَلُوا النُّرُوزَ سَبِيلَ الْعِجْزِ عَنِ
الْجِدِّ ، فَتَنْقَطِعَ حُجَّتُكُمْ فِي وَقْفِ اللَّهِ سَائِلُكُمْ فِيهِ ، وَمَحَاسِبُكُمْ فِيمَا أَسْلَقْتُمْ ،
أَيُّهَا النَّاسُ : أَمْسِ شَاهِدٌ فَاحْذَرُوهُ ، وَالْيَوْمَ مُؤَدَّبٌ فَاعْرِفُوهُ ، وَغَدًا رَسُولٌ
فَأَكْرِمُوهُ .

(مواسم الأدب ٢ : ١١٦)

٤٤٧ . خطبة عبد الملك بن مروان

وخطب عبد الملك بن مروان ، فقال :

« أَيُّهَا النَّاسُ : اْعْمَلُوا لِلَّهِ رَغْبَةً وَرَهْبَةً ، فَإِنَّكُمْ نَبَاتُ نِعْمَتِهِ ، وَحَصِيدُ
نِقْمَتِهِ ، وَلَا تَغْرِسْ لَكُمْ الْآمَالَ ، إِلَّا مَا تَجْتَنِيهِ الْآجَالُ ، وَأَنْلُوا الرِّغْبَةَ فِيمَا يورث
الْعَطَبَ ، فَكُلْ مَا تَرَرُّعُهُ الْعَاجِلَةُ ، تَقْلَمُهُ الْآجِلَةُ ، وَاحْذَرُوا الْجَدِيدِينَ ، فَهَما
يَكْرَهُانِ عَلَيْكُمْ ، إِنْ عُقِبِي مِنْ بَقِيِّ الْحُقُوقِ بَيْنَ مَضَى ، وَعَلَى أَثَرٍ مِنْ سَلَفٍ ،
يَمْضِي مِنْ خَلْفٍ ، فَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى . (مواسم الأدب ٢ : ١١٨)

٤٤٨ - خطبة لعمر بن عبد العزيز^(١)

قال أبو العباس المبرّد : حَدَّثْتُ فِي بَعْضِ الْأَسَانِيدِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ قَالَ فِي خُطْبَةٍ لَهُ :

« أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّمَا الدُّنْيَا أَمَلٌ مُخْتَرَمٌ ، وَأَجَلٌ مُتَقَسَّصٌ ، وَبَلَاغٌ إِلَى دَارٍ غَيْرِهَا ، وَسَيْرٌ إِلَى الْمَوْتِ لَيْسَ فِيهِ تَعْرِيجٌ ، فَرَجِمَ اللَّهُ أَمْرًا فَكَّرَ فِي أَمْرِهِ ، وَنَصَحَ أَنْفُسَهُ ، وَرَاقِبَ رَبَّهُ ، وَاسْتَقَالَ ذَنْبَهُ ، وَنَوَّرَ قَلْبَهُ ، أَيُّهَا النَّاسُ : إِنْ أَبَاكُمْ قَدْ أُخْرِجَ مِنَ الْجَنَّةِ بِذَنْبٍ وَاحِدٍ ، وَإِنْ رَبَّكُمْ وَعَدَ عَلَى التَّوْبَةِ ، فَلْيَكُنْ أَحَدُكُمْ مِنْ ذَنْبِهِ عَلَى وَجَلٍ ، وَمَنْ رَبَّاهُ عَلَى أَمَلٍ » . (تهذيب الكلل ١ : ٢٧)

كلام الحسن البصري (المتوفى سنة ١١٠ هـ)

٤٤٩ - خطبة له

قال الحسن البصري رحمه الله^(٢) :

« يَا بَنِي آدَمَ : بَعْضُ دُنْيَاكَ بَاخِرَتُكَ تَرْبَحُهُمَا جَمِيعًا ، وَلَا تَبِيعُ آخِرَتُكَ بِدُنْيَاكَ فَتُخْصِرَها جَمِيعًا ، يَا بَنِي آدَمَ : إِذَا رَأَيْتَ النَّاسَ فِي الْخَيْرِ فَنَافِسْهُمْ فِيهِ ، وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ فِي الشَّرِّ فَلَا تَنْبَيطْهُمْ عَلَيْهِ ، الثَّوَاءُ^(٣) هَاهُنَا قَلِيلٌ ، وَالْبَقَاءُ هُنَاكَ طَوِيلٌ ، أَمْتُمْكُمْ آخِرَ الْأُمَمِ ، وَأَتَمُّكُمْ آخِرَ أُمَمِكُمْ ، وَقَدْ أُسْرِعَ بِخِيَارِكُمْ ، فَإِذَا تَنْتَظِرُونَ ؟ »

[١] هذه الخطبة مختلف في قائلها أيضا ، فقد عزاها المبرّد إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كما ترى وروى الميداني في مجمع الأمثال (٢ : ٢٧٧) الشطر الأول منها ، وعزاها إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وقد أوردته في الجزء الأول ص ٢٧٠ .

[٢] هو أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن يسار البصري ، من سادات التابعين ، وأدورع البجاد واللتكين وإمام أهل العلم والرأى في عصره ، وأستاذ واصل بن عطاء شيخ للمعركة . [٣] الاقامة .

الممائيّة؟ فكان قَدْ. هيّات هيّات ! ذهبت الدنيا بحاليها ^(١)، وبقيت الأعمال قلائد في أعناق بني آدم. فيالها موعظة لو واقفت من القلوب حياة ! أما إنه والله لا أمة بعد أمتكم، ولا نبي بعد نبيكم، ولا كتاب بعد كتابكم، أنتم تسوقون الناس والساعة تسوقكم، وإعما ينتظر بأولكم أن يلحقه آخركم، من رأى محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم فقد رآه غادياً رائحاً، لم يضع لينة على لبنة، ولا قصبة على قصبة، رُفِعَ له عِلْمٌ فُسِمَ إليه ^(٢)، فالوحاء الوحاء ^(٣)، والنّجاء النّجاء، غلام ترجون؟ أُنْتِمْ وَرَبُّ الكعبة ! قد أسرع بخياركم : وأنتم كل يوم ترذلون ^(٤)، فإذا تنتظرون؟ إن الله تبارك وتعالى بمث محمداً عليه الصلاة والسلام على عِلْمٍ منه، اختاره لنفسه، وبمته برسائه، وأنزل عليه كتابه، وكان صَفْوَتَه من خلقه، ورسوله إلى عباده، ثم وضعه من الدنيا مَوْضِعاً ينظر إليه أهل الأرض ^(٥)، وآتاه منها قوتاً وبلغته، ثم قال : « لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ». فرغب أقوام عن عيشه، وسخطوا ما رضى له رَبُّهُ، فأبدم الله وأسحقهم ^(٦).

يا بن آدم : طأ الأرض بقَدَمِكَ، فإنها عن قليل قَبْرُكَ، واعلم أنك لم تزل في هَدمٍ عمرك منذ سقطت من بطن أُمِّكَ. رحم الله رجلاً نظرت ففكر، وتفكر فاعتبر، وأبصر فصبر، فقد أبصر أقوام ولم يصبروا، فذهب الجزع بقلوبهم، ولم يذركوا ما طلبوا، ولم يرجعوا إلى ما فارقوا.

[١] أى بزمنها الحالى، من حليت المرأة كرضى نهى حال وحالية : ليست الحلى، وللعن ذهبت بزخرفها الذى تربت به الناس فأضلتهم وأغرتهم، وهى فى نسخة : « يحل بلها » وفى أخرى : « يحال بلها » وهو تحريف . [٢] وفى نسخة : « نسأ إليه » . [٣] الوحاء وعد : العجلة والإسراع . [٤] أى يسيرون أرفلاً جمع رذل وهو الهدون الخسيس . [٥] أى موضعاً سامياً . [٦] أى أبدم، وفى نسخة : « وسحقهم » أى أهلهم

يا بن آدم : اذكر قوله : « وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ ^(١) » فِي عُنُقِهِ ، وَنُخْرِجُ
لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ، اقرأ كِتَابَكَ ، كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ
عَلَيْكَ حَسِيبًا . عَدَلَ وَاللَّهِ عَلَيْكَ مَنْ جَعَلَكَ حَسِيبَ نَفْسِكَ ، خذوا صفا
الدنيا ، وَذَرُّوا كَذَرَهَا ، فليس الصفو ما عادَ كَذَرًا ، ولا الكَذَر ما عادَ صَفْوًا ،
دَعُوا مَا يُرِيكُمْ إِلَىٰ مَا لَا يَرِيكُمْ ، ظَهَرَ الْجَفَاءُ ، وَقَلَّتِ الْعُلَمَاءُ ، وَعَقَّتِ ^(٢) السُّنَّةُ ،
وَشَاعَتِ الْبِدْعَةُ ، لَقَدْ صَحِبْتُ أَقْوَامًا مَا كَانَتْ صَحْبَتُهُمْ إِلَّا قُرَّةَ الْعَيْنِ ، وَجِلَاءَ
الصدور ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ أَقْوَامًا كَانُوا - مِنْ حَسَنَانِهِمْ أَنْ تُرَدَّ عَلَيْهِمْ - أَشْفَقَ ^(٣)
مِنْكُمْ - مِنْ مَيِّئَاتِكُمْ أَنْ تُعَذَّبُوا عَلَيْهَا - ، وَكَانُوا فِيهَا أَحْلَىٰ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا أَزْهَدَ
مِنْكُمْ فِيهَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مِنْهَا ، مَا لِي أَسْمَعَ حَسِيسًا ، وَلَا أَرَىٰ أُنَيْسًا ، ذَهَبَ النَّاسُ
وَبَقِيَ النَّسْنَسُ ^(٤) ، لَوْ تَكَاشَفْتُمْ مَا تَدَاغْتُمْ ، تَهَادَيْتُمُ الْأَطْبَاقَ ، وَلَمْ تَهَادُوا
النَّصَائِحَ ، قَالَ ابْنُ الْخَطَّابِ : « رَحِمَ اللَّهُ أَمْرًا أَهْدَىٰ إِلَيْنَا مَسَاوِينَنَا » أَعِدُّوا
الْجَوَابَ ، فَإِنَّكُمْ مُسْتَوْلُونَ ، الْمُؤْمِنُ مَنْ لَمْ يَأْخُذْ دِينَهُ عَنْ رَأْيِهِ ، وَلَكِنَّهُ أَخَذَهُ مِنْ
قَبْلِ رَبِّهِ ، إِنْ هَذَا الْحَقُّ قَدْ جَهَّدَ أَهْلَهُ ، وَحَالَ يَنْتَهُمُ وَيُنْ شَهَوَاتِهِمْ ، وَمَا يَصْبِرُ
عَلَيْهِ إِلَّا مَنْ عَرَفَ فَضْلَهُ ، وَرَجَا عَاقِبَتَهُ ، فَمَنْ حَمِدَ الدُّنْيَا ذِمَّ الْآخِرَةَ ، وَلَيْسَ
يُكْرَهُ لِقَاءُ اللَّهِ إِلَّا مُقِيمٌ عَلَىٰ سُخْطِهِ .

[١] أى عمله يجعله في عنقه ، والتعبير به لما كانوا يقيمون وينشاءون بالطائر السائح والبارح ، استعيرت
لما هو سبب الخير والشر . [٢] عجت . [٣] أخوف .
[٤] في حديث أبي هريرة رضى الله عنه : « ذهب الناس وبقي النسناس » قيل : فما النسناس ؟ قال :
« الذين يتشبهون بالناس ، وليسوا من الناس » ولهم في تفسير النسناس كلام كثير منه : أنهم خلق على
صورة الناس خالفهم في أشياء ، وليسوا منهم .

يا بن آدم : الإِيمان ليس بالتحلَّى ولا بالتمنَّى ، ولكنه ما وقرَّ في القلوب ،
وصدَّقه العمل .

(البيان والبيان ٣ : ٦٨ ، وعيون الأخبار ٢ ص ٣٤٤ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ ص ٤٦٩)

٤٥٠ — خطبة أخرى

وكان إذا قرأ : « أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ »^(١) قال :

« عَمَّ أَلْهَاكُمْ ؟ عن دار الخلود ، وَجَنَّةٍ لَا تَبِيدُ »^(٢) ، هذا والله فَضَّحَ القومَ ،
وَهَتَكَ السِّرَّ ، وأبدى العوارِ^(٣) ، تُنفِقُ مثلَ دينِكَ في شهواتِكَ سَرَفًا ، وتمنع في
حقِّ الله دِرْهَمًا ! ستعلم يا أَلْكَعُ^(٤) ، الناس ثلاثة : مؤمن ، وكافر ، ومنافق ؛
فأما المؤمن : فقد أَلْجَه الخوفُ ، وَقَوَّاه ذِكْرُ العَرَضِ ؛ وأما الكافر : فقد قَمَّه
السيفُ ، وشرَّده الخوفُ ، فأذعن بِالْجِزْيَةِ ، وَصَمَحَ بالضَّريبةِ ؛ وأما المنافق : ففي
الحُجُرَاتِ والطَّرِقاتِ ، يُسِرُّونَ غَيْرَ مَا يُمْلِنُونَ ، وَيُضْمِرُونَ غَيْرَ مَا يُظْهِرُونَ ،
فاعتبروا إنكارهم ربهم ، بأعمالهم الخبيثة ، ويَلِكُ ؟ قلتَ وليَّه ، ثم تمنَّى عليه
جَنَّتْهُ ؟ . (البيان والبيان ٣ : ٦٩)

٤٥١ — خطبة أخرى

وكان يقول : « رحم الله رجلاً خَلَا بكتاب الله ، فَعَرَضَ عليه نفسه ، فإن
واقفه حمدُ ربِّه ، وسأله الزيادة من فضله ، وإن خالفه أَعْتَبَ وَأَنَابَ ، وراجع من
قريب ، رحم الله رجلاً وَعَظَ أخاه وأهله فقال : « يَا أَهْلِي : صلاتكم صلاتكم ،
زكَّاتكم زكَّاتكم ، جيرانكم جيرانكم ، إخوانكم إخوانكم ، مساكينكم

[١] التباي بالكثرة . [٢] لا تنفى . [٣] العوار : ملك العين : الميب .

[٤] أَلْكَع : التيم والأحق .

مسا كينكم ، لعل الله يرحمكم ، فإن الله تبارك وتعالى أثنى على عبد من عباده ، فقال : « وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ ، وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا » يابن آدم : كيف تكون مسلماً ولم يسلم منك جارك ، وكيف تكون مؤمناً ولم يأمئك الناس ؟ » (البيان والتبيين ٣ : ٦٩)

٤٥٢ - خطبة أخرى

وكان يقول : « لا يستحق أحد حقيقة الإيمان ، حتى لا يعيب الناس بعبه هو فيه ، ولا يأمر بإصلاح عيوبهم ، حتى يبدأ بإصلاح ذلك من نفسه ، فإنه إذا فعل ذلك لم يصلح عيباً إلا وجد في نفسه عيباً آخر ينبغي له أن يصلحه ، فإذا فعل ذلك شغل بخاصة نفسه عن عيب غيره ، وإنك ناظر إلى عملك بوزن خيره وشره ، فلا تحقرن شيئاً من الخير وإن صغر ، فإنك إذا رأيت سرك مكانه ، ولا تحقرن شيئاً من الشر وإن صغر ، فإنك إذا رأيت ساءك مكانه » . (البيان والتبيين ٣ : ٧٠)

٤٥٣ - خطبة أخرى

وكان يقول : « رحم الله عبداً كسب طيباً ، وأتقى قصداً ، وقدم فضلاً ، وجهوا هذه الفضول ^(١) حيث وجهها الله ، وضعوها حيث أمر الله ، فإن من كان قبلكم كانوا يأخذون من الدنيا بلأعهم ، ويؤثرون بالفضل ، ألا إن هذا الموت قد أضر بالدنيا ففضحها ، فلا والله ما وجد ذولب فيها فرحاً ، فإياكم وهذه السبل المتفرقة ، التي جماعها الضلالة ، وميعادها النار ، أدركت من صدر هذه الأمة قوماً كانوا إذا جنهم الليل قيام على أطرافهم ، يفترون خدودهم ، تجري دموعهم على خدودهم ، يناجون مولاهم في فكاك

رقابهم ، إذا عملوا الحسنة سَرَّتهم ، وسألوا الله أن يتقبلها منهم ، وإذا عملوا سيئة ساءت لهم ، وسألوا الله أن يفرِّها لهم ، ابن آدم : إن كَانَ لا يُمنِّيك ما يكفيك ، فليس هاهنا شيء يُمنِّيك ، وإن كَانَ يَمْنِيكَ ما يكفيك ، فالقليل من الدنيا يكفيك ، ابن آدم : لا تعمل شيئاً من الحق رِياءً ، ولا تتركه حياءً . (البیان والتبيين ٣ : ٧٠)

٤٥٤ — خطبة أخرى

وكان يقول : « إن العلماء كانوا قد استغنوا بعلومهم عن أهل الدنيا ، وكانوا يَقْضُونَ بعلومهم على أهل الدنيا ، ما لا يَقْضِي أهلُ الدنيا بدنيام فيها ، وكان أهل الدنيا يبدلون دنيام لأهل العلم رغبةً ، في علمهم ، فأصبح اليوم أهلُ العلم يبدلون علمهم لأهل الدنيا رغبةً في دنيام ، فرغب أهل الدنيا بدنيام عنهم ، وزهدوا في علمهم ، لما رأوا من سوء موضعه عندهم » ، وكان يقول : « لا أذهب إلى من يُوَارِي عني غناه ، ويُنْذِي لي فقره ، وَيُغْلِقُ دوني بابه ، ويمنعني ما عنده ، وأدع من يفتح لي بابه ، ويُنْذِي لي غناه ، ويدعوني إلى ما عنده » .

(البیان والتبيين ٣ : ٧٠)

٤٥٥ — خطبة أخرى

وكان يقول : « ابن آدم ، لا غنى بك عن نصيبك من الدنيا ، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أَفْقَرُ ، مؤمن مُتَمِّمٌ ، وعَلِيجُ اغْتَمٌ » ، وأعرابي لاققه له ، ومنافق مكذَّب ، وديناوي^(١) مُتَرَفٌ ، نَمَقَ بهم ناعق فأتبعوه ، قرأش ناري^(٢) ، وذِبان طمع ، والذي نَقَسُ الحسنِ يده ، ما أصبح في هذه القرية مؤمن إلا أصبح مهموماً حزينا ، وليس لمؤمن راحةٌ دون لقاء الله ، الناسُ ما داموا في عافية

[١] نسبة إلى دينا . [٢] أي هم كالقراش يهافون على النار يحسبها طاقة له ، فخره .

مستورون ، فإذا نزل بلاءه صاروا إلى حقائقهم ، فصار المؤمن إلى إيمانه ،
والمتأفق إلى تفاقه ، أى قوم : إن نعمة الله عليكم أفضل من أعمالكم ، فسارعوا
إلى ربكم ، فإنه ليس لمؤمن راحة دون الجنة ، ولا يزال العبد بخير ما كان له واعظ
من نفسه ، وكانت المحاسبة من همه . (البيان والبيان ٣ : ٧٠)

٤٥٦ — خطبة أخرى

وقال في يوم فطر — وقد رأى الناس وهيتاتهم — : « إن الله تبارك وتعالى
جعل رمضان مضماراً لخلقه ، يستبِقُون فيه بطاعته إلى مَرْضَاتِهِ ، فسبق أقوام
ففازوا ، وتخلف آخرون فخابوا ، فالتجَبَّ من الضاحك اللاعب ، في اليوم الذى
يفوز فيه المحسنون ، ويخسر فيه المبطلون ، أما والله أن لو كُشِفَ النِطَاء ، لشغل
حسن بإحسانه ، ومُسَى بإساءته ، عن ترجيل ^(١) شعر ، أو تجديد ثوب .
(البيان والبيان ٣ : ٧١ ، وتهذيب الكامل ١ : ٢٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٢٠٣)

٤٥٧ — مقام الحسن البصرى عند عمر بن هبيرة

لما ولى عُمر بن هُبَيْرَةَ القَزَارَى العراق — وذلك في أيام يزيد بن عبد الملك —
استدعى الحسن البصرى ، ومحمد بن سيرين ، والشَّعْبِيَّ ، سنة ثلاث ومائة ، فقال
لهم : إن يزيد خليفةُ الله ، استخلفه على عبادته ، وأخذ عليهم الميثاق بطاعته ، وأخذ
عهدنا بالسمع والطاعة ، وقد ولّاني ما ترون ، فيكتب إلى بالأمر من أمره ،
أعرف في تنفيذهِ المَلَكَةَ ، فأخاف إن أطعته غضبَ الله ، وإن عصيته لم آمن
سَطَوَتِهِ ، فاترون ؟ فقال ابن سيرين والشَّعْبِيَّ قولاً فيه تَقِيَّةٌ ، وكان ابن هُبَيْرَةَ
لا يستشفي دون أن يسمع قول الحسن ، فقال : قل ما عندك يا أبا سعيد ، فقال :

[١] وفي رواية الكامل للبرد : « ترطيل » بالطاء ، والترطيل : تلين الشعر بالدهن وتكبيره
وإدخاله وإرساله .

«بأن هيرة: خَفَّ الله في يزيد ولا تَحَفَّ يزيد في الله، إن الله يمتنع من يزيد، وإن يزيد لا يمتنع من الله، وأوشك أن يبعث إليك مَلَكًا، فيُرِيكَ عن سريرك، ويخرجك من سَعَةِ قصرِكَ، إلى ضيق قبرِكَ، ثم لا يُنْجِيكَ إلا عَمَلُكَ، بأن هيرة: إن تَمَصَّ الله، فإنما جعل الله هذا السلطان ناصراً لدين الله وعباده، فلا تَرْكَبَنَّ دين الله وعباده بسلطان الله، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق».

وفي رواية أخرى قال: «أقول والله إنه يُوشِكُ أن ينزل بك مَلَكٌ من ملائكة الله فَظًّا غليظ، لا يَمَصِّي الله ما أمره، فيخرجك من سَعَةِ قصرِكَ، إلى ضيق قبرِكَ، فلا يُفْنِي عَنْكَ ابن عبد الملك شيئاً، وإنى لأرجو أن الله عزَّ وجلَّ سيعصمكَ من يزيد، وإن يزيد لا يمتنع من الله، فاتق الله أيها الأمير، فإنك لا تأمن أن ينظر الله إليك، وأنت على أقبح ما تكون عليه من طاعة يزيد، نظرةً يَمَقُّتُك بها، فيُملِّقُ عَنْكَ باب الرحمة، واعلم أني أخوَّفُك ما خوَّفَكَ الله سبحانه حين يتول: «ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ» وإذا كنت مع الله عزَّ وجلَّ في طاعته كفاك بَوَائِقَ^(١) يزيد، وإن كنت مع يزيد على معصية الله وكلَّك الله إلى يزيد حين لا يُفْنِي عَنْكَ شيئاً».

فبكي عمر بن هيرة بكاء شديداً، ثم أجازم، وأضعف جأزة الحسن، فقال الشعبي لابن سيرين: سَفَسْنَا^(٢) له فَسَفَسَ لَنَا.

(وفيات الأعيان ١: ١٢٨، الحسن البصري لابن الجوزي ص ٥٢، مروج الذهب ٢: ١٧٨، صيون الأخبار م ٢: ص ٣٤٣، شرح ابن أبي الحديد م ٤: ص ٥٩، أمالي السيد الرضوي ١: ١١٠)

٤٥٨ — مقام الحسن عند النضر بن عمرو

وأحضر النضر بن عمرو ـ وكان والياً على البصرة ـ الحسن البصري يوماً، فقال:

[١] جمع باهجة وهي الداهية. [٢] سَفَسَ عمله: لم يبالغ في إحكامه.

يا أبا سعيد إن الله عز وجل : خلق الدنيا وما فيها من ريشها ^(١) ، وبهجتها ، وزينتها لعباده ، وقال عز وجل : « كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ » ، وقال عز من قائل : « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ، قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » ، فقال الحسن : « أيها الرجل : اتق الله في نفسك ، وإياك والأمانى التي ترجحت ^(٢) فيها فتهلك » ، إن أحدا لم يعط خيرا من خير الدنيا ، ولا من خير الآخرة بأمنيته ، وإنما هي داران ، من عمل في هذه أدرك تلك ، ونال في هذه ما قُدِّر له منها ، ومن أهل نفسه خسرهما جميعا ، إن الله سبحانه اختار محمدا صلى الله عليه وسلم لنفسه ، وبعثه برسالة ورحمته ، وجعله رسولا إلى كافة خلقه ، وأنزل عليه كتابا مهيئنا ، وحدّله في الدنيا حدودا ، وجعل له فيها أجلا ، ثم قال عز وجل : « لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ » وأمرنا أن نأخذ بأمره ، ونهتدى بهديه ، وأن نسلك طريقته ، ونعمل بسنته ، فما بلغنا إليه فبفضله ورحمته ، وما قصرنا عنه فعلمنا أن نستعين ونستغفر ، فذلك باب نخرجنا ، فأما الأمانى فلا خير فيها ، ولا في أحد من أهلها .

فقال النضر : والله يا أبا سعيد إنا على ما فينا لنحب ربنا ، فقال الحسن : « لقد قال ذلك قوم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقر الله تعالى عليه : « قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ » . فجعل سبحانه أتباعه صلى الله عليه وسلم علما للعجة ، وأكذب من خالف ذلك ، فاتق

[١] الرياش : اللباس الفاخر والدل والحصب والملش . [٢] أي ملت إليها ، من ترجعت به الأروحة : مات .

الله أيها الرجل في نفسك ، وإيّم الله لقد رأيتُ أقواماً كانوا قبلك في مكانك ،
يَمْلُونُ الْمَنَابِرَ ، وَتَهْتَزُّ لَهُمُ الْمَرَكَبُ ، وَيَجْرُثُونَ الذُّيُولَ بِطَرَأٍ وَرِيَاءٍ النَّاسِ ،
يَبْنُونَ الْمَدَرَ^(١) ، وَيُؤَثِّرُونَ الْأَثَرَ^(٢) ، وَيَتَنَافِسُونَ فِي الثِّيَابِ ، أُخْرِجُوا مِنْ
سُلْطَانِهِمْ ، وَسُلِبُوا مَا جَمَعُوا مِنْ دِيَارِهِمْ ، وَقَدِمُوا عَلَى رَبِّهِمْ ، وَزَلُّوا عَلَى أَعْمَالِهِمْ ،
قَالُوا لِيْلَهُمْ يَوْمَ النَّهْيَانِ^(٣) ، وَيَا وَيَجْهَمُ - يَوْمَ يَفْرُ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَيِّهِ
وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ .

(الحسن البصري لابن الجوزي ص ٥٠)

٤٥٩ - مقام آخر له عند النضر

ودخل عليه يوماً آخر فقال :

« أيها الأمير أيدك الله ، إن أخاك من نصحك في دينك ، وَبَصْرَكَ عيوبك ،
وهذاك إلى مَرَاشِدِكَ ، وإن عدوك من غرّك ومثاك ، أيها الأمير اتق الله فإنك
أصبحت مخالفاً للقوم في الهدى والسيرة ، والعلائية والسريّة ، وأنت مع ذلك
تتمنى الأمانى ، وَتَرْجِعُ فِي طَلَبِ الْعَذْرِ ، وَالنَّاسِ أَصْلَحَكَ اللهُ طَالِبَانِ ، فَطَالِبِ
دُنْيَا ، وَطَالِبِ آخِرَةٍ ، وإيّم الله لقد أدرك طالب الآخرة واستراح ، وتعب الآخر
واخترم^(٤) ، فاحذراً أيها الأمير أن تشقى بطلب الفانى ، وَتَرْكِ الْبَاقِي ، فَتَكُونَ مِنْ
النَّادِمِينَ ، واعلم أن حكماً قال :

أَيْنَ الْمُلُوكُ الَّتِي عَنْ حَظِّهَا غَفَلْتَ حَتَّى سَقَاهَا بِكَأْسِ الْمَوْتِ سَاقِيهَا

[١] اللدر : قطع الطين اليابسة ، والمراد يبنون القصور .

[٢] استأثر على أصحابه : اختار لنفسه أشياء حسنة واستعبد بها ، والامم : الأثرة بالتحريك ، والأثرة
بالضم والكسر ، والجم أثر كفرصة وفرس . [٣] غبه في البيع يغبه ، والنهْيَانِ : أن يبين بسن
القوم بسناً ، وسمى يوم القيامة يوم التناهن ، لأن أهل الجنة تهنأ أهل النار بأخذ منازلهم في
الجنة لو آمنوا . [٤] هلك .

نموذ بالله من الحور بعد الكور^(١) ، ومن الضلالة بعد الهدى ، لقد حدثت
أيها الأمير عن بعض الصالحين أنه كان يقول : « كفى بالمرء خيانة أن يكون
للخونة أميناً ، وعلى أعمالهم معينا » . (الحسن البصري لابن الجوزي ص ٥١)

٤٦٠ - مقال الحسن حين رأى دار الحجاج التي بناها بواسط

وروى أن الحجاج بنى داراً بواسط^(٢) ، وأحضر الحسن ليراها ، فلما
دخلها قال :

« الحمد لله : إن الملوك يَرَوْنَ لأنفسهم عزاً ، وأنا أَرَى فيهم كل يوم عِزّاً ،
يَعْمِدُ أحدهم إلى قصر فيشيده ، وإلى فرش فينجدّه^(٣) ، وإلى ملابس ومراكب
فيحسنها ، ثم يحفُّ به ذبابُ طمع ، وفراشُ نار ، وأصحاب سوء ، فيقول : أنظروا
ما صنعتُ ! فقد رأينا أيها المغرور ، فكان ماذا يا أفسق الفاسقين ؟ أما أهل
السموات فقد مقتوك ، وأما أهل الأرض فتد لعنوك ، بنيت دار الفناء ، وخربت
دار البقاء ، وغررت في دار الغرور ، لتذِلَّ في دار الجور ، ثم خرج وهو يقول :
إن الله سبحانه أخذ عهده على العلماء ، ليبيِّنَه للناس ولا يكتُمونه » .

وبلغ الحجاج ما قال ، فاشتدَّ غضبه ، وجمع أهل الشام ، فقال : يا أهل
الشام أيشتمنى عبد من عبيد أهل البصرة وأتم حضور فلا تُتَكروُن ! ثم أمر
بإحضاره فجاء وهو يحرك شفقيه بما لم يُسمع ، حتى دخل على الحجاج ، فقال :
يا أبا سعيد ، أما كان لإمارتي عليك حقّ حين قلت ما قلت ؟ فقال : يرحمك الله

[١] الحور : النقصان ، والكور : الزيادة ، وهو حديث شريف : « نموذ بالله من الحور بعد الكور »
أي من النقصان بعد الزيادة ، وقيل : من فساد أمورنا بعد صلاحها ، وأصله من كور الدامة وهو
لها وجهها . [٢] واسط : مدينة بالبراق من الجنوب بين دجلة والفرات ، بناها الحجاج ومات بها .
[٣] التجيد : الزين ، والتجاد : التي يبالغ الفرش والوسائد ويخيطهما .

أيها الأمير، إن من خَوْفِكَ حتى تبلغ أَمْنَكَ أرفقُ بك وأحبُّ فيك ممن أَمْنَكَ حتى تبلغ الخوف ، وما أردتُ الذي سبق إلى وهمك ، والأمران بيدك : العفو والمقوبة ، فافعل الأولى بك ، وعلى الله فتوكل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، فاستحيا الحاج منه ، واعتذر إليه وأكرمه وحباه .

وفي رواية أخرى : « فلما دخل ، قال له الحاج : هاهنا ، فأجلسه قريباً منه ، وقال : ما تقول في عليّ وعثمان ؟ قال : أقول قول من هو خيرٌ مني عند من هو شرُّ منك ، قال فرعون لموسى : « مَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ؟ قال : عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى » عِلْمُ عليّ وعثمان عند الله . قال : أنت سيد العلماء يا أبا سعيد ، ودعا بنفالية ^(١) وغلّف بها لحيته ، فلما خرج تبعه الحاجب فقال له : ما الذي كنت قلتَ حين دخلت عليه ؟ قال : قلتُ : « يا عُدَّتِي عند كُرْبَتِي ، يا صاحبي عند شِدَّتِي ، يا وليَّ نعمتي ، يا إلهي وإله آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب ، أرزقني مودته ، وأصرف عني أذاه » ، ففعل ربي عز وجل .

(الحسن البصري لابن الجوزي ص ٥٣ ، والنية والأمل لابن يحيى المرتضى ص ١٤ ،

وأمالى السيد المرتضى ١ : ١١٢)

٤٦١ - صفة الإمام العادل ^(٢)

لما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب إلى الحسن أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل ، فكتب إليه الحسن رحمه الله :

« اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قِوَامَ كل مائل ، وقَصْدَ ^(٣) كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، وَتَصَفَةَ ^(٤) كل مظلوم ،

[١] طيب . [٢] أوردت هذا الكتاب هنا ، والعناوين التالية له لانتظامها في سلك الرسايا .

[٣] هداية ورشاد . [٤] اسم من الإنصاف .

ومَفَرَّع كل ملهوف ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالراعى الشفيق على إبله ،
 الرفيق الذى يرتاد لها أطيب الرعى ، ويذودها عن مراعى الهلكة ، ويحميها
 من السباع ، ويكنفها من أذى الحر والقر ^(١) ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين
 كالأب الحانى على ولده ، يسمي لهم صغاراً ، ويملهم كباراً ، يكتسب لهم فى
 حياته ، ويذخر لهم بعد مماته ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة ،
 البرّة الرقيقة بولدها ، حملته كرهاً ، ووضعت كرهاً ، وربته طفلاً ، تسهر بسهره ،
 وتسكن بسكونه ، ترضعه تارةً ، وتقطمه أخرى ، وتفرح بعافيته ، وتنتقم
 بشكايته ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين وصي اليتامى ، وخازن المساكين ، يربى
 صغيرهم ، ويعون كبيرهم ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوانح ،
 تصلح الجوانح بصلاحه ، وتفسد بفساده ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين هو
 القائم بين الله وبين عباده ، يسمع كلام الله ويستمعهم ، وينظر إلى الله ويرى بهم ،
 وينقاد إلى الله ويقودهم ، فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله كمبد ائتمنه
 سيده ، واستحفظه ماله وعياله ، فبدد المال ، وشرّد العيال ، فأفقر أهله ، وفرّق
 ماله ، واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الجبائث والفواحش ،
 فكيف إذا أتاه من يليها ؟ وأن الله أنزل القصاص حياة لعباده ، فكيف إذا
 قتلهم من يقتص لهم ؟ واذكربا أمير المؤمنين الموت وما بعده ، وقلة أشياعك
 عنده ، وأنصارك عليه ، فتزود له ، ولما بعده من الفرع الأكبر ، واعلم يا أمير
 المؤمنين أن لك منزلاً غير منزلك الذى أنت فيه ، يطول فيه ثوابك ، ويفارقك
 أحبابك ، يسلمونك فى قمره فريداً وحيداً ، فتزود له ما يصحبك يوم يقر الرء

مِنْ أَخِيهِ ، وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ، وَاذْكُرْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا بُعِثَ مَا فِي الْقُبُورِ ، وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ، فَلَأَسْرَارُ ظَاهِرَةٌ ، وَالْكِتَابُ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ، فَالآنَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْتَ فِي مَهَلٍ ، قَبْلَ حُلُولِ الْأَجَلِ ، وَاقْطَاعِ الْأَمَلِ ، لَا تَحْكَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فِي عِبَادِ اللَّهِ بِحُكْمِ الْجَاهِلِينَ ، وَلَا تَسْلُكْ بِهِمْ سَبِيلَ الظَّالِمِينَ ، وَلَا تَسْلُطْ الْمُسْتَكْبِرِينَ عَلَى الْمُسْتَضْعَفِينَ ، فَإِنَّهُمْ لَا يَرْقُبُونَ فِي مَوْمِنٍ إِلَّا^(١) وَلَا ذِمَّةً ، قَتَبُوا بِأَوْزَارِكَ ، وَأَوْزَارٍ مَعَ أَوْزَارِكَ ، وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكَ ، وَأَثْقَالَ مَعَ أَثْقَالِكَ ، وَلَا يَفْرَتُكَ الَّذِينَ يَتَنَمَّوْنَ بِمَا فِيهِ يُوَسِّسُكَ ، وَيَأْكُلُونَ الطَّيِّبَاتِ فِي دِيْنَامٍ بِإِذْهَابِ طَيِّبَاتِكَ فِي آخِرَتِكَ ، لَا تَنْظُرْ إِلَى قُدْرَتِكَ الْيَوْمَ ، وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى قُدْرَتِكَ غَدًا ، وَأَنْتَ مَأْسُورٌ فِي حَبَائِلِ الْمَوْتِ ، وَمَوْقُوفٌ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ فِي تَجْمَعٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ ، وَقَدْ عَنَتِ^(٢) الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ، إِنْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِنْ لَمْ أَبْلُغْ بِعِظَتِي مَا بَلَّغَهُ أَوَّلُو النَّهْيِ مِنْ قَبْلِي ، فَلَمْ آلِكْ^(٣) شَفَقَةً وَنُصْحًا ، فَأَنْزِلْ كِتَابِي إِلَيْكَ كَمَا دَاوَى حَبِيبِهِ ، يَسْقِيهِ الْأَدْوِيَةَ الْكَرِيمَةَ ، لِمَا يَرْجُوهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْعَافِيَةِ وَالصَّحَّةِ ، وَالسَّلَامِ عَلَيْكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

(الفتح للقرطبي ١ : ١٢ ، المحسن البصري لابن الجوزي ص ٥٦)

٤٦٢ — موعظته لعمر بن عبد العزيز

وكتب إليه عمر بن عبد العزيز رحمه الله : اكتب إلي يا أبا سعيد بموعظة فأوجز ، فكتب إليه :

« أما بعد يا أمير المؤمنين : فكان الذي كان لم يكن ، وكان الذي هو

كَأَنَّ قَدْ نَزَلَ ، وَاعْلَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ الصَّبْرَ ، وَإِنْ أَذَاكَ تَجِيلُ مَرَارَتَهُ ، فَلْنَعْمَ
مَا أَعْقَبَكَ مِنْ طَيِّبِ حَلَاوَتِهِ ، وَحُسْنِ عَاقِبَتِهِ ، وَأَنَّ الْهَوَى ، وَإِنْ أَذَاكَ طَعْمُ
حَلَاوَتِهِ ، فَلْيُبْسِ مَا أَعْقَبَكَ مِنْ مَرَارَتِهِ ، وَسُوءِ عَاقِبَتِهِ ، وَاعْلَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ
الْفَائِزَ مِنْ حَرِصٍ عَلَى السَّلَامَةِ فِي دَارِ الْإِقَامَةِ ، وَفَازَ بِالرَّحْمَةِ فَأَدْخَلَ الْجَنَّةَ .

(الحسن البصري لابن الجوزي ص ٥٤)

٤٦٣ موعظته لعمر بن عبد العزيز أيضا

وَكُتِبَ إِلَيْهِ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ : اكْتُبْ إِلَيَّ يَا أَبَا سَعِيدٍ بِدَمِّ الدُّنْيَا ،
فَكُتِبَ إِلَيْهِ :

« أَمَا بَعْدَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : فَإِنَّ الدُّنْيَا دَارُ ظُلْمٍ ^(١) وَاتَّقَالَ ، وَلَيْسَتْ بِدَارِ
إِقَامَةٍ عَلَى حَالٍ ، وَإِنَّمَا أُنْزِلُ إِلَيْهَا آدَمُ عَقُوبَةً ، فَاحْذَرَهَا فَإِنَّ الرَّاغِبَ فِيهَا تَارَكَ ،
وَالغَنَى فِيهَا فَقِيرٌ ، وَالسَّعِيدُ مِنْ أَهْلِهَا مَنْ لَمْ يَتَرَضَّ لَهَا ، إِنَّهَا إِذَا اخْتَبَرَهَا اللَّيِّيبُ
الْحَازِقُ ، وَجَدَهَا تُذِلُّ مَنْ أَعَزَّهَا ، وَتَفَرِّقُ مَنْ جَمَعَهَا ، فَهِيَ كَالسَّمِّ يَأْكُلُهُ مَنْ
لَا يَمْرُقُهُ ، وَيَرْغَبُ فِيهِ مَنْ يَجْهَلُهُ ، وَفِيهِ وَاللَّهِ حَتْفُهُ ، فَكُنْ فِيهَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
كَالْمَدَاوِي جِرَاحُهُ ، يَحْتَمِي قَلِيلًا ، مَخَافَةَ مَا يَكْرَهُ طَوِيلًا ، الصَّبْرُ عَلَى لَأْوَأْهَا ^(٢) ،
أَيْسَرُ مِنْ اِحْتِمَالِ بَلَاءِهَا ، وَاللَّيِّيبُ مَنْ حَذَرَهَا ، وَلَمْ يَفْتَرِ بِزِينَتِهَا ، فَإِنَّهَا غَدَاةُ
خِتَالَةٍ ^(٣) خِدَاعَةٍ ، قَدْ تَمَرَّضْتُ بِأَمَالِهَا ، وَتَرَيْتُ لِحُطَّاطِهَا ، فَهِيَ كَالْعَرُوسِ ،
الْعِيُونُ إِلَيْهَا نَازِرَةٌ ، وَالْقُلُوبُ عَلَيْهَا وَالْهَيْهَاتَ ^(٤) ، وَهِيَ ، وَالَّذِي بَسَتْ مُحَمَّدًا بِالْحَقِّ ،
لِأَزْوَاجِهَا قَاتِلَةٌ ، فَاتَّقِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ صَرَغَتَهَا ، وَاحْذَرِ عَثْرَتَهَا ، فَالْرَّخَاءُ فِيهَا
مُوصُولٌ بِالشَّدَةِ وَالْبَلَاءِ ، وَالْبَقَاءُ مُوَدِّ إِلَى الْهَلَكَةِ وَالْفَنَاءِ .

[١] ارتحال . [٢] شدتها . [٣] خداعة . [٤] من الوله بالتعريك وهو ذهاب العقل
من شدة الوجد .

وَاعْلَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّ أَمَانِيَّهَا كَاذِبَةٌ ، وَأَمَالُهَا بَاطِلَةٌ ، وَصَفْوُهَا كَدْرٌ ،
وَعَيْشُهَا نَكْدٌ ، وَتَارِكُهَا مُوَفَّقٌ ، وَالتَّمَسُّكُ بِهَا هَالِكٌ غَرَقٌ ، وَالْقَطْنُ اللَّيْبُ
مِنْ خَافٍ مَا خَوْفُهُ اللَّهُ ، وَحَذَرٌ مَا حَذَرُهُ ، وَقَدَرٌ مِنْ دَارِ الْغَنَاءِ إِلَى دَارِ الْبَقَاءِ ،
فَعِنْدَ الْمَوْتِ يَأْتِيهِ الْيَقِينُ ، الدُّنْيَا وَاللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ دَارُ عَقُوبَةٍ ، لَهَا يَجْمَعُ مِنْ
لَا عَقْلَ لَهُ ، وَبِهَا يَنْتَرُّ مَنْ لَا عِلْمَ عِنْدَهُ ، وَالْحَازِمُ اللَّيْبُ مَنْ كَانَ فِيهَا كَالْمَدَاوِي
جِرَاحِهِ ، يَصْبِرُ عَلَى مَرَارَةِ الدَّوَاءِ ، لِمَا يَرْجُو مِنَ الْعَافِيَةِ ، وَيَخَافُ مِنْ سُوءِ عَاقِبَةِ
الدَّارِ ، وَالْدُّنْيَا وَآيُمُ اللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ حُلْمٌ ، وَالْآخِرَةُ يَقْظَةٌ ، وَالتَّوَسُّطُ بَيْنَهُمَا
الْمَوْتُ ، وَالْعِبَادَةُ فِي أَضْعَافِ أَحْلَامٍ ، وَإِنِّي قَاتِلٌ لَكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا قَالَهُ الْحَكِيمُ :
فَإِنْ تَبِعْ مِنْهَا تَبِعْ مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ وَإِلَّا فَإِنِّي لَا إِخَالَكَ نَاجِيَا

وَلَمَّا وَصَلَ كِتَابُهُ إِلَى عَمْرِ ، بَكَى وَاتَّحَبَ حَتَّى رَحِمَهُ مَنْ كَانَ عِنْدَهُ ، وَقَالَ : يَرْحَمُ
اللَّهُ الْحَسَنَ ، فَإِنَّهُ لَا يَزَالُ يَوْعِظُنَا مِنَ الرِّقْدَةِ ، وَيُنَبِّهُنَا مِنَ النِّقْلَةِ ، وَلِلَّهِ هُوَ مِنْ
مُسْتَفِيقٍ مَا أَنْصَحُهُ ! وَوَعَظِي مَا أَصْدَقُهُ وَأَفْصَحُهُ !

(الحسن البصري لابن الجوزي ص ٥٤ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ١٢١)

٤٦٤ — كلمات حكيمة للحسن البصري

وَقَالَ : احْذَرِ مَنْ قَلَّ إِلَيْكَ حَدِيثُ غَيْرِكَ ، فَإِنَّهُ سَيَنْقُلُ إِلَى غَيْرِكَ حَدِيثَكَ .
أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّكُمْ لَا تَتَاوَنُونَ مَا تَحِبُّونَ إِلَّا بِتَرِكِ مَا تَشْتَهَوْنَ ، وَلَا تُدْرِكُونَ
مَا تَأْمَلُونَ إِلَّا بِالصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُونَ . الصَّبْرُ صَبْرَانِ : صَبْرٌ عِنْدَ الْمَصِيبَةِ ، وَصَبْرٌ
عَنِ الْمَعْصِيَةِ ، فَمَنْ قَدَّرَ عَلَى ذَلِكَ فَقَدْ نَالَ أَفْضَلَ الصَّبَرَيْنِ . أَفْضَلُ الْجِهَادِ جِهَادُ
الْهَوَى . لَا تَكُنْ مِمَّنْ يَجْمَعُ عِلْمَ الْعُلَمَاءِ وَحِكْمَ الْحُكَمَاءِ ، وَيَجْرِي فِي الْحَقِّ مَجْرَى
السُّفَهَاءِ . مَنْ خَافَ اللَّهَ أَخَافَ اللَّهُ سَبْعَانَهُ مِنْهُ كُلُّ شَيْءٍ ، وَمَنْ خَافَ النَّاسَ

أخافه الله من كل شيء . لولا ثلاثة ما طأطأ ابن آدم رأسه : الموت ، والمرض ، والفقر ، وإنه بعد ذلك لوثَّاب . احذروا العابد الجاهل ، والعالم الفاسق ، فإن فيهما فتنة لكل مفتون . ترك الخطيئة أهون من معالجة التوبة . لا تكن شاء الراعى أعتل منك ، تجرها الصبيحة ، وتطردها الإشارة . المؤمن تلقاه الزمان بعد الزمان ، بأمر واحد ، ووجه واحد ، ونصيحة واحدة ، وإنما يتبدل المنافق ليستأكل كل قوم . المؤمن صدق قوله فعله ، وسره علانيته ، ومشهد مغيبه . لا يزال العبد بخير ما كان له واعظ من نفسه ، وكانت الفكرة من عمله ، والله كرم من شأنه ، والمحاسبة من همته ، ولا يزال بشر ما استعمل التسوية ، وأتبع الهوى ، وأكثر الغفلة ، ورجح في الأمانى . الحق مرن لا يصبر عليه إلا من عرف حسن العاقبة ، ومن رجا الثواب خاف العقاب . حادوا هذه القلوب ، فإنها سريمة الذئور ^(١) ، واقدعوا ^(٢) هذه النفوس ، فإنها طلعة ^(٣) ، وإنكم لا ترعوها ^(٤) تنزع بكم إلى شر غاية . يابن آدم : نهارك ضيفك ، فأحسن إليه ، فإنك إن أحسنت إليه ارتحل بمحمدك ، وإن أسأت إليه ارتحل يذمك ، وكذلك ليك . إنما أنت أيها الإنسان عدد ، فإذا مضى لك يوم فقد مضى بعضك . وقيل له يا أبا سعيد : من أشد الناس صراحاً يوم القيامة ؟ فقال : رجل رزق نعمة فاستعان بها على معصية الله . وكان يقول : لو قت الليل حتى ينحنى ظهرك ، وصمت النهار حتى يسقم جسمك ، لم ينفعك ذلك إلا بوزع صادق . وسمع

[١] ذئور القلوب : اتعاه الذكر منها . [٢] كفوها واكبحوها .

[٣] نفس طالمة : تكثر التطلع إلى الشيء ، وفي رواية : « فإنها طالمة » .

[٤] وزعه كوضع : كفه ، وفي رواية : « تمنعوا » .

رجلا يُكثر الكلام ، فقال : يا ابن أخى أَمْسِكْ عليك لسانك ، فقد قيل : ما شئ .
أحقّ بِسَجْنٍ من لسان . وكأن يقول : لو لم يكن من شؤم الشراب إلا أنه جاء
إلى أحب خلق الله إلى الله فأفسده ، لكان ينبغي للعامل أن يتركه (يعنى العقل)
ويقول : ما أطلال أحد الأمل إلا أساء العمل ، وما أساء العمل إلا ذلّ .

وقال : « يا عَجَبًا لِقَوْمٍ قَدْ أَمَرُوا بِالزَّادِ ، وَأَوْذِنُوا بِالرَّحِيلِ ، وَأَقَامُوا لَهُمْ عَلَى آخِرِهِمْ ،
فَلَيْتَ شَعْرَى ! مَا الَّذِي يَنْتَظِرُونَ ؟ » وقال : اجعل الدنيا كالقنطرة : تجوز عليها ، ولا
تعمرها ، وقال : ليس العَجَبُ ممن عَطِبَ كيف عَطِبَ ، إنما العَجَبُ بمن نجا
كيف نجا » ، وقال : « من أخلاق المؤمنين قوة في دين ، وحِرص على العلم ،
وقناعة في فقر ، ورحمة للمجهود ، وإعطاء في حق ، وبرّ في استقامة ، وفقه في
يقين ، وكسب في حلال » .

(الحسن البصرى لابن الجوزى في مواضع متفرقة ، والبيان والبيان ٣ : ٧٦ - ٨٣ ، أمالي السيد الرقى
١١٠ : ١ - ١١١ ، وتهذيب الكامل ١ : ٢٩ ، وزهر الآداب ١ : ١٧٨ ، ٢ : ٢٠٥)

٤٦٥ — خطبة واصل بن عطاء ^(١) المنزوعة الرأى

الحمد لله القديم بلا غاية ، والباقي بلا نهاية ، الذى علا في دُنُوّه ، ودنا في
عُلُوّه ، فلا يحويه زمان ، ولا يحيط به مكان ، ولا يشوذه ^(٢) حفظُ ما خلق ، ولم
يخلقه على مثالٍ سبق ، بل أنشأه ابتداء ، وعدّله اصطناعا ، فأحسن كل شئ

[١] هو أبو حنيفة واصل بن عطاء شيخ المتزّين ، وأحد الأئمة الثقلين ، وكان يلحق بالراء ، فيجعلها
غينا ، فاستطاع بمهارته أن يخلص منها كلامه ، خطب يوما عند عبد الله بن عمر بن عبد العزيز وإلى المراق
سنة ١٢٦ شبيب بن شبة ، وخالد بن صفوان ، والفضل بن عيسى ، ثم قدام واصل ، فارتجل هذه الخطبة
وعراها من حرف الرأى ، وأجبع في القول :

فضل عبد الله خطبة واصل وضوعف في قسم الصلوات له التثكيد

(والشك بالضم:المطاء) وتوفى واصل سنة ١٣١ هـ . [٢] يشوذه ، آذنه أوذا (كنمر) بلغ منه المجهود .

خَلَقَهُ ، وَتَمَّ مَشِيئَتَهُ ، وَأَوْضَحَ حِكْمَتَهُ ، فَدَلَّ عَلَى الْوَهَيْتِ ، فَسَبَّحَانَهُ لَأَمِّمَقْبَبِ^(١) الْحُكْمِ ، وَلَا دَافِعَ لِقَضَائِهِ ، تَوَاضَعَ كُلُّ شَيْءٍ لِعِظَمَتِهِ ، وَذَلَّ كُلُّ شَيْءٍ لِسُلْطَانِهِ ، وَوَسَّعَ كُلُّ شَيْءٍ فَضْلَهُ ، لَا يَمْتَرِبُ عَنْهُ مِثْقَالُ حَبَّةٍ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ ، إِلَهًا تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ ، وَعَظُمَتْ آلَاؤُهُ ، وَعَلَا عَنْ صِفَاتِ كُلِّ مَخْلُوقٍ ، وَتَنَزَّاهُ عَنْ شَبِيهِ كُلِّ مَصْنُوعٍ ، فَلَا تَبْلُغُهُ الْأَوْهَامُ ، وَلَا تُحِيطُ بِهِ الْعُقُولُ وَلَا الْأَفْهَامُ ، يُعْصَى فِيحْلُمُ ، وَيُذْعَى فَيَسْمَعُ ، وَيَقْبَلُ التَّوْبَةَ مِنْ عِبَادِهِ ، وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ ، وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ، وَأَشْهَدُ شَهَادَةَ حَقٍّ ، وَقَوْلَ صَدَقَ ، بِإِخْلَاصِ نِيَّةٍ ، وَرِحَّةِ طَوِيَّةٍ ، أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ عَبْدَهُ وَنَبِيَّهُ ، وَخَالَصْتَهُ^(٢) وَصِفِيَّةً ، ابْتَعَثَهُ إِلَى خَلْقِهِ بِالْبَيِّنَةِ وَالْهُدَى وَدِينَ الْحَقِّ ، فَلَبَّغَ مَا أُلْكَنَهُ^(٣) ، وَنَصَحَ لَأَمَّتِهِ ، وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، لَا تَأْخُذُهُ فِي الْحَقِّ لَوْمَةٌ لَأُثْمٍ ، وَلَا يَصُدُّهُ عَنْهُ زَعَمٌ ، مَاضِيًا عَلَى سُنَّتِهِ ، مُؤَفِّيًا عَلَى قَصْدِهِ ، حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينُ ، فَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ أَفْضَلَ وَأَزْكَى ، وَأَتَمَّ وَأَنَمَى ، وَأَجَلَ وَأَعْلَى صَلَاةً صَلَاهَا عَلَى صَفْوَةِ أَنْبِيَائِهِ ، وَخَالَصَةً مَلَائِكَتِهِ ، وَأَضْمَأَفَ ذَلِكَ ، إِنَّهُ حَمِيدٌ مُجِيدٌ .

أَوْصِيَكُمْ عِبَادَ اللَّهِ مَعَ نَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ ، وَالْعَمَلِ بِطَاعَتِهِ ، وَالْمُجَانَبَةِ لِمَعْصِيَتِهِ ، وَأَحْضُكُمُ عَلَى مَا يُدْنِيكُمْ مِنْهُ ، وَيُزِيلُكُمْ لَدَيْهِ ، فَإِنْ تَقَوَّى اللَّهُ أَفْضَلُ زَادٍ ، وَأَحْسَنُ حَاقِبَةٍ فِي مَعَادٍ ، وَلَا تَلْمِزِيكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا بَرِيئَتَهَا وَخُدْعَهَا ، وَفَوَائِدُ لَذَائِهَا ، وَشَهَوَاتُ آمَالِهَا ، فَإِنَّهَا مَتَاعٌ قَلِيلٌ ، وَمُدَّةٌ إِلَى حِينٍ ، وَكُلُّ شَيْءٍ مِنْهَا يَزُولُ ، فَكُمُ عَايِنْتُمْ مِنْ أَطَاجِيئِهَا ، وَكُمُ نَصَبْتُمْ لَكُمْ مِنْ حَبَائِلِهَا ، وَأَهْلَكْتُمْ مَنْ جَنَحَ إِلَيْهَا ، وَاعْتَمَدَ

[١] لَارَادَ لَهُ . [٢] حَنَا الدُّنْيَا خَالَصَةً لَكَ : أَيْ خَالَصَةً .

[٣] الْمَالِكَةُ : بِمَعْنَى اللَّامِ وَهَنْج : الرِّسَالَةُ .

عليها ! أذاقتهم حُلُوءاً ، ومزجت لهم سماً ، أين الملوك الذين بَنَوْا المدائن ، وشيدوا المصانع ، وأوثقوا الأبواب ، وكاثفوا الحُجَاب ، وأعدُّوا الجياد ، ومَلَكُوا البلاد ، واستخدموا التُّلاد ، قَبَضَتْهُمْ بِمَخْمِلِهَا ^(١) ، وطحنتهم بِكَلْكِلِهَا ^(٢) ، وعَضَّتْهُمْ بِأَنْيَابِهَا ، وعَاضَتْهُمْ مِنَ السَّعَةِ ضَيْقاً ، وَمِنَ الْعِزَّةِ ذُلّاً ، وَمِنَ الْحَيَاةِ فَنَاءً ، فسكنوا اللحد ، وأكلهم الدُّود ، وأصبحوا لَا تَرَى إِلَّا مَسَا كِنْتَهُمْ ، وَلَا تَجِدُ إِلَّا مَعَالِمَهُمْ ، وَلَا تُحِصِّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ ، وَلَا تَسْمَعُ لَهُمْ نَبْشاً ، فترودوا عاقاكُم اللهُ ، فَإِنْ أَفْضَلَ الزَّادِ التَّقْوَى ، وَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ، جعلنا الله وإياكم بمن ينتفع بمواعظه ، ويعمل لحظته وسعادته ، وَمَنْ يَسْتَمِعِ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعْ أَحْسَنَهُ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ، وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ . إِنْ أَحْسَنَ قَصَصَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَبْلَغَ مَوَاعِظَ الْمُتَّقِينَ ، كَتَابَ اللَّهِ ، الزَّكِيَّةُ آيَاتُهُ ، الْوَاضِحَةُ بَيِّنَاتُهُ ، فَإِذَا تُلِيَ عَلَيْكُمْ فَأَنْصِتُوا لَهُ ، وَاسْمَعُوا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ، أَعُوذُ بِاللَّهِ الْقَوِيِّ ، مِنَ الشَّيْطَانِ النَّفَرِيِّ ، إِنْ اللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ، قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، اللَّهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ ، وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ، ثُمَّ قَالَ :

نفعنا الله وإياكم بالكتاب الحكيم ، والوحي المبين ، وَأَعَاذَنَا وَإِيَّاكُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ، وَأَدْخَلْنَا وَإِيَّاكُمْ جَنَّاتِ النِّعَمِ . (مفتاح الأفكار ص ٢٧٠)

٤٦٦ — وصية عبد الملك بن مروان لبني أمية

وَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ : « يَا بَنِي أُمَيَّةَ : ابدُلُوا نَدَاكُمْ ، وَكُفُّوا أَذَاكُمْ ، وَاعْفُوا إِذَا قَدَّرْتُمْ ، وَلَا تَبْخُلُوا إِذَا سَأَلْتُمْ ، فَإِنْ خَيْرَ الْمَالِ مَا أَفَادَ حَمْدًا ، أَوْ نَقَى

[١] اغسل : شقان على البعير يحمل فيها العدليان ، والمراد احتوت عليهم .

[٢] الكلكل : الصعر .

ذما ، ولا يقولنَّ أحدٌكم : ابدأ بمن تقول ، فإنما الناس عيالُ الله ، قد تكفل الله بأرزاقهم ، فمن وسع أخلف الله عليه ، ومن ضيق ضيق الله عليه .

(الأمالي ٢ : ٢٢)

٤٦٧ — وصية عبد الله بن شداد لابنه ^(١)

لما حضرت عبد الله بن شداد الوفاة ، دعا ابناً له يقال له محمد ، فقال :

« يَا مُبْنِي ، إني أرى داعي الموت لا يُقْلَع ، وأرى من مَضَى لا يَرْجِع ، ومن بَقِيَ فَإِلَيْهِ يَنْزِع ^(٢) ، وَإني مُوصِيكَ بوصية فاحفظها ، عليك بتقوى الله العظيم ، وَلِيَكُنْ أَوْلَى الْأُمُور بِكَ شُكْرُ اللَّهِ ، وَحُسْنُ النِّيَّةِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ ، فَإِنِ الشُّكُورُ زِدَادٌ ، وَالتَّقْوَى خَيْرُ زَادٍ ، وَكَنْ كَمَا قَالَ الْحُطَيْيَّةُ :

وَلَسْتُ أَرَى السَّعَادَةَ جَمَعَ مَالٍ وَلَكِنْ التَّقَى هُوَ السَّمِيدُ
وَتَقْوَى اللَّهِ خَيْرُ الزَّادِ ذُخْرًا وَعِنْدَ اللَّهِ لِلْآتِقِ مَزِيدُ
وَمَا لَا بُدَّ أَنْ يَأْتِيَ قَرِيبُ وَلَكِنْ الَّذِي يَمْضِي بَعِيدُ

ثم قال : أَيُّ مُبْنِي ، لَا تَرْهَدَنَّ فِي مَعْرُوفٍ ، فَإِنَّ الدَّهْرَ ذُو صُرُوفٍ ، وَالْأَيَّامُ ذَاتُ نَوَائِبٍ ، عَلَى الشَّاهِدِ وَالْغَائِبِ ، فَكَمْ مِنْ رَاغِبٍ أَصْبَحَ مَطْلُوبًا مَا لَدَيْهِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الزَّمَانَ ذُو أَلْوَانٍ ، وَمَنْ يَصْحَبِ الزَّمَانَ يَرِ الْمَوَانَ ، وَكَنْ أَيُّ مُبْنِي كَمَا قَالَ أَبُو الْأَسْوَدِ الدَّؤَلِيُّ :

وَعُدُّ مِنَ الرَّحْمَنِ فَضْلًا وَنِعْمَةً عَلَيْكَ ، إِذَا مَا جَاءَ لِلْعُرْفِ طَالِبُ ^(٣)
وَإِنْ أَمْرًا لَا يُرْتَجَى الْخَيْرُ عِنْدَهُ يَكُنْ هَيِّنًا تَقْلًا عَلَى مَنْ يَصَاحِبُ

[١] هو عبد الله بن شداد بن المهدي ، واسمه أسامة اللبي ، خرج مع القراء في فتنة ابن الأشعث على الحجاج ، قيل : إنه غرق بسجل ، وقيل : هلك هو وعبد الرحمن بن أبي ليلى في المباحم ، اتفق بهما فرساها للقاء فذهبا . [٢] يتناق . [٣] العرف : المعروف .

فَإِنَّكَ لَا تَذَرِي مَتَى أَنْتِ رَاغِبٌ
رَأَيْتُ النِّوَا هَذَا الزَّمَانَ بِأَهْلِهِ وَبَيْنَهُمْ فِيهِ تَكُونُ النَّوَائِبُ^(١)
ثُمَّ قَالَ : أَيْ بَنِي ، كُنْ جَوَادًا بِالمَالِ فِي مَوْضِعِ الْحَقِّ ، بِخَيْلٍ بِالأَسْرَارِ عَنْ جَمِيعِ
الْخَلْقِ ، فَإِنْ أَحْمَدَ جُودَ الْمَرْءِ الْإِنْفَاقُ فِي وَجْهِ الْبَرِّ ، وَإِنْ أَحْمَدَ بُخْلَ الْحَرْفِ الضَّنُّ^(٢)
بِمَكْتُومِ السَّرِّ ، وَكُنْ كَمَا قَالَ قَيْسُ بْنُ الْخَطِيمِ الْأَنْصَارِيُّ :

أَجُودُ بِمَكْنُونِ التَّلَادِ ، وَإِنِّي بِسِرِّكَ عَنْ سَائِي أَضْيَنُ^(٣)
إِذَا جَاوَزَ الْإِثْنَيْنِ سِرٌّ فَإِنَّهُ بِنَفْسٍ ، وَتَكْثِيرِ الْحَدِيثِ قَيْنُ^(٤)
وَعِنْدِي لَهُ يَوْمًا إِذَا مَا ائْتَمَنْتَنِي مَكَانُ بِسَوْدَاءِ الْفُؤَادِ مَكِينُ^(٥)

ثُمَّ قَالَ : أَيْ بَنِي ، وَإِنْ غُلِبَتْ يَوْمًا عَلَى الْمَالِ ، فَلَا تَدْعِ الْحِيلَةَ عَلَى حَالٍ ، فَإِنْ
الْكَرِيمُ يَحْتَالُ ، وَالذَّنِي عِيَالُ^(٦) ، وَكُنْ أَحْسَنَ مَا تَكُونُ فِي الظَّاهِرِ حَالًا ، أَقَلُّ^(٧)
مَا تَكُونُ فِي الْبَاطِنِ مَالًا ، فَإِنَّ الْكَرِيمَ مِنْ كَرُمَتْ طَبِيعَتُهُ ، وَظَهَرَتْ عِنْدَ
الْإِنْفَادِ^(٨) نِعْمَتُهُ ، وَكُنْ كَمَا قَالَ ابْنُ خَذَّاقِ الْعَبْدِيِّ^(٩) :

وَجَدْتُ أَبِي قَدْ أَوْرَثَهُ أَبُوهُ خِلَالَآ قَدْ تُعَدُّ مِنَ الْمَعَالِي^(١٠)
فَأَكْرَمُ مَا تَكُونُ عَلَى نَفْسِي إِذَا مَا قَلَّ فِي الْأَرْمَاتِ مَالِي
فَتَحْسُنُ سِيرَتِي وَأَصُونُ عِرْضِي وَيَحْمِلُ عِنْدَ أَهْلِ الرَّأْيِ حَالِي

[١] النوا أصله النواء قصره لضرورة الشعر ، النوى به الزمان : اعوج .

[٢] الضن بالكسر والضمناة بالفتح : البخل .

[٣] سال يسأل من باب خلف لثة في سأل للهموز ، وليس مسهلًا للوزن كما ظن بعضهم .

[٤] نث الحديث : انتهاء ، وقين : جدير ، وقطع همزة الاثنين للضرورة .

[٥] سوداء ، الفؤاد ، وسويداؤه ، وسواده ، وأسوده : حبه . [٦] البيل جمع بيل بكيد :

وهو من يلزم الاعتاق عليه ، ويكون اسمًا لواحد (كما استعمله هنا) . [٧] الفقر .

[٨] هو يزيد بن خذاق شاعر قديم . [٩] ينقل حركة الهمزة من أوروته إلى المال من قد .

وإن نلتُ النغي لم أغلُ فيه ولم أخصُصن بِجَفَوَتِي المَوَالِي^(١)
ثم قال : أى بنى ، وإن سمعت كلمة من حاسد ، فكن كأنك لست بالشاهد ،
فإنك إن أمضيتها حيالها^(٢) ، رجع العيب على من قالها ، وكأن يقال : الأريب
العاقل ، هو النّظن المتناقل ، وكن كما قال حاتم الطائي :

وما من شيمتى شتم ابن عمى وما أنا مخلف من يرتجى
وكلمة حاسد فى غير جرم سمعتُ قُلتُ مرى فأنقذنى^(٣)
فماؤها على ولم تسوئنى ولم يترق لها يوما جينى
وذو اللوتين يلقانى طليقا وليس إذا تعيب يأتلىنى^(٤)
سمعتُ بعيتِه فصفحتُ عنه مُحَافَظَةً عَلَى حَسْبِي وَدِينِي

ثم قال : أى بنى ، لا تؤاخذ امرأ حتى تعاشره ، وتفقد موارده ومصادره ،
فإذا استطعت العشرة ، ورضيت الخبرة^(٥) ، فواخه على إقالة العثرة ، والمواساة
فى العثرة ، وكن كما قال المقنّع الكندي :

أبلُ الرجال إذا أردت إساءم وتوسمن فعالمهم وتفقد
فإذا ظفرت بذى اللبابة والثقى فبه اليدين (قريرعين) فاشدد^(٦)
وإذا رأيت (ولا محالة) زلة فعلى أخيك بفضل حلمك فازدد

ثم قال : أى بنى ، إذا أحييت فلا تفرط ، وإذا أبغضت فلا تشطط^(٧) ، فإنه
قد كان يقال : أحبّ حبيبك هونا ما ، عسى أن يكون بغيضك يوما ما ،

[١] الموال جمع مولى وهو هنا القريب . [٢] قد حياله وبجاليه : بازائه ، أى إن تركتها
تجوزى فى مجراها . [٣] قدّم : جازم . [٤] أثبت : قصر ، أى لا يصر فى نهش عرضى .
[٥] الخبر والخبرة بكسر الخاء فيها ، وبضمّان : العلم بالنسب . كالاستخبار .
[٦] لبّ من "لبّ نسب" ، وقى لكسة كقرب مع الفتح فى الضارع لبابة : أى صار ذا لب بالضم
وهو العقل . [٧] شط فى حكمه وأشط : جبر .

وَأَبْنِضْ بِبَيْضِكَ هَوْنًا مَّا ، عسى أن يكون حبيبك يوماً مَّا ، وكن كما قال هُذَيْفَةُ
ابن الحَشَرَمِ العُدْرِي :

وكن مَعْقِلًا للحلمِ واصْفَحْ عن الخِذَا فَإِنَّكَ رَاءَ مَا حَبِيتَ وَسَامِعُ ^(١)
وَأَحْبِبْ إِذَا أَحْبَبْتَ حُبًّا مُقَارِبًا فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي مَتَى أَنْتَ نَازِعُ ^(٢)
وَأَبْنِضْ إِذَا أَبْنَضْتَ بُنْفَضًا مُقَارِبًا فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي مَتَى أَنْتَ رَاجِعُ
وعليك بِصُحْبَةِ الْأَخْيَارِ ، وَصِدْقِ الْحَدِيثِ ، وَإِيَّاكَ وَصَحْبَةَ الْأَشْرَارِ ، فَإِنَّهُ عَارٌ ،
وكن كما قال الشاعر :

أَفْحَبِ الْأَخْيَارَ وَارْغَبْ فِيهِمْ رُبَّ مَنْ صَاحِبَتَهُ مِثْلُ الْجَرْبِ
وَدَعْ النَّاسَ فَلَا تَشْتُمُهُمْ وَإِذَا شَأْنُكَ فَاشْتِمِ ذَا حَسَبِ
إِنَّ مَنْ شَاتَمَ وَغَدَا كَالنَّيْ يَشْتَرِي الصُّفْرَ بِأَعْيَانِ الذَّهَبِ ^(٣)
وَاصْذُقِ النَّاسَ إِذَا حَدَّثْتَهُمْ وَدَعْ النَّاسَ فَنِ شَاءَ كَذْبِ

(الأملال ٢ : ٢٠٤ ، والبيان والنبين ٢ : ٥٧ ، ١٣٨)

٤٦٨ — وصية أسماء بن خارجة لابنته ^(١)

زَوْجُ أَسْمَاءَ بْنِ خَارِجَةَ الْقَزَارِيِّ بِنْتُهُ هِنْدًا مِنْ الْحِجَابِ بْنِ يَوْسُفَ ، فَلَمَّا
كَانَتْ لَيْلَةً أَرَادَ الْبَنَاءُ بِهَا ، قَالَ لَهَا أَسْمَاءُ : « يَا بِنْتِي ، إِنْ الْأَمْهَاتِ يُؤَذِّنُ الْبَنَاتِ ،
وَإِنْ أُمُّكَ هَلَكَتْ وَأَنْتَ صَغِيرَةٌ ، فَعَلَيْكَ بِأَطْيَبِ الطَّيِّبِ الْمَاءِ ، وَأَحْسَنِ
الْحُسْنِ الْكُحْلِ ، وَإِيَّاكَ وَكَثْرَةَ الْمَعَاتِبَةِ ، فَإِنَّهَا قَطِيعَةٌ لِلوَدِّ ، وَإِيَّاكَ وَالغَيْرَةَ ،
فَإِنَّهَا مِفْتَاحُ الطَّلَاقِ ، وَكَوْنِي لَزُوجِكَ أُمَةً ، يَكُنْ لَكَ عَبْدًا ، وَاعْلَمِي أَنِّي
الْقَائِلُ لَأُمِّكَ :

[١] للقل : اللجأ ، والحنا : الفحش . [٢] نزع عن الشيء : انتهى عنه .

[٣] السفر كقتل ، وكسر الصاد لثة : التماس . [٤] أورد الجاحظ هذه الرصية بصورة أوجز ،
وذكر أنها وصية عبد الله بن جعفر لابنته .

خَذَى الْعَفْوَ مِنِّي تَسْتَدِي مَوَدَّتِي وَلَا تَنْطِقِي فِي سَوْرَتِي حِينَ أَغْضَبُ^(١)
وَلَا تَنْقُرِي نَقْرَةَ الدَّافِّ مَرَّةً فَإِنَّكَ لَا تَدْرِينَ كَيْفَ الْمَغِيبُ
فَإِنِّي وَجَدْتُ الْحُبَّ فِي الصَّدْرِ وَالْأَذَى إِذَا اجْتَمَعَا لَمْ يَلْبِثِ الْحُبُّ يَذْهَبُ
(الأفان ١٨ : ١٢٨ ، والبيان والتبيين ٢ : ٤٥)

٤٦٩ - رجل ينصح لهشام بن عبد الملك

وخرج الزُّهْرِيُّ يوماً من عند هشام بن عبد الملك ، فقال : ما رأيتُ
كاليوم ، ولا سمعتُ كأربع كلمات ، تكلم بهن رجلٌ عند هشام ، دخل عليه فقال :
« يا أمير المؤمنين ، احفظ عني أربع كلمات ، فيهن صلاحُ مُلْكِكَ ،
وَاسْتِقَامَةُ رِعْيَتِكَ » . قال : وما هنَّ ؟ قال : « لَا تَعِدْ عِدَّةً لَا تَقِي مِنْ نَفْسِكَ
بِإِنْجَازِهَا ، وَلَا يَمُرُّ نَكْرُ الْمُرْتَقَى وَإِنْ كَانَ سَهْلاً ، إِذَا كَانَ الْمُتَعَدُّ وَغَرّاً ، وَاعْلَمْ
أَنَّ لِلْأَعْمَالِ جَزَاءً ، فَاتَّقِ الْعَوَاقِبَ ، وَأَنَّ لِلْأُمُورِ بَقَاتٍ ، فَكُنْ عَلَى حَذَرٍ » .
قال عيسى بن دَاب : فحدثتُ بهذا الحديث المهدى ، وَفِي يَدِهِ لَقْمَةٌ قَدْ
رَفَعَهَا إِلَى فِيهِ ، فَأَمْسَكَهَا ، وَقَالَ : وَيَحْكُ ! أَعِدْ عَلَيَّ ، قَتَلْتُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
أَسِغْ^(٢) لَقْمَتَكَ ، فَقَالَ : حَدِيثُكَ أَعْجَبُ إِلَيَّ . (زهر الآداب ٣ : ١٨٠)

٤٧٠ - وصية عبد الحميد بن يحيى الكاتب للكتاب

كتب عبد الحميد بن يحيى الكاتب^(٣) رسالة إلى الكتاب يوصيهم فيها ، قال :
« أَمَا بَعْدُ حِفْظُكُمْ اللَّهُ يَا أَهْلَ صِنَاعَةِ الْكِتَابَةِ ، وَحَاطُكُمْ وَوَقَّكُمْ وَأَرْشَدَكُمْ ،
فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ النَّاسَ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ ،
وَمِنْ بَعْدِ الْمُلُوكِ الْمَكْرُمِينَ أَصْنَافًا ، وَإِنْ كَانُوا فِي الْحَقِيقَةِ سَوَاءً ، وَصَرَّفَهُمْ فِي

[١] السورة : المدة . [٢] ابتلع . [٣] هو عبد الحميد بن يحيى الطبري ، كاتب دولة مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين ، قتلته السفاح سنة ١٣٢ هـ .

صنوف الصناعات ، وضروب المحاولات ، إلى أسباب معاشهم ، وأبواب أرزاقهم ،
فجعلكم مشعر الكتاب في أشرف الجهات ، أهل الأدب والمروءة والعلم والرواية ،
بكم تنتظم للخلافة محاسنها ، وتستقيم أمورها ، وبصنائحكم يصلح الله للخلق
سلطانهم ، وتمر بلادهم ، لا يستغني الملك عنكم ، ولا يوجد كافٍ إلا منكم ،
فوقكم من الملوك موزع أسماعهم التي بها يسمعون ، وأبصارهم التي بها ينصرون ،
والسنتهم التي بها ينطقون ، وأيديهم التي بها يبطشون ، فامتكم الله بما خصكم
من فضل صناعتكم ، ولا نزع عنكم ما أضفاه ^(١) من النعمة عليكم .

وليس أحد أحوج إلى اجتماع خلال الخير المحودة ، وخصال الفضل المذكورة
الممدودة ، منكم أيها الكتاب ، إذا كنتم على ما يأتي في هذا الكتاب من صفتكم ، فإن
الكاتب يحتاج من نفسه ، ويحتاج منه صاحبه الذي يثق به في مهمات أموره ،
أن يكون حليماً في موضع الحليم ، فحياً في موضع الحكم ، مقدماً في موضع
الإقدام ، محجاً في موضع الإحجام ، مؤثراً للعفاف ، والعدل والإنصاف ،
كثوماً للأسرار ، وفياً عند الشدائد ، عالماً بما يأتي من النوازل ، يضع الأمور
مواضعها ، والطوارق أما كتبها ، قد نظر في كل فن من فنون العلم فأحكمه ،
فإن لم يحكمه ، أخذ منه بمقدار يكتفي به ، يعرف بفرصة عقله ، وحسن أدبه ،
وفضل تجربته ما يرد عليه قبل وزوده ، وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره ، فيمد
لكل أمر عُدته وعتاده ^(٢) ، ويهيئ لكل وجه هيئته وعادته ، فتنافسوا يا مشعر
الكتاب ، في صنوف الآداب ، وتفقهوا في الدين ، وابدؤوا بعلم كتاب الله
عز وجل والفرائض ، ثم العربية ، فإنها ثِقاف ^(٣) ألسنتكم ، ثم أجيدوا الخط ،

فَإِنَّهُ حَلِيَّةٌ كُتِبَتْكُمْ ، وَارْوُوا الْأَشْعَارَ ، وَاعْرِفُوا غَرِيبَهَا وَمَعَانِيَهَا ، وَأَيَّامَ الْعَرَبِ
وَالْعَجَمِ ، وَأَحَادِيثَهَا وَسِيرَهَا ، فَإِنَّ ذَلِكَ مُعَيَّنٌ لَكُمْ عَلَى مَا تَسْمَوْنَ إِلَيْهِ مِنْكُمْ ، وَلَا
تَضَيُّعُوا النَّظَرَ فِي الْحِسَابِ ، فَإِنَّهُ قِيَامُ كِتَابِ الْخَرَجِ ، وَارْغَبُوا بِأَنْفُسِكُمْ عَنْ
الْمَطَامِعِ سَنِيئِهَا ^(١) ، وَذَنِيئِهَا ، وَتَفْسَافِ ^(٢) الْأُمُورِ وَتَحَاوِرِهَا ، فَإِنَّهَا مَذَلَّةٌ لِلرَّقَابِ ،
مَفْسَدَةٌ لِلْكِتَابِ ، وَزُرْهُوَ صِنَاعَتِكُمْ عَنِ الدَّعَاءَاتِ ، وَارْزَبُوا ^(٣) بِأَنْفُسِكُمْ عَنْ
السَّعَايَةِ وَالنِّيمَةِ ، وَمَا فِيهِ أَهْلُ الْجَاهِلَاتِ ، وَإِيَّاكُمْ وَالْكِبَرِ وَالصِّلَفَ وَالْعِظَمَةَ ،
فَإِنَّهَا عِدَاوَةٌ مَجْتَلِبَةٌ مِنْ غَيْرِ إِخْتَةٍ ، وَتَحَاوُوا فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي صِنَاعَتِكُمْ ، وَتَوَاصَوْا
عَلَيْهَا بِالَّذِي هُوَ أَلْيَقُ بِأَهْلِ الْفَضْلِ وَالْعَدْلِ وَالذُّبْلِ مِنْ سَلَفِكُمْ .

وَإِنْ نَبَأَ الزَّمَانُ بِرَجُلٍ مِنْكُمْ فَاعْطِفُوا عَلَيْهِ وَوَاسُوهُ ، حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْهِ حَالَهُ ،
وَيَذُوبَ ^(٤) إِلَيْهِ أَمْرُهُ ، وَإِنْ أَقْعَدَ أَحَدُكُمْ الْكِبَرُ عَنْ مَكْسَبِهِ وَلِقَاءِ إِخْوَانِهِ ،
فَزُورُوهُ وَعَظِّمُوهُ وَشَاوَرُوهُ ، وَاسْتَظْهِرُوا ^(٥) بِفَضْلِ تَجَرِبَتِهِ ، وَقَدِّمَ مَعْرِفَتِهِ ،
وَلْيَكُنِ الرَّجُلُ مِنْكُمْ عَلَى مَنْ اصْطَنَعَهُ وَاسْتَظْهَرَهُ أَيُّومَ حَاجَتِهِ إِلَيْهِ ، أَحْفَظَ مِنْهُ
عَلَى وَلَدِهِ وَأَخِيهِ ، فَإِنْ عَرَضَتْ فِي الشُّغْلِ تَحَمُّدَةٌ ، فَلَا يُضَيِّفُهَا إِلَّا إِلَى صَاحِبِهِ ،
وَإِنْ عَرَضَتْ مَذَمَّةٌ ، فَلْيَحْمِلْهَا هُوَ مِنْ دُونِهِ ، وَلْيَحْذَرْ السَّقَطَةَ وَالزَّلَّةَ ، وَالْمَلَّلَ
عِنْدَ تَغْيِيرِ الْحَالِ ، فَإِنَّ الْعَيْبَ إِلَيْكُمْ مَعَشَرَ الْكِتَابِ ، أَسْرَعُ مِنْهُ إِلَى الْفِرَاءِ ، وَهُوَ لَكُمْ
أَفْسَدُ مِنْهُ لَهَا .

فَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ إِذَا صَحِبَهُ الرَّجُلُ ، يَبْذُلُ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ مَا يَجِبُ لَهُ
عَلَيْهِ مِنْ حَقِّهِ ، فَوَاجِبٌ عَلَيْهِ أَنْ يَمْتَدِّدَ لَهُ مِنْ وَفَائِهِ ، وَشُكْرِهِ ، وَاحْتِمَالِهِ وَصَبْرِهِ ،

[١] رَفِيئَهَا . [٢] الرَّيْءُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ . [٣] رَآ : عَلَا وَارْتَمَعَ .

[٤] يَرْجِعُ . [٥] تَهَوَّنُوا .

ونصيحتِهِ، وكتمان سره، وتدير أمره، ماهو جزاء لحقه، ويصدق ذلك بفعله عند الحاجة إليه، والاضطرار إلى مالهيه .

فاستشعروا ذلكم - وفقكم الله من أنفسكم - في جالة الرخاء والشدة، والحِمان والمواساة والإحسان، والسراء والضراء، فَنِعِمَّتِ الشَّيْمَةُ هذه لمن وُئِمَّ بها : من أهل هذه الصناعة الشريفة ، فَإِذَا وُلِّيَ الرَّجُلُ مِنْكُمْ ، أَوْصِيَرُ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرِ خَلْقِ اللَّهِ وَعِيَالِهِ أَمْرٌ ، فَلْيَرَأْبِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ، وَلْيُؤَيِّرْ طَاعَتَهُ ، وَلِيَكُنْ عَلَى الضَّعِيفِ رَفِيقًا ، وَلِلْمَظْلُومِ مُنْصِفًا ، فَإِنَّ الْخَلْقَ عِيَالُ اللَّهِ ، وَأَحِبُّهُمْ إِلَيْهِ أَرْفَقَهُمْ بِعِيَالِهِ ، ثُمَّ لِيَكُنْ بِالْعَدْلِ حَاكِمًا ، وَلِلْأَشْرَافِ مُكْرِمًا ، وَلِلْفُقَرَاءِ مُوَفِّرًا ، وَلِلْبِلَادِعَامِرَاءِ ، وَلِلرَّعِيَةِ مَتَأَلِّفًا ، وَعَنْ إِيْذَانِهِمْ مُتَخَلِّفًا ، وَلِيَكُنْ فِي مَجْلِسِهِ مُتَوَاضِعًا حَلِيمًا ، وَفِي مَسْجَلَاتِهِ خَرَاجِهِ وَاسْتِقْضَاءَ حَقُوقِهِ رَفِيقًا ، وَإِذَا صَحِبَ أَحَدَكُمْ رَجُلًا فَلْيَخْتَبِرْ خِلَاتِقَهُ ، فَإِذَا عَرَفَ حَسَنَتَهَا وَفَيْحَهَا ، أَعَانَهُ عَلَى مَا يَوَافِقُهُ مِنَ الْحَسَنِ ، وَاحْتَالَ لَصَرْفِهِ عَمَّا يَهْوَاهُ مِنَ الْقَبِيحِ ، بِالطَّفِ حَبْلَةً ، وَأَجَلَ وَسِيلَةً ، وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ سَائِسَ الْبَهِيمَةِ إِذَا كَانَ بِصِيرًا بِسِيَاسَتِهَا ، التَّمَسَّ مَعْرِفَةَ أَخْلَاقِهَا ، فَإِنْ كَانَتْ رَمُوحًا ^(١) لَمْ يَهْجُهَا إِذَا رَكِبَهَا ، وَإِنْ كَانَتْ شَبُوبًا ^(٢) اتَّقَاهَا مِنْ قَبْلِ يَدَيْهَا ، وَإِنْ خَافَ مِنْهَا شُرُودًا تَوَقَّاهَا مِنْ نَاحِيَةِ رَأْسِهَا ، وَإِنْ كَانَتْ حَرُونًا قَمَعَ بَرْقِ هَوَاهَا فِي طَرِيقِهَا ، فَإِنْ اسْتَمَرَّتْ عَطَفَهَا يَسِيرًا ، فَيَسْلَسَ لَهُ قِيَادُهَا ، وَفِي هَذَا الْوَصْفِ مِنَ السِّيَاسَةِ دَلَالٌ لِمَنْ سَاسَ النَّاسَ وَعَامَلَهُمْ ، وَخَدَمَهُمْ وَدَاخَلَهُمْ .

والكاتب بفضل أدبه ، وشريف صنعتِهِ ، ولطيف حيلِهِ ، ومعاملتِهِ لِمَنْ يُحَاوِرُهُ مِنَ النَّاسِ وَيُنَازِرُهُ ، وَيُفْهَمُ عَنْهُ أَوْ يَخَافُ سَطْوَتَهُ ، أَوَّلَى بِالرَّفْقِ بِصَاحِبِهِ

وَمُدَارَاتِهِ وَتَقْوِيمُ أَوْدِهِ ، مِنْ سَائِسِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي لَا تُحِيرُ ^(١) جَوَابًا ، وَلَا تَعْرِفُ صَوَابًا ، وَلَا تَفْهَمُ خَطَابًا ، إِلَّا بِقَدْرِ مَا يُصَيِّرُهَا إِلَيْهِ صَاحِبُهَا الرَّكْبَ عَلَيْهَا ، أَلَا فَأَمْعِنُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ فِي النَّظَرِ ، وَأَعْمِلُوا فِيهِ مَا أَمَكُنْكُمْ مِنَ الرُّوْيَةِ وَالْفِكْرِ ، تَأْمِنُوا بِإِذْنِ اللَّهِ مِمَّنْ صَحِبْتُمُوهُ النَّبُوَّةَ ، وَالِاسْتِنْقَالَ وَالْجَفْوَةَ ، وَيَصِيرُ ^(٢) مِنْكُمْ إِلَى الْمَوَافَقَةِ ، وَتَصِيرُوا مِنْهُ إِلَى الْمَوَازَاةِ وَالشَّفَقَةِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

وَلَا يَجَاوِزُنَّ الرَّجُلُ مِنْكُمْ - فِي هَيْئَةِ مَجْلِسِهِ ، وَمَلْبَسِهِ ، وَمَرْكَبِهِ ، وَمَطْعَمِهِ ، وَمَشْرَبِهِ ، وَبَنَائِهِ ^(٣) وَخَدَمِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ فَنُونِ أَمْرِهِ - قَدْرَ حَقِّهِ ، فَإِنَّكُمْ - مَعَ مَا فَضَّلَكُمْ اللَّهُ بِهِ مِنْ شَرَفٍ صَنَعْتُمْ - خَدَمَةٌ لَا تُحْمَلُونَ فِي خِدْمَتِكُمْ عَلَى التَّقْصِيرِ ، وَحَفْظُهُ لَا تُحْتَمَلُ مِنْكُمْ أَفْعَالُ التَّضْيِيعِ وَالتَّبْذِيرِ ، وَاسْتَعِينُوا عَلَى عَفَافِكُمْ بِالْقَصْدِ فِي كُلِّ مَا ذَكَرْتَهُ لَكُمْ ، وَقَصَصْتُهُ عَلَيْكُمْ ، وَاحْذَرُوا مَتَافِيفَ السَّرَفِ ، وَسُوءَ عَاقِبَةِ التَّرَفِ ، فَإِنَّهُمَا يُمَقِّيانِ الْفَقْرَ ، وَيُذِلَّانِ الرَّقَابَ ، وَيَفْضَحَانِ أَهْلَهُمَا ، وَلَا سِيَّامَا الْكِتَابَ ، وَأَرْبَابَ الْآدَابِ ، وَلِلْأُمُورِ أَشْبَاهُ ، وَبِمَضَاهَا دَلِيلٌ عَلَى بَعْضِ ، فَاسْتَدِلُّوا عَلَى مُؤْتَنَفٍ ^(٤) أَعْمَالِكُمْ ، بِمَا سَبَقَتْ إِلَيْهِ تَجَرِبَتُكُمْ ، ثُمَّ اسْلُكُوا مِنْ مَسَالِكِ التَّنْدِيرِ أَوْضَحَهَا حُجَّةٌ ، وَأَصْدَقَهَا حُجَّةٌ ، وَأَحْمَدُهَا عَاقِبَةٌ .

وَاعْلَمُوا أَنَّ لِلتَّنْدِيرِ آفَةً مُتَلَفَةً ، وَهِيَ الْوَصْفُ الشَّاعِلُ لِصَاحِبِهِ عَنْ إِنْقَازِ عَمَلِهِ وَرُؤْيَتِهِ ، فَلْيَقْصِدِ الرَّجُلُ مِنْكُمْ فِي مَجْلِسِهِ قَصْدَ الْكَافِي مِنْ مَنْطِقِهِ ، وَلْيُوجِزْ فِي ابْتِدَائِهِ وَجَوَابِهِ ، وَلْيَأْخُذْ بِمَجَامِعِ حُجَجِهِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ مَصَالِحَةٌ لِقَلَمِهِ ، وَمَدْفَعَةٌ

[١] لَا تَرُدُّ . [٢] تَأْمِنُوا ، بِمَجْزُومٍ فِي جَوَابِ الْأَمْرِ ، أَوْ بِبَارَةِ أُخْرَى جَوَابٍ لِمَطْرَعِ عَذُوفٍ مَعَ فِعْلِ الْمَطْرَعِ أَيْ إِنْ تَعْمَلُوا تَأْمِنُوا ، وَمِنْ ثُمَّ يَجُوزُ فِي « وَيَصِيرُ » ثَلَاثَةُ أَوْجُهٍ الْمَجْزُومِ ، وَالتَّصْبِغِ وَالرَّافِعِ كَمَا هُوَ مَقْصُورٌ - فَقَوْلُ بَعْضِهِمْ : « وَلَعَلَّ ثُبُوتَ الْبَاءِ قَبْلَ الرَّاءِ مِنْ زِيَادَةِ النَّاسِخِ » مُرَدُّودٌ . [٣] بَقِيَ عَلَى أَهْلِهِ ، وَبِهَا بَنَاءٌ ، وَابْقَى : زَقَاهَا . [٤] مُبْتَدَأٌ

للتشاغل عن إكثاره ، وَلِيَضْرَحَ إِلَى اللَّهِ فِي صَلَةِ تَوْفِيْقِهِ ، وإمداده بتسديده ، غفافة وقوعة في النلط المُضْريِّدنه وعقله وأدبه ، فإنه إن ظن منكم ظانًّا ، أو قال قائل : إن الذي برز من جميل صنعته ، وقوة حركته ، إنما هو بفضل حيلته ، وحسن تدبيره ، فقد تعرض بظنه أو مقالته إلى أن يَكَلِّهُ اللَّهُ عز وجل إلى نفسه ، فيصيرَ منها إلى غير كاف ، وذلك على من تأمله غيرُ خاف .

ولا يقل أحد منكم إنه أبصرُ بالأمور ، وأحملُ لعبء التدبير من مُرافِقِهِ في صناعته ، ومُصاحِبِهِ في خدمته ، فإن أعقل الرجلين عند ذوى الألباب من رَحَى بالمُعْجَب وراء ظهره ، ورأى أن صاحبه أعقل منه ، وأحمد في طريقته ، وعلى كل واحد من الفريقين أن يَمَرِّفَ فضلَ نعم الله جل ثناؤه ، من غير اغترار برأيه ، ولا تركية لنفسه ، ولا تكأثرٍ على أخيه أو نظيره ، وصاحبه وعشيرته ، وحمدُ الله واجب على الجميع ، وذلك بالتواضع لمعظمته ، والتذلل لعزته ، والتحدث بنعمته . وأنا أقول في كتابي هذا ما سبق به المثلُّ : « مَنْ يَلْزِمِ النَّصِيْحَةَ »^(١) يَلْزِمُهُ الْعَمَلُ « وهو جوهر هذا الكتاب وغرّة كلامه ، بعد الذي فيه من ذِكر الله عز وجل ؛ فلذلك جعلته آخره ، وتممته به ، ولأننا الله وإياكم يا معشر الطلبة والكُتّبة ، بما يتولى به مَنْ سبق علمه بإسماعاده وإرشاده ، فإن ذلك إليه ويده ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

(صبح الأعشى ١ : ٨٥)



[١] في نسخة : « الصحة » ، وذكر الملاحظ في البيان والتبيين (٢ : ٤٦) أن هذا القول من كلام الأحنف الشافعي في أيدي الناس .

الصراع بين الاموية والعباسية

٤٧١ - خطبة قحطبة بن شبيب الطائي^(١)

لما دخل أبو مسلم الخراساني زعيم الدعوة العباسية مدينة مرو سنة ١٣٠ هـ هرب منها نصر بن سيار - أمير خراسان من قبل مروان بن محمد الأموي - ثم سار إلى ثباتة بن حنظلة : عامل جرجان^(٢) ، فوجه أبو مسلم قحطبة بن شبيب في جيش لقتاله^(٣) ، وقدم قحطبة ، فنزل بإزاء ثباتة ، وأهل الشام في عدة لم ير الناس مثلاً ، فلما رآهم أهل خراسان هابوهم ، حتى تكلموا بذلك وأظهروه ، وبلغ قحطبة ، فقام فيهم خطيباً ، فقال :

« يا أهل خراسان : هذه البلاد كانت لأبائكم الأولين ، وكانوا يُنصرون على عدوهم ، لمدحهم وحسن سيرتهم ، حتى بدّلوا وظلموا ، فسخط الله عز وجل عليهم ، فانتزع سلطانهم ، وسلط عليهم أذلّ أمة ، كانت في الأرض عندهم ، فغلبوهم على بلادهم ، واستنكحو نساءهم ، واسترقّوا أولادهم ، فكانوا بذلك يحكمون بالعدل ، ويوفون بالعهد ، وينصرون المظلوم ، ثم بدّلوا وغيرُوا وجاروا في الحكم ، وأخافوا أهل البرِّ والتقوى من عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

[١] هو أحد القباء الاثنى عشر الذين اختارهم محمد بن علي بن عبد الله بن عباس من السبعين الذين كانوا استجابوا له حين بعث رسوله إلى خراسان سنة ١٠٣ ، أو ١٠٤ ، وكان قدم على أبي مسلم خراسان منصرفاً من عند إبراهيم الامام ، ومنه لواؤه الذي عقده له إبراهيم .

[٢] من قبل يزيد بن عمر بن هبيرة أمير العراق . [٣] وكان قحطبة قبل ذلك قد تمعاً لقتال تميم ابن نصر بن سيار ثم زحف إليه فاقبلوا قتالاً شديداً ، وقتل تميم بن نصر في المعركة ، وقتل معه مقتلة عظيمة واستبيح عسكرهم ، ثم توجه إلى نيسابور ، وكان نصر بن سيار نزل بها ، فبلغه ذلك ، فارتحل هارباً ، وغرق عن أصحابه ، فسار إلى ثباتة بن حنظلة بجرجان ، ونزل في آخر أمره ساوة بين همدان والري ، فأتى بها كذا .

فسلطكم عليهم ، لينتقم منهم بكم ، ليكونوا أشد عقوبة ، لأنكم طلبتموهم بالنار ، وقد عهد إلى الإمام ^(١) أنكم تلقونهم في مثل هذه المدة ، فينصركم الله عز وجل عليهم ، فتَهْزَمونهم وتقتلونهم .

وقد قرئ على قحطبة كتاب أبي مسلم : « من أبي مسلم إلى قحطبة ، بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد : فناهض عدوك ، فإن الله عز وجل ناصرٌ ، فإذا ظهرت عليهم ، فأُخْرِجْ في القتل » ، فالتقوا في مستهل ذي الحجة سنة ١٣٠ هـ في يوم الجمعة ، فقال قحطبة :

٤٧٢ — خطبة أخرى له

« يا أهل خراسان : إن هذا يوم قد فضله الله تبارك وتعالى على سائر الأيام ، والعمل فيه مضاعفٌ ، وهذا شهر عظيم ، فيه عيد من أعظم أعيادكم عند الله عز وجل ، وقد أخبرنا الإمام أنكم تُنصرون في هذا اليوم من هذا الشهر على عدوك ، فالتقوا بجِدِّ واحتسابٍ ، فإن الله مع الصابرين » ثم ناهضهم فاقتتلوا وصبر بعضهم لبعض ، فانهزم أهل الشام ، وقتل منهم عشرة آلاف ، وقتل نباتة ، وبعت قحطبة برأسه ورأس ابنه حية إلى أبي مسلم . (تلويح الطبري ٩ : ١٠٦)

[١] هو إبراهيم الإمام بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، وكان نصر بن سيار حين أظهر أبو مسلم الدعوة العباسية في خراسان وقويت شوكة . كتب إلى مروان يطلبه بحال أبي مسلم ومن معه ، وأن الذي تدعو الدعاة إليه هو إبراهيم الإمام ، فأرسل مروان إلى طلال البقاء (في أطراف الشام) أن يسير إلى الحمية (بجهة) حيث يقم إبراهيم فيشده وثاقاً ، فحل إلى مروان فحبسه في حرٍّ ثم قتله في سجنه ، ولما قبض على إبراهيم الإمام خلف أخواه السجاح والمنصور وجاعة من أقاربهم ، فهربوا إلى الكوفة ، فأخلى لهم أبو سلمة الخلال داراً بالكوفة ، وكتب أمرهم حتى وصل أبو مسلم بالجنود من خراسان إلى الكوفة ، ودخل على بني العباس ، وسلم على السجاح بالخلافة ، وبيع بها سنة ١٣٢ هـ .

تمة في خطب الحجاج

٤٧٣ - خطبته بعد قتل ابن الزبير

وصعد الحجاج بعد قتله ابن الزبير متلماً ، فخط اللثام عنه ثم قال :

«مَوْجُ لَيْلِ التَّطْمِ ، وَانْجَلَى بَصْوَةُ صُبْحِهِ ، يَا أَهْلَ الْحِجَازِ ، كَيْفَ رَأَيْتُمُونِي ؟
أَلَمْ أَكْشِفْ ظُلْمَةَ الْجَوْرِ ، وَطُعْنَةَ ^(١) الْبَاطِلِ بِنُورِ الْحَقِّ ؟ وَاللَّهِ لَقَدْ وَطَّئْتُكُمْ الْحِجَابَ
وِطَاءَةً مُشْفِقٍ ، وَعَظْفَةً رَحِمٍ ، وَوَصَلَ قَرَابَةً ، فَإِذَا كَمْ أَنْ تَرَوْا عَنْ سَنَنِ أَقْنَانَا كَمْ
عَلَيْهِ ، فَأَقْطَعَ عَنْكُمْ مَا وَصَلْتُهُ لَكُمْ ، بِالصَّارِمِ الْبِتَّارِ ، وَأَقِيمَ مِنْ أَوْدِكُمْ مَا يَقِيمُ
الْمُتَّقَفُ ^(٢) مِنْ أَوْدِ الْقَنَاقَةِ بِالنَّارِ » ، ثُمَّ نَزَلَ وَهُوَ يَقُولُ :

أَخُو الْحَرْبِ إِنْ عَضَّتْ بِهِ الْحَرْبُ عَضًّا وَإِنْ ثَمَرَتْ عَنْ سَاقِهَا الْحَرْبُ ثَمَرًا
(مواهب الأدب ٧ : ١٢٣)

انتهى الجزء الثانى ، ويليه : الجزء الثالث ، وأوله : الباب الرابع فى خطب ووصايا
العصر العباسى الأول

[١] الطنية : الطلعة ، ويشك . [٢] مقوم الرماح والأود : الاعوجاج .
سقط من هامش ص ٧٤ ما يأتى :

جاء فى مقال الحسن بن على رضى الله عنهما للنيرة بن شعبة ص ٧٤ : « وَإِنْ حَدَّثَ اللَّهُ فِي الزَّيْنِ ثَابِتَ
عَلَيْكَ ، وَلَقَدْ دَرَأَ حَرَّكَ خَلَا اللَّهُ سَاحَهُ عَنْهُ » وخبر ذلك أن النيرة بن شعبة كان حاضراً على البصرة لعمرو
ابن الخطاب رضى الله عنه ، فأنه أبو بكره - أخو زياد - هو وهو رضى الله عنه بأنه رضى الله عنه بأم جيل بنت الأقم ،
وكتبوا بذلك إلى عمر ، فنزل النيرة وولى مكانه أبا موسى الأشعرى - وكان ذلك سنة ١٧ هـ - وارتحل
النيرة وأبو بكره ومن معه حتى قدموا على عمر ، فجمع بينهم وبين النيرة ، وقد أقسم بين يدي عمر أنه مأتى
إلا امرأته ، وكان لليهود عليه : أبا بكره ، وشبل بن سبب البجلي ، وناقع بن كلفة ، وزيد ، فبدأ عمر
بأبي بكره ، فشهد عليه أنه رضى الله عنه بأم جيل ، وشهد شبل وناقع بذلك ، ولم يشهد زياد بمثل شهادتهم ،
إذ سأله هل تعرف المرأة ؟ قال : لا ، ولكن أشبهها فتعاه ، وأمر بثلاثة بخلوا الهد ، وترأ :
« فَإِذَا لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ » قال النيرة : اشقى من الأعداء
قال : اسكت ، أسكت الله نأمتك ، أما والله لو تمت الشهادة رجلك بأحبارك .

- اقرأ القصة فى تاريخ الطبرى ٤ : ٢٠٧ -

فهرس

الجزء الثاني

من جمهرة خطب العرب

الباب الثالث

الخطب والوصايا في العصر الأموي

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
خطب بنى هاشم وشيعتهم وما يتصل بها	١	
خطب الحسن بن علي رضي الله عنه		
خطبة الحسن بن علي بعد وفاة أبيه	١	١
تعبئة الجيوش لقتال معاوية	٢	
خطبة الحسن بن علي في الحث على الجهاد	٢	٢
مقال عدى بن حاتم	٣	٣
خطبة الحسن وقد جنح إلى مصالحة معاوية	٤	٤
خطبته يبرر مصالحته لمعاوية	٥	٥
في الصلح بينه وبين معاوية	٦	٥
خطبة له بعد الصلح	٧	٦
لمعاوية في أهل الكوفة	٨	٧
رد الحسن بن علي على معاوية حين نال منه ومن أبيه	٩	٨
خطبة سليمان بن صرد في استنكار الصلح	١٠	٨

خطبة الحسن يرد على مستكرى الصلح	١١	١٠
» له في عهد خلافته	١٢	١٠
» أخرى له	١٣	١٢

مخاصمة ومهاجاة

بين الحسن بن عليّ ، وبين عمرو بن العاص ، والوليد
ابن عقبة ، وعتبة بن أبي سفيان ، والمغيرة بن شعبة ،
بمحاضرة معاوية

مقال عمرو بن العاص	١٤	١٤
» الوليد بن عقبة بن أبي معيط	١٥	١٥
» عتبة بن أبي سفيان	١٦	١٥
» المغيرة بن شعبة	١٧	١٥
رد الحسن بن عليّ عليهم	١٨	١٦
رتاء محمد بن الحنفية لأخيه الحسن رضى الله عنهما	١٩	٢٥
مقتل الحسين بن عليّ رضى الله عنه		
تأنيه عن بيعة يزيد وخروجه إلى مكة		
نصيحة محمد بن الحنفية للحسين رضى الله عنهما	٢٠	٢٨
بمنه مسلم بن عقيل إلى الكوفة		
خطبة عابس بن أبي شبيب الشاكرى	٢١	٢٩
» النعمان بن بشير	٢٢	٣٠
» عبيد الله بن زياد	٢٣	٣٠
» أخرى له	٢٤	٣٢

الخطبة أو الوصية

رقم
الصفحة
الخطبة

خطبة كثير بن شهاب	٢٥	٣٢
» عيد الله بن زياد	٢٦	٣٣
خروج الحسين رضى الله عنه إلى الكوفة		
نصيحة ابن عباس له	٢٧	٣٤
» أبي بكر بن عبد الرحمن المخزومى له	٢٨	٣٧
خطبة للحسين رضى الله عنه	٢٩	٣٨
» أخرى له	٣٠	٣٨
» » »	٣١	٣٩
» زهير بن القين البجلي	٣٢	٣٩
» للحسين أيضاً	٣٣	٤٠
خطبته ليلة قتله	٣٤	٤١
رد أهل بيته عليه	٣٥	٤٢
» أصحابه	٣٦	٤٢
خطبته غداة يوم قتله	٣٧	٤٣
دعاؤه وقد صبحته الخيل	٣٨	٤٣
خطبته وقد دنا منه القوم	٣٩	٤٤
خطبة أخرى	٤٠	٤٤
» زهير بن القين	٤١	٤٦
» الحر بن يزيد	٤٢	٤٨
طلب التوابين بدم الحسين رضى الله عنه		
خطبة المسيب بن نجيعة الفزارى	٤٣	٥٠

الخطبة أو الوصية

رقم
الصفحة

خطبة رفاعة بن شداد	٤٤	٥١
» سليمان بن صرد	٤٥	٥٢
» خالد بن سعد بن فضيل	٤٦	٥٣
» سعد بن حذيفة بن اليمان	٤٧	٥٤
» عبد الله بن الحنفل الطائي	٤٨	٥٤
» عبيد الله بن عبد الله المرسي	٤٩	٥٥
» عبد الله بن يزيد الأنصاري	٥٠	٥٧
» إبراهيم بن محمد بن طلحة	٥١	٥٨
رد المسيب بن نجبة	٥٢	٥٨
رد عبد الله بن وال التيمي	٥٣	٥٩
خطبة سليمان بن صرد	٥٤	٦٠
» صخير بن حذيفة بن هلال	٥٥	٦٠
ما أشار به عبد الله بن سعد	٥٦	٦١
رأى ابن صرد	٥٧	٦١
خطبة عبد الله بن يزيد	٥٨	٦٢
» سليمان بن صرد	٥٩	٦٢
» أخرى له	٦٠	٦٣
» »	٦١	٦٤
» عبد اللك بن مروان	٦٢	٦٥
طلب المختار بن أبي عبيد الثقفي بدم الحسين		٦٦
رضي الله عنه		
خطبته حين قدم الكوفة	٦٣	٦٦
ما كان يردده على زائريه في سجنه	٦٤	٦٧

الخطبة أو الوصية

رقم
الصفحة
رقم
الخطبة

خطبة عبد الله بن مطيع المدوي حين قدم الكوفة	٦٥	٦٨
رد السائب بن مالك	٦٦	٦٩
خطبة عبد الرحمن بن شريح	٦٧	٦٩
» أخرى له	٦٨	٧٠
» محمد بن الحنفية	٦٩	٧١
» المختار	٧٠	٧١
» عبد الرحمن بن شريح	٧١	٧٢
» المختار في دار إبراهيم بن الأشتر	٧٢	٧٣
» يزيد بن أنس الأسدي	٧٣	٧٤
» عبد الله بن مطيع	٧٤	٧٤
تحريض ابن الأشتر أصحابه	٧٥	٧٥
خطبة ابن مطيع وهو محصور	٧٦	٧٥
» المختار بعد هرب ابن مطيع	٧٧	٧٦
» » وقد استنصره ابن الحنفية	٧٨	٧٧
» » وقد شيع ابن الأشتر لقتال عبيد الله بن زياد	٧٩	٧٩
خطبته وقد سار إليه مصعب بن الزبير	٨٠	٨٠
خطبة محمد بن الحنفية يرد على عبد الله بن الزبير وقد تنقص الإمام	٨١	٨١
عبد الله بن عباس ومعاوية	٨٢	٨٣

عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا

مقال معاوية	٨٣	٨٦
» ابن عباس	٨٤	٨٧

عبد الله بن عباس ومعاوية أيضاً

٨٧ ٨٥ مقال معاوية لابن عباس

٨٨ ٨٦ » ابن عباس

عبد الله بن عباس ومعاوية أيضاً

٨٩ ٨٧ مقال معاوية لبني هاشم

٨٩ ٨٨ » ابن عباس

عبد الله بن عباس ومعاوية أيضاً

٩٠ ٨٩ مقال معاوية

٩١ ٩٠ » ابن عباس

٩١ ٩١ عبد الله بن عباس ومعاوية أيضاً

٩٢ ٩٢ عبد الله بن عباس وعتبة بن أبي سفيان

مخاصمة بين عبد الله بن عباس وبين معاوية وأصحابه

٩٣ ٩٣ جواب ابن عباس

٩٣ ٩٤ مقال عمرو بن العاص

٩٣ ٩٥ جواب ابن عباس

٩٤ ٩٦ مقال مروان بن الحكم

٩٥ ٩٧ جواب ابن عباس

٩٦ ٩٨ مقال زياد

٩٦ ٩٩ جواب ابن عباس

٩٧ ١٠٠ مقال عبد الرحمن بن أم الحكم

٩٧ ١٠١ جواب ابن عباس

٩٨	١٠٢	مقل المنيرة بن شعبة
٩٨	١٠٣	جواب ابن عباس
٩٩	١٠٤	مقال يزيد بن معاوية
٩٩	١٠٥	جواب ابن عباس
١٠٠	١٠٦	مقال معاوية
١٠٠	١٠٧	جواب ابن عباس

عبد الله بن عباس، وعمرو بن العاص

١٠١	١٠٨	مقال ابن عباس
١٠٢	١٠٩	رد ابن العاص
١٠٣	١١٠	عبد الله بن عباس وعمرو بن العاص أيضاً
١٠٤	١١١	مفاخرة عبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عباس

ابن عباس وابن الزبير في مجلس مروان بن الحكم

١٠٩	١١٢	مقال ابن الزبير
١١٠	١١٣	» » عباس
١١٠	١١٤	خطبة عبد الله بن عباس يرد على ابن الزبير وقد عاب بنى هاشم
١١٣	١١٥	» ابن الزبير ينتقص ابن عباس
١١٤	١١٦	رد ابن عباس عليه
١١٧	١١٧	عبد الله بن جعفر، وعمرو بن العاص
١١٩	١١٨	الحسن بن علي، وعمرو بن العاص
١٢٠	١١٩	الحسن بن علي، ومروان بن الحكم
١٢١	١٢٠	عقيل بن أبي طالب ومعاوية
١٢٤	١٢١	خطبة السيدة أم كلثوم بنت علي في أهل الكوفة بعد مقتل الحسين عليهم السلام

الخطبة أو الوصية

رقم
الصفحة

- ١٢٦ ١٢٢ خطبة السيدة زينب بنت عليّ عليهما السلام بين يدي يزيد
١٢٩ ١٢٣ رثاء الحسين لأخيه الحسن عليهما السلام
١٣٠ ١٢٤ عبد الله بن هاشم بن عتبة وعمر بن العاص في مجلس معاوية
١٣٤ ١٢٥ عبد الله بن هاشم في مجلس معاوية

قيس بن سعد بن عباد ومعاوية

- ١٣٥ ١٢٦ مقال معاوية
١٣٥ ١٢٧ رد قيس بن سعد
١٣٦ ١٢٨ معاوية وصمصمة بن صوحان وعبد الله بن الكواء
١٣٧ ١٢٩ صمصمة بن صوحان ومعاوية
١٣٩ ١٣٠ » » » وعبد الله بن عباس
١٤٤ ١٣١ » » » ورجل من بني فزارة
١٤٥ ١٣٢ رجل من آل صوحان يحبه عبد للاث بن مروان وهو يخطب
١٤٦ ١٣٣ وصف عقيل بن أبي طالب لآل صوحان
١٤٧ ١٣٤ وصية محمد الباقر لعمر بن عبد العزيز

خطب الزيريين وما يتصل بها

خطب عبد الله بن الزير

عبد الله بن الزير ومعاوية

- ١٤٨ ١٣٥ مقال ذكوان مولى الحسين
١٤٩ ١٣٦ » معاوية
١٥٠ ١٣٧ » ابن الزير
١٥١ ١٣٨ » معاوية
١٥٤ ١٣٩ عبد الله بن الزير ومعاوية أيضاً

الخطبة أو الوصية

رقم
المفحة
الخطبة

١٥٥	١٤٠	عبد الله بن الزبير ومعاوية وعمرو بن العاص
١٥٨	١٤١	خطبة ابن الزبير لما قتل الحسين عليه السلام
١٥٩	١٤٢	مناظرة ابن الزبير للخوارج
١٦٣	١٤٣	أبو صخر الهذلي وعبد الله بن الزبير
١٦٥	١٤٤	خطبته وقد قدم عليه أهل العراق
١٦٥	١٤٥	لما بلنه قتل مصعب
١٦٧	١٤٦	خطبة أخرى له
١٦٨	١٤٧	خطبته وقد بلنه قتل عمر والأشعث
١٦٨	١٤٨	عبد الله بن الزبير وأمه أسماء بنت أبي بكر
١٧٠	١٤٩	خطبته يوم قتله
١٧٠	١٥٠	خطبة أخرى
١٧١	١٥١	مصعب بن الزبير

خطب الأمويين

خطباء البيت الأموي

خطب معاوية

١٧٢	١٥٢	خطبته بالمدينة عام الجماعة
١٧٣	١٥٣	خطبة أخرى له بالمدينة
١٧٣	١٥٤	له بالمدينة
١٧٤	١٥٥	خطبته حين ولي للنيرة بن شعبة الكوفة
١٧٤	١٥٦	خطبة له في يوم صائف
١٧٥	١٥٧	آخر خطبة له
١٧٥	١٥٨	خطبته وقد حضرته الوفاة

١٧٧ ١٥٩ وصيته لابنه يزيد

خطب يزيد بن معاوية

١٧٨ ١٦٠ خطبته بعد موت معاوية

١٧٩ ١٦١ خطبة أخرى له

١٨٠ ١٦٢ » معاوية بن يزيد

خطب عبد الملك بن مروان

١٨٠ ١٦٣ خطبته بمكة

١٨١ ١٦٤ خطبة له موجزة

١٨١ ١٦٥ خطبته حين قتل عمرو الأشدق بن سعيد بن العاص

١٨٢ ١٦٦ » لما دخل الكوفة بعد قتل مصعب بن الزبير

١٨٤ ١٦٧ » عام حجه

١٨٥ ١٦٨ » وقد علم بخروج ابن الأشعث

١٨٥ ١٦٩ وصيته لبعض أمرائه

١٨٦ ١٧٠ » للشعي

١٨٦ ١٧١ » لأخيه عبد العزيز بن مروان

١٨٧ ١٧٢ » لولده عند وفاته

١٨٨ ١٧٣ خطبة لوليد بن عبد الملك

١٨٨ ١٧٤ » لسليمان بن عبد الملك

خطب عمر بن عبد العزيز

١٨٩ ١٧٥ أولى خطبه

١٨٩ ١٧٦ خطبة أخرى

١٩٠	١٧٧	خطبة أخرى
١٩١	١٧٨	» »
١٩٢	١٧٩	» »
١٩٢	١٨٠	» »
١٩٣	١٨١	» »
١٩٣	١٨٢	» له يوم عيد
١٩٤	١٨٣	» أخرى
١٩٤	١٨٤	» »
١٩٥	١٨٥	» »
١٩٥	١٨٦	» »
١٩٥	١٨٧	» »
١٩٦	١٨٨	» »
١٩٦	١٨٩	» »
١٩٧	١٩٠	» »
١٩٧	١٩١	» »
١٩٨	١٩٢	» »
١٩٨	١٩٣	آخر خطبة له
٢٠٠	١٩٤	نص آخر
٢٠٠	١٩٥	كلامه في مرضه الذي مات فيه
٢٠١	١٩٦	مناظرة عمر بن عبد العزيز للخوارج
٢٠٥	١٩٧	تأيينه ابنه عبد الملك
٢٠٦	١٩٨	خطبة يزيد بن الوليد حين قتل الوليد بن يزيد

- ٢٠٧ ١٩٩ وصية يزيد بن معاوية لاسلم بن زياد حين ولاء
✓ خطب عتبة بن أبي سفيان
- ٢٠٨ ٢٠٠ خطبة له في تهدد أهل مصر
- ٢٠٨ ٢٠١ » » في قريتهم وتهديم
- ٢٠٩ ٢٠٢ » » فيهم وقد أرجفوا بموت معاوية
- ٢١٠ ٢٠٣ خطبته فيهم وقد منعوا الخراج
- ٢١٠ ٢٠٤ » فيهم إذ طمنوا على الولاية
- ٢١١ ٢٠٥ » بمكة
- ٢١٢ ٢٠٦ » في علته التي مات فيها
- ٢١٢ ٢٠٧ وصيته لمؤدب ولده
-
- ٢١٣ ٢٠٨ وصية سعيد بن العاص لابنه
- ✓ خطب عمرو بن سعيد الأشدق
- ٢١٥ ٢٠٩ خطبة له بالمدينة
- ٢١٦ ٢١٠ » بمكة
- ٢١٧ ٢١١ ملاحاة الوليد بن عقبة معه في مجلس معاوية
- ٢١٨ ٢١٢ خطبته حين غلب على دمشق
-
- ٢١٩ ٢١٣ خالد بن يزيد وعبد الملك بن مروان
- ٢٢٠ ٢١٤ خالد بن عبد الله بن أسيد وعبد الملك بن مروان
- ٢٢١ ٢١٥ نصيحة لعمرو بن عتبة بن أبي سفيان
- ٢٢١ ٢١٦ تأديب معاوية لجلسائه
- ٢٢٢ ٢١٧ كلام معاوية وقد سقطت ثناؤه

٢٢٢	٢١٨	تقريع عبد الملك بن مروان لأحد عماله
		طلب معاوية البيعة ليزيد
٢٢٤	٢١٩	خطبة الضحاك بن قيس الفهري
٢٢٥	٢٢٠	» عبد الرحمن بن عثمان الثقفي
٢٢٦	٢٢١	» ثور بن معن السلمي
٢٢٧	٢٢٢	» عبد الله بن عصام الأشعري
٢٢٧	٢٢٣	» عبد الله بن مسعدة الفزاري
٢٢٨	٢٢٤	» عمرو بن سعيد الأشدق
٢٢٩	٢٢٥	» الأخنف بن قيس
٢٢٩	٢٢٦	» الضحاك بن قيس
٢٣٠	٢٢٧	» الأخنف بن قيس
٢٣١	٢٢٨	» عبد الرحمن بن عثمان الثقفي
٢٣١	٢٢٩	» معاوية
٢٣٢	٢٣٠	» يزيد بن المقنع
٢٣٢	٢٣١	» الأخنف
٢٣٣	٢٣٢	» معاوية
٢٣٤	٢٣٣	» عبد الله بن عباس
٢٣٤	٢٣٤	» عبد الله بن جعفر
٢٣٥	٢٣٥	» عبد الله بن الزبير
٢٣٥	٢٣٦	» عبد الله بن عمر
٢٣٦	٢٣٧	» معاوية

خطبة مروان بن الحكم	٢٣٧	٢٣٨
» معاوية	٢٣٨	٢٣٩
مروان وعبد الرحمن بن أبي بكر	٢٣٩	٢٤٠
خطبة معاوية	٢٤٠	٢٤١
» الحسين	٢٤٢	٢٤٢
» معاوية	٢٤٤	٢٤٣
عبد الله بن عمر	٢٤٥	٢٤٤
» معاوية	٢٤٦	٢٤٥
عبد الله بن الزبير	٢٤٨	٢٤٦
» معاوية	٢٤٩	٢٤٧

تهنئة وتعزية

خطبة عبد الله بن همام اللؤلؤ	٢٥٠	٢٤٨
» عطاء بن أبي سفيان الثقفي	٢٥١	٢٤٩
» عبد الله بن مازن	٢٥١	٢٥٠
» غيلان بن مسلمة الثقفي	٢٥٢	٢٥١

خطب ولاة الأمويين وقوادهم

خطب زياد بن أبيه

خطبته بفارس وقد كتب إليه معاوية يتهنئه	٢٥٣	٢٥٢
» وقد بعث معاوية إليه الفيرة بن شعبة يستقدمه	٢٥٤	٢٥٣
» وقد استلحقه معاوية	٢٥٥	٢٥٤
» حين ولي البصرة (وهي البتراء)	٢٥٧	٢٥٥
» بالكوفة وقد ضمت إليه	٢٦١	٢٥٦

خطبة أخرى له بالكوفة	٢٥٧	٢٦٢
خطبته بالكوفة يتهدد الشيعة	٢٥٨	٢٦٢
خطبة أخرى له	٢٥٩	٢٦٣
» »	٢٦٠	٢٦٣
وصية لزياد	٢٦١	٢٦٣
ما كان يقوله لمن ولاء عملا	٢٦٢	٢٦٤
خطبة الضحاك بن قيس الفهري بالكوفة	٢٦٣	٢٦٤
خطبته عند موت معاوية	٢٦٤	٢٦٦
خطبة النعمان بن بشير بالكوفة	٢٦٥	٢٦٦
» عبيد الله بن زياد بن أيه بين يدي معاوية	٢٦٦	٢٦٧
رد معاوية على ابن زياد	٢٦٧	٢٦٩
مقال يزيد بن معاوية	٢٦٨	٢٧١
وصية المهلب بن أبي صفرة لأبنائه	٢٦٩	٢٧٢
خطب الحجاج بن يوسف الثقفي		
خطبته بمكة بعد مقتل ابن الزبير	٢٧٠	٢٧٣
» حين ولى المراق	٢٧١	٢٧٤
» وقد سمع تكبيرا في السوق	٢٧٢	٢٧٧
» وقد قدم البصرة	٢٧٣	٢٧٨
خطبته بعد وقعة دير الجماجم	٢٧٤	٢٧٩
خطبة أخرى له في أهل الكوفة وأهل الشام	٢٧٥	٢٨١
» له بالبصرة	٢٧٦	٢٨٢
» أخرى له بالبصرة	٢٧٧	٢٨٢

الخطبة أو الوصية

رقم
الخطبة

٢٨٣ ٢٧٨ خطبته في أهل العراق يمارحهم بالكرامية

٢٨٤ ٢٧٩ خطبة أخرى

٢٨٤ ٢٨٠ خطبته لما مات عبد الملك بن مروان

٢٨٥ ٢٨١ » حين أراد الحج

٢٨٥ ٢٨٢ » لما أصيب بولده وأخيه محمد في يوم واحد

٢٨٦ ٢٨٣ » وقد أرجف أهل العراق بموته

٢٨٧ ٢٨٤ خطبة له في الوعظ

٢٨٨ ٢٨٥ » أخرى

٢٨٨ » » ٢٨٦

٢٨٩ » » ٢٨٧

٢٨٩ » » ٢٨٨

خطب قتيبة بن مسلم الباهلي

٢٩٠ ٢٨٩ خطبته يحث على الجهاد وقد تهيأ لغزو طخارستان

٢٩١ ٢٩٠ » وقد تهيأ لغزو بلاد السند

٢٩٢ ٢٩١ » وقد سارت إليه جيوش الشاش وفرغانة

٢٩٣ ٢٩٢ » حين دعا إلى خلع سليمان بن عبد الملك

٢٩٥ ٢٩٣ خطبة أخرى

٢٩٦ » » ٢٩٤

٢٩٦ » » ٢٩٥

٢٩٧ ٢٩٦ كلمات حكيمية لقتيبة بن مسلم

٢٩٩ ٢٩٧ خطبة طارق بن زياد في فتح الأندلس

٣٠١ ٢٩٨ نص آخر لخطبة طارق

- ٣٠٢ ٢٩٩ خطبة عثمان بن حيان المرّي
٣٠٤ ٣٠٠ وصية يزيد بن الملب لابنه مخلد
٣٠٥ ٣٠١ نصيحة عمر بن هيرة لبعض بني

✓ خطب خالد بن عبد الله القسري

- ٣٠٦ ٣٠٢ خطبته بمكة يدعو إلى الطاعة ولزوم الجماعة
٣٠٧ ٣٠٣ خطبة أخرى يشيد فيها بفضل الوليد
٣٠٧ ٣٠٤ خطبته بمكة في الحجاج
٣٠٨ ٣٠٥ » في الحث على مكارم الأخلاق
٣٠٨ ٣٠٦ » يوم عيد
٣٠٩ ٣٠٧ قوله وقد سقطت جرادة على ثوبه
٣٠٩ ٣٠٨ خطبة يوسف بن عمر الثقفي

خطب الفتن والأحداث

فتنة المدينة ووقعة الحرة

- ٣١٠ ٣٠٩ خطبة عبد الله بن حنظلة الأنصاري
٣١١ ٣١٠ » مسلم بن عقبة يؤنب أهل الشام
٣١١ ٣١١ » مسلم يحرضهم
٣١٢ ٣١٢ » ابن حنظلة يحرض أصحابه

اضطراب الأمر بعد موت يزيد

- ٣١٣ ٣١٣ خطبة عبيد الله بن زياد بن أبيه
٣١٤ ٣١٤ » أخرى له
٣١٥ ٣١٥ » عمرو بن حريث
٣١٥ ٣١٦ » عمرو بن معبج

خطبة الأحف بن قيس	٣١٦	٣١٧
روح بن زنباع الجنابي بالمدينة	٣١٨	٣١٧
خطبته يؤيد مبايعة مروان بن الحكم بالخلافة	٣١٩	٣١٩
خطبة النضبان بن القعمرى يحض على قتل الحجاج	٣٢٠	٣٢٠
فتنة ابن الأشعث		
خطبة ابن الأشعث بسجستان	٣٢١	٣٢١
خطبته يعرض على الجند رأى الحجاج	٣٢٢	٣٢٢
خطبة عامر بن واثلة الكنانى	٣٢٣	٣٢٣
عبد المؤمن بن شعث بن ربيع	٣٢٤	٣٢٣
ابن الأشعث بالمربد	٣٢٥	٣٢٤
خطبته حين أراد عبد الملك أن يترضى أهل العراق	٣٢٦	٣٢٤
عامر الشعبي والحجاج	٣٢٧	٣٢٥
أيوب بن القرية والحجاج	٣٢٨	٣٢٦
كلمة لابن القرية	٣٢٩	٣٣٠

فتنة يزيد بن المهلب

خطبة أيوب بن سليمان بن عبد الملك	٣٣٠	٣٣١
يزيد بين يدي الوليد	٣٣١	٣٣٢
مخلد بن يزيد بن المهلب بين يدي عمر بن عبد العزيز	٣٣٢	٣٣٢
يزيد بن المهلب يحرض أصحابه على القتال	٣٣٣	٣٣٣
أخرى له	٣٣٤	٣٣٤
» » »	٣٣٥	٣٣٥
الحسن البصرى يثبط الناس عن يزيد بن المهلب	٣٣٦	٣٣٥
مروان بن المهلب	٣٣٧	٣٣٦

خطب الأحنف بن قيس التميمي

٣٣٧	٣٣٨	الأحنف ومعاوية
٣٣٨	٣٣٩	» » أيضًا
٣٣٩	٣٤٠	قوله في مدح الولد
٣٤٠	٣٤١	شفاعته لدى مصعب بن الزبير
٣٤٠	٣٤٢	نصيحته لقومه
٣٤٠	٣٤٣	خطبته في قوم كانوا عنده
٣٤١	٣٤٤	كلمات حكيمة للأحنف
٣٤٣	٣٤٥	صفية بنت هشام النخعية تؤمن بالأحنف

خطب الوفود

وما أتى بحضرة الخلفاء والأمراء والرؤساء

الوافدون على معاوية

٣٤٤	٣٤٦	وفود الأحنف بن قيس والتمر بن قطبة على معاوية
٣٤٥	٣٤٧	وقد أهل العراق على معاوية ، وفيهم الأحنف
٣٤٥	٣٤٨	خطبة زياد
٣٤٦	٣٤٩	» معاوية
٣٤٦	٣٥٠	» الأحنف بن قيس
٣٤٦	٣٥١	وقد العراق على معاوية وفيهم دغفل النسابية
٣٥٠	٣٥٢	دغفل وجماعة من الأنصار
٣٥٠	٣٥٣	وقد أهل العراق على معاوية وفيهم صمصمة بن صوحان
٣٥٢	٣٥٤	وفود العرب ومعاوية
٣٥٣	٣٥٥	» عبد العزيز بن زرارعة على معاوية

٣٥٤	٣٥٦	وفود زيد بن منية على معاوية
٣٥٥	٣٥٧	» ضرار بن حزمة السدائي على معاوية
		الوافدات على معاوية
٣٥٦	٣٥٨	وفود سودة بنت عمارة على معاوية
٣٥٩	٣٥٩	» أم سنان بنت خيثمة على معاوية
٣٦١	٣٦٠	» بكارة الهلالية على معاوية
٣٦٣	٣٦١	» أروى بنت الحارث بن عبد المطلب على معاوية
٣٦٦	٣٦٢	أم البراء بنت صفوان ومعاوية
٣٦٧	٣٦٣	دارمية الحجونية ومعاوية
٣٦٩	٣٦٤	شداد بن أوس ومعاوية
٣٧٠	٣٦٥	معاوية ورجل من أهل سبأ
٣٧١	٣٦٦	حديث معاوية مع عبد الله بن عبد الحजर بن عبد اللذان
٣٧٢	٣٦٧	حديث الخيار بن أوفى التهدي مع معاوية
٣٧٣	٣٦٨	حديث عرابة بن أوس بن حارثة مع معاوية
٣٧٣	٣٦٩	سعيد بن عثمان بن عفان ومعاوية
٣٧٤	٣٧٠	مصقلة بن هيرة ومعاوية
٣٧٥	٣٧١	روح بن زنباع ومعاوية
٣٧٦	٣٧٢	مخاصمة أبي الأسود السؤلى وامراته بين يدي زياد بن أبيه
٣٧٧	٣٧٣	صورة أخرى
٣٨٠	٣٧٤	وفد أهل البصرة إلى عبد الله بن الزبير
٣٨١	٣٧٥	كلام خطيب الأزدي بين يدي عبد الملك بن مروان
٣٨١	٣٧٦	سؤال عبد الملك للحجاج وما أجابه به
٣٨٢	٣٧٧	وفود الحجاج بإبراهيم بن محمد بن طامعة على عبد الملك بن مروان

الخطبة أو الوصية

رقم
الصفحة

٣٨٤	٢٧٨	قدوم الحجاج مع أشرف المصريين على عبد الملك
٣٨٦	٢٧٩	وفود مالك بن بشير على الحجاج بقتل الأزارقة
٣٨٦	٣٨٠	كعب الأشقرى على الحجاج
٣٨٨	٣٨١	سليمان بن سلكة والحجاج
٣٨٩	٣٨٢	جامع الحارثي والحجاج
٣٩٠	٣٨٣	ليلي الأخيلية والحجاج
٣٩٥	٣٨٤	الفضبان بن القيسري والحجاج
٣٩٧	٣٨٥	ابن القزعة يمدد مساوي للزاح
٣٩٨	٣٨٦	يزيد بن مسلم وسليمان بن عبد الملك
٣٩٩	٣٨٧	وفود العراق على سليمان بن عبد الملك
٤٠٠	٣٨٨	كلام أبي حازم لسليمان بن عبد الملك
٤٠١	٣٨٩	أبو حازم وسليمان بن عبد الملك أيضا
٤٠٢	٣٩٠	وفد أهل الحجاز عند عمر بن عبد العزيز
٤٠٢	٣٩١	خالد بن صفوان يعزى عمر بن عبد العزيز ويهينه
٤٠٣	٣٩٢	خطبة عبد الله بن الأهم
٤٠٥	٣٩٣	مقام محمد بن كعب القرظي بين يدي عمر بن عبد العزيز
٤٠٥	٣٩٤	وفد أهل الحجاز على هشام بن عبد الملك
٤٠٧	٣٩٥	مقام خالد بن صفوان بين يدي هشام
٤٠٩	٣٩٦	خالد بن صفوان يصف جريرا والفرزدق والأخطل
٤١٠	٣٩٧	خالد بن صفوان وبلال بن أبي بردة
٤١١	٣٩٨	خطبة الكهيت بن زيد بين يدي هشام يستعطفه
٤١٦	٣٩٩	مخاصمة عدى بن أرتاة لامراته عند شرح القاضي
٤١٦	٤٠٠	كلمة لعمر بن عتبة بن أبي سفيان
٤١٧	٤٠١	رجل يمدح خالد بن عبد الله القسري

خطب الخوارج وما يتصل بها	٤١٧
خطبة حيان بن ظبيان السلمي	٤١٧ ٤٠٢
اتमार الخوارج	٤١٩
مقال المستورد بن علفة	٤١٩ ٤٠٣
» حيان بن ظبيان	٤١٩ ٤٠٤
» معاذ بن جوين	٤٢٠ ٤٠٥
خطبة للمغيرة بن شعبه	٤٢٠ ٤٠٦
» صمصمة بن صوحان	٤٢١ ٤٠٧
» المستورد بن علفة	٤٢٣ ٤٠٨
» معقل بن قيس الرياحي	٤٢٤ ٤٠٩
كلمات حكيم للمستورد	٤٢٤ ٤١٠
اتमार الخوارج ثانية	٤٢٥
خطبة حيان بن ظبيان	٤٢٥ ٤١١
» معاذ بن جوين	٤٢٥ ٤١٢
رد حيان بن ظبيان	٤٢٦ ٤١٣
مقال عتريس بن عرقوب	٤٢٦ ٤١٤
رد حيان	٤٢٧ ٤١٥
خطبة حيان	٤٢٧ ٤١٦
» مسلم بن عيسى حين خرج لقتال الأزارقة	٤٢٨ ٤١٧
خطب المهلب بن أبي صفرة	
خطبته في حث جنده على قتال الأزارقة	٤٢٩ ٤١٨
خطبة أخرى له في جنده	٤٣٠ ٤١٩

٤٣٠	٤٢٠	نص آخر
٤٣١	٤٢١	خطبته في جنده وقد استخلف عليهم ابنه الفيرة
٤٣١	٤٢٢	خطبة الزبير بن علي في الأزارقة
٤٣٣	٤٢٣	» عتاب بن ورقاء اثر ياحي وقد طال عليه الحصار
٤٣٤	٤٢٤	نصيحة عرم المدوي لخالد بن عبد الله
٤٣٥	٤٢٥	خطبة قطري بن العجاء
٤٣٩	٤٢٦	» عبد ربه الصغير
٤٤٠	٤٢٧	» صالح بن مسرح
٤٤٢	٤٢٨	» أخرى له
٤٤٢	٤٢٩	» »
٤٤٣	٤٣٠	» زائدة بن قدامة
٤٤٣	٤٣١	» الحجاج بن يوسف
٤٤٤	٤٣٢	» أخرى للحجاج
٤٤٤	٤٣٣	» شبيب بن يزيد الشيباني
٤٤٥	٤٣٤	» عتاب بن ورقاء
٤٤٦	٤٣٥	» الحجاج
٤٤٦	٤٣٦	» عبد الله بن يحيى الإباضي
		خطب أبي حمزة الشاري
٤٤٨	٤٣٧	خطبته حين دخل المدينة
٤٤٩	٤٣٨	خطبة أخرى له
٤٤٩	٤٣٩	خطبته وقد بلغه أن أهل المدينة يسيئون أصحابه
٤٥٧	٤٤٠	خطبة أخرى
٤٥٩	٤٤١	خطبته في سب أهل المدينة وتقريرهم

٤٦١	٤٤٢	خطبة أخرى
٤٦٢	٤٤٣	خطبته حين خرج من المدينة
٤٦٣	٤٤٤	عمران بن حطان والحجاج

الخطب الوعظية والوصايا

٤٦٣	٤٤٥	خطبة سحبان بن زفر الوائلي
٤٦٤	٤٤٦	» معاوية
٤٦٤	٤٤٧	» عبد الملك بن مروان
٤٦٥	٤٤٨	» لمعمر بن عبد العزيز

كلام الحسن البصري

٤٦٥	٤٤٩	خطبة له
٤٦٨	٤٥٠	» أخرى
٤٦٨	٤٥١	» »
٤٦٩	٤٥٢	» »
٤٦٩	٤٥٣	» »
٤٧٠	٤٥٤	» »
٤٧٠	٤٥٥	» »
٤٧١	٤٥٦	» »
٤٧١	٤٥٧	مقام الحسن البصري عند عمر بن هبيرة
٤٧٢	٤٥٨	مقام الحسن البصري عند النضر بن عمرو
٤٧٤	٤٥٩	مقام آخر له عند النضر
٤٧٥	٤٦٠	مقال الحسن حين رأى دار الحجاج التي بناها بواسط
٤٧٦	٤٦١	صفة الامام العادل
٤٧٨	٤٦٢	موقفه لمعمر بن عبد العزيز

الخطبة أو الوصية

رقم
الصفحة
رقم
الخطبة

٤٧٩	٤٦٣	موعظة لعمر بن عبد العزيز أيضاً
٤٨٠	٤٦٤	كلمات حكيمية للحسن البصري
٤٨٢	٤٦٥	خطبة واصل بن عطاء
٤٨٤	٤٦٦	وصية عبد الملك بن مروان لبني أمية
٤٨٥	٤٦٧	» عبد الله بن شداد لابنه
٤٨٨	٤٦٨	» أسماء بن خارجة لابنته
٤٨٩	٤٦٩	رجل ينصح لمشام بن عبد الملك
٤٨٩	٤٧٠	وصية عبد الحميد بن يحيى الكاتب للكتاب

الصراع بين الأموية والعباسية

٤٩٥	٤٧١	خطبة لخطبة بن شبيب الطائي
٤٩٦	٤٧٢	» أخرى له

تتمة في خطب الحجاج

٤٩٧	٤٧٣	خطبته بعد قتل ابن الزبير
-----	-----	--------------------------



فهرس أعلام الخطباء

مرتب بترتيب الحروف الهجائية

مع إتباع اسم كل خطيب بأرقام الصفحات التي وردت فيها خطبه

- أ -

إبراهيم بن الأشتر ص ٧٥

إبراهيم بن محمد بن طلحة ٥٨ - ٣٨٢

أبو الأ-ود المولى ٣٧٦

أبو بكر المنلى ٣٨٥

أبو حازم الأعرج ٤٠٠ - ٤٠١

أبو حاضر الأسيدى ٣٨٠

أبو حمزة الشارى ٤٤٨ - ٤٤٩ - ٤٥٠

٤٥٧ - ٤٥٩ - ٤٦١ - ٤٦٢

أبو صخر المنلى ١٦٣

الأحنف بن قيس ٢٢٩ - ٢٣٠ - ٣١٦

٣٣٧ - ٣٣٨ - ٣٣٩ - ٣٤٠ - ٣٤١

٣٤٤ - ٣٤٥ - ٣٤٦ - ٣٨٥

أروى بنت الحارث بن عبد اللط ٣٦٣

أسماء بن خارجة ٤٨٨

أم البراء بنت صفوان ٣٦٦

أم ستان بنت خيشمة ٣٥٩

السيلة أم كثوم بنت علي رضى الله عنها ١٢٤

أيوب بن سليمان بن عبد الملك ٣٣١

أيوب بن القرية ٣٢٦ - ٣٣٠ - ٣٩٧

- ب -

بكرة الملاية ٣٦١

بلال بن أبي بردة ٤٠٠

- ث -

نور بن معن السلمى ٢٢٦

- ج -

جامع الحارثى ٣٨٩

- ح -

الحجاج بن يوسف الثقفى ٢٧٣ - ٢٧٤ -

٢٧٧ - ٢٧٨ - ٢٧٩ - ٢٨١ - ٢٨٢

٢٨٣ - ٢٨٤ - ٢٨٥ - ٢٨٦ - ٢٨٧

٢٨٨ - ٢٨٩ - ٣٨٥ - ٤٤٣ - ٤٤٤

٤٩٧ - ٤٩٦

الحرب بن يزيد ٤٨

الحسن البصرى ٣٣٥ - ٤٦٥ - ٤٦٨

٤٦٩ - ٤٧٠ - ٤٧١ - ٤٧٢ - ٤٧٤

٤٧٥ - ٤٧٦ - ٤٧٨ - ٤٧٩ - ٤٨٠

روح بن زنباع ٣١٧ - ٣١٩ - ٣٧٥

- ز -

زائدة بن قدامة ٤٤٣

الزبير بن طي ٤٣١

زهير بن القين البجلي ٣٩ - ٤٦

زياد بن أبيه ٩٦ - ٢٥٣ - ٢٥٤ - ٢٥٥

٢٥٧ - ٢٦١ - ٢٦٢ - ٢٦٣ - ٢٦٤ - ٣٤٥

زيد بن منية ٣٥٤

الميدة زينب بنت علي رضي الله عنها ١٢٦

- س -

السائب بن مالك ٦٩

سحبان بن زفر ٤٦٣

سعد بن حذيفة بن اليمان ٥٤

سعيد بن العاص ٢١٣

سعيد بن عثمان بن عفان ٣٧٣

سليك بن السلكة ٣٨٨

سليمان بن صرد ٨ - ٥٢ - ٦٠ - ٦١ - ٦٢

٦٣ - ٦٤

سليمان بن عبد لالك ١٨٨

سودة بنت عمارة ٣٥٦

- ش -

شبيب بن يزيد الشيباني ٤٤٤

شداد بن أوس الطائي ٣٦٩

الحسن بن علي رضي الله عنه ١ - ٢ -

٤ - ٥ - ٦ - ٨ - ١٠ - ١٢ - ١٦ -

١١٩ - ١٢٠

الحسين بن علي رضي الله عنه ٣٨ - ٣٩ -

٤٠ - ٤١ - ٤٣ - ٤٤ - ١٢٩ - ٢٤٢

حيان بن ظبيان ٤١٧ - ٤١٩ - ٤٢٥ -

٤٢٦ - ٤٢٧

- خ -

خالد بن سعد بن قنيل ٥٣

خالد بن صفوان ٣٨٤ - ٣٨٥ - ٤٠٢ -

٤٠٧ - ٤٠٩ - ٤١٠

خالد بن عبد الله بن أسيد ٢٢٠

خالد بن عبد الله القسري ٣٠٦ - ٣٠٧ -

٣٠٨ - ٣٠٩

خالد بن يزيد ٢١٩

الخيار بن أوفى التهدي ٣٧٢

- د -

دارمية الحجوينة ٣٦٧

دغل بن حنظلة ٣٤٦ - ٣٥٠ -

- ذ -

ذكوان ١٤٨

- ر -

رفاعة بن شداد ٥١

شرح القاضي ٤١٦

- ص -

صالح بن مسريح ٤٤٠ - ٤٤٢

صغير بن حذيفة بن هلال ٦٠

صمصمة بن صوحان ١٣٦ - ١٣٧ - ١٣٩

١٤٤ - ٣٥٠ - ٤٢١

صفية بنت هشام المقرية ٣٤٣

- ض -

الضحاك بن قيس ٢٢٤ - ٢٢٩ - ٢٦٤ - ٢٦٦

ضرار بن حمزة الصدائي ٣٥٥

- ط -

طارق بن زياد ٢٩٩ - ٣٠١

- ع -

عابس بن أبي شبيب ٢٩

عامر الشعبي ٣٢٥

عامر بن وائلة الكناني ٣٢٣

عبد الحميد بن يحيى ٤٨٩

عبد ربه الصغير ٤٣٩

عبد الرحمن بن أبي بكر ٢٣٩

عبد الرحمن بن أم الحكم ٩٧

عبد الرحمن بن شريح ٦٩ - ٧٠ - ٧٢

عبد الرحمن بن عثمان ٢٢٥ - ٢٣١

عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ٣٢١ -

٣٢٢ - ٣٢٤

عبد العزيز بن زرارة ٣٥٣

عبد العزيز بن مروان ٣١٨

عبد الله بن الأعم ٤٠٣

عبد الله بن جعفر ١١٧ - ٢٣٤

عبد الله بن الحنظل ٥٤

عبد الله بن حنظلة الأنصاري ٣١٠ - ٣١٢

عبد الله بن الزبير ١٠٤ - ١٠٩ - ١١٣

١٥٠ - ١٥٤ - ١٥٥ - ١٥٨ - ١٥٩

١٦٥ - ١٦٦ - ١٦٧ - ١٦٨ - ١٧٠

٢٣٥ - ٢٤٨

عبد الله بن حمد ٦١

عبد الله بن شداد ٤٨٥

عبد الله بن عباس ٣٤ - ٨٣ - ٨٧ - ٨٨

٨٩ - ٩١ - ٩٢ - ٩٣ - ٩٥ - ٩٦

٩٧ - ٩٨ - ٩٩ - ١٠٠ - ١٠١ - ١٠٣

١٠٤ - ١١٠ - ١١٤ - ٢٣٤

عبد الله بن عبد الحजर ٣٧١

عبد الله بن عصام ٢٢٧

عبد الله بن عمر ٢٣٥ - ٢٤٥

عبد الله بن الكواء ١٣٦

عبد الله بن مازن ٢٥١

عبد الله بن مسعدة ٢٢٧

- عقيل بن أبي طالب ١٢١
عمر بن عبد الرحمن ٣٧
عمر بن عبد العزيز ١٨٩ - ١٩٠ - ١٩١ -
١٩٢ - ١٩٣ - ١٩٤ - ١٩٥ - ١٩٦ -
١٩٧ - ١٩٨ - ٢٠٠ - ٢٠١ - ٢٠٥ - ٤٦٥
عمر بن هيرة ٣٠٥
عمر بن حريث ٣١٥
عمر بن سعيد الأشدق
٢١٥ - ٢١٦ - ٢١٧ - ٢١٨ - ٢٢٨
عمر بن العاص ١٤ - ٩٣ - ١٠٢ -
١٠٣ - ١٣٠ - ١٥٥
عمر بن عتبة بن أبي سفيان ٢٢١ - ٤١٦
عمر بن مسمع ٤١٥
عمران بن حطان ٤٦٣
- غ -
الغضبان بن القيمثري ٣٢٠ - ٣٩٥
غيلان بن ملحمة الثقفي ٢٥٢
- ق -
قنينة بن مسلم ٢٩٠ - ٢٩١ - ٢٩٢ -
٢٩٣ - ٢٩٥ - ٢٩٦ - ٢٩٧
قطبة بن شبيب الطائي ٤٩٥ - ٤٩٦
قطري بن البجاعة ٤٣٥
قيس بن سعد بن عبادة ١٣٥
عبد الله بن مطيع ٦٨ - ٧٤ - ٧٥
عبد الله بن هاشم ١٣٠ - ١٣٤
عبد الله بن همام السلولي ٢٥٠
عبد الله بن وال التيمي ٥٩
عبد الله بن يحيى الاباضي ٤٤٦
عبد الله بن يزيد الأنصاري ٥٧ - ٦٢
عبد المؤمن بن شبت بن ربيعي ٣٢٣
عبد الملك بن مروان ٦٥ - ١٨٠ - ١٨١ -
١٨٢ - ١٨٤ - ١٨٥ - ١٨٦ - ١٨٧ -
٢٢٢ - ٤٦٤ - ٤٨٤
عبيد الله بن زياد بن أبيه ٣١ - ٣٢ -
٣٣ - ٢٦٧ - ٣١٣ - ٣١٤
عبيد الله بن عبد الله المرسي ٥٥
عتاب بن ورقاء الرياحي ٤٣٣ - ٤٤٥
عتبة بن أبي سفيان ١٥ - ٢٠٨ - ٢٠٩ -
٢١٠ - ٢١١ - ٢١٢
عتريس بن عرقوب ٤٢٦
عثمان بن حيان المرسي ٣٠٢
العجاج بن روبة ٣٨١
عدى بن حاتم ٣
عرابة بن أوس بن حارثة ٣٧٣
عزم المدوي ٤٣٤
عطاء بن أبي سفيان ٢٥١

- ك -

- كثير بن شهاب ٣٢
كعب بن مدان الأشقرى ٣٨٦
الكهيت بن زيد الأسدى ٤١١

- ل -

- للى الأخيلية ٣٩٠

- م -

- مالك بن بشير ٣٨٦
محمد بن أبى الجهم المدوى ٤٠٥
محمد الباقر ١٤٧
محمد بن الحنفية ٢٥ - ٢٨ - ٧١ - ٨١
محمد بن عمير بن عطارد ٣٨٤
محمد بن كعب القرظى ٤٠٥
المختار بن أبى عبيد الثقفى ٦٦ - ٦٧ -

- ٧١ - ٧٣ - ٧٦ - ٧٧ - ٧٩ - ٨٠

- مخلد بن يزيد بن المهلب ٣٣٢

- مروان بن الحكم ٩٤ - ٣٣٧ - ٣٣٩

- مروان بن المهلب ٣٣٦

- المستورد بن علفة ٤١٩ - ٤٢٣

- مسلم بن عيسى ٤٢٨

- مسلم بن عقبة ٣١١

- المسيب بن نجدة ٥٠ - ٥٨

- مصعب بن الزبير ١٧١

مصقلة بن هبيرة ٣٧٤

- معاذ بن جوين ٤٢٠ - ٤٢٥

- معاوية بن أبى سفيان ٧ - ٨٦ - ٨٧ -

- ٨٩ - ٩٠ - ١٠٠ - ١٣٥ - ١٤٩ -

- ١٥١ - ١٥٤ - ١٥٥ - ١٧٢ - ١٧٣ -

- ١٧٤ - ١٧٥ - ١٧٧ - ٢٢١ - ٢٢٢ -

- ٢٣١ - ٢٣٣ - ٢٣٦ - ٢٣٨ - ٢٤٠ -

- ٢٤٤ - ٢٤٦ - ٢٤٩ - ٢٦٩ - ٣٤٦ -

- ٣٥٢ - ٤٦٤

- معاوية بن يزيد ١٨٠

- معقل بن قيس ٤٢٤

- المغيرة بن شعبة ١٥ - ٩٨ - ٤٢٠

- المهلب بن أبى صفرة ٢٧٢ - ٤٢٩ -

- ٤٣٠ - ٤٣١

- ن -

- النعمان بن بشير ٣٠ - ٢٦٦

- و -

- واصل بن عطاء ٤٨٢

- الوايد بن عبد اللك ١٨٨

- الوليد بن عقبة ١٥ - ٢١٧

- ي -

- يزيد بن أبى مسلم ٣٩٨

- يزيد بن أنس الأسدى ٧٤

٣٣٥ - ٣٣٤	يزيد بن معاوية ٩٩ - ١٧٨ - ١٧٩ -
يزيد بن الوليد ٢٠٦	٢٧١ - ٢٠٧
يوسف بن عمر النخعي ٣٠٩	يزيد بن القنق ٢٣٢
تم فهرس أعلام الخطباء	يزيد بن المهلب ٣٠٤ - ٣٣٢ - ٣٣٣ -



